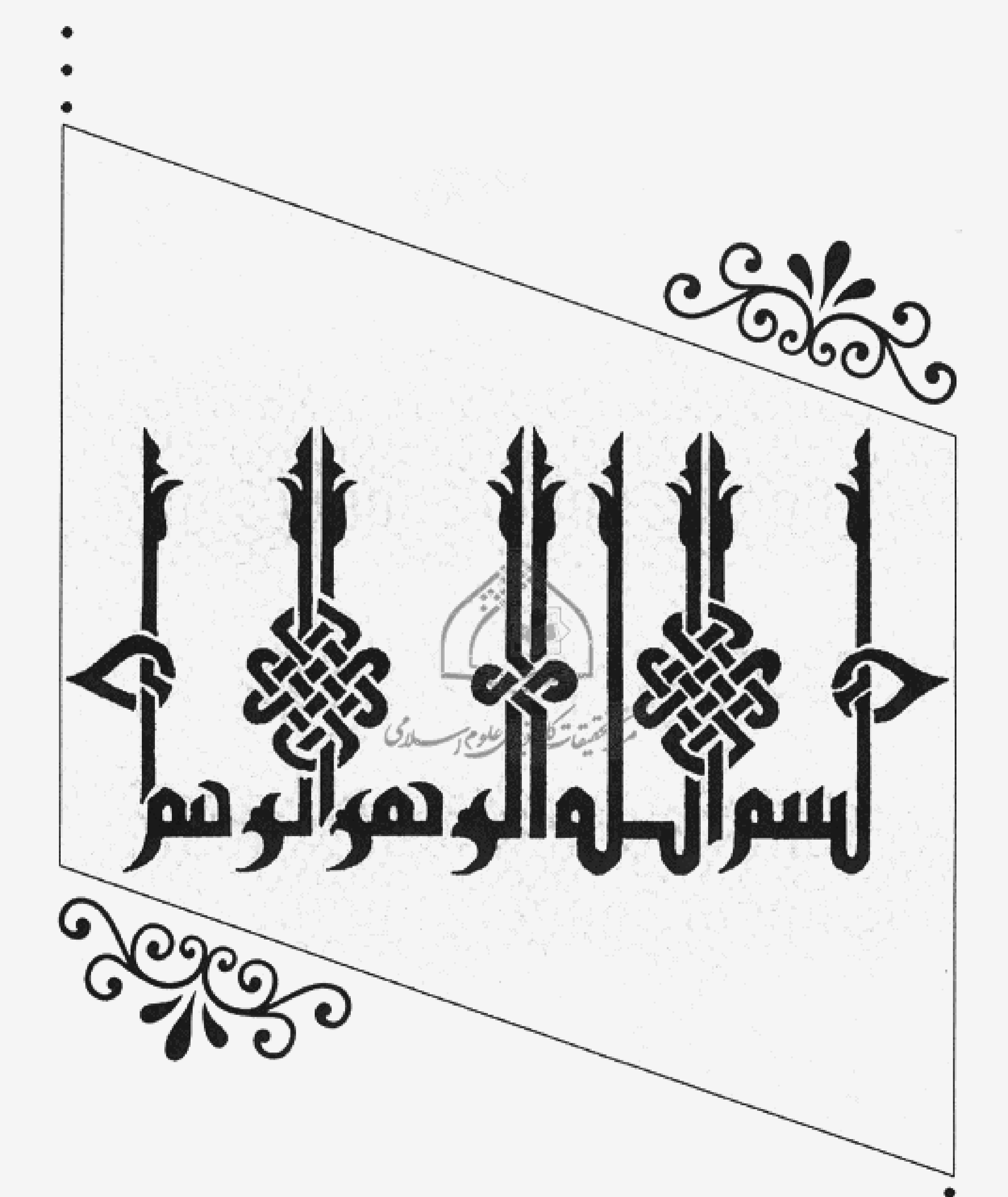
آية الله العظمى مكارم الشيرازي



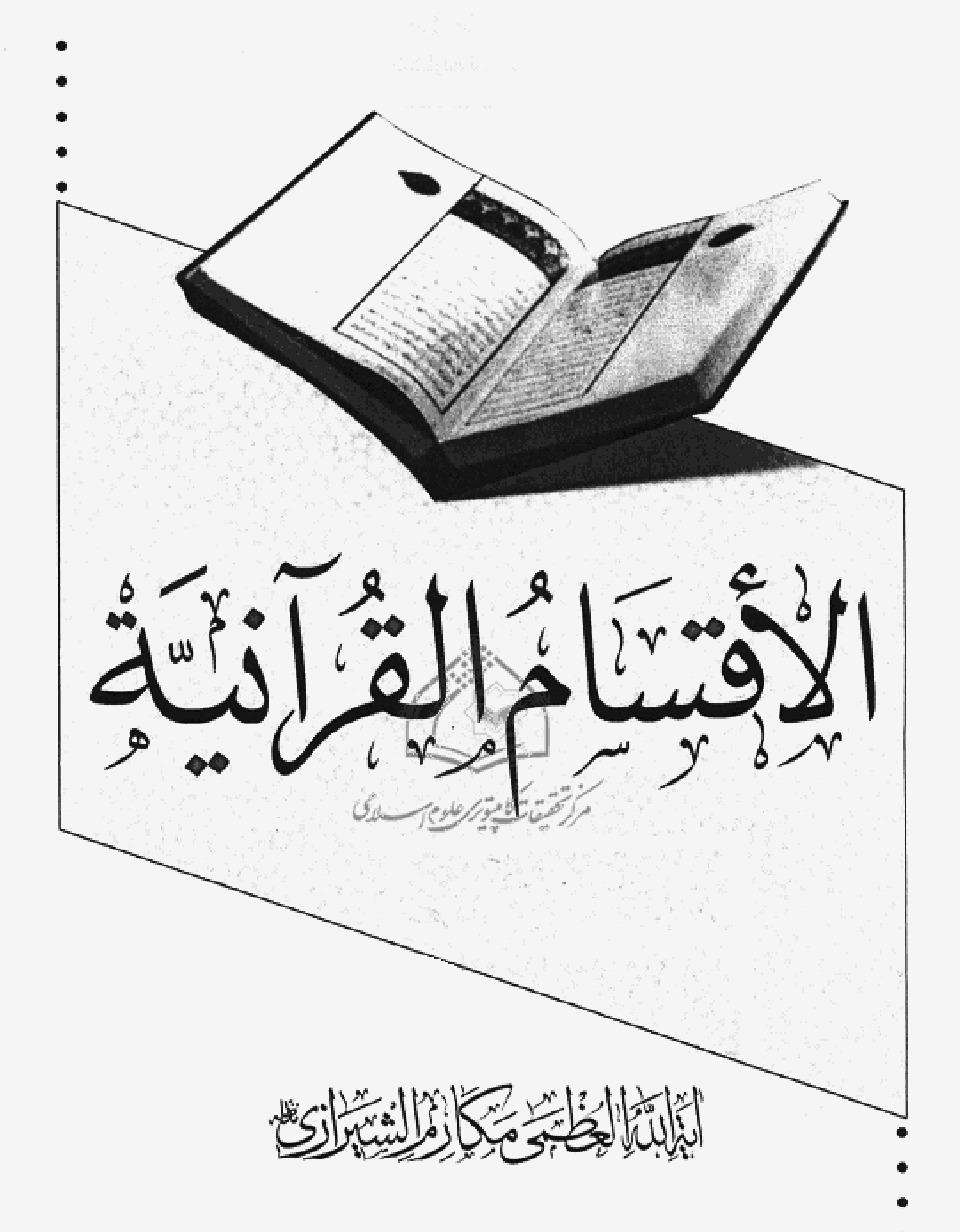
الأقسام القرآنية

إعداد:

ابو القاسم عليان نجادي


بسم الله الرحمن الرحیم


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



الأقسام القرآنية

آية الله العظمى مكارم الشيرازي

إعداد:

ابو القاسم عليان نجادي

فهرستنویسی پیش از انتشار: توسط انتشارات امام علی بن ابی‌طالب علیه السلام.

مکارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ ـ

الاقسام القرآنية / مكارم الشيرازي؛ اعداد ابوالقاسم عليان‌نژادى. ـ قم: دارالنشر الإمام علي بن ابي طالب علیه السلام، ۱۴۳۰ق. = ۱۳۸۷.

۶۰۸ص. ISBN: 978-964-533-072-7

عنوان اصلی: سوگندهای پربار قرآن.

۱. سوگند در قرآن. الف. عليان‌نژادى، ابوالقاسم، ۱۳۴۳ـ . گردآورنده. ب. عنوان

BP ۸۷ / ۷ م ۹۰۴۳ س ۱۳۸۷ ۲۹۷ / ۱۵۹



الأقسام القرآنية

المؤلّف: آية الله العظمى مكارم الشيرازي

إعداد: ابوالقاسم عليان‌نجادي

الكميّة: ۲۰۰۰ نسخة

الطبعة: الاولى

تاريخ النّشر: ۱۴۳۰ هـ.ق

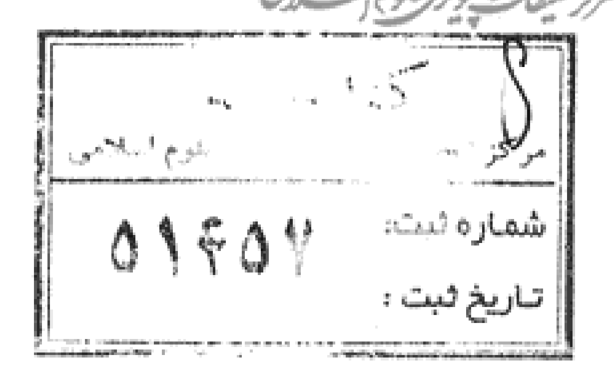
عدد الصّفحات: ۶۰۸ صفحة

حجم الغلاف: الكبير

المطبعة: سليمانزاده

النّاشر: دارالنشر الإمام علي بن أبي طالب علیه السلام

ردمك: ۹۷۸-۹۶۴-۵۳۳-۰۷۲-۷





ايـران ـ قـم ـ شـارع شهـدا ـ فـرع ۲۲
هاتف: ۷۷۳۲۴۷۸-۲۵۱-۹۸++
فكس: ۷۸۴۰۰۹۹-۲۵۱-۹۸++
www.amiralmomeninpub.com

السعر: ۵۰۰۰ تومان

مقدّمة

الفارق بين التفسير الموضوعي والترتيبي:

نشكر الله تعالى على أننا قد أدركنا شهر رمضان مرّة أخرى كيما يتسنى لنا الاهتمام بدراسة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم كما هو الحال في السنوات السابقة، والمقصود بالتفسير الموضوعي استخراج واستنباط مفاهيم ومعطيات تفسيرية من الآيات الشريفة بعد جمعها وإدراجها في إطار موضوع خاص واستنباط معانٍ جديدة منها.

بالرغم من أنّ للتفسير الترتيبي معطيات قيمة، إلّا أنّ النتائج والمعطيات الحاصلة من التفسير الموضوعي أكثر بكثير من النتائج المستخلصة والمستوحاة من التفسير الترتيبي[1].

العمق المعنوي في الأقسام القرآنية:

الموضوع الذي نروم البحث في مطاويه في التفسير الموضوعي ما يتصل باستكناه أبعاد وتفاصيل الأقسام القرآنية ذات المغزى العميق، في هذا الكتاب السماوي للمسلمين، فثمّة ثلاثة وتسعون قسماً في القرآن الكريم موزعة على أربعين سورة مباركة.

---

١. شرح هذه المقدمة في الجزء الأول من التفسير الموضوعي «نفحات القرآن».

تنوّع الأقسام القرآنية:

واللافت أنّ الأقسام القرآنية في غاية التنوع، فقد أقسم الله تعالى في بعض الآيات الشريفة بذاته المقدّسة، وفي موارد أخرى أقسم بالقرآن الكريم، وفي بعضها الآخر أقسم بيوم القيامة، روح الإنسان، الملائكة وصفوفها، وبكلمة: أقسم بالموجودات المقدّسة في عالم الخلقة، كما نرى أنّ العديد من الآيات القرآنية تتضمن قسماً بالكائنات والمخلوقات العظيمة كالشمس، القمر، الليل والنهار، الشفق، الصبح، بلاد مكة المقدّسة، الخيل العاديات التي تغير على الأعداء في ميادين الجهاد وأمثال ذلك، بل هناك أقسام في بعض الآيات القرآنية بالثمار والأطعمة كالتين والزيتون، وعلى أية حال فالأقسام في القرآن الكريم متنوعة جدّاً.

ما قبل البحث:

هناك جملة من الأسئلة المختلفة التي تثار في موضوع الأقسام القرآنية حيث ينبغي التطرق إليها قبل الدخول في أصل الموضوع، منها:

١. لماذا يقسم الله تعالى؟ وهل أنّ الله بحاجة إلى القسم؟

٢. ما هو المقصود بالأقسام الإلهيّة في الآيات الشريفة مورد البحث؟

٣. لماذا أقسم الله تعالى بموارد خاصة والتي أشرنا إلى بعضها آنفاً؟

٤. ما هو المقسم به بالنسبة لهذه الأقسام المذكورة؟

٥. ما هي العلاقة بين القسم والمُقسم به؟ مثلاً عندما يقسم الله تعالى بالشمس وضحاها، والقمر ونوره و... الخ، ثم يطرح مسألة النفس الإنسانية وتزكية الإنسان لها وعملية مجاهدة الأهواء كطريق لبلوغ النجاة والفلاح، فما هي العلاقة بين الشمس أو القمر وبين جهاد النفس وتطهيرها من الشوائب والرذائل النفسانية؟ وهناك بحوث أخرى سنتطرق إليها لاحقاً.

ثمار البحث:

سوف نصل أيّها القاري، الكريم، في نهاية هذه البحوث إلى جملة من المعطيات الفكرية والتفسيرية لهذه البحوث، منها:

أوّلاً: إنّ الأقسام القرآنية تتضمن بحراً زاخراً من المعارف والعلوم والتي تحتاج إلى دراسات معمقة لإماطة اللثام عنها.

ثانياً: إنّ التفسير الموضوعي له نتائج ومكتسبات أكثر من التفسير الترتيبي.

ثالثاً: إنّ القرآن الكريم معجزة خالدة لا يبلى ولا يستهلك ولا يسقط في حصار الزمان ولا تناله يد النسيان والتحريف، بل يبقى غضاً طرياً دائماً بحيث إنّ كل من يقرأه يستوحي منه معارف جديدة ويصطاد جواهر ثمينة.

عظمة القرآن الكريم:

وقبل أن نتطرق لأصل الموضوع، نرى من المناسب أن نتحدث بشكل مختصر عن عظمة هذا الكتاب الكريم المحفوظ من التحريف.

إنّ الإنسان إنّما يستطيع استثمار النعم والمواهب الإلهيّة في واقع الحياة عندما يملك معرفة كافية بها. فلو أعطينا جواهر ثمينة للأطفال فسوف تتحول إلى لعبة لهم ولا يمكنهم الاستفادة منها بشكل سليم، لأنّ الأطفال لا يعلمون بقيمة هذه الجواهر ولا يعرفون شيئاً عنها، ولكن إذا وقعت هذه الجواهر بيد بائع مجوهرات فإنّه سيقوم بالاحتفاظ بها في مكان أمين ويبالغ في المحافظة عليها والاهتمام بها ويسعى لبيعها بأغلى الأثمان، لأنّه يعرفها جيداً ويعرف قيمتها. وقد قرأت في إحدى الصحف القديمة: «أنّ إحدى أثمن جواهر العالم تمّ العثور عليها في أيدي الأطفال، وذلك عندما كان تاجر مجوهرات يمرّ في زقاق وفجأة إنتبه إلى وجود جوهرة ثمينة جدّاً في أيدي الأطفال يلعبون بها فاشتراها منهم بثمن بخس ثم باعها بأغلى الأثمان».

إذا لم نعرف قدر وقيمة عمرنا وشبابنا وصحتنا وسائر النعم والمواهب الإلهيّة التي وهبنا الله تعالى إيّاها مجاناً وبدون ثمن، فسوف لا نتمكن من استثمارها والاستفادة منها بشكل صحيح.

ومن جملة هذه المواهب الإلهيّة علينا، شهر رمضان المبارك الذي يعتبر من الجواهر الثمينة التي ينبغي لنا الاستفادة منها بعد معرفتها، ومن المناسب في هذا الشأن أن نستوحي من الآيات القرآنية ما يرشدنا لأهميّة هذا الشهر الكريم، حيث يقول القرآن الكريم:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ...﴾[1].

إنّ الله تعالى يقرر أهميّة وقيمة شهر رمضان المبارك في هذه الآية بسبب نزول القرآن فيه، ومعنى هذا الكلام أنّ أهميّة وعظمة القرآن إلى درجة أنّه يعطي القيمة والاعتبار للظرف الزماني الذي حلّ فيه، وهو شهر رمضان ويمنحه بُعداً متعالياً وشرفاً سامياً.

ثم تبيّن الآيات الكريمة معطيات القرآن في ثلاث عبارات:

١. هدى للناس؛ ٢. بيّنات من الهدى؛ ٣. والفرقان.

وعندما راجعت تفاسير القرآن لم أجد شرحاً وافياً يبيّن الفرق بين هذه العبارات الثلاث، بل إنني غفلت عن هذا الموضوع في التفسير الأمثل أيضاً، وفي تقديري أنّ الفرق بين هذه الأمور الثلاثة كما يلي:

إنّ القرآن الكريم يتضمن ثلاث مراحل، ففي المرحلة الأولى: (هدىً للناس) حيث يمنح أفراد البشر كافة على اختلاف مشاربهم وثقافاتهم، معارف وعلوم على جميع الصعد والمستويات، وبذلك يقودهم إلى مشارف الهداية ويمنحهم الوضوح

---

١. سورة البقرة، الآية ١٨٥.

في الرؤية (فيما لو امتلكوا القابلية على الهداية) وهذه هي مرحلة الهداية العامة وتستوعب جميع أفراد البشر.

أمّا المرحلة الثانية: (بيّنات من الهدى) فناظرة إلى بعض الأفراد بالخصوص، وهم الذين يملكون رؤية عميقة ونظراً ثاقباً. فالقرآن الكريم يعرض على هذه الطائفة من الناس بيّنات ودلالات واضحة لسلوك الطريق القويم، والتحرك في خط الرسالة والمسؤولية. فالبيّنات من الهدى عبارة عن الشواهد وأشكال الدلالة التي تختص بفئة معينة من الناس.

والمرحلة الثالثة: (الفرقان) ويختص بأخص الخواص، وهم الذين وصلوا إلى مراحل عالية من الإيمان والتقوى وحصلوا بذلك على نورانية وشفافية خاصة بحيث يستطيعون تشخيص الحق من الباطل من موقع الوضوح ولا يسقطون في مهاوي الضلالة ومتاهات الضياع.

هؤلاء وصلوا إلى مرحلة سامية من الكمال المعنوي بحيث إنّهم يستطيعون بنور القرآن تمييز الحق من الباطل في مختلف المسائل الثقافية والسياسية والاعتقادية حتى في حالات تشابك الأمور واختلاط المعالم، فهم يتحركون في مسلك الانفتاح على الله والحق دون أن يواجهوا الضبابية في أفكارهم والتشويش في أذهانهم، والتلوث في أفئدتهم، ويشير القرآن الكريم إلى هذه المرحلة الدقيقة في الآية ٢٩ من سورة الانفال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

وهذا يعني أنّ الله تعالى يجعل لهؤلاء المتقين رؤية خاصّة يستطيعون بواسطتها تمييز عناصر الخير من الشر، والحق من الباطل، والصواب من الخطأ.

إنّ نيل هذه المرتبة من الإيمان وتحصيل الفرقان لا يمثّل مجرّد فرضية وحالة

طارئة يعيشها الإنسان في مشاعره الداخلية، بل إنّ بعض الأشخاص من صحابة النبي الأكرم ﷺ والأئمّة الأطهار عليهم السلام كانوا يعيشون هذه المرتبة والحالة من انكشاف الحقائق وكانوا يرون أهل النار في هذه الدنيا ويتأسفون على مصيرهم السيء.

أجل، بإمكان الإنسان ومن خلال التقوى والإيمان والعمل بالقرآن، الصعود إلى مدارج الكمال الإلهي والسير في آفاق المعنويات والمُثل العليا.

النتيجة، إنّ القرآن الكريم بمثابة ينبوع متدفق ومنهل زلال لا يتسنىٰ لجميع الأفراد التواصل معه والارتواء منه بشكل متساوٍ، بل إنّ كل شخص ينتفع بمعطياته بمقدار استيعابه وسعيه ومعرفته وتفكّره وتقواه وعبوديته لله تعالى، كما أنّ طلّاب الماء عندما يلجون المشرعة فإنّهم يحملون من الماء كل على قدر سعة إنائه، وعلى هذا الأساس فإنّ هذا التفاوت في الاقتباس من منهل الأنوار الإلهيّة لا يعود إلى طبيعة العطاء الإلهي، بل يعود إلينا نحن ومقدار ما يمكننا أن نستلهمه ونستوحيه من المعارف القرآنية.

وصف النبي الأكرم ﷺ للقرآن:

وبعد وصف الله تعالى للقرآن فإنّ أفضل شخص يمكنه رسم ملامح القرآن الكريم بشكل دقيق هو شخص النبي الأكرم ﷺ، وخاصّة إذا كان المخاطب له يتمتع باستيعاب جيد للمعارف الإلهيّة، من هنا نرى أنّ النبي الأكرم ﷺ يخاطب معاذ ويقول:

«يا مَعاذُ إِنْ أَرَدْتَ عَيْشَ السُّعَداءِ وَمِيْتَةَ الشُّهَداءِ وَالنَّجاةَ يَوْمَ الْحَشْرِ وَالأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ وَالنُّورَ يَوْمَ الظُّلُماتِ[1] وَالظِّلَّ يَوْمَ الْحَرُورِ وَالرِّيَّ يَوْمَ الْعَطَشِ وَالْوَزْنَ

١. للمحشر وعرصات القيامة مراحل مختلفة، وتحتاج بعض مراحلها إلى النور والضياء. وفي بعضها الآخر تحتاج ←

يَوْمَ الْخِفَّةِ وَالْهُدىٰ يَوْمَ الضَّلٰالَةِ فَادْرُسِ الْقُرْآنَ».

أي من أجل أن تحصل على جميع هذه الامتيازات والمواهب فعليك أن تـقرأ القرآن من موقع العمق الفكري والايماني، واللافت أنّ النبيﷺ لم يقل: إنّك من أجل تحصيل هذه المقاصد المذكورة عليك بتلاوة القرآن، بل أمره بدراسة القرآن وضرورة البحث في مطاويه بدقّة واستلهام مضامينه والإيمان بها والتحرك لتطبيقها على مستوى العمل والممارسة.

ثم أضاف: «فَإِنَّهُ ذِكْرُ الرَّحْمٰنِ، وَحِرْزٌ مِنَ الشَّيْطٰانِ، وَرُجْحٰانٌ فِي الْمِيزٰانِ»[١].

بمعنى أنّ هذه الامتيازات المهمّة المترتبة على دراسة القرآن (والتي يحصل عليها الإنسان من خلال العمل بالقرآن) تعود إلىٰ أنّ القرآن كلام الله تعالى وأنّه يحفظ الإنسان من فخاخ الشيطان ويصده عن الانزلاق في مهاوي الخطيئة ومتاهات الضلالة ويؤدي إلى رجحان كفة عمله يوم القيامة.

التفكّر والتدبر في مضامين الآيات القرآنية:

النتيجة التي نستوحيها ممّا تقدّم أننا كمؤمنين يجب علينا، وخاصّة في شهر رمضان المبارك الذي يعتبر شهر القرآن على حدّ تعبير القرآن نفسه، أن نفكّر ونتدبر في المعارف الإلهيّة والتعاليم الوحيانية الموجودة في هذا الكتاب السماوي ونسعى لمعالجة آلامنا وأسقامنا وإيجاد الحلول لمشاكلنا بواسطة العمل بهذه التعاليم النورانية وترجمتها على أرض الواقع العملي لنحصل على تلك الامتيازات والمواهب المعنوية الواردة في الحديث النبوي الشريف.

← إلى الظلّ والفيء وقاية من الحرارة المحرقة، وفي بعضها الثالث تحتاج إلى الماء لرفع العطش. فعليه فالعبارات المذكورة غير متناقضة فيما بينها، وناظرة إلى مراحل يوم الحشر ومواقف القيامة.

١. ميزان الحكمة، ح ١٦٤٥٦.

ولكن، وللأسف فإنّ هذا الكتاب العظيم وهذه التوصية الربانية لشفاء جميع أسقام البشرية، قد أضحى غريباً ومظلوماً حتى بين المسلمين أنفسهم، إلى حدٍّ أنّ النبي الأكرمﷺ كما تصرح بذلك الآية الشريفة ٣٠ من سورة الفرقان، يشكو إلى الله تعالى ويقول:

﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾.

فهل هذه الآية الشريفة ناظرة فقط إلى شكوى النبي الأكرمﷺ من المسلمين في يوم القيامة فحسب، أم أنّها تصدق أيضاً على حالة القرآن في هذه الدنيا أيضاً؟

وبالرغم من أنّ بعض المفسرين اختاروا النظرية الأُولى وأنّ هذه الشكوى تختص بيوم القيامة، ولكن في نظري أنّ الرأي الثاني لا يخلو من واقعية.

لو نظرنا إلى مهد نزول القرآن الكريم في شبه الجزيرة العربية، والبلد الذي تطبع فيه معظم نسخ القرآن الكريم الموجودة في العالم، وفيه مطابع ضخمة لهذا الغرض بحيث تبلغ سعتها بسعة مدينة من المدن ويعمل فيها آلاف العمّال والموظفين لطبع القرآن الكريم، وفيه مدارس كثيرة لتحفيظ القرآن الكريم بحيث يتخرج من هذه المدارس والمراكز الدينية الكثير من الأشخاص الحافظين للقرآن الكريم، البلد الذي تشاهد في جميع مساجده الكثيرة وخاصّة في مسجد النبي والمسجد الحرام، رفوفاً مرتبة وكثيرة زاخرة بنسخ القرآن الجميلة وكل من يرد إليها يتناول قرآناً ويستضيء بتلاوته.

ولكن في هذا البلد نفسه، ومع كل هذه المظاهر الجذابة، عندما تنظر إلى برامج القنوات الاذاعية والتلفزيونية تراها مليئة بأشكال الفساد الأخلاقي وإشاعة المنكرات، ترى النساء المتبرجات وأحياناً نصف عراة في برامجهم التلفزيونية، وترى الأفلام الخلاعية الخارجية تكاد تكون هي السائدة في تلك الأجواء وخاصّة في الفضائيات الأجنبية، وعندما تنظر من نافذة الفندق إلى سطوح المنازل

والعمارات ترى غابة من أجهزة الاستقبال والصحون لتلك الفضائيات، فالقرآن يتجلى بكثرة في مظاهر حياتهم، ولكن يندر أن ينعكس على أعمالهم وسلوكياتهم في واقع الحياة والمجتمع، ألا يحق للنبي ﷺ أن يشكو من مثل هؤلاء المسلمين؟

أخيراً تقدّمت إحدى البلدان الإسلامية المجاورة، ومن أجل الانضمام إلى بلدان الاتحاد الأوربي، بطلب حذف قانون عقوبة الزنا، في حين أنّ قرّاء القرآن في هذا البلد كثيرون، ولكنّ التدبر في آياته والعمل بتعاليمه قليل جدّاً.

ينبغي علينا العودة إلى القرآن واستيعاب تعاليمه والاستفادة من نوره بتفعيل عنصر الخير والإيمان في نفوسنا وسلوكياتنا ممّا يحقق للإنسان المسلم مزيداً من التكامل الأخلاقي والمعنوي وحتى لا نكون من جملة الأشخاص الذين يشكو منهم رسول الله ﷺ يوم القيامة.

بعد هذه الإشارة لأهميّة القرآن الكريم وعظمته من خلال المفاهيم القرآنية، الأحاديث النبوية، نشرع بالاجابة عن الأسئلة الخمسة المذكورة في بداية البحث.

١. الحكم الشرعي للقسم

سؤال: ما حكم القسم في نظر القرآن الكريم والروايات الإسلامية؟ وإذا كان هذا العمل غير لائق للإنسان المسلم، فلماذا أقسم الله تعالى وفي موارد كثيرة في القرآن الكريم؟

الجواب: إنّ القسم من أجل الأمور الشخصية، إذا كان كاذباً فهو حرام، ويعد من الذنوب الكبيرة، وإذا كان صادقاً فهو مكروه كراهة شديدة[١].

ولهذا السبب وردت توصيات عديدة في التعاليم والآداب الإسلامية تنهى عن القسم مهما أمكن، وأساس هذا الحكم ما ورد في الآيات القرآنية، ومنها الآية

١. رسالة توضيح المسائل لسماحة آية الله العظمى مكارم الشيرازي، المسألة ٢٣٠٤.

الشريفة ٢٢٤ من سورة البقرة:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

فالآية الشريفة هذه تنهى المسلمين عن القسم حتى في أعمالهم الحسنة وتوصيهم بترك هذا العمل.

وقد ورد في شأن نزول هذه الآية الشريفة أنّه حدث نزاع بين صهر أحد الصحابة وابنته، وهذا الصحابي هو «عبدالله بن رواحة» ـ وقد توسط عبدالله عدّة مرات للصلح بينهما، ولكن في هذه المرّة شعر بالارهاق والتعب من ذلك ـ حيث أقسم أن لا يتدخّل في الإصلاح بين الزوجين. فنزلت الآية تنهى عن هذا اللّون من القسم وتلغي آثاره[1].

لا ينبغي للوالدين أن يتدخلا في جميع شؤون أولادهم ويعرّضوا استقلالهم وشخصيتهم للخطر، ولكن عندما تحدث هناك مشاكل مهمّة في حياتهم بحيث لا يستطيع هؤلاء الأبناء لوحدهم حلّ هذه المشاكل، فلا ينبغي للوالدين أن يقفا موقف المتفرج، بل يجب عليهما مد يد العون لهم وتقديم الحلول لتلك المشاكل في حركة الحياة، على أية حال فقد نزلت هذه الآية بعد قسم عبدالله بن رواحة وعاتبته على ما صدر منه من القسم.

أنحاء القسم:

في سياق الآية ٢٢٥ من سورة البقرة يشير الله تعالى إلى نوعين من أنواع القسم ويقول:

---

١. التفسير الأمثل، ذيل الآية المذكورة، نقلاً عن تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وتفسير القرطبي، ج٣، ص ٩٧.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

وتتحرك هذه الآية الشريفة لتشير إلى نوعين من القسم:

النوع الأول: القسم في حالة اللغو، والمراد منه، أنّ الإنسان تارة يقسم وهو في حالة عفوية بحيث لايفهم ما يقصد بكلامه، فمثل هذا القسم لا اعتبار له، ولا يحاسب الله عليه كما تصرّح الآية الشريفة.

النوع الثاني: القسم في الحالات العادية من موقع الاختيار والإرادة العمدية، فمثل هذا القسم معتبر ويجب العمل على وفقه، وكذلك يحرم اهماله وعدم الالتزام به، بشرط أن لا يكون متعلق القسم عملاً محرماً، من قبيل أن يقسم الإنسان في الظروف العادية وبكامل علمه واختياره أن لا يصل رحمه، فمثل هذا القسم لا اعتبار له، لأنّ القسم وإن كان قد صدر عن علم واختيار وفي حالة عادية، ولكن بما أنّه يتضمن عملاً محرماً فلايجب العمل به، لأنّ صلة الرحم واجبة ولا يمكن ترك هذا الواجب الإلهي بسبب القسم والنذر وأمثالهما.

ولكن إذا أقسم الشخص على أمر معين في الحالات العادية وعن علم واختيار ولم يكن متعلق القسم أمراً سيئاً، فحينئذٍ يجب العمل به، مثلاً أن يقسم بأن يشترك في صلاة الجمعة في كل أسبوع أو يتوجه في كل شهر لزيارة المرقد المقدّس لأحد الأئمّة عليهم السلام أو الأولياء، أو يشترك في صلاة الجماعة وغير ذلك[1].

القسم الكاذب وعقوبته الشديدة:

هنا نكتفي بالإشارة إلى نموذجين من القسم الكاذب وتداعياته كما ورد في

١. فبالإضافة إلى الشرطين المذكورين، هناك شروط أخرى معتبرة في القسم، وقد أشرنا إليها في رسالة توضيح المسائل، فراجع.

القرآن الكريم:

الأوّل: نقرأ في الآية ٧٧ من سورة آل عمران عن جماعة من اليهود المعاصرين للنبي الأكرمﷺ والذين كانوا يستنكفون من اعتناق الإسلام ويصرّون على عنادهم وتمردهم أمام الحق، يقول القرآن الكريم عنهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وهكذا تستعرض هذه الآية الشريفة العقوبات الشديدة على هذه الطائفة من اليهود بسبب عدم العمل بقسمهم وعدم احترامهم لأيمانهم، ومن ذلك:

١ . إنّهم لا نصيب لهم من رحمة الله ولا من نعيم الجنّة، ويحرمون من الجلوس مع أولياء الله في الآخرة **﴿لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ...﴾**.

٢ . إنّهم محرومون من الحديث مع الله تعالى ومن سماع خطابه **﴿لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ...﴾** ويستفاد من هذه الآية الشريفة أنّ الله تعالى يتحدث في الآخرة مع المؤمنين والصالحين، وما أعظم الفخر للإنسان الذي يقع مورد الخطاب الإلهي ويحقق في نفسه اللياقة لكي يكون طرفاً لحديث الله تعالى معه، كما كان الآنبياء في الدنيا كذلك، حيث كلّمهم الله تعالى وأوحى لهم وحدثهم في قرارة نفوسهم، وطبعاً فإنّ هذا الكلام لا يعني أنّ الله تعالى له جسم وحاله حال الإنسان في كونه يمتلك أعضاء وجوارح من عين وأذن ولسان، بل إنّ الله تعالى يتكلّم بأن يخلق الأمواج الصوتية في الفضاء.

٣ . ومضافاً إلى أنّ الله تعالى لا يتحدث مع هذه الطائفة الحانثين للقسم فإنّه لا ينظر إليهم أيضاً ولا يشملهم بلطفه ورحمته **﴿وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ...﴾**.

٤ . والعقوبة الرابعة لهؤلاء الأشخاص أنّ الله تعالى لا يطهّرهم من شوائب المعاصي وأدران الذنوب، **﴿وَلاَ يُزَكِّيهِمْ...﴾**.

٥ . وأخيراً ينتظرهم العذاب الأليم في جهنّم وبئس المصير ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ومع الالتفات إلى هذه العقوبات الشديدة على أصحاب القسم الكاذب، فينبغي علينا مراعاة الدقّة في كلامنا وأعمالنا حتى لا نتلوث بهذا الذنب العظيم.

الثاني: ومن جملة الأشخاص الذين ذكرهم القرآن الكريم بسبب القسم الكاذب، المنافقون، فالقرآن الكريم يتحدث عن هؤلاء بأنّهم:

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

في هذه الآية الشريفة يفضح الله تعالى المنافقين الذين يتحركون من موقع خداع المسلمين بالأقسام الكاذبة ويظهرون أنفسهم بمظهر الصلاح والإيمان، والآية الرابعة من هذه السورة بدورها تحمل في مضمونها تقريعاً شديداً لهم وتقول:

﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

واللافت أنّ هذا التعبير لم يرد في القرآن الكريم سوى مرتين، إحداهما في مورد المنافقين الذين يتخذون من الأقسام الكاذبة وسيلة لخداع الناس وإضلالهم عن سواء السبيل، والأخرى في سورة التوبة في معرض الحديث عن المشركين من اليهود.

وتعكس هاتان الآيتان صورة جلية عن قبح القسم الكاذب وما يترتب عليه من عقوبات أليمة وعواقب وخيمة.

القسم الكاذب في الروايات الإسلامية:

وقد وردت روايات عديدة من أولياء الدين في هذا المجال، ونكتفي باستعراض نماذج منها:

١ . يقول الإمام الصادق عليه السلام لأحد أصحابه ويدعى سدير:

«يا سُدَيْرُ مَنْ حَلَفَ بِاللهِ كاذِباً كَفَرَ، وَمَنْ حَلَفَ بِاللهِ صادِقاً أَثِمَ»[2].

---

١ . سورة المنافقون، الآية ٢.

٢ . وسائل الشيعة، ج ١٦، كتاب الأيمان، باب ١، ح ٦.

والمراد من الكفر في الرواية المذكورة ليس الخروج من الدين، بل المقصود أنّ هذا العمل يعدّ من الذنوب الكبيرة، وعليه فالقسم الكاذب يعتبر من الذنوب الكبيرة.

كما أنّ المقصود من كلمة «إثم» في هذه الرواية ليس هو الذنب والمعصية بل الكراهة الشديدة.

النتيجة أنّ القسم الكاذب يعتبر ذنباً كبيراً والقسم الصادق يكره كراهة شديدة.

٢ . ونقرأ في رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام:

إنّ جماعة من خواص النبي عيسى بن مريم عليه السلام جاءوا إليه وقالوا: يا معلم أرشدنا إلى الصلاح. فقال عيسى عليه السلام:

«إِنَّ مُوسىٰ نَبِيَّ اللهِ أَمَرَكُمْ أَنْ لاٰ تَحْلِفُوا بِاللهِ كاٰذِبِينَ وَ أَنَا آمُرُكُمْ اَنْ لاٰ تَحْلِفُوا بِاللهِ كاٰذِبِينَ وَ لاٰ صاٰدِقِينَ».

النتيجة أنّ الآيات القرآنية وروايات المعصومين عليهم السلام وقفت موقفاً سلبياً جدّاً من القسم الكاذب ونهت عنه بشدّة، واعتبرت القسم الصادق أيضاً مكروهاً.

لزوم ترك القسم الصادق مع الضرر المالي!

كما تقدّم آنفاً فإنّ أولياء الدين أمروا المسلمين بأن لا يقسموا حتى القسم الصادق مهما أمكن، وكانوا يتحركون في سلوكياتهم من موقع الالتزام بهذه المقولة، ويجتنبون القسم حتى إذا اقترن ذلك بضرر مالي كبير.

ونقرأ في رواية عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام أنّ أباه كانت عنده امرأة من الخوارج أظنّه قال: من بني حنيفة، فقال له مولى له، يابن رسول الله إنّ عندك امرأة تبرأ من جدّك، فقضى لأبي أنْ طَلِقْها، فادّعت عليه صداقها، فجاءت إلى أمير المدينة تستعديه، فقال له أمير المدينة: يا علي إمّا أن تحلف وإمّا أنْ تعطيها، فقال لي: يا بني قم فأعطها أربعمائة دينار، فقلت له: يا أبة جعلت فداك ألست محقّاً؟ قال: «بَلىٰ يـا

بُنَيَّ وَلَكنّي أجللتُ اللهَ أنْ أحلِفَ بِهِ يَمين صَبر»[1].

وجاء في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «مـا تَرَكَ عَبدٌ شَـيئاً للهِ عَـزّوجلّ فَفَقَدَهُ»[2].

وعلى ضوء ذلك فمن الجدير بالإنسان اجتناب القسم الصادق أيـضاً حـتى لو تضرّر في ماله، فإنّ الله تعالى سيعوّضه عن هذا الضرر.

ونرىٰ من جهة، هذه التوصية الأخلاقية المهمّة في التعاليم الإسـلامية وسـيرة أولياء الدين في عملهم والتزامهم العملي بهذه التوصية، ومن جهة أخرى نرى سلوك بعض المسلمين الذين يتحركون بعكس هذا الاتجاه ويحلفون بالله أيـماناً مـغلظة لأدنى سبب ولأتفه الموارد، فأين هذا من ذاك؟!

كفّارة القسم:

وينقسم القسم من جهة أخرى إلى قسمين:

الأول: القسم الذي يراد منه إثبات أو نفي ادّعاء خاص أو موضوع معين، كأن يقسم الشخص لإثبات دَينه في ذمّة شخص آخر، ويطلق عليه «اليمين المردودة» أو يقسم الشخص لنفي ادّعاء شخص آخر يتضمن دَيناً في ذمّته.

القسم الآخر: قسم «التعهد» وهذا النوع من القسم لا يقصد به إثبات أو نـفي شيء معين، بل المقصود منه التزام الشخص نفسه بأمر خاص، كأن يقسم الإنسان على أن يساعد الفقراء في اليوم الفلاني وفي المكان الفلاني.

وبالنسبة للقسم من النوع الأول إذا كان كاذباً فيرتكب صاحبه إثماً وينال عقوبة شديدة كما تقدّم سابقاً، ولكن لا كفارة عليه، لأنّه لا يعبّر عن التزام أخلاقي بأمر من

---

١. وسائل الشيعة، ج ١٦، كتاب الأيمان، باب ٢، ح ١.

٢. المصدر السابق، ح ٢.

الأمور، بل المقصود منه إثبات أو نفي شيء معين.

أمّا النوع الثاني من القسم، وهو قسم «التعهد»، ففيما إذا نكث الشخص يمينه ولم يعمل بما التزم به، فمضافاً إلى أنّ عمله هذا يعتبر ذنباً وترتب عليه عقوبة أخروية فعليه الكفارة أيضاً وكفارته إطعام عشرة مساكين أو إكساؤهم، فإذا لم يتمكن من ذلك فيجب عليه صيام ثلاثة أيّام. والملفت للنظر أنّ هذا الشخص إذا لم يعيّن في قسمه مكاناً وزماناً خاصّاً للإتيان بذلك العمل، فإنّه يجب عليه دفع الكفارة المذكورة في كل وقت يرتكب فيه مخالفة لذلك القَسم.

وعلى هذا الأساس فما نراه على المستوى الاجتماعي من قبيل حلف نوّاب البرلمان الذين يُقسمون بالله في بداية عملهم على أن لا يرتكبوا خيانة للنظام السياسي وللشعب وعلى أن يؤدوا دورهم بأحسن وجه، فلو أنّهم ارتكبوا ما يخالف هذا الحلف والقسم فيجب عليهم دفع الكفارة، وفيما إذا صدرت منهم مخالفات لهذا القسم في تلك المدّة الزمنية وحنثوا بالتزامهم المذكور فيجب عليهم دفع الكفارة بشكل متكرر.

النتيجة أنّ كفارة حنث اليمين هي كفارة ثقيلة، فالحذرَ الحذرَ من اليمين والحلف والنذر واجتناب هذه الأمور مهما أمكن إذا كنتم لا تستطيعون الوفاء بالنذر أو القسم، لأنّ التكاليف الدينية ثقيلة بحدّ ذاتها فلا ينبغي إضافة أحمال أخرى على أنفسنا بواسطة النذر والقسم بحيث إننا أحياناً يجب علينا دفع كفارة ذلك طيلة العمر.

الخلاصة، أنّ اليمين لإثبات أو نفي موضوع معين إذا كانت كاذبة فلا كفارة عليها، ولكن اليمين من النوع الآخر (يمين الالتزام) تترتب على مخالفتها الكفّارة، رغم أنّهما يشتركان في حرمة المخالفة وفي صورة الكذب.

سؤال مهم!

تبيّن ممّا تقدّم أنّ اليمين إذا كانت صادقة فهي مكروهة كراهة شـديدة. ولذلك ورد الأمر باجتنابها في التعاليم الدينية. ومع الالتفات إلى هذا الأمر يثار هنا هـذا السؤال: لماذا أُقسم الله تعالى في كتابه الكريم بأقسام متعددة؟

وطبقاً لما ورد في كتاب بحار الأنوار، فقد وردت جملة «والذي نفسي بيده» في الجزء ١٦ من الكتاب المذكور فقط عن النبي الأكرمﷺ قرابة مائتين مرّة فلماذا كان النبي الأكرمﷺ يقسم بـهذا القسـم بـهذه الكـثرة؟ ونـرى مـن جـهة أخـرى أنّ أميرالمؤمنين عليّاًؑ في نهج البلاغة يقسم مرات عديدة مثلاً، يقول:

«وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا، عَلَىٰ أَنْ أَعْصِيَ اللهَ في نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ»[1].

الجواب: إنّ القسم الذي يكره كراهة شديدة والذي تقدّم الكلام عنه فيما سبق يتعلق بالمسائل الشخصية، وأمّا إذا كان موضوع القسم يتعلق بأمور تربوية مثلاً، فلا إشكال فيه، والأقسام الواردة في القرآن الكريم وروايات الأئمةؑ هي من هـذا القبيل، وعليه إذا استعنا بالقسم لغرض تشويق الناس لأعمال الخير وحثهم عـلى سلوك طريق الصلاح، كأن نقول لهم: «قسماً بالله أنّ صلاة الجماعة أفضل بكثير من الصلاة الفرادىٰ» أو نقول لغرض النهي عن المنكر: «قسماً بالله تـعالى أنّ الرشـوة تعتبر من الذنوب الكبيرة» وأمثال ذلك، فلا يندرج مثل هذا القَسم في دائرة اليمين المكروهة، بل تعدّ أمراً حسناً.

النتيجة، إنّ اليمين إذا كان من أجل بعض الأمور الشخصية والتي تعود للشخص نفسه فهي مكروهة، وأمّا إذا كانت لغرض تربوي ومن أجل خدمة أفراد المجتمع فلا كراهة فيها، والأقسام القرآنية هي من القسم الثاني.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤.

٢. القسم بغير الله

سؤال: تقدّم في البحوث السابقة أنّ أقسام القرآن متنوعة، فالله تعالي يقسم أحياناً بذاته المقدّسة، وبالليل والنهار، بالصبح، بروح الإنسان، وأحياناً يقسم حتى بالأطعمة والفاكهة، والسؤال هو: هل يجوز لنا أن نقسم بمخلوقات الله تعالى، أم يختص القسم بالذات المقدّسة؟

والمتداول في الثقافة العامة والعرف أنّ الناس يقسمون بأنفسهم وبأولادهم ونفوس الأعزاء لديهم وبشرفهم وبمقدساتهم أيضاً، فهل يجوز مثل هذا القسم؟ وبكلمة: هل يجوز القسم بغير الذات المقدّسة؟

الجواب: إنّ الوارد في الأحاديث الشريفة المذكورة في مصادرنا الشيعية وكذلك في مصادر أهل السنّة، النهي الصريح عن هذا القسم، ونشير هنا إلى عدّة نماذج من ذلك:

١. يقول علي بن مهزيار: قلت لأبي جعفر الثاني (الإمام الجواد)عليه السلام: قول الله عزّوجلّ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾[1] وقوله عزّوجلّ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾[2] وما أشبه هذا، فقال:

«إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُقْسِمُ مِنْ خَلْقِهِ بِمَا شَاءَ، وَ لَيْسَ لِخَلْقِهِ اَنْ يُقْسِمُوا اِلاَّ بِهِ عَزَّوَجَلَّ»[3].

٢. يقول محمّد بن مسلم أيضاً: سمعت أباجعفر (الباقر)عليه السلام يقول: هذا من خطوات الشيطان، قال:

«كُلُّ يَمِينٍ بِغَيْرِ اللهِ فَهِيَ مِنْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ»[4].

---

١. سورة الليل،الآية ١ و ٢.

٢. سورة النجم، الآية ١.

٣. وسائل الشيعة، ج ١٦، كتاب الأيمان، باب ٣٠، ح ١.

٤. المصدر السابق، باب ١٥، ح ٤.

٣. يقول عبدالرحمن بن أبي‌عبدالله:

«سَأَلْتَ أَبَاعَبْدِاللهِ عليه السلام عَنْ رَجُلٍ حَلَفَ أَنْ يَنْحَرَ وَلَدَهُ؟ قَالَ: ذٰلِكَ مِنْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ»[1].

ويحتمل في معنى جملة «حلف أن ينحر ولده» احتمالان:

أ) إنّ هذا الشخص أقسَم أن يذبح ولده، فما حكم مثل هذا القسم؟ هل يجب العمل به؟ وطبقاً لهذا الاحتمال فإنّ الرواية لا ترتبط بما نحن فيه.

ب) إنّ هذا الشخص يسأل عن أنّه حلف أن يذبح ولده إذا ارتكب عمل معين، بمعنى أنّه أقسَم بهذا القَسم للتأكيد على عدم ارتكابه العمل الفلاني، وأنّه إذا أتىٰ به فإنّه ينحر ولده، فالمقصود هو التأكيد الكبير على التزامه وشدّة اهتمامه باجتناب ذلك العمل والظاهر أنّ الاحتمال الثاني هو المتعين، وفي هذه الصورة فمضمون الرواية يرتبط بما نحن فيه، وطبقاً لهذه الرواية فالإمام الصادق عليه السلام قرر عدم جواز مثل هذا القسم.

وقد ورد عدم جواز القسم بغير اسم الله في مصادر أهل السنّة أيضاً منها: الحديث النبوي الذي نقله البيهقي، يقول:

«مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»[2].

النتيجة المستقاة من هذه الرواية المذكورة، وفي روايات أخرى لم نذكرها رعاية للاختصار، أنّه لا يجوز القسم بغير الذات المقدّسة.

ومن جهة أخرى نقرأ في بعض الروايات أنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام أقسموا بغير اسم الله، على سبيل المثال نقرأ في نهج البلاغة في عشرة موارد أنّ الإمام عليّاً عليه السلام أقسم بنفسه، مثلاً في خطبة ٥٦ من نهج البلاغة يقول الإمام عليه السلام مخاطباً أصحابه

---

١. وسائل الشيعة، ج ١٦، كتاب الأيمان، باب ١٥، ح ٥.

٢. السنن الكبرى، ج ١٠، ص ٢٩.

وأتباعه المهزوزين وعديمي الوفاء:

«وَلَعَمْري لَوْ كُنّا نَأْتي ما أَتَيْتُمْ ما قامَ لِلدّيْنِ عَمُودٌ وَلا اخْضَرَّ لِلْايمانِ عُودٌ».

وكذلك أقسم النبي الأكرمﷺ بغير الذات المقدّسة. من ذلك ما نقله البيهقي من الحديث أنّه قال: جاء شخص الى النبي الأكرمﷺ فقال: علّمنا معارف الإسلام وأصوله، فشرح له النبي الأكرمﷺ فقال الأعرابي: أذهب وأعمل بهذه الأصول. فقال رسول اللهﷺ:

«... أَفْلَحَ وَأَبيهِ، إنْ صَدَقَ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[1].

الخلاصة أنّ تلك الطائفة من الروايات نهت ومنعت من القسم بغير الله، والظاهر أنّها تتعارض مع هذه الطائفة من الروايات التي تقرر أنّ المعصومينﷺ أقسموا بغير اسم الله. فكيف نحلّ هذا التعارض؟[2] وبأي طائفتين ينبغي العمل؟

ثلاث طرق للحل:

وقد ذكرت طرق مختلفة لرفع التعارض بين هذه الروايات ونكتفي هنا بالإشارة إلى ثلاث منها:

أ) إنّ بعض المسلمين في صدر الإسلام كانوا يقسمون بشكل تفوح منه رائحة الشرك، ومن هنا فقد ورد الأمر بالقسم باسم الله فقط، وعلى هذا الأساس فالمقصود من النهي عن القسم بغير الله، القسم الذي تفوح منه رائحة الشرك من قبيل ما ورد في الرواية التالية:

«إنّ عمر بن الخطاب أقسم يوماً بأبيه فقال له النبي الأكرمﷺ: «إنَّ اللهَ يَنْهاكُمْ

---

١. سنن البيهقي، ج ٢، ص ٤٦٦.

٢. في مظان هذا التعارض نشير إلى مسألة وهي أنّه مع مطالعة حديث واحد لا يمكن الإفتاء وإصدار حكم، بل ينبغي مطالعة جميع جوانب المسألة، فإن كانت هناك أحاديث متعارضة، فينبغي في البداية حلّ هذا التعارض، ثم استخلاص الحكم النهائي من مضمون هذه النصوص.

أَنْ تَحْلِفُوا بِآبائِكُمْ»[١].

وقد نهى النبي الأكرمﷺ أصحابه في صدر الإسلام من القسم بأسماء آبـائهم الذين كانوا مشركين، لأنّ مثل هذا القسم تفوح منه رائحة الشرك.

ومن هنا فإنّ القسم بغير الله إذا لم يستتبع هذه الافرازات السلبية فلا إشكال فيه.

ب) وأحياناً يقسم المسلمون بغير الله تعالى بـحيث يـستتبع بـعض الحـوادث والأمور السلبية، على سبيل المثال كان من جملة الأقسام المتداولة بين الناس في صدر الإسلام وفي عصر الأئمّة المعصومينعليهم السلام أيضاً، القسم بالعتاق والطلاق، بمعنى أنّ الشخص عندما يكون في معرض التهمة يقال له: أنّك لم ترتكب العمل الفلاني، فإذا كنت قد ارتكبته فإنّ جميع عبيدك أحرار، وزوجاتك طالق، وكان العرب فـي ذلك الزمان يلتزمون بمثل هذه الأقسام، والظاهر أنّ أهل السنّة ولحدّ الآن يعتقدون بصحة مثل هذا القسم، أمّا الشيعة فلا يقبلون هذا القسم لأنّهم يعتقدون بوجود صيغة خاصّة للعتق والطلاق، فلا يتحرر العبد بالقسم ولا يصح تطليق الزوجـة بـالقسم. والقسم المنهي عنه في بعض الروايات ناظر أحياناً إلى مثل هذه الأقسام، ونشير هنا إلى مثال واحد منها:

عن صفوان الجمّال، عن أبي عبدالله الصادقعليه السلام أنّ المنصور قال له: رفع إليَّ أنّ مولاك المعلى بن خنيس يدعو إليك ويجمع لك الأموال، فقال: والله ما كان. فقال المنصور: «لا أَرْضىٰ مِنْكَ إِلّا بِالطَّلاقِ وَالْعِتاقِ[٢] وَالْهَدْيِ وَالْمَشْيِ، فَقالَعليه السلام: أَبِالْأَنْدادِ مِنْ دُونِ اللهِ تَأْمُرُني أَنْ أَحْلِفَ؟! إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِاللهِ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ في شَيءٍ»[٣].

---

١. السنن الكبرى، ج ١٠، ص ٢٨.

٢. تقدّم معنى القسم بـ«الطلاق» و«العتاق» وأمّا معنى القسم بـ«هدى» فهو أن ما قلته إذا لم يكن صحيحاً فيجب تقديم أضحية، وأمّا «المشي» فيعني إذا لم يكن ما قلته صحيحاً فيجب أن تذهب إلى بيت الله الحرام مشياً على الأقدام.

٣. وسائل الشيعه، ج ١٦، أبواب الأيمان، باب ١٤، ح ٣.

ومن جملة الأقسام التي تترتب عليها تداعيات مضرّة وآثار سلبية أنّ بعض المسلمين كانوا يقسمون بهذه الصورة: «أنّه إذا لم يعمل العمل الفلاني فإنّه يصير يهودياً أو نصرانياً»[1]. وذلك كناية عن عزمه الجازم على إتيانه وانجازه لذلك العمل، وقد منع أئمّة أهل البيت عليهم السلام من القسم بهذه الصورة.

إذن فتلك الطائفة من الأقسام التي تستتبع عواقب مخربة وآثار سلبية ورد النهي عنها، أمّا تلك الطائفة من الأقسام بغيرالله التي لاتستتبع مثل هذه الأمور فلاإشكال فيها.

ج) لحل التعارض المذكور، تحمل الروايات الناهية عن القسم بغير الله على الكراهة، إلّا في موارد يكون الغرض منها التربية والتعليم، من قبيل قسم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأميرالمؤمنين علي عليه السلام، «والذي تقدّم ذكره» ففي هذه الصورة ترتفع الكراهة منه. وقد تبيّن ممّا تقدّم:

أوّلاً: ينبغي اجتناب القسم مهما أمكن.

وثانياً: إذا اضطر الشخص للقسم، وخاصّة في مورد القضاء ورفع الاختلاف والخصومة، فينبغي القسم بالله تعالى فقط، لأنّ القسم بغير الله في مورد القضاء لا قيمة له حتى لو كان القسم بمقدّسات أخرى كالقرآن والنبي والأئمّة. وهكذا بالنسبة لقسم «التعهد» أيضاً، حيث ينبغي أيضاً أن يكون باسم الله تعالى حتى يترتب عليه الأثر الفقهي والشرعي، وإلّا فسوف لا يترتب عليه أي أثر شرعي.

الشائعات بلاء العصر الحاضر:

وبالمناسبة بعد نقلنا للرواية التي ورد فيها ما حصل بين الإمام الصادق عليه السلام والمنصور الدوانيقي وإشاعة خروج الإمام على الخليفة العباسي، نرى من المناسب الإشارة إلى هذه المعصية الشنيعة التي تعدّ من جملة المشكلات الاجتماعية في

---

١. وسائل الشيعة، ج ١٦، أبواب الأيمان، باب ٣٤، ح ١.

المجتمعات البشرية المعاصرة:

إنّ إحدى وسائل الأعداء في محاربتهم لنبي الإسلامﷺ وسائر الأنبياء الكرامﷺ تتمثّل في «الشائعات»، هؤلاء الأعداء يستخدمون هذه الوسيلة الدنيئة بأشكال مختلفة، فالمنافقون كانوا ينتظرون الفرصة ليوجهوا للإسلام والمسلمين ضربة قوية بهذا السلاح الهدام، على سبيل المثال: عندما تخلّفت إحدى زوجات النبي الأكرمﷺ عن القافلة في إحدى غزوات النبيﷺ، عثر عليها أحد أصحاب النبي وجاء بها إلى قافلة المسلمين، وحينما رأى المنافقون زوجة النبي وذلك الصحابي لوحدهما أشاعوا أنّ هذا الصحابي قد ارتكب المنكر معها، وتدريجياً شاعت هذه التهمة على الألسن وغطت أنحاء المدينة كافّة، والتزم النبي السكوت تجاه هذه الشائعة وانتظر الوحي الإلهي إلى أن نزلت «آيات الإفك»[1]، ودحضت بشدّة هذه الشائعة والقائمين بها، بحيث إنّ المنافقين ملكهم الرعب ولم يتجرأوا بعدها على ذكر هذه التهمة.

وفي عصرنا الراهن نرى أنّ العدو يستخدم هذه الحربة أيضاً في الحرب النفسية ضد المسلمين بحيث يصوغ الأعداء التهم والشائعات ضد الناس العاديين، وأصحاب المناصب السياسية والدينية وحتى تجاه مراجع الدين العظام، فينبغي على المؤمنين الحذر من ذلك بأن يتجنبوا خلق الإشاعات أو تصديقها أو المساهمة في نشرها واذاعتها، وليعلموا أنّ إشاعة مثل هذه الأكاذيب والأراجيف حرام شرعاً حتى في صورة الشك، ويترتب على ذلك عقوبة شديدة توازي عقوبة المفسدين في الأرض حيث يقول تعالى في القرآن الكريم:

﴿لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً * مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا

١. سورة النور، الآية ١١ وما بعدها.

وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾[1].

وعلى هذا الأساس ينبغي الالتزام بهذا الدستور الإلهي والأخلاقي واجتناب الانزلاق في مستنقع هذا الذنب الكبير والخطير والحذر من التلوث به.

٣. حقيقة القسم ومحتواه

سؤال: نحن جميعاً نقسم بالله في حياتنا اليومية، ولكن هل فكّرنا يوماً في ماهية هذا القسم ومضمونه؟

واللافت أنّ الكتب التي تبحث مثل هذه المواضيع لا يوجد فيها شيء عن معنى وماهية القسم، فعندما يقول أحدنا مثلاً: «أُقسم بالله على أنني سأقوم بالعمل الفلاني» فما معنى هذا القسم؟ وما هي العلاقة بين القسم وذلك العمل الذي أروم تحقيقه وإنجازه؟ أو عندما أقسم بغير الله مثلاً وأقول: «قسماً بروح ابني زيد أن أترك العمل الفلاني» فما هي العلاقة بين ذلك العمل وبين ابني؟

الجواب: إن الكثير ممّا نمارسه من الأمور في حياتنا اليومية نراها في الوهلة الأولى واضحة جدّاً ولكن عندما نتوغل في عمقها ونفكّر في حقيقتها ومضمونها فسنواجه تعقيداً وغموضاً كبيراً، والقسم بدوره من جملة هذه الأمور، ولكن مع الدقّة والتأمل في القسم وحقيقته يمكن القول إنّ الشخص الذي يقسم بشيء فإنّه في الحقيقة يريد خلق علاقة ورابطة بين أمرين: «المقسم له والمقسم به» وبذلك يرتفع بأهميّة المقسم له إلى مستوى وأُفق المقسم به من حيث القيمة والاعتبار.

فالشخص الذي يقسم بما ذكر آنفاً فهو في الواقع يريد أن يرتفع بذلك العمل من حيث الأهميّة إلى مستوى أهميّة نفس ولده فيقسم بولده لإنجاز ذلك العمل، حتى يصدّق السامع والمخاطب أنّ هذا الشخص سينجز ذلك العمل حتماً، وعندما يقسم

---

١. سورة الأحزاب، الآية ٦٠ و ٦١.

بالله تعالى فكأنّه يريد إفهام المخاطب بأنّه سينجز ذلك العمل حتماً وكأنّ ذلك العمل من حيث الأهميّة وضرورة الإنجاز بالنسبة له كما هو الحال في أهميّة الله تعالى بالنسبة له، وعلى هذا الأساس فالقسم في الواقع هو نوع من إيجاد التناسب والارتباط بين أمرين: المقسم له والمقسم به، ولذلك يكون القسم عادة بالأمور المقدّسة أو الأمور المهمّة في نظر المقسم، ولا أحد يقسم بالأمور المبتذلة وبما لا قيمة له. وبكلمة، إنّ القسم عبارة عن إيجاد الرابطة الذهنية بين أمر مقدّس أو مهم، وبين العمل الذي يقصد إنجازه وتحقيقه.

٤. فلسفة الأقسام الإلهيّة

سؤال: لماذا يقسم الله تعالى؟ وما هي حاجته للقسم بحيث إنّ القسم الإلهي في القرآن يتجاوز ١٠٠ مورد تقريباً؟ وهل الأقسام الإلهيّة الواردة في القرآن الكريم يقصد بها المؤمنون أم المقصود بالخطاب هم الكافرون؟ فلو كان المقصود بالقسم في هذه الآيات هم المؤمنون، فإنّهم لا يحتاجون للقسم، لأنّهم يتحركون في مقام امتثال أوامر الله وأحكامه من موقع الطاعة والايمان بدون الحاجة إلى القسم، وإن كان المقصود بها هم الكفّار فإنّ القسم بالنسبة لهم لا يكون ذا فائدة، لأنّ الكفّار لا يتحركون من موقع الطاعة والعبودية والتسليم لله تعالى حتى مع القسم.

الجواب: ذكر المفسّرون للأقسام الإلهيّة حكمتين:

أ) إنّ جميع المسائل والأمور ليست على مستوى واحد من حيث الأهميّة، فبعضها مهم والبعض الآخر أهم، كما أنّ جميع الواجبات ليست بمستوى واحد من حيث الوجوب والأهميّة بل لها مراتب مختلفة.

إنّ جميع المؤمنين ليسوا على درجة واحدة من الايمان، بل تتفاوت درجاتهم ومراتبهم الايمانية بشكل كبير، ومن هنا فإنّ الله تعالى إذا أراد أن يبيّن أهميّة أمر من

الأمور أو حكم من الأحكام الشرعية فإنّه يقرنه بالقسم، وهذا نوع من فصاحة البيان ونمط من البلاغة في الخطاب. فالمتكلّم مضافاً إلى بيانه وحكمه بوجوب أمر معين، فإنّه يبيّن للمخاطب بذلك القسم أهميّة هذا الأمر أو الحكم.

مثلاً عندما يريد الله تعالى بيان أهميّة تهذيب النفس ومجاهدة الأهواء والنوازع النفسانية ويريد إفهام الإنسان بهذه الحقيقة حتى لا يقع في شراك الأهواء ولا ينزلق في منزلقات الخطيئة، وبالتالي لا ينسلخ من حقيقة الإنسانية، فنلاحظ أنّ القرآن الكريم استعرض بيان هذه الحقيقة بتقديم أقسام متعددة، كالقسم بالشمس وأشعتها وعظمتها، والقسم بالقمر وأنواره الساطعة، والقسم بالليل وظلمته الوادعة، والقسم بضياء الصباح وبهجته، والقسم بخالق روح الإنسان ونفسه و... أنّ أهل النجاة والفلاح يوم القيامة هم الأشخاص الذين يسلكون في حياتهم مسلك تهذيب النفس وتصفيتها من الشوائب والرذائل ويتحركون في خط المسؤولية والعبودية والانفتاح على الله. أجل، إنّ الله تعالى ومن أجل بيان أهميّة وعظمة جهاد النفس أقسم أحد عشر مرّة لتأكيد هذا الموضوع.

وفي مورد آخر ومن أجل إلفات نظر الإنسان لأهميّة القلم وأنّ هذه الأداة الصغيرة والبسيطة بإمكانها أن تعمل على ازدهار حضارة مجتمع بشري أو تخريبها ومحوها، فإنّه يقسم بالقلم وبالكتابة التي يكتبها الإنسان بواسطة القلم.

ومن هنا فإنّ إحدى الحِكم والغايات للأقسام الإلهيّة في القرآن الكريم، بيان درجة أهميّة الشيء الذي يقع متعلقاً للقسم.

ب) الحكمة الأخرى في الأقسام الإلهيّة بيان أهميّة وقيمة الموجودات والكائنات التي وقعت مورد القسم، مثلاً، الله تعالى في المثال المذكور آنفاً يريد من جهة، بيان أهميّة جهاد النفس، ومن جهة أخرى، يحث الإنسان على التفكر في عظمة هذه المخلوقات: الشمس والقمر، والليل والنهار، وعظمة السماوات وارتفاعها

والأرض وسعتها، النفس الإنسانية وما يجري في أعماقها، وبالتالي تزداد معرفة الإنسان بخالق هذه الموجودات والكائنات من خلال معرفة مخلوقاته ودقّة صنعه، وهذا الأمر يفضي بالإنسان إلى سلوك طريق الكمال المعنوي والسير في خط الطاعة والعبودية.

وفي الحقيقة إنّ الأقسام القرآنية من هذه الجهة تعتبر مفتاحاً لجميع العلوم والمعارف لأنّها تدفع بالإنسان لشحذ طاقاته وتفعيل قدراته الفكرية للتدبر في دقّة صنع الكائنات والمخلوقات التي أقسم الله بها في كتابه الكريم، ومن هذه القناة تنفتح له أبواب مهمّة وتتكشف له أسرار دقيقة وعلوم جديدة.

قبل مدّة نقل لي أحد الأطباء الحاذقين ـ ويفتح كلامه هذا نافذة جديدة على عظمة عالم الخلقة ـ فقال:

١. ذهبت إلى أحد معارض الكتاب، وهناك لفت نظري كتاب من ثمانية أجزاء يتضمن ستة آلاف صفحة[1] وكان موضوع الكتاب المكوّن من ستة آلاف صفحة يتحدّث عن أصغر ذرة حيّة في بدن الإنسان، أي (الخلية)، والخلايا في البدن بمثابة الطابوق (الآجر) للبناء، وعادة لا تُرى إلّا باستخدام المجهر.

إنّ هذا الموجود المجهري يتضمن أسراراً عجيبة بحيث إنّ هذا المؤلف كتب عنه ستة آلاف صفحة. أجل فكل خلية لوحدها حاوية لجميع صفات الإنسان، وكأنّها تملك جميع أعضاء بدن الإنسان من العين والقلب والأذن والمعدة وأمثال ذلك، بالرغم من صغر حجمها.

وفي هذا العصر تعلّم الإنسان صناعة الاستنساخ، بمعنى أنّ العلماء يأخذون خلية من بدن الإنسان ويعملون على تنميتها في المختبرات الطبية وبواسطة الأجهزة

---

١. عنوان الكتاب المذكور «سل» ومؤلفه العالم «هوك». وللمزيد من التفاصيل راجع كتاب تاريخ البيولوجيا، ص٣٣٥، لمؤلفه جاردنر.

الدقيقة، ثم يضعونها في رحم امرأة بدون تلقيحها بالنطفة، وتمضي هذه الخلية في النمو وتطوي مراحل متعاقبة ثم تتحوّل إلى إنسان كامل، ألا يدعو خلق هذه الخلية الزاخرة بالأسرار العجيبة للتفكّر والتدبر في هذا العلم العجيب ونظمه الدقيق؟ ألا يفتح هذا التدبر والتفكّر نوافذ جديدة لمعرفة أسرار الخلقة والإطلاع على أسرار الكون العجيبة؟

٢. وقد أجرى العلماء والباحثون مطالعات وتجارب واسعة بالنسبة لعوامل وأسباب الحكّة في الجلد، فوجدوا لحدّ الآن تسعمائة عامل وسبب لذلك!

هذا العالم العجيب المليء بالأسرار بحيث إنّ ظاهرة صغيرة من ظواهره تتضمن كل هذه العوامل الكثيرة، وعندما كان الله تعالى يقسم بنفس الإنسان وبالشمس والقمر والنجوم وأمثالها كان البشر يطوي سلّم العلم في مراحله الابتدائية، وقد أراد الله تعالى بهذه الأقسام تحريك ذهن الإنسان وإلفات نظره إلى هذه الموجودات ليفتح له أبواباً جديدة لمعرفة عجائب الخلقة. وأكرر أنّ ذلك مشروط بأن لا يمرّ الإنسان بهذه الظواهر الطبيعية والعجائب في عالم الخلقة مرور الكرام، بل يتفكّر في أمرها ويتدبر في شؤونها.

الإسلام دين التعقل والتفكّر:

إنّ إحدى المعالم المهمّة للإسلام والتي تدلّ على حقانيته، الدعوة للتفكّر والتعقل، فمراجعة سريعة للمعارف الإسلامية وبإلقاء نظرة على النصوص الدينية والمفاهيم القرآنية ستجدون أنّه قلّما ورد شيء في هذه النصوص والتعاليم مورد التأكيد والاهتمام البالغ كما ورد في شأن التفكّر والتعقل، وقد كان الشيوعيون والماديون يطلقون شعارات «الدين أفيون الشعوب» وأنّ الدين وليد افرازات الذهن البشري وأنّه عامل أساس في تجميد طاقات الإنسان، ولكن عندما انتصرت الثورة

الإسلامية في ايران تبيّن أنّ العامل الأساس لهذه الثورة، التي تعتبر أكبر حركة اجتماعية في القرن الحاضر، هو الدين الإسلامي، ومن هنا انكشف زيف مقولاتهم وبطلان شعاراتهم واتهاماتهم.

وطبعاً هناك بعض المذاهب والأديان الوضعية هي التي ينبغي أن يُطلق عليها أفيون الشعوب، على سبيل المثال، الفرقة الضالة «البهائية» التي توصي أتباعها بعدم حفظ الكتب في بيوتهم، وإذا تجاوز عدد الكتب مقداراً محدوداً فيجب عليهم دفع الكفّارة، مثل هذا الدين يعتبر أفيون الشعوب، وأمّا الإسلام الذي يأمر أتباعه بالتفكّر والتعقل ولا يجد لذلك بديلاً لسلوك طريق الحق والكمال والإنسانية، فلا معنى لكونه أفيون الشعوب ولن يكون، بل هو عامل ليقظة الشعوب وترشيد الفكر البشري وتحريك المجتمع في خط التطور والتقدم وعدم الإقرار بالعبودية إلّا لخالق هذا العالَم.

بأي الأمور نفكر؟

يجيب القرآن الكريم عن هذا السؤال بوجود الكثير من الأمور التي تستحق التفكّر والتدبر، ونشير هنا إلى نماذج منها:

١. التفكّر في عالم الخلقة

يقول تعالى في الآية ١٩٠ و ١٩١ من سورة آل عمران:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

ومع الالتفات إلى أنّ جملة «يتفكّرون» وردت بصيغة الفعل المضارع، فهذا يعني

أنّ الإنسان إذا استمر في عملية التفكير والتأمل في خلق السماوات والأرض وبشكل عام عالم الوجود، طيلة عمره فإنّ هذا الموضوع يستحق مثل هذا الجهد العقلي، فلا يوجد إطار خاص أو محدودية للتفكّر والتدبر في خلق الله تعالى.

٢. التفكّر في تاريخ الأقوام الماضية

ومن جملة الموضوعات المهمّة، والتي يستوحي منها الإنسان العبرة والدروس المثمرة، التفكير في تاريخ الأمم السابقة والأقوام الماضية، حيث يشير القرآن الكريم إلى هذا المعنى في الآيات ١٧٥ و ١٧٦ من سورة الأعراف:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أجل، ينبغي مراجعة تاريخ الفراعنة والجبارين من أمثال نمرود وشداد وماذا صنعوا، وماذا كان مصيرهم؟ وماذا بقي من أعمالهم وسيرتهم؟ يجب قراءة تاريخ الأقوام الماضية ومعرفة هذه الحقيقة وهي أنّ الشبّان لا يبقون شبّاناً، والأثرياء لا يبقون أثرياء، بل تتغير الحالة وتنقلب الأمور رأساً على عقب.

٣. التفكّر في الآيات الإلهيّة

ونقرأ في الآية ٢٤ من سورة يونس:

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

هنا نرى أنّ القرآن الكريم بذاته يمثّل آية من الآيات الإلهيّة، فهذا الكتاب السماوي يتضمن معارف وعلوماً جمّة بحيث إنّ الإنسان كلما تدبر في آياته أكثر،

انفتحت له نوافذ معرفة جديدة أكثر، وبالتالي تزداد علومه وتتسع آفاق معارفه، وأنا شخصياً في كل مرّة أقرأ القرآن مع التدبر في آياته تتكشف لي نقاط جديدة، فكيف إذا كان الشخص قد قرأ القرآن لعشرات السنين وألّف في تفسير القرآن أكثر من أربعين كتاباً!

٤. التفكّر في أمثال القرآن[1]

إنّ جميع آيات القرآن الكريم تستحق التدبر والتأمل، ولكنّ الأمثلة الواردة في القرآن تتضمن نكاتاً بديعة وملاحظات شيقة، ومن هنا فإنّ الله تعالى حثّ المسلمين على التدبر والتفكّر في هذه الطائفة من الآيات القرآنية، مثلاً تقول الآية الشريفة ٢١ من سورة الحشر:

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وخلاصة الكلام إنّ الإسلام يبذل غاية الإهتمام بعنصر التعقل والتفكّر ويحث المسلمين على التفكير في ظواهر الخلقة وعظمة ودقّة الصنع فيها من قبيل خلق السماوات والأرض، القرآن الكريم، تاريخ الأقوام السالفة، أمثلة القرآن وإلى غير ذلك.

هنا أطلب من القارىء العزيز الإجابة عن هذا السؤال: هل الدين الذي يهتم بهذه السعة والعمق بعنصر التفكّر والتعقل ويدعو أتباعه إلى سلوك طريق العقلانية في مسيرة الحياة، هو أفيون الشعوب؟!

---

١. بحث سماحة آية الله العظمى مكارم الشيرازي (مدّ ظلّه) موضوع «أمثال القرآن» بصورة مفصّلة في شهر رمضان وصدر منه جزءان تحت عنوان «أمثال القرآن».

«التفكّر» في كلمات أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام:

وأرى من المناسب هنا، ومن أجل إتمام هذا الموضوع، استعراض بعض الأحاديث القصار الواردة عن أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام:

١. «لا عِبادَةَ كَالتَّفَكُّرِ فِي صَنْعَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ»[1].

أي أنّ الإنسان لو جلس مدّة ساعة في مقابل (نملة) وتأمل في صنعها وخلقها والأسرار الكامنة في بدنها الصغير الضعيف لرأى أنّ هذه النملة على صغرها استجمعت في كيانها جميع ما يحتاج إليه الكائن الحي، وبهذا التأمل يحلّق الإنسان في آفاق العبادة والمعنوية.

٢. «اَلتَّفَكُّرُ في مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ عِبادَةُ الْمُخْلَصِينَ»[2].

فليست عبادة هؤلاء المخلَصين تقتصر على الصوم والصلاة وغيرهما من العبادات، بل هم يتواصلون مع ظواهر عالم الوجود من موقع التفكّر والتأمل في دقائق وتفاصيل الظواهر والمخلوقات العجيبة.

٣. «اَلتَّفَكُّرُ في آلاءِ اللهِ نِعْمَ الْعِبادَةِ»[3].

نسأل الله تعالى أن يوفقنا للتفكّر والتأمل في عجائب عالم الخلقة، فكلما تفكّر الإنسان أكثر ازداد عشقاً لله تعالى ومعرفة به، وكلما ازداد عشق الإنسان للذات المقدّسة تحرك في خط العبادة والخضوع والخشوع أكثر.

تفسير أقسام القرآن في كلمات علماء الإسلام

لقد سعى علماء الشيعة وأهل السنّة وقبل عدّة قرون إلى جمع أقسام القرآن ودراستها، وقد ألّف بعضهم كتاباً حول هذا الموضوع، وعليه فإنّ موضوعنا في هذا

---

١. ميزان الحكمة، باب ٣٢٥٣، ح ١٦٢٢٠.

٢. المصدر السابق، ح ١٦٢١٦.

٣. المصدر السابق، ح ١٦٢١٥.

الكتاب لا يعتبر أمراً جديداً ليس له سابقة، فقد ذكر هؤلاء العلماء الكثير من الحقائق والمعارف في تفسير هذه الآيات القرآنية، وتبقى هناك بعض الموارد والنقاط التي سنقوم ببيانها وبحثها، وسيأتي آخرون أيضاً ليضيفوا إلىٰ هذه النقاط أموراً أخرى، لأنّ القرآن الكريم، على حدّ تعبير الإمام علي عليه السلام: «لَا تَفْنَىٰ غَرَائِبُهُ وَلاٰ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ»[1].

٥. مناهج البحث في أقسام القرآن

وبالنسبة لمنهجية البحث في هذا الموضوع، هناك منهجيتان لهذا البحث ذكرهما أرباب التفسير:

١. **منهجية البحث الموضوعي**؛ بمعنى أنّ الباحث يجمع جميع ما ورد في القرآن عن القسم بالشمس مثلاً، ثم يتوجه للآيات التي ورد فيها القسم بالليل والنهار، ويجمعها ويضعها قيد البحث والدراسة، وهكذا يستمر في عمله لدراسة الأقسام القرآنية.

وهذا المنهج يتميّز بنقاط قوّة، من جهة أنّه يجمع موارد موضوع معين في مكان واحد، ولكنّه يواجه مشكلة أساسية وهي أنّه يعمل على تقطيع الآيات وبالتالي فصل القسم عن المقسم له، مثلاً تنقطع صلة القسم بالشمس في سورة الشمس مع تهذيب النفس الوارد في هذه السورة والذي هو متعلق القسم، فلا يعلم حقيقة الارتباط بين القسم والمقسم له، ومع الالتفات إلى هذا الإشكال المهم فإننا لا نؤيد اتخاذ هذا المنهج.

٢. **منهجية البحث الترتيبي**؛ أي أننا نبدأ من أول القرآن ونبحث كل سورة ورد فيها القسم بشيء معين، ثم ننتقل إلى القسم الذي بعده وهكذا، وهذه المنهجية في

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٥٢.

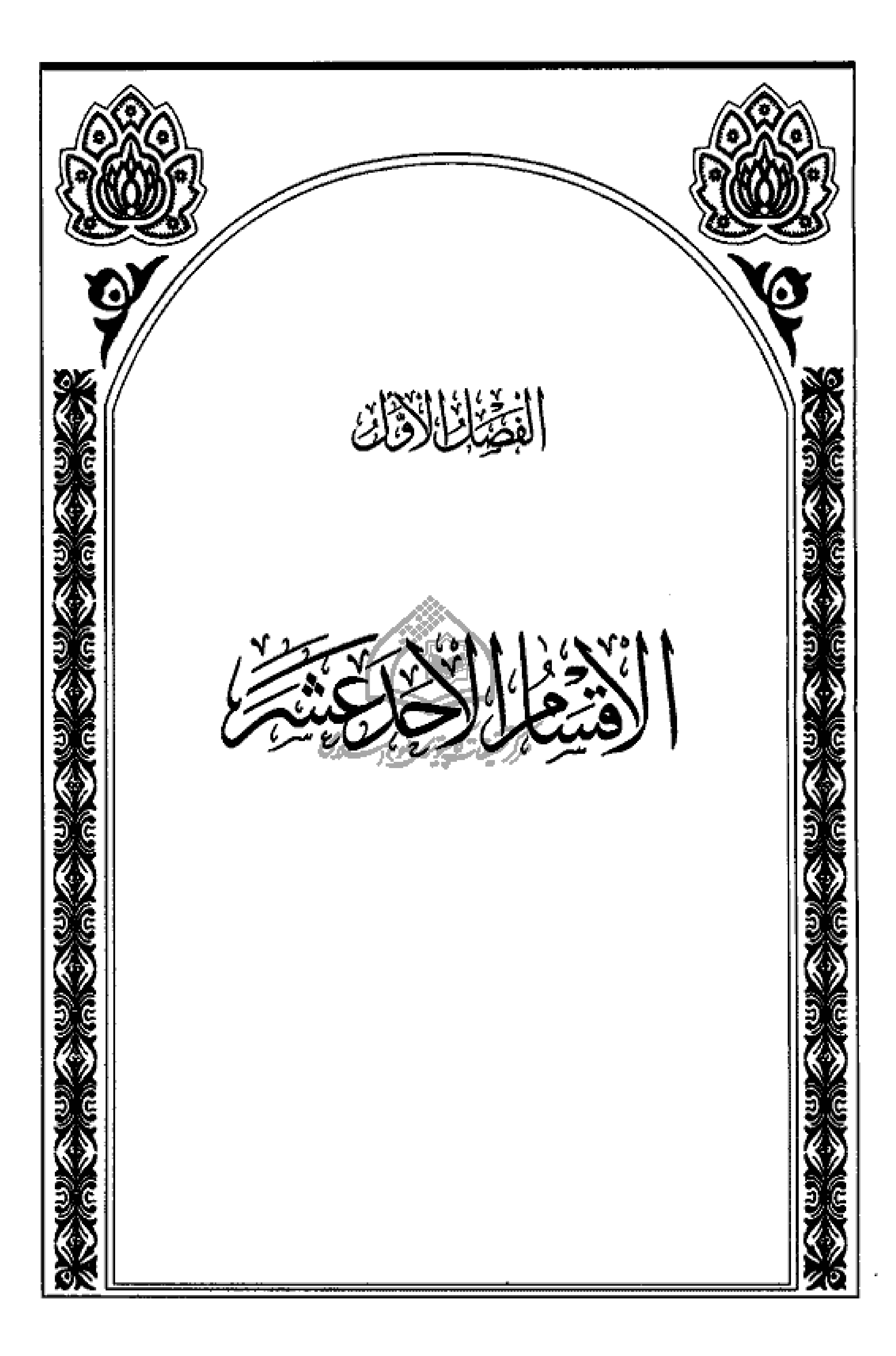
الأقسام القرآنية تواجه بدورها بعض الخلل والقصور.

وهنا أطرح منهجية ثالثة، حيث يقوم البحث في هذا الكتاب على أساسها، وهذه المنهجية هي أننا نبدأ بدراسة السور القرآنية التي وردت فيها أقسام كثيرة، ثم ننتقل إلى ما بعدها، لأن تكرار القسم يشير إلى أهمّيّة المقسم له وينبغي الانطلاق من المواضيع التي تحضى بأهمّيّة أكبر.

ومن جميع أقسام القرآن نرى أنّ الله تعالى في أحد الموارد أقسم إحدى عشر مرّة، وذلك في الآيات الأُولى من سورة الشمس، وهناك أربع سور ورد القسم فيها خمس مرات، وأربع سور ورد القسم فيها أربع مرات، وهناك ثلاثة أقسام في ستة موارد، وتكرار القسم في خمسة موارد، أمّا القسم الواحد فقد ورد في ستة عشر مورداً في القرآن الكريم وهي أغلب موارد القسم في القرآن الكريم، وعلى هذا قمنا بتقديم هذا الكتاب في ستة فصول.



* * *



الفصل الأول

الاقسام الاحد عشر


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الأقسام الأحد عشر وتهذيب النفس

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾

«المُقْسَمُ بِه» و«المُقْسَمُ لَهُ» والعلاقة بينهما

سنبحث إن شاء الله في كل مورد من الأقسام القرآنية في ثلاثة محاور:

١. «المقسم به» يعني الشيء الذي كان وسيلة لذلك القسم.

٢. «المقسم له» أي ذلك الشيء الذي تمّ القسم من أجله.

٣. العلاقة بين «المقسم به» و«المقسم له».

وكما نرى أنّ المقسم به في سورة الشمس هو، الشمس وضحيها، القمر، الليل، والنهار وأمثال ذلك، وفي المرحلة الأولى نتحدث عن أهميّة هذه الكائنات المليئة بالأسرار العجيبة.

وفي المرحلة الثانية نتحدث عن «المقسم له» وهو تهذيب النفس والتصدي للنوازع الذاتية والأهواء النفسانية وتهذيبها، وطرق التخلق بالأخلاق الحميدة والتخلص من الأخلاق الذميمة.

وفي المرحلة الثالثة نبحث علاقة الشمس والقمر والليل والنهار وأمثالها مع تهذيب النفس ومكافحة الأهواء والشهوات، لأننا نعتقد بأنّ هذه الأقسام الإلهيّة ذات علاقة مع المقسم له، وبعبارة أخرى توجد رابطة ونسبة بين المقسم به في هذه الآيات، والمقسم له، لأنّ كلام الله تعالى كلام بليغ وفصيح، وهذا يعني أنّ هذا كلام لا يخلو من ارتباط خاص بين مفرداته وكلماته.

المحور الأوّل: ما أقسم به الله تعالى

في هذه السورة الشريفة أقسم الله تعالى إحدى عشرة مرّة، أربع منها مركبة من قسمين اثنين، وثلاثة موارد منها قسم واحد ومنفرد، أمّا الموارد الأربعة الأولى فهي عبارة عن:

١. ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ فهنا نرى في هذه الآية قسماً بالشمس وكذلك قسماً بضيائها (الضحى).

٢. ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ وهنا نرى قسماً بالسماء وقسماً ببنائها.

٣. ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ وهنا نرى قسماً بالأرض وقسماً بما طحاها.

٤. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ وهنا نرى قسماً بالنفس الإنسانية وقسماً بما سوّاها.

وهكذا نرى أن الموارد الأربعة المذكورة تتضمن ثمانية أقسام، أمّا الموارد الثلاثة المتبقية فهي:

١. ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ وهنا نرى قسماً بالقمر فقط.

٢. ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ وهنا نرى قسماً بالنهار فقط.

٣. ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ وهنا نرى قسماً بالليل فقط.

هنا نرى أنّ الله تعالى في هذه الآيات الشريفة، ومن أجل تهذيب النفس، أقسم إحدى عشرة مرّة، وسنحاول بيان بعض معالم هذه الأقسام في ثلاثة موارد منها: الأول «الشمس وضحاها» الثاني «القمر» والثالث والأخير «النفس الإنسانية وخالقها» لأنّ سائر الموارد الأخرى متكررة في آياتٍ أخرى وسوف نتحدث عنها بالتفصيل في محلّها.

الشمس المشرقة:

لقد ألّف العلماء كتباً حول عظمة الشمس وأهميّة ضيائها حيث يقسم الله تعالى بهما، وهذه العلوم الخاصّة بالشمس لم تكن متوفّرة في الفكر البشري عند نزول القرآن الكريم، ونكتفي هنا بذكر بعض هذه الأسرار والعجائب:

أ) عظمة الشمس المحيرة

إنّ حجم كرة الشمس المضيئة يبلغ مليوناً ومائتيْ ألف مرّة أكبر من الكرة الأرضية، أي أننا لو افترضنا مليوناً ومائتيْ ألف كرة أرضية ونجمعها إلى بعضها فستكون بمقدار كرة الشمس، وهذه الشمس بدورها تعتبر أحد النجوم المتوسطة الحجم في السماء الهائلة السعة وقد ضرب بعض العلماء مثالاً لبيان مقدار عظمة الشمس بالنسبة للكرة الأرضية وقال:

لو افترضنا وجود كرة قدم بقطر مترين، وعلى بُعد مائة وخمسين متراً منها توجد جوزة صغيرة، فتلك الكرة بمثابة الشمس وهذه الجوزة بمثابة الكرة الأرضية، والفاصلة بينهما هي الفاصلة بين الشمس والأرض، لأنّ الفاصلة بين الشمس والأرض تقدّر بمائة وخمسين مليون كيلومتر «حيث يستغرق السفر بالطائرة العادية

لقطع هذه المسافة خمسَ عشرةَ سنة» والآن مع الأخذ بنظر الاعتبار التناسب بين مائة وخمسين متراً ومائة وخمسين مليون كيلومتر وكذلك نعمل على تصغير حجم الشمس والكرة الأرضية فسيكونان بمقدار كرة القدم بقطر مترين والجوزة الصغيرة.

ب) وزن الشمس

إنّ وزن الشمس بالنسبة للكرة الأرضية أثقل بثلاثمائة ألف مرّة، بمعنى أنّه لو افترضنا شيئاً يزن على الأرض كيلوغراماً واحداً، فهذا الشيء يزن في الشمس ثلاثمائة ألف كيلوغرام. والآن لو تصورنا شخصاً يزن خمسين كيلوغراماً فماذا سيكون وزنه في الشمس؟ إنّ وزن هذا الشخص سيكون ١٥/٠٠٠/٠٠٠ كيلوغرام هناك!

فعلى فرض إمكان سفر الإنسان إلى الشمس فإنّه وبسبب وزنه الثقيل جدّاً سيتعرض للانسحاق والتلاشي.

واللافت أنّ العلماء، وطبقاً لحساباتهم، يرون أنّ الشمس تفقد في كل دقيقة ٢٥٠ مليون طنٍّ من وزنها، والآن تصوروا مقدار فقدان الشمس لوزنها في الساعة، وفي اليوم، وفي الشهر، وفي السنة، وفي القرن؟ وعلى الرغم من مرور ملايين السنين وفقدانها للكم الهائل من وزنها في هذه المدّة الطويلة، إلّا أنّ ذلك ـ وبسبب ضخامة الشمس ـ لم يؤثر شيئاً عليها ولم يرد أي خلل أو قصور في تقديم خدمتها للبشرية، رغم أنّ استمرار هذه الحالة ولمدّة طويلة من الزمان سيؤدي بالتالي إلى ضعف ضيائها، وتدريجياً خمودها وانطفائها، وهذا ما تشير إليه الآية الشريفة: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾[1].

ج) درجة حرارة الشمس

طبقاً لحسابات العلماء فإنّ درجة حرارة سطح الشمس تعدّ بستمائة ألف درجة

---

١. سورة التكوير، الآية ١.

سنتغراد، وممّا يجدرذكره عدم إمكان إيجاد مثل هذه الحرارة على الكرة الأرضية، لأنّه على فرض تحقق هذا الأمر وبناء كورة بإمكانها انتاج مثل هذه الدرجة الحرارية، ستتعرض هذه الكورة للذوبان فوراً، لأنّ الإنسان لا يملك تلك المادة التي بإمكانها تحمل مثل هذه الدرجة الحرارية، وأمّا درجة حرارة الشمس في أعماقها فتبلغ ٢٠ مليون درجة سنتغراد، ولهذا فإنّ الشمس ليست جامدة كالكرة الأرضية، بل عبارة عن غازات مُلتهبة مضغوطة.

د) ألسنة لهب الشمس

تتصاعد من شمسنا الجذّابة والمضيئة ألسنة من اللهب إلى الفضاء المحيط بها بحيث يصل ارتفاع الواحد منها أحياناً إلى ١٦٠/٠٠٠ كيلومتر، وهذا يعني أنّه لو افترضنا أنّ الكرة الأرضية وضعت وسط أحد ألسنة هذا اللهب المتصاعد فإنّها ستتحول في مدّة وجيزة إلى دخان وبخار، لأنّ طول قطر الأرض يبلغ ١٢٠/٠٠٠ كيلومتر فقط.

هـ) جاذبية الشمس

إنّ الشمس وبذلك الوزن الثقيل الهائل فإنّ جاذبيتها والفاصلة بينها وبين سائر الأجرام السماوية عجيبة ومحيرة، إنّ جميع كواكب المنظومة الشمسية تدور حول الشمس ولكنّها تقع إلىٰ مسافة معينة بحيث لا تنجذب إلى الشمس ويكون مصيرها الاحتراق والفناء، و لا تكون بعيدة عنها بحيث تخرج عن مدار المنظومة الشمسية، وهذه الدقّة في النظم تعود إلى حساب دقيق لجاذبية الشمس، كما أنّ حركة الكرة الأرضية متأثرة بجاذبية الشمس.

إنّ أسرار هذه الشمس المضيئة المذكورة آنفاً تمثّل لمحة طفيفة من عجائب هذه

الكرة المضيئة، وقد أزاح علماء الفلك ومن خلال مطالعاتهم ودراساتهم للشمس، الستار عن الكثير من أسرارها، وبدورنا لو تأملنا في ظواهر عالم الوجود من موقع التدبر والعمق فسوف تتكشف لنا أسرار جديدة من عجائب الخلقة.

آثار وأسرار ضوء الشمس:

«الضحى» وهو الأمر الثاني الذي يقسم به الله تعالى في سورة الشمس، وقد ذكر المفسّرون لهذه الكلمة معنيين:

١. الضحى: يعني مطلق النور، سواءً النور الموجود في بداية النهار أم في وسطه.

٢. الضحى: يعني النور في أول النهار، ومن هنا سمّي الهَدي في الحج بـ«أضحية» حيث تذبح الشاة في أول نهار عيد الأضحى، ومن هنا فإنّ الله تعالى يقسم بضياء الشمس في أول النهار أو بمطلق ضياء الشمس.

على أيّة حال فللشمس وضيائها آثار وبركات كثيرة، ونشير هنا إلى جملة منها:

١. إرتباط جميع المخلوقات الحيّة بالشمس!

فلو لم تكن حرارة الشمس وضياؤها فلا يتمكن أي موجود حي من إدامة حياته، ولا تقع ظاهرة هبوب الرياح ولا هطول الأمطار، فلا ماء، ولا نار، و لا أي شيء آخر. والواقع أننا إذا أردنا إيجاد مثل هذه الحرارة فكم سيكلّفنا ذلك؟ لقد توصل العلماء إلى هذه النتيجة، وهي أنّ البشرية لو أنفقت جميع ما لديها من أموال وإمكانات لإنتاج طاقة تكفي حاجة الأرض فإنّ ذلك لا يكفي سوى لإنتاج واحد بالمليون من حرارة الشمس.

ولكن الله تعالىٰ وهب كل هذه النعم والمواهب للإنسان مجاناً، بحيث ينتفع بها الفقير والغني، الكبير والصغير، الشيخ والشاب، ولكنّهم لا يعرفون قدر هذه النعمة العظيمة ولا يشكرون خالقها.

٢. انتاج الأغذية بواسطة ضوء الشمس

إنّ المواد الغذائية للإنسان تؤخذ عادة من النباتات والأشجار أو من الحيوانات، ونعلم لولا ضوء الشمس فلا يمكن نمو أي نبات أو شجر، وبالتالي سيحرم الإنسان من نصف الأغذية التي يتناولها في حياته، وعندما تفنى النباتات والأشجار فإنّ الحيوانات أيضاً ستفنى وتنقرض، لأنّها تتغذى من النباتات والأشجار، وهكذا يحرم الإنسان من النصف الآخر من مصادر غذائه، وعلى هذا الأساس فإنّ ضوء الشمس هو السبب لنمو جميع المواد الغذائية للإنسان.

٣. هطول المطر

إنّ هطول الأمطار يعتبر نتيجة غير مباشرة لأشعة الشمس، فعندما تشرق الشمس على البحار والمحيطات فإنّ قسماً من مياه هذه البحار والمحيطات سيتبخّر بسبب حرارة الشمس، وتتصاعد الأبخرة إلى السماء وتتحول إلى سحب وغيوم، فتتحرك الرياح بأمر الله تعالى وتدفع هذه السحب إلى الأراضي الجافة والصحارى القاحلة، فتمطر هذه السحب وتنزل خيراتها على الأراضي الضامئة وتبعث فيها الحياة والبركة.

٤. علاقة ضوء الشمس بالرياح

إنّ حركة الرياح بدورها تؤدي إلى تحريك السحب، وكذلك تؤدي إلى تنقية الهواء والجو، ومن جهة ثالثة تعمل على تلقيح النباتات والأزهار والأشجار، وجميع هذه المنافع والمعطيات للرياح تعود بركاتها لأشعة الشمس، لأنّ الشمس عندما تشرق في النهار على نصف الكرة الأرضية فتتسبب في ارتفاع درجة حرارة هذا الجانب من الكرة الأرضية، في حين أنّ النصف الثاني بارد ويتلفع بظلام الليل، وعندما يلتقي

الهواء الحار في النصف الأول من الكرة الأرضية بالهواء البارد في النصف الآخر تبدأ عملية هبوب الرياح وبالتالي تكون منشأ خيرات وبركات كثيرة للناس.

٥. الشمس ومنشأ الجمال

إنّ جميع أنحاء الجمال تعود إلى بركات ضوء الشمس، فضوء الشمس يتضمن سبعة ألوان جميلة وهي التي تظهر على شكل قوس قزح في الأجواء الممطرة، كما يمكن مشاهدة هذه الألوان بواسطة عبور ضوء الشمس من خلال المنشور الزجاجي حيث تتجزأ ألوان هذا الضوء إلى سبعة ألوان، ولكن هل هذا يعني أنّ الألوان الموجودة في ضوء الشمس تنحصر بهذه الألوان السبعة؟

الجواب: كلا، لأنّ ضوء الشمس يختزن ألواناً أخرى أيضاً لا تستطيع عيوننا رؤيتها، وأعلى الألوان في ضوء الشمس والذي تستطيع عيوننا رؤيته هو اللون البنفسجي، ولكن هناك لون أعلى منه وهو ما فوق البنفسجي ونحن لا نستطيع رؤيته، ولكنّ بعض الحيوانات قادرة على رؤية هذا اللون. كما أنّ أدنى هذه الألوان السبعة وهو اللون الأحمر بالإمكان رؤيته، ولكنّ الأدنى منه وهو الأشعة ما دون الحمراء، لا يمكن رؤيتها إلّا أنّ بعض الحيوانات يستطيع رؤيتها. واللطيف أنّ الأشعة ما دون البنفسجية لها وظيفة مهمّة وحساسة، وتتمثّل في إعدام وإهلاك الميكروبات في الكرة الأرضية، فهذه الأشعة ما فوق البنفسجية تتولى القضاء على جميع الميكروبات الموجودة في دائرة سيطرة أشعة الشمس. ولو تأملنا قليلاً وافترضنا أنّ البشرية أرادت القضاء على هذه الميكروبات فماذا سيكلّفها من نفقات باهظة؟ ومن هنا ينبغي أن نشكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة المجانية التي سخرها لنا، فلولا هذه الأشعة فوق البنفسجية فإنّ الكرة الأرضية بأجمعها ستتبدل في مدّة قليلة إلى مستشفى عظيم حيث يموت فيها المرضى بمدّة وجيزة.

٦. ضوء الشمس مصدر الطاقات

ولا تتعجب إذا قلت لك إنّ مصدر جميع الطاقات الموجودة على الكرة الأرضية، هو أشعة الشمس.

إنّ خشب الأشجار الذي يعدّ من مصادر الطاقة الابتدائية للإنسان وبإمكانه انتاج النور والحرارة، رهين بهاتين الموهبتين لضوء الشمس.

ويعتبر الفحم الحجري مصدراً آخر من مصادر الطاقة للإنسان، وهو عبارة عن بقايا أشجار مدفونة في باطن الأرض،وهذه الأشجار اختزنت الضوء والحرارة التي اكتسبتها من الشمس في نسيجها،وبالتالي تحوّلت وبسبب الضغط ومضي الزمان إلى فحم حجري.

النفط بدوره يعتبر من مصادر الطاقة للبشرية، وهو في الحقيقة بقايا حيوانات مطمورة في باطن الأرض، وتلك الحيوانات كانت تتغذى على الأشجار والنباتات والتي بدورها اكتسبت الضوء والحرارة من الشمس.

المنبع الآخر للطاقة والذي يتمتع بدور مهم في العصر الحاضر، هو السدود، فعندما تتجمع المياه خلف السد تقوم بتحريك المحركات لتوليد الطاقة الكهربائية، هذه المياه في الحقيقة هي تلك الأبخرة التي صعدت من البحار إلى آفاق السماء بواسطة حرارة الشمس، ونزلت مرّة أخرى وبشكل أمطار وثلوج على الأرض وتجمّعت خلف السدود.

المصدر الآخر للطاقة الذي اكتشفه الإنسان في الآونة الأخيرة،هو قوّة الهواء والرياح، حيث استفاد الإنسان من هذه القوة الطبيعية لإنتاج الكهرباء، وقد تقدّم قبل قليل أنّ حركة الرياح تعود إلى حرارة أشعة الشمس في عملية تلاقي الرياح الحارة والباردة.

وأخيراً استطاع الإنسان استخدام ضوء الشمس بشكل مباشر لإنتاج الطاقة الكهربائية، وهذا المصدر للطاقة يعتبر أفضل وأنقى مصدر للطاقة وأيسرها حصولاً ولعلّه أرخصها قيمة، كل ذلك يعود إلى بركات ضوء الشمس.

والخلاصة، إنّ الشمس وضوءها منشأ بركات عظيمة ومعطيات كثيرة للبشرية وتتضمن أسراراً وعجائب كثيرة، وقد أشرنا فيما تقدّم إلى نماذج قليلة منها، ويكفي ذلك لنعلم لماذا أقسم الله تعالى، في سورة الشمس، بالشمس وضحاها.

يجب علينا التفكير بجدية في هذه الموجودات العظيمة التي سخرها الله تعالى لنا مجاناً، إنّ الله تعالى وكما تقول الآيات القرآنية «سبع آيات على الأقل» سخر الشمس والقمر للبشر، بمعنى أنّ هذين المخلوقين بمثابة خادمين للإنسان يعملان على خدمته ليل نهار، فالشمس تخدم الإنسان حتى في الليل، لأنّ الأرض تقوم بخزن حرارة الشمس التي تشرق عليها في النهار، ولولا هذه الحرارة المتبقية من النهار لكان البرد في الليل قارصاً وشديداً إلى درجة تتجمد فيها جميع الأشياء، فينبغي التفكير والتدبر بعظمة هذه النعمة الإلهيّة ونؤدي شكرها من خلال الاستفادة السليمة منها واستخدامها بشكل صحيح، وبالتالي نتحرك في هذه الحياة في خط الطاعة والمسؤولية والانفتاح على الله تعالى.

القسم بالقمر:

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾.

سؤال: إنّ أوّل سؤال يثار هنا في تفسير هذه الآية الشريفة هو: لماذا ذكر الله تعالى هذا القيد في هذه السورة ﴿إِذَا تَلَاهَا﴾، ولم يقسم بالقمر بشكل مطلق كما أقسم بالشمس؟

الجواب: إن الكشوفات العلمية في العصر الحاضر يسّرت الإجابة بسهولة عن هذا السؤال، ولكنّ الله تعالى في عصر نزول القرآن أراد إفهام البشر أنّ نور القمر لا ينبع من القمر نفسه، بل إنّ القمر يتحرك تبعاً للشمس، ولولا أنّ الشمس ترسل بأشعتها إلى الكواكب فإنّ القمر غير قادر بنفسه على الإنارة والإشراق، وعليه فإنّ نور القمر في الحقيقة انعكاس لضوء الشمس.

بعض خصوصيات القمر المنير!

إنّ علماء الطبيعة قدّموا معلومات كثيرة ودقيقة عن هذا الكوكب السماوي، ونكتفي هنا بذكر بعض الموارد منها:

أ) حجم القمر

إنّ القمر أصغر من الكرة الأرضية بخمسين مرّة، أي لو وضعنا خمسين قمراً وجمعناها ستكون بمقدار الكرة الأرضية، وبما أنّ الشمس أكبر من الكرة الأرضية بمقدار ١/٢٠٠٠/٠٠٠ مرّة، فهذا يعني أنّ مجموع ٦٠/٠٠٠/٠٠٠ قمراً يساوي حجم الشمس.

ب) وزن القمر

إنّ وزن الأشياء على القمر يساوي $\frac{١}{٦}$ وزنها على الكرة الأرضية، بمعنى أنّ الإنسان لو كان يزن ٦٠ كيلوغراماً على الكرة الأرضية، فعندما يسافر إلى القمر يكون وزنه هناك ١٠ كيلوغرامات فقط، ولهذا ينبغي على رواد الفضاء المتوجهين إلى القمر إجراء تمرينات عملية كثيرة للتعود على قلة الجاذبية ولئلا يختل وزنهم ومشيهم، لأنّ الإنسان مع قلة الوزن لا يتمكن من السيطرة على توازنه.

ج) الحياة في القمر

إنّ القمر يخلو من أي أثر للحياة، فلا ماء ولا هواء ولا كائنات حية ولا توجد أية علامة تشير إلى إمكانية الحياة على سطح القمر، وطبعاً هذه هي الحالة الفعلية للقمر، ولعله بمرور الزمان يمكن وجود كائنات حية تعيش هناك بتوفّر ظروف المعيشة وعناصر الحياة على القمر.

د) حركة القمر

يدور القمر في كل ثلاثين يوماً، مرّة واحدة حول الأرض، ويدور في ذات الوقت مرّة واحدة حول نفسه، وإحدى نتائج هاتين الحركتين أنّ الوجه المقابل للكرة الأرضية من القمر ثابت دائماً، وبعبارة أخرى نحن لا نستطيع رؤية الوجه الآخر للقمر، أي وراء النصف المواجه لنا.

هـ) المسافة بين الأرض والقمر

إنّ المسافة بيننا وبين القمر تبلغ ٣٩٠/٠٠٠ ألف كيلومتر، وهذه الفاصلة كبيرة نسبياً لأنّ النور يتحرك في كل ثانية ٣٠٠/٠٠٠ كيلومتر، وعليه فإنّ نور القمر يصل إلينا بمدّة ثانية ونصف (بل أقل من ذلك).

و) الليل والنهار في القمر

إنّ الليل والنهار في القمر ليس مثل الليل والنهار في الكرة الأرضية، بل إنّ نهاراً واحداً من أيّام القمر يعادل أسبوعين في حساباتنا الأرضية، وتستغرق الليلة الواحدة أسبوعين أيضاً، وبعبارة أخرى إنّ يوماً كاملاً على القمر يعادل شهراً واحداً تقريباً على الكرة الأرضية، ولهذا السبب فإنّ درجة الحرارة على القمر ترتفع في عدّة أوقات في وسط النهار وتصل إلى ٣٠٠ درجة، بحيث إنّ كل شيء هناك يكون قابلاً للاشتعال، كما أنّ برودة الهواء في النصف الثاني من القمر، أي النصف الليلي، تكون شديدة بارداً إلى درجة أنّ كل شيء يتجمد هناك، ولهذا فإنّ المسافرين إلى القمر ينبغي أن يحددوا وقت وصولهم إلى هناك في مطلع شروق الشمس على القمر، لكي يكونوا في أمان من ارتفاع درجات الحرارة في وسط النهار، وهذه المسألة على غاية من الأهميّة في الرحلات الفضائية إلى القمر حيث تستغرق الرحلة ثلاثة

أيّام في الفضاء، فينبغي تنظيم زمان الحركة والانطلاق حتى يمكنهم الوصـول إلى هناك في بداية شروق الشمس، فهل توصّل اللبشر إلى هذه الحقيقة من خلال التطور العلمي والتكنولوجي الدقيق، أم من خلال وجود نظام دقيق حـاكـم عـلى عـالم الوجود وعلى كواكب المنظومة الشمسية بحيث أتاح للإنسان القدرة على تـنظيم حساباته بشكل دقيق وفقاً لها؟ والحكم إليكم.

نبذة من بركات القمر:

للقمر بركات ومنافع كثيرة للقاطنين على الكرة الأرضية ودور هام في تـوفير الأجواء المناسبة لحياة الإنسان على الأرض، وهنا نشير إلى مثالين لذلك:

١. القمر والتقويم الطبيعي!

إنّ دوران القمر حول الأرض بشكل منتظم جعل منه تقويماً طبيعياً لجميع أفراد البشر، التقويم الذي يفهمه العالم والجاهل، الأُمي والمتعلم، والكبير والصغير، الرجل والمرأة، الأبيض والأسود، وهكذا يفهمه جميع الناس على مختلف لغاتهم وقومياتهم وأديانهم.

ويشير الله تعالى في الآية ١٨٩ من سورة البقرة إلى هذه الموهبة العظيمة:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾.

أي بمثابة التقويم الطبيعي في واقع الحياة البشرية.

في حين أنّ التقويم الشمسي ليس كذلك ولا يعرفه سوى أفراد قلائل من أهل الخبرة في علم النجوم، حيث ينبغي على المنجمين العـمل عـلى رصـد حـركات الشمس وكتابة ذلك بالأرقام كيما يستطيع الناس حساب الشـهور الشـمسية مـن بدايتها إلى نهايتها، في حين أنّ تشخيص بداية الأشهر القمرية يتمّ بسهولة ويسـر

لجميع الأفراد، وهكذا نرى أنّ الله تعالى، ومن أجل تنظيم حياة البشر وحساب أوقاتهم، قد منحهم هذه المواهبة السماوية والتقويم الطبيعي، والعجيب أنّ القمر يؤدي مهمته ويبعث ببركاته منذ ملايين السنين بدون أي خلل أو نقص.

ونقرأ في الآيات ٣٩ و ٤٠ من سورة يس:

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حتّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

وعندما وصف القرآن الكريم حركة الشمس والقمر في هذه الآيات الشريفة، كان الجو العلمي في ذلك العصر محكوماً بنظرية بطليموس، فقد كانت هذه النظرية هي السائدة على تلك الأجواء المعرفية والعملية، ويرى بطليموس أنّ الشمس والقمر لا يتحركان بنفسيهما بل يقعان في نقطة ساكنة وبدون حركة وكل واحد منهما يقع في دائرة فلكية وشفافة، وتلك الدائرة الفلكية هي المتحركة، أي ما يسمى بـ «الفلك»، وعلى هذا الأساس فإنّ الشمس والقمر لا يتحركان بنفسيهما، بل تبعاً للفلك الذي ينضويان فيه، وهذه النظرية كانت حاكمة على الفكر البشري مدّة ١٥٠٠ سنة، إلى أنّ جاء غاليلو وكپلر قبل ثلاثمائة أو أربعمائة عام وأثبتا بطلان هذه النظرية، في حين أنّ القرآن الكريم أعلن عن بطلان هذه النظرية، وطبقاً للآيات ٣٩ و ٤٠ من سورة يس، والتي تقدّم ذكرها، أنّ الشمس والقمر يتحركان حركة مستقلة.

٢. الجزر والمد

عندما يكون القمر في مقابل البحر فإنّه يقوم بجذب ماء البحر إليه وبالتالي يرتفع منسوب ماء البحر وأحياناً يبلغ ارتفاع الماء متراً واحداً وأحياناً أخرى يصل إلى مترين، وهذه الظاهرة تؤدي إلى اختزال ونقص المياه الموجودة في سواحل البحار وبالتالي تنحسر هذه المياه باتجاه البحر، وتسمى هذه الحالة بـ «الجزر»، وعندما

ينتقل القمر إلى مكان آخر ويزول تأثير جاذبية القمر على البحار، فإنّ ماء البحر سيعود لحالته الطبيعية وبذلك يرتفع منسوب المياه في السواحل وتمتلىء الأنهار والجداول التي تقع على مقربة من السواحل بالمياه، ويطلق على هذه الظاهرة «المد»، ولولم تكن ظاهرة المدّ والجزر فإنّ ذلك سيعرض جميع الأحياء البحرية لخطر الفناء والموت، لأنّ الماء إذا بقي على حالة واحدة فسوف يتبدل إلى مستنقع آسن ويصطلح عليه «ماء ميت»، ومهمة القمر هنا انقاذ الحيوانات البحرية من خطر الموت من خلال عملية المد والجزر، وطبعاً هذه إحدى فوائد المد والجزر.

هنا نرى أنّ الله تعالى، ومن خلال تعليم الإنسان عملية تهذيب النفس «والتي أقسم الله تعالى من أجلها أحد عشر قسماً في سورة الشمس» يهتم بتعليم الإنسان درس التوحيد ومعرفة الله، وبذلك يمنحنا رؤية إيمانية لعالم الوجود ويلفت أنظارنا إلى منبع الخير والخلق وعلّة العلل، كيما نتحرك في طريق الكمال المعنوي والأخلاقي بالتناسب مع زيادة معرفتنا وإيماننا بالذات المقدّسة.

توصية هامّة:

ينبغي للناس الذين يريدون التعرف على معالم الإسلام في هذا العصر، الاطلاع على العلوم الطبيعية، لأنّ التعرف على هذه العلوم ينفع الإنسان في بحث التوحيد، ولأنّ معرفة الإنسان بأسرار الخلقة وخفايا الظواهر الطبيعية في العالم المكتشفة من قِبل علماء الطبيعة، تساهم في تعميق نظرة الإنسان إلى حقائق العالم، والشاهد على هذا المعنى ما ذكره أحد هؤلاء العلماء حيث قال: «في الماضي كان من العسير فهم كيفية شهادة جلد الإنسان ضده يوم القيامة، ولكن في هذا العصر وبسبب التطور العلمي في مسألة الاستنساخ، أصبح من اليسير التصديق بهذه الحقيقة، لأنّ العلم أثبت أنّ كل خلية من خلايا الإنسان عبارة عن إنسان كامل بجميع أعضائه

وجوارحه ولكن ليس بالفعل بل بالقوّة، حيث تتفتح وتنمو هذه القوى والأعضاء في حال توفر ظروف مناسبة وتتبدل إلى إنسان كامل».

النتيجة: أننا كلما اطلعنا على مكتشفات العلوم الطبيعية وعرفنا تفاصيل وأسرار عالم الخلقة، فإنّ معرفتنا بخالق هذا العالم ستزداد وتتعمق تبعاً لذلك.

القسم بالنفس الإنسانية:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾

إنّ الله تعالى ينطلق من خلال هذه الآية الشريفة للقسم بنفس الإنسان وخالقها وجاعلها بصورة معتدلة ومتوازنة، ويذكر القرآن الكريم هنا هذه الحقيقة، وهي أنّ الله تعالى لم يكتف بخلق النفس الإنسانية بل منحها القدرة على التمييز بين الخير والشر وألهمها عناصر الفجور والتقوى، بمعنى أنّ الله تعالى منح الإنسان أسباب السعادة ووضع بين يديه عوامل الشقاء أيضاً، وبعبارة أخرى أنّه أرشد الإنسان إلى طريق الخير والشر فهو مختار في سلوك أيّ من الطريقين.

النفس ومعانيها:

وردت كلمة «النفس» ومشتقاتها بشكل واسع في آيات القرآن الكريم، ولهذه المفردة معانٍ مختلفة، ونكتفي هنا بالإشارة إلى أربعة معانٍ وردت في القرآن الكريم:

١. الإنسان

فبعض الآيات القرآنية ذكرت هذه المفردة «نفس» بمعنى الإنسان، أي أنّ معنى النفس مرادف لمعنى الإنسان في هذه الآيات، مثلاً نقرأ في آخر آية من سورة

البقرة: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

ففي هذه الآية الشريفة وردت النفس بمعنى الإنسان المركب من روح وبدن، وقد أشارت هذه الآية في سياقها إلى القاعدة الأصولية المهمّة «قبح التكليف بما لا يطاق» بمعنى أنّ الله تعالى لا يكلّف أي إنسان بما فوق قدرته واستطاعته، لأنّ هذا العمل قبيح، والله تعالى منزّه عن فعل القبيح. فمثل هذا العمل لا يصدر من الإنسان العادي فضلاً عن الإنسان الكامل، مثلاً لا يوجد أي عاقل يطلب من الآخرين أن يصعدوا إلى السماء بدون استخدام أية وسيلة لذلك، لأنّ هذا الأمر يعتبر تكليفاً بما لا يطاق، فكيف الحال بربّ العباد وخالق الإنسان.

وقد وردت كلمة نفس في الآية ٣٠ من سورة آل عمران بمعنى «إنسان» أيضاً:
﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً﴾.

فهنا نرى أنّ النفس في هذه الآية الشريفة وردت بمعنى الإنسان، وقد أشارت هذه الآية في سياقها إلى مسألة تجسّم الأعمال، بمعنى أنّ أصحاب النار وأصحاب الجنّة لا يواجهون نتائج أعمالهم الحسنة والسيئة بل يرون أعمالهم بنفسها في الجنّة أو النار وتكون هذه الأعمال أنيساً ومؤنساً لهم في ذلك اليوم أو يكون وبالاً عليهم.

الخلاصة أنّ أحد معاني النفس، الإنسان.

٢. روح الإنسان

وقد وردت النفس في بعض الآيات القرآنية بمعنى روح الإنسان، مثلاً نقرأ في الآيات الأخيرة من سورة الفجر:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾.

والمقصود من النفس في هذه الآيات الشريفة، روح الإنسان. أجل فإنّ روح

الإنسان بإمكانها الوصول في معراج الكمال المعنوي إلى مرتبة الرضا عن الله ورضا الله عنها. وفي مقام الرضا هذا تكون من زمرة العباد المخلصين والخاصين وتدخل حينئذٍ الجنّة الإلهيّة الخاصّة.

ونقرأ أيضاً في الآية ٤٢ من سورة الزمر:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾.

فالله تعالى يقبض روح الإنسان بواسطة الملائكة، ولكن في هذه الآية نُسب فعل التوفي إلى الله تعالى، أي نُسب قبض الأرواح إلى الله.

النتيجة أنّ المراد بمفردة «نفس» في الآيات المذكورة هو روح الإنسان.

٣. الوجدان اليقظ

ونقرأ في الآية ١ و ٢ من سورة القيامة:

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾.

فالنفس في هاتين الآيتين وردت بمعنى الوجدان الحر أو الضمير اليقظ الذي يلوم الإنسان على ما ارتكبه من خطايا.

إنّ الوجدان اليقظ إلى درجة من الأهمية والاعتبار المعنوي بحيث إنّ الله تعالى أقسم به، ومضافاً إلى هاتين الآيتين، نقرأ في قصة إبراهيم عليه السلام أنّ هذا النبي بعد أن حطم الأصنام ووضع الفأس برقبة أكبرها، وعندما عاد قومه إلى المعبد في نهاية احتفالهم وعيدهم، سألوا إبراهيم عليه السلام: «من فعل هذا بآلهتنا؟» قال: «فعله كبيرهم هذا» وأشار إلى الصنم الكبير الذي علّق الفأس برقبته، فشعر هؤلاء القوم بالخجل، لأنّهم إذا اعتبروا أنّ هذه الأصنام غير قادرة حتى عن الدفاع عن نفسها فسوف يواجهون منطق العقل الذي يسألهم: لماذا تعبدون الأصنام التي لا تستطيع عمل أي شيء؟ هنا تحرك وجدانهم واستيقظت ضمائرهم، والقرآن الكريم يعبّر عن هذه

الحالة بهذه الجملة البليغة:

﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

وعلى ضوء ذلك فالمراد بالنفس في بعض الآيات القرآنية، الوجدان اليقظ في الإنسان.

٤. الأهواء والنوازع النفسانية

وجاءت مفردة النفس في بعض الآيات القرآنية بمعنى الأهواء والشهوات النفسانية، ومن ذلك ما ورد في قصّة يوسف عليه السلام وزوجة العزيز، فبعد ما جرى من حوادث ومراودات اضطرت زليخا للاعتراف بالحقيقة والشهادة على طهارة يوسف عليه السلام من الخطيئة، وقد ورد هذا الاعتراف في الآية ٥٣ من سورة يوسف:

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

فكلمة «نفس» في الآية المذكورة جاءت بمعنى الهوى والشهوة.

وقد ورد في الحديث النبوي المعروف أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال لأصحابه بعد عودتهم من الحرب مع الأعداء:

«مَرْحَباً بِقَوْمٍ قَضَوُا الْجِهَادَ الْأَصْغَرَ وَبَقِيَ عَلَيْهِمُ الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ».

فبينما كانت آثار التعب والعطش والجوع وغبار الحرب بادية على سيماء هؤلاء المجاهدين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله: ما هو الجهاد الأكبر؟

فقال صلى الله عليه وآله: «اَلْجِهادُ مَعَ النَّفْسِ»[2].

إنّ جهاد النفس يتسع في مساحته ليستوعب جميع عمر الإنسان، وأفضل وقت

---

١. سورة الأنبياء، الآية ٦٤.

٢. وسائل الشيعة، ج ١١، الباب ١ من أبواب جهاد النفس، ح ١ و ٩.

له شهر رمضان المبارك، لأنّ شيطان النفس في هذا الشهر الشريف مقيد بالأغلال من جهة ما يمارسه الصائم من عبادة وتهجد وتقييد الهوى بلجام الصوم وكفّ النفس عن المشتهيات والميول الدنيوية، ومن هنا سمّي بـ«الجهاد الأكبر».

والخلاصة فإنّ معنى جهاد النفس في بعض الآيات القرآنية والروايات الشريفة هو الهوى أو النفس الأمارة بالسوء.

النتيجة أنّ للنفس معانيَ متعددة وأهمها: «إنسان» و«روح» و«الوجدان اليقظ» و«النفس الامارة بالسوء».

سؤال: نظراً للمعاني المختلفة للنفس في القرآن الكريم، فما معنى كلمة نفس في الآية محل البحث ﴿ونفسٍ وما سوّاها﴾؟

الجواب: إذا دققنا في مضمون الآية الشريفة فسوف يتبيّن أنّ المقصود من النفس هنا، روح الإنسان. لأنّ سياق الآية الشريفة يشير إلى أنّ الله تعالى قد ألهم هذه النفس معرفة الخير والشر ومنحها عناصر التقوى والفجور، وهذا المعنى والمفهوم يرتبط بروح الإنسان.

الروح في القرآن:

وردت هذه المفردة في القرآن الكريم في موارد عديدة، ولكن هذه الكلمة وردت بمعنى روح الإنسان في مورد واحد، وعلى أيّة حال فإنّ الله تعالى في هذه الآية مورد البحث أقسم بروح الإنسان، وهذا يشير إلى أهميّة هذه الروح الإنسانية، ومن هنا فمن المناسب أن نتطرق إلى بحث الروح واستعراض بعض أبعادها وخصوصياتها بشكل مختصر.

لقد صنّف العلماء والباحثون كتباً ومقالات كثيرة جدّاً عن الروح أو النفس البشرية ولعل عددها يبلغ الآلاف من هذه الكتب والمصنفات، ولكنّ العجيب مع

هذه الجهود المبذولة في هذا المجال فإنّ البشر لم يتمكنوا من الإحـاطة بـحقيقة الروح وماهيتها، أي أنّ أقرب الأشياء إلى الإنسان وهو روحه التي بين جنبيه، تعتبر أشدّ الأشياء إيغالاً في الإبهام والغموض، فبالرغم من أننا نعلم بوجودنا وأننا نملك روحاً في أعماقنا ولكن أين تكمن هذه الروح؟ وكيف تتعامل وتتواصل مع البدن؟ ومن أي شيء خلقت؟ وما هي القوانين الحاكمة على هذه الروح؟ وما إلى ذلك من الأسئلة وعلامات الاستفهام التي تثار حول هذه الروح البشرية وكلها تبقى بـدون جواب، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي...﴾[1].

الروح النباتية، الحيوانية، والإنسانية:

إنّ الإنسان يملك ثلاثة أصناف من الروح:

١. **الروح النباتية**؛ وهذه الروح موجودة في جميع الكائنات الحية وهي الباعث على عملية التغذية والنمو والنسل، فجميع النبات والأشجار وسائر الكائنات الحية ومنها الإنسان تملك هذه الروح.

٢. **الروح الحيوانية**؛ فالحيوانات والبشر يملكون، مضافاً إلى الروح النباتية، روحاً حيوانية أيضاً، وهذه الروح هيالتي تقف وراء ظواهر حيّة من قبيل الحس والحركة فضلاً عن التغذية والنمو والنسل، وعليه فإنّ نمو الإنسان ونمو النسل ناشيء من روحه النباتية، أمّا الحس والحركة فناشئان من روحه الحيوانية.

٣. **الروح الإنسانية**؛ وهذه الروح خاصّة بالإنسان، وقد أقسم الله تعالى بها في هذه الآية مورد البحث، وهذه الروح تتولى إدراك الكليات من المسائل والقيام بمهمة التحليل العلمي والتفكير العقلي.

إنّ هذه الروح تدرك الخير والشر وتتولى اتخاذ قرارات في واقع الحياة

---

١. سورة الإسراء، الآية ٨٥.

والممارسة الميدانية. أمّا ما هي حقيقة هذه الروح وماهيتها؟ فلا يعلم البشر عنها شيئاً لحدّ الآن، بل إنّ البشر لم يحيطوا علماً بحقيقة الروح الحيوانية أيضاً.

إننا نرى النمل الصغار جدّاً كل يوم ولهذا لا نعير له أهميّة تذكر، ولكن هذا النمل يختزن أسراراً عجيبة بسبب وجود هذه الروح الحيوانية والنباتية فيه بحيث إنّ أهم وأضخم الطائرات في العالم تفتقد تلك الأجهزة الدقيقة التي تملكها النملة، ولذلك فإنّ صناعة الطائرات العملاقة أسهل بكثير من صناعة نملة واحدة ولن يقدروا، فهذه النملة وبدون أن تحتاج إلى محرك من خارجها، فإنّها تنمو وتتحرك وتتناسل وما إلى ذلك، ولكن أي طائرة من طائرات العالم لا تملك هذه الصفات الثلاث المذكورة أو واحدة منها على الأقل. فلو أنّ الإنسان أدرك حقيقة الروح الحيوانية، ألا يمكنه خلق مثلها؟ إنّ القرآن الكريم وقبل أربعة عشر قرناً خاطب البشر بقوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾[1].

والآن مع كل هذا التطور العلمي والتقدم التكنولوجي فإنّ الإنسان غير قادر على خلق ذبابة واحدة لأنّه عاجز عن فهم حقيقة الروح الحيوانية وماهيتها، وعلى فرض أنّه بإمكانه أن يصنع جسم الذبابة فإنّه لا يستطيع خلق روحها، وهذا الجسم العديم الروح سيكون فاقداً للحس والروح والحركة والنمو والتناسل وما شاكل ذلك.

أمّا بالنسبة لمسألة الاستنساخ، فالإنسان يقوم بترتيب الأمور فقط ويأتي بخلية ويعمل على تنميتها لا أنّه ينفخ فيها الروح، لأنّ الخلية حيّة بذاتها وتملك روحاً ثم يقوم الإنسان بوضعها في رحم امرأة لتنميتها حتى تتحوّل إلى إنسان كامل.

النتيجة أنّ روح الإنسان تعتبر أعظم مخلوق من مخلوقات الله، ولذلك فقد نسبها الله تعالى إلى نفسه تعظيماً واشعاراً بعظمتها وقال:

---

١. سورة الحج، الآية ٧٣.

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾[١].

وبعد هذا العمل العظيم أثنىٰ الله تعالى على نفسه وقال:

﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[٢].

ولم يرد هذا التعبير في القرآن الكريم سوى في هذا المورد.

ما يختزنه الإنسان من ملكات!

بالرغم من أنّ حقيقة الروح مازالت خافية على البشر لحدّ الآن، وستبقى خافية إلى الأبد فلا شك في أهميّتها الفائقة، ولكن الأهم من ذلك ما تختزنه هذه الروح من ملكات وقوى عجيبة، وبالإمكان استعراض ثلاث قوى وملكات منها:

أ) **إدراك الحسن والقبح:** إنّ إدراك الحسن والقبح، والخير والشر، الحسنات والسيئات، لا تحتاج إلى تعليم معلّم أو استدلال عقلي حيث يدركها الإنسان بفطرته، فكل إنسان حتى الأمّي يعلم بأنّ الظلم قبيح، ولا يوجد أي إنسان عاقل يرى أنّه بحاجة للاستدلال والبرهنة على حسن إسداء الخير للناس ومد يد العون للآخرين، لماذا؟ لأنّ الله تعالى قد غرس في أعماق روحه ومحتواه الداخلي هذا النوع من الإدراكات الابتدائية والفطرية، إنّ الله تعالى خلق الإنسان ليوصله إلى السعادة الأبدية ويصعد به في معراج الكمال المعنوي والإنساني، ومن الطبيعي أن يمنحه أسباب وآليات توصله إلى هذه المرتبة ويهبه ما يحتاج إليه في هذا الطريق.

ب) **الإدراكات البديهية:** فكل إنسان يعلم أنّ الوجود والعدم لا يجتمعان، والعقل في كل إنسان حتى لو كان بعيداً عن المجتمع البشري ولم يكن يملك أية معلومات ومعارف، فإنّه لا يتعقل بأنّ الشخص الفلاني موجود ومعدوم في وقت

١. سورة الحجر، الآية ٢٩.

٢. سورة المؤمنون، الآية ١٤.

واحد، كما أنّه لا يتعقل اجتماع الضدين ويرى أنّه محال، لأنّ هذه القضية من البديهيات وتعتبر من الإدراكات الأولية التي تمثّل القاعدة والأساس لجميع الاستدلالات العقلية، وقد أودع الله تعالى مثل هذه القضايا والإدراكات البديهية في عقل الإنسان وفطرته.

ج) **القدرة على التفكير:** إنّ الله تعالى وهب لجميع أفراد البشر القدرة على التفكير، بالرغم من أنّ هذه القدرة تنمو وتشتد من خلال التمرن والممارسة وربّما تضعف عند بعض الناس نتيجة عدم استثمار هذه القوة واهمالها وعدم الاستفادة منها، ولكنّ أصل هذه القوّة موجود لدى جميع أفراد البشر، فعندما يقسم الله تعالى بروح الإنسان فذلك بسبب أهمية هذه الروح وعظمتها وكونها مصدر بركات وخيرات كثيرة وعظيمة.

المعارف الدينية فطرية!

وممّا تقدّم يتبيّن أنّ التوحيد من جملة الإدركات الفطرية في الإنسان، هذه القضية معروفة ومشهورة في الوسط العلمي، وأحياناً يتصور البعض أنّ الإدرك الفطري يختص بمسألة التوحيد فقط، في حين أنّ الأمر ليس كذلك، بل إنّ جميع عقائد الإنسان فطرية، لأنّ الآية الشريفة تصرح بذلك وتقول: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ فالله تعالى ألهم الإنسان عناصر الخير والشر و علّمه ما يميز به بين الحق والباطل وما يدّله على طريق السعادة والشقاء، فإنّ أصول جميع الاعتقادات التي تقود الإنسان في خط السعادة والفلاح والانفتاح على الله، مغروسة بصورة فطرية في واقع الإنسان ومحتواه الداخلي.

سؤال: إذن في هذه الحالة ما الحاجة للأنبياء عليهم السلام؟ وما هو دورهم في إيصال الإنسان إلى السعادة المنشودة؟ وما هو الهدف من بعث الأنبياء؟

الجواب: إنّ الفطرة تتولى تعليم الإنسان أصول العقائد وكليات المعارف الدينية، وأمّا بيان التفاصيل والجزئيات فيتولى أمرها الأنبياء، وبعبارة أخرى أنّ الفطرة بمثابة المتن الذي يتولى شرحه وبيان تفسيره الأنبياء الإلهيون.

إنّ الفطرة تلهم الإنسان حتى الصلاة وتأمره بأداء شكر من أحسن إليه، وأمّا كيفية أداء الشكر وجزئيات هذه العبادة، فذلك من مسؤولية الأنبياء.

وهكذا بالنسبة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذه القضية مغروسة في فطرة الإنسان لأنّ الإنسان لا يمكنه أن يقف إزاء القضايا المصيرية والمهمّة موقف المتفرج، وأفراد المجتمع يعيشون في مجتمع واحد تربطهم روابط اجتماعية مشتركة ويعيشون مصيراً مشتركاً، فلو ارتكب أحدهم أو فئة منهم عملاً مخالفاً للقيم والقانون فإنّ الجميع سيتضررون من ذلك وتسري الآثار السلبية لهذا العمل إلى سائر مناحي المجتمع، ومن هنا فإنّ فطرة الإنسان تأمره باتخاذ موقف معين تجاه المنكرات والمفاسد الاجتماعية، فلو أنّ جماعة ركبوا سفينة واتخذ كل واحد منهم مكانه الخاص، فهل يسمح هؤلاء المسافرون لأحد الأشخاص أن يثقب مكانه من السفينة؟ كلا، لأنّ جميع المسافرين في هذه السفينة يرتبطون بمصير واحد، ومع ايجاد ثقب في السفينة سوف تتعرض حياة جميع المسافرين للخطر، فالمجتمع البشري حاله حال هذه السفينة، وإيجاد أي خلل وإرباك في أجواء هذا المجتمع بإمكانه أن يعرّض حياة جميع أفراده للخطر.

وهكذا بالنسبة للجهاد في مقابل الأعداء، فإنّه مغروس في فطرة الإنسان، أمّا بيان تفاصيله وأحكامه فهو بعهدة الأنبياء الإلهيين.

النتيجة أنّ جميع الأصول والفروع التي تكفل للإنسان الصعود في مدارج الكمال وتقوده إلى السعادة وتبعده عن عناصر الشر والشقاء، موجودة بشكل فطري في أعماق الإنسان، ووظيفة الأنبياء الإلهيين تفسير هذا المتن وشرحه للناس.

سؤال: قلتم: «إنّ الحُسن والقُبح من جملة القضايا الفطرية التي أودعها الله تعالى في واقع أفراد البشر بحيث يدركها كل إنسان بدون تعليم وتجربة، فلو كان الأمر كذلك فلماذا نرى أنّ بعض المسلمين أنكر الحسن والقبح العقليين وادعوا أنّ ذلك إنّما يثبت بالدليل الشرعي، ويعتقدون بأنّ العقل غير قادر على إدراك أي شيء من هذه الأمور، فلو قال الله تعالى: «العدل حسن» فسيكون حسناً، ولو قال: «العدل قبيح» فسيكون قبيحاً، فالعقل لا يدرك حسن العدل وقبح الظلم ولا حسن إسداء الخير للآخرين.

الجواب: للأسف فإنّ جماعة كبيرة من المسلمين، وبسبب ابتعادهم عن تعاليم أهل البيت عليهم السلام، وقعوا في متاهات فكرية وعقائدية، وبسبب عدم رؤيتهم للحقيقة سلكوا سبيل الموهومات والأساطير، ومن ذلك أنّهم أنكروا الحسن والقبح العقليين، على أيّة حال ففي مقام الجواب عن هذا الإشكال نقول: إنّ المنكرين للحسن والقبح، بالرغم من إنكارهم لهذا باللسان، إلّا أنّهم في مقام العمل يعتقدون بهذه المقولة.

وتوضيح ذلك: لو افترضنا أنّ رجلاً لم يكن معتقداً بأي دين من الأديان الإلهيّة، هجم على بيوت هؤلاء الأشخاص وقتل زوجاتهم وأطفالهم ونهب أموالهم، فلو أنّهم كانوا ينكرون الحسن والقبح واقعاً فلا يحق لهم الاعتراض عليه بأنّك لماذا ترتكب مثل هذه الجرائم القبيحة والمفاسد الذميمة، لأنّ هذا الشخص لا يعتقد بأي دين حتى يلتزم بتعاليم هذا الدين فيما يقرره من أعمال الحسن والقبح، ومن جهة أخرى فإنّ عقله لا يدرك حسن وقبح الأعمال والأفعال، وعليه فلا ينبغي الاعتراض عليه ومؤاخذته وعقوبته.

كما أنّ من يعتقد بمقولة الجبر لا يحق له الاعتراض على ما يصدر من الآخرين من مخالفات ومنكرات، لأنّه يعتقد بأنّ جميع أفراد البشر مجبورون في أعمالهم وسلوكياتهم ولا أحد يملك اختياراً في عمله، بالتالي لا تترتب على عمله مسؤولية

جزائية، ولازم هذا الكلام رفع العقوبة عن المجرمين، لأنّه لا معنى لأن يكون الشخص مجبراً على عمل معين وفي ذات الوقت يعاقب عليه. فلو أنّ شخصاً صفع من يعتقد بهذه العقيدة الخاطئة، فسوف نرى أنّ صراخه يصعد إلى عنان السماء ويتحرك في مقابل هذا العمل من موقع الاعتراض خلافاً لمعتقده، ويعتبر أنّ هذا السلوك نوعاً من الظلم في حقّه.

ومن المناسب أنّ نذكر هنا القصة المعروفة في هذا المجال: «يقال إنّ شخصاً ومعه جماعة من عمّاله دخلوا بستانه، فوقعت عينه على لص فوق الشجرة وهو مشغول بتناول ثمارها، فعندما اعترض عليه صاحب البستان ونهاه عن هذه السرقة، قال اللص: أنا لست مختاراً في المجيء إلى هذا المكان بل أنا مجبور على هذا العمل وحتى تسلّقي للشجرة وتناولي للثمار ليس باختياري بل كلها أعمال صادرة من الله.

فقال له صاحب البستان وكان عالماً: حسناً، ثمّ التفت إلى عمّاله وأمرهم بإنزاله من فوق الشجرة وشدّ وثاقه إلى جذع الشجرة بالحبال، ثم اقتطع عدّة أغصان من شجرة الرمان وأمرهم بضربه ضرباً مبرحاً، فأخذ هؤلاء العمّال بتطبيق هذا الأمر وانهالوا عليه ضرباً، فعندما رأى اللص شدّة العقوبة وأنّ حياته معرضة للخطر ارتفع صراخه ونادى صاحب البستان، لماذا تصنع معي هذا الصنع، أنت تقوم بقتل إنسان بسبب ثمار معدودة؟ فقال صاحب البستان: نحن بدورنا مجبورن على هذا العمل، فعندما أنزلك العمّال من على الشجرة وشدّوا وثاقك وانهالوا عليك ضرباً بهذه الأغصان فإنّ كل هذه الأعمال لم تكن صادرة منّا باختيارنا، بل هي أعمال صادرة من الله».

النتيجة أنّ المنكرين للحسن والقبح والاختيار، بالرغم من أنّهم ينكرون هذه المقولات بألسنتهم، إلّا أنّهم يعتقدون بها في مقام العمل والتطبيق.

وعلى ضوء ذلك فإنّ جميع أفراد البشر وفي مقام العمل يقولون إنّ الله تعالى ألهم الإنسان الحسن والقبح وإدراك البديهيات والقدرة على التفكر والتعقل، وفهم أصول

المعارف الدينية، وقد جعلها الله تعالى في فطرتنا وأودعها في وجداننا، ولولا إدراك الإنسان لهذه الأمور فإنّ المجتمع البشري سيغرق في دوامة من الفوضى والهرج والمرج.

إنّ العالم يدور حول محور القانون، وهذا القانون مقتبس من تلك الأصول الفطرية المودعة في وجدان الإنسان وأعماق روحه، فعندما نرىٰ أنّ جميع البشر يعتقدون بأنّ الاعتداء على الآخرين قبيح، وأنّ جميع الناس يعتقدون بأنّ الاغتيال والارهاب يمثّل عملاً قبيحاً وأنّ جميع الناس يعتقدون بأنّ الإحسان إلى المحرومين وإسداء يد العون للمحتاجين عمل حسن، فهذه كلها نابعة من ذلك المصدر والمنبع الفطري والوجداني ويدركها الإنسان بمقتضى تلك القوّة التي تميّز بين الحسن والقبح، والفجور والتقوى، والخير والشر والتي أودعها الله تعالى في واقع الإنسان ومحتواه الداخلي، ولهذا المعنى تشير الآية الشريفة: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

المحور الثاني: ما أقسم الله تعالى من أجله

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾

إنّ الأقسام الأحد عشر المذكورة في هذه السورة والتي مضى شرحها وتفسيرها، كلها من أجل بيان هذه الحقيقة الهامة، وهي: «إنّ كل إنسان يتحرك على مستوى تهذيب نفسه وتطهيرها من الشوائب والأهواء فإنّه سينال الفلاح والنجاح، وكل شخص يرتكب الآثام والذنوب ويلوث نفسه بها فإنّه سيحرم من التوفيق والفلاح».

وقبل الدخول في الموضوع لابدّ من بيان معنى هذا المفردات الأربع التي وردت في الآية الشريفة: (الفلاح، التزكية، الخيبة، الدسّ):

١. «الفلاح»: هذه الكلمة وردت في اللغة بمعنى النجاة، التحرر، النجاح، وبكلمة أخرى الوصول إلى المقصود. فالإنسان الذي ينال الفلاح هو الذي يستطيع عبور الأخطار ويصل إلى نقطة الأمان. فالطالب الذي يشترك في الامتحانات وينجح فيها

فإنّه قد عبر بحر الامتحان إلى ساحل النجاح والفلاح.

٢. «التزكية»؛ وسيأتي شرحها وتفسيرها في البحوث اللاحقة.

٣. «خاب»؛ وهذه الكلمة تقع في النقطة المقابلة لـ «الفلاح»، وتعني اليأس والعجز والتورط في المشاكل، فالشخص الذي يعيش التلوث بالرذائل الأخلاقية فإنّه يواجه حالة اليأس والقنوط والخيبة في أعماق نفسه.

٤. «دسّاها»؛ من مادة «دسّ»، وفي الأصل تعني ادخال شيء بالاجبار وبعنف، و«دسيسة» تستخدم بمعنى الأعمال الخفية الضارة، أمّا ما هي العلاقة بين هذا المعنى والآية مورد البحث؟ هناك احتمالات عديدة ذكرها المفسّرون في كتبهم[1].

أهميّة تزكية النفس:

لقد وردت هذه العبارة «تزكية النفس» في أكثر من مورد في القرآن الكريم، بل إنّ بعض الآيات اعتبرت أنّ تزكية النفس من جملة أهداف وغايات بعثة النبي الأكرمﷺ. حيث تقول الآية ٢ من سورة الجمعة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

مضافاً إلى الآية المذكورة، فقد ورد في الحديث النبوي المعروف: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»[2] والسرّ في ذلك واضح لأنّ جميع المآزق والمشاكل التي تواجهها البشرية في حركة الحياة من قبيل القتل، النهب، الحروب الداخلية والدولية، تهريب المخدرات، تهريب الأطفال، السرقات، صناعة وانتاج الأسلحة الفتاكة، وأمثال ذلك، كل هذه الأمور ناتجة من فقدان القيم الأخلاقية، والحروب العالمية

---

١. التفسير الأمثل، ذيل الآية المذكورة.

٢. ميزان الحكمة، باب ١١١١، ح ٥٠٥٨.

بدورها ناتجة أيضاً من هذا العامل الأخلاقي.

ونقرأ في الآية ١٤ من سورة الأعلى، أنّ تزكية النفس تعتبر مفتاح للسعادة والفلاح:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾.

ويقول الله تعالى في الآية الشريفة ١٨ من سورة فاطر واصفاً تزكية النفس بوصف عجيب ودقيق حيث يقول:

﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾.

يعني أنّ جميع رأسمال الإنسان في طريق مواجهة الأهواء الذاتية والتصدي للنوازع النفسانية تكمن في تزكية النفس والبشر مدعوون للقيام بهذا الأمر المهم بأنحاء مختلفة، ومعلوم أنّ الله تعالى كما تصرّح الآية الشريفة، لا ينتفع بذلك، بل إنّ آثار ونتائج هذا العمل يعود للإنسان نفسه كما أنّ الإحسان إلى الآخرين يعود بالخير والبركة للشخص المحسن نفسه،وربّما يتصور البعض أنّ المساعدات المالية وأشكال الإنفاق المالي للفقراء والمحتاجين إنّما ينفع هؤلاء الفقراء والمحتاجين فقط، في حين أنّ الأمر ليس كذلك، بل إنّ النفع الذي يصل إلى المنفق والمحسن أكثر، لأنّ هذا العمل يورث قلبه الصفاء والنورانية بمقدار ما يطهّره من عناصر البخل والشح والأنانية، ويعمل على غرس وتقوية الفضائل الأخلاقية في روحه بمقدار ما يزيح عنها الرذائل الأخلاقية.

ما معنى تزكية النفس؟

التزكية في اللغة العربية وردت بمعانٍ مختلفة ومتقاربة، مثل: تطهير، تخليص، تصفية، وأحياناً تأتي بمعنى التنمية أيضاً. وطبعاً فإنّ النمو هو نتيجة لعملية التطهير والتصفية، على أيّة حال فالإنسان إذا أراد التحرك في خط العودة إلى الفطرة النقية

الأولى، فعليه تطهير بدنه وروحه من شوائب الذنوب والرذائل الأخلاقية والعمل على تنقية روحه وقلبه من العناصر التي تعيق سلوك طريق السعادة والفلاح، على سبيل المثال: عندما تهطل قطرات المطر من السماء فإنّها تكون صافية وشفافة ولا يكدر صفوها شيء، لأنّها عبارة عن ماء مقطر، ولذلك لا يخالطها شيء حتى الأملاح، ولكن عندما تقترب من الأرض وتتصل بالهواء الملوث وتصل إلى الأرض فإنّها تتجمع كلها لتجري على سطح الأرض، وسوف تحمل معها الشوائب التي تصادفها في طريقها وتتلوث بها، وكلما جرت المياه على سطح الأرض أكثر فإنّها تحمل معها الشوائب والأتربة أكثر وتزداد تلوثاً، حتى تتحوّل إلى سيل ممزوج بالزبد والأوساخ والطين.

ويصوّر القرآن الكريم هذه المراحل في الآية ١٧ من سورة الرعد بأجمل صورة ويقول:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ﴾.

إذا أردنا استخدام هذا الماء الملوث والانتفاع منه فينبغي لنا تصفيته وتنقيته من الشوائب والأتربة، أي أن يمرّ هذا الماء الملوث من خلال مصافي متعددة لكي يكون صالحاً للشرب أو التطهير.

وقصّة الإنسان تشبه قصّة قطرات المطر هذه، ففي ابتداء الخلقة كان الإنسان كقطرات الماء الصافية طاهراً وعارياً عن الشوائب، ولكنّه تدريجياً وبسبب ارتباطه بالمحيط ومن خلال التعاطي مع الآخرين في واقع الحياة، سيحمل شوائب ويتغيّر من خلال رفاق السوء وأجهزة الاتصالات والاذاعات الفاسدة والكتب الضالة

والمجلات المبتذلة والمجالس الملوثة، والقنوات الفضائية الرخيصة التي تشيع الرذيلة والانحطاط الأخلاقي في أجواء المجتمع وما إلى ذلك، والآن إذا أراد هذا الإنسان تطهير نفسه وتهذيب قلبه من هذه الرذائل والشوائب والنجاة منها فينبغي له أن يمرّ من خلال المصافي وآليات التطهير من قبيل القرآن الكريم، أحاديث المعصومين عليهم السلام، حِكم نهج البلاغة، نصائح العلماء، سيرة الأنبياء والأولياء، العبادات المتنوعة، من الصلاة والصيام وأمثال ذلك، وحينئذٍ بإمكانه التحليق في آفاق المعنوية والمُثل الإنسانية والابتعاد عن عناصر الرذيلة والشهوة، وبالتالي العودة إلى فطرته النقية الأولى.

والجدير بالذكر أنّ هذا العمل وهذا السلوك في تهذيب النفس يجب أن يتمّ في هذه الدنيا، فلا مجال في الآخرة لعملية التزكية والتهذيب، بالرغم من أنّ الله تعالى ربّما يقوم بهذه المهمّة في ذلك اليوم ويعمل على تخليص بعض الناس من الشوائب وينقيهم من آثار الذنوب ثم يدخلهم الجنّة، ولكن هذا الأمر ليس كلياً وعاماً بل يختص ببعض الأشخاص الذين يملكون اللياقة والقابلية لذلك في هذه الدنيا، كما أنّ الشفاعة لا تشمل جميع الناس بل تحتاج الى قابليات خاصة يجب على الإنسان تحصيلها واكتسابها في هذه الدنيا، لأنّ الله تعالى حكيم ولا يعمل شيئاً بدون حكمة.

التزكية في كلمات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

ورد في الحديث النبوي الشريف أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال:

«ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ».

ونستوحي من هذا التعبير أنّ الله تعالى يتحدث مع المؤمنين يوم القيامة، أجل فالله الذي تحدث في الدنيا مع النبي موسى كليم الله عليه السلام في جبل طور، ومنح النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هذه الموهبة أيضاً في ليلة المعراج وكلّمه أيضاً، فإنّه يتكلّم مع المؤمنين

وكفىٰ فخراً عظيماً للمؤمنين أنّهم يقعون مورد الخطاب الإلهي مباشرة ويكلّمهم الله عن قرب، وهذه الموهبة العظيمة لا تقاس بها موهبة أخرى، فالجنّة في مقابل هذه الموهبة لا تعتبر شيئاً. «وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»:

١. «اَلْعَالِمُ الْمُبْتَغِي بِعِلْمِهِ حُطَامَ الدُّنْيَا»، بمعنى أنّ العالم الذي يستغل علمه للحصول على المآرب الدنيوية واكتساب الماديات فإنّ الله تعالى لا يتحدّث معه ولا يطهره في ذلك اليوم وسيكون مصيره إلى جنّهم، فيجب على العالم أن يستثمر علمه في خدمة الناس ونجاتهم من مهاوي الجهل والضلالة ويقودهم إلى طريق الفلاح والنجاة وتهيئة الزاد والراحلة في طريق الآخرة والفضيلة والرسالة.

٢. «وَمُسْتَحِلُّ الْمُحَرَّمَاتِ بِالشُّبُهَاتِ». أي الشخص الذي يدخل وادي المحرمات بأدوات الشبهات، فالنبي هنا لا يقول إنّ هذا الشخص يتناول المحرمات، لأنّ هذا العمل واضح البطلان ولا يخفى على أحد، بل يقصد الأشخاص الذين يستحلون المحرمات الإلهيّة بالحيل الشرعية، على سبيل المثال يجمعون علبة كبريت أو قطعة من الحلوى[1] إلى المال الذي يريد دفعه كقرض للمقترض ويجعل هذه الضميمة وعلبة الكبريت كتعويض للفائدة الربوية الباهظة التي سيأخذها من المقترض في العام القادم، فمثل هذا الشخص يقع مشمولاً لهذا الحديث النبوي، وللأسف فإنّ المتلوثين بهذا الأمر الخطير ليسوا بقليلين في الوسط الاجتماعي.

٣. «وَالزَّانِي بِحَلِيلَةِ جَارِهِ»[2].

والخلاصة أنّ العلماء من طلّاب الدنيا والمتلوثين بالحيل الشرعية والمتلوثين بالأعمال المنافية للعفة، مشمولون لهذه الرواية المذكورة وسيواجهون تلك العقوبات الثلاث ولا يكلّمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم.

---

١. بحثنا هذا الموضوع في كتابنا «طرق الفرار من الربا»، بصورة مشروحة ومفصّلة.

٢. ميزان الحكمة، باب ١٥٩١، ح ٧٦٢٢.

النتيجة أنّ الإنسان، ولكي يعود إلى فطرته النقية والإلهية، يجب عليه أن يتحرك في خط تهذيب النفس ومحاربة الأهواء النفسانية والعمل على تطهير بيت قلبه من الشوائب والرذائل والآثار السلبية للذنوب لكي يرد يوم القيامة في عرصات المحشر طاهراً متطهراً ويقع مورد الخطاب الإلهي ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾.

السبيل إلى إدامة الطهر:

أيّها الشبّان الأعزاء، إذا أردتم البقاء في هذه الحياة على حالة الطهور والنقاء، فينبغي لكم من أجل نيل هذه الغاية المهمّة، السعي للابتعاد عن عناصر الخطيئة وعوامل الذنوب، وينبغي إزاحة العوامل، التي تثير شيطان النفس وتحرك شهوات النفس الأمارة، من الطريق، ولكن إذا تحركتم في واقع الحياة على مستوى مجالسة رفاق السوء والنظر إلى الصور والأفلام الخليعة والقنوات الفضائية الفاسدة والمفسدة وقراءة الكتب الضالّة والمجلات الخليعة، واشتركتم في مجالس الطرب والتحلل الأخلاقي كما هو الحال في مجالس العرس الزاخرة بالمعاصي والاختلاط المحرّم، فلا شك أنّكم سوف لا يمكننكم الاحتفاظ بنقائكم وطهركم، فهل يعقل أن يدخل الشخص الذي يلبس ملابس بيضاء نقية، إلى غرفة مليئة بالدخان والسخام ويبقى فيها لحظات ثم يخرج منها من دون أن تتلوث ملابسه بشيء؟

أيّها الأعزاء! إنّ هذه هي خطوات الشيطان، وهذه الأمور تعتبر من الشراك الخفية والفخاخ الجذّابة للشيطان حيث تجر الإنسان خطوة بعد خطوة إلى وادي الضلالة وتقوده إلى منزلقات الخطيئة والمعصية، وعندما يصل إلى حافة الوادي فإنّ أدنى حركة بإمكانها أن تهوي به إلى أسفل السافلين وإلى قعر جهنّم.

وعلى هذا الأساس ينبغي لكم الحذر من رفاق السوء والاحتياط في التعاطي مع

المحيط الاجتماعي وفي المدرسة والإدارة ومحلّ العمل والمشاركة في المجالس والمحافل كيما يمكنكم البقاء على صفائكم وتبقى فطرتكم الإلهيّة صافية وغير مكدرة.

تهذيب النفس:

سؤال: ما المقصود من تهذيب النفس وتزكيتها بحيث إنّ الله تعالى أكّد على هذا الأمر في العديد من الآيات والسور القرآنية؟ وبعبارة أخرى، من أي شيء ينبغي تطهير النفس وتنقية القلب؟

الجواب: يجب تطهير وجداننا وغسل نفوسنا وأفئدتنا من الأهواء والرذائل الأخلاقية، وقد ورد في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لأحد أصحابه المعتمدين ويدعى سماعة بن مهران: اعرِفُوا العَقلَ وَجُندَهُ وَالجَهلَ وَجُندَهُ تَهتَدوا.

قال سماعة: جعلت فداك لا نعرف إلّا ما عرّفتنا.

فما كان من الإمام الصادق عليه السلام أن عدّد له خمسة وسبعين من الرذائل وقال له: إنّ هذه الرذائل جند الجهل، وعدّد خمسة وسبعين صفة من الفضائل وقال إنّها من جند العقل.

على سبيل المثال «الخير» يقع في صف جند العقل، و«الشرّ» من جند الجهل.

و«الإيمان» من جند العقل، و«الكفر» من جند الجهل.

و«العدالة»، و«شكر النعمة» من جند العقل، و«الظلم» و«كفر النعمة» من جند الجهل [1].

ويستفاد من هذه الرواية الشيقة، التي أوصي جميع الأعزاء بقراءتها والتدبر فيها، أنّ الرذائل الأخلاقية والآثار المعنوية التي تلوث فطرة الإنسان ليست واحدة أو اثنتين، بل أكثر من ذلك بكثير، وطبقاً لهذه الرواية فإنّ عددها خمسة وسبعون رذيلة.

---

١. أصول الكافي، ج ١، كتاب العقل والجهل، ح ١٤.

طريق تهذيب النفس:

بعد أن عرفنا هذه الحقيقة، وهي الموارد والصفات التي ينبغي تطهير الروح والقلب منها، وما هي الصفات والحالات الإيجابية التي ينبغي التحلي بها، يأتي هذا السؤال: كيف الطريق للتوصل إلىٰ هذا المقصود؟ ونظراً لأنّ هذا الطريق محفوف بالمخاطر والمنزلقات والشبهات ولا يمكن سلوك هذا الطريق بدون مرشد ومعلّم، فماذا ينبغي لنا فعله؟

الجواب: إنّ علماء الأخلاق طرحوا توصيات ومناهج لتحصيل المطلوب وتحقيق هذا الهدف، وقد أشارت الآيات القرآنية وروايات المعصومين عليهم السلام إلىٰ هذه الطرق والمناهج أيضاً، ونحن بدورنا ذكرنا بحوثاً مفصلة في هذا المجال في كتاب «الأخلاق في القرآن» في ثلاثة أجزاء بالاستفادة من الآيات والروايات الشريفة، ولكنّ النقطة المهمة هنا هي أنّ الأمراض الأخلاقية حالها حال الأمراض البدنية، والطريق لعلاج الأمراض البدنية هو:

أوّلاً: أن نتحرك على مستوى تشخيص المرض بشكل دقيق من خلال الأشعة والأدوات والمختبرات الطبية، لأنّه ما لم يتمّ تشخيص المرض بدقّة لا يتسنى لنا علاجه.

ثانياً: بعد معرفة المرض ينبغي أن نتحرك نحو علاجه، وعملية العلاج تقع في قسمين: الوقاية، والأدوية، أو ما لا ينبغي وما ينبغي فعله.

وفي المرحلة الأخيرة، يأتي دور العمل بتوصيات الطبيب وتناول الأدوية في الزمان المناسب، وفي ساعات خاصّة.

إنّ هذه الأصول العلاجية ينبغي العمل بها أيضاً لعلاج الأمراض الأخلاقية، على سبيل المثال، الشخص المبتلى بالحسد، ينبغي عليه أولاً معرفة جذور وعوامل هذا المرض وأسبابه، وفي المرحلة التالية يهتم بكيفية علاجه والوقاية منه. والشخص

البخيل يجب عليه في البداية معرفة جذور هذا المرض النفسي بشكل دقيق، ثم التحرك على مستوى علاجه والتخلص منه وفقاً لتوصيات الطبيب الروحاني، ولحسن الحظ فإنّ علماء الأخلاق العظام بيّنوا في كتبهم المرحلتين بشكل جيد، فقد بيّنوا جذور وعوامل الأمراض الأخلاقية وكذلك طريقة علاجها وتطهير النفس منها بالاستفادة من النصوص الدينية. وهذا الأمر يسهّل من عملية علاج الأمراض الروحية والأخلاقية، فينبغي مطالعة هذه الكتب بدقّة والعمل بها.

السير والسلوك:

وقد ذكر بعض علماء الأخلاق عبارة «السير والسلوك»، ومقصودهم من ذلك «تهذيب النفس». فمصطلح «السير» يعني الحركة والانطلاق في المسيرة المعنوية، ومصطلح «السلوك» يقصد به منهجية الطريق، مثلاً نتحرك من عالم المادة باتجاه القرب إلى الله تعالى ونصل إلى مرتبة نحقق فيها رضا الله تعالى ورضانا عن الله تعالى، أي نصل إلى مرحلة ونقطة يكون فيها أهم مسألة وقضية في حياتنا هي نيل رضا الله تعالى، ونصل إلى مرحلة يتوافق ويتحد فيها رضا وغضبنا مع رضا الله تعالى وغضبه.

وممّا لا شك فيه أننا إذا تحركنا بهذا الاتجاه في مسيرتنا المعنوية وبذلنا قصارى جهدنا وتحرينا الإخلاص في هذا الطريق فسوف نصل في النهاية إلى الغاية والمقصد، كما تقرر الآية ٦ من سورة الانشقاق:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ﴾.

وقد طرح كل واحد من علماء السير والسلوك المعنوي نظاماً خاصاً لهذا السفر الإلهي، والمقصد لجميع هذه المناهج والطرق واحد وإنّ كانت الطرق مختلفة والوسائل متنوعة. وبدورنا نقبل أن يكون للإنسان السائر في هذا الخط معلم

أخلاقي يكتسب منه التعاليم التربوية والسلوكيات الأخلاقية المستوحاة من الكتاب والسنّة.

وعلى هذا الأساس فإنّ الطرق والمسالك المنحرفة التي يطرحها بعض المدعين كالمتصوفة والتي لا تنسجم ولا تتناسب مع المعارف والتعاليم الدينية، فإنّها ليست فقط لا توصل السالك إلى المنزل المقصود، بل من شأنها إبعاد هذا الشخص عن الله تعالى، وهذه الطرق والمناهج غير مقبولة لدينا لأنّ أساس التصوف فكرة ضبابية وعقيدة مشوشة ومشبوهة ويقصد بها خلق تيارات ومذاهب جديدة في المجتمعات الإسلامية، فالأقوام والشعوب التي اعتنقت الإسلام كانت لديها بعض العقائد والأفكار السابقة وقد عمل البعض على ادغامها في تعاليم الإسلام وصناعة مذاهب جديدة منها، فالبعض اقتبس أفكار الصوفية من الهندوس واليونانيين، وبعد أن دخلت الشعوب المختلفة دائرة الإسلام عملوا على خلط هذه الأفكار المنحرفة بتعاليم الإسلام وأحكامه وشكّلوا منها الفرق الصوفية، وجعلوا لهم مسلكاً خاصّاً لتهذيب النفس يخالف مسلك أولياء الدين وأئمّة الإسلام، وقد تصدى لهذه الحركة الإمام الصادقعليه السلام وأثبت بطلانها وانحرافها من خلال الأحاديث الكثيرة[1].

النتيجة، إنّ المسلك المشروع في عملية تهذيب النفس هو المسلك أو المنهج الذي يتوافق مع القرآن الكريم وروايات أهل البيتعليهم السلام ونكتفي هنا بنموذج واحد من هذه المناهج المقبولة:

هذا المنهج للسير والسلوك يتشكل من ثلاثة أصول:

١. التوبة؛ فأغلب علماء الأخلاق يرون أن الخطوة الأولى في مسيرة السالك إلى الله تتمثّل في التوبة من الذنوب والخطايا والعزم على إصلاح الخلل وجبران ما فات، وطبعاً للتوبة شروط مختلفة ومراحل متعددة ومقدمات عديدة وبحوث كثيرة لا

---

١. كتبنا شرحاً مفصلاً عن العقائد الصوفيّة وانحرافها في كتاب «علامات الحق».

يسعنا بيانها في هذا المختصر.

٢. مكافحة الأهواء النفسانية؛ الخطوة الثانية في هذا المنهج المعنوي يتمثّل في «جهاد النفس» وعدم الاستسلام للأهواء والميول النفسانية، وهو الذي يعبر عنه رسول الله ﷺ بـ«الجهاد الأكبر»، وأحد أهم الأهواء النفسانية والتي يوليها أرباب السير والسلوك أهميّة كبيرة في مكافحتها والقضاء عليها، هي الأنانية، وحبّ الذات، والفوقية، والغرور وأمثال ذلك. فالأنانية تعتبر الصنم الأكبر الذي يعيق مسيرة السالك إلى الله، وما لم يتحرك السالك على مستوى تحطيم وهدم هذا الصنم فإنّه لا يصل إلى مقصوده، ولو أنّه نجح في ذلك وقضى على هذا الصنم فإنّ الحجب ستزول عن قلبه وبصيرته وتنكشف له أسرار الخلقة وحقائق عالم الوجود، فالأشخاص الذين نالوا التوفيق في هذا الجهاد الأكبر فإنّهم يسمعون تسبيح الكائنات في هذا العالم والتي يعتقد سائر الناس من أسرى عالم المادة أنّها صامتة، لأنّهم لا يملكون القابلية على سماع هذا التسبيح الملكوتي.

عندما كان ميثم التمّار في الكوفة جالساً على شاطىء ينتظر الزورق الذي ينقله إلى الشاطىء الآخر سمع من تجاويف الرياح خبر موت معاوية، وذكر ذلك لمرافقه، فأين الكوفة وأين دمشق؟! وبعد مدّة تبيّن صحة هذا الخبر وأنّ معاوية مات في ذلك اليوم الذي أخبر فيه ميثم التمّار بهذا الخبر[1].

وجاء في الخبر عن إسحاق بن عمّار قال سمعت أبا عبدالله الصادق عليه السلام يقول: إنّ رسول الله ﷺ صلّى بالناس الصبح، فنظر إلى شابّ في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه مصفرّاً لونه، قد نحل جسمه وغارت عيناه في رأسه.

فقال له رسول الله ﷺ: كيف أصبحت يا فلان؟

قال: أصبح يارسول الله ﷺ موقناً، فعجب رسول الله ﷺ من قوله وقال: إنّ لكل

---

١. سيماء ميثم التمّار (بالفارسية)، ص ٧٥.

يقين حقيقة، ما حقيقة يقينك؟

فقال: إنّ يقيني يارسول الله هو الذي أحزنني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها حتى كأنّي أنظر عرش ربّي، وقد نصب للحساب وحُشر الخلائق لذلك وأنا فيهم، وكأنّي أنظر إلى أهل الجنّة، يتنعمون في الجنّة ويتعارفون وعلى الآرائك متّكئون وكأنّي أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذّبون مصطرخون وكأنّي الآن أسمع زفير النار، يدور في مسامعي.

فقال رسول الله: «هٰذا عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ»[1] إلى آخر الحديث.

أجل، فعندما يكسر السالك صنم الأنانية وحبّ الذات ويزيحه من قلبه، فحينئذٍ يتحرك في طريق الانفتاح على الله تعالى ويواصل سعيه وحركته في هذا المسير ويشاهد في هذا الطريق العجائب، ومن الطبيعي أن يصل الإنسان إلى هذه المقامات العالية، فكل من سار في هذا الطريق يصل إلى هذه المقامات، سواء كان من العلماء أم من العوام، شيخاً أم شاباً، رجلاً أم امرأة، صغيراً أم كبيراً. وممّا لا شك فيه أنّ الشاب يملك قدرة أكبر على مواصلة هذا الطريق.

٣. ذكر الله؛ الخطوة الثالثة في منهج السير والسلوك، الاهتمام بذكر الله، وأمّا كيفية الذكر وما يقوله السالك من أذكار فغير مهم، المهم هو أن يعيش هذا الشخص في رحاب الذكر بشكل دائم، سواءً كان الذكر «الله أكبر» أم «سبحان الله» أم «لا إله إلّا الله» أم «لا حول ولا قوّة إلّا بالله» أم «الحمدلله» أم «الذكر اليونسي» أم أذكار أخرى، المهم أن يخرج الإنسان من أجواء الغفلة والضياع إلى أجواء الذكر واليقظة، فالشيطان لا يجد له مجالاً للعمل في نفس الإنسان الذي يكون دائماً يقظاً وذاكراً الله تعالى في الليل والنهار.

وعلى هذا الأساس فلا مانع من ذكر أي عبارة تتعلّق بذكر الله وتسبيحه، ولكن

---

١. أصول الكافي، ج ٢، ص ٥٣، كتاب الأيمان والكفر، باب حقيقة الإيمان واليقين، ح ٢ و ٣.

بشرط تكرار هذا التسبيح أو هذا الذكر ما أمكنك ذلك في كل وقت وحال، فإنّ ذكر الله من شأنه تسكين خواطر الإنسان وتهدئة أمواج النفس المتلاطمة وإيصال سفينة الإنسان إلى ساحل الإيمان والوصول بالسالك إلى المقصود.

النتيجة، أنّ هذه الأصول الثلاثة للسلوك المعنوي وهي «التوبة»، «جهاد النفس والأهواء» و«ذكر الله» ضرورية في عملية الانفتاح على الرسالة الإلهيّة من موقع العمق الفكري والروحي والاستقامة العملية في خط الصلاح والخير، وإخراج الإنسان من أجواء الغفلة والضلالة إلى أجواء المسؤولية والإيمان والعبودية.

النظام الرباعي!

وطرح بعض الأكابر دستوراً للسلوك المعنوي من أربعة أصول ويستقي مقوماته من الآيات القرآنية وروايات المعصومين عليهم السلام رغم أنّهم لم يشيروا إلى جذور هذه الأصول من النصوص الدينية، ولكننا وبعد تتبعنا لهذا الموضوع عثرنا على جذور هذا النظام في القرآن والروايات، وهنا نستعرض هذه الأصول الاربعة مع بيان مصادرها من النصوص الشريفة:

١. **المشارطة**؛ وتعني أنّ السالك عندما يستيقظ في الصباح الباكر وبعد إتيانه بصلاة الصبح يشترط مع نفسه بأن لا يرتكب ذنباً ولا مخالفة شرعية في هذا اليوم، وفي الحقيقة أنّه يتعاهد مع وجدانه بهذا الشأن.

٢. **المراقبة**؛ ثم تبدأ عملية المراقبة طيلة ساعات النهار حتى لا تصدر منه مخالفة لذلك العهد والميثاق ولا يرتكب ذنباً ومعصية في ذلك اليوم، وبعبارة أخرى أنّه يصبح بمثابة الشرطي الذي يراقب أعماله وحركاته وسكناته بنفسه.

٣. **المحاسبة**؛ وفي نهاية ذلك اليوم وقُبيل النوم، يجلس هذا الشخص ليحاسب نفسه على ما صدر منه من أعمال وأقوال، فإن كان قد خالف الشرط والعهد الذي

قطعه على نفسه وارتكب معصية في ذلك اليوم فإنّه يتوب من ذلك، وإن كـان قـد صدرت منه طاعة وعبادة وعمل أخلاقي جيد فإنّه يشكر الله على ذلك ويسعى إلى الاستزادة منه.

٤. **المعاقبة؛** إذا نقض السالك عهده وارتكب مخالفة ومعصية وتلوث بالذنب، فإنّه مضافاً إلى التوبة وجبران تلك المعصية بالأعمال الحسنة والخيرة، فينبغي لهذا السالك معاقبة نفسه وتوبيخها ولومها، مثلاً إذا كانت له علاقة شديدة بشيء معين من المأكولات فإنّه يمتنع عن تناوله عدّة أيّام، أي يحدد مشتهياته النفسانية ويقييدها ويمتنع من بعض الملذات، وبهذه الطريقة يعاقب نفسه على ما صدر منها من معصية ومخالفة حتى لا تعود لنقض العهد وارتكاب المعصية في الأيام القادمة.

أصل المشارطة:

ورد في رواية عن النبي الأكرم ﷺ أنّه قال:

«إذا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ أَصْبَحَتِ الأَعْضـاءُ كُلُّهـا تَسْتَكْفِي اللِّسانَ وتَقُولُ: إتَّـقِ اللهَ فينـا فَإنَّكَ إنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنا وَإنْ أَعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنا»[1].

إنّ أعضاء بدن الإنسان وطبقاً لهذه الرواية تشترط فـيما بـينها وبـين اللسـان وتتحدث معه من موقع التحذير والتنبيه.

ونقرأ في رواية أخرى: **«إنَّ لِسانَ ابْنِ آدمَ يُشرفُ عَلىٰ جَمِيعِ جَوارِحِهِ كُلَّ صَباحٍ فَيَقُولُ: كَيفَ أَصْبَحتُم؟ فَيقُولُونَ: بِخيرٍ إنْ تَرَكتَنـا. وَيَقُولون: اللهَ اللهَ فِينا، وَيُناشِدُونَهُ وَيَقُولُونَ إنّما نُثابُ وَنُعـاقَبُ بِكَ»**[2].

النتيجة، إنّ أصل المشارطة موجود في الروايات الإسلامية.

---

١. الأخلاق في القرآن، ج ١، ص ٣١٩.

٢. المصدر السابق.

أصل المراقبة:

يقول الإمام علي عليه السلام كما ورد في كتاب غرر الحكم:

«اِجْعَلْ مِنْ نَفْسِكَ عَلىٰ نَفْسِكَ رَقيباً»[١].

إنّ الإنسان المؤمن يعيش اليقظة ويراقب نفسه بنفسه ويجعل من وجدانه شرطياً على أعماله وأقواله، فلا يحتاج بعد ذلك إلى الرقيب الخارجي، ولكنّ الأشخاص الذين يفتقدون الرقيب الباطني فإنّهم لا يرتكبون المخالفة والمعصية ما دام هناك رقيب خارجي عليهم، وبمجرّد أن يغفل هذا الرقيب عنهم فإنّهم يتورطون في ارتكاب الإثم والمخالفة. والأشخاص الذين لا يلتزمون بقوانين المرور ولا يتوقفون عند الضوء الأحمر في حال عدم وجود شرطي المرور، هم من هذا القبيل.

أصل المحاسبة:

ورد في رواية عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام:

«لَيْسَ مِنّا مَنْ لَمْ يُحاسِبْ نَفْسَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ»[٢].

وطبقاً لما ورد في ذيل هذه الرواية الشريفة فإنّ فائدة المحاسبة هو أنّ الإنسان السالك إذا عمل خيراً فإنّه يستزيد، وإن كان قد تلوث بالذنب والمعصية فإنّه يتوب منها ويسعى إلى جبران هذا الخلل والنقص، أمّا التعبير الوارد في هذه الرواية «ليس منّا...» فإنّه تعبير دقيق، ونقرأ في رواية أخرى عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال:

«ما أَحَقَّ الإِنْسانَ أَنْ تَكُونَ لَهُ ساعَةٌ لا يَشْغَلُهُ شاغِلٌ، يُحاسِبُ فيها نَفْسَهُ، فَيَنْظُرُ فيما اكْتَسَبَ لَها وَعَلَيْها فِي لَيْلِها وَنَهارِها»[٣].

---

١. ميزان الحكمة، باب ١٥٣٨، ح ٧٤٠٣.

٢. المصدر السابق، باب ٨٢٩، ح ٣٨٥٤.

٣. مستدرك الوسائل، ج ١٢، ص ١٥٤.

ومعلوم أنّ هذه الخطوة مؤثرة جدّاً في تربية النفوس، حيث تعمل على ضبط سلوك الإنسان وتفرض عليه إعادة النظر في أعماله وسلوكياته في ذلك اليوم من موقع الفحص والدقّة، بمعنى أنّ الإنسان لو اختار وقتاً في آخر ساعات اليوم بحيث لا يشغل نفسه بسماع ومشاهدة وسائل الإعلام الصوتية والمرئية وبالهاتف، والصحف، والمجلات، والزوجة والأطفال، ويعمل على إفراغ ذهنه من كلّ لهو ولغو في ذلك الوقت، وبكلمة: لا يزاحمه شيء في هذا الوقت الخاص، ثم ينظر إلى سلوكياته وحركاته وسكناته وأقواله في ذلك اليوم ويميز بين النقاط الموجبة والسالبة ويكتبها واحدة بعد الأخرى، ثم يعمل على تقوية النقاط الإيجابية وتوظيف معطيات الدوافع الخيرة في نفسه ويجتنب النقاط السلبية، ألا يؤثر هذا النظام مع المداومة عليه في تربية روحه وإضعاف الدوافع الشريرة التي تربطه بالأرض بعيداً عن آفاق السماء؟

أصل المعاقبة:

إنّ مفردة «معاقبة» مأخوذة من «عقوبة»، وكما ذكرنا سابقاً أنّ العقوبة ينبغي أن تكون متطابقة مع الأحكام الإسلامية ومقررات الشريعة وعلى هذا الأساس فما نراه من بعض الفرق الصوفية لا مشروعية له، مثلاً، نقلوا أنّ أحد الدراويش كان شديد التعلق بالدنيا والأموال وأنّ علاقته الشديدة بالمال كانت تعيقه عن السير في طريق التهذيب الروحي والسلوك المعنوي، ومن أجل معاقبة نفسه على هذا التعلق العاطفي بالمال فإنّه ألقى بجميع أمواله وممتلكاته في البحر[1].

وممّا لا شك فيه أنّ مثل هذه العقوبة تفتقد المشروعية، لأنّ هذا الشخص يستطيع أن يتصدق بأمواله على الفقراء والمحتاجين بدلاً من إلقاها في البحر، الذي يعتبر

---

١. أمام الحقّ (بالفارسية)، ١٥٨.

مصداقاً بارزاً للإسراف المحرّم ويعتبر من الذنوب، فلو أنّه تصدّق بها على الفقراء فإنّه من جهة يخفف من معاناتهم وآلامهم، ومن جهة أخرى يكون عمله هذا عقوبة لنفسه.

ونقرأ في قصّة أخرى:

«إنّ شخصاً كان يعيش في قرية وقد عرف بالزهد والعبادة والإيمان، ولكنّ هذه الشهرة منعته من تهذيب النفس، ولذلك فكّر من التخلص من هذه الشهرة والسمعة الحسنة، بأن يسيء الناس الظنّ به، فما كان منه إلّا أن ذهب إلى حمّام في السوق، وعندما خرج من الحمّام ارتدى ملابس شخص آخر أولاً، ثم لبس ملابسه فوقها، وجعل قسماً من ملابس ذلك الشخص ظاهراً من تحت ملابسه، ليرى الناس ذلك وينتبهوا إلى أمر السرقة، ولذلك فقد شاهد صاحب الحمام الملابس المسروقة وصرخ بالناس أن يجتمعوا على هذا الزاهد ويخلعوا ملابسه، ومنذ ذلك الوقت اشتهر هذا الزاهد بـ «لص الحمّام»، وقد سرّه ذلك فيما بعد لأنّه لم يعد يملك سمعة حسنة بين الناس، وبالتالي لا تعيقه تلك السمعة الحسنة من مواصلة طريقه في خط العبودية والكمال المعنوي!»[1].

في حين أنّ هذا المفهوم مخالف لتعاليم الإسلام والمعارف الدينية، فالإسلام حذرنا من الأمور التي تسيء الظن بين الناس[2]. فكيف الحال لو قام البعض عالماً عامداً بأعمال من شأنه إثارة حفيظة الآخرين وتوكيد سوء الظنّ به؟ فلا شك في أنّ مثل هذه التصرفات بعيدة عن مذاق الشريعة ولا تمثّل أي بُعد عقلاني في سلوك الإنسان المؤمن.

يجب علينا معاقبة أنفسنا بآليات مشروعة وصحيحة بالاقتباس من كلمات

---

١. أمام الحقّ (بالفارسية)، ص ١٥٩.

٢. هنا أحاديث عديدة في هذا المضمار وردت في بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٩٠؛ ميزان الحكمة، باب ٤٥٠.

الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام. فقد ذكر أميرالمؤمنين عليه السلام في خطبته المعروفة «خطبة المتقين» شارحاً ومبيّناً لهمام[١] صفات المتقين وقال:

«إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ»[٢].

وهذا نوع من العقوبة للنفس حيث يحرمها ممّا تحبّ وترغب لتتحرك طواعية في خط العبودية والفضيلة. مثلاً يقول لنفسه: الآن وقد عملتُ على تلويث نفسي فإنني أحرمكِ من الطعام اللذيذ التي تحبينه لمدّة أسبوع كامل.

ومن هنا فمعاقبة النفس ومجازاتها على ارتكاب المعصية والإثم يمتد في جذوره إلى التعاليم الدينية والنصوص الإسلامية. ولكن ينبغي الالتفات إلى أننا في عقوبتنا للنفس الأمارة بالسوء لا ينبغي أن نقع في معصية أخرى.

النتيجة. أنّه لا شك في أنّ استمرار الإنسان في طريق الكمال المعنوي والإلهي ومن خلال تتبع المراحل الأربع المذكورة «المشارطة»، «المراقبة»، «المحاسبة» و«المعاقبة» له تأثير كبير في مصير الإنسان وفي خروجه من أجواء الظلام والشقاء إلى الانفتاح على طريق السعادة والكمال ومن شأنه شق حجب الظلمة والأهواء من أمام بصيرته والكشف عن أسرار عالم الوجود لهذا الإنسان السالك.

معطيات تهذيب النفس في الدنيا:

ربّما يتصور البعض أنّ شجرة تهذيب النفس إنّما تؤتي ثمارها وأُكلها في الآخرة فقط. والحال أنّ الأمر ليس كذلك. ومع قليل من التأمل والدقّة يتبيّن أنّ هذه الشجرة المباركة المثمرة تمنح بركاتها وخيراتها لصاحبها في هذه الدنيا أيضاً. فلو أراد البشر

---

١. راجع تفسير هذه الخطبة القيمة. وشرح صفات المتقين في كتابنا «الأخلاق الإسلامية في نهج البلاغة» (بالفارسية).

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

في العالم أن يعيشوا السكينة والطمأنينة والراحة، ويبتعدوا عن الحروب وسفك الدماء، وتكون دنياهم خالية من السجون والعقوبات، والمتاجرة بالمخدرات و الأسلحة الفتاكة التي تفتك بالمجتمعات البشرية، وبكلمة واحدة، إذا أراد البشر تحقيق المدينة الفاضلة المثالية في واقع حياتهم ومجتمعاتهم فعليهم بالالتزام الحقيقي والواعي بالقيم الإنسانية وسلوك طريق الفضائل الأخلاقية ومحاربة الأهواء والنوازع النفسانية في حركة الحياة والإنسان.

اليوم نرى أنّ المجتمعات الغربية قد حذفت القيم الأخلاقية من قاموسها وارتبطت بالأرض بعيداً عن آفاق السماء، وإذا تحدّثوا أحياناً في مجال الأخلاق فإنّهم يتحدّثون عنها على أساس كونها مسألة فردية وشخصية ولا ترتبط بطبيعة المجتمع وأبعاده المختلفة، ومن هنا ابتعدت هذه المجتمعات عن المُثل والقيم وباتت أبعد شيء عن المدينة الفاضلة التي دعا إليها أفلاطون.

وعلى سبيل المثال نذكر هنا دستوراً أخلاقياً من تعاليم الإسلام الأخلاقية كمثال من عشرات الأمثلة في دائرة المفاهيم والتعاليم الأخلاقية في الإسلام، فلو أنّ البشرية تحركت على مستوى العمل بهذا الدستور الأخلاقي فإنّه من شأنه تغيير ملامح البشرية وإيجاد الحلول للمآزق والمفاسد العملية التي تواجهها البشرية في مسيرتها المعاصرة:

«جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ وأخذ بخطام ناقته، وقال:

«عَلِّمْني عَمَلاً أَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ».

ولعل بعض أصحاب النبي نظر إليه شزراً لأنّ الوقت ليس وقت سؤال: ولكن رسول الله ﷺ أجابه:

«مـا أَحْبَبْتَ أَنْ يَأْتِيَهُ النّاسُ إِلَيْكَ فَأْتِهِ إِلَيْهِمْ، وَما كَرِهْتَ أَنْ يَأْتِيَهُ النّاسُ إِلَيْكَ فَلا تَأْتِهِ إِلَيْهِمْ»[1].

---

١. ميزان الحكمة، باب ٥٥٠، ح ٢٥٥٠.

وكأنّ هذا الشخص كان يتوقع من النبي الأكرمﷺ أن يستمر في حديثه ولذلك ظلّ ممسكاً بلجام الناقة، فقال له النبي : «خلّ خطام الناقة». أي يكفيك هذا الدستور الأخلاقي ليقودك إلى الجنّة.

الواقع أنّ جميع أفراد البشر في العالم لو عملوا بهذه القاعدة الأخلاقية فماذا سيحدث؟ لا شك في أنّ الجنّة تتحقق على هذه الأرض وسنشاهد الجنّة في هذه الدنيا لأنّ جميع المصائب والمآسي وأشكال الاستعمار والتعدي على حدود الآخرين وسحق الطبقة الضعيفة، كل ذلك ناشيء من أننا لا نرى منافعنا ومنافع الآخرين بعين واحدة.

لو لم تكن أمريكا في العالم وهي الشيطان الأكبر حقيقة، والتي أثقلت الدنيا حروباً ومآسي وأزمات كل ذلك لأنّها تفكر بمصالحها فقط، ومن أجل تحقيق هذه المصالح لا ترعوي من ارتكاب أيّة جريمة ومخالفة وتحاول نهب ثروات سائر الشعوب الأخرى، فلو تحركت على مستوى إيجاد أوضاع مناسبة في سائر بلدان العالم وتقوية إمكانات الشعوب الأخرى ودعم اقتصادها كما هو الحال في داخل أمريكا وكما تهتم بنفسها، ألا تتغير ملامح العالم بنحو أفضل؟

عندما يكون لتطبيق دستور أخلاقي واحد كل هذه البركات والمعطيات الخيرة في جميع أنحاء العالم، فلا شك في أن تطبيق جميع تعاليم الإسلام ودساتيره الأخلاقية، من شأنه إيجاد تحوّل عظيم في واقع المجتمعات البشرية.

ونقرأ في رواية أخرى قريبة من مضمون الرواية المذكورة، حيث ورد عن الإمام الصادقؑ أنّه قال لمن سأله النصيحة:

«أوصيك بتقوى الله وبرّ أخيك المسلم وأحبّ له ما تحبّ لنفسك واكره له ما تكره لنفسك...»[1].

---

١. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٢٢٥.

فإذا كنت تحب أن يدرس أبناؤك في المدرسة، ففي صورة الإمكان ينبغي أن توفر مثل هذه الإمكانات لأطفال جارك الفقير أيضاً. وإن كنت متألماً لمرض أولادك وأهلك فعليك بأن تتألم وتتأسف لمرض أولاد الآخرين أيضاً، وتتحرك من موقع مداواتهم وعلاجهم بالمقدار الممكن.

النتيجة، أنّ الإنسان لا يمكنه أن يعيش الانسجام مع خط الرسالة والطاعة والقيم الإنسانية إلّا من خلال تهذيب النفس وتزكيتها.

الثمار المعنوية لتهذيب النفس:

ومن جملة ثمرات تهذيب النفس في هذه الدنيا، ازاحة الحجب أمام بصيرة الإنسان، بحيث يرى هذا المجاهد لنفسه الكثير من الأمور التي لا يراها الناس العاديين، يقول العارف حافظ الشيرازي:

ـ تزال الحجب من عالم الملك إلى الملكوت.
ـ عمّن يتفرغ لخدمة كأس العالم.
ـ إن الطبيب ومسيح الشفاء هو العشق، ولكن.
ـ إذا لم ير المريض فكيف الدواء.

ومقصود حافظ من الكأس العالمي هو القرآن الكريم وأهل البيت عليهم السلام الذين إذا قدّم الإنسان خدماته لهم وخضع لتعليماتهم وأعرض عن أهواء النفس وشهواتها فإنّ ذلك من شأنه ازاحة الحجب عن بصيرته وكشف أستار الغيب له.

ونقرأ في التاريخ الكثير من الأشخاص الذين وصلوا إلى مقامات عالية بسبب مجاهدتهم أهواءهم وتهذيبهم لأنفسهم، ونكتفي هنا بالإشارة إلى موارد من ذلك:

١. كان رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمون مشغولون بحفر الخندق في أطراف المدينة، وانتظم المسلمون في جماعات يحفرون بسرعة وجدّ لكي ينجزوا هذا الحصن

الدفاعي قبل وصول جيش الأعداء. وفجأةً ظهرت صخرة كبيرة بيضاء صلدة وسط الخندق عجز المسلمون عن كسرها أو تحريكها. فجاء «سلمان» إلى رسول الله ﷺ يعرض عليه الأمر. فنزل رسول الله ﷺ إلى الخندق وتناول المعوَل من سلمان وأنزل ضربة شديدة بالصخرة، فانبعث منها الشرر، فصاح النبيّ ﷺ مكبّراً تكبيرة الإنتصار، فردّد المسلمون التكبير وراح صوتهم يدوّي في كلّ مكان. ومرّة أُخرىٰ أنزل رسول الله ﷺ مِعوَله على الصخرة، فانبعث الشرر وكسرت قطعة منها، وارتفع صوت تكبير الإنتصار من النبيّ ﷺ والمسلمين بعده. وللمرّة الثالثة ارتفع مِعوَل النبيّ ﷺ ونزل على الصخرة، وللمرّة الثالثة انبعث الشرر من الضربة وأضاء ما حولها، وتحطّمت الصخرة، وارتفع صوت التكبير بين جنبات الخندق.

فقال سلمان: بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله، لقد رأيت شيئاً ما رأيته منك قط. فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم وقال: رأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا: نعم يا رسول الله.

قال: ضربت ضربتي الأُولىٰ فبرق الذي رأيتم فأضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرىٰ كأنّها أنياب الكلاب، فأخبرني جبرئيل أنّ أُمّتي ظاهرة عليها، ثمّ ضربت ضربتي الثانية فبرق الذي رأيتم فأضاءت لي منها قصور الحمر من أرض الروم كأنّها أنياب الكلاب، وأخبرني جبرئيل أنّ أُمّتي ظاهرة عليها، ثمّ ضربت ضربتي الثالثة فبرق الذي رأيتم فأضاءت لي قصور صنعاء كأنّها أنياب الكلاب، وأخبرني جبرئيل أن أُمّتي ظاهرة عليها. فأبشروا، فاستبشر المسلمون وحمدوا الله. أمّا المنافقون فقد عبسوا وقالوا بلهجة المعترض: أمل باطل ووعد مستحيل! هؤلاء يحفرون الخنادق خوفاً على أرواحهم من جيش صغير يخشون مواجهته، ثمّ يحلمون بفتح أعظم دول العالم. وعندئذٍ نزلت الآيات المذكورة[1].

ولا غرابة أنّ النبي الأكرم ﷺ يرى هذه الأمور بعد أن أزاح حجب الطبيعة

١. التفسير الأمثل، ذيل الآية المذكورة.

والمادة عن بصيرته، فكان المكان والزمان ينطويان أمامه ويرى ما خلف الزمان والمكان، أجل عندما تزول الحجب والاستار عن قلب الإنسان وبصره بسبب مخالفته للأهواء والشهوات فإنّ هذا المجاهد يرى عالم الملك والملكوت.

٢. في تفسير الخطبة ١٨٩ من نهج البلاغة، أنّ الإمام علي‌ﷺ قال:

«أيُّهَا النَّاسُ سَلُوني قَبْلَ أنْ تَفْقِدُوني فَلَأنَا بِطُرُقِ السَّماءِ أعْلَمُ مِنّي بِطُرُقِ الأرْضِ». في هذا السياق ذكر كل من الشيعة[١] وأهل السنّة[٢] في مصادرهم الروائية: عندما كان الإمام علي‌ﷺ على المنبر قال له أحد الحاضرين: أين جبرائيل الآن؟ فتأمل الإمام علي‌ﷺ قليلاً وغرق في تفكير عميق ثم قال: لقد سرت في العوالم العليا والسفلى ولم أر جبرائيل، أعتقد بأنّك أنت جبرائيل، فما كان من ذلك الشخص إلّا أن أيد الإمام‌ﷺ وبعد ذلك اختفى من ذلك المجلس.

إنّ الإمام علياًﷺ وصل إلى هذا المقام السامي بحيث إنّه يسير في جميع العوالم العليا والسفلى كل ذلك بسبب مجاهدته لأهوائه وتهذيبه لنفسه.

سؤال: هل الإمام علي‌ﷺ بحاجة لمجاهدة النفس؟

الجواب: نعم، فالإمام علي‌ﷺ أيضاً كان يجاهد نفسه، وهو الذي يقول:

«وَإنَّما هِيَ نَفسي أرُوضُها بِالتَّقْوىٰ لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأكْبَرِ»[٣].

آخر ملاحظة!

تقدّم أن أحد المعاني اللغوية لتهذيب النفس هو خلوصها، ومن جهة أخرى فإنّ القرآن الكريم ذكر مفردة، مخلِصين (بالكسر) وأيضاً مخلَصين (بالفتح)، واللافت أن

---

١. بحار الأنوار، ج ٣٩، ص ١٠٨.

٢. إحقاق الحق، ج ٧، ص ٦٢١. في العنوان المذكور، ورد هذا الحديث عن محمد بن يوسف البلخي الشافعي، من علماء أهل السنّة. ويجدر هنا أن نشكر سماحة آية الله العظمى المرعشي النجفي‌ﷺ على حاشيته القيمة على كتاب إحقاق الحق وبذلك أحيا هذا الكتاب. ونسأل الله سبحانه لروحه الطاهرة الرحمة والمغفرة.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ٤٥.

كل واحدة من هاتين الكلمتين تكررت ثماني مرات في القرآن الكريم، والمخلِصين بالكسر، تعني الأشخاص الذين يتحركون على مستوى تخليص أنفسهم، والثانية المخلَصين تعني أنّ الله تعالى يعمل على تخليصهم.

سؤال: هل بإمكاننا تطهير أنفسنا وقلوبنا من كل هذه الشوائب والأهواء النفسانية، أم نحن بحاجة إلى المساعدة لتحقيق هذا الأمر المهم؟

الجواب: مع الالتفات إلى أنّ بعض الشوائب والأدران خافية على الإنسان وعلى حدّ تعبير النبي الأكرمﷺ أنّ حركتها كحركة النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء[1]، فإنّ سلوك هذا الطريق لا يمكن بدون تسديد إلهي ومعونة ربانية. ومن هذا المنطلق ينبغي السعي لتكون في زمرة المخلصين (بالكسر) حتى يكون الله تعالى هو الذي يتولى تخليص قلوبنا وتهذيب أنفسنا من الشوائب والأدران، ونكون بذلك من جملة المخلَصين (بالفتح).

والآية مورد البحث ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ إذا كانت كلمة «مَنْ» هي الفاعل فمضمون الآية يلتقي مع كلمة المخلِصين لأنّه في هذه الصورة يكون معنى الآية: «أنّ الشخص الذي يعمل على تهذيب نفسه وتخليصها من الشوائب سينال مقام الفلاح». وأمّا إذا كانت كلمة «مَنْ» مفعولاً، وأنّ الله تعالى هو الفاعل فإنّ مضمون الآية الشريفة يلتقي مع مفهوم «المخلَصين»، وفي هذه الصورة يكون تفسير الآية: «قد أفلح الشخص الذي زكّاه الله وهذّب الله نفسه من الشوائب» وطبعاً كلا الاحتمالين ينسجمان مع الآية الشريفة.

ثواب المخلَصين:

عندما يختار الله تعالى من عبادة الاتقياء مَن يجعله في مرتبة المخلَصين بسبب

---

١. بحار الأنوار، ج ١٨، ص ١٥٨.

مجاهدته لأهوائه النفسانية وسعيه في خط تهذيب النفس والعبودية والاستقامة، فإنّ هذا العبد سينال مقاماً رفيعاً إلى درجة أنّه يكون آمناً من وساوس الشيطان فلا يستطيع الشيطان النفاذ إلى قلبه، كما أنّ الشيطان نفسه أقرّ بهذه الحقيقة وقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[1].

المثوبة الأخرى للمخلَصين أنّهم ينالون ثواباً لا حدّ له ولا حصر كما تشير الآية ٤٠ من سورة الصافّات:

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

فهؤلاء المخلَصين هم عارفون بالله على نحو الحقيقة كما تشير ذلك الآية ١٥٩ من سورة الصافّات:

﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

أيّها القارىء العزيز! ينبغي لنا السعي للإقتداء بهؤلاء العباد المخلَصين ونتحرك في حياتنا وسلوكياتنا في خط المخلصين ونطلب من الله مد يد العون لنا لنتمكن من تخليص أنفسنا وتطهير قلوبنا بالمقدار الممكن لنحصل على اللياقة والقابلية للورود في زمرة المخلَصين.

المحور الثالث: العلاقة بين «المُقْسَمُ بِه» و«المُقْسَمُ لَهُ»

إنّ الأقسام الأحد عشر بالموجودات العظيمةالواردة في هذه السورة، تعتبر مقدّمة لبيان موضوع مهم جدّاً، وهو أنّ الإنسان إذا انطلق في حياته من موقع تزكية النفس وتطهير وجوده من الرذائل الأخلاقية والتسويلات الشيطانية، فإنّه سينال النجاة والفلاح، وبكلمة واحدة: إنّ النجاة في تهذيب النفس ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾.

وقد يثير البعض هذا السؤال، وهو: ما هي العلاقة بين الشمس والقمر والليل

---

١. سورة الحجر، الآية ٤٠.

والنهار والأرض والسماء وروح الإنسان وخالقها، وبين تزكية النفس، بحيث إنّ الله تعالى ومن أجل بيان أهميّة جهاد النفس ومحاربة الأهواء النفسانية يقسم بتلك الموجودات العظيمة وبخالقها؟

وببيان آخر ما هي العلاقة بين «المقسم به» و«المقسم له»؟

الجواب: إنّ الله تعالى يريد أن يقول للإنسان:أيّها الإنسان! لقد جمعت لك جميع أدوات الخير وعوامل السعادة والفلاح، فقد سخرت لك الشمس والقمر والأرض والسماوات، وخلقت لك الليل والنهار لاستراحتك ونشاطك وكسبك، ونفخت فيك من روحي العظيمة، وألهمتك عناصر الخير والشر، كل ذلك لتتحرك في خط تهذيب النفس وتطهير القلب من الأهواء والشهوات والأخلاقية السيئة والصفات الذميمة، وبذلك تستطيع أن تحصل على النجاة والفلاح، فعليك بأن تشحذ همّتك وتشدّ من عزمك وتصعد في معراج السعادة والرقي وتطوي المراحل إلى الكمال، الواحدة بعد الأخرى لتنال مقامات سامية وتحصل على اللياقة لتكون خليفة الله تعالى في الأرض.

وفي هذا السياق تتبيّن العلاقة بين الأقسام الأحد عشر المذكورة من جهة، وبين تهذيب النفس من جهة أخرى.

* * *



الفصل الثاني

الأقسام الخمسة


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

١

أقسام سورة الطور

﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾

تقدمت الإشارة إلى أنّ ثمّة أربع سور قرآنية تتضمن أقساماً خمسة لكل واحدة منها، وهذه السور عبارة عن : ١. سورة الطور ٢. سورة المرسلات ٣. سورة النازعات ٤. سورة الفجر.

والملفت للنظر أنّ المقسم به في جميع هذه السور القرآنية، أي ما أقسم الله به شيء واحد، وهو عبارة عن حقيقة وجود العذاب الأُخروي والعقاب الإلهي، وبينما تتحدّث سورة الفجر عن العذاب الإلهي في هذا العالم، فإنّ السور الأُخرى تتحدّث عن وجود وواقعية العذاب الإلهي في العالم الآخر.

شرح و تفسير:

إنّ الأقسام الخمسة الواردة في السورة الشريفة تتضمن جميعها نوعاً من

الغموض والإبهام بحيث لا يمكن فهم المقصود منها بدون تفكر وتـدبر، وكأنّ الله تعالى أراد من المخاطبين أن يتدبروا أكثر لفهم مقاصد ومعاني القرآن الكريم، وبذلك ينتفعون أكثر بهذه النعمة الإلهيّة العظيمة. ومهما يكن من أمر فإنّ المفسّرين طرحوا في تفسير هذه الآيات الشريفة نظريات وآراء مختلفة، المهم منها ثلاثة تفاسير:

التفسير الأوّل: حياة بني إسرائيل

إنّ جميع هذه الأقسام الإلهيّة ناظرة إلى حياة بني إسرائيل فـي واقـع التـاريخ البشري، فالمقصود من «الطور» ذلك الجبل الذي صعد عليه موسى بن عمران عليه السلام حيث نزل عليه الوحي في ذلك المكان، وبعد استلامه للوحي عاد لقومه وأبـلغهم رسالة الله تعالى إليهم، وقيل إنّ هذا الجبل، هو جبل صغير الحجم، وإنّما صار مقدّساً وعظيماً بسبب نزول الوحي عليه، وإلاّ فإنّ هذا الجبل حسب الظاهر لا يتوفر على أي معالم العظمة والشموخ.

أمّا المراد من «كتاب مسطور» فهو «التوراة» الذي نزلت على موسى عليه السلام في الجبل.

ويعتقد هؤلاء المفسّرون أنّ «البيت المعمور» هو بيت المقدس الذي كان محور الرسالات الإلهيّة. والمنطقة التي كان موسى عليه السلام مأموراً بإبلاغ الرسالة الإلهيّة فيها، وهي بالتالي عاصمة بني إسرائيل.

وأمّا «السقف المرفوع» فهو كما ورد في الآيات القرآنية ومنها الآية ١٧١ مـن سورة الأعراف، الجبل الذي رفعه الله تعالى على قوم بني إسرائيل في صحراء سيناء:

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وعلى هذا الأساس فالمراد من السقف المرفوع الصخرة التي انفصلت من جبل الطور بأمر الله تعالى وارتفعت فوق بني إسرائيل، وقد تصور هؤلاء أن هذا الجبل

العظيم سيهبط عليهم ويقتلهم، ولذلك أعطوا العهود والمواثيق بالطاعة، وحين ذلك أعاد الله تعالى الجبل إلى مكانه الأول.

وأمّا «البحر المسجور» فهو إشارة إلى قصّة قارون، وقد ذكر القرآن الكريم هذه القصّة في الآية ٨١ من سورة القصص حيث يقول:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾.

ويقال إنّ الأرض خسفت بقارون وبداره إلى أعماق الأرض ووصل إلى قعرها حيث كان هناك بحر مسجور من النار والمواد المذابة والمنصهرة، وعليه فإنّ «البحر المسجور» إشارة إلى قعر الأرض التي وصل إليها قارون وداره.

والعجيب أنّ تعالى عندما يريد أن يعاقب جبّاراً من الجبابرة يأمر جنوده من السماء والأرض أن تؤدي وظيفتها في عقاب هذا المجرم، فالأرض التي كانت بمثابة المهد لهذا الإنسان وسبباً في راحته باتت عاملاً وسببه لعذابه وهلاكه، ونظير ما ورد في القرآن الكريم عن عذاب قارون، حصل كذلك في عصرنا وزماننا، فقبل سنوات حدثت زلزلة في شمال أفريقيا وبعد وقوع الزلزلة توجهت فرق الانقاذ لمساعدة المنكوبين في إحدى القرى التي أصابتها الزلزلة، ولكنّهم لم يجدوا أي أثر لتلك القرية وكأنّ الأرض فتحت فمها وابتلعتها عن آخرهم وجميع ما كان فيها من دور ومزارع وممتلكات وأشخاص.

وهكذا يتبيّن بمقتضى التفسير الأول أنّ المراد من كلمة «طور» الجبل المعروف بجبل سيناء، و«الكتاب المسطور» هو التوراة، و«البيت المعمور» هو بيت المقدس، و«السقف المرفوع» هو الجبل الذي ارتفع فوق بني إسرائيل، و«البحر المسجور» قصّة خسف الأرض بقارون وأمواله وابتلاع الأرض له.

التفسير الثاني: المقدّسات التشريعية والتكوينية

التفسير الثاني والذي أعتقد أنّه ينسجم أكثر مع سياق الآيات الشريفة ومدلولها كالتالي:

إنّ الأقسام الثلاثة الأُولى الواردة في هذه السورة تتعلق بالمقدسات التشريعية، والقسمين الأخيرين يرتبطان بالمقدسات التكوينية وناظران إلى مسألة المبدأ والمعاد.

أمّا «الطور» فهو الجبل الذي تمّ نزول الوحي السماوي عليه.

والمقصود من «الكتاب المسطور» القرآن الكريم. فالله تعالى أقسم في هذه السورة بهذا القرآن مضافاً إلى أنّ النبي الأكرمﷺ لم يعمل على إخفاء القرآن، بل أبلغه إلى الناس بصراحة وعمل على نشره وإبلاغه للناس كافة.

وأمّا «البيت المعمور» فهو البيت السماوي الذي يقع في الملكوت الأعلى.

والسبب في تسمية ذلك البيت السماوي بـ «البيت المعمور» هو أنّ ذلك البيت عامر بعبادة الله تعالى، وعليه فإنّ كل بيت يعبد فيه الله تعالى فإنّه معمور ومبارك، والبيت المتلوث بالفسق والفجور فهو بيت منهار ومنهدم.

وأمّا «السقف المرفوع» فالمقصود به السماء، كما ورد ذلك في الآية الشريفة ٣٢ من سورة الأنبياء:

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظًا﴾.

سؤال: هل السماء عبارة عن سقف مرتفع عن الأرض كما ورد في هيئة بطليموس؟

الجواب: ذكروا تفسيرين لهذه الآية الشريفة:

الأول: إنّ المقصود من «السقف المحفوظ»، النجوم الكثيرة المتناثرة في السماء، فعندما ننظر إلى النجوم بالعين المجرّدة فسوف نراها نجوماً متناثرة ومتباعدة عن

بعضها، ولكن عندما نشاهدها بجهاز التلسكوب فسوف نرى السماء زاخرة بالنجوم وكأنّ السماء مغطاة بالنجوم، وحالها حال السقف على الأرض، فإنّ عدد النجوم التي ترى بالعين المجرّدة لا يتجاوز خمسة آلاف نجمة، في حين أنّ عددها في مجرّة درب التبانة فقط يبلغ مليوني نجمة.

التفسير الثاني: المقصود من السقف المحفوظ هو جو الأرض، فالجو المحيط بالكرة الأرضية لطيف ورقيق جدّاً وكأنّه بمثابة السقف المحيط بجوانب الأرض، ويقال إنّ قدرة الجو بقدر قدرة طبقة من الفولاذ بسمك عشرة أمتار، فهذا الجو هو الذي يمنع الشهب والنيازك التائهة في الفضاء من الوصول إلى الأرض وإلحاق الأذى بالناس، فما أن يقترب نيزك من جو الأرض إلّا ويحترق ويتبدل إلى رماد، فلولا هذا السقف المحافظ حول الكرة الأرضية فإنّ هذه النيازك المذكورة ستصل إلى الأرض وتلحق أضراراً فادحة بالبشر والأحياء الأخرى، وهذا بذاته معلم من معالم توحيد الله وعظمته ولطفه بعباده حيث خلق مثل هذا الجو حول الأرض كالسقف المحفوظ ليعيش الناس بأمن وأمان من الأخطار السماوية.

وعندما نسمع في هذه الأيّام عن حدوث ثقب في طبقة الأوزن وتداعيات هذا الحدث من نفوذ الأشعة فوق البنفسجية الخطيرة إلى سطح الأرض وما تخلقه من أمراض وأخطار، كل ذلك يبيّن لنا أهميّة هذا السقف المرفوع.

النتيجة إنّ المقصود بالسقف المرفوع في هذه الآية هو السماء.

وأمّا «البحر المسجور» في التفسير الثاني، فهو إشارة إلى قرب وقوع يوم القيامة كما تصرّح بذلك الآية ٦ من سورة التكوير في وصفها لعلائم يوم القيامة:

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾.

سؤال: هل من الممكن أن تحترق البحار؟

الجواب: إنّ الماء يمثّل العنصر الذي يطفيء النار، وهو مكوّن من عنصرين:

الاوكسجين والهيدروجين، وكل واحد منهما قابل للإشتعال. فإذا صدر الأمر الإلهي لمياه البحار بالإشتعال فإنّها تتجزأ وتتبدل إلى أوكسجين وهيدروجين ومن اليسير أن تشتعل، وهذا بحدّ ذاته آية على التوحيد.

التفسير الثالث:

المقصود من «الطور» هو الجبل الذي تمّ فيه نزول الوحي على موسى بن عمران عليه السلام، وأمّا «الكتاب المنشور» فطبقاً لهذا التفسير هو «كتاب الأعمال». لأنّ كلمة «منشور» لم ترد في القرآن سوى في موردين فقط، أحدهما في هذا المورد في سورة الطور، والمورد الآخر في الآية ١٣ من سورة الاسراء، حيث يراد منه كتاب الأعمال:

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً﴾.

وطبقاً لهذه الآية الشريفة فإنّ كتاب أعمال الإنسان ينشر يوم القيامة وكأنّ الآخرين يستطيعون قراءة هذا الكتاب، وهنيئاً للأشخاص الذين لا يصيبهم الخوف والهلع من قراءة الآخرين لكتابهم بل يسرّون من ذلك ويفرحون به، وتعساً لأولئك الذين يخشون الفضيحة في ذلك اليوم وانكشاف أسرارهم وسيئاتهم.

النتيجة أنّه طبقاً للآية محل البحث فالمقصود من الكتاب المنشور، الذي يقسم الله تعالى به في هذه الآية، هو كتاب الأعمال.

سؤال: لماذا أقسم الله بكتاب الأعمال؟ وهل كتاب الأعمال يملك هذا المقدار من الأهميّة؟

الجواب: إنّ أهميّة كتاب أعمال الأبرار والصالحين واضحة ولا تحتاج إلى بيان وشرح، وأمّا أهميّة كتاب أعمال الفجّار والمجرمين فمن جهة أنّ الناس يوم القيامة

يطلعون على هذا الكتاب ويطلعون على جميع أسرار هؤلاء المجرمين، وهذا من شأنه أن يكون عاملاً على منع هؤلاء المجرمين من ارتكاب الجرم، و الشيء الذي يعيق الإنسان عن ارتكاب الذنب والمعصية فهو شيء مقدّس ويمكن القسم به.

سؤال آخر: ماذا يكتب في كتاب الأعمال؟

الجواب: إنّ الله تعالى يقول على لسان الأشخاص الذين تملكهم الدهشة والحيرة يوم القيامة من دقّة هذا الكتاب:

﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾[1].

وعلى ضوء ذلك فإنّ كتاب الأعمال يدوّن فيه جميع الأعمال والأقوال الصغيرة والكبيرة للإنسان طيلة عمره، حتى الأعمال التي يراها الإنسان تافهة وغير مهمة.

السؤال الثالث: ما هي حقيقة كتاب الأعمال؟

الجواب: إنّ معلوماتنا عن مسائل الآخرة وتفاصيلها ليست سوى مفاهيم كلية وإجمالية، وتفاصيل وجزئيات ذلك اليوم غير واضحة لدينا، ونحن نعلم ونؤمن بوجود الجنّة والنار والحساب والكتاب وعرض الأعمال والثواب والعقاب بشكل عام، وأمّا جزئيات هذه الأمور فغير واضحة، ولو أنّ القرآن الكريم سعى لبيان هذا التفاصيل والجزئيات فلعلنا لا نستطيع درك هذه الأمور، لأننا نعيش في عالم أدنى من ذلك العالم العلوي، وعليه فنحن نعيش في عالم محدود وضيق ولا يمكن بكلماتنا وقوالب الألفاظ واللغات البشرية والتصورات الذهنية المحدودة في هذا العالم، بيان وفهم المفاهيم العالية لذلك العالم، كما أنّ الجنين في بطن أمّه الذي لا يفهم سوى الدم وغشاء الرحم المحيط به ومقدار الاوكسجين الذي يصل إليه من خلال الدم، غير قادر على إدراك مفهوم الشمس المشرقة والقمر المنير وجمال الطبيعة خارج رحم الأم حتى لو كان من الأفراد النوابغ مثل ابن سينا، وعلى هذا

---

١. سورة الكهف، الآية ٤٩.

الأساس فإنّ جزئيات كتاب الأعمال وسائر المفاهيم المتعلقة بعالم الآخرة غير واضحة لنا، ولكننا نعلم إجمالاً بها ونؤمن بهذه الأمور التي تقع في الآخرة.

النتيجة: إنّ المقصود من الكتاب المنشور هو «كتاب الأعمال».

وأمّا «الكتاب المسطور» فقد فسّر بـ«اللوح المحفوظ»، ولكن يبدو وقوع خطأ في هذا التفسير، فمقصودهم من ذلك «لوح المحو والإثبات». لأنّ أي إنسان حتى الأنبياء والأئمّة عليهم السلام ليس لديهم علم بما في اللوح المحفوظ، فعلمه يختص بالله تعالى، ومن هذه الجهة سمّي باللوح المحفوظ، ومهما يكن من أمر فإنّ لوح المحو الإثبات هو لوح كتبت فيه أخبار الماضي والحاضر والمستقبل، ولكنّ هناك شروطاً في الإثبات والمحو، ومن هنا فهو قابل للتغيير، مثلاً إذا كتب في لوح المحو والإثبات أنّ مصير الشاب الفلاني سيموت في حادثة معينة في سن الشباب، ولكنّ هذا الشاب إذا وصل رحمه وأحسن إلى والديه ورعاهما مثلاً فإنّ هذا العمل يوجب له طول العمر ويتغير ما كتب في لوح المحو والإثبات ويحذف من قائمة الشبّان الذين يموتون في سن مبكرة.

وبتعبير آخر، فإنّ لوح المحو والإثبات هو لوح المقتضيات ولم تذكر فيه الموانع والشروط، ولهذا فإنّ الأنبياء كان لديهم علم بما في هذا اللوح، وأمّا اللوح المحفوظ، فإنّه ثابت وفيه أخبار ووقائع ثابتة وغير قابلة للتغيير و التبديل.

الخلاصة، طبقاً للتفسير الثالث فإنّ المقصود من الكتاب المسطور هو «لوح المحو والإثبات».

أمّا «البيت المعمور» فبعض فسّره بالكعبة، لأنّ الكعبة هي البيت الذي بناه إبراهيم الخليل عليه السلام، وهذا البيت يزدهر على مرور الزمان، مضافاً إلى أنّ هذا البيت معمور بالعبادة والمعنوية.

عندما يدخل المسافر إلى مكة والمسجد الحرام ويطوف بالبيت الحرام ويفكّر

بما جرى لهذا البيت طيلة سنوات مديدة بعد بعثة النبي الأكرم ﷺ وكم من العظماء والشخصيات الكبيرة والأولياء الذين طافوا بهذا البيت وعبدوا الله عنده، فإنّه سيعيش حالة السعادة والسرور لهذا التوفيق الإلهي الذي أنعم الله به عليه في هذه العبادة.

وبالرغم من أنّ النبي إبراهيم عليه السلام ترك زوجته وابنه بأمر من الله تعالى في هذه الصحراء المحرقة وبلا ماء وكلأ ﴿إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾[1] ولكن الآن ليس هناك أثر لتلك الصحراء الجافة فقد عمرت وتحوّلت إلى مدينة كبيرة تزدهر بالعمران الظاهري والمعنوي بحيث إنّ أفضل الفاكهة والبضائع في العالم تنهمر عليها من كل حدب وصوب. على أيّة حال فالمقصود بالبيت المعمور طبقاً لهذا التفسير هو الكعبة.

أمّا كلمة «مسجور» في الآية «البحر المسجور» فمن مادّة «سَجَرَ»، وسَجَر في لغة العرب لها معنيان:

١. النار المشتعلة؛ فعندما يشعلون النار في التنور يقال إنّه تنور مسجور.

٢. المليء، يقولون عن الحوض المليء بالماء إنّه مسجور، وطبقاً لهذا المعنى فإنّ «البحر المسجور» هو البحر الزاخر بالمياه، والعجيب أنّ مياه البحار والمحيطات على رغم المدّة المديدة والحقب الزمنية لم تقل نسبتها أبداً. لأنّ دورة الطبيعة تجعل المياه المتبخرة من هذه البحار والمحيطات بسبب حرارة الشمس تعود إليها مرّة أخرى، أجل فإنّ الله تعالى جعل من هذه البحار والمحيطات مصدر الطاقة والأغذية للبشر، فعلى رغم أنّ البشرية تنتفع من هذه البحار والمحيطات آلاف الأعوام، إلّا أنّ خيراتها وبركاتها لم تقلّ شيئاً.

---

١. سورة إبراهيم، الآية ٣٧.

النتيجة. وطبقاً لهذه التفاسير المختلفة لهذه الأقسام الخمسة الواردة في بداية سورة الطور، والتي ذكرنا ثلاثة تفاسير منها، فالظاهر أنّ التفسير الثاني هو الأنسب مع سياق الآيات والمفاهيم والأكثر انسجاماً مع المفاهيم القرآنية، لأنّه طبقاً لهذا التفسير فإنّ الارتباط المنطقي بين هذه الأقسام والمقسم له أوضح وأكثر معقولية.

المحور الثاني: المقسم له

بعد ذكر الأقسام الخمسة يتحرك القرآن الكريم للحديث عن العذاب الإلهي العظيم وأنّه حقيقة لا مجال للريب فيها، ونكتفي هنا بالاجابة عن سؤالين في هذا المجال:

السؤال الأوّل: ما هو هدف الله تعالى من تعذيب المجرمين؟ فلو أنّ جميع أفراد البشر في العالم تحركوا في خط الكفر والشرك فإنّ ذلك لا يؤثر شيئاً في عظمته وكبريائه، كما أنّهم لو عاشوا الإيمان واعتنقوا الإسلام بأجمعهم فإنّ ذلك لا يزيد من عظمته وجلالته وكبريائه، فعندما لا يؤثر كفر الناس وإيمانهم شيئاً بالنسبة للذات المقدّسة، فلماذا يعاقب الله تعالى هؤلاء العصاة والمتمردين؟

الجواب: إنّ العقوبات الإلهيّة على ثلاثة أقسام:

أ) إنّ بعض هذه العقوبات ناشئة من خصوصيات أعمالنا وانعكاسات آثارها في العالم الآخر، وبعبارة أخرى، إنّ هذه العقوبة بمثابة الأثر الوضعي للعمل، فالشاب الذي يتناول المخدرات لمدّة أسبوع مثلاً فإنّه يعتاد عليها ولا يستطيع بعد ذلك اجتنابها، فهذا الشاب قد ألحق الضرر بنفسه وأهدر عمره وشبابه بسبب هذه الأيّام المعدودة التي تناول فيها المخدرات، فهذا الاعتياد وتلف العمر وضياعه يعتبر من النتائج الحتمية والآثار الوضعية لعمل هذا الشخص، فلا يمكن اجتناب هذه النتيجة بعد أن تناول هذا السم المهلك بيده واختياره، فالشخص الذي يقضي ساعة من

عمره باللذة المحرمة ويشرب كأس الخمر مثلاً فإنّه وعلى أثر استمراره على هذا الذنب الكبير فإنّ عمله هذا يؤدي إلى الإضرار بدماغه وكبده وقلبه ورئتيه، فهذه الأضرار البدنية ناتجة عن ذلك العمل بشكل طبيعي ونتيجة عمله واختياره، وعلى ضوء ذلك فإنّ أعمال الإنسان في هذه الدنيا ستترك آثاراً ونتائج في حياته الأخرى وتظهر له يوم القيامة على شكل مثوبات أو عقوبات في ذلك اليوم، كما يقول الشاعر:

إذا زرعت نبتة الورد فسوف تتفتح الأزهار وتغني على أغصانها البلابل
وإذا زرعت الشوك فسوف تحصد شوكاً
فلو زرعت في أرض قلبك شوكاً فأنت الذي تتألم من وخزه غداً

الخلاصة أنّ أعمالنا في هذا الدنيا بمثابة البذر الذي يبذره الفلاح في الحقل، فإذا كان ذلك البذر بذر الورد والريحان، فإنّ هذا الفلاح سيستنشق بعد أيّام العطور من هذه الورود الجميلة، ويرى بعينه ألوانها الجميلة، ويسمع بأذنه ألحان البلابل وهي تغرد فوق أغصانها، وأمّا إذا كان البذر بذر شوك، فعليه أن يتوقع أن يصيبه شوكها وتتألم قدمه يوماً من وخزها.

ب) والبعض الآخر من العقوبات هي من قبيل تجسّم الأعمال، فأعمالنا وأقوالنا كلها لا تفنى ولا تنعدم في هذه الدنيا بل ستظهر بشكل آخر في يوم القيامة، مثلاً ستتجلى بشكل صديق وحبيب مخلص لصاحبها في القيامة ويكون هذا الصديق الحبيب جليسه في الجنّة، واللطيف أنّ العلماء في هذا العصر استطاعوا اعادة أصوات أصحاب الخزف المصرين الذين كانوا يعيشون قبل ثلاثة آلاف سنة وهم يتحدّثون عن صناعة الآنية الخزفية، وذلك عن طريق إيجاد أمواج خاصّة على الآنية الخزفية التي عثر عليها في بقايا آثار الفراعنة، وثبت بذلك أنّه لا يفنى ولا ينعدم شيء حتى الأمواج الصوتية، وبذلك نفهم أنّ بعض أنحاء العذاب الذي يطال

المجرمين هو من قبيل تجسم الأعمال التي ارتكبوها في هذه الدنيا.

ج) القسم الآخر من أنواع العذاب والعقوبات هي العقوبات العقدية، كما أنّ مثل هذه العقوبات موجودة في الدنيا، مثلاً القانون يقرّ أنّ عقوبة المهربين للمواد المخدرة هي الإعدام، وفي قوانين الإسلام نجد مثل هذه العقوبات، فجعل هذه العقوبات يعود إلىٰ أفراد المجتمع أنفسهم بالنفع ويؤثر في الحيلولة دون تكرار هذه المخالفات والجرائم، وبما أنّ الله تعالى هو الذي وضع هذه الأحكام الجزائية ووعد مَن يرتكب مثل هذه المعاصي بالعذاب في الآخرة، فإنّ الله لا يخلف وعده وسيعذب المجرمين على ما ارتكبوه من أعمال وجرائم، حتى لو لم يكن هناك أدنى حاجة لتعذيب هؤلاء، النتيجة أنّ أيّاً من أنحاء العقوبات الثلاث في الآخرة لا تتصل بحاجة الذات المقدّسة لها.

التناسب بين العقوبة والجريمة:

السؤال الثاني: ألا ينبغي أن يكون هناك تناسب بين العقوبة والجرم الذي ارتكبه المذنب؟ وممّا لا شك فيه أنّ كل جرم له عقوبة خاصة متناسبة معه، فأحياناً تكون ضربة سوط فقط، وأحياناً أخرى خمسين سوطاً، وثالثة مائة سوط، وتارة يكون الذنب ثقيلاً إلى درجة أنّه يحكم على مرتكبه بالموت، بل نشاهد بعض المجرمين يحكمون بالإعدام عشر مرات، وهذا يدّل على عمق جريمتهم وعظم ذنبهم، ومع الالتفات إلى هذا المعنى فإنّ الكفّار والمعاندين والجبابرة الفراعنة الذين غرقوا طيلة عمرهم في وحل الذنوب والمعاصي والجرائم، فينبغي أن تكون عقوبتهم متناسبة مع جرائمهم، فلو أنّهم قضوا من عمرهم خمسين سنة في المعصية والإثم فيجب أن يقضوا خمسين سنة من العقوبة، لا أنّهم يخلدون في النار يوم القيامة. ومن هذا المنطلق يأتي هذا السؤال: ألا يتنافى خلود الكفّار في عذاب جهنّم مع حكمة الله وعدالته؟

الجواب: يتبيّن جواب هذا السؤال ممّا تقدّم في جواب السؤال السابق، فعندما تكون العقوبة والعذاب انعكاساً لما ارتكبناه من أعمال في هذه الدنيا فلا غرابة في الخلود في العذاب الأُخروي، فلو انخدع الإنسان بوساوس الشيطان وتلوث بشرب الخمر مدّة قصيرة وأثّر ذلك على قلبه وأدى إلى عطبه ومرضه المزمن، فهل هناك ملوم غيره؟ وهل يمكن القول إنّ تناول الخمر مدّة شهر واحد لا يتناسب مع الوقوع في فراش المرض طيلة العمر؟

وإذا اتجه شاب نحو المخدرات وبدافع من الهوى والشهوة وتلوث بها مدّة أسبوع واحد ثم صار مدمناً عليها، وبالتالي تحمل العذاب والمأساة والمعاناة طيلة عمره، فمن هو المقصر؟

إذا كان للإنسان جناحان وأعطي له العمر الخالد، ثم إنّه بنفسه أحرق جناحه وفقد القدرة على التحليق والطيران بشكل دائم، فمن هو الملوم؟ هل يقول أحد إنّ هذه العقوبة، وهي الحرمان الأبدي من الطيران، غير عادلة ولا تتناسب مع الفعل؟

إنّ آثار ونتائج الذنوب متفاوتة، فبعض الذنوب لها آثار مؤقتة وقصيرة المدّة، وبعضها ذات آثار طويلة المدّة، وبعضها الآخر لها آثار ونتائج باقية وخالدة، وهذا الأمر لا يتنافى مع عدالة الله وحكمته، فربّما تتسبب لحظة واحدة من الهوى والشهوة في الندم طيلة العمر، ونلاحظ أنّ بعض الأطفال الذين يلعبون أيّام العيد بالمواد المتفجرة ويقذفون بها من كل جانب فلو أصابت عينه فسوف يفقد بصره إلى آخر العمر، فبالرغم من أنّ خطأه استغرق لحظة واحدة، ولكنّ نتيجته تستغرق طيلة العمر.

العلاقة بين الأقسام والمقسم له:

إنّ القسم بالجبل، القسم بالقرآن الكريم، القسم بالسماء، القسم بالبيت المعمور، القسم بيوم القيامة والبحر المسجور فيها، القسم بهذا المقدسات الخمسة التشريعية

والتكوينية، لغرض التوكيد على أنّ عذاب الله للمجرمين قطعي وحتمي، ولا يوجد أي مانع بإمكانه منع وقوع العذاب على هؤلاء، فطبعاً التوبة مانعة من العذاب، ولكنّها بإذن الله، والشفاعة بدورها تمنع العذاب ولكنّها بإذن الله، والخلاصة أنّ كل شيء لا يمكنه منع تحقق وتنجز العذاب الإلهي بدون إذنه، ولكن ما هي العلاقة بين الأقسام المذكورة وحتمية تحقق وتنجز العذاب الإلهي؟

الجواب: إنّ العلاقة واضحة، لأنّ الله تعالى يقول: أيّها الإنسان! لقد خلقت كل شيء من أجلك، وسخرت السماوات بجميع ما فيها من نجوم وكواكب، والبحار بجميع ما فيها من أطعمة وبركات اقتصادية وعملية وترفيهية، وأنزلت عليك الكتاب السماوي وهو القرآن، وبيّنته لك بواسطة النبي الكريم، والخلاصة أنني قد جمعت لك جميع أسباب السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، وأتممت عليك الحجّة، ولكنّك بالرغم من ذلك اتجهت صوب الخطيئة واتبعت الدوافع الشريرة التي ساقتك نحو منزلقات الهاوية وقادتك بعيداً عن أجواء السعادة والنجاة، ولذلك لابدّ من وقوع عذابي عليك ولا شيء بإمكانه منع وقوع هذا العذاب الإلهي.

* * *

٢

أقسام سورة المرسلات

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾﴾

المحور الأوّل: شرح وتفسير الأقسام

إنّ الله تعالى يقسم في هذه السورة أيضاً بخمسة أقسام مهمّة أيضاً، وموضوع الأقسام في هذه السورة يلفه الغموض والابهام أيضاً كما في سورة الطور، والغرض من هذا الابهام كما تقدّم سابقاً، تحريك عناصر الفكر والتدبر في الإنسان، لأنّ أساس سعادة الإنسان تكمن في التفكير والتدبر، فالإنسان إذا كان من أهل التفكير فهو يتحرك في خط السعادة والفلاح، أمّا الأشخاص الذين لا يستفيدون من هذه النعمة الإلهيّة العظيمة ولا ينطلقون في حياتهم من موقع التفكير والتدبر فسيسقطون في وادي الضلالة ويكون مصيرهم الشقاء الأبدي، والعذاب الخالد.

وقد ذكر المفسّرون لهذه الأقسام المذكورة تفاسير متعددة ولا يوجد تنافٍ وتقاطع بين هذه التفاسير، وفي تقديري أنّه لا مانع من تفاسير مختلفة للآيات

القرآنية فكلّها تكون صحيحة، حسب نظر كلّ مفسّر لأنّه من الممكن أن يكون للآية معنى ظاهري، ومعنى آخر باطني، وثالث في باطن ذلك الباطن وهكذا، بل ربّما يستوحى من آية واحدة سبعون معنىً، وبخاصّةٍ إذا كنّا نعتقد بجواز استعمال اللفظ في أكثر من معنىً واحد، وبإمكانية ذلك عقلاً. على أية حال نكتفي هنا بالإشارة إلى تفسيرين من هذه التفاسير لهذه الأقسام الخمسة:

التفسير الاوّل: الرياح المسببة للأمطار

طبقاً لهذا التفسير فإنّ هذه الأقسام الخمسة ناظرة إلى الرياح التي تتسبب في هطول الأمطار وبيان مراحلها المختلفة من تراكم السحب ونزول المطر إلى تفرّق هذه السحب:

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً﴾.

فهنا ورد القسم بالرياح التي تنطلق بشكل متتابع، «عرف» في اللغة بمعنى «شعر الفرس خلف رقبته»، وبما أنّ عرف الفرس يتشكل من الشعر المجتمع، فالناس يطلقون على كل شيء متتالٍ ومتجمع كلمة «عرف» ولذا اطلقوا على شعر رقبة الفرس عرف، وعندما يقال «عرف الناس» فلأنّ هذا العمل متداول بين الناس ويعملون به مرّة بعد أخرى حتى أضحى عرفاً لهم، وعلى هذا الأساس يكون المقصود من جملة «المرسلات عرفاً» هي الرياح التي تهب بين الآونة والأخرى بشكل متتابع.

﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً﴾.

ويطلق العرب على الرياح الاعتيادية كلمة «ريح»، وعلى الريح الشديدة كلمة «عاصفة»، فالرياح الاعتيادية تهب بشكل متوالٍ، وتدريجياً تتحوّل إلى عاصفة وزوبعة، وتؤدي إلى جمع السحب المتناثرة في السماء.

﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً﴾.

وبعد أن تتبدل الرياح إلى عاصفة شديدة تقوم بجمع السحب المتناثرة ودفعها إلى المناطق المحتاجة إلى الماء ويهطل المطر منها بأمر الله تعالى على تلك المناطق.

﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً﴾.

وبعد أن تمطر السحب بمقدار كافٍ وتروي بمائها الأراضي الجافة، تبدأ المرحلة التالية لوظيفة الرياح وهي العمل على تبديد السحب ومنع هطول المطر، لأنّه لو استمر نزول المطر بعد إرواء الأراضي، فإنّ ذلك من شأنه أن يؤدّي إلى السيل وتدمير تلك المناطق، ومن هنا فالرياح تقوم بتفريق وتبديد السحب المتراكمة لينقطع المطر، وبالتالي منع حدوث السيول المخربة.

﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً﴾.

وبعد أن تنتهي الرياح من مهمتها في إيصال المياه إلى الأراضي الضمأى في مراحل مختلفة فإنّها توصل بذلك الرسالة الإلهيّة للناس وتحكي عن عظمة الله وقدرته ورحمته بالعباد.

﴿عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾.

فالرسائل التي تحملها الرياح للناس بالنسبة للكفّار الذين يتحركون من موقع التمرد والعناد ولا يدركون عظمة الله وقدرته ورحمته من هذه الآيات والظواهر السماوية، يعدّ نوعاً من اتمام الحجّة عليهم، أمّا بالنسبة للمؤمنين فإنّ رسالة الرياح تقودهم إلى اليقظة والانتباه إلى الآيات الإلهيّة وبالتالي تحركهم في خط الطاعة و الرسالة والانفتاح على الله.

إنّ القسم بالرياح المتتالية، والقسم بالعواصف والقسم بما تنشره الرياح من السحب، والقسم بالرياح التي تقوم بتبديد السحب، والقسم بالرياح التي توصل رسالة الله للناس، كلّ هذه الأقسام بهذه الأمور العظيمة من أجل التأكيد على أنّ وعد الله منجز وحتمي في يوم القيامة.

مهمّة الرياح!

لماذا أقسم الله تعالى بالرياح بشكل متكرر؟ هل الرياح بهذه الدرجة من الأهميّة بحيث إنّ الله تعالى يقسم بها أكثر من مرّة؟

من أجل الاجابة عن هذا السؤال ينبغي الإشارة إلى مهمّة الرياح ووظيفتها من قِبل الله تعالى، ثم نتحدث قليلاً عن هذه الظاهرة الطبيعية وكيف أنّ الرياح مسخرة لخدمة الإنسان الذي يعتبر خليفة الله. وبالجملة فإنّ وظيفة الرياح تتجلى في خمسة أمور:

١. سقي الأرض

إنّ سقي جميع المناطق الجافة والأراضي المحتاجة للماء أحد أهم وظائف الرياح، فالرياح تقوم بدفع السحب والغيوم وتعمل على ربطها ببعضها وبالتالي انزال المطر على تلك الأراضي، فلولا وجود الرياح فإنّ الأبخرة المتصاعدة من البحار تتحوّل إلى سحب وتتجمع في مكانها وتمطر مرّة أخرى على البحار نفسها وتعود هذه المياه إلى البحر دون أن تصل قطرة منها إلى الأراضي الجافة. وبالتالي فإنّ جميع الأراضي في الكرة الأرضية تتبدل إلى صحارى قاحلة وبراري جافة فلا ماء ولا كلاء، لأنّ مصدر العيون والأنهار والآبار هو مياه الأمطار، فلو لم تمطر السماء مدّة طويلة فإنّ كل هذه المصادر المائية والعيون والأنهار سوف تتعرض للجفاف.

وعلى ضوء ذلك فإنّ أحد الوظائف المهمّة والمصيرية للرياح هو سقي الكرة الأرضية.

٢. تنمية النباتات

والمهمّة الأخرى للرياح تتمثّل في تنمية النباتات، ونعلم أنّ النباتات والأشجار

تتشكل من ذكر وأنثى، وفي الكثير من النباتات وبعض الأشجار تقوم الأشجار الذكورية بانتاج لقاح على شكل ذرات صغيرة تتناثر في الفضاء وتنتقل إلى الأشجار الأنثوية وتقوم بتلقيحها. وهناك كائنات متعددة تتولى مهمّة هذا النقل والانتقال، وأهمها الرياح. وعليه فلو لم تهب الرياح مدّة عام كامل على منطقة معينة فإنّ الكثير من الأشجار والنباتات المثمرة ستغدو عقيمة ولا تنتج ثمراً، فعندما نرى البساتين مليئة بالفاكهة فهذا يعني أنّ الرياح قد أدت وظيفتها بأحسن وجه، ويعتقد بعض المفسرين بأنّ الآية الشريفة: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾[1] إشارة إلى هذا الأمر.

٣. تعديل الهواء

في المناطق الاستوائية يكون الهواء حارّاً، وبارداً جدّاً في المناطق القطبية، فتقوم الرياح بنقل الحرارة من المناطق الاستوائية إلى المناطق القطبية وبذلك تخفف من درجات البرودة في تلك المناطق، ومن جهة أخرى تقوم بنقل البرودة الشديدة من المناطق القطبية إلى المناطق الاستوائية وبالتالي تعديل مستوى درجات الحرارة في المناطق الاستوائية والتقليل منها، وبهذه الصورة تقوم الرياح بتعديل درجات الحرارة في المناطق المختلفة من الكرة الأرضية، وبعبارة أخرى، إنّ الكرة الأرضية تشهد تيارين مختلفين من الرياح، التيار الأول، هو الرياح غير المنظمة التي لا تخضع لنظام خاص في بدايتها ومنتهاها أو في مسيرها، والآخر الرياح المنظمة، ونشير هنا إلى مثالين منها:

أ) الرياح المتجهة من شمال الكرة الأرض وجنوبها باتجاه المناطق الاستوائية.

ب) الرياح المتجهة من المناطق الاستوائية باتجاه القطبين الشمالي والجنوبي، وهذان التياران من الرياح المنظمة يعملان على تعديل الحرارة في أجواء الكرة الأرضية.

---

١. سورة الحجر، الآية ٢٢.

ضمن هذا المنحى وبسبب اشراق الشمس على نقطة معينة من الجو فإنّ الهواء في تلك المنطقة سيتعرض للامتداد والضغط على طبقات الجو المحيطة به. وبذلك تتولد الرياح.

٤. نقل الهواء من منطقة إلى أخرى

ومن وظائف الرياح نقل الهواء من منطقة إلى أخرى، فهواء المدن وبخاصّةٍ المدن الكبيرة يتعرض للتلوث لأسباب مختلفة. فلو لم تهب نسائم الرياح ولم ينتقل هذا الهواء الملوث إلى منطقة أخرى فإنّه يؤدي إلى اختناق الناس في تلك المدن.

ويقال إنّ بعض المواطنين في المدن الأوربية يموتون بسبب هذه الظاهرة، وعندما تهب الرياح على تلك المدن الكبيرة بصورة كافية فإنّ الشيوخ والعجزة والمرضى وبخاصّةٍ المرضى الذين يشكون من مرض رئوي، سيتعرضون للخطر ولذلك يطلب منهم عدم الخروج إلى الشارع المزدحم أو استخدام كمامات خاصة لتصفية الهواء.

٥. ظاهرة الأمواج في البحار

تقدم في البحوث السابقة عن ظاهرة المد والجزر في البحار، وقلنا إنّه لولا وجود الأمواج وحركة المياه في البحار فإنّ جميع الكائنات البحرية ستتعرض لخطر الإنقراض والفناء، فهندما تهب الرياح على سطح البحر تخلق أمواجاً عاتية وهذه الأمواج تعمل على خلط الاوكسجين بالماء وبذلك تمنح الحياة للكائنات البحرية.

الخلاصة. أنّ الرياح تتولى إعطاء البشر مصادر الحياة من الماء، النباتات، الأشجار، الهواء المعتدل، الهواء في البحار، فكل هذه الأمور رهينة أداء الرياح وظيفتها.

وهكذا تتبيّن أهميّة هذه الأقسام القرآنية الواردة في هذه السورة، ومن جهة

أخرى، أنّ جميع الظواهر التي نشاهدها في عالم الطبيعة مهما كانت تافهة، فإنّها لا تخلو من فائدة وحكمة، بل كل شيء في هذا العالم خاضع لنظام دقيق وحكيم، وعالم الوجود بمثابة كتاب لا توجد نقطة أو حرف فيه إلّا وفيها معنى وهدف، فالبسطاء من الناس ينظرون إلى ظواهر هذا العالم بنظرة سطحية وساذجة. وعلى هذا الأساس ينبغي لنا لتفسير ظواهر الطبيعة، الانطلاق من مواقع التدبر والتفكر ومن موقع العمق الفكري والإيماني وأن لا نعيش في نطاق الماديات والظواهر بل نتوغل إلى عمقها لنزداد إيماناً ومعرفة.

المحور الثاني: تفسير المقسم به

بعد أن تقدّمت بعض الإيضاحات المفصّلة نسبياً عن الأقسام المذكورة في هذه الآية الشريفة، ينبغي لنا الآن أن نرى الغرض من هذه الأقسام المهمّة فيما تريد أن تبيّنه وتتضمنه من أمور.

إنّ الآية ٧ من سورة المرسلات: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ تجيب عن هذا السؤال، أي: إنّ مسألة البعث والنشور، الثواب والعقاب، الحساب والجزاء، كلها حقائق لا يدنو منها الشك ولا يطالها الريب.

ويعتقد البعض بأنّ هذا الوعد المذكور المشار إليه في الآية المذكورة يقصد به جميع أشكال وأنحاء الوعود الإلهيّة،سواءً كان وعداً للأبرار والفجار في هذه الدنيا أم في الآخرة، ولكن الآيات اللاحقة تشير إلى أنّ هذا الوعد يقصد به اليوم الآخر وهو يوم القيامة.

وبالرغم من أنّ الآية الشريفة لم تتضمن أي نوع من الاستدلال علىٰ مسألة المعاد واكتفت بالادّعاء، ولكن لطافة المسألة تكمن في هذه الحقيقة، وهي أنّ الأقسام السابقة تتضمن في حدّ ذاتها نوعاً من الاستدلال على المعاد، ومن ذلك

إحياء الأراضي الميتة بواسطة المطر، التي تعكس ظاهرة ممّا يجري في ذلك اليوم، والآخر نزول التكاليف الإلهيّة على الأنبياء، وهذه الحقيقة لا معنى لها بدون الاعتقاد بالمعاد، و هذا بحدّ ذاته يشير إلى حتمية الوعد بالقيامة.

المحور الثالث: العلاقة بين الأقسام والمقسم به

سبق أن تحدثنا في البحوث الماضية عن الأقسام الخمسة والمقسم به «حتمية العذاب الإلهي». والموضوع الذي نتناوله في هذا البحث هو ما يتصل بالعلاقة بين الأقسام والمقسم به، فالقرآن الكريم يريد إفهام المخاطبين أنّ الله الذي أرسل الرياح لتسوق السحب والغيوم إلى الأراضي الجافة والصحارىٰ القاحلة وإحيائها للنباتات بعد موتها، فإنّه قادر على إحياء الأموات من البشر يوم القيامة، وعلى هذا الأساس فأفراد البشر الذين يشاهدون بأعينهم حياة وموت النباتات في كل عام ويشاهدون بعد كل شتاء بعث الحياة من جديد للأرض الميتة بواسطة الأمطار المباركة، كيف يتعاملون مع هذه الظواهر والآيات الإلهيّة من موقع الغفلة واللامبالاة ويتحركون في خط الشيطان ولا يعتقدون بالمعاد، والمفروض أن يتحوّل الواقع الخارجي في حركة الشعور الداخلي فيهم إلى وعي في العقل، وحركة في المشاعر، وإيمان قوي في الحياة.

ويشير الله تعالى في الآية ٣٩ من سورة فصّلت إلى هذا الدرس التوحيدي ويعتبره آية عظيمة من آيات الله في واقع الحياة فيقول:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وكما نرى أنّ هذه الآية الشريفة تقرر أنّ عودة الأرض الميتة إلى الحياة يعتبر أحد الأدلة الستة على المعاد، وأنّ إنبات النباتات والأشجار في فصل الربيع يختزن

في عمقه ومدلوله قدرة الله تعالى على إحياء الأموات يوم القيامة.

النتيجة، أنّ العلاقة بين الأقسام المذكورة مع المقسم به هي أنّ الله تعالى كما أرسل الرياح لتجميع الغيوم، السحب المتناثرة وما تسببه من أمطار غزيرة تسقي الأراضي الميتة لإحيائها من جديد، فكذلك الأموات من البشر فإنّهم يحيون مرّة ثانية وسيواجهون الثواب والعقاب الذي وعد الله تعالى به الصالحين والطالحين من الناس يوم القيامة.

التفسير الثاني: الملائكة المطيعون

وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ الأقسام الخمسة المذكورة يقصد بها الملائكة ووظائفهم الخمسة، وذلك:

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً﴾، قسم بالملائكة التي تنزل تباعاً على الأنبياء الإلهيين لإبلاغهم الرسالة الإلهيّة، أو الملائكة التي تنزل إلى عالم الدنيا تباعاً لأداء وظائفهم وتكاليفهم الإلهيّة في جميع مناطق المعمورة.

﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً﴾، والمراد بها الملائكة الذين أشارت إليهم الآية السابقة، وأمّا هؤلاء الملائكة فإنّهم لا يتثاقلون في أداء مسؤولياتهم ووظائفهم بل ينطلقون كالعاصفة الشديدة وبسرعة لتنفيذ الأوامر الإلهيّة في واقع الحياة وعالم الوجود.

﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً﴾، قسم بالملائكة الذين ينشرون رسالة الله بين عباده ويتحركون على مستوى إشاعة الرسالات والتعاليم الإلهيّة في جميع عالم الوجود.

﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً﴾؛ وهم الملائكة الذين يتحركون من موقع الفصل بين الحق والباطل، وبذلك يمنحون المؤمنين قوّة التمييز بين الحق والباطل، فعندما تبلغ الملائكة الوحي الإلهي للأنبياء، فالأنبياء بدورهم يوصلون هذه المعارف السماوية والوحيانية للناس، فالناس سوف سيتحركون على مستوى التواصل مع هذه المعارف

الإلهيّة، فيما تمثّله من معايير ومواقع للتمييز بين الصواب والخطأ، الحق والباطل.

سؤال: ألا يكفي تشخيص العقل في هذه المسائل عن الرسالات الإلهيّة والذي يعبر عنه بالرسول الباطني؟

الجواب: صحيح أنّ العقل يمثّل حجّة باطنية ورسول باطني للإنسان وقادر على تشخيص ومعرفة الحقائق، ولكن ممّا لا شك فيه أنّ العقل لا يملك القدرة على تشخيص جميع الحقائق في حركة الحياة والواقع، وعليه فالأشخاص الذين يعيشون بعيداً عن مفاهيم الوحي ومعطيات السماء، فإنّهم في الكثير من الموارد يعجزون عن التمييز من موقع الدقة بين الحق والباطل، ومن هنا فإنّ البشرية لا تستغني اطلاقاً عن بركات الوحي وتعاليم الأنبياء.

وبعبارة أخرى، إنّ العقل البشري بمثابة مصباح وسراج ينير الطريق للإنسان بمقدار معين، وتبقى مساحات كبيرة من العالم غارقة في عالم الظلمة، وأمّا الوحي الإلهي فبمثابة نور الشمس المشرقة التي تنير جميع الأمكنة والمساحات فلا تبقى نقطة مظلمة في طريق هذا الإنسان السالك، وعلى ضوء ذلك فإن العقل والوحي مصدران للنور يمنحان الإنسان وضوحاً في الرؤية لمواصلة الطريق في خط السعادة والكمال والرسالة، ولكن أحدهما محدود والآخر غير محدود.

وفي عصرنا وزماننا هذا بالرغم من التقدم العلمي الذي حققه البشر في مجالات مختلفة من الحياة، ولكن لحدّ الآن يوجد أفراد من البشر يعيشون على الكرة الأرضية وهم يعبدون البقر وبعض الحيوانات الأخرى، ويعبدون النار وغيرها! هؤلاء ليسوا أغبياء ولا يشكون من قصور في قواهم الإدراكية بل يعيشون في بلدان متقدّمة في العلم والتقنية حتى في العلوم الذرية، وقد اكتشفوا أسرار الذرة، فهذه الممارسات المنحرفة والأفكار الضالة إنّما هي بسبب الاعتماد على القدرة المحدودة للعقل وبسبب قصور أدواته في تقصي المشكلات الفكرية والمعنوية

للإنسان وعدم الاستفادة من أنوار الوحي الإلهي.

النتيجة أنّ الإنسان لا يمكنه مواصلة مسيرته في هذا الطريق الشائك بالاعتماد فقط على قدرات العقل، فمن الممكن أن يستفيد الإنسان بشكل نسبي وإجمالي من نور العقل، ولكنّ إضاءة طريق السعادة والكمال المعنوي بشكل كامل يحتاج إلى الاستعانة بحقائق الوحي وتعاليمه.

﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً﴾، قسم بالملائكة الذين ينذرون المؤمنين ويحذّرونهم ممّا سيواجهونه من أخطار وتحديات في حركة الحياة، وفي ذات الوقت يتمّون الحجّة بإنذارهم هذا على غير المؤمنين.

﴿إِنَّمَا[1] تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾، قسم بالملائكة الذين يتحركون لتنفيذ المسؤوليات والوظائف الخمس، أنّ جميع ما وعد الله تعالى سيتحقق حتماً يوم القيامة، فالمعاد والحشر، والثواب والعقاب، والحساب والكتاب، والجنّة والنار، كلها ستتحقق على أرض الواقع يوم القيامة.

الخلاصة إنّ أهميّة المعاد والحياة بعد الموت كبيرة إلى درجة أنّ الله تعالى أقسم خمس مرات في الآيات المذكورة بالملائكة ومسؤولياتهم ونشاطاتهم المختلفة، ومن هنا لابدّ من معرفة شيءٍ عن الملائكة.

الملائكة في المعارف الإسلامية:

إنّ أفضل معرّف للملائكة وصفاتهم ومسؤولياتهم هو القرآن الكريم، ثمّ نهج

---

١. بالرغم من أنّ القرآن الذي خطّه عثمان طه يمتاز بعدة خصوصيات إيجابية إلاّ أنّه يواجه بعض الإشكالات من جهة الإملاء، مثلاً في الآية مورد البحث (الآية ٧ من سورة المرسلات) وردت كلمة «إنّما» والمفروض أن تُكتب بكلمتين منفصلتين «إنّ ما»، لأنّ «إنّما» يراد بها الحصر، وفي هذه الآية لا يقصد الحصر، بل «ما» موصوفة، بمعنى لا شك في أنّ الوعد الذي وُعدتم به سيتحقق لا محال.

وهذا الإشكال لا يختص بهذا المورد بل لعلّه توجد عشرة موارد أخرى من هذا القبيل.

البلاغة للإمام علي ﷺ. أمّا القرآن فإنّه يصف الملائكة بهذه الصفات الكريمة:

﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[1].

ويقول تعالى في الآية ٦ من سورة التحريم:

﴿لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

وعلى ضوء ذلك فالملائكة، **أوّلاً**: عباد مكرمون لله تعالى وليسوا بناته!

وثانياً: إنّهم يتحركون على مستوى تنفيذ الأوامر الإلهيّة بحذافيرها ولا يمكن أن يخالفوا أوامر الله تعالى أبداً.

وظائف الملائكة:

للملائكة وظائف ومسؤوليات متنوعة، وقد ألمحنا فيما تقدّم إلى بعضها، وهنا نبحث هذا الموضوع بالتفصيل:

١. **إبلاغ الرسالة الإلهيّة**: إنّ أحد الوظائف والمسؤوليات الملقات على عاتق الملائكة إبلاغ الوحي الإلهي للأنبياء، وعلى رأس هذه الطائفة من الملائكة جبرائيل الأمين، واللافت أنّ اثنين من الملائكة وردت أسماؤهم في القرآن الكريم بشكل صريح أحدهما جبرائيل والآخر ميكائيل، وحتى عزرائيل لم يرد اسمه في القرآن الكريم رغم أنّ الآية ١١ من سورة السجدة ذكرته بوصفه ملك الموت، على أية حال فإنّ أحد أهم وظائف الملائكة إبلاغ الرسالات الإلهيّة.

٢. **حفظ الأعمال**: وبعض الملائكة يتولون كتابة أعمال البشر وحفظها، وقد ذكرت الآيات ١٠ إلى ١٢ من سورة الانفطار هذه الحقيقة:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

سؤال: ألا يكفي علم الله تعالى بأعمالنا وأقوالنا حتى يوكل أمر ذلك إلى الملائكة؟

---

١. سورة الأنبياء، الآيتين ٢٦ و ٢٧.

الجواب: بديهي أنّ علم الله يكفي في هذا الشأن، ولكنّ الله تعالى يريد اتمام الحجّة على الإنسان ويحذره من أنّه مضافاً إلى علم الله بأعماله وسلوكياته فإنّه قد جعل عليه شاهدين آخرين يكتبون أعماله وحركاته وسكناته ويشهدون عليه بها يوم القيامة.

الخلاصة إنّ إحدى تكاليف الملائكة، مراقبة أعمالنا وكتابتها وحفظها، وقد ورد في الرواية الشريفة بعض التفاصيل حول هذا الموضوع من ذلك ما ورد أنّه: «وقيل إنّهم كرام لأنّهم يكتبون الأعمال الصالحة مباشرة بعشرة أمثالها. أمّا الأعمال السيئة وكما ذكر في الرواية السالفة فإنّهم يمهلون صاحبها سبع ساعات لعله يتوب»[1].

مضافاً إلى أنّ الله تعالى قرر برحمته أن يجزي السيئة بمثلها ويثيب على الحسنة بعشر أمثالها[2].

٣. المحافظة على نفوس الناس: وبعض الملائكة مكلّفون بحفظ نفوس الناس وأرواحهم، فلو التفتم إلى حالة الطفل عندما يبتدىء في المشي على قدميه إلى أن يكبر فإنّه يواجه الكثير من الأخطار التي تهدد حياته وتعرضه لخطر الموت، ولكنّ أغلب هذه الأخطار تنتهي إلى خير ولا تصيب الطفل بشرّها، فهل هذه القضية مصادفة؟ كلّا فالملائكة المحافظون يتولون حفظ الإنسان من تلك الأخطار، فلولا هذه الطائفة من الملائكة فإنّه قلّما ينجو الأطفال من الأخطار المحدقة بهم وقلّما يصل الإنسان إلى مرحلة الشيخوخة. وينطلق القرآن الكريم في بيان هذه الحقيقة في الآية ١١ من سورة الرعد ويقول:

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾.

٤. قبض الأرواح: ومن جملة وظائف الملائكة قبض أرواح الناس عند الموت.

---

١. نفحات القرآن، ج ٦، ص ٦٠.

٢. المصدر السابق.

وتحكي الآية ٣٢ من سورة النحل هذه الوظيفة وتقول:

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وكما ألمحنا آنفاً أنّ قابض الأرواح ليس عزرائيل فقط، بل عزرائيل رئيس هذه الطائفة من الملائكة التي تتولى تنفيذ هذه المهمّة.

٥. **نصرة المؤمنين:** فالملائكة مأمورون بمد يد العون للمؤمنين بما يواجهونه من مشاكل وتحديات في واقع الحياة، وهذه الحقيقة تبيّنها الآية ٣ من سورة فصّلت:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

وكنموذج من هذا التسديد والتأييد للمؤمنين ما حدث في حرب بدر والخندق.

فقد كان عدد المسلمين في غزوة بدر ٣١٣ نفراً، في حين أنّ جيش المشركين يبلغ ثلاثة أضعاف هذا العدد، مضافاً إلى أنّ جيش المسلمين من حيث العدة وآليات الحرب لا يقبل المقارنة مع جيش الكفّار فيما يملكونه من أسلحة وأدوات حربية، ولكنّ النبي الأكرمﷺ بشّر المسلمين بإمداد ودعم الملائكة، وهكذا انتصر المسلمون في بدر، وأمّا في معركة الخندق فإنّ جيش المشركين كان أضعافاً مضاعفة بالنسبة للمسلمين الذين كان عددهم قليلاً جدّاً، ومن هنا فقد عاش المسلمون ذلك الوقت تحت ظروف قاسية وتحديات صعبة، وقد ذكر الله تعالى هذه الحادثة في الآية ٢٦ من سورة التوبة وأنّه تعالى قد أرسل جنوداً لمساعدة المسلمين، حيث تقول الآية:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

النتيجة، أنّ من جملة وظائف الملائكة نصر المؤمنين ومساعدتهم في الظروف

الصعبة ومد يد العون لهم فيما يواجهونه من تحديات ومآزق في حركة الحياة والواقع.

٦. **استقبال المؤمنين في الجنّة:** وطائفة من الملائكة يأخذون على عاتقهم استقبال المؤمنين في الجنّة. والآيتين ٢٣ و ٢٤ من سورة الرعد تشيران إلى هذه الوظيفة الأخروية للملائكة:

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

وما أحلى دخول الجنّة في حين أنّ الملائكة يستقبلون هذا الإنسان المؤمن ويرحبون به أجمل ترحيب.

٧. **تدبير العالم:** وإحدىٰ وظائف الملائكة تدبير أمور عالم الخلقة وإدارة عالم الوجود، فبعض الملائكة يتكفلون مهمّة أمر الرياح، والبعض الآخر يعملون في تدبير أمر المطر، وآخرون مأمورون بإدارة أرزاق الناس، والخلاصة كل طائفة من الملائكة مأمورون بأمر معين في مجمل أحداث الكون وظواهر الطبيعة، فالملائكة منتشرون في أرجاء هذا العالم الفسيح كافّة.

الملائكة في كلام أميرالمؤمنين عليه السلام:

يقول الإمام علي عليه السلام في الخطبة الأُولى من نهج البلاغة فيما يتعلق بالملائكة:

«ثُمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ السَّمٰوَاتِ الْعُلَا، فَمَلَأَهُنَّ أَطْوَاراً مِنْ مَلَائِكَتِهِ مِنْهُمْ سُجُودٌ لَا يَرْكَعُونَ، وَ رُكُوعٌ لَا يَنْتَصِبُونَ، وَ صَافُّونَ لَا يَتَزَايَلُونَ، وَ مُسَبِّحُونَ لَا يَسْأَمُونَ، لَا يَغْشَاهُمْ نَوْمُ الْعَيْنِ، وَ لَا سَهْوُ الْعُقُولِ، وَ لَا فَتْرَةُ الْأَبْدَانِ، وَ لَا غَفْلَةُ النِّسْيَانِ. وَ مِنْهُمْ أُمَنَاءُ عَلَى وَحْيِهِ، وَ أَلْسِنَةٌ إِلَى رُسُلِهِ، وَ مُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِهِ وَ أَمْرِهِ، وَ مِنْهُمُ الْحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ، وَ السَّدَنَةُ لِأَبْوَابِ جِنَانِهِ. وَ مِنْهُمُ الثَّابِتَةُ فِي الْأَرَضِينَ السُّفْلَى أَقْدَامُهُمْ، وَ الْمَارِقَةُ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ، وَ الْخَارِجَةُ مِنَ الْأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ، وَ الْمُنَاسِبَةُ

لِقَوَائِمِ الْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ. نَاكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصَارُهُمْ مُتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ».

ويقول في مكان آخر: «ثُمَّ خَلَقَ سُبْحَانَهُ لِإِسْكَانِ سَمٰوَاتِهِ، وَ عِمَارَةِ الصَّفِيحِ الْأَعْلَى مِنْ مَلَكُوتِهِ، خَلْقاً بَدِيعاً مِنْ مَلَائِكَتِهِ، وَ مَلَأَ بِهِمْ فُرُوجَ فِجَاجِهَا، وَحَشَا بِهِمْ فُتُوقَ أَجْوَائِهَا، وَ بَيْنَ فَجَوَاتِ تِلْكَ الْفُرُوجِ زَجَلُ الْمُسَبِّحِينَ مِنْهُمْ فِي حَظَائِرِ الْقُدُسِ، وَ سُتُرَاتِ الْحُجُبِ»[1].

فلسفة خلق الملائكة:

سؤال: لماذا خلق الله تعالى الملائكة؟ وما هي الحكمة والغاية من خلق هذا العدد الهائل من الملائكة الذين يملأون آفاق السماء والأرض؟

الجواب: إن الحكمة من خلق هؤلاء العباد الصالحين متعددة:

١. إن الله تعالى بخلقه للملائكة يكشف للإنسان عن قدرته المطلقة وعظمته البالغة، فالله تعالى قادر على جعل المرأة تحمل وتلد في لحظة واحدة، ولكنّه جعل هذه المدّة تستغرق ٩ أشهر، حتى يدرك البشر عظمة الله وقدرته في الخلق بأن جعل خلق الجنين بشكل تدريجي وعلى مراحل مختلفة.

ومن هنا فأول حكمة لخلق الملائكة أن يدرك الإنسان عظمة الله وقدرته المطلقة.

٢. والحكمة الأخرى من ذلك، أن لا يغتر الإنسان بعبادته الناقصة والتافهة ويمنّ على الله تعالى بهذه العبادة، لأنّ عبادته لا تعتبر شيئاً في مقابل عبادة الملائكة وخضوعهم لمشيئة الحق تعالى بشكل مستمر ودائم، فالصلاة القاصرة التي نصلّيها لله تعالى لا يمكن مقارنتها بصلاة الملائكة الذين ملأوا العالم بالتسبيح والسجود.

٣. أن لا يتصور الإنسان أنّه المخلوق الوحيد لله تعالى، بل إنّ عدد الملائكة يبلغ

١. نهج البلاغة، الخطبة ٩١.

أضعافاً مضاعفة من عدد البشر وهم يتولون مراقبة أعمالنا وأفعالنا وسلوكياتنا.

والخلاصة أنّ الحكمة من خلق الملائكة، إدراك عظمة الله تعالى، الإحساس بحقارة الإنسان وصغره، وأن يعلم الإنسان أنّه ليس المخلوق الوحيد والكريم لله تعالى.

كيفية الملائكة؟

يرى الكثير من العلماء أنّ الملائكة موجودات جسمانية «من النوع اللطيف» بل إنّ العلّامة المجلسي ادعىٰ الإجماع على أنّ الملائكة أجسام لطيفة مرئية[1].

توضيح ذلك: في عالم المادة أجسام لطيفة لا ترى بالعين المجرّدة ومن ذلك قوّة الجاذبية، فهذه القوّة وإن كانت مادية إلّا أنّها غير قابلة للرؤية، والملائكة أيضاً أجسام مادية غير مرئية، وطبعاً يمكنهم أن يتجسدوا بصورة إنسان، كما أنّ الملك الذي ظهر أمام مريم بنت عمران عليها السلام تمثّل لها بشكل شاب جميل.

على هذا الأساس وطبقاً لهذه النظرية فإنّ الملائكة أجسام نورانية لطيفة وغير مرئية، وبإمكانهم أن يتشكلوا بأشكال مختلفة.

النظرية الأخرى التي طرحها جمع من الفلاسفة أنّ الملائكة ليسوا بجسم بل هم كائنات مجرّدة ويتصفون بصفات غير قابلة للتجسد، ولكن ظواهر الآيات القرآنية تنسجم أكثر مع النظرية الأولى.

❊ ❊ ❊

---

١. نفحات القرآن، ج ١، ص ١٦١.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٣

أقسام سورة النازعات

والسورة الثالثة من السور التي تتضمن الأقسام الخمسة هي سورة النـازعات، وهي السورة ٧٩ من سور القرآن الكريم، وقد وردت في الجزء ٣٠ منه وتأتي بعد سورة النبأ، أمّا مطلع هذه السورة فهو:

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥﴾

إنّ أقسام هذه السورة بدورها غامضة وتختزن الكثير من الأسرار التي تدعو الإنسان للتفكير فيها من موقع العمق والدقّة، ومن هنا نرى أنّ المفسّرين من الشيعة وأهل السنّة ذكروا لها تفاسير متعددة، ونكتفي هنا بالإشارة إلى تفسيرين منها:

التفسير الأوّل: أنّهم جماعة من الملائكة

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً﴾، «النازعات»، التي تنزع الشيء من موقعه، و«غَرْق» و«غَرَق» يختلفان في المعنى. كلمة «غَرَق» بمعنى الغرق بالماء، وعليه فإنّ استخدام كلمة «غَرَق» في هذا المورد غير صحيح، بل يجب استخدام كلمة «غَرْق» كما

يحكي القرآن الكريم قصّة غرق فرعون في نهر النيل ويقول:

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾[1].

أمّا «غَرْق» فيعني أداء العمل وانجازه بقوّة وإحكام، وفي الماضي كان البشر يستخدمون القوس والسهم في حروبهم وصيدهم، فإذا وضع الرجل سهمه في القوس وسحبه بشدّة إلى الخلف، فيعبّر عنه بـ «غَرْق» و«إغراق». ومصطلح «إغراق» المتداول حالياً بين الناس مأخوذ من هذا المعنى، أي يقصد به أن يستنفذ المرء جهده لإيصال مقصوده للطرف المقابل وإفهامه بذلك.

ومع الالتفات إلىٰ تفسير كلمتي «النازعات» و«غرق» فإنّ معنى الآية الشريفة يكون كالتالي: قسماً بتلك الطائفة من الملائكة الذين ينزعون أرواح المجرمين بشدّة وقسوة ويفصلونها عن أبدانهم.

﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً﴾؛ قسماً بالملائكة الذين يقبضون أرواح الصالحين والمؤمنين من الناس بشفقة متناهية وبكامل اللطف والرحمة.

وهذه الآية الشريفة تقع بالضبط في مقابل الآية السابقة.

﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً﴾؛ قسماً بالملائكة الذين يحلقون في أجواء السماء بعد قبض الأرواح ليوصلوها إلى عالم الملكوت.

﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً﴾؛ قسماً بالملائكة الذين يتسابقون في تحليقهم في عالم الملكوت عند حمل الأرواح وذلك من أجل الاسراع في ايصالها إلى المنزل المقصود.

﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾؛ قسماً بالملائكة الذين يتولون تدبير أمور العالم ويديرونه بأمر الله تعالى.

---

١. سورة يونس، الآية ٩٠.

ما هو المقسم له؟

سؤال: طبقاً لهذا التفسير فإنّ معنى الأقسام الخمسة واضح ولا غبار عليه، ولكن ما هو الغرض من هذه الأقسام، وما هو المقسم له؟

الجواب: لم يذكر في هذا الآيات الشريفة المقسم له ولكن يمكن فهم المقسم له من خلال سياق الآيات الواردة بعد آيات الأقسام الخمسة، فقد ذكر العلماء والمفكرون احتمالات متعددة في تقدير المحذوف من المقسم له. ويمكن القول ببيان ميسور:

إنّ الجملة المحذوفة بعد هذه الأقسام كالتالي:

«إنّ البعث حق» أو «إنّ الحياة بعدالموت حق» بمعنى أنّ الله تعالى يقسم بخمس طوائف من الملائكة (الذين يتولون وظائف ومسؤوليات مهمّة جدّاً) أنّ يوم القيامة والحياة بعد الموت حق لا شك فيه.

معطيات الأقسام الخمسة:

إنّ أول ما يستوحى من هذه الأقسام المذكورة هو: أيّها الإنسان! إنّ الله تعالى قادر على خلق كل هذه المجاميع من الملائكة مع وظائف مختلفة. هو القادر على إعادة الحياة بعد الموت وبعث الناس في يوم القيامة للحساب.

وبعبارة أخرى، إنّ الرسالة الأولى لهذه الأقسام، أنّ قدرة الله تعالى مطلقة وسيطرته كاملة على جميع أجزاء عالم الوجود، فهو القادر على كل شيء ومن ذلك إحياء الأموات، وأنّ مسألة المعاد ليست مسألة غريبة وعجيبة عن دائرة قدرة الله المطلقة، ومثل هذا الموضوع ورد في آيات عديدة من القرآن الكريم، ومن ذلك ما ورد في الآيات الأخيرة من سورة يس، وذلك عندما جاء أعرابي من البادية إلى النبي الأكرمﷺ وبيده عظماً رميماً وأخذ يفتّه أمام رسول اللهﷺ ويلقي بفتاته إلى

الأرض ثم خاطب النبي وقال: من يحيي هذه العظام مرّة ثانية؟

فأجابه الله تعالى في القرآن الكريم مخاطباً النبي الأكرمﷺ:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[1].

أليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثل أفراد البشر من التراب؟ إنّ الله تعالى ومن أجل خلق الكائنات لا يحتاج إلى مقدمات وتهيئة بعض الوسائل والأسباب، بل إذا أراد أن يخلق شيئاً فيكفي أن يقول له «كن»: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2].

وعليه فلا شك في أنّ قدرة الله تعالى مهيمنة على كل شيء وهو المالك والحاكم على كل شيء في عالم الوجود، وكل شيء يعود بالنهاية إليه، فلا ينبغي الشك في قدرة الله تعالى.

النتيجة، أنّ أول مفهوم نستوحيه من هذه الأقسام الخمسة، التذكير بقدرة الله تعالى على جميع الأشياء ومنها المعاد.

الرسالة الثانية التي نستوحيها من هذه الأقسام، الالتفات لمسألة الموت وقبض الروح حيث يريد الله تعالى من خلال هذه الأقسام تقوية إيمان الناس فيما يتصل بمسألة الموت، حتى يتحوّل هذا الإيمان بالموت إلى عنصر تربوي مهم في حياة الإنسان فيما يجسده من مرحلة خطيرة وعقبة كؤود، فالإنسان يجب عليه أن يقبل ويذعن لهذه الظاهرة الحسّاسة جدّاً وهذا المنعطف الخطير الذي يسمى الموت. وأمّا ما يتداوله الناس من كلمات مثل «نعوذ بالله» و«دفع الله الموت عنكم» و«لا سمح الله» فهي ليست سوى تعارفات ومجاملات، وأحياناً يعيش الإنسان الغفلة عن هذه الحقيقة الحاسمة، فالموت يمثّل حقيقة لا تقبل الإنكار، وسوف تحلّ علينا شئنا أم

---

١. سورة يس، الآية ٧٩.

٢. سورة يس، الآية ٨٢.

أبينا، عاجلاً أم آجلاً.

إنّ الناس في حال الموت على قسمين: فبعض يواجه الموت والملائكة الموكلين بقبض روحه من موقع الخصومة والغضب والتمرد، ويجد صعوبة في تلك اللحظة الحاسمة كما أشارت إلى ذلك الآية الأولى من الآيات مورد البحث، والبعض الآخر يواجه الموت و الملائكة الموكلين به من موقع السرور والتسليم واللطف، كما أشارت إليه الآية الثانية.

وقد وردت آيات كريمة في القرآن تؤيد ما ذهبنا إليه آنفاً، ومن ذلك ما ورد في الآية ٢٧ من سورة (محمّد) في كيفية قبض أرواح المجرمين حيث ترسم الآية الشريفة صورة رهيبة لتلك الحالة:

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾.

وبالنسبة لكيفية قبض أرواح المؤمنين، تقول الآية ٣٢ من سورة النحل:

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الحقيقة أنّ الموت ليس ممّا يستوحش منه ولا أمر يستبطن الخوف والرعب والهلع، بل إنّ أعمالنا هي سبب الوحشة والخوف، والمستقبل المظلم الذي بنيناه بأيدينا هو الذي يحوّل ظاهرة الموت إلى قضية مخوفة وموحشة حيث يستغرق الإنسان في الجانب المغلق منها، فلو كان المستقبل زاهراً فمرحباً بالموت.

يقول الإمام علي في الخطبة الخامسة من نهج البلاغة، في شكواه من الانهزاميين من أتباعه:

«فَإِنْ أَقُلْ يَقُولُوا: حَرَصَ عَلَى الْمُلْكِ، وَ إِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا: جَزِعَ مِنَ الْمَوْتِ هَيْهَاتَ بَعْدَ اللَّتَيَّا وَ الَّتِي».

ثمّ أنّ الإمام عليّاً ﷺ بيّن للحاضرين عقيدته للموت وقال:

«وَ ٱللّٰهِ لَابْنُ أَبي طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمه».

ما ألطف هذا التشبيه، وما أبلغ هذا البيان، لأنّ جميع كيان الطفل ووجوده مرتبط بلبن أمّه، حتى الحبّ والمودة وسائر العواطف الإنسانية تنتقل إلى الطفل من خلال لبن الأمّ، ومن هنا فالأطفال المحرومون من لبن الأمّ يواجهون نقصاً في عواطفهم الإنسانية، وعندما تضع الأمّ ثديها في فم الطفل فكأنّها أعطته جميع الدنيا، وعندما ينفصل منها فيبكي بجميع وجوده وكأنّما فقد جميع ما في الدنيا.

وبهذا الحال فإنّ الموت بالنسبة لعلي بن أبي طالب لذيذ إلى درجة أنّه أحبّ من ثدي الأُم بالنسبة للطفل الرضيع!

هذا النوع من الرؤية للموت يعود لخلفيات الأعمال الصالحة ورؤيته لمستقبل مشرق بعد الموت.

في معركة أحد، وهي المعركة الوحيدة التي خسر فيها المسلمون، تحوّل النصر الأولي في هذه المعركة، وبسبب تقصير بعض المجاهدين الإنسان وتخلفهم عن أوامر النبي الأكرم، إلى هزيمة مرّة، وكانت حصيلة هذه الهزيمة استشهاد سبعين رجلاً، من جنود الإسلام، ومنهم حمزة سيد الشهداء الذي قتل أشنع قتلة ومثّل به وشق بطنه وأخرج كبده، بل إنّهم قصدوا أكل كبده «ولم يوفقوا لذلك بلطف الله ورعايته» وقطعوا أذنه وأنفه، والآن عندما يزور المسافر المدينة المنورة ويتوجه لزيارة مرقد حمزة سيد الشهداء ويتصور تلك الواقعة على رغم مرور مئات سنين على تلك الواقعة، فإنّه يحسّ بامتعاض نفسه وقلبه ويتألم لتلك المعاملة القاسية التي تعاملوا بها مع هذا الشهيد العظيم.

وبعد انتهاء الحرب وعودة الكفّار والمشركين إلى مكّة، فإنّ الإمام عليّاً هو الشخص الوحيد الذي بقي يدافع عن النبي إلى آخر لحظة، ولكنه أصيب بحالة من الغم والحزن بعد انتهاء المعركة، فقال له رسول الله: يا علي لماذا أراك حزيناً؟

فقال علي عليه السلام: وكيف لا أحزن في حين أنّ حمزة وسائر الشهداء نالوا مقام الشهادة وحرمت أنا منها. أي أنّ الإمام علياً عليه السلام ليس فقط لا يخاف من الموت بل يفرح بالموت ويحزن لأنّه حرم من الشهادة.

فقال له رسول الله: «أَبْشِرْ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ»[1].

ثم قال له صلى الله عليه وآله: يا علي! كيف صبرك على الموت إذا أتاك؟

فقال الإمام علي عليه السلام: ما هذا موطن الصبر بل موطن الشكر.

هذا نمط من الرؤية للموت، وطبعاً تمثّل هذه الرؤية أفضل ما يتصوره الإنسان عن الموت بحيث إنّه ينفتح على الموت ويستقبله باطمئنان قلب.

أمّا الشخص المتلوث بالأعمال السيئة ويرى أنّ صحيفة أعماله سوداء وليس لديه زاد لذلك العالم، ويعيش التعلق الشديد بالدنيا وزخارفها فإنّه لا يستطيع تحمل الموت بيسر، وربّما يمتد به النزع لساعات طوال بل لأيام عديدة. ويحكى أنّ شخصاً بقي مدّة طويلة في حال الاحتضار، ولم تطاوعه نفسه لقبول الموت وتسليم الروح، حتى أنّه لم يكن مستعداً لأداء الشهادتين، وقد آثار ذلك عجب الحاضرين، وبعد مدّة سمعوا هذا المحتضر يتمتم بشفتيه فأصاخوا أسماعهم لكلامه فإذا هو يقول:

«آتوني بذلك الكيس!»

فتعجب الحاضرون وتساءلوا فيما بينهم: ماذا يعني بالكيس، وأين هو؟

فقالت زوجته: «كيس مليء بالسكك الذهبية وهو موجود أسفل السرير، وكان زوجي يعيش العلاقة الشديدة بهذا الذهب».

فجاءوا إليه بالكيس ووضعوه على صدره، فأسلم الروح دون أن ينطق بالشهادتين.

يقول الإمام علي عليه السلام في خطبة همّام:

«وَلَوْلاَ الأَجَلُ الَّذي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ،

---

١. بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٢٤١ و ج ٤١، ص ٧.

شَوْقاً إِلَى الثَّوابِ، وَخَوْفاً مِنَ الْعِقابِ»[1].

أجل، فإنّ أرواح هؤلاء المتقين لا تمكث في أبدانهم لحظة واحدة شوقاً إلى الثواب الذي ينتظرهم في الجنّة وخوفاً من العقاب.

في أحد الأيّام جاءني شاب بهي الطلعة في حرم السيدة المعصومة عليها السلام في قم، وطلب مني أن أدعو له بالشهادة، فقلت له: أسأل الله تعالى لي ولك العمر الطويل مع التوفيق للعبادة والإخلاص وأن يكون آخر عمرنا الشهادة في سبيل الله. فقال: ادعو لي بالشهادة في حال الشباب لأنّ الشهادة في مرحلة الشباب لها طعم آخر.

هذه هي ثمار شجرة الإيمان والتقوى، ومثل هؤلاء الشباب الغيورين كنوز البلاد وذخيرة المجتمع في حال بروز الأخطار وظهور المشكلات، ومثل هذا الشاب أفضل بكثير من آلاف الشبّان الملوثين بالمعاصي والانحرافات والأعمال السيئة، ويسعى الأعداء بجميع إمكاناتهم وقدراتهم إلى اضلال هؤلاء الشبّان وإبعادهم عن المسير في خط الرسالة والمسؤولية والإيمان.

ولو نجحوا في سلب عنصر الإيمان من قلوب هؤلاء الشبّان، فإنّ الدين والبلاد الإسلامية تتعرض للخطر، وإذا نجحنا في تقوية عناصر الإيمان والخير في قلوب هؤلاء الأفراد ونجحنا في اخراجهم من أجواء الغفلة واللامبالاة، إلى أجواء المسؤولية والرسالة والانفتاح على الله، فلا شك في أنّ قوى الشر والظلام ستندحر وتنسحب من الميدان.

التفسير الثاني: المجاهدون في سبيل الله

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً﴾؛ قسم بمجاميع المجاهدين في سبيل الله الذين تركوا دورهم ومعيشتهم وزوجاتهم وأبناءهم وجميع ملذات الدنيا وعزموا على الاشتراك في

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

الجهاد وقتال الأعداء.

﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً﴾؛ قسم بالمجاهدين الذين تحركوا بعد العزم على الجهاد باتجاه ميادين الحرب والقتال ونيل رضا الله تعالى.

﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً﴾؛ قسم بالمجاهدين الذين نشطوا في حربهم وضاعفوا من سرعتهم وخطواتهم في مواجهة الكفّار وقوى الانحراف والضلالة.

﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً﴾؛ قسم بالمجاهدين الذين تحركوا ليس فقط من موقع اختيار طريق الخير والفلاح بعزم قوي، بل يتسابقون في مواجهة قوى الضلال والتقرب إلى الله تعالى والحصول على مرضاته.

﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾؛ قسم بالمجاهدين المخلصين الذين ينطلقون في حركتهم الجهادية من موقع التدبير والتخطيط للمعركة والعمل بمقتضيات ميدان الحرب واستخدام التكتيك الخاص بكل منطقة وكل معركة، وتقوية المتاريس لصد هجوم الأعداء ووضع نقاط مراقبة في أطراف معسكر المسلمين، وكذلك نصب كمائن في طريق العدو لمعرفة قواه وإلحاق أكبر الضرر بجنوده واستنزاف طاقته. والخلاصة أنّهم يتحركون في معركتهم وجهادهم من موقع التخطيط والتدبير لا من موقع التسرع والإنفعال.

وطبقاً لهذا التفسير الثاني فإنّ الأقسام الخمسة ناظرة للمجاهدين في سبيل الله وسلوكياتهم وكيفية جهادهم للأعداء.

وذهب البعض إلى أنّ الأقسام المذكورة ناظرة لخيل المحاربين المجاهدين في سبيل الله، فهذه الخيل وعلى أثر دخولها ميدان القتال وحملها لجنود الإسلام الشجعان ومشاركتها في ميادين القتال والشهادة، فإنّها تمتلك قيمة وأهميّة كبيرة بحيث إنّ الله تعالى أقسم بها في حالاتها المختلفة، كما ورد مثل هذا المضمون في سورة العاديات حيث أقسم الله تعالى بخيل المجاهدين في سبيل الله.

ولكننا نعتقد بأنّ الأقسام المذكورة لا سيما ما ورد في القسم الأخير منها ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾ يرتبط بالمجاهدين المضحين في سبيل الله لا بخيولهم، لأنّ الخيول ليست قادرة على التدبير، بل إنّ المجاهدين هم الذين يتحركون في قتالهم للأعداء من موقع التدبير، وبما أنّ الإسلام يعير للجهاد في سبيل الله أهميّة بالغة، فإنّ الله تعالى ليس فقط أقسم بالمجاهدين بل أقسم بحالاتهم وأوضاعهم المختلفة فيما يخلقونه من مواقف ويسجلونه من بطولات في ميادين القتال.

مغزى الأقسام طبقاً للتفسير الثاني:

وقد نستوحي من الأقسام المذكورة أنّ الجهاد في الرؤية الكونية للإسلام يحضى بأهميّة كبيرة، فالجهاد يوجب للمسلمين العزّة والمنعة والتفوق على قوى الشر والظلام، ويؤدي إلى ضعف الأعداء وتحقيرهم وانهزامهم أمام قوى الحق والإسلام، ومن هنا فإنّ أعداء الإسلام يبذلون جهوداً كبيرة للحيلولة دون امتداد ثقافة الجهاد في وعي المسلمين وفي ثقافتهم، ومن ذلك سعيهم الحثيث للضغط على البلدان الإسلامية لحذف الآيات القرآنية التي تتصل بالجهاد والشهادة وذم اليهود، وتطهير الكتب الدراسية منها، وهذا يبيّن مدى أهميّة ثقافة الجهاد والشهادة في الفكر الديني لدى المسلمين.

ويتضمن القرآن الكريم آيات كثيرة تتصل بالجهاد، ولكن هناك ثلاث آيات منها تحضى بأهميّة فائقة فيما توحيه للمسلمين من مفاهيم سامية وتعاليم سماوية:

١. يقول تبارك وتعالى في الآية ١٦٩ و ١٧٠ من سورة آل عمران مخاطباً نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

إنّ طلّاب المدارس المسلمين عندما يتلون هذه الآيات الزاخرة بالأمل والحركة والحياة فإنّهم يتسابقون إلى ميادين الجهاد بشرف بالغ وينتظرون اللحظة الحاسمة التي تكتب لهم فيها الشهادة أو النصر على الأعداء. ولهذا فإنّ الأعداء اقترحوا حذف هذه الآيات من الكتب الدراسية.

٢. ويرسم القرآن الكريم في الآية ١١١ من سورة التوبة صورة جذابة ورائعة عن حقيقة الجهاد والمغزى العميق في هذا المفهوم القرآني:

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

إنّ العبارات الواردة في هذه الآية الشريفة تعكس مفهوم الجهاد من موقع الدقّة والتصوير الفني الجذاب، ففي هذه التجارة الرابحة نرى أنّ الله تعالى هو المشتري، والبضاعة تتمثّل في أموال ونفوس المجاهدين، وأمّا ثمن هذه البضاعة فهي الجنّة الخالدة والنعيم الأبدي، وهذه المعاملة تملك رصيداً رسمياً في ثلاثة كتب سماوية مهمّة، التوراة والانجيل والقرآن، فهل رأيتم مثل هذه المعاملة العجيبة والتجارة الرابحة؟

إنّ المشتري لهذه البضاعة هو الذي وهبها لنا، وفي ذات الوقت يشتريها منّا بأغلى الأثمان، وليس فقط يمنحنا سند هذه البضاعة والوثيقة التي كتبها لنا، بل يؤكد هذه الوثيقة بأنّ وعده لا يتخلف.

ومع القليل من التأمل والتدبر في سياق هذه الآية الشريفة يستوحي القارىء لها الكثير من المعاني العميقة والمفاهيم العالية، والمسلمون في صدر الإسلام نالوا النجاح والتوفيق في حركة الحياة وحققوا النصر على الأعداء من خلال معطيات هذه الآية وتأثيرها في قلوبهم واستطاعوا في مدّة قليلة تسخير قلوب الناس في أغلب بلدان العالم.

٣. والمورد الثالث في مايتصل بهذا الموضوع،الآيات ١٠ إلى ١٣ من سورة الصف:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

لو لم يكن في جميع آيات القرآن الكريم ما يصف الجهاد ويتحدث عن أهميّة القتال في سبيل الله سوى هذه الآيات الثلاث، فإنّ ذلك يكفي لبيان عظمة هذا الواجب الإلهي والإنساني وأهميّته، والآن نحن نفهم لماذا أقسم الله تعالى بطوائف المجاهدين وبحالاتهم المختلفة في ميادين القتال.

إنّ الجهاد في الثقافة الإسلامية وفي ذهنية المسلمين إلى درجة من الأهميّة بحيث إنّ الشخص الذي يدافع عن أمواله ويقاتل الأعداء دفاعاً عن ممتلكاته ويقتل في هذا السبيل فإنّه يحسب شهيداً: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[1].

لو أنّ المسلمين، وبخاصّةٍ الشبّان الشجعان والغيورين، يقرؤون هذه الآيات والروايات الشريفة فسوف لا يقفون أمام هجوم المستعمرين وأمام نهب ثرواتهم من قِبل الأجانب موقف الخنوع، وسوف لا يسمحون لهؤلاء الأجانب بانتقاص خيراتهم ونهب ثرواتهم.

إنّ الإسلام وسّع من دائرة الجهاد بحيث إنّ الشخص الذي يتحرك من موقع الدفاع عن أرضه وناموسه في مقابل من يريد به سوءً أو يريد أن يعتدي على شرفه ولا يجد بدأً من قتل هذا المهاجم والمعتدي فإنّه يجوز له قتله[2].

---

١. وسائل الشيعة، ج ١٨، الباب ١ من أبواب الدفاع، ح ١ و ٢.
٢. المصدر السابق، الباب ٣ من أبواب الدفاع، ح ١.

هذه التعاليم الإسلامية وضعت الأعداء في زاوية حرجة وأرعبت قلوبهم، فنراهم يتحركون دائماً من موقع التآمر على الإسلام فيما يمثّله من تعاليم حيّة وأحكام سامية وآفاق واسعة.

وعلى هذا الأساس فإذا سمعنا يوماً أنّ العدو يوصي بحذف آيات الجهاد والشهادة والآيات التي تتصل بذم اليهود من الكتب الدراسية لطلّاب المدارس، فلا ينبغي العمل بهذه التوصية بل يجب العمل على تكريس هذه الآيات في وعي الأمّة، وتعميقها في وجدان الشبّان، وبذل الجهد ليتعرف المسلمون عليها أكثر، وكما قال الإمام الخميني‏: «إننا نعمل بعكس ما يريده منّا الأعداء».

سؤال: ألا يعتبر الجهاد لوناً من ألوان العنف واستخدام أساليب القهر والخشونة؟

الجواب: إنّ الأعداء عندما وجدوا أنفسهم عاجزين عن مواجهة القيم الإسلامية بشكل مباشر وأحسوا بفشلهم وإحباطهم أمام هذه التعاليم السماوية، فإنّهم تحركوا من جانب آخر لتلويث هذه القيم السامية حتى يمكنهم التغلب على هذا الفكر المتحرك في واقع الحياة لدى المسلمين.

وبما أنّهم لم ينجحوا في حذف مفهوم الجهاد من قلوب المسلمين، فإنّهم سعوا لتقبيح الصورة المشرقة للجهاد في أنظار المسلمين، ومن هنا أطلقوا عليه مختلف النعوت السلبية كالعنف والارهاب، في حين أنّ الأمر ليس كذلك، فالجهاد في الآية ١٩٠ من سورة البقرة التي تقدّم ذكرها آنفاً يعكس هذه الحقيقة، وعليكم أن تحكموا بأنفسكم في هذه الموارد:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

أي أنّ إسرائيل إذا اعتدت على البلدان الإسلامية واحتلت مناطق واسعة من أراضي المسلمين واستولت على القبلة الأُولى للمسلمين وطردت أهالي تلك المدن والمناطق من دورهم ومساكنهم وهدمت بيوتهم على رؤوسهم، فيجب على

المسلمين أن يتصدوا لهذا العدو الغاشم ويدافعوا عن أنفسهم وأرضهم بكل ما أُتوا من قوّة، فإنّهم إنّما يدافعون عن حقّهم، ولكن في ذات الوقت لا ينبغي لهم تجاوز حدودهم المشروعة ويجب عليهم معاملة الأسرى باللطف والرفق، و لا ينبغي لهم تلويث مياه الأعداء أو إحراق أشجارهم أو العدوان على أطفالهم ونسائهم وشيوخهم، فهل يعتبر مثل هذا الجهاد من جملة الارهاب واستخدام العنف؟!

إذا نظرنا بدقّة إلى نظام الخلقة، فسوف نرى أنّ الجهاد يعتبر قانوناً طبيعياً، لأنّ جميع الكائنات الحيّة وفي جميع أرجاء العالم تدافع عن نفسها ولا تستسلم أمام الأعداء بسهولة، فالأشجار التي تقع في مناطق العواصف الشديدة، فإنّها تمد بجذورها إلى عمق الأرض لتتحمل ضغط هذه العواصف والأعاصير، وبذلك تحتفظ بحياتها وتدافع عن نفسها، ولو دققنا النظر في بعض أوراق الأشجار التي تعيش في المناطق الصحرائية المحرقة فسوف نجدها أفخم بالنسبة لأوراق الأشجار التي تعيش على شواطيء الأنهار والجداول، ويغطيها الشوك أيضاً، وهذا بمثابة عنصر دفاعي لهذه الأشجار أمام ظاهرة الجفاف والتصحّر، وفي مقابل الحرارة الشديدة في الصحراء حيث تستطيع المقاومة والاستمرار في الحياة مع شحة المياه، وعلى هذا الأساس فإنّ هذه الأشجار وبهذه الطريقة تدافع عن حياتها أمام هذه الظروف الصعبة.

وجميع الكائنات الحيّة تملك نوعاً من السلاح الطبيعي للدفاع عن نفسها، مثلاً الغزال يملك قدرة عالية على الفرار، والذئب يملك أسناناً حادّة قوية للدفاع، وبعضها تملك قروناً قوية تدافع بها عن نفسها، أو القنفذ يدافع عن نفسه بالأشواك المحيطة ببدنه، وبعضها الآخر تحافظ على نفسها بامتلاك الأنياب السامة واللسعات المؤذية، والخلاصة فإنّ كل حيوان يمتلك وسيلة دفاعية متناسبة للحفاظ على حياته.

وقد وهب الله تعالى لأبداننا قوى دفاعية تتولى المحافظة على حياة البدن في مواجهة الأخطار والأمراض المختلفة، ولولا هذه الوسائل والأدوات الدفاعية

لتفشت الأمراض المختلفة بين الناس في واقع الحياة.

إنّ الملايين من الجنود المضحين في الدم يطلق عليهم بالخلايا البيض ووظيفتهم الدفاع عن بدن الإنسان في مقابل الجراثيم والمكروبات، وهذه المكروبات والفيروسات ترد إلى أبداننا خلال ساعات الليل والنهار عن طريق الماء والغذاء والهواء وتدخل إلىٰ أنسجة وخلايا البدن وتتسبب في أنواع الأمراض كالملاريا والحصبة والسرطان وأمثال ذلك، والسبب في أننا لا نبتلي بهذه الأمراض يعود إلى تضحية هذه الخلايا البيض في الدم، فهل عمل هذه الخلايا يسمى عملاً إرهابياً؟ وهل يتهم العقل والمنطق هذه الخلايا بتهمة الإرهاب والعنف؟

إنّ الأشخاص الذين تجرى عليهم عملية زرع الكلية يجب أن يكونوا في غرف نقية تماماً من المكروبات، وحتى بالنسبة للأشخاص الذين يريدون زيارتهم وعيادتهم ينبغي أن يلبسوا لباساً واقياً وقناعاً خاصاً لكي يتسنى لهم عيادتهم، والسبب في ذلك أنّ البدن يقاوم هذا النزيل الغريب، وهي الكلية الجديدة، ولا يتقبله بسهولة، فيجب أن تمضي مدّة من الزمان ليعتاد البدن على هذا الضيف وتزول منه الحساسية تجاهه، ويقوم الأطباء في تلك الفترة بتزريق هذا المريض بأدوية خاصة لمنع مقاومة الخلايا البيض تجاه هذا العضو الجديد، ولذلك فإنّ الجهاز الدفاعي لبدن هؤلاء يغدو ضعيفاً ويحتاج لمراقبة وعناية خاصّة.

إنّ أهميّة عمل الخلايا البيض كبيرة إلى درجة أنّ يوماً واحداً من تعطيل عمل هذه الخلايا، فإنّ العدو «الذي يتمثّل في المكروبات والفيروسات» يتسلط على بدن الإنسان. ففي كل وقت تضعف القدرة الدفاعية لدىٰ الشخص أو المجتمع فهذا يعني سيطرة الأعداء والقوى المضادة عليه، ومن هنا ينبغي لنا ومن أجل منع نفوذ الأعداء وسيطرتهم على مجتمعاتنا الإسلامية، أن نضع نصب أعيننا الآيات المتعلقة بالجهاد والشهادة ونجعلها أمامنا في واقع الحياة، فيما تمثّله هذه الآيات من اندفاع وقوّة

وحياة للمسلمين، وبذلك نكون مستعدين دائماً للدفاع أمام الأعداء وصد عدوانهم.

والخلاصة، إنّ الدفاع يعتبر قانوناً طبيعياً وبعيداً عن مفهوم الإرهاب والعنف فيما يختزنه من مفهوم سلبي.

بطل الجهاد والشهادة!

إنّ جهاد أميرالمؤمنين علي عليه السلام ومن ثمّة شهادته في سبيل الله في تثبيت دعائم الإسلام وتقوية أركانه إلى درجة أنّه يمكن القول إنّ الإسلام بدون تضحيات هذا الإمام الهمام لا تكتب له الموفقية والامتداد في الوسط المجتمعي، ونلفت النظر هنا إلى مثال واحد:

في معركة أُحد، وبسبب تهاون جنود الإسلام وحبّهم للدنيا، أُصيب المسلمون بنكسة شديدة، وكانت هذه المعركة بمثابة امتحان عسير لقدرة الإسلام على التصدي والحياة والحركة. فالعدو هجم على جيش الإسلام من تلك النقطة التي انسحبت منها هذه الثلة من المسلمين المهزوزين الإرادة، الذين تركوا وظائفهم ونزلوا من الجبل طمعاً في حطام الدنيا. فاستطاع العدو من محاصرة جيش المسلمين وقتل الكثير منهم وانهزم الباقي ورجّحوا الفرار على القرار، وسجّلوا بذلك فشلهم وسقوطهم في هذا الامتحان الإلهي، وقد نزلت الآيات القرآنية بعد ذلك تذمّ هؤلاء المنهزمين وتوبخهم على اهتزاز إيمانهم وضعف عزيمتهم في اللحظات الحرجة وأمام التحديات الصعبة.

يقول الإمام علي عليه السلام: نظرت إلى كل جهة فلم أرى أحداً حتى رسول الله صلى الله عليه وآله! فقلت في نفسي: ربّما ينهزم بعض المسلمين من ضعيفي الإيمان، ولكنّ النبي لا يفرّ مطلقاً، ولكنني لم أكن أعلم أين وقع رسول الله صلى الله عليه وآله ولابدّ من العمل بوظيفتي فكسرت غلاف سيفي حتى أُقاتل إلى أن استشهد، وهكذا مضيت في قتال الأعداء

وأنا أبحث عن رسول الله ﷺ فوجدته في زاوية في الميدان وهو مجروح وقد كسرت ثنيته، وكأنّ الأعداء قد عزموا على إنهاء المعركة بقتل النبي ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ:

«ياعلي! جاهد الكفّار في هذا المكان وادفعهم عنّي».

فكنت أُقاتل وأذب عن رسول الله ﷺ كالفراشة حول الشمع، إلى أن يأس الأعداء من تحقيق هدفهم واضطروا إلى الانسحاب وانتهت المعركة، فجيئت إلى رسول الله ﷺ وقلت: يارسول الله! إنني أُصبت في هذه المعركة اصابات كبيرة منها ١٦ ضربة خطيرة بحيث إنني سقطت إلى الأرض أربع مرات، ولكنني في كل مرّة أسقط إلى الأرض كان شخص جميل المنظر وطيب الرائحة يأتي ويرفعني عن الأرض، ويحرضني على القتال، فمن هو يارسول الله؟

فقال رسول الله ﷺ: «يا علي! هنيئاً لك، فقد كان جبرائيل الأمين ملك الوحي يعينك في هذا الأمر»[1].

* * *

١. السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٥٣١.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٤

أقسام سورة الفجر

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾

شرح وتفسير: التفكّر والتدبّر!

إنّ أقسام هذه السورة بدورها مبهمة وغامضة أيضاً، مضافاً إلى أنّ المقسم له يكتنفه الإجمال والابهام أيضاً، وبسبب ذلك، فإنّ العلاقة بين المقسم له والمقسم به غامضة أيضاً، وكما تقدّم سابقاً أنّ الغرض من هذا الابهام والإجمال تحريك الفكر وإذكاء العقل لدى الناس، وأساساً أنّ إحدى الحِكم في الآيات المتشابهة في القرآن الكريم هو إذكاء قوة الفكر في ذهنية المخاطبين، فالتفكير في درجة من الأهمّيّة بحيث أنّ الإمام عليّاً عليه السلام يقول: «الفِكْرُ مِرآةٌ صافِيَةٌ»[1].

لو أنّ هذه المرآة تلوثت بالأهواء والشهوات فإنّها لا تعكس للإنسان طريق السعادة، وبالتالي سيتحرك الإنسان في هذه الطريق بدون معالم واضحة وربّما يؤدي به الأمر إلى سلوك طريق الشقاوة والضلالة والسقوط في وادي الضياع والخسران وعندما يقوم الإنسان بتهذيب وغسل هذه المرآة وتطهيرها من هذه الشوائب فإنّه

---

١. ميزان الحكمة، باب ٣٢٥٢، ح ١٦٢٠٨.

يستطيع بمعونتها أن يكشف عن العثرات والأخطار التي يواجهها في طريق الكمال المعنوي والأخلاقي.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «الْفِكْرُ مِرْآةُ الْحَسَنَاتِ وَكَفَّارَةُ السَّيِّئَاتِ»[1].

على أيّة حال، فالإسلام يؤيد بشدّة عملية التفكر والتأمل لأنّ لحظة من التفكر قد تؤدي أحياناً إلى تغيير مسار الإنسان في واقع الحياة، كما في قصة الحر بن يزيد الرياحي الذي قاده تفكيره في لحظات إلى الخلود في الجنّة والابتعاد عن النار التي كانت محيطة به.

الأقسام الخمسة وأعمال الحج:

بالنسبة لأقسام هذه السورة هناك تفاسير مختلفة أيضاً. منها أنّ بعض المفسّرين ذكروا أنّ هذه الأقسام ترتبط بمناسك الحج:

﴿وَالْفَجْرِ﴾: قسم بالفجر، عند اشراق أول خيوط الضياء من أعماق ظلام الليل، والمقصود من الفجر هنا هو فجر يوم عيد الأضحى، لأنّ ذلك اليوم العظيم يشهد هياجاً عجيباً في هذه المناسك الإلهيّة. فالملايين من الحجاج في المشعر الحرام ينتظرون طلوع الفجر، وكلهم يعيشون حالة الدعاء والمناجاة مع الله تعالى، وبعد طلوع الفجر بقليل يقفون في المشعر الحرام، ثمّ يتوجهون جماعات باتجاه منى كالسيل الهادر ويؤدون مناسك الرمي في منى، أي رمي الجمرات ثم يذبحون الأضاحي هناك، وبعد ذلك يقصّرون أو يحلقون شعورهم. أجل في هذه الآية أقسم الله تعالى بطلوع الفجر من يوم عيد الأضحى، ذلك اليوم العظيم الذي جعله الله للبشرية عيداً.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾: قسم بالليالي العشر من أول ذي الحجّة وتنتهي إلى ليلة العيد،

---

١. ميزان الحكمة، باب ٣٢٥٢، ح ١٦٢١٠.

ففي هذه الليالي الكريمة يعيش الحجاج أجواء روحانية عجيبة فيما ينفتحون به على الله والعبادة والدعاء، فقسم كبير منهم الذين يصلون إلى مكة لتوّهم يبدأون أعمال ومناسك العمرة المفردة، وقسم منهم ينتهون من أداء هذه المناسك ويشتغلون بالإتيان بالطواف المندوب، ويتوجه بعضهم إلى جبل عرفات.

ففي هذه الآية يقسم الله تعالى بتلك الليالي المباركة حيث يعيش المسلمون أجواء معنوية عالية فيما يؤدون من مناسك وعبادات امتثالاً لأمر الله تعالى.

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾: قسم بالزوج والفرد! وهذا القسم أيضاً إشارة إلى مناسك الحج، والمقصود منه «الشفع» اليوم الثامن [1] من ذي الحجّة، الذي يتأهب فيه الحجاج للتوجه إلى عرفات، وبعضهم يبيت في منى ويتحرك في الصباح الباكر نحو عرفات، وبعض يخرج في صباح اليوم الثامن من مكة ويتوجه إلى عرفات.

والمقصود بـ «الوتر» اليوم التاسع من ذي الحجّة، وفي ذلك اليوم يجتمع الحجاج في صحراء عرفات في حالة عجيبة من الجو المعنوي والتوجه الروحي وخاصّة عند قراءتهم لدعاء عرفة، العميق في مفاهيمه وتعاليمه، ولا شك في أنّ هذا الدعاء من أسمى الأدعية وأدقّها مضموناً حيث يمنح الحجاج من أهل المعرفة في ذلك المكان وتلك الساعات حالاً معنوياً عجيباً لا يقبل الوصف ولا يتحقق للإنسان إلّا في ذلك الموطن.

أجل! قسماً باليوم الثامن والتاسع من يوم ذي الحجّة الزاخرين بالبركة وذكر الله تعالى والدعاء.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾: قسم بالليل عندما يتحرك باتجاه النهار، والمراد من هذا الليل ليلة العاشر من ذي الحجّة، ففي غروب اليوم التاسع من ذي الحجّة تنتهي مراسيم

---

١. ويقال لهذا اليوم «يوم التروية» أيضاً، لأنّ الحجاج في الماضي كانوا يدّخرون الماء في هذا اليوم لشربهم ووضوئهم وغسلهم وطهارتهم، لأنّ عرفات ومنىً في ذلك الزمان لم يكن فيهما ماء، ولكن في هذا العصر والحمد لله يتوفر الماء في هذين المكانين ولا حاجة للإدّخار.

الوقوف بعرفات ويتجه ملايين الحجاج كالسيل العارم باتجاه المشعر الحرام، فهناك عشرة طرق كبيرة وحديثة للسيارات وعدّة طرق للمشاة في حركتهم باتجاه المشعر الحرام، وبسبب كثرة الحجاج فإنّ هذا الطريق القصير بين عرفات والمشعر قد يستغرق طيه ثمان إلى عشر ساعات، و عندما يشعر الحاج بزحمة المرور وتعب الطريق ويرد صحراء المشعر فكأنّما يعيش أجواء المحشر يوم القيامة، فليس هناك من آثار الدنيا ومتعلقاتها وزخارفها، وحتى لا وجود للخيم الكثيرة التي رآها الحجاج في عرفات، ففي المشعر الحرام لا يجد الحجاج ظلّاً للاستراحة هناك ولا رئيس ولا مرؤوس، ولا يوجد فقير وغني، أو حاكم ومحكوم، فالجميع يلبس لباساً بسيطاً مكوناً من قطعتين غير مخيطتين ويجلس الجميع على الأرض ويلتحفون السماء ويشتغلون بذكر الله تعالى، ينبغي على الإنسان أن يتوجه إلى هناك ويعيش تلك الأجواء العجيبة، لأنّها لا يمكن وصفها ولا بيان الحالات الروحانية التي يعيشها الحجاج في تلك الساعات.

أسرار مناسك الحج:

إنّ الأقسام الخمسة، وطبقاً لهذا التفسير، ترتبط بمناسك الحج المعنوية، ومن المناسب هنا بيان بعض ملامح ومعالم هذه المناسك المهمّة بشكل مختصر، ففي تعاليم الإسلام هناك ثلاثة أنحاء من التجمع:

١. التجمع اليومي

ويتمثّل ذلك في الصلوات اليومية التي تقام جماعة، وتعمل على جمع أهل المنطقة أو المحلّة كل يوم ثلاث مرات على الأقلّ، وهذه التجمعات ذات أهميّة فائقة في الوعي الفكري الإسلامي، إلى درجة أنّه إذا تجاوز عدد الجماعة أكثر من عشرة

أشخاص، فإنّ ثواب هذه الصلاة لا يمكن تقديره ولا يدرك مقدارها إلّا الله تعالى.

وقد ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرمﷺ أنّه قال:

«أتاني جبرئيل مع سبعين ألف ملك، بعد صلاة الظهر، فقال: يا محمّد إنّ ربّك يقرئك السلام، وأهدى إليك هديتين، لم يهدهما إلى نبيٍّ قبلك. قلت: ما الهديتان؟

قال: الوتر ثلاث ركعات، والصلوات الخمس في جماعة. قلت: يا جبرئيل وما لأُمتي في الجماعة؟

قال: «يا محمّد إذا كانا اثنين، كتب الله لكل واحد بكل ركعة مائة وخمسين صلاة، وإذا كانوا ثلاثة، كتب الله لكل منهم بكل ركعة ستمائة صلاة، وإذا كانوا أربعة، كتب الله لكل واحد بكل ركعة ألفاً ومائتي صلاة، وإذا كانوا خمسة، كتب الله لكل واحد بكل ركعة ألفين وأربعمائة صلاة، وإذا كانوا ستة، كتب الله لكل واحد منهم بكل ركعة أربعة آلاف وثمانمائة صلاة، وإذا كانوا سبعة، كتب الله لكل واحد منهم بكل ركعة تسعة آلاف وستمائة صلاة، وإذا كانوا ثمانية، كتب الله لكل واحد منهم بكل ركعة ستة وثلاثين ألفاً وأربعمائة صلاة، وإذا كانوا عشرة، كتب الله تعالى لكل واحد بكل ركعة سبعين ألفاً وألفين وثمانمائة صلاة، فإن زادوا على العشرة، فلو صارت بحار السماوات والأرض كلها مداداً، والأشجار أقلاماً والثقلان مع الملائكة كتّاباً، لم يقدروا أن يكتبوا ثواب ركعة واحدة...»[1].

وعلى أساس هذه الرواية وما تحمل من مضامين عميقة ينبغي لنا توفير الظروف المناسبة لتحقيق مثل هذا التجمع اليومي ولا نفقد كل هذه البركات العظيمة المترتبة عليه.

---

١. العروة الوثقى، ج ١، ص ٧٦٢؛ مستدرك الوسائل، ج ٦، الباب ١ من أبواب صلاة الجماعة، ح ٣.

٢. التجمع الأسبوعي

وفي هذا التجمع يجتمع جميع أهالي المدينة الواحدة في صلاة الجمعة، ويمنع إقامة صلاة جمعة أخرى في تلك المنطقة إلى مسافة فرسخ واحد من كل جهة، واللافت أنّ هذا التجمع بهذه السمات الخاصّة يختص بأتباع أهل البيت‰، لأنّ أهل السنّة، رغم أنّهم يصلّون الجمعة، إلّا أنّ صلاة الجمعة تقام عندهم كما تقام صلاة الجماعة في مختلف المساجد المتوفرة في المدينة، وليست كصلاة الجمعة عند الشيعة التي تقام في مكان واحد في كل مدينة، وفي هذا التجمع يطرح خطيب الجمعة المسائل والقضايا التي تتصل بالأمور الاجتماعية والأخلاقية والسياسية من حياة الناس، ولاينبغي لنا أيضاً أن نفقد بركة وثواب المشاركة في هذا التجمع الكبير.

٣. التجمع السنوي

والمشتركون في هذا التجمع الكبير ينتمون إلى عدّة بلدان إسلامية وغير إسلامية ويشترك فيه الأبيض والأسود، والعربي والفارسي والتركي وسائر المسلمين من جميع الطوائف والأقوام، ويتحرك هؤلاء من كل مكان باتجاه أرض الوحي ومكان بزوغ شمس الإسلام، للمشاركة في أعمال ومناسك الحج، وعندما يجد المسلم نفسه في مسجد النبي والمسجد الحرام إلى جانب المسلمين من سائر البلدان الإسلامية، ويجد الجميع يشتركون في صلاتهم إلى جهة واحدة، ويعبدون ربّاً واحداً، ويشهدون برسالة نبي واحد، ويعتقدون باليوم الآخر، فإنّه يعيش حالة لاتوصف من السعادة والسرور، ولكن للأسف الشديد فإنّه لا يتمّ استثمار هذا الاجتماع العظيم لما فيه خير الإسلام ومصلحة المسلمين، ولو تحقق ذلك فإنّ حال المسلمين سيتغير قطعاً.

فلسفة أعمال الحج:

إنّ الاجتماع السنوي العظيم للحج يختزن حِكم وغايات متعددة، ونشير هنا إلى ثلاث منها:

١. الغاية الأخلاقية

إذا أدى الحاج مناسك الحج بكيفيتها الواقعية، فلا شك في أنّه يعود إلى وطنه بعد الحج وهو يعيش النقاء في قلبه والصفاء في وجدانه وعمق الإيمان في روحه، يقول النبي الأكرمﷺ في بيان هذه الحقيقة:

«مَنْ حَجَّ الْبَيْتَ... خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[1].

وذلك لأنّ هذا الإنسان عندما يشترك في تلك المناسك الإلهيّة يجد نفسه فارغاً من زخارف الدنيا وقيودها ولا يجد في نفسه رغبة وميلاً لحطام الدنيا، مثلاً لا يستعمل العطر، أو لا يمشط شعره وحتى لا ينظر لنفسه بالمرآة.

ومنذ ظهر يوم التاسع إلى ليلة العاشر يقف في صحراء عرفات (حيث لا يجب عليه شيء سوى البقاء في هذا الموطن) ويفكر فيما مضى من حياته وما عمله في هذه المدّة من سيئات وما ارتكبه من ذنوب وخطايا ويتوب منها ويعزم على جبران ما فاته بالأعمال الصالحة في المستقبل، ويفكر في أمره وما يهدف إلى عمله في المستقبل، فإنّه يسد بذلك نوافذ الشيطان ولا يبقي له طريقاً للتدخل في شؤونه ونواياه، ثم تحلّ ليلة العاشر في المحشر الحرام التي تشبه صحراء المعشر، فيفكر بحقارة الدنيا وتفاهتها وكيف أنّ هذه الدنيا الحقيرة قد أسرته وقيدته بقيودها، فيشعر بالخجل من ذلك ويعزم على إصلاح الخلل وجبران القصور.

---

١. عوالي اللئالي، ج ١، ص ٤٢٦، ح ١١٣.

الحقيقة أنّ آثار ومعطيات الحج عظيمة وعجيبة، ولكن للأسف هناك ما يشغل الإنسان الحاج في غير هذا الشأن ويشكل له كابوساً ثقيلاً، وهو ما يسمى بـ «الهدايا» التي يشتريها الحاج إلى أهله وأرحامه في وطنه، أو ينشغل بشراء البضائع التي يبيعها بسعرٍ أعلىٰ في وطنه فمثل هذا الكابوس لا يكاد يفارق أذهان بعض الحجاج ويستولي على تفكيرهم، ولذلك يهتمون بالتوجه إلى المحلات التجارية والأسواق المتنوعة لشراء ما لا يجدونه في وطنهم وبلادهم، فيجب إصلاح هذا الخلل حتى لا يقضي هذا المرض المهلك على المكتسبات المعنوية والمعطيات الأخلاقية للحج.

ويصف الإمام علي عليه السلام في الخطبة القاصعة، الفلسفة الأخلاقية للحج توصيفاً رائعاً ويبيّن عمق هذا البعد الأخلاقي في هذه المناسك الإلهيّة بوصفها دواء لعلاج مرض الكبر والغرور في نفس الإنسان، ويقول:

«ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عَلَيهِ السَّلاَمُ وَوَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ، فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ، وَغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ. تَهْوِي إِلَيْهِ ثِمَارُ الْأَفْئِدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ سَحِيقَةٍ وَمَهَاوِي فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ، وَجَزَائِرِ بِحَارٍ مُنْقَطِعَةٍ، حتّى يَهُزُّوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلاً يُهَلِّلُونَ لِلّٰهِ حَوْلَهُ. وَيَرْمُلُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُعْثاً غُبْراً لَهُ. قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَشَوَّهُوا بِإِعْفَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ. ابْتِلاَءً عَظِيماً وَامْتِحَاناً شَدِيداً وَاخْتِبَاراً مُبِيناً. وَتَمْحِيصاً بَلِيغاً جَعَلَهُ اللّٰهُ سَبَباً لِرَحْمَتِهِ، وَوُصْلَةً إِلَى جَنَّتِهِ»[1].

٢. الغاية السياسية

فلو أنّ المسلمين يتحدون في مواقعهم واطروحاتهم وأهدافهم ويضعون أيديهم بأيدي إخوانهم، ويتخذون قرارات مشتركة ويوحدون مسيرتهم في حركة الحياة

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

والواقع، فإنّ ذلك من شأنه ارعاب أعداء الإسلام واهتزاز أدواتهم وتفتيت قواهم، وقد قال سياسي غربي: «الويل للمسلمين إذا لم يفهموا معنى الحج، والويل لأعدائهم إذا فهم المسلمون معنى الحج»[1] أجل! فإنّ الحج بإمكانه إلحاق الهزيمة بالعدو وتفكيك قواه ودحر مؤامراته.

ولكنّ للأسف فإنّ المسلمين لم يلتفتوا إلى هذا الجانب المهم من الحج، بل أكثر من ذلك فقد منعوا طرح المسائل السياسية في هذا المؤتمر العظيم!

إنّ أكبر صلاة جمعة في العالم من حيث عدد المشاركين، صلاة الجمعة قبل توجه الحجاج إلى عرفات، والمتوقع من خطيب الجمعة في هذه الصلاة المليونية أن يطرح قضايا المسلمين المصيرية، من قبيل احتلال فلسطين وجرائم إسرائيل وأمثال ذلك، ويدعو المسلمين إلى التفكير في هذه المسائل ويبيّن لهم وظيفتهم الإنسانية والدينية في قبال هذه التحديات التي تفرضهاقوى الظلم والظلام على المسلمين في واقع الحياة.

ولكن مع كثير الأسف نرى أنّه لا أثر للبحوث السياسية في خطبة الجمعة هناك، بل تطرح أحياناً مسائل في غاية التفاهة وقلّة الأهميّة، من قبيل كراهة أكل البصل قُبيل التوجه إلى المسجد، وبعض البحوث التي تتعلق بالجنس ومسائل من هذا القبيل، ولو كان مكبّر الصوت في صلاة الجمعة هناك بأيدي خطباء من الشيعة فإنّهم بطرحهم مسائل أساسية وقضايا مصيرية في تلك الخطبة الحساسة، يثيرون الأرض تحت أقدام أعداء الإسلام ويسلبونهم لذة النوم المريح وبخاصّة لأمريكا وإسرائيل.

٣. الغايات الثقافية

إنّ الحج يمثّل حلقة وصل بين علماء الإسلام والمفكّرين في العالم الإسلامي،

---

١. مناسك جامع حج، ص ٢٤ (بالفارسية).

فلو اتخذت ترتيبات مناسبة لإقامة مؤتمرات علمية مختلفة بعد الإنتهاء من مناسك الحج ودعوة العلماء والمفكّرين من مختلف بلدان العالم الإسلامي للمشاركة في هذه المؤتمرات وطرح آرائهم العلمية على أكثر من صعيد، فإنّ ذلك من شأنه تفعيل الحركة الفكرية وترشيد النهضة العلمية والثقافية للمسلمين.

٤. الغايات الاقتصادية

لا ينبغي التعجب إذا رأينا أنّ الروايات والنصوص الشريفة تؤكد على حقيقة أنّ الحج يؤدي إلى تقوية دعائم الاقتصاد في البلدان الإسلامية[1].

إنّ ٢٥ بلداً أوربياً شكلوا بينهم اتحاداً على المستوى الاقتصادي، ومن ذلك انطلقوا إلى نهب ثروات شعوب العالم، فلماذا لا تشكل الدول الإسلامية وحدة اقتصادية قوية لتحقيق الاستقلال الاقتصادي والتخلص من أوزار التبعية الاقتصادية للدول المتقدمة والقوى الاستكبارية؟

تفاسير مختلفة لآية واحدة!

رأينا فيما تقدّم وجود تفاسير مختلفة لهذه الأقسام الخمسة، وقد استعرضنا فيما سبق تفسيراً واحداً منها، والآن نستعرض التفسير الثاني، ولكن قبل بيان تفاصيل هذا التفسير، نجد من الضروري الاجابة عن سؤال يفرض نفسه في الموضوع:

هل يمكن أن تتحمل الآية الواحدة تفاسير مختلفة؟ وهل يجوز أن نفسّر الآية بأكثر من تفسير.

الجواب: لا إشكال في ذلك، كما أنّ بعض الروايات الواردة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام أقرّت بهذه الحقيقة، على سبيل المثال ورد في تفسير الآية ٣٢ من

---

١. وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٧، ح ١٥.

سورة المائدة تفسيران متفاوتان عن الإمام الصادقعليه السلام. وفي البداية نذكر الآية الشريفة، ثمّ نتعرض إلى ما ورد في تفسيرها في الروايات.

﴿...مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً...﴾.

يقول الإمام الصادقعليه السلام في جوابه عمّن سأله عن تفسير الآية المذكورة: «مَنْ حَرَقَ أَوْ غَرَقَ» بمعنى أنّ الآية تتحدث عن انقاذ النفس من الحرق أو الغرق وأمثال ذلك، أي أنّك لو رأيت حريقاً يشب في بيت جارك وقد تعرض جارك لخطر الموت والحرق في تلك النيران الملتهبة، فأخبرت المسؤولين عن إطفاء الحريق وجاءوا وأخمدوا النيران وأنقذوا هذا الشخص، فإنّك بذلك ستكون مشمولاً لهذه الآية الشريفة طبقاً لبيان الإمام الصادقعليه السلام، وكأنّ عملك هذا بمثابة انقاذ المجتمع البشري، ولو قام معلم السباحة أو الشخص المسؤول عن انقاذ الغرقى في السواحل بإنقاذ شخص من خطر الغرق في البحر، فعمله هذا يوازي إنقاذ جميع أفراد المجتمع البشري. هذا أحد التفاسير الواردة في هذا الشأن، والذي نطلق عليه بالتفسير المادي.

ولكن الإمام الصادقعليه السلام بعد بيان التفسير الأول مكث مدّة ثم قال: «تَأْوِيلُهَا الْأَعْظَمُ أَنْ دَعَاهَا فَاسْتَجَابَ لَهُ»[1]. فالتفسير الآخر لهذه الآية والمفهوم الأكبر الذي نستوحيه منها أن يقوم الشخص بدعوة آخر إلى سلوك طريق الحق أو الباطل، فيستجيب له ذلك الشخص ويتحرك في الطريق الذي دعاه إليه.

ومن هذا المنطلق إذا تحركنا على مستوى دعوة الناس إلى الصراط المستقيم والخروج من أجواء الضلالة والانحراف إلى أجواء الهداية والرسالة والإيمان، واهتدى شخص ضال بهذه الدعوة، فقد منحناه حياة معنوية جديدة وبالتالي ستشملنا الآية الشريفة المذكورة.

---

١. نورالثقلين، ج ١، ص ٦٢٠، ح ١٥٥.

أجل، إنّ مسألة الهداية إلى طريق الخير والصلاح إلى درجة من الأهميّة بحيث ورد التعبير عنها بالحياة المعنوية، والآية ٢٤ من سورة الانفال تقرر هذه الحقيقة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

سؤال: هل الناس كانوا موتى ودعاهم النبي الأكرمﷺ إلى الحياة؟

الجواب: كلّا، ولكن بما أنّهم كانوا يعيشون أجواء الكفر والضلالة بعيداً عن آفاق السماء والنور فإنّهم من هذه الجهة بمثابة موتى في إطار المعنى ومن جهة المعنوية، وقد سعى النبي الأكرمﷺ إلى بعث الإيمان في نفوسهم لإعادة الحياة المعنوية لهم.

النتيجة أنّه لا إشكال من تقديم تفاسير مختلفة للآية الواحدة، طبعاً مع اقترانها بقرائن وشواهد مقنعة.

التفسير الثاني: تفسير أشمل وأوسع

﴿وَالْفَجْرِ﴾؛ قسم بطلوع أول إشراقات وأنوار الصباح. لا فقط اشراقات الصبح من عيد الأضحى بل اشراقات صبح جميع الأيام.

سؤال: ما هي الحادثة المهمّة التي تقع عند طلوع الفجر بحيث إنّ الله تعالى يقسم بها؟

الجواب: في ذلك الوقت يحدث تحوّل عظيم في العالم، ولكننا نحن البشر لا نلتفت إليه بسبب أننا محجوبون بستار الغفلة والمادة، ففي الليل يعيش أفراد البشر بل سائر الكائنات الحية، أجواءً خاصّة من الهدوء والطمأنينة والسكينة، كما تقرر الآية ٩٦ من سورة الأنعام.

﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً﴾؛ ولكنّ طلوع الفجر واشراق أولى علائم النهار وأنوار الصباح بمثابة إعلان عام عن طلوع يوم جديد من النشاط والحركة والحياة، فطلوع الفجر يعلن للإنسان أنّ وقت النوم والراحة قد ولى وبدأ وقت الصبح، وهو وقت

السعي والعمل والنشاط، وهذا الأمر مهم إلى درجة أنّ الله تعالى أقسم به.

الملفت للنظر أنّ هذا الاعلان عن حدوث هذا التحوّل لا يختص بالإنسان بل يستوعب جميع الكائنات الحيّة في العالم، فجميع الكائنات الحـيّة تـبدأ بـنشاطها وتنطلق في فعاليتها منذ طلوع الفجر، ومن هنا فالأشخاص الذين يسهرون ويبقون مستيقظين إلى ساعات متأخرة من الليل، ومن جهة أخـرى يـنامون إلى مـنتصف النهار، فإنّهم يسلكون في حياتهم عكس مقتضيات الطـبيعة، والتـجربة أثـبتت أنّ الأشخاص الذين يستيقظون من النوم في ساعات الصباح الباكر ويشرعون بنشاطهم وعملهم اليومي، أكثر توفيقاً من الآخرين، والأشخاص الذين يمكثون في فـراش النوم إلى مقربة من الظهر ليس لهم حظ مـن المـوفقية فـي التـفاعل الاجـتماعي والنجاح في واقع الحياة، بل إنّهم من الناحية الروحية يتميزون بقلّة النشاط والفاعلية ويعيشون حالة الكسل والخمود.

أجل، فإنّ القسم بطلوع الفجر هو إعلان عن هذه الحقيقة ودعوة للإنسجام مع مقتضيات الطبيعة فيما تفرضه من نشاط وفعالية في مغادرة أجواء الكسل والنوم في اللحظات الأُولى من طلوع الفجر.

والجدير بالذكر أنّ بعض المفسّرين ذكروا تفسيراً أشمل لهذه الآيـة الشـريفة، وذلك أنّ المراد بالفجر هنا، ما يستوعب جميع أشكال لمعان الضياء والنور في حياة الإنسان المادية والمعنوية وما يفضي إلى إضاءة آفاق الحياة للإنسان، ولا يـختص بلمعان ضوء الفجر عند الصباح، وعلى هذا الأساس فإنّ الشاب المذنب الذي يقضي ليالي القدر في شهر رمضان المبارك بالدعاء والمناجاة وتلاوة القرآن ويحيي هذه الليلة بالتضرع والابتهال إلى الله، وتشرق أنوار التوبة في ظلمات قلبه، ويتحرك في ضوء هذه الاشراقات المعنوية لجبران ما فاته من الخيرات وإصلاح الخلل والتحرك في خط الرسالة والايمان والانفتاح على الله، فمثل هذا الشاب أيضاً يقع مشمولاً

للقسم المذكور في هذه الآية، ويكون مصداقاً للفجر الذي طلع من زوايا ظلمات قلبه.

وطبقاً لهذا التفسير فإنّ الاشراقات الاجتماعية التي تشرق في الليالي الحالكة في عصر الحكومات الجائرة وتعمل على تحريك الناس ونفخ روح الثورة فيهم، وبالتالي ينتهي الأمر إلى إزاحة الطاغوت وقوى الجور والظلام من آفاق هذا المجتمع وتطهيره من عناصر الشر، فإنّ هذا المجتمع بدوره يقع مصداقاً لهذه الآية الشريفة.

وعليه فإنّ الفجر يختزن معنىً عميقاً وواسعاً، ويشمل كل لون من ألوان الاشراق في قلب الظلمات المادية أو المعنوية، ويعمل على اضاءة آفاق هذه الظلمات وتحويلها إلى أجواء النور.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾؛ وثمّة عشرة أيّام وليالٍ مهمّة طيلة أيّام وأشهر السنة القمرية، وهذه الآية الشريفة تشير إليها، فقيل إنّها:

١. العشر الأوائل من شهر ذي الحجّة كما تقدّم بيانه.

٢. العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك، وخلافاً لتصور بعض الناس الذين لا يهتمون بالأيّام الأخيرة من شهر رمضان وخاصّة بعد الثلاثة والعشرين من هذا الشهر، فإنّ هذه الأيّام تحضى بأهميّة بالغة، إلى درجة أنّ النبي الأكرمﷺ كان يأمر أهله بأن ترفع الفراش في هذه الليالي حتى يقضي هذه الليالي المباركة بالاعتكاف والتضرع والابتهال[1].

٣. العشرة الأولى من شهر محرم، وبعبارة أخرى عشرة عاشوراء، والتي تقع في مطلع السنة القمرية.

سؤال: هل حادثة عاشوراء كانت مطروحة في عصر نزول القرآن حتى يقسم الله تعالى بهذه الأيام؟

---

١. وسائل الشيعة، ج ٤، كتاب الاعتكاف، باب ١، ح ١. ضمناً طالعوا البحوث المتعلقة بالاعتكاف في كتابنا «الاعتكاف عبادة كاملة».

الجواب: إنّ قصّة كربلاء كانت مطروحة منذ ابتداء خلق آدم، وقد أشارت الروايات الشريفة كثيراً إلى أنّ النبي الأكرمﷺ والإمام عليﷺ أشارا إلى هذه الواقعة في مناسبات عديدة[1]، وعلى هذا الأساس فلا غرابة في أن يقسم الله تعالى بعشرة عاشوراء.

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾؛ ما المقصود بالزوج والفرد في هذه الآية الشريفة؟

ذهب البعض إلى أنّ المقصود: «جميع الأعداد التي تتشكل من الزوج والفرد»[2] وبعبارة أخرى أنّ الله تعالى في هذه الآية الشريفة يقسم بنظام الأعداد المتشكل من الزوج والفرد، ومضمون هذا القسم هو: أيّها الإنسان! إنّ حياتك إنّما تكون مفيدة ومثمرة إذا كانت تسير وفق حساب وكتاب، فجميع الأمور الثقافية، الاقتصادية، العسكرية، الاجتماعية وسائر الأمور الأخرى ينبغي أن تخضع لعملية الحساب، وحينئذٍ ستكون حياة مثمرة ومنتجة.

ولا شك في أنّ الأشخاص الذين يواجهون الفشل في حياتهم ويسقطون في مواجهة التحديات في الواقع والمجتمع هم الأشخاص الذين لا يتحركون على مستوى التخطيط لأعمالهم ونشاطاتهم ولا يهتمون بالبعد الاقتصادي لعملية الحساب والأعداد، وإلّا فسوف لايواجهون الفشل في واقع الحياة الاقتصادية.

وعلى هذا الأساس فإنّ عملية التخطيط والحساب وتشييد صرح الحياة على قاعدة متماسكة من الأعداد والمحاسبات تحضى بأهميّة كبيرة بحيث إنّ الله تعالى أقسم بها.

وذهب آخرون إلى أنّ المقصود: «مجموعة عالم الوجود، لأنّ الفرد هو الذات

---

١. وردت تفاصيل هذا البحث في الفصل الرابع من القسم الأول من كتاب «عاشوراء»، بإشراف آية الله العظمى مكارم الشيرازي (مدّ ظلّه).

٢. التفسير الأمثل، ذيل الآية المذكورة.

المقدّسة والحقيقة الإلهيّة، وما سوى الله فهو زوج»[1].

إنّ أصغر موجود في عالم المادة هو «الذرة»، ويتشكل بدننا من ملايين الذرات، الذرة بدروها تتشكل من أجزاء أصغر وأهمها عنصرين: ««پروتونات» التي تمثّل نواة الذرة، و«الالكترونات» التي تدور حول البروتونات، وإذا استطاع الإنسان أن يخرق نواة الذرة ويحرر الطاقة الموجودة فيها فسوف تصدر منها طاقة عظيمة جدّاً.

وهكذا في عالم الأرواح أيضاً. فالروح مركبة من قوتين جاذبة ودافعة، فبالقوة الجاذبة تتحرك الروح لاكتساب المنافع وجذب المصالح والخيرات، وبالقوة الدافعة تدفع عنها الضرر وتبعد عنها الأمور غير الملائمة.

هنا يقسم الله تعالى بعالم الخلقة الذي هو في واقعه زوج، ويقسم بخالقه الذي هو فرد.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾؛ كان الإنسان عند نزول هذه الآية يتصور أنّ الكرة الأرضية تمثّل محور عالم الوجود، وأنّ جميع الكرات الأخرى تدور حول الأرض، ثمّ أدرك الإنسان خطأ هذا التصور بسبب التطور العلمي في القرون الأخيرة، وعَلِم أنّ الأرض كروية تدور حول نفسها من جهة، وحول الشمس من جهة أخرى، وبسبب دورانها حول نفسها تحدث ظاهرة الليل والنهار، ولو أنّ الإنسان خرج من الكرة الأرضية ونظر إليها من خارجها، فإنّه يرى أنّ الليل فيها يتحرك «وفي هذه الآية يقسم الله تعالى بالليل المتحرك الذي لا يتوقف» وحركة الليل هذه أشار إليها القرآن الكريم قبل مئات السنين. واعتبرها من النعم الإلهيّة العظيمة للبشر، بل لجميع الكائنات الحيّة، فلولا حركة الليل، يعني لو أنّ الليل كان ثابتاً في جانب من الكرة الأرضية، والنهار ثابت في الجانب الآخر منها، فإنّ جميع البشر بل جميع الأحياء ستتعرض للفناء والموت، فالأحياء التي تعيش في النصف المظلم من الكرة الأرضية

---

١. التفسير الأمثل، ذيل الآية المذكورة.

ستتجمد وتموت من البرد، والأحياء التي تعيش في النصف الآخر من الكرة الأرضية، التي يستولي عليها النهار، سوف تحترق من شدّة حرارة الشمس وتتحوّل إلى رماد.

هذا في حال تفسير الآية الشريفة تفسيراً مادياً، وأمّا على أساس التفسير المعنوي فيكون معنى الآية كالتالي: «أيّها الإنسان! ربّما تكون آفاق روحك مظلمة كظلام الليل، ولكن ظلام الجهل هذا متحرك باتجاه أجواء المعرفة ونور العلم، فمثل هذه الظلمة مقدّسة أيضاً، لأنّها تعتبر مقدّمة للنور والضياء، ولا شك في أنّها تقود الإنسان إلى فضاء اليقين وآفاق الاطمئنان، فمثل هذا الشك المتحرك والظلام الإيجابي مقبول ويترتب عليه نتائج مثمرة.

تفاسير أخرى للفجر:

تقدّم في ما سبق تفسيران للأقسام الخمسة من سورة الفجر، ولكن مضافاً إلى هذين التفسيرين فثمّة تفاسير أخرى في خصوص كلمة «الفجر»، وسنشير إلى اثنين منها أيضاً، ولكن قبل ذلك من المناسب التطرق إلى معنى كلمة «الفجر» في اللغة:

«فجر» في اللغة بمعنى الشق الواسع، والانفجار يطلق على ما يُحدث شقاً واسعاً في مكان وقوع الانفجار، ومن هذه الجهة أيضاً يقال للذنوب «فجور» لأنّها تشق ستار التقوى، بما أنّ الليل بمثابة الستار الأسود المظلم المهيمن على فضاء الدنيا، فإنّ طلوع الخيوط الأولى لنور الصبح يؤدي إلى شق هذا الستار المظلم ويبشر بطلوع النهار، ومن هنا قيل لهذا النور الأولي «فجر».

وكذلك فإنّ مطلع الصبح يتضمن فجرين في الأفق، أحدهما الفجر الكاذب، والآخر الفجر الصادق، أمّا الفجر الكاذب فيستمر لمدّة ربع ساعة تقريباً قُبيل ظهور الفجر الصادق في الأفق، هذا الفجر يظهر بشكل ضياء خفيف في الأفق فيما يشبه

ذيل الثعلب ومتجه إلى أعلى السماء حيث يتسع تدريجياً، ويزول بسرعة من الأُفق ويحلّ محله ظلام الليل، ولهذا أُطلق عليه: الفجر الكاذب، وبعد زوال الفجر الكاذب يظهر في الأُفق ضياء خفيف لفجر آخر كالخيط الشفاف والرقيق من النور ويضيء الأُفق، وهذا الضياء يتحرك تدريجياً باتجاه الأعلى حتى يزيل سحب ظلمة الليل بشكل كامل عن وجه السماء.

وقد ورد في الروايات[1] تشبيه هذا الفجر بـ«نهر سورا»[2]، لشدّة صفائه وشفافيته. والفجر الصادق هو العلامة والمعيار لبداية وقت الامساك في الصوم، وكذلك بداية وقت صلاة الصبح.

ومع هذه الملاحظات في مفردة «فجر»، نستعرض الآن التفسيرين الآخرين في ما يتصل بهذه الكلمة:

١. بعثة النبي الأكرمﷺ: فالفجر في هذه الآية مورد البحث تعني ظهور النبي الأكرمﷺ. لأنّ مرحلة الجاهلية قبل البعثة بمثابة الستار الظلماني الذي كان يغطي المجتمع البشري، فجاءت بعثة النبي بمثابة النور الذي شق ستار هذه الظلمة وأشرقت به شمس الإسلام على ربوع العالم كافة، ولذلك أقسم الله تعالى بهذه الحادثة المهمّة.

يقول الإمام عليّ في الخطبة ٨٩ من نهج البلاغة، في وصفه للأوضاع الاجتماعية والثقافية للناس في زمن الجاهلية، وفي إشارة إلى هذا الموضوع بالذات:

«أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ، وَاعْتِزَامٍ مِنَ الْفِتَنِ، وَانْتِشَارٍ مِنَ الْأُمُورِ، وَتَلَظٍّ مِنَ الْحُرُوبِ، وَالدُّنْيَا كَاسِفَةُ النُّورِ، ظَاهِرَةُ الْغُرُورِ».

وعلى هذا الأساس فإنّ النبي الأكرمﷺ شق برسالته السماوية حواجز الجهل

---

١. وسائل الشيعة، ج ٣، الباب ٢٧ من أبواب المواقيت، ح ٢ و ٦.

٢. يقع هذا النهر في العراق.

وحجب الظلام الذي ساد آفاق العالم البشري في الجاهلية، وتقرأ في زيارة وارث فيما يخصّ الإمام الحسين عليه السلام:

«أَشْهَدُ اَنَّكَ كُنْتَ نُوراً فِي الْاَصْلابِ الشّامِخَةِ، وَالْاَرْحامِ الْمُطَهَّرَةِ، لَمْ تُنَجِّسْكَ الْجاهِلِيَّةُ بِاَنْجاسِها، وَلَمْ تُلْبِسْكَ مِنْ مُدْلَهِمّاتِ ثِيابِها»[1].

النتيجة أنّ الجاهلية قبل الإسلام كانت بمنزلة الستار المظلم والحجاب القاتم الذي شمل البشرية جمعاء، ولكنّ نور البعثة النبوية والرسالة السماوية شقّ هذا الحجاب ومزّق هذا الستار فأشرقت من خلاله شمس الإسلام على ربوع المجتمعات البشرية.

٢. ظهور الإمام المهدي عليه السلام: وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ المقصود من الفجر في هذه الآية ما ينطبق على ظهور الإمام المهدي عليه السلام لأنّ الجاهلية الحديثة سوف تستولي على آفاق المجتمعات البشرية قُبيل ظهوره وتحوّل أجواء الدنيا والعالم إلى أجواء قاتمة وظلمانية، ولكنّ ظهور الإمام المهدي عليه السلام سيكون الشرارة التي تمزق ظلام هذه الجاهلية كما أنّ نور الصبح يشق ظلام الليل ويعمل على دحره وإزاحته من فضاء المجتمع البشري.

ويذكر أصحاب هذا التفسير قرينة على ذلك من خلال كلمة «الجاهلية الأُولى» الواردة في الآية ٣٣ من سورة الأحزاب، وأنّها شاهد على وجود جاهلية أخرى، ستتحقق في المستقبل، وهذه الجاهلية ستسود آفاق البشرية قُبيل ظهور الإمام عليه السلام.

وعلى هذا الأساس، فكما أنّ بعثة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله شقت ستار الجاهلية الأُولى وبزغت بذلك شمس الإسلام على العالم، فإنّ ظهور الإمام المهدي الحجة بن الحسن العسكري عليه السلام سيشق قلب الجاهلية الحديثة ويستولي ضياء الشمس على جميع آفاق المجتمع البشري ويزيح من طريقه جميع أشكال الظلمة والظلم والجور

---

١. مفاتيح نوين (بالفارسية)، لسماحة آية الله العظمى الشيخ مكارم الشيرازي، في زيارة وارث.

الناشيء من افرازات تلك الجاهلية.

النتيجة، توجد أربعة تفاسير مختلفة لكلمة الفجر، وطبعاً لا منافاة بينها، وبالإمكان أن تكون كل هذه التفاسير صحيحة ومقصودة للحق تعالى في هذه الآية الشريفة.

المقسم له:

بعد أن تبينّ المقصود من الأقسام المذكورة وأهميتها الكبيرة، نأتي إلى هذا السؤال الذي يفرض نفسه في الموضوع وهو: ما هو الهدف أو الغاية من هذه الأقسام؟ ولماذا أقسم الله تعالى بهذه الوقائع المهمّة؟ وما هو الشيء الذي من أجله أقسم الله تعالى بهذه الأمور المهمّة؟

في الوهلة الأولى يبدو أنّ المقسم له لم يذكر في هذه السورة، ولكنّ الأمر ليس كذلك لأنّه: **أولاً**: أنّ القرآن الكريم يقول بعد هذه الأقسام الخمسة مباشرة:

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾.

بمعنى أنّ هذه الأقسام تعتبر بالنسبة للعقلاء، أقساماً مهمّة، والإنسان العاقل لا يقسم قسماً مهمّاً بدون سبب وغرض، فكيف الحال بالله تعالى خالق العقل والفهم؟ فعلى هذا الأساس لا شك في أنّ الله تعالى أقسم بهذه الأقسام لغرض مهم.

وثانياً: ذهب جماعة من المفسّرين أنّ جواب القسم ورد في الآية ١٤ من هذه السورة، وذلك في قوله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.

وهذا يعني: قسماً بطلوع الفجر من يوم عيد الأضحى، قسماً بطلوع الصبح من جميع أيّام السنة، قسماً ببعثة النبي الأكرمﷺ، قسماً بظهور الإمام المهدي‰، قسماً بالليالي العشرة الأولى من ذي الحجّة، قسماً بالليالي العشرة الأولى من شهر محرم، قسماً بالعشرة الأخيرة من شهر رمضان المبارك، قسماً بنظام الأعداد الذي

يحكي عن وجود حسابات دقيقة في أمر الكون، قسماً بالله الواحد وجميع مخلوقاته، قسماً بهذه الأمور المهمّة جدّاً أنّ الله تعالى يقعد بالمرصاد للظالم وقوى الشر والجور والظلام.

والملفت للنظر أنّ كلمة «مرصاد» وردت في موردين فقط من القرآن الكريم، أحدهما في هذه الآية مورد البحث وتعكس حقيقة هذا الموضوع، وهو أنّ الله تعالى يترصد حركات الظالمين ويمكر بهم، والمورد الثاني في سورة النبأ، حيث تتحدث السورة عن يوم القيامة، والنتيجه أنّ الله تعالى بالمرصاد للظالمين في الدنيا والآخرة، وقد أشارت بعض الروايات الشريفة أيضاً إلى هذه المقولة:

فقود ورد في الرواية: «...إذا وَقَفَ الخَلائِقُ وَجَمِيعُ الأولِينَ والآخرينَ، أُتي بِجهَنّم، ثُمّ يُضعُ عَليها صراط أدقّ مِنَ الشّعرِ وأحَدُّ من السّيفِ عَليهِ ثَلاث قَناطِر... وَكانَ المنتهى إلىٰ رَبّ العالِمينَ جلّ ذكره وَهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾»[1].

والمقصود من هذا الحديث الشريف أنّ الظالمين وقوى الشر والجور إذا لم يتعرضوا للعذاب الإلهي في هذه الدنيا ولم تمسهم العقوبة الإلهيّة في حياتهم الدنيوية فلا يتصوروا أنّهم بمنأى من العذاب وأنّهم بعيدون عن قدرة الله تعالى وهيمنته المطلقة، كلّا، فإنّ الله تعالى بالمرصاد لهم في يوم القيامة.

إنّ الله تعالى يضيق الخناق أحياناً على الإنسان في هذه الدنيا بحيث إنّه لا يجد فرصة لشربة ماء، ولكنّه أحياناً يمنحه فرصة ويتيح له المجال في هذه الحياة، وهذه الفرصة تارة تكون للتوبة والأخرى للغرق أكثر فأكثر في مستنقع الذنوب، والمعاصي، لا أنّ الله تعالى (نعوذ بالله) عاجز عن مؤاخذة الظالم وعقابه.

يحكى أنّ رجلاً من الأثرياء صعد إلى سيارته الفارهة وتحركت السيارة في

---

١. نورالثقلين، ج ٥، ص ٥٧٢، ح ٩.

طريقها، فسأله السائق: أين نذهب؟ فقال: إلى المت... فتعجب السائق من هذه الكلمة الغامضة، فاستدار ليسأل رئيسه عن معنى هذه الكلمة، فانتبه ورأى بكثير من العجب أنّ صاحبه قد رحل من هذه الدنيا وفارق الحياة، بسكتة قلبية، ولم يمهله الله تعالى ليكمل هذه الكلمة «المتجر»، أجل إنّ الله تعالى للظالم لبالمرصاد في الدنيا والآخرة.

وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام:

«الْمِرْصَادُ قَنْطَرَةٌ عَلَى الصِّرَاطِ لَا يَجُوزُهَا عَبْدٌ بِمَظْلَمَةِ عَبْدٍ»[1].

إنّ حقّ الناس في غاية الأهميّة ولا يمكن المرور عليه من موقع اللامبالاة والإهمال.

مضمون الأقسام الخمسة والمقسم له:

ما نستوحيه من الآيات المذكورة هو رسالة تربوية للإنسان، لأنّ أمر التربية، وبخاصّة تربية الإنسان، ولاسيما إذا كان الهدف تربية المجتمع البشري بعامة، يحضى بأهميّة بالغة. فالإنسان عندما يتأمل في مضمون هذه الآيات الشريفة يعيش الإحساس العميق بأنّ الله تعالى ناظر إليه دائماً ومشرف على سلوكياته وأعماله وأقواله، وحتى أنّه يعلم ما يجري في خاطره وذهنه من العقائد والأفكار المختلفة، وهذا المعنى له أثر تربوي كبير على سلوك الإنسان ومحتواه الداخلي فيما يفرضه من ضبط لكلامه وسلوكياته وأن لا يتصرف بما يخالف التعاليم الإلهيّة والقيم الأخلاقية، ولا يصادق أي شخص كان، ولا يقرأ أي مجلة أو صحيفة كانت، وأن لا يتناول أي طعام كان، ولا يسمع كل كلام، ولا ينظر لكل مشهد ومنظر، لأنّ جميع حركاته وسكناته مرصودة من قِبل ربّ العباد.

واللافت أنّ الله تعالى في هذه الآية ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ أشار إلى ثلاثة نماذج تاريخية كمصاديق يستوحي منها الإنسان دروساً تربوية كثيرة.

---

١. نورالثقلين، ج ٥، ص ٥٧٣، ح ١٣.

وبداية أشار إلى قوم عاد وقال:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾[1].

وفي ٣٤ آية من آيات القرآن الكريم تحدّث القرآن عن قوم عاد، ويتحدّث في كل مورد من هذه الموارد عن زاوية خاصّة لهؤلاء القوم، وطبعاً فإنّ هذه القصّة لم تسلم من أيدي الوضاعين والقصاصين وحالها حال سائر قصص الأنبياء في اختلاطها بالأساطير والخرافات والموهومات، فلو أننا تحركنا من موقع حفظ تاريخ الماضين من التلوث بهذه المجعولات المزيفة فسوف تبقى ناصعة ومتألقة وتتحول إلى سراج مضيء للسالكين في مطاوي التاريخ وتتبدل إلى دروس ثمينة للأجيال البشرية فيما تفرزه من معطيات ومكتسبات إيجابية في حركة الإنسان والمجتمع.

على أيّة حال فإنّ قوم عاد أقدم الأقوام البشرية التي عاشت في هـذه الدنـيا، وكانوا يملكون أجساماً قوية وأبداناً ضخمة، وكانوا أصحاب حضارة راقية، وأحد ملوكهم وسلاطينهم يسمى «شداد» والمعروف بجنّته، بل إنّه أراد مواجهة نبي زمانه وعزم على بناء جنّة على الأرض ودعوة الناس إليها، ليعرضوا عن دعوة الأنـبياء الإلهيين وعن جنّتهم الأخروية.

فدعا إليه مائة بنّاء ومهندس من أهل الخبرة والتجربة وحشد إليهم ألف عامل من عمّال البناء والفلاحين، وأمرهم أن يبنوا له بستاناً عظيماً لا مثيل له وفيه من القصور والمباني الجميلة والرائعة، كيما يعتقد الناس بأنّ شداد هو إلههم وأنّ هذه الجنّة هي جنّته.

وهكذا أوشك بناء جنّة شداد على النهاية بعد أن أنفق فيها أموالاً طائلة، ولكنّه قبل أن يدخل إليها كان الله له بالمرصاد، فأمر الرياح العاصفة بـهدم هـذه الجـنّة

---

١. سورة الفجر، الآيات ٦ ـ ٨.

وتخريبها، فما كانت إلّا لحظة وهبت العواصف والأعاصير على هذه الجنّة وقصورها الشاهقة وبقيت تعصف بها لمدّة سبعة أيّام بلياليها، وقد كان الإعصار إلى درجة من الشدّة أنّهم بالرغم من قوّة أبدانهم وضخامة هياكلهم كانت العاصفة ترفعهم في الجو كالقشة في مهب الريح وتلقي بهم في مكان بعيد.

أجل إنّ الله تعالى الذي جعل في الرياح بركات كثيرة ومعطيات وفيرة لجميع الأحياء، فإنّه أمر هذه الرياح بإفنائهم وهلاكهم، وتشير الآية ٦ من سورة الحاقة إلى سبب هلاك قوم عاد.

وانتهى عصر قوم عاد وحلّ عصر قوم ثمود، فتتحرك الآيات القرآنية من موقع الحديث عنهم وبيان تفاصيل حياتهم وتقول:

﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾[1].

ويتحدث القرآن الكريم في ٢٦ مورد عن هؤلاء القوم ويعكس زوايا مختلفة من حياتهم، فهؤلاء كانوا إلى درجة من القوّة والقدرة أنّهم يقتطعون الصخر من الجبال الشاهقة وينحتون بيوتهم داخل هذه الجبال، لا من قبيل الغارات والكهوف بل يبنون قصوراً مجللة وفارهة: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾. وهذا يعني أنّهم كانوا يعيشون تمدناً زاهراً وحضارة راقية.

ولكنّهم تحركوا في خط الظلم والجور وسحقوا حقوق الضعفاء والبؤساء، فكان الله تعالى لم بالمرصاد، فأمر الصاعقة بإهلاكهم، وهكذا جاءت قطع السحب من السماء وهي تحمل معها الطاقة الكهربائية من النوع الموجب، وأمرها بالاقتراب من مكان وموطن قوم ثمود، وبما أنّ الأرض ذات شحنة سالبة، فعندما اتصلت قطع السحب هذه بالأرض تولدت صاعقة عظيمة ورهيبة وأهلكت جميع قوم ثمود. وتشير الآية ٥ من سورة الحاقة إلى كيفية عذاب هؤلاء القوم وإهلاكهم.

---

١. سورة الفجر، الآية ٩.

المورد الثالث من الأقوام الذين ذكرهم الله تعالى كمصداق للطغاة الذين استحقوا عذاب الله، قوم فرعون، وتتحدّث الآيات القرآنية عن هؤلاء القوم:

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾.

إنّ اسم فرعون ورد في القرآن الكريم ٧٦ مرّة، وفي كل مرّة تعكس الآيات الكريمة زاوية خاصّة ومفهوماً معيناً يستوحى منه الدروس والعبر.

«أوتاد» جمع «وتد» المسمار الكبير الذي يستخدم في تثبيت أطراف الخيمة، وقد ذكر له تفسيرين:

أ) إنّ فرعون الظالم كان يشدّ مخالفيه بأربعة أوتاد على الأرض، وقد كان الظالمون وحكّام الجور في الأزمنة القديمة يضعون مخالفيهم في الصحراء الجافة وتحت أشعة الشمس المحرقة ويشدون أيديهم وأقدامهم بالمسامير ويتركونهم على حالهم هذا إلى أن يموتوا، أي أنّهم يستخدمون أشدّ أنواع التعذيب في حق مخالفيهم إلى أن يموتوا، في حين أنّ التعذيب حرام في الشريعة الإسلامية، ونقرأ في النصوص التاريخية أنّ الإمام علياً عليه السلام قال لأبنائه وكان رأسه الشريف مشقوقاً بسيف ابن ملجم:

«أُنْظُرُوا إِذَا أَنَامِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هٰذِهِ، فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ، وَ لاَ يُمَثَّلُ بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّٰهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَالْمُثْلَةَ وَ لَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ»[1]. فأين هذا الإمام العادل وأين حكّام الجور وسلاطين الظلم والظلمة؟

ب) إنّ فرعون كان يملك معاونين أشدّاء ووزراء أكفاء، وكان هؤلاء المعاونون والوزراء بمثابة الأوتاد القوية التي تثبّت حكومة فرعون وتحفظ تماسكها.

إنّ الله تبارك تعالى في هذه المرّة أمر الماء، الذي يعدّ منشأ حياة جميع الكائنات

---

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٤٧.

الحيّة، بإهلاك هذا الظالم، وهكذا أقدم نهر النيل، الذي يعتبر مصدر تمدن المصريين وحضارتهم، وكان فرعوع يفتخر ويباهي الأمم بماء النيل، أقدم على اهلاك فرعون بأمر الله تعالى، وعندما رأى فرعون في آخر لحظات حياته معالم الموت أمام عينيه، أذعن للحق تعالى واستسلم لقدرته وأعلن عن استعداده للإيمان بموسى ودينه، ولكننا نعلم أنّ التوبة في حين مشاهدة العذاب الإلهي أو ملك الموت لا تنفع شيئاً وتوصد أبوابها في هذه اللحظات المصيرية، فينبغي قبل تحقق هذه اللحظات أن يفكر الإنسان بالتوبة والعودة إلى الله تعالى والإنابة إليه.

إنّ الله عزّوجلّ عندما أشار إلى هذه القصص لهؤلاء الظالمين الثلاثة وعاقبتهم المخزية ومصيرهم الأليم فإنّه يحذر جميع المسلمين من سلوك طريق الظلم والعدوان والتحرك في خط الانحراف والشر، لأنّه سيكون مصيرهم مثل مصير هؤلاء الظالمين.

وينقل العالم المشهور ابن عباس، وهو المقبول لدى الشيعة والسنّة، حديثاً شيّقاً ومثيراً عن موضوع المرصاد، وبالرغم من أنّ ابن عبّاس لم ينسب هذا الحديث بصراحة إلى النبي الأكرمﷺ أو أميرالمؤمنين عليﷺ، ولكن ممّا لا شك فيه أنّه ينقل عنهما، لأنّ شخصاً مثل ابن عباس لا ينقل مثل هذه الأمور المهمّة عن غير المعصوم، يقول:

«إِنَّ عَلىٰ جِسْرِ جَهَنَّمَ سَبْعَ مَحابِسَ، يُسْئَلُ الْعَبْدُ عِنْدَ اَوَّلِها شَهادَةُ اَنْ لا اِلٰهَ اِلَّا اللهُ، فَإِنْ جاءَ بِها تامَّةً جازَ إِلَى الثّاني، فَيُسْأَلُ عَنِ الصَّلاةِ، فَإِنْ جاءَ بِها تامَّةً جازَ إِلَى الثّالِثِ فَيُسْأَلُ عَنِ الزَّكاةِ، فَإِنْ جاءَ بِها تامَّةً جازَ إِلَى الرّابِعِ فَيُسْأَلُ عَنِ الصَّوْمِ، فَإِنْ جاءَ بِها تامّاً جازَ بِها إِلَى الْخامِسِ فَيُسْأَلُ عَنِ الْحَجِّ، فَإِنْ جاءَ بِها تامّاً جازَ إِلَى السّادِسِ فَيُسْأَلُ عَنِ الْعُمْرَةِ، فَإِنْ جاءَ بِها تامَّةً جازَ إِلَى السّابِعِ فَيُسْأَلُ عَنِ الْمَظالِمِ، فَإِنْ خَرَجَ مِنْها...»[1].

---

١. بحار الأنوار، ج ٨، ص ٦٤.

ومع الأخذ بالحسبان مضمون هذا الحديث الشريف، فإنّ دخول الجنّة لا يعتبر أمراً سهلاً وميسوراً، بل يجب التحرك والسعي في مسيرة الحياة من موقع الإتيان بالأعمال الصالحة والأفعال الحسنة لنتمكن من قطف ثمار هذه الأعمال هناك.

* * *




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



الفصل الثالث

الأقسام الرباعية


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

١

أقسام سورة الذاريات

تقدّم البحث في الفصل السابق عن الأقسام الخماسية، وفي هذا الفصل نـبحث عن الأقسام الرباعية الواردة في خمس سور من القرآن الكريم، وهذه السور هي:

١. سورة الذاريات، وهي السورة ٥١ من القرآن الكريم. ٢. سـورة الانشـقاق، وهي السورة ٨٤ من القرآن الكريم. ٣. سورة البروج، وهي السورة ٨٥ من القرآن الكريم ٤. سورة البلد؛ وهي السورة ٩٠ من القرآن الكريم.

والآن نستعرض أقسام سورة الذاريات:

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾

أقسام مبهمة:

وهذه الأقسام بدورها مبهمة ومثيرة لعلامات الاستفهام كما هو الحال في أقسام الفصل السابق، فماذا يقصد بالذاريات؟ وما هو الشيء الذي تذروه هذه الذاريات؟ وما هو الحمل الثقيل الذي تحمله «الحاملات»؟ وما هو هذا الثقل الكبير الذي يعبّر عنه القرآن الكريم بـالوقر؟ ومـا المـقصود بكـلمة «الجـاريات»؟ ومـا المـقصود

بالمقسّمات وما هو متعلق القسم بهذه الأمور المذكورة؟

ذكر المفسّرون تفاسير مختلفة لهذه الأقسام الرباعية، وقد اخترنا منها تفسيرين:

الف) تفسير الإمام علي عليه السلام

كان ابن كوّاء من المنافقين المتمردين والمعاندين وقد وضع نفسه في زمرة أنصار الإمام علي عليه السلام وأتباعه وكان يتحرك في مواجهته للإمام عليه السلام من موقع العداوة والخصومة، وكان الإمام أميرالمؤمنين علي عليه السلام يوماً على المنبر يخطب في الناس، فقال له ابن كوّاء: ما معنى الآيات الأُولى من سورة الذاريات؟ وما المقصود من هذه الأقسام؟

فقال له الإمام علي عليه السلام: هي الرياح.

فقال: ﴿فالحاملات وقراً﴾ فأجاب عليه السلام: هي السحاب.

فقال: ﴿فالجاريات يسراً﴾ فقال عليه السلام: هي السُفن.

فقال: ﴿فالمقسمات أمراً﴾ فقال: الملائكة.

إذن «الرياح» التي تتحرك من هنا إلى هناك وتدفع السحب باتجاه المناطق الجافة، أو تنقل حبوب اللقاح وبذور النباتات المختلفة إلى مناطق مختلفة لتنمو هناك.

وأمّا «الحاملات» فهي السحب، والتي تحمل آلاف الأطنان من الماء مع الالتفات إلى أنّ الله تعالى قادر على حمل بحار من الماء فوقنا بصورة سحب معلقة بين السماء والأرض تتولى سقي الأراضي الجافة من خلال الأنهار والجداول والآبار والعيون التي تسقي الأشجار والنباتات حتى لا تتأذى الأحياء.

و«الجاريات» السفن التي تجري في البحار، جمع «جارية» وتجمع أيضاً

«جوار» كما تقول الآية الشريفة ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَئَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾[1].

و«المقسّمات» الملائكة التي تقسم الأعمال فيما بينها وفق نظام دقيق ومدروس لتدبير أمور العالم بأحسن وجه»[2].

النتيجة، طبقاً لتفسير الإمام علي عليه السلام، أنّ الله تعالى أقسم بالسحاب والرياح والفلك والملائكة في هذه السورة، والأمر الذي تشترك فيه هذه الأمور التي وقعت مورد القسم أنّها تقدّم خدمة كبيرة للمجتمع البشري.

ب) القسم بالمطر

طبقاً للتفسير الثاني فإنّ جميع هذه الآيات ترتبط بنزول المطر:

«الذاريات» الرياح التي تدفع السحاب وتنقلها من مكان لآخر، وهذه الرياح تنقل هذه السحب إلى محل هطول المطر.

والمقصود بكلمة «الحاملات» هي الغيوم الممطرة التي يمنح التفكير بها وبما تختزنه من بركات ومكتسبات للإنسان والمجتمع، الكثير من الدروس التي من شأنها تقوية وتفعيل الإيمان في قلوب المؤمنين.

وأمّا «الجاريات» فهي الأنهار والجداول التي تجري على الأرض ببركات نزول المطر وتسقي الأراضي الجافة وتروي النباتات والأشجار والأحياء في طريقها.

و«المقسمات» الأمطار التي تتكفّل كل واحدة منها إرواء منطقة معينة، فقسم من المطر ما يسقي الغابات، والآخر مكلّف بسقي السهول، والثالث مكلّف بالنزول على الجبال والبحار، والرابع مكلّف بالهطول على الحقول والمزارع، والخامس مكلّف بإرواء المراتع وهكذا.

---

١. سورة الرحمن، الآية ٢٤.

٢. تفسير الفخر الرازي، ج ٢٨، ص ١٩٥.

النتيجة أنّه طبقاً للتفسير الثاني فإنّ هذه الأقسام الأربعة ناظرة بأجمعها إلى ظاهرة المطر وعملية سقي الأرض بالماء، ومن عجائب الطبيعة أنّ كل شيء يحتاج إليه الإنسان في حياته أكثر، فإن الله تعالى قد رفده من ذلك الكثير ووهبه منه بأدنى نفقة وأزهد ثمن، فالهواء، يعتبر من أهم الحاجات الأولية والأساسية للبشر، لأنّ دماغ الإنسان ربّما يتحمل شحة الماء والغذاء إلى درجة معينة ولكنّه لا يتحمل شحة الاوكسجين أكثر من دقيقتين، هذه النعمة و الموهبة العظيمة وضعها الله تعالى مجاناً وبوفرة تحت اختيار البشر.

«ضوء الشمس» بدوره يعتبر من الحاجات الأولية لجميع أفراد البشر، بحيث إنّ الحياة على الكرة الأرضية بدون ضوء الشمس مستحيلة، هذه النعمة الإلهيّة أيضاً وضعها الله تعالى بكثرة وبالمجان تحت اختيار البشر، فلو تقرر أن يحصل كل إنسان بنفسه على ما يحتاجه من أشعة الشمس، فيجب عليه انفاق ملايين الدنانير لتحصيل هذه الطاقة التي يحتاجها في واقع الحياة.

«الرياح» التي تلعب دوراً هاماً في حياة الإنسان والبشرية وضعها الله تعالى بسخاء وبدون مقابل تحت اختيار البشر، فالرياح، مضافاً لما ذكرنا من دورها وأهميّتها، تلعب دوراً هاماً في ازدهار الغابات ونمو المراتع، لأنّها تنقل معها البذور إلى الأراضي الصالحة للزراعة وتساهم في نمو النباتات والمراتع.

وعلى هذا الأساس، فلا غرابة أنّ الله تعالى أقسم بالرياح، المطر، ضوء الشمس، وأمثالها.

المقسم له: أهميّة المعاد

بعد أن أزحنا الستار عن أسرار هذه الأقسام الأربعة وألمحنا إلى أهميّتها وعرفنا من خلال التفكر والتأمل في هذه الآيات أنّ هذه النعم والمواهب وضعت في اختيار

البشر بوفرة وبالمجّان وبالمقادير الكافية، وبالتالي فإنّ هذه الأمور تختزن دروساً في التوحيد ومعرفة الله فيما تفرزه من معطيات وبركات عظيمة لحياة الإنسان والمجتمع البشري، والآن ينبغي التوجه لتفسير المقسم له، ليتبيّن ما هو الغرض من القسم بهذه الأمور المهمّة.

إنّ متعلق القسم في هذه الأقسام يوم القيامة، وللتأكيد على حتمية وقوع هذا اليوم: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ وأيضاً عدم تأخر الوعد الإلهي في قضية الثواب والعقاب للأشخاص الصالحين والطالحين في ذلك اليوم الموعود: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾.

إنّ ما نستوحيه من الآيات المذكورة هو أنّ عالم الوجود يخضع لحساب دقيق، وأنّ الله حكيم، وعلى هذا الأساس ففي التشكيلة التي يقوم على تدبير أمورها مدير حكيم وتقوم هذه التشكيلة في تفاصيلها على أساس النظام الدقيق والتخطيط المدروس، فلا شك من تحقق الوعود التي يفرضها ويقررها ذلك المدير المدبّر، مضافاً إلى ذلك فعليكم أيضاً أن تتحركوا في واقع الحياة من مواقع الإنسجام والتناغم مع هذه التشكيلة العظيمة ومع حركة الكائنات، وبذلك تحققوا لأنفسكم وحياتكم نظاماً وتدبيراً جيداً، وينبغي عليكم الوفاء بعهودكم وعدم نقضها أو التخلف عنها حتى لو كان الوفاء بذلك الوعد يلحق بعض الضرر أو الخسارة بكم.

العلاقة بين الأقسام والمقسم له: أهميّة المبدأ والمعاد

نظراً إلى أنّ الأقسام المذكورة وطبقاً لكلا التفسيرين، تعكس في مضمونها آيات إلهيّة ومعالم ربوبية في واقع الكون والطبيعة، فيما تحكيه عن مفهوم التوحيد ومعرفة الله، والمقسم له بدوره يعكس في مضمونه مسألة المعاد والحياة بعد الموت، ومن هنا تتبيّن وتتضح العلاقة بين هذين الأمرين، لأنّ العلاقة بين المبدأ والمعاد تكاد تكون بديهية.

إذا أردتم، أيّها القراء الأعزاء، نيل السعادة في الدنيا والآخرة، فينبغي إحياء هذين الأصلين، المبدأ والمعاد، وتفعيلهما في واقع الفكر وفي الممارسة والعواطف، لأنّ الإيمان بالتوحيد إذا كان قويّاً في قلب الإنسان ويجد له رصيداً وقاعدة متماسكة في المحتوى الداخلي للإنسان فسوف يجد هذا الإنسان المؤمن، الله تعالى أمامه دائماً ويراه ناظراً لأعماله ومشرفاً على سلوكياته، والشخص الذي يعتقد بهذه العقيدة فإنّه يلتزم بآثارها ويرى أنّ الله تعالى مطّلع على جميع أموره العلنية والخفية ويعلم حتى بنياته وخلجات قلبه، ومعلوم أنّ مثل هذا الشخص سوف لا يتحرك أبداً في خط المعصية والانحراف.

إنّ المسلم الذي يعتقد بوجود حساب دقيق ونظم خاص بمجريات الأمور في العالم ويعتقد بأنّه سوف يحين ذلك اليوم الذي يحاسب فيه على جميع أعماله، ويجب عليه أن يجيب عن كل عمل وكل صغيرة وكبيرة ارتكبها في حياته، فإنّه سيتحرك من موقع المثابرة والاهتمام والحذر من تخطي جادة الصواب والانزلاق في متاهات المعصية، ونرى في المجتمعات البشرية وجود مرحلة ضعيفة جدّاً وناقصة من المراقبة والمحاسبة للأفراد المتخلفين عن القانون، ومع كل القصور والنواقص المشهودة لهذه المراقبة والمحاسبة البشرية والقانونية، إلّا أنّها تتمتع بآثار ومعطيات هامة على مستوى منع حدوث الكثير من الجرائم والمخالفات القانونية.

وبالرغم من أنّ جهاز الشرطة وقوى الأمن في المجتمعات البشرية المعاصرة لا تستطيع توفير المراقبة الدقيقة على الأفراد في كل الأزمنة والأمكنة، وحتى في المواقع التي تدخل في مهمتها وتستطيع من أداء مسؤوليتها فإنّها لا تكون مراقبة دقيقة وإشراف كامل على حركات وسلوكيات الأفراد، ولكن نفس هذه المراقبة والمتابعة الضعيفة والناقصة لها تأثير واضح في خفض نسبة الجريمة في واقع المجتمع، كما أنّ المحاكم البشرية في هذه الدنيا تعتبر نموذجاً صغيراً وضعيفاً عن

المحاكمة الأُخروية والحساب والكتاب في ذلك اليوم، ومع جميع مواطن القصور والضعف فإنّها تؤدي دورها في التخفيف والمنع من الكثير من أشكال الجريمة والجنوح. والآن إذا كانت الرقابة على الناس في هذه الدنيا كاملة ودائمية ولا أحد بإمكانه التخطي عنها والافلات منها، ولا يوجد أي قصور أو ضعف في محكمة العدل الإلهي يوم القيامة، و لا تقبل من أي شخص شفاعة وتوصية ولا يوجد فيها أي تلاعب واحتيال على القانون، وكان الإنسان يؤمن بهذه الحقيقة إيماناً قاطعاً، فسوف تعيش البشرية أجواءً أخرى من الخير والصلاح والانفتاح على المُثل الإنسانية والقيم الأخلاقية، ومن هنا فإنّ الله تعالى في القرآن الكريم أكّد كثيراً على هذين الأصلين المهمين: المبدأ والمعاد، وما يتفرع عنهما من مقولات وقضايا وأحكام، ويقرر أنّ أهم وظيفة للأنبياء الإلهيين وأوصيائهم تبليغ وإشاعة هذين الأصلين في الوعي العام وتبليغ الأحكام التي ترتبط بهذين الأصلين في حركة الحياة والإنسان.

الحساب الدقيق لكل شيء:

إنّ التعادل والتوازن في جميع الأمور والأعمال في حركة الإنسان، ممّا أكّد عليه الإسلام، ويعتبر الإمام علي عليه السلام الأشخاص الذين يعيشون الانحراف عن جادة الاعتدال ويسلكون في حياتهم مسالك بعيدة عن الاتزان، أشخاصاً جاهلين بعواقب هذه السلوكيات المنحرفة، ويقول: «لا تَرَى الْجَاهِلَ إِلَّا مُفْرِطاً أَوْ مُفَرِّطاً»[1].

وفي الآونة الأخيرة قرأت خبراً في الصحف ربّما يكون مضحكاً من جهة إلّا أنّه مؤلم من جهة أخرى.

الخبر يقول: إنّ فتى وفتاة صارت بينهما علاقة مودة وصداقة، وازدادت هذه العلاقة وتعمقت يوماً بعد يوم، وتهيأت الأرضية المناسبة لزواجهما المتلون بلون

---

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٧٠.

شاعري ورومانسي، إلّا أنّ الشاب لم يعمل بتوصية الإمام علي ولم يكن بحسب الظاهر من أهل الحساب الدقيق، فوافق أن يكون مهر زوجته ٥٠٠/٠٠٠ وردة من أوراد (المحمدي)، وكتابة ديوان شمس التبريزي، وهكذا اقيم احتفال العرس، ومضت عدّة أيّام بأجمل ما يكون، وتدريجياً بدأت شحنات العشق بالأفول والخمود، وبعد مدّة تحول العشق إلى برودة في العواطف وبدأت الاختلافات تبرز على السطح، وبمرور الزمان ازدادت هذه الاختلافات، وأخيراً وصل الأمر إلى الطلاق، فتحرك القاضي لتقييم المبلغ المالي للمهر المذكور من موقع العقلانية، واتصل بأحد بائعي الأزهار والورود وسأله عن قيمة وردة من ورود (المحمدي)، فقال له بائع الورد: إنّ قيمة كل واحدة تساوي ٣٠٠ تومان، وكانت نتيجة ضرب ٣٠٠ تومان في ٥٠٠/٠٠٠ وردة، يساوي ١٥٠ مليون تومان، فأمر القاضي هذا الشاب بدفع مبلغ ١٥٠ مليون تومان لزوجته ثم الجلوس عدّة أشهر لكتابة ديوان شمس التبريزي بخط يده وتقديمه إلى زوجته وبذلك يتخلص من مهر الزوجة.

أيّها القاريء الكريم! إذا كان هذه الشاب ومنذ بداية ارتباطه بتلك البنت، من أهل الحساب والدقّة في الأمور والنظر إلى العواقب فإنّه سوف لا يتحرك في علاقته بها من موقع الافراط والتفريط، بل يسير في خط الاعتدال والتوازن، وبالتالي لا يواجه مثل هذه المشكلة الكبيرة.

ونعود مرّة أخرى لنستمع إلى كلمات مولىٰ المتقّين الإمام علي عليه السلام يحدّثنا فيه عن معيار الصداقة والعداوة في مجمل علاقة الإنسان مع الآخرين ومنها العلاقة الزوجية، حيث يقول:

«أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً مَا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ بِغيضَكَ يَوْماً مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْناً مَا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْماً مَا»[1].

---

١. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٧٧.

إنّ المؤمن، عاقل وفطن، ولا يرى زمان الحال فقط. ولا يجمد ذهنه على لحظات العقد واللذات الآتية من أيّام الزواج الأولى، ويستجيب لطلبات الآخرين بدون تفكير وتدبّر في عواقبها وآثارها المستقبلية، بل يبني صداقته ومحبّته على أساس متماسك ومدروس، كما أنّه لا يسلك جانب الافراط في عداوته وبغضه ولا يبالغ في الخصومة مع الآخرين، وبعبارة أخرى أنّه لا يهدم جميع الجسور خلفه في واقع الصداقة والعداوة.

* * *




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٢

أقسام سورة الإنشقاق

السورة الثانية من السور التي تتضمن أقساماً رباعية في القرآن الكريم، هي السورة ٤٨ من سور القرآن، أي سورة الانشقاق، فالأقسام لم ترد في مطلع هذه السورة وخلافاً للسور السابقة، بل وردت بعد ١٥ آية من هذه السورة:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾

ملاحظات تفسيرية:

وقبل البحث في مطاوي هذه الآيات الشريفة وبيان أهميّة هذه الأقسام الواردة فيها، نلفت نظر القارىء الكريم إلى أربع ملاحظات:

الملاحظة الأولى:

إنّ أقسام هذه السورة، لا تنطوي على أي غموض وإبهام كما رأينا في أقسام السور السابقة؛ بل تتضمن مفهوماً واضحاً ومضموناً شفافاً. ولكنّ وضوح وشفافية مضمون هذه الآيات لا يمنع من التدبر فيها والتأمل في أبعادها وتفاصيلها ولا يقلل من أهميّتها ودورها.

الملاحظة الثانية:

بالنسبة لمعنى جملة «لا أقسم» التي تكررت في القرآن الكريم عدّة مرّات، هناك آراء وأقوال مختلفة ونشير هنا إلى ثلاثة منها:

١. إنّ كلمة «لا» في الجملة المذكورة زائدة، وعليه فجملة «لا أقسم» بمعنى «أقسم» بحذف كلمة «لا» في المعنى والمقصود، وطبعاً فإنّ «لا» الزائدة لا تعني أنّها ليست ذات خصوصية في الكلام، بل تأتي هنا للتأكيد (وبهذه الملاحظة يكون معنى الجملة: «أقسم مؤكّداً»).

٢. كلمة «لا» ليست زائدة، ولكن هنا جملة مقدرة بين «لا» وبين «أقسم» وكلمة «لا» تتعلق بتلك الجملة المحذوفة لا بـ «القسم». ويكون معنى الآية الشريفة: «لا يكون الأمر كما يقول المشركون، أقسم بالشفق». والنتيجة أنّ «لا» وردت هنا لنفي كلام المشركين لا نفي القسم.

٣. إنّ جملة «لا أقسم» تفيد أنّ المسألة إلى درجة من الوضوح والبداهة بحيث لا تحتاج إلى قسم، وهذه الاحتمالات الثلاثة أهم ما ورد من أقوال في تفسير جملة «لا أقسم»، ولكن نظراً لما ورد في الآية ٧٥ من سورة الواقعة فإنّ الاحتمال الأول هو الأقوى من بين هذه الاحتمالات الثلاثة، وذلك أنّ الآية المذكورة تقول:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

ونرى في هذه الآية الشريفة تصريح بجملة «لا أقسم» وأنّ هذا القسم عظيم، إذن فالاحتمالان الأخيران بعيدان عن المعنى المقصود، والاحتمال الأول هو الصحيح.

الملاحظة الثالثة:

إنّ بعض المسائل المهمّة في واقع الحياة وبسبب العادة وكثرة المواجهة ربّما يتصور الإنسان أنّها ليست ذات أهميّة، في حين أنّ مثل هذا التصوّر باطل ومجانب

للصواب، على سبيل المثال إننا نرى النمل كل يوم وربّما تتعرض العديد منها في اليوم الواحد للسحق والدهس، وهذا ربّما يثير في تصورنا أنّ هذا المخلوق الصغير ليس بذي أهميّة، ولكن العالِم بالتوحيد وبتفاصيل وأوضاع الطبيعة والمخلوقات يرى في خلق النمل مشاهد عجيبة ومحيّرة. الإمام علي عليه السلام في خطب متعددة من نهج البلاغة يتعرض لهذه المخلوق العجيب ويقول في الخطبة ١٨٥:

«وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا فِي عُلْوِهَا وَ سُفْلِهَا وَمَا فِي ٱلْجَوْفِ مِنَ شَرَاسِيفِ بَطْنِهَا وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً، وَلَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً!».

يقول العالم الكبير «موريس مترلينغ» الذي صرف من عمره ٢٠ سنة في مطالعة أوضاع النمل وحالاته وتفاصيل معيشته، يقول بالنسبة لعمل هذا المخلوق الصغير أنّه حصل على مكتشفات جديدة في ما يتصل بحياة وحالات النمل وكتب هذه الملاحظات الدقيقة والتحقيقات الطويلة والمتعبة التي أجراها على النمل في كتاب خاص باسم «حياة النمل».

أجل، فنحن ربّما لا نرى للنمل تلك الأهميّة التي يستحقها ولا نرى في حياتها وتكوينها البدني من الأسرار والرموز بقدر ما يراها ذلك العالم الذي درس حياة ومعيشة هذا المخلوق طيلة ٢٠ سنة، ولا شك في أنّ هذا الموضوع يحتاج إلى دراسات وتحقيقات أكثر وأوسع، فعليه لا ينبغي أن نمر على أي موضوع مرور الكرام ومن موقع اللامبالاة، بل يجب أن يتسم نظرنا بالعمق والدقّة ويتحرك تفسيرنا للآيات الإلهيّة من خلال التأمل في التفاصيل والعمق والابتعاد عن السطحية.

الملاحظة الرابعة: نظرة شاملة لآيات سورة الإنشقاق

تتكون هذه السورة من ٢٥ آية، وتتحدّث عن سبعة مواضيع، ففي البداية تطرح

بعض علائم يوم القيامة وانشقاق السماء واندثار الكرات السماوية وامتداد الأرض واتساعها كل ذلك في مطلع يوم القيامة ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ...﴾.

والمرحلة الثانية تطرح هذه السورة موضوع حشر الكائنات وبعث الأموات وخروجهم من قبورهم وعودتهم إلى الحياة: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ...﴾.

وفي المرحلة الثالثة يتحرك القرآن الكريم للتذكير بهذه النقطة المهمّة، وهي أنّ الإنسان بدأ حركته وحياته من العدم، وهو متجه في حركته هذه إلى الله تعالى وسيواجه في هذا المسير الطويل مشكلات عديدة ومصاعب جمّة، ولكنّه في النهاية سوف يواجه الله تعالي ويلاقيه، وطبعاً فهذه الملاقاة ليست بالعين الناظرة كما يعتقد بذلك بعض أهل السنّة وأنّ الله يمكن أن يُرى بالعين البدنية يوم القيامة، بل يرى الإنسان عظمة الله تعالى وتحقق وعده ووعيده في ذلك اليوم العظيم ويعيش في مواجهة المصير فيما يترتب على أعماله من الثواب والعقاب: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ﴾.

وفي المرحلة الرابعة تتحدّث الآيات عن مصير البشر بعد موقف المحشر وتبيّن كيف أنّ الإنسان سيواجه آثار العظمة الإلهيّة في ذلك اليوم حيث ينقسم البشر إلى قسمين: فبعض يستلم كتاب أعماله بيمينه ولا يواجه مشقّة في عملية المحاسبة وسيعود إلى أهله بوجه مبتهج، وبعض آخر يستلمون صحيفة أعمالهم بيد الشمال ويعيشون الهم والحزن، ويتعالى صراخهم من شدّة الألم ويحاولون التغطية على صحيفة أعمالهم السوداء لئلا يراها الآخرون فيفتضحون، هذه الطائفة من الناس هم الذين كانوا يعيشون في الدنيا بأشد حالات السرور والترف والخوض في المعاصي والآثام، وبذلك سيكون مصيرهم إلى النار.

المرحلة الخامسة مورد البحث في هذه السورة، الأقسام الأربعة التي سنتحدث عنها لاحقاً بشيء من التفصيل في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ...﴾

المرحلة السادسة تهديد الكفّار والمخالفين، فبالرغم من وجود كل هذه الدلائل والعلائم للتوحيد فإنّهم يتعاملون معها من موقع الإعراض والتمرد، ولا يذعنون لحقائق القرآن الكريم، بل يتحركون من موقع إنكار هذه الآيات الإلهيّة، وبعد هذا التهديد يبشرهم القرآن الكريم بعذاب أليم لا يوصف: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾.

والمرحلة الأخيرة يطرح القرآن استثناءً لما سبق، ويوصد بذلك جميع النوافذ أمام الكفّار ولا يبقي لهم طريقاً للنجاة والخلاص، لأنّ الله تعالى هو الرحمن الرحيم، وهذا العمل يقع بمقتضى رحمانيته ورحيميته. أجل، فتلك الطائفة من الكفّار الذين توقفوا عن التحرك في خط الإنكار والكفر والتمرد وتابوا إلى الله وسلكوا خط الإيمان والطاعة والعبودية، وعلى المستوى العملي تحركوا في دائرة الأعمال الصالحة والسلوكيات الخيرة، هؤلاء من أهل النجاة وسوف يجزيهم الله تعالى ثواباً لا ينقطع حيث يقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

وإنّ الإيمان والعمل الصالح يمثّلان رأس مال حياة الإنسان الصالح، وجناحين يحلق بهما الإنسان في أجواء التكامل المعنوي ويكون بالتالي من أهل النجاة، وعندما يفقد الإنسان الإيمان والعمل الصالح فسوف يكون مصيره الانحدار إلى هاوية الضلالة والخسران.

ومع ملاحظة ما تقدّم من هذه النقاط الأربع، يصل الدور إلى شرح وتفسير الأقسام الأربعة الواردة في هذه السورة.

الأقسام الأربعة:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾؛ بالنسبة لمعنى كلمة الشفق هناك قولان:

١. المقصود به الحمرة في الأُفق بعد غروب الشمس أو قبل طلوعها.

٢. البياض المنير في الأُفق بعد انتهاء الحمرة المذكورة.

توضيح ذلك: إنّ الأُفق بعد غروب الشمس يتلون بلون الحمرة، ويعتقد البعض بأنّ هذه الحمرة هي الشفق، ومن هنا شبّه دم الشهيد بالشفق على أساس هذا التفسير، وبعد زوال الحمرة المذكورة يظهر بياض شفاف في الأُفق حيث ذهب البعض إلى أنّه هو المراد من كلمة الشفق، ولا تفاوت مهم بين هذين المعنيين، المهم أنّ الله تعالى أقسم بذلك المنظر الخاص الذي يظهر في الأُفق قبل طلوع الشمس أو بعد غروبها.

سؤال: ما هو دور الشفق في حياة الإنسان بحيث إنّ الله تعالى يقسم به؟

الجواب: إذا سادت بعد غروب الشمس ظلمة الليل مباشرة وخيم الظلام الدامس في الأجواء بعد غروب الشمس، أو أنّ ضوء النهار أحاط بالأجواء بعد طلوع الشمس مباشرة، فإنّ ذلك من شأنه إلحاق الضرر بأعيننا ويؤثر تأثيراً سلبياً على أعصابنا، ولكن مع الأخذ بالحسبان ظهور الشفق بعد غروب الشمس وتحركه بالتدريج نحو الظلام فإنّ ذلك من شأنه تهيئة الظروف المناسبة للعين لتستعد لحلول الظلمة، أو بالنسبة لطلوع الشمس فالشفق يعمل على تهيئة الأجواء تدريجياً لتستعد العين لضوء النهار بحيث لا يؤذي ذلك خلايا العين ولا يخلف تأثيراً سلبياً على الأعصاب. وعلى سبيل المثال عندما ينقطع التيار الكهربائي فجأة فسوف نعيش لحظات في ظلام دامس وهذا من شأنه ارباك القوة الباصرة وإلحاق الضرر بالعين بحيث لا نرى شيئاً في جوانبنا، وبعد أن تعتاد العين على هذه الظلمة تستطيع تدريجياً أن ترى ما يحيط بها من أشياء، وكأنّ الله تعالى عندما أقسم بالشفق يريد منّا الالتفات إلى هذا الدور المهم والحساس للشفق في حياة الإنسان.

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾: إنّ فوائد وبركات النور جليّة ولا تخفى على أحد، ولكن هل لظلمة الليل التي أقسم الله تعالى بها في هذه الآية فائدة ومنفعة في حركة الحياة والإنسان؟

وردت آيات عديدة تؤكد على أنّ ظلمة الليل نعمة إلهيّة وهنا نشير إلى جملة من فوائد وبركات هذا الظلام:

١. إنّ الله تعالى خلق الليل ليكون سكناً ومصدراً للسكينة والاطمئنان والهدوء الروحي والنفسي، إنّ الهدوء الروحي الذي يحصل عليه الإنسان في ظلام الليل لا يمكنه تحصيله أبداً في ساعات النهار، لأنّ أجهزة البدن تستعد للاستراحة عندما يحل ظلام الليل وتخفف من نشاطاتها وفعاليتها، ولكنّها بالنهار وعند استيلاء الضياء على أجواء الحياة فإنّ أجهزة البدن تنشط وتزداد فاعليتها، وعلى هذا الأساس فأفضل ساعات النوم هي ساعات الليل، والحقيقة أنّ الله تعالى إذا جعل النهار أبدياً ومستمراً، فمَن بإمكانه أن يأتي بظلام الليل ليعيش البشر حالة السكينة والهدوء الروحي والاستراحة من تعب النهار والعمل؟

٢. إنّ الليل يعمل على التخفيف والتقليل من حركة الأنسجة الجسمية ونشاط الأجهزة البدنية، فلو استمر النهار وبقي لأيّام طويلة وفقد الإنسان سنات الليل وستائر الظلام، فإنّ أهل الحرص والطمع من أتباع الدنيا سوف يستمرون في أعمالهم ونشاطهم بدون استراحة، حتى يستولي عليهم العطب والعطل.

إنّ الله تعالى أجبر هؤلاء الأشخاص على التوقف عن أعمالهم وأفعالهم بحلول الليل، وبذلك حفظ حياتهم وأبقى على حيوية قواهم وأبدانهم.

٣. إنّ الليل بمثابة جهاز عظيم للتهوية حيث يتبدل الهواء بشكل طبيعي في ساعات الليل، فلولا حلول الليل، أي لو بقيت الشمس مشرقة لعدّة أيّام وبدون توقف فسوف تحرق أشعة الشمس كل شيء وستتعرض حياة الكائنات الحيّة على الكرة الأرضية لخطر الفناء.

وكما تقدّم آنفاً أنّ النهار على سطح القمر يعادل ١٤ يوماً متوالية، والليل يعادل ١٤ يوماً، أي أنّ اليوم الكامل بليله و نهاره على سطح القمر يعادل شهراً واحداً،

وبذلك فإنّ درجة الحرارة ترتفع في النهار إلى ٣٠٠ درجة حرارية وطبيعي أنّ هذه الدرجة المرتفعة بإمكانها إحراق كل شيء قابل للاشتعال، كما أنّ درجة الحرارة تنخفض في منتصف الليل بحيث يتجمد كل شيء في حين أنّ المسافة بين القمر والشمس هي كالمسافة بين الأرض والشمس، ولا اختلاف بينهما سوى بمقدار ٣٠٠ أو ٤٠٠ كيلومتر فقط.

النتيجة، إنّ الليل يختزن فوائد وبركات كثيرة ومهمّة، ولهذا السبب أقسم الله تعالى بالليل، وقد أقسم الله تعالى بظلام الليل وبالكائنات التي تتوجه إلى مخابئها ومساكنها في حلول الليل لتأخذ قسطاً من الراحة، وهذا القسم من أجل تحريك أذهان الغافلين عن هذه الآيات الإلهيّة، وإزاحة الستار عن هذه الحقيقة السماوية ومعرفة أهميّتها، وبالتالي معرفة خالقها الذي منح البشر هذه النعمة العظيمة ليتحركوا في خط الطاعة والعبودية.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾؛ نحن نشاهد حالات مختلفة للقمر، في البداية يظهر على شكل الهلال، ثم يكبر شيئاً فشيئاً حتى يصير بدراً كاملاً، ثم يقل تدريجياً ويضعف نوره إلى أن يصل في النهاية إلى المحاق ويختفي من أمام نظر الإنسان. ولا شك في أنّ أجمل حالة للقمر هي عندما يكون بدراً كاملاً، ولهذا السبب فقد أقسم الله تعالى بالقمر في تلك الحالة، أي ليلة الرابع عشر من الشهر عندما يصيراً بدراً كاملاً ويضيء بنوره ديالج الليل، هذا المصباح المنير الذي يمزق أستار الظلام بنوره الهادىء بحيث يمنح النائم هدوءً ولا يزعزع من راحته ونومه. هذا النور الهادىء الجميل وهبه الله تعالى للإنسان في الليالي المقمرة بحيث يحوّل أجواء الليل الحالكة إلى أجواء مؤنسة وجميلة.

ولا يفوتنا تفسير أنّ الأقسام الأربعة في هذه الآيات تتضمن عنصراً مشتركاً وهي أنّها تتحدث عن الليل، «الشفق» بداية أو انتهاء كل ليلة، «البدر الكامل» يتعلق

بمنتصف الليل الرابع عشر من الشهر، و«ظلام الليل» والموجودات التي تأوي إلى أوكارها في الليل لتنال قسطاً من الراحة وتستعيد قواها لحياة جديدة في النهار القادم.

شرح وتفسير المقسم له:

إن جميع الأقسام المذكورة إنّما هي لبيان هذه الحقيقة، وهي: أيّها الإنسان أنت أيضاً تعيش حالة التغير والتحوّل طيلة عمرك، كما أن الكائنات الأخرى تندرج ضمن هذا القانون، أمّا الوحيد الذي يتعالى على التغير والتبدل، فهو الذات المقدّسة الأزلية والأبدية.

إنّ هذه التغيرات والتحوّلات في عالم الوجود والكائنات الحيّة تبدأ في دائرة الإنسان منذ تشكل النطفة في رحم الأم وتحوّلها إلى جنين، وتستمر بعد الولادة إلى حين الوفاة، وهذا القانون لا يختص بالإنسان بل يستوعب في دائرته جميع الموجوات في العالم سوى الذات المقدّسة. ومن أجل توضيح هذا المفهوم نرى من الضروري معرفة المقصود من «طبق» و«لتركبنّ» فبالرغم من أنّ المفسّرين اهتموا بتفسير كلمة «طبق» فقط، ولم يبحثوا في معنى وتفسير الكلمة الثانية بالتفصيل، فلذلك نسعى لبيان المقصود من هاتين الكلمتين.

أمّا «طبق» فيتضمن معاني متعددة:

١. الطبق بمعنى طبقة.

٢. قد يأتي بمعنى الصحن والإناء المسطح.

٣. ويأتي بمعنى الحالات المختلفة للإنسان، وفي هذه الآية الشريفة، المعنى الثالث هو المقصود، أي حالات الإنسان المتغيرة والمتحركة في واقع الحياة[1].

---

١. وقد أشرنا في التفسير الأمثل، ذيل الآية المذكورة، إلى خمس حالات من حالات الإنسان المختلفة. فراجع.

وقد راقب بعض العلماء حالات الإنسان منذ لحظة تشكيل نطفته وأول أجـزاء بدنه، وإلى لحظة الوفاة، فشاهدوا أربعين حالة مختلفة للإنسان، واللافت أنّ اللـغة العربية تتضمن في مفرداتها أسماء ٣٧ من هذه الحالات الأربعين، وهذا يدلّ على سعة دائرة المفردات العربية وقوتها، ولهذا نزل القرآن الكريم باللغة العـربية، وقـد أشار في سياق آياته إلى عشرة موارد من هذه الـ ٣٧ حالة الواردة في اللغة العربية.

١. النطفة ٢. العلقة ٣. المضغة ٤. العظام ٥. اللحم النابت على العظام (كسـونا العظام لحماً) ٦. «خلق آخر» (حيث يتمّ نفخ الروح فيه في هذه المرحلة) ٧. مرحلة الجنين الكامل المستعد للولادة والخروج من الرحم ٨. الوليـد (وهـو الطـفل بـعد ولادته من بطن أمه) ٩. الرضيع ١٠. الفطيم (وهو الطفل الذي يفطم من حليب أمّه).

ثم أشار القرآن في آياته الكريمة إلى مرحلة الطفولة، والصبا، والشباب، والرجولة الكاملة، والكهولة، والشيخوخة، والعجز، وفي النهاية الموت والفناء، والخلاصة إنّ الإنسان يعيش حالة التغير والتحوّل من مـرحـلة إلى أخـرى، ومـضافاً إلى هـذه الأربعين مرحلة في حياة الإنسان فهناك تحولات فرعية أيضاً، لأنّ الإنسان يعيش تارةً حالة الفقر، وأخرى الغنى والثراء، وتارة يكون فرحاً وأخرى حزيناً، وأحياناً سالماً وأخرى سقيماً، وأحياناً عزيزاً وأخرى ذليلاً، وأحـياناً مـوفقاً فـي أعـماله وأخرى يعيش الإحباط والفشل، تارة يكون قائداً ورئيساً وأخرى مرؤوساً إلى غير ذلك من الحالات الثانوية المتفرّعة على تلك الحالات الأصلية والتي تقترن بدورها بحالات كثيرة مختلفة في حياة الإنسان.

النتيجة، أنّ «طبق» له معانٍ مختلفة، ولكن في هذه الآية يراد به حالة، وعليه فإنّ الآية الشريفة تتحدّث عن حالات الإنسان المختلفة.

وأمّا «لتركبنّ»: فتعني أنّ الإنسان يركب في حركة الحياة تلك الحالات المختلفة والمتغيرة، وبعبارة أخرى إنّ الحالات المـختلفة لحـياة الإنسـان تشـبه المـراكب

المختلفة التي يركبها الإنسان في واقع الحياة.

وتوضيح ذلك: إنّ الوسائل النقلية في قديم الزمان ليست مثل الوسائل التي يركبها الإنسان المعاصر، فأهم وسيلة نقلية كانت في الماضي، الخيل، حيث كانت الحكومات تستخدم هذه الوسيلة لنقل الأخبار من المدن والبلدان البعيدة في ما يسمي بالبريد، وتعمل هذه الخيل على إيصال الخبر بسرعة إلى المكان المقصود وبمدّة قصيرة، وفي أثناء الطريق كانت هناك نقاط للبريد يستبدل صاحب البريد جواده بجواد آخر لكي يستطيع إيصال الرسالة أسرع إلى المكان المعيّن، وهكذا يستمر في طريقه بالمرور بمنازل متعددة للبريد ويتمّ إيصال الرسالة بسرعة.

هنا يقول القرآن الكريم: «أيّها الإنسان! أنت مثل هذا البريد تعيش التبدل والتغير دائماً وتستبدل مركبك باستمرار، وفي كل منزل من هذه المنازل الأربعين تركب مركباً جديداً وتستمر في سيرك وحركتك نحو الله تعالى، فإذا كنت في هذه الحالة تعيش السلامة والصحة والقدرة فلا ينبغي لك أن تغتر أو يصيبك الزهو لأنّك سريعاً ما تنزل من هذا المركب وتركب بدله مركب الضعف والعجز واهتزاز القدرات وضعف القابليات، وإذا كنت الآن راكباً مركب المرض والوهن فلا ينبغي أن تيأس أو تشعر بالإحباط فلعل الله تعالى يشملك بلطفه وعنايته وتركب سريعاً مركب الصحة والسلامة، ولو كنت راكباً مركب الأمن والسعة فعليك أن تؤدي شكر هذه النعمة أو نعمة الشباب التي تعيشها.

في سنوات الحرب المفروضة بين العراق وايران، وعندما كان جيش صدام يقصف المدن الإيرانية والأهالي العزل بالصواريخ البعيدة المدى فإنّ الكثير من أهالي هذه المدن والمناطق كانوا يلتجئون إلى القرى والقصبات والجبال النائية، وبعض هذه المدن كانت تخلو من السكان إلى درجة أنّها تشبه مدينة الأشباح والأرواح، أي، أنّ الخوف وعدم الأمن قدوصل إلى درجة أنّ بعض الناس

لا يتجرأون على المكث طويلاً في الحمام خوفاً من إصابة المكان بصاروخ أو قذيفة ويقتلون في الحمام في حالة العري الكامل. ومن هنا يجب على الإنسان أن يعرف قدر هذه النعم والمواهب الإلهيّة العظيمة، لأنّه لا يعلم متى سيفقدها وإلى متى تبقى عنده، فالمتغيرات التي يفرضها الواقع لا تجعل الإنسان يطمئن إلى ما عنده.

مرآة العبرة!

جاء عبدالملك بن مروان إلى الكوفة ودعا الناس إلى بيعته، فبايعوه، وجاء إلى دار الإمارة وجلس على سرير السلطنة ووضع رأس مصعب بن الزبير[1] عنده وكان مرحاً فرحاً، وكان في المجلس عبدالملك بن عمير، فأخذته الرعدة، فقال: ذكرت قضية عجيبة وكنت في هذا القصر حين جاؤوا برأس الحسين (صلوات الله عليه) إلى زياد بن عبيدالله فوضع بين يديه، ثم مضى زمان فجيء برأس ابن زياد فوضع بين يدي المختار، ثم مضى زمان فجيء برأس المختار فوضع بين يدي مصعب، ثم جيء برأس مصعب عندك، فلما سمع عبدالملك أخذته الرعدة وأمر بتخريب دار الإمارة[2].

ولما سمع عبدالملك بن مروان هذه الحكاية شعر بالرعب وبالخوف يدب في قلبه، ولكنّه بدلاً من الاعتبار من ذلك والتحرك على مستوى جبران ما فاته من أعماله السيئة، قال: إنّ هذا القصر ينذر بالشؤم وأمر بهدمه، فهدموه وبنوا له قصراً آخر في الكوفة في مكان آخر!

إنّ التاريخ يختزن دروساً كثيرة بشرط أن نستوحي العبرة منها ولا يملكنا الغرور

---

١. كان مصعب بن الزبير مع بني أميّه، ولكنه خرج في سنة ٧٢ للهجرة على عبدالملك بن مروان ودارت بينهما حرب ضارية انتهت بقتله.

٢. مستدركات علم رجال الحديث، ج ٧، ص ٤٢٥.

والزهو بما لدينا من نعم ومواهب، بل ينبغي لنا استخدامها في الطريق الصحيح والعمل على إسهام الآخرين في النعم التي وهبنا الله تعالى إيّاها، فلو أعطانا الله مالاً وثروة فعلينا السعي للتخفيف من معاناة الفقراء والمحتاجين، ولو وهب لنا سلطة وقدرة فلا ينبغي أن ننسى الضعفاء والمحتاجين، ولو وهبنا جاهاً ومنزلة عند الناس فعلينا الاستفادة منها في سبيل رفع مشكلات الآخرين ومد يد العون لهم، وإذا كنّا نملك علماً ومعرفة فيجب علينا دفع زكاته وذلك بنشر هذا العلم وهذه المعرفة بين الناس، لأنّه ليس من المعلوم أننا نملك مركب الثروة، القدرة،الجاه، العلم والمعرفة وأمثال ذلك إلى آخر العمر، فربّما ننزل من هذه المراكب على أثر المتغيرات والتحوّلات التي نعيشها في حركة الحياة والواقع، فلو أننا استفدنا من هذه النعم الإلهيّة واستثمرنا كل مرحلة من مراحل حياتنا وعمرنا بما ينبغي، فسنكون مصداق قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فسنجد ثمار ذلك فيالنعيم الأُخروي الدائم.

* * *


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٣

أقسام سورة البروج

وتحتوي هذه السورة، وهي السورة الخامسة والثمانين من سور القرآن الكريم، على أقسام أربعة أيضاً وهي السورة الثالثة التي تتضمن أقساماً أربعة:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤﴾

شرح وتفسير الأقسام الأربعة:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾: «بُرج» في لغة العرب يأتي بمعنى الظاهر، و«متبرجات» الواردة في الآية ٦٠ من سورة النور تعني «متظاهرات» فالآية المذكورة تأمر النساء بعدم الخروج إلى فضاء المجتمع بكامل زينتهنّ والتبرج بها أمام الرجال الأجانب، ويطلق العرب على القصور والعمارات الشاهقة كلمة «برج» لأنّها ترى من بعيد.

سؤال: على أساس هذا المعنى لكلمة برج، فما هو المقصود من بروج السماء؟

الجواب: ذكر المفسّرون في مقام الجواب عن هذا السؤال تفاسير متعددة، نشير هنا إلى أهم تفسيرين منها:

١. المقصود بالأبراج السماوية، النجوم المضيئة في السماء، لأنّ كل واحدة من

هذه النجوم ظاهرة بادية للعيان، فالقسم هنا بالسماء والنجوم الساطعة واللامعة فيها، والحقيقة أنّ الإنسان عندما ينظر إلى السماء العالية ويرى جمال النجوم الزاهرة ويفكر في عظمة هذه السماء ونجومها المتلألئة ودورها في عالم الخلقة، فإنّه سيجد في نفسه حالة الإذعان والخضوع والخشوع لخالقها العظيم، وسيواجه عظمة عالم الوجود فيما يتضمنه من مخلوقات وموجودات لا متناهية، واللافت أنّ العلم البشري كلما تطور وتقدم في كشوفاته، فإنّه يكشف أبعاداً جديدة عن عظمة هذا العالم وسعته العجيبة، إنّ الإنسان الحديث ينظر اليوم إلى المجرّات والأفلاك السماوية بواسطة التلسكوبات العظيمة التي تملك عدسات ضخمة قطر الواحد منها ١٠ إلى ١٢ متراً، ولا شك في أنّه في المستقبل سيملك أجهزة وتلسكوبات أكثر تطوراً وأقوى فاعلية وسيكشف بذلك حقائق جديدة عن عالم الوجود.

٢. المراد من الأبراج السماوية هي الأبراج المذكورة في التقويم السنوي، فالأرض عندما تدور حول الشمس فإنّها في كل شهر من شهور السنة تقابل إحدى الصور الفلكية، والصور الفلكية مجموعة وتشكيلة من النجوم التي تشبه في تشكيلتها بعض المخلوقات بحيث يطلق اسم هذه المخلوقات عليها، مثلاً إذا كانت إحدى الصور الفلكية تشبه الحمل، اطلق عليها اسم «الحمل» ويطلق على تشكيلة أخرى من النجوم التي تشبه طفلين يلعبان بالجوز اسم «الجوزاء» وعندما تقع الشمس في مقابل الحمل فإنّ هذا الشهر هو شهر كانون الأول، وعندما تقع الشمس مقابل برج الثور فهو شهر شباط وأما شهر نيسان فهو في حين عندما تقع الشمس مقابل برج الجوزاء.

النتيجة أنّ المقصود من الأبراج السماوية في هذه الآية الشريفة، الصور الفلكية المتعلقة بالتقويم السنوي.

سؤال: ما هو دور هذه الصور الفلكية في حياة الإنسان بحيث إنّ الله تعالى أقسم بها؟

الجواب: بما أنّ حياة الإنسان ونظامه المعيشي يرتبط برابطة وثيقة مع التقويم السنوي، وأنّ عالم الوجود يقوم على أساس النظم والتناسب والتنسيق، فلهذا السبب أقسم الله تعالى بالبروج السماوية.

النتيجة أنّ هذه البروج السماوية وطبقاً لهذين التفسيرين مهمّة إلى درجة أنّ الله تعالى أقسم بها.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾؛ الأمر الثاني الذي أقسم الله تعالى به في هذه السورة هو: «اليوم الموعود» وهذا اليوم هو نهاية أيّام الدنيا وبداية أيّام الآخرة، وهو اليوم الذي وعد الله تعالى البشر به، وإنّ الله لا يخلف الميعاد، فهذا اليوم سوف يتحقق حتماً وجزماً رغم أنّ زمانه غير محدد بدقّة، فربّما يتأخر أو يتقدم، ولكنه سيقع حتماً، فالله تعالى أقسم بلحظة نهاية عمر هذه الدنيا وبداية أيّام الآخرة والقيامة، وفي هذا اليوم يؤخذ للمظلومين بحقوقهم من الظالمين، وهو اليوم الذي يثاب به المحسنون والصالحون، ويعاقب فيه الظالمون والمعتدون، وهو اليوم الذي يحكم الله تعالى فيه بعدله بين الناس.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾؛ وهذا هو القسم الثالث والرابع في هذه الآيات، أمّا ما هو المقصود من الشاهد والمشهود في هذه الآية الشريفة؟ فقد ذكرنا في التفسير الأمثل عشرة احتمالات، نذكر هنا ثلاثة من أهمّها وأفضلها:

أ) «الشاهد» هو النبي الأكرمﷺ، و«المشهود» هو أعمال الأمّة الإسلامية، أو جميع الأمم، لأن الآية الشريفة ٤٥ من سورة الأحزاب تقرر هذه الحقيقة وتقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[1].

ونقرأ في الآية ٤١ من سورة النساء:

﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾.

---

١. وقد وردت هذه الآية الشريفة في سورة الفتح، الآية ٨ أيضاً.

النتيجة، أنّ الشاهد هو النبي الأكرمﷺ، والمشهود أعمالنا نحن المسلمين.

ب) الشاهد هو «من يشهد على الأعمال» والمشهود «أعمال البشر». كما تقرر الآية الشريفة ٢٤ من سورة النور:

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وطبقاً لهذه الآية الشريفة يكون الشاهد هو أعضاء الإنسان التي تشهد على أعماله، والمشهود هو أعمال الإنسان.

ج) الشاهد هو «النبي الأكرمﷺ» والمشهود «يوم القيامة». فالنبي الأكرمﷺ يشهد على حتمية تحقق يوم القيامة.

فالشاهد والمشهود طبقاً لكل واحد من هذه التفاسير الثلاثة المذكورة يحظى بأهميّة بالغة، ومن هنا أقسم الله تعالى بهما.

سؤال: إنّ الله تعالى عالم بجميع الأشياء والأمور، فلماذا يحتاج في يوم القيامة إلى من يشهد في محكمته على البشر وأعمالهم؟ وما هو وجه الحاجة من الشهود؟ ولماذا لا يحكم الله تعالى بعلمه على أهل النار بالعقاب وعلى أهل الجنّة بالثواب؟

الجواب: إنّ الله تبارك وتعالى يحكم في ذلك اليوم وفقاً للموازين العادلة وطبقاً للمحاسبات الدقيقة بحيث لا يبقى أي شك وشبهة في عدالته بين جميع أفراد خلقه ولكي تكون أعمال البشر هي الحاكمة عليهم.

النتيجة، أنّ الله تعالى أقسم في سورة البروج بالسماء وبيوم القيامة والشاهد والمشهود.

شرح وتفسير المقسم له:

إنّ الغرض من هذه الأقسام الأربعة هو بيان هذه الحقيقة التاريخية الحاسمة، وهي أنّ مَن مارسوا تعذيب الأبرياء قد نالوا جزاء أعمالهم، ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾.

وأمّا مَن هم أصحاب الأخدود فقد اتفق المفسّرون على حكايتهم وهي كالتالي:

كان «ذو نواس» قد تهوّد، واجتمعت معه حِميَر على اليهودية، وسمّىٰ نفسه (يوسف)، وأقام على ذلك حيناً من الدهر، ثمّ أُخبر أنّ «بنجران» (شمال اليمن) بقايا قوم على دين النصرانية، وكانوا على دين عيسىٰ عليه السلام وحكم الإنجيل، فحمله أهل دينه على أن يسير إليهم ويحملهم على اعتناق اليهودية، ويدخلهم فيها، فسار حتى قدم نجران، فجمع مَن كان بها على دين النصرانية، ثمّ عرض عليهم دين اليهودية والدخول فيها، فأبوا عليه، فجادلهم وحرص الحرص كلّه، فأبوا عليه وامتنعوا من اعتناق اليهودية والدخول فيها، واختاروا القتل، فاتخذ لهم أُخدوداً وجمع فيه الحطب، وأشعل فيه النّار، فمنهم مَن أُحرق بالنّار، ومنهم مَن قُتل بالسيف، ومُثّل بهم كلّ مثلة، فبلغ عدد مَن قُتل وأُحرق بالنّار عشرين ألفاً.[1]

وأضاف بعض آخر: إنّ رجلاً من بني نصارى نجران تمكّن من الهرب، فالتحق بالروم وشكا ما فعل (ذو نواس) إلى قيصر.

فقال قيصر: إن أرضكم بعيدة، ولكنّي سأكتب كتاباً إلى ملك الحبشة النصراني وأطلب منه مساعدتكم.

ثمّ كتب رسالته إلى ملك الحبشة، وطلب منه الإنتقام لدماء المسيحيين التي أُريقت في نجران، فلمّا قرأ الرسالة تأثّر جدّاً، وعقد العزم على الإنتقام لدماء شهداء نجران.

فأرسل كتائبه إلى اليمن والتقت بجيش (ذو نواس)، فهزمته بعد معركة طاحنة، وأصبحت اليمن ولاية من ولايات الحبشة[2].

ويتبيّن من ذلك أنّ اليهود الصهاينة كانوا منذ قديم الأيّام يتولون تعذيب الأبرياء، والنتيجة المستوحاة من هذا الموضوع أنّ مسألة التعذيب في نظر الإسلام إلى درجة من القبح بحيث إنّ الله تعالى أقسم أربع مرات للتأكيد على هلاك المعذِّبين للأبرياء.

---

١. تفسير علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص٤١٤.

٢. قصص القرآن، للبلاغي، ص٢٨٨.

العلاقة بين الأقسام والمقسم له:

عندما يقسم الله تعالى بالسماء وبيوم القيامة وبالشاهد وبالمشهود، يتحدّث بعد ذلك عن إهلاك الظالمين وقوىٰ الشرّ والضلالة، ومعنى هذا الكلام أنّ هذا العالم يخضع في حركاته وسكناته إلى نظام دقيق وحساب أكيد، وأنّ الظالمين سينالون جزاءهم العادل في نهاية المطاف، وأصحاب الأخدود نالوا جزاء أعمالهم الشنيعة في هذه الدنيا وهلكوا عن آخرهم، ولذلك ينبغي أخذ العبرة من هذه القضية ومراقبة أعمالنا وحركاتنا والسعي الجاد للابتعاد عن خط الانحراف والظلم وسلوك طريق الحق والعدل والإيمان.

ولا ينبغي للإنسان الخضوع لوساوس الشيطان والسقوط في فخ من يقول: (إنّ الدنيا نقد والآخرة نسيئة، ولا ينبغي أن نضحي بالنقد من أجل النسيئة) لأنّه ربّما يتورط الإنسان بجزاء أعماله السيئة في هذه الدنيا قبل العذاب الإلهي في الآخرة، ولاسيما إذا قرأنا الحديث الشريف عن الإمام الصادقعليه السلام حيث قال:

«إنّ العمل السيء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم»[١].

ونقرأ في رواية أخرى عنهعليه السلام أيضاً: **«مَن يموت بالذنوب أكثر ممّن يموت بالآجال»**[٢].

والمقصود أنّ أكثر الناس يجزون على أعمالهم في هذه الدنيا، ولولا نتائج أعمالهم السلبية في التعجيل بموتهم لبقوا في الدنيا أكثر وكان عمرهم أطول.

حرمة التعذيب!

إنّ التعذيب بأي شكل من أشكاله حرام في نظر الإسلام، وعليه فلا يجوز

---

١. ميزان الحكمة، باب آثار الذنوب، ح ٦٦٣٢.

٢. المصدر السابق، ج ٣، ح ٦٦٤٢.

تعذيب أي شخص بأية ذريعة، بل إنّ هذا العمل حرام أيضاً بالنسبة للحيوانات المؤذية والوحشية منها. ولهذا السبب فإنّ الإسلام أجاز قتل «الكلب العقور» ولكنّه حرّم التمثيل به وتقطيع أوصاله بعد الموت[1].

وهذه المسألة في نظر الإسلام على قدر من الأهميّة بحيث أنّ الإمام عليّاً عليه السلام لم يسمح بتعذيب قاتله ابن ملجم، والذي يعتبر أشقى الآخرين وألعن من شمر ويزيد بن معاوية. وقد أوصى أولاده إذا عزموا على الاقتصاص منه فينبغي ضربه بالسيف ضربة واحدة[2]، ولكنّ الحكومات الظالمة التي تدّعي بحقوق الإنسان وترفع شعاراتها الكاذبة إلى عنان السماء، تمارس التعذيب بشتى أنواعه، وعندما تبيّن للعالم أجمع ما جرى في سجن أبي غريب في بغداد من هتك للحُرمات وتعذيب، شاعت حالة الكراهية والتذمر من هؤلاء المدعين للديمقراطية وحقوق الإنسان، ويجب على هؤلاء الظالمين أن يعلموا بأنّ مصيرهم مصير أصحاب الأخدود الذين وجدوا جزاءهم العادل في هذه الدنيا وتحقق فيهم الوعد الإلهي بعقاب قوى الشر والظلام.

* * *

١. بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ٢٤٦ و ٢٥٧.

٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٤٧.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٤

أقسام سورة التين

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾

ثلاث نظريّات في تفسير الأقسام الأربعة:

ذكر المفسّرون في تفسير أقسام هذه السورة أقوالاً مختلفة، ونكتفي هنا بالإشارة إلى ثلاثة من أهمّها:

القول الأول: إنّ الأقسام الأربعة تشير إلى أربع مناطق مقدّسة نزل فيها الوحي الإلهي، «فالتين» إشارة إلى جبل في أرض الشام، وقد نزل الوحي على عدد من الأنبياء الإلهيين على هذا الجبل، وبما أنّ هذا الجبل يحتوي على أشجار التين الكثيرة، فذلك اطلق عليه جبل التين.

وأمّا «الزيتون» فهو إشارة إلى جبل في بيت المقدس، الذي صعد عليه عدد من الأنبياء العظام وقد نزل عليهم الوحي في هذا المكان، وبما أنّ هذا الجبل يحتوي على غابات من أشجار الزيتون، فقد اشتهر باسم جبل الزيتون.

و«طور سينين» هو الجبل المعروف (بجبل طور سيناء)، وهو محل نزول الوحي على النبي موسى عليه السلام، وكلمة (سينين) تعني (سيناء).

والمقصود من «البلد الأمين» مكة المكرّمة، وهي محل نزول الوحي على النبي محمد صلى الله عليه وآله.

والخلاصة أنّه طبقاً لهذه النظرية فإنّ الآيات مورد البحث تشير إلى أربع مناطق نزل فيها الوحي على الأنبياء الإلهيين، وبما أنّ الوحي هو السبب في هداية الناس ونقلهم من أجواء الظلام والضلالة إلى أجواء النور والهداية وتوفير السعادة والنجاة لهم، وأنّ الأنبياء الإلهيين بواسطة هذا الوحي الإلهي يوصلون التعاليم الإلهيّة لأفراد البشر، فإنّ الله تعالى قد أقسم بهذه المناطق الذي نزل فيها الوحي.

القول الثاني: إنّ الأقسام الأربعة إشارة إلى أربعة من الأنبياء الإلهيين العظام:

«التين» إشارة إلى النبي آدم عليه السلام، و«الزيتون» إشارة إلى النبي نوح عليه السلام، و«طور سينين» إشارة إلى النبي موسى عليه السلام، و«البلد الأمين» إشارة إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

سؤال: إنّ النسبة والعلاقة بين مكة والنبي محمّد صلى الله عليه وآله، أو بين طور سينين والنبي موسى عليه السلام واضحة، ولكن ما العلاقة بين «التين» والنبي آدم، أو «الزيتون» والنبي نوح عليه السلام؟

وفي مقام الجواب يمكن القول: عندما كان النبي آدم عليه السلام في الجنّة أكل من الشجرة الممنوعة، وبذلك تساقطت عنه ملابسه وأضحى عرياناً بدون لباس، فأخذ يقطع أوراق شجرة التين ويغطي بها سوءته وبدنه، ولهذا فإنّ كلمة «التين» إشارة إلى هذا النبي.

وأمّا بالنسبة إلى النبي نوح عليه السلام وعلاقته بشجرة الزيتون، فقيل عندما ركب هذا النبي وأصحابه المؤمنون السفينة ومعهم عدد من الحيوانات، بدأ الطوفان واستولت المياه على الأرض وغرق الكفّار والمشركون، ولما انتهى الطوفان أرسل النبي

نوحﷺ طيراً لمعرفة وجود بقعة من اليابسة للتأكد من نهاية الطوفان، فلم تلبث الحمامة طويلاً حتى عادت له بغصن من شجرة الزيتون، وهذه علامة على ظهور أغصان الأشجار من الماء وإمكانية النزول إلى اليابسة، ولذلك فالزيتون إشارة إلى النبي نوحﷺ، ومن المناسب أن نشير هنا إلى أنّ غصن الزيتون في الثقافة العالمية يشير إلى الصلح والسلام والأمن.

النتيجة هو أنّ الله تعالى أقسم في هذه السورة بأربعة أنبياء عظام، كل واحد منهم كان له دور هام في هداية قومه.

القول الثالث: المراد من «التين» هو الثمرة المعروفة، حيث تختزن مواد غذائية هامة، أي فاكهة التين، والمراد من «الزيتون» أيضاً هو حبات الزيتون الزاخرة بالفيتامينات والأغذية والخصوصيات الهامة، و«الطور» و«البلد الأمين» يراد بهما جبل سيناء ومدينة مكة المكرمة.

إنّ الله تعالى أقسم في هذه السورة بثمرتين فيهما الكثير من الخواص الغذائية المهمّة والتي تعود على بدن الإنسان بالنفع الكثير، وأقسم بمكانين معنويين يرتبطان بروح الإنسان ويمنحان البشر غذاءً معنوياً كيما يتدبر البشر بغذائه الجسماني، وكذلك بغذائه الروحي والفكري أكثر.

النتيجة، طبقاً لهذا التفسير فإنّ الله تعالى أقسم بمادتين غذائيتين للجسم، ومادتين غذائتين للروح.

في الختام نرى من المناسب استعراض عدّة أمور:

١. بنية الفاكهة، وعجائب الخلقة

إنّ بناء الفاكهة ونسيجها يعتبر من عجائب الخلقة وغرائب الطبيعة، ويتجلى ذلك للإنسان في ظلّ التأمل والتدبر في خلقة وترتيب الفاكهة، هناك الكثير من أنواع

الفاكهة التي تختلف فيما بينها من حيث الشكل، اللطافة، والطعم والرائحة، والخواص النباتية، والغذائية، والطبية، وأمثال ذلك، وكل هذه المنافع المتنوعة تنشأ من أرض واحدة وتسقى من ماء واحد، فهل فكرنا وتأملنا في حالة هذه الفاكهة وكيف خلقها الله من تراب مظلم، و ماء زلال وفي قطعة صغيرة من الأرض، بحيث أنتجت كـل هذه الفاكهة المتنوعة والكثيرة؟ ففي منطقة من هذه الأرض نرى فاكهة حلوة ولذيذة الطعم، وفي زاوية أخرى هناك أشجار تثمر ثمراً حامضاً ولذيذاً، وفي بـقعة ثـالثة نرى ثماراً تختلف في الطعم والذوق، وفي بقعة مـن الأرض نـرى ثـماراً زاخـرة بالدهنيات، وفي أخرى نرى ثماراً زاخرة بالسكريات، وفي أخرى هناك فـاكـهة تحمل مواد مضادة للسكريات والدهنيات، والخلاصة نرى أشجار الفاكهة تنمو في أرض واحدة وتسقى بماء واحد وتستنشق هواء واحداً ولكنّها مع ذلك تنتج ثماراً متنوعة في الطعم والرائحة واللون، ألا يشير ذلك إلى عظمة عالم الخلقة؟

وللأسف فإنّه وعلى أثر العادة وكثرة هذه النعم الإلهيّة فإننا قلّما نفكر فيها من موقع التدبر والعمق.

٢. طورسينين

«سينين» في اللغة بمعنى «كثير الخير و البركة»، و«سيناء» و«سينين» وصـفين لجبل طور سيناء، وكلا هذين الوصفين بمعنى واحد، والسبب في وصف جبل سيناء بـ«سينين» عدّة أمور:

١. بما أنّ هذا المكان مقدّس وقد نزل الوحي فيه على النبي موسى عليه السلام، فمن هنا كان هذا الجبل كثير الخير والبركة، ومن الواضح أنّ الوحي أكثر من أي شيء آخر بركة وخيراً.

٢. إنّ جبل سيناء مليء بالأشجار بحيث تغطي سفح الجبل، ولهذا السبب كان

هذا الجبل كثير الخير والبركة

٣. بما أنّ أشجار هذا الجبل من نوع الأشجار المثمرة، فمن هنا سُمّيَ «طور سيناء» أي الجبل الكثير الخير والبركة.

النتيجة أنّ «سينين» تعني كثير الخير والبركة، وقد سمي الجبل بهذا الاسم للأسباب المذكورة آنفاً.

٣. مكّة ونعمة الأمن

تطلق كلمة «بلد» في القرآن الكريم واللغة العربية القديمة على المدينة، رغم أنّ هذه الكلمة تطلق حالياً ويقصد بها الدولة أو المملكة، والمقصود من «البلاد الإسلامية» في اللغة العربية المعاصرة هو الدول الإسلامية، على أيّة حال فإنّ كلمة «البلد» في الآية الشريفة تعني المدينة، والمقصود من «البلد الأمين» مدينة مكة المكرمة.

سؤال: لماذا أشار الله تعالى في هذه الآية إلى صفة «الأمن» لمكة مع أنّها تمتاز بامتيازات كثيرة؟

الجواب: إنّ هذا الوصف الذي أشار إليه القرآن الكريم يشير إلى أنّ المسألة الهامة والضرورية في حياة المجتمع البشري هي مسألة الأمن والاستقرار الروحي والاجتماعي، فلولا توفر الأمن في أجواء المجتمع، فلا يوجد ثمّة اقتصاد سليم ولا صناعة مزدهرة و لا زراعة نافعة أو تجارة رابحة، بل حتى المعنويات والأمور الروحانية والقيم الأخلاقية تتعرض للاهتزاز والذبول، أجل فكل شيء رهين بوجود حالة الأمن في فضاء المجتمع وفي وعي الأمّة، ولهذا السبب نرى أنّ النبي إبراهيمعليه السلام عندما بنى البيت الحرام رفع يديه للدعاء وطلبه ألاول من الله تعالى لهذه

المدينة المقدّسة، حالة الأمن والاستقرار: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً﴾[1] ثم طلب غيرها من الأمور الاقتصادية والترفيهية.

وفي هذا السياق فإنّ إنفاق مبالغ طائلة لتحقيق الأمن والطمأنينة والاستقرار في أجواء المجتمع وتحكيم أركانه وتقوية دعائمه، كل ذلك لا يعدّ اسرافاً، فلو رأينا في حرب الثمان سنوات، كم فقدنا من الشبّان الشجعان والأعزاء من أجل الحصول على الأمن أو حفظ هذه النعمة الكبيرة، فإنّ هذه الغاية هي التي تهون علينا المصيبة وتجعلها قابلة للتحمل، إنّ القرآن الكريم يواجه بشدّة وحسم الأفراد الذين يعملون على إثارة القلاقل وإيجاد حالة من الإرباك والخلل في أجواء المجتمع الإسلامي ويعرضون أمنه واستقراره للخطر، ويطلق على هؤلاء اسم «المحاربين» ويقرر لهم عقوبات شديدة وقاسية، فالأشخاص الذين يحملون السلاح بقصد الإضرار بالمجتمع ويعرضون البلد إلى الإرباك وعدم الأمن فإنّهم مصداق للمحاربين حتى وإن لم يسفكوا دماً في عملهم، فالأشخاص الذين يعملون في تهريب المخدرات وتوزيعها بين الناس فإنّهم بهذا العمل يعرّضون أمن المجتمع للخطر، ويمهّدون الأرضية اللازمة لوقوع الشبّان في فخ الإدمان على المخدرات، فعقوبة هؤلاء هي عقوبة المحارب.. والأشخاص الذين يقومون بإدارة مراكز الفحشاء والفساد في المجتمع الإسلامي ويعرّضون استقرار الناس وإيمان المسلمين للخطر، فهم أيضاً مشمولون لهذا الحكم الشرعي.. والأشخاص الذين لا يتورّعون من بثّ الفتنة وتسميم الفضاء الفكري والذهنية العامة بأقلامهم في الصحف والمجلات والكتب.. والأشخاص الذين يعملون على زرع عناصر الخلل والإرباك في مفاصل اقتصاد المجتمع الإسلامي بأموالهم أو بألسنتهم، فإنّ الواجب على الحكومة الإسلامية التصدي لهؤلاء المنحرفين من مواقع الحزم والشدّة للحفاظ على أمن واستقرار

---

١. سورة البقرة، الآية ١٢٦.

المجتمع الإسلامي من الاهتزاز والانهيار والتمزق.

يقول الله تبارك وتعالى في الآيتين الشريفتين ٦٠ و ٦١ من سورة الأحزاب:

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾.

ونرى هاتين الآيتين الشريفتين تهديداً عجيباً للأشخاص الذين يتحركون لزحزحة استقرار المجتمع الإسلامي وتعريض أمنه للخطر، حتى لو كان عملهم هذا لا يتجاوز إثارة الشائعات في فضاء المجتمع الإسلامي.

والخلاصة أنّ أهم سمات مدينة مكة سمة «الأمن» الحاكم على أجوائها، ولهذا فإنّ الآية الشريفة ذكرت هذه النعمة الإلهيّة المهمّة بالخصوص.

المقسم له:

سؤال: ما هو الغرض من بيان الأقسام الأربعة في هذه السورة مع ما تقدّم من أهميّتها وتفسيرها؟ وبعبارة أخرى لماذا أقسم الله تعالى في هذه السورة الشريفة بأربعة أقسام جليلة؟ وبكلمة ثالثة ما هو المقسم له في هذه السورة؟

الجواب: يتبيّن الجواب عن هذه الأسئلة في الآيات التالية:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

أجل، إنّ الله عزّوجلّ ومن أجل بيان قيمة الإنسان وإفهامه بقدره واعتباره، أقسم بهذه الأقسام الأربعة، كيما نعرف أنفسنا أكثر ولا نبيعها بأبخس الأثمان، إنّ الله تعالى وبهذه الطريقة يضرب لنا ناقوس الخطر وينبهنا إلى أمر في غاية الأهميّة وهو أن نعرف أننا درّة تاج المخلوقات، وأنّه وهب كل هذه النعم والخيرات للإنسان وسخر

له سائر المخلوقات والكائنات، حتى نستطيع أن نتحرك بالاستفادة من هذه النعم والمواهب الإلهيّة في معراج الكمال المعنوي والوصول إلى مقام القرب الإلهي، فالإنسان، الذي يراه القرآن الكريم ويرسم ملامحه، يعتبر أفضل المخلوقات وقد خلقه الله في أحسن تقويم، وبإمكانه أن يصل إلى مراتب عالية ومقامات سامية بحيث لا يرى سوى الله، وبالتالي يكون خليفة الله، ويعيش في مرتبة القرب من الله، ولكن إذا لم يعرف الإنسان قيمته الوجودية وغفل عن قيمته ومكانته في عالم الخلقة فسوف ينحدر في القوس النزولي إلى مرتبة دانية ومنحطة إلى درجة أنّه يضحى أحقر من الحيوانات والأنعام، ويصل في سقوطه إلى أسفل السافلين.



توضيح عدّة نقاط:

١. معنى التقويم

للتقويم معانٍ متعددة، منها «إعطاء قيمة للشيء»، «تنظيم وتعديل الشيء»، «تجميل الوجه»، «إصلاحه»، «جعله مرتكزاً على شيء». أجل، كل هذه المعاني موجودة في مفهوم كلمة «التقويم» وفي ضوء ذلك فإنّ الله تعالى قوّم الإنسان بشكله الجميل وبقواه وطاقاته القائمة على قاعدة متماسكة وقوية.

٢. قيمة الإنسان

إنّ معرفة قيمة الإنسان وتقويم شخصيته يعتبر من الموضوعات المهمّة في العلوم الإنسانية، وقد طرح العلماء والمفسّرون الماديون، الذين لايعتقدون بما وراء الطبيعة والعالم الآخر، قيمة الإنسان من موقع الرؤية الحيوانية وبذلك نزلوا بمستوى الإنسان حتى أوصلوه إلى أفق القرد، وقرروا أنّ الإنسان حيوان متكامل وصورة متطورة عن القردة، ويقول بعضهم: «إنّ بعض العلماء تصوروا أنّ الإنسان كائن راقٍ ومتكامل

ومنفصل في كيانه عن سائر الحيوانات، في حين أنّ الأمر ليس كذلك، بل إنّ الإنسان حيوان متطور يمتدّ بجذوره إلى القردة، ونحن بهذه العقيدة نردم الهوة والفاصلة بين الإنسان والحيوان، وبذلك نرى أنّ الإنسان نوع من أنواع الحيوانات».

أمّا العلماء الإلهيون الذين يعتقدون بعالم الغيب وما وراء الطبيعة، فيعتقدون برؤية أخرى تبعاً للتعاليم الإلهيّة، فهؤلاء يعتقدون بأنّ الإنسان درّة تاج المخلوقات وذروة الكائنات في عالم الوجود، لأنّ الله تعالى منذ بداية خلق الإنسان منحه أربع خصائص وامتيازات لا توجد في أي واحد من المخلوقات الأخرى حتى الملائكة، وهذه الامتيازات كالتالي:

أ) خليفة الله

يقول تبارك تعالى في الآية ٣٠ من سورة البقرة، مخاطباً الملائكة: «﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. أي أنّكم أيّها الملائكة لا تملكون اللياقة لإحراز مقام الخلافة الإلهيّة في الأرض، ولابدّ من خلق موجود أسمى وأعلى منكم، وهو الإنسان، الذي بإمكانه أن يكون خليفتي على الأرض.

ب) الروح الإلهيّة!

ونقرأ في آيتين من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾[1]، وهذا التعبير ورد في شأن الإنسان فقط وليس لسائر الموجودات الأخرى، وهذا يشير إلى عظمة الإنسان في واقع الخلقة والكائنات.

سؤال: ما هو المقصود من الروح الإلهيّة؟ هل يعني هذا أنّ الله تعالى له روح وجسم وقد نفخ في الإنسان جزءً من روحه؟

---

١. سورة الحجر، الآية ٢٩ وسورة ص، الآية ٧٢.

الجواب: من البديهي أنّ هذا المعنى غير مقصود قطعاً، لأنّ هذه العقيدة باطلة ولا أساس لها، وعليه فالمقصود من كلمة «روحي» في الآيتين المذكورتين هي روح سامية وعظيمة ومقدّسة ولشدّة عظمتها وقداستها فإنّ الله تعالى نسبها إلى نفسه، وعلى حدّ تعبير طلبة العلوم الدينية إنّ إضافة الروح إلى الله تعالى في قوله «روحي» هي إضافة تشريفية، وهذا الامتياز أيضاً يختص بالإنسان ولابدّ أن يكون كذلك، لأنّ المخلوق الذي يملك اللياقة لأن يكون خليفة الله على الأرض لابدّ أن يملك روحاً عظيمة منسوبة إلى الله تعالى.

ج) معلّم الملائكة!

بعد أن جرى الحوار بين الله تعالى والملائكة حول خلق كائن جديد يدعى بالإنسان، وقد وقف منه الملائكة موقفاً سلبياً واعترضوا على خلقه فقال الله تعالى ﴿... قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] فقنعوا بهذا الجواب، وبذلك خلق الله الإنسان وعلّمه الأسماء كلّها، لتجسيد مقولة أفضلية الإنسان على الملائكة في الواقع الخارجي ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، ولمّا طلب الله تعالى من الملائكة الإخبار عن هذه الأسماء لم ينجحوا في هذا الامتحان، وقالوا في خطابهم للذات المقدّسة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[2] ثم إنّ الله تعالى أشار إلى آدم﴿ع﴾ وأمره بتعليم هذه الأسماء للملائكة، فعندما علّم آدم﴿ع﴾ الأسماء بأمر الله تعالى، قال تعالى في جملة مقتضبة مخاطباً الملائكة: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[3]. فأذعن الملائكة لهذه الحقيقة وقبلوا بأفضلية الإنسان عليهم في علمه التفصيلي بالأسماء

---

١. سورة البقرة، الآية ٣٠.
٢. سورة البقرة، الآية ٣٢.
٣. سورة البقرة، الآية ٣٣.

وأنّ علمهم إجمالي بها، وبهذه الطريقة أصبح آدمعليه السلام معلماً للملائكة وهذه المرتبة أيضاً تعدّ من امتيازات الإنسان الخاصة.

سؤال: ما هو علم الأسماء؟

الجواب: لقد طرح المفسّرون نظريات متعددة في «علم الأسماء» أحدها أنّ المقصود معرفة عالم الوجود، بل لو تنزلنا وقصرنا النظر على مخلوق واحد من المخلوقات وهو الإنسان، بل على عضو صغير واحد من أجزائه وأعضائه، أي الخلية الصغيرة فإنّها تختزن الكثير جدّاً من الأسرار الدقيقة، إلى درجة أنّ أحد العلماء كتب عن الخلية في بدن الإنسان أكثر من خمسة آلاف صفحة أضف إلىٰ ذلك أنّ علمنا بموجودات العالم وأسرار الكون لا يعتبر شيئاً يذكر أمامَ مجهولاتنا، فالله تعالى علّم أسرار عالم الوجود لآدمعليه السلام.

د) مسجود الملائكة

بعد أن أذعن الملائكة في الخطوة الأولى بأفضلية الإنسان عليهم على مستوى اللفظ والكلام، تحركوا في الخطوة الثانية للتتلمذ على يد النبي آدمعليه السلام وأذعنوا لهذه الحقيقة من موقع الإيمان القلبي، ولابدّ للانتقال إلى المرحلة الثالثة من هذا الإذعان والتصديق إلىٰ التصديق العملي بهذه الحقيقة، ولذلك صدر الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدمعليه السلام وسجد الملائكة بأمر الله تعالى لآدم تعظيماً له، ولم يتخلف عن الأمر الإلهي سوى إبليس! الذي لم يكن من الملائكة بل كان من الجن وبسبب تكبره وما يعيشه من حالات الزهو والغرور فقد أبى السجود لآدم وانخرط في زمرة الكافرين، والحقيقة أنّ إبليس لم يكن يملك اللياقة التي تؤهله لهذه العبادة الإلهيّة، فكان من الطبيعي أن لا يسجد ولا يتشرف بهذه المرتبة والعبادية.

أجل، إنّ مرتبة الإنسان في خلافة الله في الأرض وامتلاك الروح الإلهي وإحراز مقام معلّم الملائكة وفي النهاية سجود الملائكة له تعتبر كلها من الخصائص والامتيازات المنحصرة بالإنسان والتي لا يشترك معه سائر الموجودات والمخلوقات الأخرى في هذه الخصوصيات.

وهنا نتساءل: هل الإنسان الوارد في المفاهيم القرآنية، يساوق ما ورد في كلمات العلماء الماديين ورؤيتهم عن الإنسان؟

سؤال: ما ذكر في فضل الإنسان في المفاهيم القرآنية، مقبول بلا شك في حق آدمعليه السلام ولكن هل هذه الفضائل والامتيازات تسري إلىٰ سائر أفراد البشر الآخرين؟

الجواب: يستفاد من الآيات القرآنية الأخرى أنّ هذه الخصائص والامتيازات لا تختص بآدم، بل تشمل ذريته إلى قيام الساعة.

والشاهد على هذا المعنى ما ورد في الآيات من سورة المؤمنين، فقد ذكر الله تعالى في الآيات الأُولى من هذه السورة مراحل خلق الإنسان (نطفة، علقة، مضغة و...) ثم قال في الآية ١٤ من هذه السورة:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وفي ضوء ذلك فهذه الفضائل والامتيازات المذكورة لا تختص بالنبي آدمعليه السلام بل تشمل جميع أفراد البشر.

وهنيئاً للأشخاص الذين تحركوا في خط التكامل الإلهي والمعنوي وصعدوا في معراج الفضائل ومدارج القيم ونالوا بذلك هذه المراتب العليا وأحرزوا لأنفسهم هذه المقامات السامية.

٣. ما معنى أسفل سافلين؟

إنّ بعض البشر السعداء وبالاعتماد على الله تعالىٰ والتوكل عليه وبالاعتماد على

همتهم وعزمهم وصلوا إلى مراتب عالية واستفادوا من هذه الامتيازات الإلهيّة إلى حدّ أنّهم بلغوا ذروة الكمال الإلهي وصعدوا إلى «قاب قوسين أو أدنى»[1]. هؤلاء وصلوا إلى مرتبة لا يدنو منها ملك مقرب.

بيدَ أنّ بعض الناس ينحدرون في منزلقات الرذيلة ولا يملكون في أنفسهم معرفة قيمة تلك الخصوصيات الإنسانية العالية، وبالتالي ينزلقون في وادي الظلمات إلى أن يصلوامرحلة أسفل السافلين، وهو المكان الذي لا يتصور أسفل منه، ولكن أين يقع هذا الموقع، وماذا يعني أسفل السافلين؟

ذكر بعض المفسّرين أنّ أسفل سافلين يعني ﴿أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾[2] وهو مرحلة الشيخوخة ونهاية عمر الإنسان، ولكن هذا التفسير ربّما يبدو غريباً بعض الشيء، لأنّه لا ينسجم ولا يتناسب مع الآية الشريفة التي تقرر بعد ذلك هذا الاستثناء ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. لأنّ هذا الاستثناء لا يمكن أن يكون استثناءً من أرذل العمر بالمعنى المذكور، وهو المرحلة الأخيرة من السير الطبيعي لعمر الإنسان، وعليه فإنّ هذا التفسير المذكور مجانب للصواب قطعاً.

والتفسير الصحيح لهذه العبارة هو أنّ أسفل السافلين في الدنيا عبارة عن مرتبة ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[3] أي آخر نقطة من التوحش والرذيلة والانحراف والضلالة، وهذا هو الشيء الذي نراه بوفرة في هذا العالم المعاصر، فالإنسان الذي يضع سيارة مفخخة إلى جانب مسجد أو مستشفى مكتظة بالمرضى أو سوق مزدحم بالناس أو في المناطق الآهلة بالسكان ويفجرها ليقتل العديد من الرجال والنساء والكبار والصغار الأبرياء أبشع قتلة، هذا هو مصداق أسفل السافلين. إنّ أولئك الذين يدّعون الدفاع عن حقوق الإنسان ويلقون بقنابلهم على مدينة هيروشيما وناكازاكي

---

١. سورة النجم، الآية ٩.
٢. ورد هذا التعبير في الآية ٧٠ من سورة النحل والآية ٥ من سورة الحج.
٣. ورد هذا التعبير في الآية ١٧٩ من سورة الأعراف، والآية ٤٤ من سورة الفرقان.

ويهلكون بذلك الألوف من أفراد البشر الأبرياء، هم من المصاديق البارزة لعبارة: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.. والأشخاص الذين يتحركون على مستوى إشعال فتيل الحرب هنا وهناك في مناطق مختلفة من العالم لتصريف الأجهزة المدمّرة والأسلحة الفتاكة التي تنتجها مصانعهم ويزيدوا بذلك من أموالهم وثرواتهم، هؤلاء الحيوانات الوحشية التي ترتدي لباس البشرية، هم مصداق هذه الآية الشريفة.

وقد ورد أنّ أسفل السافلين موقع في قعر جهنّم في الآخرة ويعتبر أسفل نقطة في النار، وهذا القوس النزولي وذلك القوس الصعودي في معراج الإنسان وسلّم التكامل المعنوي يعتبر أحد امتيازات الإنسان.

سؤال: ما العمل لئلا نقع في منحدر القوس النزولي ولا نسقط في أسفل السافلين؟

الجواب: من أجل التخلص من الوقوع في أسفل السافلين، ومن أجل أن نتحرك في خط التكامل ونصعد في مراتب المعنى للوصول إلى مرتبة «أحسن تقويم» نحتاج إلى مخطط كامل لبناء الذات وتفعيل قوى الخير والصلاح في وجدان الإنسان، وأحد هذه العناصر يتمثل باختيار الصديق الصالح، لأنّ دور الصديق إلى درجة من الأهميّة أنّه بإمكانه أن يرتفع بصاحبه إلى الجنّة، أمّا إذا كان هذا الصديق غير صالح فربّما يؤدي بالإنسان إلى سلوك طريق جهنّم، فالصديق بإمكانه أن يفتح أمام الإنسان أبواب السعادة، كما أنّه بإمكانه أن يفتح أمام الإنسان أبواب الشقاء والسقوط، والصديق بإمكانه أن يوفر الأرضية اللازمة لنيل الإنسان مرتبة الشهادة والفوز العظيم بالخلود في الجنّة، أو يجعله في زمرة أعداء الله ويقوده في خط المعصية والرذيلة والضلالة.

الدور المهم للصديق:

ومن أجل الاحاطة بدور الصديق في حياة الإنسان نلقي نظرة إلى الآيات ٢٧

إلى ٢٩ من سورة الفرقان:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾.

وعندما يقال: إنّ الشخص الفلاني يعض يديه أسفاً على ما فعل، فإنّ هذا الكلام يعبر عن شدّة حزنه وألمه على ما صدر منه، والآن لابدّ أن نفكّر في عمق المصيبة التي حلّت بهذا الإنسان الظالم بحيث إنّه أخذ يعض على يديه أسفاً وحزناً وندماً؟ الجواب عن هذا السؤال تقرره الآية الشريفة في سياقها وتقول علىٰ لسان هذا الظالم:

﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾.

فهذا الظالم يعيش الندم الشديد يوم القيامة على عدم اتباعه للرسول الإلهي وعلى ما أسرف على نفسه وعلى ما قام به من هدم جميع جسور التوبة والإنابة إلى الله، فهو يتحسر على قطع جميع روابطه وعلاقاته من النبي والدين والقيم، إنّ قطع الارتباط مع رسول اللهﷺ هو نتيجة متوقعة لاختيار الرفيق السيء، ولهذا السبب يقول بمنتهى التحسر والألم:

﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً﴾.

أي ليتني لم أصادق ذلك الشخص الذي فتح أمامي باب الخطيئة وارتكاب الذنوب وأوصد أمامي أبواب الهُدىٰ والفلاح، وليتني لم أصادق ذلك الشخص الذي أظلّني عن ذكر الله وجعلني قرين الشيطان، ولكن هذا التأوه والتحسر لا ينفع شيئاً يوم الحسرة، بل ينبغي على الإنسان أن يفكر في هذا المصير المؤلم في هذه الدنيا ويتحرك على مستوى جبران الخلل وإصلاح القصور في حركة الحياة والواقع.

شأن نزول الآيات الشريفة:

يذكر أنّ «عقبة» كان من الأثرياء في المدينة، وكان إنساناً يملك سريرة حسنة،

وعلى الرغم من أنّه كان مشركاً إلّا أنّه كان صديقاً للنبيﷺ ومن هنا كان يـزور النبي أحياناً ويستمع إلى آيات القرآن، وهكذا يتقدم خطوة فخطوة نحو الإسـلام، ولكنّه لم يعتنق حينذاك الإسلام بشكل رسمي، وبعد عودته من سفره دعا أعـيان وأشراف قومه وقبيلته إلى ضيافته ودعا أيضاً نبي الإسلامﷺ للمشاركة في تـلك الضيافة فقال له رسول اللهﷺ: «أنا أقـبل مـنك هـذه الدعـوة بشـرط أن تـتشهد الشهادتين وتكون من المسلمين، فما يفصل بيني وبينك هو الشرك، فإذا تشـهدت الشهادتين زالت هذه الفاصلة».

فما كان من (عقبة) إلّا أن تشهد الشهادتين أمام الناس، وقد وفى النبي بـوعده وشارك في تلك الضيافة، وانتشر خبر اعتناق عقبة للإسلام في فضاء المدينة وأصبح كلام المجالس وعندما سمع (أُبي) وهو صديق (عقبة) أيضاً بهذا الخبر جـاء إليـه ووبخه على هذا العمل وقال له: «سمعت أنّك تركت دين آبائك وأجدادك وتخليت عن عبادة هذه الأصنام الجميلة واخترت عبادة إله محمّد الغائب عن الأبصار فأين غيرتك وحميتك العربية؟».

والخلاصة أنّ هذا الصديق السيء بقي يلوم (عقبة) ويبوبّخه حتى جعله يـندم على عمله، فقال لأُبي: «ماذا أصنع لجبران هذا العمل؟».

فقال له أُبي: «كما أنّك أعلنت عن قبولك للإسلام أمام الناس فعليك أن تـهين محمّداً أمام الناس أيضاً وتتبرأ من الإسلام».

وهكذا تحرك (عقبة)، الذي انفتحت أمامه أبواب السـعادة والنـجاة، فـي هـذا الطريق والمنحدر على أثر وساوس هذا الصديق السيء المراوغ وجاء إلى النبيﷺ وأهانه على ملأ من الناس وتبرأ من الإسلام فنزلت في حقّه الآيات المذكورة لتبيّن حالة (عقبة) يوم القيامة.

إنّ الآيات الثلاث المذكورة آنفاً وإن كانت قد نزلت في شأن (عقبة)، ولكن ممّا

لا شك فيه أنّها لا تنحصر بهذا المصداق، بل هي تحذير وإنذار لجميع الأشخاص الذين يتخذون أصدقاء سوء ويعرّضون أنفسهم للهلكة والضلالة باختيارهم غير المُصيب هذا.

مثلاً إذا سألتم عن سبب الابتلاء بالإدمان على المخدرات فإن المدمنين يقرّون بأنّ السبب في ذلك يعود إلى رفيق السوء، فمثل هذا الرفيق يعتبر أخطر على الإنسان حتى من الحيوانات الوحشية.

رفيق السوء في كلام أميرالمؤمنين علي عليه السلام:

ونختم هذا البحث بحديث شيق عن أميرالمؤمنين عليه السلام. في كتاب غرر الحكم ودرر الكلم حيث قال:

«صُحْبَةُ الْأَشْرارِ تَكْسِبُ الشَّرَّ كَالرِّيحِ إِذا مَرَّ بِالنَّتِنِ حَمَلَتْ نَتِناً».

إنّ روح الإنسان، وخاصّة الشبّان الأعزاء كالنسيم الرقيق الذي إذا مرّ على حقل الورود حمل معه من عطرها، وإذا مرّ على مزبلة ومكان نتن حمل معه من جيفتها ونتنها، وهكذا يتأثر الإنسان برفيق السوء فيما يحمل معه من عناصر الرذيلة والانحراف والشر.

النتيجة أنّه من أجل البقاء في دائرة وأُفق «أحسن تقويم» والابتعاد عن وادي أسفل السافلين، فإنّ الشرط الأول هو اختيار الصديق المناسب، وكذلك الابتعاد عن الفضائيات الملوثة، التي تشكل أخطر بلاء على البشرية في عالمنا المعاصر، وكذلك الأفلام الخليعة والصحف المتحللة وأمثالها التي تعتبر نوعاً آخر من رفاق السوء للإنسان.

نأمل أن نتحرك في خط التعاليم السماوية والمفاهيم القرآنية للوصول إلى مرتبة «أحسن تقويم»، وطبعاً لا يتسنى لنا ذلك بدون التوكل على الله والاعتماد على لطفه وتسديده.

الإيمان والعمل الصالح، دعامتان لمرتبة أحسن تقويم:

إن الله تعالى يقرر أنّ جميع أفراد البشر يتحركون باتجاه منحدر القوس النزولي وإلى مرتبة أسفل السافلين، ويستثني منهم من كان يملك عنصرين مهمين من عناصر الحياة المعنوية، أي الإيمان والعمل الصالح[1].

وهذه الطائفة من الناس تعيش السعادة وتحلّق في فضاء مرتبة أحسن تقويم وتستمر في سيرها الآفاقي في قوس الصعود وتقتبس من أنوار هذه المرتبة وبركاتها، وجملة ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وردت في القرآن الكريم في موارد كثيرة، وربّما يتجاوز عدد الموارد في القرآن أكثر من ٦٠ آية تتضمن هذه الجملة، وكثير من هذه الآيات تختزن معياراً مهمّاً في واقع الحياة والإنسان، وعلى سبيل المثال نستعرض هنا عدّة نماذج منها:

١. يصرّح تبارك وتعالى في سورة العصر بأنّ جميع أفراد البشر يعيشون في خسر وضرر، ثم يستثني منهم الأشخاص الذين يتحلون بالإيمان والعمل الصالح ويدعون الآخرين إلى المعروف، حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[2]. وطبقاً لهذه الآية الشريفة فإنّ معيار الخروج من حالة الخسران هو أن يتحلى الإنسان بالإيمان والعمل الصالح.

٢. يصرّح تبارك وتعالى في الآية ٥٥ من سورة النور، بأنّ الحكومة العالمية ستكون من نصيب المؤمنين الذين يتحركون في واقعهم الفردي والاجتماعي من موقع العمل الصالح حيث يقول سبحانه:

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا

---

١. كما يستفاد ذلك من سورة العصر.

٢. سورة العصر، الآية ٢ و ٣.

استَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

وطبقاً لهذه الآية الشريفة، فإنّ أساس الحكومة الإلهيّة العالمية يقوم على ركني الإيمان والعمل الصالح، ولذلك وعد الله تعالى المؤمنين الذين يعملون الصالحات وعداً قاطعاً بخلافة الأرض وإدارة شؤونها وخلاصهم من أجواء الخوف ودخولهم إلى أجواء الأمن والاطمئنان.

٣. وجاء في الآية ٧ من سورة البيّنة أنّ «خير البريّة» هم الأشخاص الذين يعيشون الإيمان في قلوبهم ويتحركون في الواقع الاجتماعي بآليات العمل الصالح.

وعلى الرغم من أنّ الأحاديث الشريفة المشهورة بين الشيعة وأهل السنّة، التي تقرر أنّ النبي الأكرمﷺ ذكر أنّ المصداق الأكمل لمفهوم «خير البرية» هو الإمام عليعليه السلام وشيعته، وقد ذكرنا تفاصيل ذلك في كتابنا «آيات الولاية في القرآن»، إلّا أنّ هذه الروايات الشريفة تضع على عاتق شيعة أمير المؤمنينعليه السلام وظيفة ثقيلة ومسؤولية كبيرة، ولا يمكنهم تحمل هذه المسؤولية الكبيرة بدون استقرار الإيمان في أعماق وجودهم وبدون التحرك في خط العمل الصالح في حياتهم.

٤. ويقرر القرآن الكريم الهدف من نزول الآيات القرآنية وإرسال نبي الإسلامﷺ للناس كافة، في الآية ١١ من سورة الطلاق:

﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً﴾.

طبقاً لهذه الآية الشريفة، فإنّ العامل الوحيد الذي بإمكانه إخراج المجتمع البشري من وادي الظلمة والضلالة إلى آفاق النور والهداية هو الإيمان والعمل

الصالح، وقد نستوحي من الآيات الشريفة التي وردت فيها هذه العبارة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أنّ المسائل المهمّة والمصيرية في حياة الإنسان والمجتمع البشري تدور حول محور الإيمان والعمل الصالح، فإذا أردنا التحليق في آفاق السعادة والصلاح والخير، وبلوغ ذروة العزّة والكرامة، والوصول إلى مرتبة «أحسن تقويم».. وإذا أردنا الخلاص من زمرة الظالمين والخاسرين.. وإذا كنّا نطلب تحقّق الوعد الإلهي بالحكومة العالمية الشاملة.. وإذا كنّا نعيش كراهية الشر والعدوان والظلمة، ونعيش الشوق للنور والهداية والرحمة.. وإذا كنّا نشتاق إلى الجنّة ونعيمها، فإنّ كل هذه الغايات والأهداف لا يمكن تحقيقها والوصول إليها إلّا في ظلّ الإيمان والعمل الصالح.

تعريف الإيمان:

سؤال: ما هو الإيمان الذي يصفه القرآن بأنّه مصدر الخيرات والبركات وأنّه جوهرة ثمينة ومعيار الصلاح والفلاح؟ وما هو تعريفه؟

الجواب: إنّ الإيمان هو ذلك التصديق الباطني الذي يختزنه كل شخص مؤمن فيما يتصل بالله والمعاد ونبوة نبي الإسلامﷺ. وطبقاً لهذا التعريف فإنّ قول الشهادتين لا يكفي لصدق مفهوم الإيمان على هذا الشخص، بل ينبغي مضافاً إلى ذلك أن ينفذ هذا المفهوم والتصديق إلى قلب الإنسان وروحه، وتظهر آثاره ونتائجه على سلوكيات الإنسان وأعماله في الواقع الخارجي.

إنّ التعبير بأصول الدين وفروعه، رغم أنّه لم يرد في الروايات الشريفة، إلّا أنّه تعبير جيد وجذّاب، وفي هذا التعبير نرى أنّ الدين بمثابة شجرة قوية وباسقة وأنّ التوحيد والمعاد والنبوة تمثّل أصول وجذور هذه الشجرة، بينما تمثّل الصلاة، والصيام، والحج، والجهاد، والخمس، والزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

والتولي والتبري، أغصاناً وفروعاً لهذه الشجرة. وأمّا ثمار هذه الشجرة فهي الأخلاق الحسنة. وعليه فإنّ الإيمان يجب أن يكون متحركاً وفاعلاً في واقع الإنسان وتنعكس آثاره على حركات الإنسان وسكناته وينبغي أن يكون للإيمان جذوراً وأصولاً وأغصاناً، وهذه الأغصان مليئة بالفاكهة والثمار، والإيمان يجب أن يكون كالشجرة المثمرة التي تمنح الناس ثمارها في كل حين ولا تواجه الذبول والجفاف في أي فصل من فصول السنة، وبكلمة واحدة فإنّ الإيمان يجب أن يكون شجرة قوية وباسقة تعيش الربيع طيلة أيّام السنة. فالإيمان هو التصديق القلبي والروحي والنفسي الذي يملك وجود الإنسان ويهيمن على أفكاره وعواطفه وسلوكياته، هذا التصديق يكون من قبيل الإيمان بإحراق النار، فهل تجدون إنساناً عاقلاً يمسك بيده شعلة من النار؟ إنّكم لا تجدون مثل هذا الإنسان بين العقلاء، لأنّ جميع العقلاء يعلمون ويصدقون بأنّ النار محرقة، والإيمان بإحراق النار يمنع من لمسها والإمساك بها.

والقرآن الكريم يعبّر عن أكل مال اليتيم بأنّه أكل النار، فالشخص المؤمن بالقرآن والمصدق به هل يمكن أن يخطر على ذهنه أكل مال اليتيم؟

الجواب: كلا قطعاً، كما أنّه لا أحد يفكّر بأكل شعلة من النار. فلو أنّ الشخص كان لا يبالي بأكل أموال اليتامى فلا شك في أنّ إيمانه ضعيف وتصديقه بالقرآن قشري.

الإنسان المؤمن يرى أنّ الله تعالى شاهد وناظر إلىٰ أعماله وتصرفاته، والشخص الذي لا يرى لله دوراً في حياته حتى بمقدار الشرطي، فماذا يمكن أن نسمي هذا الشخص؟

الخلاصة إنّ الإيمان عبارة عن التصديق القلبي والروحي والنفسي بالله والنبي واليوم الآخر.

ما المقصود من العمل الصالح؟

إنّ العمل الصالح يعتمد على ركنين أساسيين: أحدهما، النيّة الطاهرة والصادقة، والآخر، العمل المفيد. وعلى هذا الأساس فإنّ العمل الصالح لا ينحصر بالصلاة والصوم والحج والزكاة والخمس والدعاء والزيارة، رغم أنّ هذه الأعمال المذكورة تعتبر من المصاديق البارزة للعمل الصالح، بل يستوعب كل عمل مفيد يصدر من الإنسان بنيّة صادقة، والعجيب أنّ العمل الصالح مهما كان قليلاً، إلّا أنّ آثاره مهمّة وخطيرة في واقع الإنسان والمجتمع، وأحياناً يثير القليل من العمل الصالح تحوّلاً في وجود الإنسان وحياته، وينقله إلى مراتب سامية وآفاق عالية، فعلىٰ سبيل المثال:

أ) سقي الأغنام

عندما هرب النبي موسى عليه السلام من مصر، خوفاً من جنود فرعون، توجه إلى مدين، فلما وصل إلى باب هذه المدينة، لم تكن له أيّة إمكانات مالية ولا معرفة بهذه المدينة ولم يكن يملك ملجأ يلوذ به ويأمن على حياته ولذلك جلس في ظلّ شجرة ليستريح، وكانت هناك بئر اجتمع حولها الرعاة لسقي أغنامهم، فالتفت موسى عليه السلام إلىٰ أنّ جميع الرعاة الذين كانوا على مقربة من البئر كانوا يسقون أغنامهم من مائها، ثم يتوجهون إلى بيوتهم، ولكن كانت هناك امرأتان تقفان على بُعد ولهما مجموعة صغيرة من الأغنام ولم تقتربا من البئر.

فتوجه إليهما موسى عليه السلام وسألهما: لماذا لا تسقيا أغنامكما؟ قالتا: نحن ننتظر أن يفرغ الرعاة من سقي أغنامهم والذهاب إلى بيوتهم ثمّ نأتي إلى البئر لسقي أغنامنا، لأننا لا نريد الاختلاط بالرجال الأجانب.

فما كان من موسى عليه السلام إلّا أن اقترب من البئر وسقى لهما دلوهما، وبعد أن أدى هذا العمل النافع الصغير وبنيّة صادقة توجه إلى محلّه الأول ليستريح تحت ظلّ

الشجرة، وأمّا المرأتان فقد عادتا إلى بيتهما أسرع من كل مرّة، فسألهما والدهما عن سبب رجوعهما بهذه السرعة، فقصّتا عليه ما حدث لهما عند البئر، فقال والدهما النبي شعيبﷺ: «ولماذا لم تعطياهُ أجره؟ إذهبا إليه وادعواه إلى الدار لنعطيه أجر عمله هذا».

أجل، هكذا أضحى موسىﷺ وبسبب هذا العمل الصالح الصغير، صاحب زوجة وعائلة وحظي بالتتلمذ عند نبي من الأنبياء العظام، وفي الحقيقة أمضى عنده مرحلة الدراسة الجامعية للإعداد لمرحلة النبوة، والتهيؤ لاستلام الرسالة الإلهيّة والمسؤولية السماوية لهداية قومه بني إسرائيل، أجل، فإنّ كل هذه البركات والمواهب الكبيرة حصل عليها موسى بسبب عمل صغير وبنيّة صادقة.

ب) حضانة اليتيم

كان العرب في الجاهلية وخاصة في مكة والمدينة يعزون بتربية ورضاعة أطفالهم إلى أهالي البادية والمرضعات في صحراء الجزيرة العربية ليملكوا الشجاعة والقدرة البدنية ويواجهوا التحديات الصعبة التي يفرضها الواقع والحياة الخشنة بكامل المثابرة والجدية، ولكن لم تكن أية مرضعة مستعدة لحضانة ورضاع محمّد بن عبدالله بن عبدالمطلب، الذي كان يتيماً ومحروماً من نعمة الأب، لأنّ حضانة مثل هذا الطفل الرضيع سوف لا يوفّر للمرضعة أجراً مناسباً على أتعابها. فقد كانت حليمة السعدية من قبيلة بني سعد من جملة المرضعات اللواتي يسكنّ البادية وسألت أخيراً عن مصير يتيم عبدالله، وعندما التفتت إلى عدم قبول المرضعات له وإعراضهنّ عن رضاعه، فإنّها وبدافع من الباعث الإلهي في وجدانها قبلت بإرضاع وحضانة محمد بن عبدالله، وقد اهتمت به وبرعايته كما تهتم بابنها بل أكثر من ذلك، وهذا العمل الصالح لحليمة السعدية أدى إلى خلود اسمها في التاريخ، وفي مقابل

ذلك لا نجد اسماً لأية مرضعة في التاريخ، ولكنّ اسم حليمة السعدية يذكر دائماً في سيرة نبي الإسلامﷺ، ويبقى إلى يوم القيامة، وليس ذلك إلّا بسبب صدور هذا العمل من حليمة السعدية مع نيّتها الخالصة.

مضافاً إلى ذلك فعندما وقعت الحرب بين قبيلة هوازن وبني سعد وقبائل أخرى من جهة وجيش الإسلام من جهة أخرى وكانت النتيجة لصالح جيش الإسلام وانتصر النبي في هذه المعركة، وتمّ أسر الكثير من رجال ونساء قبيلة حليمة السعدية، وفجأة شاهد المسلمون امرأة من هذه القبيلة تتقدم إلى رسول اللهﷺ وبعد أن سلّمت عليه قالت: «أنا يشما بنت حليمة السعدية وأختك من الرضاع!» فلما سمع النبيﷺ بذلك قام من مكانه وفرش لها عباءته أمام المسلمين وأخذ يدها وأجلسها على عباءته ثم سألها عن أحوالها وعمّا تريده منه؟ فقالت يشما: «إنّ أفراد قبيلتي قد أضحوا أسرى عندكم، وقد أسر المسلمون نساءنا ورجالنا فأطلب منك أن تطلق هؤلاء الأسرى».

فتوجه النبي الأكرمﷺ إلى أصحابه وقال: إنّ جميع الأسرى هم ملك لجميع المسلمين وأنا أريد أن أعتق سهمي من الأسرى من أجل اختي يشما».

فقال المسلمون: نحن تبع لك وبدورنا نعتق سهمنا من هؤلاء الأسرى، وبذلك تمّ تحرير جميع أسرى قبيلة بني سعد في تلك الواقعة.

أجل، فإنّ العمل الصالح الذي قامت به حليمة السعدية ليس فقط أدى إلى خلود اسمها في التاريخ بل إنّه أنقذ قبيلتها من ا لأسر ومنحهم حياة جديدة.

ج) ضيافة ليلة

وقد ذكر المؤرخون أنّ امرأة في أيّام حكومة عبيدالله بن زياد في الكوفة وما رافقها من إرهاب وشدّة وإرعاب، قد أجارت عندها سفير الإمام الحسينؑ، مسلم

بن عقيل واستقبلته في بيتها، وهكذا قامت «طوعة» بهذ العمل النافع بنيّة صادقة، في حين أنّ مئات من نساء الأشراف والأثرياء المعروفين فـي الكـوفة واللاتـي كـنّ يتميزن بمواقع في ذلك الوقت، إلّا أنّ التاريخ لم يذكر من هؤلاء النسوة من أهـل الكوفة سوى اسم طوعة، وبعد مضي مئات السنين على هذه الواقعة فإنّ اسمها يذكر في كلّ عام في مجالس ومآتم الإمام الحسينعليه السلام من موقع الفخر والاحترام.

ما تقدّم يمثّل ثلاثة نماذج خلفت آثاراً كبيرة، وأحياناً تتسع نتائج العمل الصالح لتستوعب مسيرة التاريخ البشري برمّتها! وهناك نماذج كثيرة أخـرى لم نـذكرها طمعاً في الاختصار.

النتيجة، أنّ العمل الصالح هو العمل المفيد الذي يعمله الإنسان بنيّة صادقة مهما كان قليلاً وصغيراً، إلّا أنّه من الناحية المعنوية والأخلاقية يختزن كثيراً من القيمة والبركة.

امتداد العمل الصالح:

رأينا فيما تقدّم أنّ دائرة العمل الصالح واسعة جدّاً، ولا تختص بالصلاة والصيام والزيارة وأمثال ذلك، فشق الطرق، التعليم والتربية، تـوفير وسـائل الزواج لجـيل الشبّان، إصلاح ذات البين، السعي لتحرير السجناء من السجن، إعانة المرضى من ذوي الأمراض الصعبة، بناء المساجد والمدارس والحسينيات، توفير فرص العمل للعاطلين، المساهمة في تقوية اقتصاد البـلدان الإسـلامية أو قـطع حـالة التـبعية الاقتصادية للأجانب، كل هذه الأمور إذا كانت مقترنة بنيّة صادقة، فإنّها تعتبر من جملة الأعمال الصالحة.

وقد ورد عن نبي الإسلامصلى الله عليه وآله في بيان سعة دائرة العمل الصالح، أنّه قال:

«الْإِيمـانُ بِضْعَةٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلاهـا شَهـادَةُ أَنْ لا إِلـهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنـاهـا

إمَاطَةُ الْأَذىٰ عَنِ الطَّرِيقِ»[١].

بمعنى أنّك لو رأيت أثناء مرورك في الزقاق أو الشارع، قشرة فاكهة ملقاة على الطريق بحيث يمكنها أن تؤدي إلى انزلاق شخص مار من هناك فيصاب بالضرر من جراء ذلك، وربّما يتسبب ذلك بضربة في رأسه ودماغه، وقمت برفع هذا المانع من وسط الطريق فقد أديت بذلك عملاً صالحاً سوف يكتب في صحيفة أعمالك، وعليه فإنّ الأرضية المناسبة للأعمال الصالحة متوفرة في جميع الأفراد، ولا يتوقف هذا العمل على توفير أدوات خاصّة وإمكانات معينة ليكون هذا العمل منحصراً بطائفة معينة من الناس.

النتيجة، إنّ جميع أفراد البشر معرّضون للسقوط إلى أسفل السافلين، إلّا الأشخاص الذين زرعوا بذور الإيمان في أعماق وجودهم وقلوبهم وسقوا هذه البذور بماء الأعمال الصالحة، وانتفعوا هم والآخرون بثمارها.

سؤال مهم: ما هو مصير أصحاب الاختراعات والاكتشافات الكبيرة والمهمّة في العالم المعاصر الذين أدوا خدمات كبيرة للبشرية؟ فمخترع الدواء لمرض لا علاج له أو كاشف الكهرباء الذي أنار بكشفه هذا جميع العالم، والشخص الذي اخترع الطائرة وساهم في تقليل ساعات السفر إلى مكة المكرمة من ستة أشهر في الماضي إلى ساعات معدودات، وكذلك سائر المخترعين والمكتشفين الذين قدّموا خدمات عظيمة للمجتمع البشري، فما هي مكانتهم عند الله تعالى؟ وهل يثابون على هذه الأعمال؟

الجواب: يجب التحقيق في الدافع والباعث على هذه الاختراعات، فهل هدف

---

١. عوالي اللئالي، ج ١، ص ٤٣١. وكذلك وردت هذه الرواية مع اختلاف طفيف في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب ١٢، ح ٥٨، «الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلّا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان». وقد وردت هذه الرواية بتفاوت طفيف في مسند احمد، ج ٢، ص ٣٧٩.

هؤلاء المخترعين الوصول إلى آفاق الشهرة، أم هدفهم من ذلك كسب المال، أم أنّهم قاموا بهذا العمل بدافع خدمة المجتمع البشري في سبيل الله؟ فإذا كانت نيّتهم طلب الشهرة، فإنّهم قد حصلوا على أجرهم وذاع اسمهم وشهرتهم في الآفاق، وإذا كان هدفهم من ذلك كسب المال، بحيث إنّ صناعة دواء لعلاج مرض معين وانقاذ المريض من الموت يكون حاله حال صناعة قنبلة تقتل الأبرياء والمذنبين على السواء فلا فرق لديه في معطيات ونتائج هذا العمل، فكل هدفه ناظر إلى كسب المال من هذا العمل، فمثل هؤلاء الأشخاص قد حصلوا على أجرة أتعابهم في هذه الدنيا.

هاتان الطائفتان من المخترعين والمكتشفين لا يحق لهما مطالبة الله بشيء لأنّ أعمال هؤلاء لا تكتب في قائمة الأعمال الصالحة، وقد حصلوا على ما يريدون في الدنيا، أمّا الثالثة وهم الذين يهدفون من أعمالهم تقديم خدمة للمجتمع البشري لا من موقع طلب الشهرة، ولا طلب المال، بل في سبيل الله، هؤلاء هم المأجورون عند الله تعالى وسوف ينالون ثوابهم من الله تعالى وإن كنّا لا نعرف مقدار ونوع هذا الثواب، لأنّهم قد قدّموا أعمالاً مفيدة للمجتمع وللآخرين وكانت نيّتهم صادقة وهدفهم خالص، والدليل على ذلك ما ورد في الآيات القرآنية الكريمة، منها: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

فالمخترع أو المكتشف الذي أبدع شيئاً لا من موقع طلب الشهرة ولا من موقع طلب المال، بل كان قصده خدمة المجتمع البشري فإنّه يكون مشمولاً لهذه الآية الشريفة وسوف لا يضيع الله أجره وثوابه في الآخرة.

سؤال: الآية الشريفة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ...﴾. تدلّ على أنّ أعمال الأشخاص الذين لا يملكون الإيمان بالله لا قيمة لها، وعليه فإنّ الآية المذكورة آنفاً خاصّة بالمؤمنين ولا تشمل غيرهم.

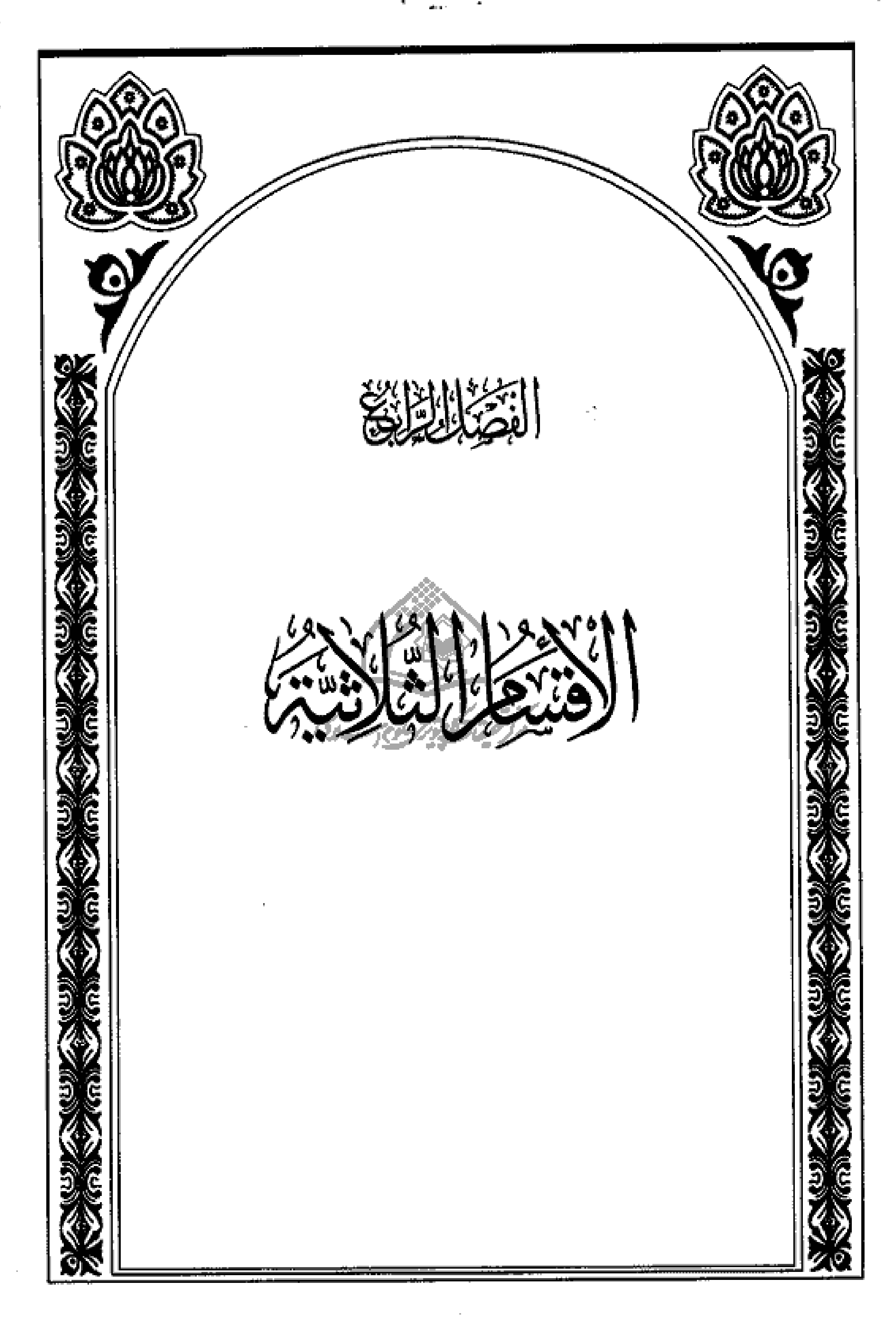
---

١. سورة التوبة، الآية ١٢٠.

الجواب: إنّ الآية الشريفة المذكورة ناظرة إلى الكفّار الذين يتحركون في حياتهم من موقع طلب الشهرة وكسب الثروة، ولا تشمل الأشخاص الذين يهدفون من أعمالهم تقديم خدمة للمجتمع البشري، لا طلب الثروة والشهرة. ومضافاً إلى الآيات القرآنية، فقد ورد في الروايات الإسلامية هذا المفهوم أيضاً بالنسبة للمحسنين من غير المسلمين، وأنّهم سيثابون على أعمالهم يوم القيامة. مثلاً حاتم الطائي الذي كان يساعد الفقراء والمحتاجين كثيراً وقد اشتهر بكرمه وإحسانه في التاريخ البشري، فهو مأجور عند الله.

والخلاصة إنّ العمل الصالح لا يبقى بدون أجر عند الله تعالى، حتى لو كان العامل له من غير المسلمين. وعليه فإنّ تجسيد مضامين هذه الآيات الشريفة في واقع الحياة والمجتمع البشري يستلزم توفر الإيمان القوي والتحرك على مستوى فعل الخير وتقديم الخدمة للآخرين، وهذا الطريق مفتوح أمام الجميع، وإن كان كل فرد يساهم بمقدار ما يملكه من قابلية وملكة، وبمقدار ما يختزنه من إخلاص ويبذله من سعي وجهد.

* * *



الفصل الرابع

الأقسام الثلاثية


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

١

أقسام سورة البلد

تقدّم في البحوث السابقة أنّ الأقسام القرآنية متنوعة من عدّة جهات، منها تنوعها بحسب عدد الأقسام وقد بحثنا فيما تقدّم في الأقسام الأحد عشر، الخماسية، والرباعية، والآن نستعرض الأقسام الثلاثية، وهذه الأقسام وردت في ست سور من سور القرآن الكريم هي: «البلد»، «الصافّات»، «المدّثر»، «التكوير»، «الليل» و«العاديات» ونشرع بتفسير أقسام سورة بلد:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾

لماذا أقسم القرآن بمكّة؟

إنّ أول قسم من أقسام هذه السورة، القسم بمدينة مكّة، و هنا يطرح هذا السؤال: لماذا أقسم الله تعالى بهذه المدينة المقدّسة؟

وقد ذكروا أجوبة متعددة عن هذا السؤال منها:

١. إنّ مدينة مكة تعتبر أقدم موطن للعبادة وتحتضن أقدم معبد عرفته البشرية، وهذا المكان المقدّس كان محلّ عبادة الله منذ زمن آدم، وسيبقى إلى قيام الساعة،

والحقيقة أنّ الإنسان عندما يجلس في زاوية من زوايا المسجد الحرام وينظر إلى الكعبة المشرفة فيمر في ذهنه تاريخ هذا المكان المقدّس، الذي طاف حوله آلاف الأنبياء وأتباعهم، وكذلك نبي الإسلامﷺ والصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء والأئمة الاثني عشر وأصحابهم وأتباعهم المخلصين، والآن يرى نفسه يؤدي مناسك العبادة في محل عبادة أولئك الأنبياء والأولياء ويطوف بالكعبة سبعة أشواط، فعندما يتفكر الإنسان بهذه الحالة الروحية وفي هذه الأجواء الروحانية يجد نفسه يحلق في أجواء معنوية عالية ولا يكاد قلبه يبقى في محله من شدّة البهجة واللذة الروحية، ويشعر بسرور بالغ لا يوصف، أليس من المناسب أن يقسم الله تعالى بهذه المدينة المشرفة؟

٢. وربّما أقسم الله تعالى بهذه المدينة بسبب أهميّة الشخص الذي بنى الكعبة وهو شيخ الأنبياء إبراهيم الخليل، فعظمة البنّاء لهذا المعبد القديم هو السبب في أنّ الله تعالى أقسم بهذا المكان المقدّس.

٣. بما أنّ دحو الأرض بدأ من مدينة مكّة، وبسبب أهميّة هذه الحادثة فإنّ الله تعالى أقسم بهذه المدينة لإثارة الانتباه إلى هذه الخصوصية والامتياز لمدينة مكّة.

سؤال: ما معنى دحو الأرض؟

الجواب: إنّ دحو الأرض في اللغة بمعنى تسطيح الأرض، والمراد من الدحو في هذه الآية أنّ الكرة الأرضية عند بداية خلقها وعندما انفصلت عن سائر الكرات السماوية، بقيت مدّة تهطل عليها الأمطار الكثيرة وتحدث فيها السيول المدمرة، وبعد انتهاء هذه المرحلة وانقطاع الأمطار المنهمرة، فإنّ المياه المتجمعة على الكرة الأرضية غطت جميع أنحاء المعمورة فلم تكن هناك بقعة من اليابسة إلّا وغطتها المياه، وتدريجياً غارت هذه المياه من خلال الثقوب والأخاديد والشقوق المتكونة على قشرة الأرض وبذلك خرجت اليابسة تدريجياً وانحسرت المياه، وأول نقطة

ظهرت من اليابسة من تحت الماء هي مدينة مكّة وخاصة موضع الكعبة[1]، و لهـذا أقسم الله تعالى بهذه المدينة.

٤. أضف إلى ما تقدّم من العوامل الثلاثة هناك عامل رابع قد نستوحيه من آيات هذه السورة نفسها، وذلك أنّ الله تعالى أقسم بمدينة مكة المكرمة بسبب وجود نبي الإسلام فيها، لأنّ العرب يقولون: «شرف المكان بالمكين» إنّ مدينة مكّة بل حتى الكعبة كانت في عصر الجاهلية مليئة بالأصنام وعبّاد الأصنام، وقد امتلأت هـذه الحديقة الغناء بالأشواك والنباتات الضارة، ولكنّ البسـتاني المـقتدر أراد صـياغة شجرة باسقة ومثمرة في هذه الحديقة المليئة بالأشواك والحشائش الضـارة لتـعم خيراتها جميع بقاع العالم وتنتفع منها البشرية إلى يوم القيامة. فكان أن خـلق الله تعالى محمّداً بين هؤلاء الناس الجاهليين ورعاه أحسن رعاية ثم بـعثه نـبيّاً إلى هؤلاء القوم، وبسبب وجوده المبارك في هذه المدينة المقدّسة فإنّ الله أقسم بها.

من هو الأب والابن؟

القسم الثاني والثالث في السورة الشريفة قسم بالأب والابن ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ ولكن ما المقصود بالأب والابن؟

طرح المفسّرون في هذا المورد احتمالات عديدة أيضاً. ونكتفي بالإشارة إلى اثنين منها:

أ) إنّ المراد بالوالد هو النبي إبراهيم عليه السلام، وبالولد النبي اسماعيل عليه السلام. أي أنّ الله تعالى أقسم بأرض مكّة المقدّسة وهي محل سكن نبي الإسلام، وأقسم بإبراهـيم وإسماعيل عليهما السلام اللذين بنيا الكعبة.

---

١. وقعت هذه الحادثة المهمّة في يوم ٢٥ من ذي القعدة. ولهذا جاءت وصية أولياء الدين في التأكيد على صوم هذا اليوم وذكر الله والدعاء بشكل جماعي، والصلاة وقراءة الدعاء المخصوص بهذا اليوم. شرح هذه الأعـمال فـي كتابنا مفاتيح نوين (بالفارسية)، ص ٧٩٣.

ب) المقصود من الوالد والولد جميع الآباء والأبناء، أي القسم بالنبي آدم وذريته على طول المسار التاريخي للبشرية.

الحكمة في الأقسام الثلاثة:

رأينا فيما سبق أنّ انتخاب موضوعات خاصّة للقسم، إنّما هو من أجل تحريك حسّ البحث والفضول في الإنسان لكي يفكر أكثر في ذلك الموضوع ويتأمل في أبعاده وتفاصيله، ومن هنا ينبغي أن نفكّر في مدينة مكّة المكرمة، ولا سيما الكعبة وكذلك نفكر ونتأمل في خلقة الإنسان الذي يمثّل درّة تاج الطبيعة والكائنات.

سؤال: لماذا أقسم الله تعالى بنوع الإنسان؟

الجواب: لأنّه أعجب المخلوقات في عالم الوجود، ولذلك فإنّ الله تعالى بعد خلقه للإنسان فقط بارك نفسه ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[1]، وقد كتب العلماء حول روح وجسم الإنسان مصنفات وكتب كثيرة حتى أنّ أحدهم كتب عن الخلية الحيّة الواحدة في بدن الإنسان عدّة كتب تتضمن ٥٠٠٠ صفحة، ولكن بالرغم من جميع هذه المساعي والجهود المبذولة لمعرفة روح الإنسان وبدنه، فإنّ أحد العلماء كتب كتاباً سماه «الإنسان ذلك المجهول»، وبيّن فيه عجائب خلقة بدن الإنسان ونفسه والتعقيدات والأسرار التي تكتنفها خلقة هذا الموجود العجيب.

إنّ أقرب موجود للإنسان هو نفسه، فلماذا لا يفكّر الإنسان في أسرار وجوده وحياته؟ فعندما تتأمل في خلقة الجنين منذ أن تكونت نطفته في الرحم وإلى وقت ولادته، فسوف ترى حقائق مذهلة وأسراراً عجيبة في خلقة هذا الكائن الصغير، وهكذا يستمر هذا الموجود في حركة الحياة وينتقل من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الصبا والمراهقة، ثم مرحلة الشباب والكهولة والشيخوخة والعودة إلى الضعف

---

١. سورة المؤمنون، الآية ١٤.

والعجز، فكل مرحلة من هذه المراحل تختزن دروساً وعبراً مهمّة يمكن للإنسان استخلاصها من خلال التفكّر والتأمل في حركة الإنسان والحياة.

أمّا القسم الإلهي بالوالد وولده، بهذه الصياغة ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ مع أنّه بالإمكان استخدام مفردات ومصطلحات معدلة لهاتين الكلمتين وبنفس المضمون، فهذا يشير إلى اهتمام القرآن الكريم بمسألة الولادة، ولذلك من المناسب أن نفتح صفحة خاصة لنبحث عن عالم الجنين ولو بشكل مختصر لأنّ مطالعة هذه المرحلة من حياة الإنسان تمثّل فصلاً من دروس التوحيد ومعرفة الله تعالى.

عجائب عالم الجنين!

يقول الله تبارك تعالى في الآية ٦ من سورة الزمر:

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾.

ما المقصود بالظلمات الثلاث؟

إنّ جلّ المفسّرين بل ربّما كلّهم قالوا: إنّ المقصود بالظلمة الأولى «بطن الأم» والظلمة الثانية التي تقع داخل هذه الظلمة هي «الرحم»، والظلمة الثالثة داخل الرحم هي «المشيمة» والمشيمة جلد قوي يغطي الجنين وفي داخله سائل لزج بحيث إنّ الجنين يسبح فيه، لأنّ أعضاء الجنين إلى درجة من اللطافة والليونة بحيث ربّما تصاب بضرر بأدنى احتكاك بين الأعضاء نفسها، ولذلك فالجنين معلّق في ذلك السائل الخاص ويعيش حالة انعدام الوزن، فإذا واجهت الأُم صدمة أو سقطت على الأرض فإنّ ذلك لا يعرّض الجنين للخطر، وقد خلق الله تعالى هذا الجنين في هذه

الظلمات الثلاث من قطرة ماء تسمّىٰ «نطفة» ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

إنّ جميع الرسامين مهما أُتوا من مهارة ودقّة في الإبداع فإنّهم لا يستطيعون رسم لوحة وصورة على الماء، بل ينبغي أن تكون لديهم خشبة أو قطعة من الورق، أو الفلز أو الحجر، أو الخشب وأمثال ذلك، ليرسموا ما يريدون، مضافاً إلى أنّهم يحتاجون إلى النور الكافي، فلا يمكنهم عمل أي شيء فني من الرسم أو النحت في أجواء الظلام الدامس.

ولكنّ الرسام الأعظم ونحّاة عالم الوجود، نحت على قطرة ماء، وبدون الاستفادة من نور بل في ظلام مطلق وظلمات ثلاث، أعظم وأجمل الصور والتماثيل. أجل، لقد نحت أجمل ما في عالم الخلقة على الماء، وكان هذا النحت ثابتاً ودائمياً، ألا يستحق مثل هذا الصانع والخالق أن يقال له تبارك الله؟

لماذا كل هذه الأقسام؟

سؤال: بعد أن تبيّن معنى الأقسام الثلاثة ومصاديقها نشير الآن إلى بعض خفايا وزوايا أهمية مضامين هذه الأقسام، وينبغي أن نرى لأجل أي شيء ومن أجل أي موضوع مهم دعانا الله للتأمل فيه وأقسم به؟

الجواب: إنّ الآية الشريفة التالية تجيب عن هذا السؤال:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾؛ أي، أقسم بمدينة مكّة المكرمة التي جعلها الله مأوى للعالمين ورحمة لعباده، وأقسم بالنبي إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام وأقسم بالنبي آدم عليه السلام وذريته أننا خلقنا الإنسان في حالات التعب والألم والمشقّة في واقع الحياة.

كلمة «كبد» في الأصل تعني مرضاً خاصّاً يصيب الإنسان ثم يسري إلى كبده، ولكن بعد ذلك اطلقت على كل ألمٍ، والمقصود أنّه: أيّها الناس إذا كنتم تتصورون أنّ

الحياة في الدنيا تمرّ بدون تعب ومشقة وألم، فأنتم مخطئون وهذا التصور باطل، فالإنسان يواجه في حركة الحياة مشاكل وتحديات كثيرة، ولذلك لا تجدون في جميع مناطق المعمورة إنساناً يعيش بدون مشكلة وتعب.

يروى أنّ شخصاً في الماضي كان يعيش مرض «الكآبة[1]» المزمنة، ويوماً بعد آخر يسوء حاله أكثر وتتدهور صحته، فقال له طبيب: «إذا رأيت شخصاً يعيش بدون همّ وغم فخذ قميصه والبسه فسوف تعود إليك صحتك وعافيتك».

فانتشر أقرباؤه ورفقاؤه للبحث عن هذا الشخص بهذه المواصفات بين الناس والأرحام والجيران وأهل المدن الأخرى، ولكنّهم كلما تحدّثوا مع شخص وجدوه مبتلى بمشكلة ويعيش في مواجهة مسائل مؤلمة. فاضطروا أخيراً إلى التوجه للمناطق البعيدة والقرى والقصبات النائية واستمروا في البحث ليل نهار عن شخص لا يعيش الهم والمشاكل، ولكنّهم كلما سعوا للعثور على مثل هذا الشخص باءت مساعيهم بالفشل ولم يحصلوا على نتيجة مرجوة وتدريجياً أخذ اليأس يسري في نفوسهم وبانت علائم فقدان الأمل على وجوههم إلى أن وجدوا يوماً شاباً من الرعاة في الصحراء كان غارقاً في جو السرور والفرح وهو يغني ويضرب على عوده، فأشرقت ملامح الأمل في عيونهم واقتربوا منه وسألوه عن وجود مشكلة لديه، فهو لا يملك زوجة ولا أطفال ولا يواجه مشكلة مع الجيران ولا مشكلة إدارية ولا مشكلة مسكن، ولا مشكلة المرض، ولا مشكلة القرض ولا أي مشكلة أخرى، فقالوا: نحن نحتاج لقميصك تعيرنا إيّاه ليلبسه مريض من أرحامنا ليشفى

---

١. إنّ مرض الكآبة مرض صعب ومؤلم، وللأسف انتشر هذا المرض في عصرنا الحالي، وله أسباب وعوامل مختلفة ومتعددة، أهمها فقدان أو ضعف الإيمان. والذي يملك إيماناً قوياً وراسخاً فمن المحال أن يصاب بهذا المرض أو يقتل نفسه وينتحر، وليس هذا مجرّد ادّعاء منّا بل إنّ الآيات القرآنية جاءت مؤيدة لذلك؛ لهذا نقرأ في الآية ٦٤ من سورة يونس: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، وذلك لأنّهم يتسلحون في مواجهة المشاكل والصعاب والابتلاءات بالصبر والحلم، ويعيشون في حال المرض حالات الشكر لله تعالى. وعليه فإنّ أهم علاج ودواء لمرض الكآبة هو تقوية أواصر الإيمان والتوجه إلى الله تعالى.

من مرضه، فقال: للأسف فإنّي لا أملك قميصاً.

وهكذا عندما علم ذلك المريض الكئيب أنّه لا يوجد شخص في الدنيا لا يواجه مشكلة فإنّه تغلب على مرضه، وعندما علم بمشاكل الآخرين نسي مشكلته وكآبته.

وهذه القصة سواءً كانت واقعية أم اسطورة، فإنّها على أيّة حال تكشف عن حقيقة لا تقبل الإنكار وهي التي أشارت إليها الآية الشريفة أنّ جميع أفراد البشر يعيشون الألم والتعب والمشكلات العديدة في واقع الحياة، وأنّ الله تعالى من أجل إلفات نظرنا إلى هذه الحقيقة أقسم بهذه الأقسام الثلاثة.

الحكمة من وجود المشاكل والبلايا:

سؤال: ما هي الحكمة من وجود كل هذه المشاكل والآلام والأتعاب التي يعيشها الإنسان في حركة الحياة الفردية والاجتماعية؟ وماذا تحمل المآسي والآلام كالزلازل والأعاصير كإعصار كاترين وريتا، الأمراض العسيرة العلاج، والصواعق، والحوادث الأخرى التي تصيب الإنسان والمجتمع البشري وتزيد من معاناته وآلامه؟

الجواب: إنّ لهذه البلايا والمشاكل حِكم وفوائد عديدة نشير هنا إلى أهمها:

١. إيقاظ الإنسان من نوم الغفلة

لو لم تكن هذه المشاكل والأزمات فإنّ أغلب الناس يعيشون في دوامة من الغفلة واللامبالاة، ويتركون الله والدين والعبادة في زاوية النسيان، ومن هذه الجهة سوف يتعرضون لأخطار مهلكة[1]، ونرى أنّ البشر بالرغم من وجود هذه المشاكل

---

١. يقول الله تعالى في الآية ٤١ من سورة الروم: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ
←

والمآزق فالكثير منهم يعيش الغفلة واللامبالاة أيضاً، فلو لم تكن هذه المشاكل والآلام فكيف يكون حال البشر حينئذٍ من حيث سيطرة الغفلة على وعيه ومشاعره وفكره؟

إنّ الإنسان عندما يرى من بعيد المعيشة الرغيدة لبعض الناس فيما ينفتحون عليه من رحاب الدنيا والنعيم، فيتصور أنّ هؤلاء غارقون في الرفاه والنعمة والراحة، ولا يواجهون أيّة مشكلة، ولكن عندما يدخل إلى عمق حياتهم وفي تفاصيلها الدقيقة يجدهم يواجهون مشاكل عديدة بحيث إنّه لا يجد في نفسه استعداداً ليعيش مثلهم في رفاهية ونعمة مع تلك المشاكل والأتعاب التي يواجهونها في حركة الحياة.

ومن المناسب أن نستعرض هذه الحكاية:

يحكى أنّ رجلاً فقيراً كان يعيش إلى جوار شخص ثري، يملك جميع وسائل الرفاهية والنعمة والحياة السعيدة، فعندما كان هذا الشخص الفقير يرى جاره يعيش حياة مترفة ولم يكن يعلم بمشكلاته، كان يتحسر على تلك الحياة وذلك النعيم، إلى أنّ صادف أن دعاه الثري في مناسبة إلى ضيافته ليتناول العشاء عنده، وكان هذا الفقير ينتظر مثل هذه الدعوة الحاسمة وكان يحسب لها الساعات والدقائق، إلى أن حان الوقت فطرق باب جاره الثري ففتحت الباب ودخل إلى باحة الدار فتعجب من جمال الحديقة الكبيرة هناك وفيها أنواع الأشجار المثمرة والورود الزاهرة وكأنّها الجنّة بنعيمها وصفائها، وكان ينظر بحسرة إلى كل هذه الأزهار والأشجار والسيارات الفخمة الواقفة في الباحة الواسعة، ثم إنّه توجه إلى غرفة الطعام فرأى ما لذ وطاب من أنواع الأطعمة اللذيذة والموائد المصفوفة والكراسي الثمينة والصالة

← بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

إنّ مثل هذه المشاكل البلايا تعطف نظر الإنسان إلى الله تعالى، وتوقظه من نوم الغفلة، فهي في الواقع ليست ببلايا بل رحمة ونعمة من الله تعالى للإنسان، كما أنّ الدواء مرّ في الظاهر ولكنه في الحقيقة عامل شفاء المريض وسلامته.

الكبيرة وما فيها من آثاث فخم وأنيق، كان كل ذلك مهيأ ومرتباً لقدوم الضيوف المحترمين، وهكذا شرع الضيوف الكثيرون بتناول الطعام وكان صاحب الدار جالساً مع الضيوف، فأمر بإتيانه بطعامه الخاص، فتعجب الفقير عندما سمع ذلك وأخذته حالة من الحيرة والذهول إذ رأىٰ صاحب الدار لا يتناول من هذه الأطعمة المتنوعة اللذيذة، فربّما كان هناك ما هو أفضل منها وألذ يختص به صاحب الدار، وفجأة شاهد الخادم يحمل بيده طبقاً فيه قطعة من الخبز اليابس ووضعه أمام صاحب الدار، عندما دقق الفقير النظر إلى ذلك الصحن وفرك عينيه ليتأكد أنّه يرى الحقيقة بدون لبس وغموض، نعم فهذا الثري كان مصاباً بمرض السكر وأوصاه الطبيب بالامتناع من تناول جميع الأغذية اللذيذة والمتنوعة، فكان نصيبه من المائدة اللذيذة النظر والتحسر فقط والقناعة بتلك القطعة من الخبر اليابس، وقبل أن ينتهي من تناول هذا الرغيف حان وقت تزريق أبرة «الأنسولين» له، فجاءوا به إلى غرفة أخرى لتزريقه، فعندما رأى ذلك الفقير ما يتحمله هذا الثري من معاناة وألم ومرض شكر الله تعالى على نعمة الصحة والسلامة التي يعيشها هو، ومنذ ذلك الحين لم يتحسر على معيشة جاره ورفاه حاله، لأنّه رأى أنّه غير مستعد لأن يفقد سلامته وصحته يوماً واحداً في مقابل كل ذلك النعيم والترف.

النتيجة أنّ الحياة لا تخلو من مشاكل وأتعاب ومعاناة ولا ينبغي أن يطلب الإنسان حياة فارغة من المشاكل وخالية من المعاناة بل ينبغي عليه قبول هذه الحقيقة، وهي ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ ولابدّ له من توفيق حالته وتطبيع نفسه مع تلك المشكلات والتواصل مع الظروف الصعبة التي يفرضها الواقع ويتعلم كيفية مواجهتها والتغلب عليها.

ويعتبر «التهامي» من شعراء العرب المبدعين وقد أورد العلّامة الأميني(رحمه الله) من أشعاره في كتاب «شهداء الفضيلة» وهذا الشاعر المبدع والمقتدر كان له ولد يحبّه

كثيراً ولكنّ هذا الولد فارق الحياة في شبابه فرثاه التهامي بقصيدة من أجود ما قيل في الرثاء، ومطلعها:

حكم المنية في البرية جاري ما هذه الدنيا بدار قرار
طبعت على كدر وأنت تريدها صفواً على الأقدار والأقذار...

فالإنسان الذي يبحث في الدنيا عن حياة فارغة من الهموم وبعيدة عن حالات التعب والمشقّة، فحاله حال الإنسان الذي قذف بنفسه في المسبح وأخذ يبحث عن قبس من نار تحت الماء!

إنّ هذا الشاعر الفذ وجد هذه الحقيقة التي أشارت إليها الآية الشريفة بكل وجوده وفي عمق روحه وأنشدها وصاغها في قوالب شعرية.

النتيجة، أنّ هذه الحياة مقترنة بالمشاكل وأنواع الصعوبات والمصائب، ولا ينبغي للإنسان أن يطلب حياة خالية من الصعوبات وبعيدة عن أجواء المشاكل والمصائب، بل ينبغي مواجهة هذه المشاكل والتعاطي مع الأزمات والصعوبات ومعرفة كيفية التغلب عليها وتجاوزها، فالمشكلات والمعضلات تمنح الإنسان رؤية عميقة وتوقظه من نوم الغفلة.

٢. تقوية جسم الإنسان وروحه

إنّ الأشخاص الذين يتحركون في حياتهم لطلب الراحة واللذة لا يحصلون على شيء ولا يصلون إلى مرتبة متفوقة لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ولكنّ الأشخاص الذين عجنتهم المشاكل وطحنتهم المصاعب فإنّهم يعيشون القوة في الصبر والنباهة في الفكر والعزيمة في الإرادة، وكما يقول أميرالمؤمنين عليه السلام: «أَلاَ وَ إِنَّ اَلشَّجَرَةَ اَلْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً، وَ اَلرَّوَائِعَ اَلْخَضِرَةَ أَرَقُّ جُلُوداً، وَ اَلنَّبَاتَاتِ اَلْبَدَوِيَّةَ أَقْوَى وُقُوداً وَ أَبْطَأُ خُمُوداً»[1].

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٤٥.

٣. ما يصنعه الإنسان من المشكلات؟

إنّ الكثير من المشكلات والأزمات التي نواجهها ونعيشها في حياتنا الفردية والاجتماعية هي من افرازات أعمالنا ومن نتائج تصرفاتنا الخاطئة، والقرآن الكريم في الآية ٧٩ من سورة النساء يقول:

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾.

وبما أنّ الله تعالى هيأ الأرضية المناسبة ليتحرك الإنسان في خط الخير والعمل الصالح والانفتاح على واقع السعادة، فمن هذه الجهة تنسب هذه الحسنات والخيرات إلى الله تعالى، وبما أنّ المشاكل والصعوبات تعتبر نتيجة لسوء اختيارنا وسوء تعاملنا مع الواقع والحياة، ولذلك فإنّها تنسب إلينا من هذه الجهة، مثلاً الشخص الذي يتحرك على مستوى العمل والكسب بدون مشورة من أحد وبدون دراسة واعية لتفاصيل الموضوع، فبعد مدّة وبسبب عدم خبرته في هذا العمل قد يواجه مشاكل عديدة وقد يضطر إلى الإعراض عنه بعد الإفلاس والفشل، فربّما يعترض هذا الإنسان على سوء حظه وعدم توفيقه في الحياة والمعيشة، ولكنّ مشكلة هذا الشخص ناشئة من سوء تدبيره وخطأ تفكيره ولا ينبغي أن يلوم أحداً سوى نفسه.

إنّ أحد البلايا التي تصيب المجتمعات البشرية، ولا سيما في المناطق التي تقع في خط الزلازل، يتمثّل في المشاكل والمصائب الناشئة من الزلزلة فيما تخلّفه من خسائر في الأرواح والأموال والممتلكات، فزلزلة واحدة وقعت في مدينة بم في ايران قبل عدّة سنوات ذهب ضحيتها ٤٠ ألف شخص ولحدّ الآن وبعد مرور عدّة سنوات فإنّ آثار تلك الزلزلة لا زالت مشهودة في تلك المنطقة، ومثل هذه الزلزلة وربّما أشدّ قوة منها وقعت في بلاد اليابان ولكن الخسائر في الأرواح كانت لا تتجاوز عدد الأصابع، وذلك أنّ اليابانيين أخذوا العدّة وأخذوا يبنون عماراتهم

وبيوتهم بشكل مقاوم للزلزلة، ولكننا في بلدنا، ومع كثرة المؤتمرات وما ينفق فيها من أموال غير ضرورية وكثرة أسفار المسؤولين إلى الخارج، إلّا أننا لم نفكر في إنفاق وصرف بعض هذه الأموال لتقوية المباني والبيوت في ايران، ومن الطبيعي أن نشاهد كل هذه الخسائر في الأرواح والممتلكات بحدوث زلزلة هنا وهناك. ويقال إنّ زلزلة ستصيب طهران قريباً. فلو وقعت مثل هذه الزلزلة لا سمح الله فماذا ستخلّف من خسائر عظيمة وأضرار فادحة؟

النتيجة، أنّ بعض البلايا والمشاكل يمكن للإنسان تفاديها وتجاوزها، ولكن الإنسان ربّما يقع في الكثير من المشاكل والصعوبات بسوء تدبيره وضيق أُفقه.

٤. نتائج الذنوب

إنّ القرآن الكريم يؤكد هذه الحقيقة، وكذلك ما تفيده معطيات الحوادث التاريخية والتجارب الخارجية، وهي أنّ بعض المشاكل والبلايا التي يواجهها الإنسان في حياته هي نتيجة الذنوب والمعاصي، التي يقيرفها الإنسان في حركة الحياة والواقع، ونستعرض هنا عدّة موارد من الآيات القرآنية الشريفة التي تشير إلى هذه الحقيقة الحاسمة:

أ) يقول القرآن الكريم في الآية ٣٠ من سورة الشورى:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾.

وطبقاً لهذه الآية الشريفة فإنّ الله تعالى يسمح لبعض نتائج الذنوب والمعاصي أن تصيبنا في هذه الدنيا كعقوبة على بعض ما اجترحته أيدينا من سيئات وآثام لا جميعها.

ب) ويقول في الآية ٣٦ من سورة الروم أيضاً:

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

فعندما تقع حادثة معينة في حياة الإنسان، ينبغي عليه أن يعود إلى الماضي

ويفكّر في أعماله وتصرفاته ويدرسها من موقع العمق ويبحث في تفاصيلها وأبعادها، فسيجد أنّ هذه الحادثة وقعت نتيجة ارتكابه لعمل خاطيء وسلوك منحرف، وبالتالي كانت هذه الواقعة والمصيبة نتيجة لما قدمت يداه.

ج) ويقول تعالى في الآية ٤٩ من سورة المائدة المباركة:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

إنّ هذه العقوبات مترتبة على ما ارتكبه الإنسان من أخطاء وذنوب، وأحياناً تكون بصورة بلايا طبيعية، وأحياناً أخرى بشكل سلب التوفيق في حركة المعيشة والحياة، وثالثة تتجلى في حالة من قساوة القلب، وهناك أشكال أخرى من هذه العقوبات، وقد رأيت بعض الحجاج، الذين جاءوا إلى بيت الله الحرام لأول مرّة، إلّا أنّهم لم يشعروا بلذة روحية وبارتياح نفسي اطلاقاً، فهذا السفر المعنوي لم يؤثر فيهم أدنى تأثير في عملية التغيير في المحتوى الداخلي وفيما يخلّفه من معطيات إيجابية وبركات معنوية على روح الإنسان وقلبه، لماذا؟ لأنّ هؤلاء كانوا يعيشون حالة من قساوة القلب لفرط الذنوب التي اجترحوها فلم يشعروا بتغيير روحي ومعنوي في عمق وجودهم ولم ينتفعوا بهذه العبادة المهمّة.

٥. العودة إلى الله

إنّ الله تعالى أحياناً يصيب عباده بالبلايا والمصائب من موقع شمول رحمته ولطفه بهم ولينيبوا إليه ويتضرعوا إليه، ونقرأ هذه الحقيقة في الآية ٩٤ من سورة الأعراف:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾.

وهذه الحقيقة هي ما يعبر عنها علماء الكلام والعقائد بقاعدة اللطف، أي أنّ الله تعالى ومن أجل هداية الإنسان وتحريكه في خط الايمان والعمل الصالح وسلوك الصراط المستقيم يهيىء المقدمات لهذا السلوك المعنوي، فيما يقرره من بلايا تصيب هذا الإنسان الحائر في أجواء الغفلة والمادة.

وقد ورد في الروايات الإسلامية أنّ الناس قُبيل ظهور الإمام صاحب الزمان (عجّل الله تعالى فرجه الشريف) سيبتلون بمشاكل عظيمة وبلايا فادحة ومؤلمة بحيث إنّهم يعيشون اليأس وانقطاع الأمل من كل شيء[1]. حتى ينتبه الناس إلى أنّ عالم الأسباب عالم صغير وتافه ويلتجأوا إلى مسبب الأسباب، فلو أنّه أراد تأديب أقوى قوة عاتية في هذا العالم فإنّها برغم تقدمها الصناعي والعلمي وتطورها في مجالات أخرى، فإنّها ستكون عاجزة عن مواجهة إعصار كاترينا وريتا، وتقف عاجزة تماماً أمام هذا الإعصار كإنسان ما قبل التاريخ.

أجل، إنّ الله تعالى قد يبتلي البشر بمثل هذه البلايا ليعودوا إلى رشدهم وينيبوا إليه ويتسلحوا بسلاح الايمان والتقوى والتوكّل.

٦. البلايا الامتحانية

إنّ الإنسان في حالاته العادية ربّما يدعي ادعاءات كثيرة جزافاً، على سبيل المثال يقول: إذا حدثت الحرب فسوف أبذل نفسي ومالي، ولكن عندما وقعت حرب الثمان سنوات فإنّها ميزت بين الشبّان المخلصين والمضحين وبين هؤلاء المدعين الفارغين، فالأشخاص الذين لم يستطيعوا الحضور في ساحات القتال في جبهات الحرب، فإنّهم بذلوا من أموالهم وإمكاناتهم، وكان هناك مدّعون لم يتحركوا في خط الجهاد والبذل والتضحية اطلاقاً، وفضلوا البقاء في أجواء الضلالة وحبّ

---

١. أصول الكافي، ج ١، كتاب الحجّة، باب التمحيص والامتحان، ح ٣ و ٦.

الدنيا والأنانية المقيتة.

وهذه الحقيقة نستوحيها من الآية الشريفة ١٥٥ من سورة البقرة حيث تقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.

أجل، فإنّ إحدى فوائد وأسباب البلايا والمصاعب التي يواجهها الإنسان في حياته هي غربلة الأفراد وتمحيص الإنسان في مسيرة الحياة من خلال ما يواجهه من تحديات وظروف صعبة.

٧. المشاكل الظاهرية والنعمة الواقعية

وبعض المشكلات ربّما تكون في الظاهر بلاءً ومصيبة، إلّا أنّها في الواقع نعمة ورحمة، ولكن الإنسان وبسبب سوء تفكيره وضيق أُفقه لا يرى هذه النعمة نعمة بل يراها نقمة، كما هو حال الطفل الذي تفطمه أُمه عن الرضاع، فاللبن للطفل الرضيع يمثّل كل شيء له فهو الغذاء والدواء والماء، وكذلك يستقي بواسطته العواطف والمشاعر اللطيفة من أمّه، الخلاصة أنّ اللبن يمثّل الغذاء المادي والمعنوي للطفل، ولكنّ هذه الأم تمنعه من هذا اللبن بعد مدّة ويساعدها في ذلك أبوه وأحياناً تضع الأم مادة مرّة على حلمة ثديها حتى يمتنع الطفل من الرضاع ويترك لبنها، فهذا الطفل الرضيع لو كان قادراً على التكلّم والافصاح عن رغبته لقال: أيّتها الأم القاسية والعديمة الرحمة! لماذا تحرمينني من اللبن الذي يمثّل جميع حياتي ووجودي؟ ولكنّه لا يعلم أنّ عمل الأم والأب في منعه عن اللبن يصب في صالحه، لأنّه لولا هذا المنع لما تجاوز هذا الطفل مرحلة الرضاع ولما تسنى له السير في خط التكامل، وعليه فإنّ هذا العمل يمثّل نعمة للطفل وإن كانت في ظاهرها تعتبر مشكلة كبيرة له.

ويحدثنا القرآن الكريم في الآية ٢١٦ من سورة البقرة عن هذه الحقيقة ويقول:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ينبغي علينا أن نسأل الله تعالى أن يمنحنا القدرة لتشخيص المصاعب من المواهب وتمييز النقم من النعم.

* * *







أقسام سورة الصافّات

السورة الثانية التي تتضمن أقسام ثلاثية هي سورة الصافّات، يقول تعالى:

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾﴾

فوارق السور المكّية والمدنية:

تعتبر سورة الصافّات من السور المكيّة، التي نزلت على النبي الأكرم ﷺ في مكّة، أمّا السور التي نزلت على النبي في المدينة فتسمّى السور المدنية، وأكثر من سبعين سورة من سور القرآن الكريم مكية والباقي مدنية، ونشير هنا إلى فارقين اثنين بين السور المكية والمدنية:

١. الفارق في المحتوى

إنّ السورة المكّية تبحث غالباً في قضايا المبدأ، المعاد، التوحيد، معرفة الله، صفات الله، القيامة، الجنّة، النار، عالم البرزخ وأمثال ذلك. وبعبارة أخرى أنّها تبحث

القضايا العقائدية للمسلمين، وهذا المنهج تقتضيه الحكمة وقاعدة اللطف لأنّ مرحلة النبوة في مكّة كانت بمثابة مرحلة بناء الأسس العقائدية وتقوية البنى التحتية في عقيدة المسلم، ومن هذه الجهة وكما صرحت به الروايات الشريفة، كان النبي الأكرمﷺ ولمدّة عشر سنوات في مكّة يهتم بإبلاغ أصل الرسالة السماوية الذي يتمحور حول شعار لا إله إلّا الله، وتحمل جميع صنوف الأذى والحرمان والمحاصرة والتهم وسائر المشاكل الأخرى من أجل تجسيد هذا الشعار الأساسي في واقع الحياة والإنسان.

أمّا السور المدنية فإنّها لا تتحرك بهذا الاتجاه، وليست ناظرة لهذا الهدف بل ناظرة في الغالب إلىٰ المسائل الاجتماعية والأخلاقية، الأحكام، الآداب، الحرب والصلح، والمسائل المتعلقة بفروع الدين أو بالحكومة الإسلامية ومقتضياتها وما تثيره من مسائل وتقتضيه من أحكام.

٢. الفارق في الشكل والصياغة

إنّ سياق السور المكّية وصياغة آياتها زاخرة بالحيوية مع أنّها قصيرة، أي أنّ الآيات المكيّة في هيئتها وسياقها البلاغي ذات لحن شديد ومقرع، خلافاً للسور المدنية التي تكون آياتها طويلة وذات سياق ملائم وليّن وهادىء، وهذا أحد جوانب فصاحة القرآن وبلاغته، إنّ الله تعالى ينزل الآيات الكريمة بحسب تناسب الأوضاع والظروف في الواقع الخارجي والاجتماعي، ففي مكّة كانت المواجهة حاسمة بين نبي الإسلامﷺ والمشركين، ولهذا جاءت الآيات قصيرة وحاسمة وشديدة اللهجة، ولكن في المدينة حيث كان النبي الأكرمﷺ يتواصل في حركة الحياة مع المسلمين ويعيش بعيداً عن أجواء الشرك والكفر، فإنّ سياق الآيات تغيّر وانعطف نحو الليونة والهدوء ونزلت الآيات طويلة نسبياً، ومن أجل إثبات هذا

الموضوع نجري مقارنة بين سورة الصافات التي تعتبر من السور المكّية مع سورة البقرة وهي من السور المدنية.

إنّ سورة الصافّات وردت في ١٨٢ آية، ولا تشغل سوى سبع صفحات ولكن سورة البقرة التي تتضمن ٢٨٦ آية تشغل ٤٨ صفحة من القرآن، أي أنّ عدد آيات سورة البقرة يبلغ ضعفي عدد آيات الصافات، ولكنّ عدد صفحات هذه السورة المدنية يتجاوز سبعة أضعاف سورة الصافات، وهذا يشير إلى أنّ آيات سورة البقرة أطول نسبياً من سورة الصافات، وهكذا الحال في سائر السور المدنية.

النتيجة أنّ السور المكّية تتحدث حول قضايا المبدأ والمعاد، أمّا السور المدنية فتهتم بطرح مسائل أخرى، مضافاً إلى أنّ آيات السور المكّية قصيرة وحاسمة، وأمّا آيات السور المدنية فطويلة وهادئة.

التفاسير الثلاثة للأقسام الثلاثة:

وقبل استعراض التفاسير الثلاثة لهذه الأقسام نجد من الضروري بيان معنى ثلاث مفردات من هذه الأقسام الثلاثة:

١. «الصافّات» وتعني هذه الكلمة الأشخاص الذين يقفون صفاً طويلاً، و«صفاً» بمعنى الصفوف المنظمة.

٢. «زاجرات» تطلق على الأشخاص الذين يتصدون للمفاسد الاجتماعية ويواجهون أشكال الانحراف عن القيم الأخلاقية.

٣. «التاليات» وهنّ الكاهنات اللاتي يذكرن الله باستمرار ويسبّحن بحمده.

التفسير الأوّل: الملائكة

وهذا التفسير هو قول أكثر المفسرين، ففي هذه الآيات أقسم الله تعالى بثلاث

طوائف مختلفة من الملائكة:

١. الملائكة الذين يقفون صفاً طويلاً وفي صفوف منظمة استعداداً لأداء التكاليف الإلهيّة، لأنّ الله تعالى خلق عدداً كبيراً من الملائكة وينقسمون إلى طوائف متعددة، كل طائفة منها تتولى مهمّة خاصّة في إدارة عالم الوجود.

سؤال: أليس الله تعالى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، كما تصرح به الآيات الشريفة: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1] إذن فما الحاجة لأنواع الملائكة الذين يأخذون على عاتقهم تدبير الأمور؟

الجواب: إنّ أي عمل مهما عظم فإنّه بالنسبة لقدرة الله تعالى لا يساوي شيئاً، فالله تعالى كل شيء أمامه سهل يسير، ولكن ومن أجل إفهامنا بعظمته وكبريائه، فإنّه خلق عالم الأسباب فلا يقع حادث إلّا من خلال آلية هذه الأسباب، فالله تعالى يستطيع أن يجعل من النطفة جنيناً كاملاً فور دخولها رحم الأُم ويولد هذا الجنين بلحظات، ولكنّه تعالى اختار لتكوين هذا الجنين مراحل مختلفة وتدريجية، ليكشف للإنسان عن عظمة الخلقة وليتعرف الإنسان على كيفية ولادة الطفل ويذعن لعظمة الخالق جلّ وعلا، ومن هذا المنطلق خلق الله تعالى أعداداً هائلة من الملائكة ليتفرغ بعضهم لعبادة الله، فقد ورد أنّ بعض هؤلاء الملائكة منذ خلقهم إلى يوم القيامة يعيشون حالة السجود فقط، فجميع هذه المدّة الطويلة يقضونها بسجدة واحدة، وبعضهم يعيشون حالة الركوع طيلة عمرهم منذ أول الخلقة إلى النهاية، والخلاصة أنّ بعض الملائكة يتعاطون العبادة بأشكال مختلفة كيما يفهم الإنسان هذه الحقيقة ولا يغتر بعبادته وصلاته الناقصة والمحدودة، ولا يتصور أنّ الله تعالى يحتاج لعبادته، فإنّ الله تعالى لا يحتاج لعبادة الملائكة، فبطريق أولى لا يحتاج لعبادة البشر، ولكن العبادة من أجل تربية الإنسان وتحريكه في خط العبودية والطاعة،

---

١. ورد مضمون هذه الآية في آيات متعددة ولكن الآية المذكورة هي الآية ٨٢ من سورة يس.

وبعض آخر من الملائكة هم «المدبرات» وهم الذين يقومون بتدبير عالم الخلقة، وطائفة ثالثة هم المأمورون بإبلاغ الوحي الإلهي للأنبياء والمرسلين، وطائفة أخرى يقفون صفاً على استعداد للقيام بتنفيذ الأوامر الإلهيّة.

أجل، فإنّ الملائكة المأمورين بالوقوف صفاً انتظاراً لامتثال الأمر الإلهي وتنفيذه، يستحقون أن يقسم الله تعالى بهم.

٢. الملائكة التي تمنع الإنسان من الوقوع في وادي الخطيئة والانزلاق في متاهات الضلالة، فهؤلاء يحفظون الإنسان ويراقبونه في أفعاله وسلوكياته، وقد يستوحى من آيات القرآن الكريم وجود ملائكة كثيرين يتولون مراقبة المؤمنين والصالحين ويحفظونهم من حالات الجنوح والسقوط في مهاوي الخطيئة، وهذا الموضوع قد يكون مهمّاً في حالات تعرض الإنسان لوساوس الشيطان، أي أنّ الله تعالى كما أنّه قضى على هذا الإنسان أن يتعرض لوساوس الشيطان، فإنّه من جهة أخرى وهب له من يحفظه من هذه الوساوس وهم الملائكة فيما تلهمه من أفكار خيرة ودوافع صالحة، والملفت أنّ موارد استعمال الملائكة في القرآن الكريم تساوي في عددها استعمال كلمة شيطان، وهذه الملاحظة تشير إلى أنّ الآيات الكريمة تخضع لحسابات دقيقة ورموز عميقة، وبالإمكان الكشف عن حقائق جديدة من خلال استخدام عنصر الإحصاء والحساب واستخدام الأرقام والأعداد والتوغل في مضامين هذه الآيات الشريفة، ونكتفي هنا بالإشارة إلى بعض الآيات التي تدلّ على مهمّة الملائكة في حفظ وتأييد وتقوية المؤمنين في حركة الحياة.

الف) يقول تعالى في الآية ٣٠ من سورة فصّلت:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

أجل، فإنّ الملائكة تنزل على المؤمنين الذين يتحركون في خط الاستقامة

والثبات والمسؤولية ويمدون لهم يد العون والتدبير، فالمؤمنون وإن كانوا لا يرون الملائكة ولكنّهم يدركون مسألة التسديد الإلهي الغيبي، وهذه الآية الشريفة تدلّ على أنّ مجموعة من الملائكة مأمورون بتأييد ونصرة المؤمنين الذين يملكون خصلتين: الأولى: أنّهم يؤمنون بوعد الله تعالى في نصرتهم، والأخرى أنّهم يتحركون في خطّ الاستقامة والمسؤولية ونشر الرسالة الإلهيّة .

ب) ونقرأ في الآية ٥ من سورة الشورى:

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وأحد افتخارات المؤمنين أنّ الملائكة يستغفرون لهم، فطبقاً للآية المذكورة فإنّ تسديد الملائكة ومعونتهم للمؤمنين من خلال الاستغفار لهم يشمل حال المؤمنين، بمعنى أنّ الملائكة باستغفارهم للمؤمنين يدرؤون العذاب عن هؤلاء الأفراد.

ج) وترسم الآية ١١ من سورة الرعد صورة رائعة للملائكة الذين يقفون صفوفاً بين يدي الإنسان المؤمن:

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾.

فهؤلاء الملائكة مأمورون بالمحافظة المستمرة على الإنسان فيما يواجهه من أخطار وتحديات، كما أنّ الأطفال الصغار والرضع يواجهون في حالات الفطم عن اللبن أخطاراً متعددة تهدد صحتهم وسلامتهم، فكيف بإمكانهم العبور من هذه المآزق والصعوبات بسلامة؟ فلولا قوى الغيب التي تتكفّل مراقبة هؤلاء الأفراد والمحافظة عليهم فإنّه قلّما ينجو الإنسان بنفسه من هذه الأخطار المختلفة.

والخلاصة أنّ الملائكة يتولون مهمّة المحافظة على أفراد البشر ودفع الأخطار والبلايا عن المؤمنين، وقد أقسم الله تعالى بهذه الطائفة من الملائكة.

٣. الملائكة الحاملون للوحي، والذين يبلغون رسالة الله للأنبياء الإلهيين،

ويعيشون دوماً حالة الذكر والتسبيح والعبادة.

النتيجة، طبقاً للتفسير الأول يكون المراد من «الصافات» و «الزاجرات» و«التاليات» ثلاث طوائف من الملائكة، كل طائفة تتولى مهمّة خاصة، وبسبب أهميّة المسؤولية الملقاة على عاتقهم فإنّ الله تعالى أقسم بهذه الطوائف الثلاث من الملائكة.

التفسير الثاني: المجاهدون المسلمون

وذهب بعض المفسرين إلى أنّ هذه الأقسام الثلاثة ناظرة إلى المجاهدين، في ميادين القتال والجهاد.

«الصافات» هم المجاهدون الذين ينتظمون في صفوف منظمة ويتجهون إلى ساحات القتال ويواجهون الأعداء وقوى الشر والظلام بانتظام ودقّة.

و«الزاجرات» إشارة إلى المجاهدين الذين يتجاوزون الموانع في طريقهم ويصلون إلى الخطوط الأمامية من جبهات القتال مع أعداء الإسلام.

و«التاليات» تحكي عن المجاهدين الذين يذكرون الله تعالى وهم في ميدان القتال وفي حال الجهاد والقتال ويرون أنّ النصر من الله تعالى، وشعارهم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[1].

وهكذا نرى أنّ الله تعالى أقسم بالمجاهدين الذين يملكون هذه الصفات والخصوصيات المذكورة، وقد كنّا نشاهد طيلة ٨ سنوات من الدفاع المقدّس والحرب المفروضة، هذه الصفات الثلاث المذكورة في ملامح وحالات المجاهدين الشجعان الذين لم يكن هدفهم من جهاد الأعداء سوى نيل رضا الله تعالى، هؤلاء الشجعان الذين لا يوجد شيء في قلوبهم سوى الله تعالى، المجاهدون الذين كانوا يقفون صفاً متراصفاً ومتماسكاً أمام العدو الذي يفوقهم في العدّة والعدد ويتحركون

---

١. سورة آل عمران، الآية ١٢٦.

بأقدام ثابتة وصفوف منظمة باتجاه جبهات القتال، وكانوا يتحركون في الخطوط الأمامية في عملية إزالة الألغام والحواجز التي نصبها العدو ليمنعهم من التقدم والنصر، فكانوا يغيرون على الأعداء ببسالة وهم يذكرون الله تعالى ويتوسلون بأولياء الله للحصول على ﴿إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾[1].

إنّ حالات المجاهدين في ليالي الجمعة في جبهات القتال من مناجاتهم في ليالي الجمعة، زيارة عاشوراء، الدعاء، التوسل، صلاة الليل، وحتى أشكال الملاطفة والنكات والفكاهة في ليلة الهجوم على العدو والحال أنّ الموت يتربص بهم على بعد خطوات معدودة، تعكس هذه الحقيقة بجلاء ولا نجد تفسيراً لهذه الحالات سوى العشق لله تعالى والشوق للوصول إلى المحبوب.

ومهما يكن من أمر فطبقاً للتفسير الثاني فإنّ المراد من الطوائف الثلاث في الآيات المذكورة هم المجاهدون في سبيل الله.

التفسير الثالث: العلماء والمفكّرون

وطائفة أخرى من المفسّرين، ذهبوا إلى أنّ الأقسام المذكورة ناظرة إلى العلماء والمفكّرين، فقد أقسم الله تعالى بهؤلاء العلماء وهم في حالات وصفوف مختلفة لتقديم الخدمة الفكرية والثقافية للمجتمع البشري، فأقسم الله تعالى بالعلماء الذين يطردون الشياطين من المجتمع البشري، ويعملون على القضاء على مؤامراتهم وإفشال مخططاتهم وإبطال وساوسهم، وبذلك يخلّصون الناس من شرّهم ويحفظونهم من مؤامراتهم، فالآية تقسم بالعلماء الذين يذكرون الله دائماً ويسبحونه.

إنّ الرسالة الالهيّة التي قد نستوحيها من هذه الآيات الثلاث: وطبقاً للتفسير الثالث، هي أنّ العالِم لا ينبغي له أن يقف مكتوف الأيدي أمام مؤامرات قوى الظلام

---

١. سورة التوبة، الآية ٥٢.

والانحراف، بل يجب أن يصدح بكلمة الحق ويعلّم الناس الفكرة الصائبة والعقيدة الصحيحة والسيرة الحسنة ويقودهم في خط الهداية والصلاح.

يجب عليه أن يستخدم سلاح القلم ويجيب عن شبهات المغرضين وزيغ الجاهلين وينقذ الشبّان المسلمين من متاهات الضلالة ومنزلقات الأفكار الهدامة، يجب عليه أن يتحرك على مستوى تدريس العلوم الإلهيّة التي استقاها من القدماء ونقلها إلى الأجيال اللاحقة. ويجب على العالِم أن يتحرك في خط التصدي للشرور والآثام المعنوية والدينية ولا يختار السكوت عليها، بل يبذل جميع ما أُوتيَ من قوة وجهد وعلم في سبيل التصدي لأشكال الانحراف والزيغ في وعي الأُمّة وفي حركة الحياة والمجتمع.

المقسم له، أو الشيء الذي وقع القسم من أجله:

بعد أن تبيّنت معاني الأقسام الثلاثة والتفسيرات المختلفة المذكورة في هذا السياق، ينبغي أن نتحدث عن المقسم له ليتبيّن أنّ الله تعالى من أجل أي شيء أقسم بصفوف الملائكة والمجاهدين والعلماء؟

إنّ الآية التالية تجيب عن هذا السؤال: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾[1].

أجل، إنّ جميع هذه الأقسام إنمّا هي لغرض بيان هذه الحقيقة المهمّة، وهي أنّ معبود جميع أفراد البشر واحد.

هنا نلفت النظر إلى بعض النقاط في شرح وتفسير الآية المذكورة:

الف) الفرق بين «إله» و«الله»

إنّ معنى كلمة «إله» يختلف عن معنى كلمة «الله». الله ذات مقدّسة جامعة لجميع

١. سورة الصافات، الآية ٤.

صفات الجمال والجلال، أمّا «إله» فيقصد به المعبود فقط. وتوضيح ذلك، أننا عندما ننظر إلى الذات المقدسّة من موقع تصور القدرة المطلقة، فنقول عنه «قادر» وعندما ننظر إلى حقيقة الأُلوهية من زاوية العلم المطلق، فنقول أنّه «عالِم»، وعندما نتحدث عنه فيما يمنحنا من مواهب ونِعم نخاطبه بكلمة «رازق»، وعلى هذا الأساس فكلمة «إله» تطلق على الذات المقدّسة من جهة استحقاق العبادة، أمّا كلمة «الله» فتطلق على الذات المقدّسة من خلال ما تتصف به من جميع صفات الجمال والجلال، ولهذا عندما نبتديء بالصلاة أو نشرع بأي عمل مهم نقول «بسم الله».

ب) أهميّة ودور الأوثان في نظر عباد الوثن

إنّ هذه الآية الشريفة: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ تهدف في الحقيقة إلى إنكار ونفي عقيدة عبّاد الأصنام فيما يتصورونه من أفكار منحرفة عن الذات المقدّسة، وفيما يقومون به من أعمال وعبادات وطقوس منحرفة لغرض عبادة الأوثان التي صنعوها بأنفسهم.

فهناك أصنام في البيوت، أصنام عامّة، أصنام خاصة، أصنام للسفر، أصنام للحضر، وكل هذه الأصنام المتنوعة يعبدها هؤلاء الجهلاء والمشركون.

وطبعاً هناك أسباب وعوامل دفعت هؤلاء لعبادة الأصنام، وأدت هذه العوامل في بعض المجتمعات البشرية إلى ممارسات شنيعة وعواقب وخيمة، والبحث في حركة الأنبياء في تصدّيهم لعبادة الأوثان وقوى الانحراف بكل ما يتضمنه هذا البحث من تفاصيل وامتدادات فهو أمر يحتاج إلى شرح مفصّل لا يسع المقام له، ولكن نكتفي بالإشارة إلى هذه الحقيقة وهي أنّ المشركين من عبّاد الأوثان وخلافاً لتصور الوهابيين، لا يرون أنّ الأصنام مجرّد واسطة بينهم وبين الله لكي يشفعوا لهم عند الله، بل يرون أنّ هذه الأوثان هي المدبرة لأمورهم والرازقة لهم، وأنّها سبب نزول

الأمطار وأمثال ذلك، ومن هذه الجهة فليس هؤلاء مشركين في العبودية بل مشركين في الربوبية أيضاً، إذاً فما يقوله الوهابيون: إنّ المشركين يعتقدون بأنّ الأوثان شفعاء لهم عند الله فقط، ومن هذه الجهة يهاجمون العقيدة بالشفاعة ويحسبونها من الشرك، تصور باطل ولا يقوم على شيء.

وقد كتبنا كتاباً في شرح هذا الموضوع بشكل تفصيلي عنوانه «الوهابية على مفترق طريقين».

النتيجة، أنّ الآية الشريفة المذكورة، تلغي جميع أشكال الوثنية وتقلعها من جذورها وتؤكد أنّ العبادة والعبودية لابدّ وأن تكون لله تعالى فقط.

ج) إثبات العقائد بالقسم!

سؤال: كيف يمكن إثبات موضوع يتصل بالعقائد وأصول الدين بالقسم؟ وهل يمكن إثبات التوحيد في العبودية بالقسم عدّة مرات؟

الجواب: إنّ المسائل العقائدية تحتاج إلى دليل عقلي ولا تثبت بالقسم، ومن هنا فالآية التالية تستبطن نوعاً من الاستدلال العقلي على التوحيد:

﴿رَّبُّ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾.

أي أنّ الله تعالى الذي بيده تدبير عالم الوجود ويتصف بالربوبية على الكائنات، ومنها السماوات والأرض والمشارق، جدير بالعبودية والعبادة.

وبعبارة أخرى إنّ الله تعالى في البداية يثبت هذه الحقيقة وهي أنّ تدبير جميع أمور العالم بيد موجود واحد، ثم يقول: «العبادة أيضاً تليق بذلك الذي بيده تدبير أمور العالم» وعلى هذا الأساس فالعبودية تابعة للربوبية.

سؤال آخر: بأي دليل يجب أن يتحد المعبود مع الربّ في قوله: ﴿رَّبُّ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾؟

الجواب: إنّ الجواب عن هذا السؤال يعود إلى أدلة إثبات التوحيد.

وتوضيح ذلك: إنّ ثمّة طرق عديدة لإثبات التوحيد وإنّ خالق هذا العالم واحد، أحدها مطالعة نظام الخلقة، فالإنسان عندما يطالع نظام الخلقة تتبيّن له مسألة التوحيد وصفات الله بشكل واضح، مثلاً عندما يرى وجود قانون واحد مهيمن على جميع أجزاء عالم الوجود، فيعلم أنّ وراء هذا العالم مدبّر واحد، على سبيل المثال، قانون الجاذبية الحاكم على جميع أرجاء العالم ولا يوجد استثناء خاص من هذا القانون، أو مطالعات العلماء التي تقرر أنّ المواد الأولية التي صنع منها هذا العالم واحـدة، وحتى بالنسبة لكرات أخرى غير الكرة الأرضية فالعلماء توصلوا إلى هذه الحقيقة من خلال تحليل النور الواصل إلينا من تلك الكرات والأجرام السماوية وتبيّن لهم أنّ المواد الأصلية التي تتشكل منها الكرات والأجرام السماوية الأخرى واحدة.

مضافاً إلى ذلك فإنّ جميع موجوات العالم تتشكل من أجزاء صغيرة جدّاً تسمى الذرة وعندما تمّ تحليل ماهية الذرة وجدوا أنّها تتشكل من نواة تدور حولها أجزاء صغيرة جدّاً، وهذه الخصوصية تشمل جميع الذرات في عالم الخلقة، وربّما تكون بعض مراكز الذرات أصغر أو أكبر وبعضها يحتوي على أجزاء أكثر، ولكن بلا شك فإنّ جميع الذرات تشترك في الصياغة والبناء الداخلي، والعجيب أنّ نظام المنظومة الشمسية بعظمتها يشبه بناء الذرة، أي أنّها تـتمتع بـمركز تـدور حـوله السـيارات والكواكب الأخرى.

وجميع أنواع الحيوانات «الأنـعام، والدواب، الزواحـف، الطـيور، الحـيوانـات البحرية والصحرائية والهوائية وأمثال ذلك» تشترك في عناصرها الداخلية وتتكون من وحدة أصلية تسمى الخلية.

أجل! إنّ جميع عالم الوجود يتجه نحو الوحدة، ويدلّ النظام الواحد فيه عـلى حالة واحدة ومدير واحد ومعبود واحد.

يقول الله تبارك وتعالى في الآيتين ٣ و ٤ من سورة الملك في بيان هذه الحقيقة: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.

وكلّما نظرنا إلى عالم الطبيعة وعالم الوجود لا نرى أي خلل أو ارتباك في الخلقة أو في تدبير هذا العالم الواسع، فكل شيء فيه يدلّ على الوحدة والنظم والتناسق، فالخالق والمدبّر لهذا العالم واحد قطعاً، لأنّ وحدة النظام في عالم الوجود تدلّ على وحدة الذات المقدّسة، ومثل هذا الإله ينبغي أن يكون هو المعبود فقط.

د) تفسير المشارق

وربّما يثار سؤالان فيما يتصل بالجملة المذكورة:

السؤال الأوّل: إنّ الآية ٤٠ من سورة المعارج تقول: ﴿رَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ فلماذا اكتفت هذه الآية مورد البحث بالقول (ربّ المشارق) فقط؟

الجواب: إنّ القرآن الكريم زاخر بالفصاحة والبلاغة، والقائل لهذا الكلام هو الإله البليغ، والفصاحة والبلاغة يقتضيان عدم التكرار إلّا في الموارد الضرورية، وبما أنّ الآية المذكورة ذكرت كلمة «مغارب» فيمكن استفادة هذا المعنى في موارد أخرى بقرينة كلمة المشارق.

السؤال الثاني: المشارق جمع مشرق، في حين أنّه لا يوجد سوى مشرق واحد فلماذا وردت هذه الكلمة بصيغة الجمع؟

الجواب: إنّ الشمس لا تشرق في يومين متتاليين من مكان واحد وكذلك لا تغرب في مكان واحد، ولهذا ذكر الله تعالى عبارة المشارق والمغارب.

وتوضيح ذلك: إنّ الشمس تتحرك بين ٢٣ درجة من الميل الشمالي و ٢٣

درجة من الميل الجنوبي، بمعنى أنّها في بداية الربيع تقع على خط الاستواء، وتشرق من هناك وتدريجياً تتحوّل إلى الشمال من خط الاستواء وتستمر في حركتها هذه إلى نهاية الربيع، وفي هذه المدّة التي تستغرق ثلاثة أشهر تصل إلىٰ ٢٣ درجة من خطّ الاستواء إلى الشمال. ومنذ بداية فصل الصيف تعود تدريجياً في هذا المسير بحيث إنّها تصل في بداية فصل الخريف إلى النقطة الأُولى، ومن بداية فصل الخريف تتجه حركة الشمس إلى جنوب خطّ الاستواء وتستمر هذه الحركة إلى ثلاثة أشهر، وفي هذه المدّة تصل إلى ٢٣ درجة من خطّ الاستواء إلى الجنوب، ومن بداية فصل الشتاء تبدأ حركتها إلى مكانها الأول، أي تعود إلى خطّ الاستواء، وفي بداية الربيع تكون في النقطة الأُولى، وعلى هذا الأساس فالشمس من كل يوم من أيّام السنة تشرق من نقطة معينة وتغرب في نقطة خاصّة، وفي اليوم التالي لا تشرق من تلك النقطة بالذات ولا تغرب أيضاً في تلك النقطة السابقة، ولهذا قال الله: ربّ المشارق والمغارب. وما ورد في بعض الآيات من صيغة مثنى «مغربين ومشرقين» فالمراد طلوع وغروب الشمس في بداية الربيع وذلك في الخطّ الموازي لخطّ الاستواء.

إنّ حركة الشمس باتجاه شمال خط الاستواء وجنوبه وعودتها إلى حالتها الأولية يتضمن بركات وفوائد كثيرة، منها الفصول الأربعة: الربيع، الصيف، الخريف، الشتاء، ونضج الثمار ونزول الأمطار وأمثال ذلك من البركات المترتبة على هذه الحركة وهذا التغيير في شروق الشمس وغروبها.

وعلاوة على ذلك فهذا النظام الهادف في حركة الشمس وسائر النظم الهادفة في عالم الخلقة التي تمتد إلى ملايين السنين وتستمر كذلك وبدون أي توقف، تدلّ على وجود نظام عجيب يحكم جميع أرجاء عالم الوجود.

وعلى هذا الأساس فإنّ الله تعالى واحد والنظام الحاكم علىٰ أرجاء عالم الوجود واحد، والمدير والمدبّر واحد، والمعبود أيضاً ينبغي أن يكون واحداً.

تفسير آخر للمشارق والمغارب:

إنّ ما ذكرنا آنفاً من تفسير المشارق والمغارب يتعلق بالزمان، ولكن هناك تفسير آخر، ويتعلق بالمشارق والمغارب المكانية، مثلاً في ايران يكون العراق إلى الغرب من بلادنا وتقع أفغانستان إلى الشرق منّا، ولكن بالنسبة لمغرب ومشرق أفغانستان فهي أمكنة أخرى، وعلى هذا الأساس يختلف المغرب والمشرق لكل منطقة ومدينة ودولة، ومن هنا فإنّ الله تعالى ذكر هذه الحقيقة في القرآن الكريم بصيغة الجمع.

وقد نستوحي من هذا التفسير نقطة علمية مهمّة وذلك أنّ هذا التفسير إنّما يكون صحيحاً على أساس كروية الأرض، فلو كانت الأرض مسطحة فلا معنى لوجـود مشارق ومغارب بل يوجد مشرق واحد ومغرب واحد لجميع الناس على الأرض، إذن بالإمكان أن نستوحي من هذه الآية الشريفة أنّ هذا المفهوم وطبقاً لهذا التفسير يعتبر من المعجزات العلمية للقرآن الكريم.

هـ) أوثان العصر الحاضر!

وقد يطرح هذا السؤال: هل النقطة المقابلة للتوحيد هي ما يـتمثّل فـي عـبادة الأصنام لدى العرب في الجاهلية فقط، والآن انتهى عصر الشرك ولا يوجد مشرك في العالم؟

وفي مقام الجواب عن هذا السؤال ينبغي القول: إنّ كل عصر وزمان يستبطن التوحيد والشرك، وفي عصرنا وزماننا هذا هناك أصنام أخطر من أصنام الجاهلية بحيث لا تعدّ أصنام الجاهلية أمامها شيئاً يذكر، ونلفت النظر إلى آيتين من القرآن الكريم:

١. يقول تبارك وتعالى في الآية ٤٣ من سورة الفرقان:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾.

أجل، إنّ عبادة الأهواء كانت موجودة في ذلك الزمان، ولكنها الآن أشـدّ قـوة

وأكثر امتداداً. واللافت أنّ النبي الأكرمﷺ لا يستطيع هداية مثل هؤلاء الأشخاص في حين أنّه استطاع هداية الكثير من عبدة الأوثان.

٢. وقد ورد نفس هذا المضمون للآية المذكورة بصورة أشدّ في الآية ٢٣ من سورة الجاثية، يقول تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

سؤال: هل يصحّ أن يتعامل الله تعالى مع عبدة الأهواء بمثل هذه الشدّة والخشونة؟

الجواب: إنّ هذا النمط من التعامل الشديد هو انعكاس طبيعي لاتّباع الأهواء، لأنّ العابد لهواه لا يرى سوى نفسه وذاته، ولهذا فمثل هذا الشخص كمن يغمض عينيه عن الحقائق ولا يراها ولا يسمع شيئاً يتقاطع مع أهوائه ولا يدرك بفكره ووجدانه شيئاً يخالف ما يريده ويهواه.

وفي ضوء ذلك فإنّ عبادة الهوى تعتبر فرعاً من فروع عبادة الأوثان، بل إنّ التاريخ البشري يقرر هذه الحقيقة وهي أنّ عبادة الأهواء هي المنشأ والمنبع لعبادة الأوثان، من قبيل ذلك العالِم الذي اتّبع هواه، فقاده هواه للسجود أمام الشيطان وعبادة صنم الشيطان.

إنّ إله بعض الناس يتمثّل بالمال، والكثير من الأشخاص الذين يتعاطون الشأن السياسي في العالم لا يعبدون سوى الدولار، ويستخدمون مقولة حقوق الإنسان، الحرية، الديمقراطية، حقوق المرأة، حرية المطبوعات، حرية العقيدة، إزالة التمييز ضد النساء، معاهدة منع وانتشار الأسلحة الكيمياوية وأمثال ذلك، كأدوات للتوصل إلى المزيد من الثروة، ولهذا فإنّهم يعتبرون الأشخاص الذين يتحركون في هذا الخط ويستجيبون لأغراضهم ومطامعهم ويحققون أهدافهم، أنّهم من الأصدقاء والدول الصديقة، حتى وإن لم تتمّ رعاية الأصول الأخلاقية والإنسانية في تلك الدول، أمّا

البلدان مثل ايران الإسلامية التي ترفع لواء المعارضة لمصالحهم غير المشروعة فإنّهم يعتبرونها ارهابية وناقضة لحقوق الإنسان وتسعى لانتاج الأسلحة الكيمياوية وأمثال ذلك، حتى لو كانت ايران من أشد الدول المتمسّكة بالأصول الأخلاقية والقيم الإنسانية.

حديث الذهب والفضة!

ينقل المرحوم الحاج الشيخ عبّاس القمي في «سفينة البحار» حديثاً عن ابن عباس، ويبدو أنّه أخذه من النبي الأكرمﷺ أو من استاذه الإمام عليؑ. وهذا الحديث كالتالي:

«إنّ أول درهم ودينار ضربا في الأرض نظر إليهما إبليس فلمّا عاينهما أخذهما فوضعهما على عينيه ثم ضمهما إلى صدره، ثم صرخ صرخة، ثم ضمهما إلى صدره ثم قال:

«أنتُما قُرَّةُ عَيْني وَثَمَرَةُ فُؤادي ما أبالي مِنْ بَني آدَمَ إذا أحَبُّوكُما أنْ لا يَعْبُدُوا وَثَناً وَحسبي مِنْ بَنِي آدم أنْ يُحبّوكما»[1].

إنّ الشيطان يعلم أنّه يستطيع تلويث الإنسان بجميع الذنوب من خلال حبّه وعبادته للمال، فتهريب المخدرات، الرشوة، الحروب التي تهدف لتقوية شركات صناعة الأسلحة، بيع وشراء أعضاء الإنسان وأمثال ذلك، كلها من أجل الحصول على الدرهم والدينار.

وبالإمكان اختبار قدرة الأشخاص وشخصيتهم بالمال، فما أكثر الأشخاص الذين يسقطون في هذا الامتحان والاختبار، وما أكثر الأشخاص الذين طردوا أمهاتهم من بيوتهم من أجل تقسيم الميراث، وما أكثر الإخوة والأخوات الذين

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٣٥٥.

عاشوا سنوات مديدة في حالة العداوة والخصومة من أجل تقسيم الميراث.. وطبعاً فالناس يبيعون دينهم وإيمانهم بأثمان مختلفة، فبعض يبيع دينه بسعر زهيد وآخر بقيمة غالية، فأحدهم عندما يرى مليون تومان يهتز لها قلبه ويذوب لهـا إيـمانه، والآخر يجد في نفسه مقاومة للعدد من سبعة أرقام ولكن عندما يزداد هذا الرقـم ويصل إلى ثمانية أصفار فإنّه يفقد مقاومته ويتزلزل إيمانه، وهناك من يـهتز أمـام أرقام أعلى، والخلاصة فإنّ الأشخاص الذين لا يهتزون أمام أي رقم ولا يتحرك لهم جفن أمام أي ثروة، قليلون، ومن هؤلاء أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي يقول:

«وَ اللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلاَكِهَا، عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ»[1].

نسأل الله أن يوفقنا لاتباع إمام المتقين والابتعاد يوماً بعد آخر عن جـواذب الأهواء والاقتراب أكثر فأكثر من عبادة الإله الواحد.

❊ ❊ ❊

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤.

٣

أقسام سورة المدّثر

ومن جملة السور التي تتضمن أقساماً ثلاثة، سورة المدثر، وذلك في الآيات ٣٢ إلى ٣٧ من هذه السورة:

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾

إنّ سورة المدثر من السور المكّية، كما يتبيّن ذلك من سياق آيات هذه السورة وصياغتها، وتتحدّث هذه السورة في مضمون آياتها عن مسألة المعاد والحياة بعد الموت، وهذا شاهد آخر على مكّية هذه السورة.

أوّل سورة نزلت على النبي الأكرمﷺ!

هناك اختلاف بين المفسرين في تحديد السورة الأولى من القرآن الكريم التي نزلت على النبي الأكرمﷺ. فبعض يعتقد بأنّها سورة «العلق» التي نزلت في بداية البعثة، والشاهد على ذلك ما ورد من مضامين في آيات هذه السورة، وهناك عدد من المفسّرين يعتقدون بأنّ سورة المدثر أول سورة نزلت على قلب نبي الإسلامﷺ،

وذلك عندما نزل رسول الله ﷺ من غار حراء وكان قد لفّ نفسه بمئزر وأخذ قسطاً من الراحة، فنزلت سورة المدثر عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾. أي ليس هذا وقت الاستراحة، قم من مكانك وبلّغ الناس الرسالة الإلهيّة وادعهم إلى طريق الحق.

ونعتقد بأنّ أول سورة نزلت في بداية البعثة على النبي الأكرم ﷺ، هي سورة العلق وبنزول هذه السورة تمّ إرسال النبي للناس واختياره للنبوة وإبلاغ الرسالة الإلهيّة، ولكنّ مأمورية النبي الأكرم ﷺ كانت في البداية سرية، وقد استغرقت الدعوة السرية ثلاث سنوات، وبعد هذه السنوات الثلاث من العمل السري أمره الله تعالى بواسطة آيات سورة المدثر بالانتقال إلى مرحلة جديدة من تبليغ الإسلام، وبذلك تحوّلت الدعوة السرية إلى العلنية بنزول هذه الآيات المذكورة، وفي ضوء ذلك فإنّ بداية الدعوة السرية وبداية النبوة والبعثة بدأت من نزول سورة العلق، أمّا إعلان الدعوة والانتقال إلى المرحلة العلنية فقد بدأ من نزول آيات سورة المدثر.

والدليل على ذلك أنّ سورة المدثر تتضمن قصة مراجعة المشركين للوليد بن المغيرة الرجل السياسي والحكيم في الجاهلية، وقد ذهبوا إليه وأخبروه عن دعوة نبي الإسلام ﷺ وأنّ عدداً من الناس قد آمن به واعتنق دعوته، وطلبوا منه أن يعلّمهم طريقة صحيحة ومؤثرة للتصدي لنبي الإسلام ﷺ ومواجهة دعوته، فطلب منهم الوليد مهلة ليفكّر في هذا الموضوع، وبعد مدّة جاءوا إليه فقال في جوابهم:

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾[1].

وهكذا اقترح عليهم الوليد بأن ينسبوا القرآن الكريم إلى السحر وأنّ نبي الإسلام ﷺ ساحر، أي أنّ القرآن الذي يملك كل هذه الجاذبية بحيث تهفو إليه قلوب الناس وتنجذب إليه، فإنّ ذلك ناشيء من السحر، ومعلوم أنّه لا دوام ولا ثبات للسحر.

---

١. سورة المدّثر، الآيتان ٢٤ و ٢٥.

الخلاصة، أنّ الحكاية المذكورة وردت في سورة المدثر، وهي شاهد على أنّ هذه السورة نزلت في نهاية المرحلة السرية وبداية المرحلة العلنية للدعوة، وتشير أيضاً إلى عمل النبي في المرحلة السرية للدعوة.

الأقسام الثلاثة:

وهذه السورة تتضمن ثلاثة أقسام مهمّة وترتبط فيما بينها برابطة خاصّة، وهو ماسنسلّط عليه الضوء في هذا البحث:

القسم الأول: القسم بالقمر

إنّ الله تبارك تعالى يقسم في البداية بالقمر لكي يثير عناصر التفكير والتأمل في أذهاننا، ويدعونا للتأمل في عظمة هذا المخلوق النافع وكثرة بركاته، وهنا نشير إلى بعض هذه البركات والآثار الإيجابية للقمر:

١. التقويم الطبيعي: بالرغم من أننا بحثنا هذا الموضوع سابقاً، ولكننا نفصل البحث حول هذا الموضوع لأهميّته، إنّ القمر يعد آية من الآيات الإلهيّة العظيمة وله نظام دقيق، ففي طيلة سبع وعشرين أو ثمان وعشرين يوماً يدور القمر حول الكرة الأرضية دورة كاملة، وفي هذه المدّة أيضاً يدور حول نفسه دورة كاملة، لهذا فنحن نواجه القمر في جانب واحد منه، وهذا النظام الدقيق أنتج تقويماً طبيعياً لحساب الأيام والشهور للبشر كافة، فحياة الإنسان بحاجة لمعرفة الوقت وتقويم الأيّام والشهور، وحركة القمر بإمكانها أن تمنح الإنسان هذا التقويم وبذلك يستطيع الإنسان استخدامه في حياته ومعرفة أيّامه وشهوره، والشمس بدورها تستطيع أن تمنحنا تقويماً مماثلاً، ولكنّ التقويم الشمسي لا يدركه جميع الناس، ويحتاج إلى دراسة دقيقة وخبرة تجريبية، بخلاف التقويم الطبيعي للقمر الذي يدركه جميع

الأفراد، الأمي والمتعلم، القروي والمدني، الرجل المرأة، والأبيض والأسود، ويمكن الاستفادة منه في جميع الحالات، فمع ظهور القمر كهلال في الأفق نعرف من ذلك انقضاء شهر وحلول شهر جديد، وعند اكتمال القرص وصيرورة القمر بدراً نعرف أنّ هذه الليلة هي ليلة الرابع عشر من الشهر، وحتى نستطيع من خلال التأمل في المقدار المنير من القمر تحديد اليوم من الشهر، وأنّ هذه الليلة هي الليلة الفلانية من الشهر، وهذا التقويم الطبيعي ناتج من حركة القمر بشكل منظم ودائم، وفي ضوء ذلك وعندما يقسم الله تعالى بالقمر فكأنّه يقسم بالنظام المخطط والمدروس لحركات القمر، ويقسم بهذا النظام الحاكم على جميع أجزاء عالم الوجود، وينبغي أن يتحرك الإنسان في حياته من موقع التخطيط المدروس والمنظم، فالنظام الحاكم على القمر وعلى الكرة الأرضية إلى درجة من الدقّة والنظم أنّ علماء الفضاء بإمكانهم في حال السفر إلى القمر أن يحسبوا في أية ساعة وفي أي مكان يستطيع رائد الفضاء من الهبوط على سطح القمر، وبالرغم من أن سفر السفينة الفضائية يستغرق ثلاثة أيّام بلياليها، ولكنّ هؤلاء العلماء يحسبون زمان ومكان هبوط السفينة الفضائية على القمر قبل انطلاقها، وذلك من خلال الدقّة في حركة الأرض والقمر دون أن تثير هذه الحركة الدائرية خللاً في حساباتهم، ولا يمثّل ذلك فخراً للإنسان بل يشير إلى عظمة الخالق الذي خلق هذه الحركات للأجرام السماوية بهذه الدقّة بحيث يستطيع الإنسان التنبؤ بالمستقبل من خلال هذه الحسابات الدقيقة، ومن هنا ورد أنّ الإمام زين العابدين عليه السلام عندما رأى الهلال قال:

«أَيُّهَا الْخَلْقُ الْمُطِيعُ، الدَّائِبُ السَّرِيعُ، الْمُتَرَدِّدُ فِي مَنَازِلِ التَّقْدِيرِ، الْمُتَصَرِّفُ فِي فَلَكِ التَّدْبِيرِ. آمَنْتُ بِمَنْ نَوَّرَ بِكَ الظُّلَمَ، وَأَوْضَحَ بِكَ الْبُهَمَ، وَجَعَلَكَ آيَةً مِنْ آيَاتِ مُلْكِهِ، وَعَلَامَةً مِنْ عَلَامَاتِ سُلْطَانِهِ، فَحَدَّ بِكَ الزَّمَانَ، وَامْتَهَنَكَ بِالْكَمَالِ وَالنُّقْصَانِ، وَالطُّلُوعِ وَالْأُفُولِ وَالْإِنَارَةِ وَالْكُسُوفِ، فِي كُلِّ ذٰلِكَ أَنْتَ لَهُ مُطِيعٌ،

وَإِلىٰ إِرَادَتِهِ سَرِيعٌ. سُبْحانَهُ ما أَعْجَبَ ما دَبَّرَ فِي أَمْرِكَ، وَأَلْطَفَ ما صَنَعَ فِي شَأْنِكَ، جَعَلَكَ مِفْتاحَ شَهْرٍ حادِثٍ لِأَمْرٍ حادِثٍ...»[1].

فهنا نرى أنّ الإمام زين العابدينعليه السلام عندما رأى الهلال صرّح بهذه الكلمات الجذابة على شكل دعاء، وفي ذلك الوقت كانت الهيئة الفلكية لبطليموس هي السائدة على المحافل العلمية في العالم، وفي هذه النظرية فإنّ القمر لا يتحرك بل هو موجود في فلك شفاف، والفلك هو الذي يتحرك وليس للقمر حركة مستقلة عن الفلك، ولكنّ الإمام زين العابدينعليه السلام في ذلك العصر والزمان أشار بشكل إجمالي إلى حركة القمر المستقلة وآثاره وبركاته الأخرى، فالإمام زين العابدينعليه السلام كان يدرك أنّ النظام الحاكم على القمر يمتد في أعماق التاريخ إلى ملايين السنين وهو آية على قدرة وتدبير الصانع العليم، وينبغي أن يقف الإنسان أمام هذا الصانع المدبّر من موقف الخشوع والخضوع.

نور القمر: إنّ القمر في الحقيقة بمثابة مرآة يعكس علينا ضوء الشمس، ويتميز نور القمر باللطافة والجذابية، فنوره ليس بالمقدار الذي يدفع بالإنسان الحريص والطماع إلى ساحة الكسب والعمل، وليس بمقدار ضعيف بحيث لا ينتفع به الإنسان ولا يرى مسيره على الأرض، بل إنّه يستطيع أن يمنح الإنسان حالة من الراحة النفسية والهدوء الروحي في الليالي المقمرة، وكذلك بإمكانه أن يمنح القوافل التي تسير في الليالي نوراً كافياً لهدايتها إلى مقاصدها.

٣. سقي المزارع: إنّ المساحات الشاسعة من بساتين النخيل التي تتضمن ملايين من أشجار النخيل الواقعة على سواحل البحار والبحيرات، وخاصّة في مصب الأنهار في البحر، هذه المناطق تسقى بواسطة القمر، ففي مناطق التقاء النهر بالبحر فإنّ المياه الحلوة والعذبة للأنهار لا تختلط بسرعة مع المياه المالحة للبحر،

١. مفاتيح نوين (بالفارسية) لسماحة آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، في أعمال الأشهر الإسلاميّة.

بل تبقى المياه العذبة على عذوبتها لمدّة معينة وهي متوغلة في البحر، ويتولى القمر إيجاد ظاهرة المدّ والجزر في الليل والنهار، فجاذبية القمر تؤدي إلى إيجاد ظاهرة المدّ في مياه البحر ويجذب القمر مياه البحر نحوه قليلاً، فعندما يصعد ماء البحر ويرتفع فإنّ المياه العذبة التي دخلت البحر من الأنهار ستعود إليها، وهكذا تسقي مزارع النخيل الواقعة على ضفاف الأنهار، فعندما يبدأ الجزر وينخفض ماء البحر فإنّ تلك المياه ستعود إلى البحر مرّة ثانية وهكذا تتكرر هذه العملية مرّة أخرى في كل ليل ونهار، وبذلك تسقى مزارع النخيل يومياً، فمن يصدق أنّ كرة سماوية تعمل عمل ملايين الفلاحين والخبراء والمضخات في كل يوم؟ هنا يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «وَجَعَلَكَ آيَةً مِنْ آيـاتِ مُلْكِهِ، وَعَلامَةً مِنْ عَلاماتِ سُلْطـانِهِ».

ما تقدّم آنفاً يمثّل فقط ثلاثة موارد من منافع وبركات القمر الذي أقسم الله تعالى به في هذه السورة، وطبعاً فإنّ بركات القمر لا تنحصر بما ذكر.

القسم الثاني: القسم بالليل

أمّا الليل فهو بدوره يتضمن الكثير من الآثار والبركات على البشرية ومصدر كثير من النعم والمواهب الإلهيّة، ولهذا أقسم الله تعالى به، ونكتفي هنا بذكر مثالين من بركات الليل:

١. تعديل الحرارة

لو أنّ الله تعالىٰ لم يرزقنانعمة الليل، ولو افترضنا أنّ الشمس بقيت ثلاثة أيّام متوالية تشرق على الأرض فإن جميع الأشياء ستحترق.. كما لو افترضنا عدم طلوع النهار وكان الليل يستغرق أيّاماً متوالية فإنّ شدّة البرد بإمكانها تجميد كل شيء، إنّ النهار على سطح القمر يساوي ١٤ يوماً من أيّام القمر بهذا المقدار أيضاً، ولذلك إذا

هبط إنسان على سطح القمر في وسط النهار فإنّه سيذوب من شدّة الحرارة، وكذلك إذا هبط على القمر في منتصف الليل فإنّ شدّة البرد سيقضي عليه حتماً.

وعلى ضوء ذلك فإنّ الليل يتولى تبريد الكرة الأرضية وينقذها من خطر الاشتعال ويحفظها من الاحتراق وهذه هي إحدى بركات الليل.

٢. الليل مدعاة للهدوء

والبركة الأخرى لنعمة الليل والتي يدركها جميع أفراد البشر، هي الهدوء والسكينة في الليل، فظلام الليل له أثر إيجابي عميق على أعصاب الإنسان المتعبة، ولهذا لا يمكن الاستعاضة عن نوم الليل بأي شيء آخر فيما يمنحه الليل لأعصاب الإنسان من هدوء وسكينة وتخفيف للتوتر.

إنّ الأشخاص الذين يبقون ساهرين إلى منتصف الليل ويستيقظون في اليوم التالي في منتصف النهار، هؤلاء لا يملكون راحة السلامة الكافية، ولهذا السبب تقول الآية الشريفة: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً﴾.

لماذا أقسم الله بآخر الليل؟

إنّ جملة «إِذْ أَدْبَرَ» الواردة في القسم الثاني جاءت كقيد لكلمة «الليل» بمعنى انتهاء الليل وتقصد حلول وقت السحر، فلماذا أقسم الله تعالى بالسحر، في نهاية الليل؟

الجواب: إنّ بركات الليل وبخاصة البركات المعنوية تزداد في آخر الليل، فصلاة الليل التي تتضمن بركات وخيرات كثيرة يأتي بها المسلم في وقت السحر، وصلاة الليل تعتبر عاملاً مهماً من عوامل سعادة الإنسان، وتختزن من الصفاء واللطف والارتفاع في أجواء المعنويات ممّا لا تتضمنه الصلوات الأخرى، لأنّ وقت السحر، الذي يُحرم فيه الغافلون من بركاته، يفتح أمام الإنسان آفاق الاتصال مع الله

ومناجاته والتواصل معه بشكل أفضل من سائر الأوقات، لأنّ عـوامـل الانـغلاق الروحي والتشتت الذهني تصل إلى حدّها الأدنى في ذلك الوقت. فلا مكالمة هاتفية ولا أصوات مثيرة ولا مشاغل مشوشة، ومن هنا يشعر الإنسان بحضور قلب في هذا الوقت بشكل عجيب!

أيّها الأعزاء إذا لم تستطيعوا النهوض لصلاة الليل في كل ليلة فعلى الأقل اجعلوا ليلة واحدة في الأسبوع لممارسة هذه العبادة المهمّة، فصلاة الليل من شأنها تقوية الإيمان وزيادة الرزق وفتح أبواب الحلول للمشاكل والعقبات التي يواجهها الإنسان، وتمثّل أول درس للسالكين إلى الله، ولا شك في أنّ أحد العوامل المهمّة لتـحليق السالكين في أجواء الملكوت والوصول إلى مقام القرب الإلهي هي صـلاة اللـيل، ويستطيع المسلم الإتيان بهذه الصلاة بشكل سهل ميسور، وتتألف هذه الصلاة من ٤ صلوات مثل صلاة الصبح، أي ٨ ركعات بنيّة صلاة الليل، وركـعتان بـنيّة الشـفع، وركعة واحدة بنيّة نافلة الوتر، حيث يستغرق المصلي في الدعاء والمناجاة في هذه الركعة الأخيرة بما يشاء، ويسأل الله تعالى أي حاجة ممّا يريده ويـرغب فـيه، إنّ الاحاطة بأهميّة صلاة الليل من موقع العمق والتفصيل، يستدعي إلقاء نظرة عـلى النصوص والآيات الشريفة الواردة عن المعصومين(عليهم السلام).

صلاة الليل في القرآن الكريم:

ونلفت النظر هنا إلى عدّة آيات من القرآن الكريم ناظرة إلى هذا الموضوع:

١. يقول تبارك وتعالى في الآية ٧٩ من سورة الإسراء:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾.

إنّ مقام النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله) عند الله لا يدانيه مقام، ولكنّ النبي(صلى الله عليه وآله) بإمكانه أن يرتفع بمقامه عند الله مراتب أسمى ودرجات أعلى، أي المقام المحمود، وذلك من خلال

الإتيان بصلاة الليل.

سؤال: هل يختص المقام بالنبي الأكرمﷺ؟

الجواب: إنّ هذا المقام الكريم لا يختص بالنبي الأكرمﷺ، بل يستطيع كل إنسان مؤمن أن يحصل على مراتب من هذا المقام المحمود بحسب قابليته ولياقته وبما يأتي به من عبادة خالصة وتوجه عميق وحضور قلب.

٢. وترسم الآيات ١٥ إلى ١٨ من سورة الذاريات صورة عن ملامح صلاة الليل:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

إنّ الاستغفار يعدّ ركناً مهمّاً وخصوصية في صلاة الليل، ولا يختص هذا الاستغفار بصاحبه بل بإمكانه أن يستغفر لنفسه ولغيره من المؤمنين، بل إنّ بعض المؤمنين يستغفرون ويدعون لجميع المسلمين والمؤمنين على امتداد المسار التاريخي للبشرية.

٣. ونقرأ في الآية ٦ من سورة المزّمّل أيضاً:

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾.

وقد ورد في الروايات الشريفة تفسير «ناشئة الليل» بصلاة الليل.

صلاة الليل في الروايات:

ذهب بعض القدماء إلى أننا لو قمنا بخلط مادة الكيمياء أو الأكسير بعنصر النحاس لأمكن تبديله إلى ذهب، وهذا الموضوع لم يكن سوى تصور وخيال يدور في أذهان القدماء ولم يتحقق في أرض الواقع بالرغم من سعيهم الحثيث في هذا السبيل، ولكنّ نتيجة ذلك أن وجد علم الكيمياء، فالكيمياء كلمة لاتينية، وطبعاً لو افترضنا وجود مثل هذه المادة الكيمياوية وقمنا بمسحها بالنحاس وانقلب النحاس

إلى ذهب، فإنّ المشكلة لا تُحلّ بذلك، لأنّه عندما تتحول جميع عناصر النحاس إلى ذهب فإنّ قيمة الذهب وبسبب كثرته ووفرته ستكون بقيمة النحاس، بل ربّما تهبط لما دون ذلك، وسيكون النحاس نادر الوجود وغالي الثمن.

ولكنّ علماء الدين يعتقدون بوجود مثل هذا الأكسير والعنصر الكيمياوي في عالم المعنويات بحيث إذا مسحنا به وجود الإنسان، فسوف يتبدل الإنسان إلى ذهب خالص، وأحد هذه العناصر الأكسيرية «صلاة الليل» ومن هنا فكل ما ورد عن صلاة الليل وما تحدّث العلماء عنها فهو قليل. فإنّ إضفاء النورانية والصفاء والمعنوية على القلب وحفظ الإنسان من التلوث بالخطايا، وجبران ما ارتكبه من ذنوب ومنح روح الإنسان شفافية وسكينة وطمأنينة كل ذلك يمثّل زاوية من بركات هذا الأكسير المعنوي الثمين.

وقد أشرنا فيما سبق إلى ثلاث آيات من القرآن الكريم تتحدّث عن صلاة الليل، والآن نلفت النظر إلى ثلاثة أحاديث شريفة في هذا المجال.

١. يقول النبي الأكرمﷺ في السبب الذي صار فيه النبي إبراهيمعليه السلام خليل الله:

«مَا اتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً إِلَّا لِإِطْعَامِهِ الطَّعَامَ وَصَلَاتِهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»[1].

ينبغي على الإنسان استغلال وقت السحر للتوغل إلى أجواء المعنويات والتحليق في آفاق الملكوت والانفتاح على الله تعالى، فبعد أن يأخذ له قسطاً من النوم في أول الليل، يتحرك على مستوى الابتهال إلى الله والانفتاح عليه في هذا الوقت المبارك.

٢. ويقول النبي الأكرمﷺ في حديث آخر:

«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَخَلَّىٰ بِسَيِّدِهِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ وَنَاجَاهُ أَثْبَتَ اللهُ النُّورَ فِي قَلْبِهِ... ثُمَّ يَقُولُ جَلَّ جَلَالُهُ لِمَلَائِكَتِهِ: يَا مَلَائِكَتِي انْظُرُوا إِلَىٰ عَبْدِي فَقَدْ تَخَلَّىٰ بِي فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ وَالْبَاطِلُونَ لَاهُونَ، وَالْغَافِلُونَ نِيَامٌ، أَشْهِدُوا عَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ»[2].

---

١. ميزان الحكمة، باب ٢٣١١، ح ١٠٧٣٨.

٢. المصدر السابق، باب ٢٣١٢، ح ١٠٧٥١.

٣. ويقول الإمام الصادق عليه السلام بالنسبة لصلاة الليل وما يترتب عليها من بركات معنوية وأخروية:

«ما مِنْ حَسَنَةٍ إلّا ولَها ثوابٌ مُبينٌ في القرآنِ إلّا صلاةَ اللّيلِ فإنَّ اللهَ عزَّ اسمُهُ لَم يُبيِّنْ ثوابَها لعَظمِ خطَرِها قالَ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]»[2].

قد يقال: ما هي العلاقة بين الآية التي استدل بها الإمام الصادق عليه السلام وصلاة الليل؟ نقول: إنّ الآية المذكورة وردت بعد قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ...﴾ الواردة في صلاة الليل.

والخلاصة، طبقاً لهذه الرواية فإنّه لا يعلم حتى المعصومون عليهم السلام، بمقدار ثواب صلاة الليل. نسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعاً للنهوض من فراش الراحة والنوم في أوقات السحر، والإتيان بصلاة الليل لتبديل وجودنا النحاسي إلى ذهب.

القسم الثالث: قسم بضياء الصبح

بعد أن أقسم الله تعالى بالقمر ووقت السحر، أقسم بالصبح إذا أسفر وتجلت أنواره، وما أجمل لحظة طلوع الفجر الصادق، ففي هذا الوقت تسطع أنوار الصبح على صفحة السماء وتخلق أجواءً زاخرة بالجمال والجاذبية وكأنّ السماء حينذاك مصنوعة من الفضة، إنّ طلوع الصبح يثير في الإنسان نشاطاً عجيباً، ولعله لهذا السبب وجبت صلاة الصبح في هذا الوقت.

العلاقة بين الأقسام الثلاثة:

سؤال: تبيّن ممّا سبق أنّ الله تعالى أقسم في سورة المدثر بثلاثة أقسام مهمّة،

---

١. سورة السجدة، الآية ١٧.

٢. تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ١٠٩، طبع بيروت.

أقسم بالقمر، والسحر، وبضياء الصبح، والسؤال هو: ما هي العلاقة بين هذه الأقسام الثلاثة؟

الجواب: إنّ الله تعالى جمع في هذه الأقسام الثلاثة بين نظام النور والظلمة، فالقمر مظهر من نور، وكذلك الصبح فيما يعكس من أنوار وأشعة الشمس، والليل مظهر ومثال للظلمة، ومن هنا فإنّ الله تعالى قد أقسم في هذه الآيات بنظام النور والظلمة، أي أقسم بهاتين النعمتين العظيمتين، لأنّه لولا وجود الظلمة لما عرف الإنسان النور، ولولا ظلمة الليل، فسوف لا تترتب آثار ومعطيات النهار في واقع الحياة.

إنّ الله تعالى أكد في العديد من آياته على ضرورة النور والظلمة في حياة الإنسان وتعكس الآيات ٧١ إلى ٧٣ من سورة القصص هذه الحقيقة بعبارات رائعة وجذابة:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وعندما يقول تعالى: ﴿... وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يتبيّن أنّ كلّاً من النور والظلمة يعدّ نعمة في حدّ ذاتها تستحق الشكر والتقدير.

والملفت للنظر أنّ الله تعالى قسّم هاتين النعمتين على جميع أنحاء الكرة الأرضية بشكل متساوٍ وعادل، أي أنّ جميع الناس في شتى أنحاء الكرة الأرضية يعيشون في السنة ٦ أشهر من النهار وستة أشهر من الليل، رغم أنّ الأيّام والليالي تختلف في فصول السنة من حيث المدّة والوقت، مثلاً في النقطة ٩٠ درجة من القطب يبلغ النهار ستة أشهر والليل ستة أشهر، وإذا توجهنا إلى الجنوب منها ووصلنا إلى نقطة ٦٧ درجة (يعني نقطة ٩٠ إلى ٦٧ درجة)، فإنّ مقدار الليل والنهار

سيختلف بالتبع، فبعض المناطق يستغرق فيها الليل والنهار شهراً كاملاً وبعض المناطق يبلغ النهار فيها نصف شهر والليل أيضاً نصف شهر، ولو توجهنا إلى أدنىٰ من نقطة ٦٧ درجة فإنّ الليل والنهار يتناوبان في اليوم الواحد رغم أنّه من الممكن أن يبلغ مقدار الليل في بعض المناطق ساعة واحدة والنهار ٢٣ ساعة أو بالعكس.

والخلاصة، إنّه بالرغم من اختلاف فصول السنة وقصر الليل والنهار في جميع أنحاء الكرة الأرضية طيلة العام الواحد، ولكن من حيث المجموع فإنّ الليل والنهار يتوزعان بشكل متساوٍ وعادل وينتفع الناس من هاتين النعمتين الإلهيتين بشكل متساوٍ، فالجميع يستفيدون من الليل ستة أشهر في العام ويستفيدون من نور النهار ستة أشهر أيضاً.

أجل، فكل واحد من النور والظلام يعد نعمة كبيرة، بحيث إنّه لو فقد أحدهما فإنّ البشر لا يمكنهم الاستمرار في الحياة.

سؤال: كيف يمكن أن يزول النور ويستولي الظلام على جميع أرجاء الكرة الأرضية، أو بكلمة أخرى أن يكون الليل سرمداً؟ أو بالعكس بأن تزول الظلمة ويسيطر النور على جميع أرجاء الكرة الأرضية بشكل دائم؟

الجواب: لو افترضنا أنّ الكرة الأرضية توقفت عن الدوران، فالنصف المواجه للشمس سيكون نهاراً دائماً والنصف الآخر الذي لا تشرق عليه الشمس سيكون ليلاً دائماً.

المقسم له (ما أقسم الله تعالى من أجله):

إنّ القسم بالقمر المنير، والقسم بالسحر، والقسم بضياء الصبح من أجل بيان أهميّة يوم القيامة، فالأقسام الثلاثة المذكورة من أجل إلفات ذهن الإنسان لهذا الموضوع الخطير، فيما يتضمنه من أحداث مهولة، وفيما تحدث فيه المحكمة الإلهيّة

العادلة التي تدقق في جميع أعمال الإنسان الصغيرة منها والكبيرة، والصالحة والطالحة، وينتهي الأمر إلى عملية الثواب والعقاب:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾[1].

إنّ القاضي في هذه المحكمة هو الله تعالى والموظفون هم الملائكة والشهود هم أعضاء بدن الإنسان والأرض والزمان، وهذه المحكمة لا تقبل أي رشوة وهدية من الموقوفين فيها، والحقيقة أنّ ذلك اليوم هو يوم عظيم وعجيب وهو اليوم الذي يستلم فيه المجرمون صحيفة أعمالهم وينادون بالويل والثبور، يقولون: يا ليتنا لم نواجه ولم نقرأ هذه الصحيفة، ياليتنا كنّا تراباً، ولم نكن مخلوقين في العالم ولم نر مثل هذا اليوم، والحقيقة أن يوم القيامة يوم عظيم: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيراً لِّلْبَشَرِ﴾

إنّ يوم القيامة يوم الإنذار الرهيب للناس، أجل فذلك اليوم يوم نذير وبشير، فهو نذير للمجرمين والمتمردين والعاصين، وبشير للمحسنين والمطيعين والصالحين.

إنّ تناسب القسم (النور والظلمة) والمقسم له (الانذار والتبشير) يعكس مفهوماً رائعاً وشيّقاً، فكما أنّ النور والظلمة يعدّان نعمتين إلهيتين للإنسان، كذلك البشارة والانذار أيضاً من النعم الالهيّة. إنّ الدافع لـ «جلب المنفعة» و«دفع الضرر» موجود في واقع الإنسان ووجدانه، وهذ الاحساس في الإنسان ذاتي وفطري، وقد استخدم الله تعالى هذه المعادلة في جلب المنفعة ودفع المضرة، ليبتعد هذا الإنسان عن العذاب الإلهي، ويستفيد من غريزة جلب المنفعة للتوصل إلى النعيم الإلهي والجنّة الخالدة.

أجل، إنّ الله تعالى باستخدامه لهذه المعادلة في جلب المنفعة ودفع الضرر، تحرك على مستوى التبشير والانذار لدفع الإنسان باتجاه مراتب القرب الإلهي وتحريكه في خط الطاعة والمسؤولية والعبودية.

واللافت أنّ عملية الإنذار والبشارة تشمل جميع أفراد البشر حتى الأنبياء

---

١. سورة الزلزلة، الآيتان ٧ و ٨.

والأئمة عليهم السلام، والأنبياء والأئمة بدورهم يخشون أن يصدر منهم ما يخالف الأوامر الإلهيّة، ولهذا يعتبر هذا الكلام إنذاراً لهم، فربّما يقعون مورد العتاب والعقاب من الله تعالى بسبب ترك الأولى كما أنّ النبي آدم عليه السلام أُخرج من الجنّة بسبب ترك الأولى، والنبي يونس عليه السلام أبتلعته الحوت لهذا السبب، ويعقوب عليه السلام أيضاً ابتلي بفراق يوسف عليه السلام، ومن هنا فإنّ الأنبياء أيضاً يحتاجون إلى الإنذار لئلا يتورطوا في ترك الأولى.

ما المقصود بترك الأولى؟

إنّ ترك الأولىٰ لا يعدّ ذنباً ومعصية وربّما لا يكون مكروهاً ومباحاً، بل من المندوبات، ونشير هناك إلى مثالين في هذه المجال:

١. إذا أراد شخص أن يطعم الفقراء والمحتاجين في شهر رمضان المبارك، فإنّ إطعام الجار الفقير أولى من إطعام غيره من الفقراء، وإن كان إطعام غيره من الفقراء يعدّ عملاً مستحباً. فلو أنّ هذا الشخص ترك إطعام الجار الفقير وأطعم الفقراء المحتاجين غيره، فإنّه قد ارتكب هنا ترك الأولىٰ،فمع أنّه لم يرتكب حراماً أو مكروهاً أو مباحاً، بل أتى بعمل مندوب، إلّا أنّه في ذات الوقت ترك عملاً مندوباً أكثر.

٢. إذا اشترك ٥٠ نفراً في صلاة الجماعة في مسجد معين، ولكن في مسجد آخر كان يشترك في صلاة الجماعة ٥٠٠ نفراً، ففي مثل هذه الحالة فالمشاركة في صلاة الجماعة الثانية وإن كانت في منطقة أبعد مسافة من الأُولى، إلّا أنّها أولىٰ وأكثر ثواباً، ولهذا لو أنّ هذا الشخص ترك صلاة الجماعة في ذلك المسجد الأبعد وصلى جماعة في المسجد الأول، فإنّه قد ارتكب ترك الأولى، لأنّه قد ترك ما هو أكثر استحباباً وأكثر ثواباً، رغم أنّه قد أتى بعمل مستحب أيضاً. فترك الأولى لا إشكال فيه بالنسبة للأشخاص العاديين، وأمّا بالنسبة للأنبياء والأئمة فلا ينبغي أن يصدر

منهم ذلك، فلو أنّهم ارتكبوا مثل هذا العمل فإنّ الله تعالى سيؤاخذهم على ذلك ويعاقبهم، وبالنسبة لنبي الإسلامﷺ والأئمّة الطاهرين عليهم السلام فنحن لم نشاهد منهم أي ترك أولى.

النتيجة إنّ البشارة والإنذار تتعلقان بجميع أفراد البشر حتى بالأنبياء والأئـمّة: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾.

إنّ الله تعالى خلق نظام النور والظلمة، البشارة والإنذار، وجعله في اختيار البشر حتى يتحرك من شاء في خط الصلاح والخير والسعادة ويستفيد من هذه النعم الإلهيّة للوصول إلى الجنّة والنعيم الخالد، ويتحرك من شاء من الناس في خط الانحراف والشقاء والضلالة ويبتعد عن طريق الخير والصلاح.



***

٤

أقسام سورة التكوير

السورة الرابعة التي تتضمن أقساماً ثلاثة، سورة التكوير، وهذه السورة من السور المكّية، وتتحدّث كما في غيرها من السور المكّية، عن مسائل العقائد، وتركز على موضوعات ثلاثة مهمّة: المعاد، القرآن، والنبوة.

العلائم الاثنا عشر لحلول القيامة:

إنّ الله تعالى طرح في الآيات الأولى من سورة التكوير اثنتي عشرة علامة من علامات انتهاء الدنيا وبداية أيّام الآخرة، ثم أقسم بعد ذلك بثلاثة أقسام وتحدّث بعدها عن نبوة النبي الأكرمﷺ، ونستعرض هنا تلك العلائم:

١. ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾. انظلام جرمها على نحو الاحاطة والاستعارة.

٢. ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾. سقوط النجوم وتغيّرها وذهاب بريقها.

٣. ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾. أي تحركت.

٤. ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ[1] عُطِّلَتْ﴾. العشار هي الناقةالحامل التي انقضى على حملها عشرة أشهر.

---

١. «عشار» بمعنى الناقة الحامل، وهنا وردت كناية عن الأموال الثمينة والقيمة، حيث يتركها أصحابها من كثرة الخوف والوحشة ويعطلونها.

٥. ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾. اجتماع الحيوانات الوحشية.

٦. ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[1]. إذا اشتعلت البحار وأضرمت بالنار.

٧. ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾. تزوج أهل الجنّة بحور العين، والأشقياء بقرنائهم من الشياطين.

٨. ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾. البنت الصغيرة التي دفنت وهي حيّة.

٩. ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾. الصحف كتاب الأعمال إذا نشرت للحساب.

١٠. ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾. انشقت أستار السماء.

١١. ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾. ازدادت نار جهنّم اشتعالاً.

١٢. ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾. اقتربت من أهلها للدخول إليها

ويقول تبارك وتعالى بعد أن ذكر هذه العلائم الاثنتي عشرة:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾. فكل شخص يعلم ماذا قدّم لنفسه، لأنّه يرى جميع أعماله وأفكاره وحركاته حاضرة أمامه ويجب عليه أن يستعد للمحكمة الإلهيّة العادلة.

إلهنا! وفقّنا لأن نكون من عبادك الصالحين ومن الذين يواجهون مستقبلاً مشرقاً بأعمالهم الصالحة.

الأقسام الثلاثة:

ويتحرك القرآن الكريم بعد استعراضه العلائم الاثنتي عشرة ليوم القيامة لبيان الأقسام الإلهيّة الثلاثة، ويقول:

---

١. إنّ الماء يتكوّن من عنصرين الاوكسجين والهيدروجين، وكل واحد من هذين العنصرين يختزن في نفسه النار، فإذا وصلت شرارة إلى الأوكسجين يحترق، وكذلك يمكن احراق الهيدروجين بأقل شرارة. ولكن الله تعالى القادر الحكيم خلق من هذين العنصرين القابلين للإحتراق والإشتعال تركيباً آخر يخالف الاشتعال والاحتراق بل ضدهما. أمّا على أعتاب القيامة فيفصل بين الاوكسجين والهيدورجين، فيتحولان إلى نارا

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠﴾

القسم الأول: النجوم الخمس المعروفة

والسؤال هنا، ما المقصود من «الخنس، الجوار، والكنس»؟

هناك خلاف بين المفسّرين في المقصود من هذه الكلمات، ولكنّ المعروف والمشهور أنّ هذه الكلمات الثلاث التي تشكل القسم الأول في هذه الآيات، إشارة إلى خمس نجمات معروفة:

١. عطارد، ٢. الزهره، ٣. المريخ، ٤. المشتري، ٥. زحل. (الترتيب المذكور على أساس القرب بينها وبين الشمس).

هذه النجمات الخمس تشكل أعضاء من المنظومة الشمسية والتي ترى بالعين المجرّدة، وهذه التشكيلة أو الأسرة من النجوم لها أربعة أعضاء آخرين. أحدها الكرة الأرضية، والباقي «اورانوس» و«نپتون» و«پلتون»، وهذه الثلاثة الأخيرة لا تُرى بالعين المجرّدة بل بالتلسكوب والمراصد الفضائية.

والنقطة الأخرى، فيما يتعلق بالنجوم هي أنّ بعضها ثوابت والبعض الآخر سيّار، فالثوابت تطلق على النجوم التي تكون المسافة فيما بينها ثابتة دائماً ولكن المسافة بين الكواكب المتحركة متغيرة، ومن أجل توضيح هذا التفاوت بين هاتين الطائفتين من النجوم نستعرض هذا المثال:

لو أخذنا بنظر الاعتبار قطعة قماش كبيرة طولها عشرة أمتار مثلاً وقد خيطت بها درر وشذرات بفواصل معينة، وبين الآونة والأخرى يتمّ عرض هذه القطعة من

القماش علينا بشكل متحرك، فالمسافة بين تلك الدرر ستكون ثابتة وغير متحركة وتشبه حال النجوم الثابتة، ولكن إذا وضعنا على قطعة القماش هذه عدّة درر بدون أن نخيطها بها بل تركناها لحالها، فكل مرّة تمرّ أمام أعيننا قطعة القماش المذكورة فإنّ الفاصلة بين هذه الدرر غير المخيطة ستكون متفاوتة ومتغيرة، وحال هذه الدرر حال الكواكب المتحركة أو السيارات، فالنجوم الخمس التي نراها بالعين المجرّدة وتعتبر من كواكب المنظومة الشمسية ليست ثابتة، لأنّ المسافة بينها متغيرة.

سؤال: هل النجوم الثوابت، ثابتة وساكنة في الواقع؟

الجواب: إنّ هذه النجوم متحركة أيضاً، ولكن بعيداً عنّا إلى درجة كبيرة بحيث إننا لا نرى حركتها ولذلك نتصور أنّها ثابتة.

النتيجة أنّ المقصود من «خنّس» في القسم الأول، الكواكب الخمسة للمنظومة الشمسية التي ترى بالعين المجرّدة، وهي عبارة عن: عطارد، المريخ، المشتري، الزهرة وزحل.

الخنّس، الجوار، الكنّس:

كلمة «خنّس» جمع خانس (طبقاً لما ورد في مجمع البيان) بمعنى المختفي. وبما أنّ النجوم تظهر في الليل ولا تظهر بالنهار بسبب ضوء الشمس لذا يقال عنها بأنّها خنّس.

«الجوار» جمع جارية بمعنى الذي يسير ويجري، فلو شبّهنا السماء بالمحيط مثلاً فإنّ النجوم الخمس بمثابة السفن المتحركة على سطح هذا المحيط.

وهذه الكلمة في الحقيقة إشارة إلى إحدى معجزات القرآن العلمية، لأنّ نظرية بطليموس عند نزول القرآن على قلب النبي الأكرمﷺ كانت هي السائدة في المحافل الفلكية في العالم آنذاك وكانت مهيمنة وحاكمة مدّة ألف عام إلى أن ثبت

بطلانها في عصر غاليلو وبسبب اكتشافاته، وكان بطليموس يعتقد بأنّ جميع النجوم موضوعة في طبق شفاف زجاجي اسمه الفلك، وأنّ هذه النجوم معلقة بسقف الفلك، وبدون أيّة حركة مستقلة، فالفلك الشفاف هو الذي يتحرك وهي تتحرك معه، وتبعاً له، ولكن القرآن الكريم في الآية المذكورة يتحدّث عن وجود حركة مستقلة للنجوم، وقد أثبت بذلك بطلان نظرية بطليموس قبل غاليلو بمئات الأعوام.

وقد أشار تبارك وتعالى في الآية ٤٠ من سورة يس إلى هذه المعجزة العلمية أيضاً وقال:

﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

وهذه الآية أيضاً على خلاف ما ورد في نظرية بطليموس، وتقرر الآية وجود حركة مستقلة للنجوم.

وأمّا مفردة «كنّس»، فقد ذهب بعض المفسّرين كالمرحوم الطبرسي إلى أنّها لا تختلف عن كلمة «خنس» وتفيد ذلك المعنى من الخفاء أيضاً، ومن هنا فهي مجرّد تأكيد، ولكنّ المرحوم فيروزآبادي، طبقاً لما ورد في كتاب «القاموس»، يعتقد بأنّ معنى الكُنس يختلف عن الخنّس ويقول: «الخنس» الشيء الذي يذهب ويعود، و«الكنس» الشيء الذي يختفي عن الأنظار، ومن هنا قيل عن الشيطان بأنّه «خنّاس»، لأنّه يوسوس للإنسان من حيث يغدو ويروح عليه ولا ييأس منه، والنجوم الخمس مورد البحث يقال عنها «الكنس» لأنّها تظهر في الليل وتختفي في النهار، وكأنّها تذهب وتعود وعلى الأقل في تصورنا، ولهذا قيل لها كنّس، ومع هذه التوضيحات المذكورة فإنّ معنى القسم الأول كالتالي:

أُقسم بالنجوم الخمس: عطارد، الزهرة، المشتري، زحل والمريخ، التي تتحرك وتذهب وتعود على صفحة السماء، وتظهر في الليل وتختفي في النهار...

القسم الثاني: قسم بالسحر

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾.

إنّ ظلام الليل ليس على وتيرة واحدة، فكلما اختفت الشمس أكثر فإنّ الليل سيكون دامساً أكثر، إلى أن يحين وقت السحر فيكون الجو في غاية الظلام، ومع طلوع أول اشراقات الصبح يختفي الظلام تدريجياً، ويبدأ الصبح بالظهور والاضاءة.

إنّ الله تعالى في هذه الآية الشريفة لم يقسم بجميع الليل، بل بقسم منه وهو وقت السحر الذي يبلغ فيه الظلام الذروة.

القسم الثالث: قسم بالصباح

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

ما أعجب هذا التعبير! وكأنّ النهار كان يعيش في ضيق واختناق تحتَ ظلام الليل، بحيث لا يستطيع التنفس، ومع طلوع الفجر الصادق وبشائر ضوء النهار، فإنّ الصبح، الذي هو طليعة النهار، يبدأ بالتنفس، والتنفس في وقت الصباح ليس فقط ذا قيمة للأرض والطبيعة بل للإنسان أيضاً، ومن هذه الجهة فقد وردت توصيات بالحركة والرياضة والتنفس العميق في أول ساعات الصباح.

الخلاصة، إنّ الله تعالى في هذه السورة يقسم بالنجوم الخمس المعروفة وبوقت السحر والصبح، وفي الحقيقة يقسم بنظام النور والظلمة.

لماذا كل هذه الأقسام؟

ما هي الغاية من القسم بهذه المخلوقات المهمّة، ولماذا أقسم الله تعالى بالنجوم وبوقت السحر وبالصبح؟

إنّ الآية الشريفة التالية تبيّن في الحقيقة المقسم له، أو المقصود والمراد من هذه

الأقسام الثلاثة، وتقول:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾؛ أي قسماً بالنجوم والصبح والسحر إنّ هذا القرآن هو كلام رسول كريم (جبرائيل) من الله تعالى إلى نبي الإسلامﷺ وليس من بنات أفكار النبي وتصوراته الذهنية. قسماً بالأمور الثلاثة المذكورة أنّ القرآن وحي سماوي قد نزل به جبرائيل من الله تعالى على نبي الإسلامﷺ.

وهنا يذكر الله تعالى خمس صفات لجبرائيل، وكأنّه يريد أن يعلن للجميع أنّ الرسُل ينبغي أن تتوفر فيهم هذه الصفات الخمس:

١. «كريم»؛ فأوّل صفة لهذا الرسول الإلهي أنّه: كريم، فالأشخاص الذين يعيشون الاهتزاز في الشخصية، والانحطاط في الخلق، والدناءة في النفس لا يليقون لتحمل هذه المهمّة الكبيرة.

٢. «ذي قوّة»؛ والصفة الأخرىٰ لهذا الرسول أنّه قوي ومقتدر وبإمكانه أداء المهمّة بأحسن وجه، فالأشخاص الضعفاء لا ينبغي اختيارهم لهذه المهمّة.

٣. «عند ذي العرش مكين»؛ والخصوصية الأخرى أنّ هذا الرسول يملك مقاماً سامياً ومرتبة راقية عند الله تعالى، فلا تكفي الصفات المادية الدنيوية، بل ينبغي أن يكون الرسول علىٰ مرتبة عالية من التقوى، والعبودية.

٤. «مطاع»؛ فكما أنّ جبرائيل مطاع بين الملائكة، وأنّ الملائكة تقبل كلامه وتذعن لأوامره، فإنّ رسولكم الإلهي يجب أن يكون بدرجة من المكانة الاجتماعية بحيث يكون مطاعاً ومقبولاً عند الناس، لا أن يكون بحيث لا يسمعون لكلامه ولا يعتنون بأوامره ولا يملك وجاهة اجتماعية ومكانة راقية بين الناس.

٥. «أمين»؛ وآخر خصوصية للرسول، مضافاً إلى الصفات والخصوصيات الأربع المتقدّمة، لزوم أن يكون أميناً، فرعاية الأمانة تعتبر من الصفات الأخلاقية العالية ومن السمات المحمودة، والتي ينبغي للرسول أن يتصف بها.

الخلاصة، أنّ رسول الله إلى النبي ﷺ وهو جبرائيل، يملك خصوصيات خمس، وينبغي على المسلمين والمؤمنين إذا أرادوا أن يختاروا رسولاً من بين أفراد البشر، أن يختاروا من يتصف بهذه الصفات ويملك هذه الخصوصيات المذكورة.

وقد ورد في حديث شريف أنّه لما نزلت هذه الآيات على النبي الأكرم ﷺ قال النبي لجبرائيل:

«ما أحسن ما أثنى عليك ربّك!: ذي قوّة عند ذي العرش مكين، مطاع ثمّ أمين، فما كانت قوتك؟ وما كانت أمانتك؟

فقال: أمّا قوّتي فإنّي بعثت إلى مداين لوط وهي أربع مداين في كلّ مدينة أربعمائة ألف مقاتل سوى الذراري، فحملتهم من الأرض السفلى حتى سمع أهل السماوات أصوات الدجاج ونباح الكلاب، ثم هويت بهّن فقلبتهّن.

وأمّا أمانتي، فإنّي لم أؤمر بشيء فعدوته إلى غيره»[1].

النتيجة، أنّ الله تعالى في هذه الآيات الشريفة أقسم بالنجوم الخمس بخصوصياتها الثلاث، وبالسحر وبالصبح. على أنّ القرآن الكريم هو رسالة إلهيّة نزل بها جبرائيل «بالمواصفات الخمس» على قلب النبي الأكرم ﷺ فلا ينبغي أن تتصور أنّ هذا الكتاب السماوي هو من تأليف البشر.

هداية القرآن:

والآن عند الحديث عن القرآن الكريم نرى من المناسب أن نتعرف أكثر على هذا الكتاب السماوي المصون من التحريف والمشحون بالمعارف الإلهيّة.

ومن أجل تحقيق هذا الهدف هناك طرق كثيرة، أحدها مطالعة نهج البلاغة لأمير المؤمنين الإمام علي ﷺ، وهنا اخترنا عدّة كلمات وردت في الخطبة ١٧٦ من

---

١. التفسير الأمثل، ذيل الآية المذكورة.

نهج البلاغة تتحدث عن القرآن الكريم:

«وَاعْلَمُوا أَنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذي لا يَغُشُّ والهادِي الَّذي لا يُضِلُّ وَالْمُحَدِّثُ الَّذي لا يَكْذِبُ».

إنّ أفراد البشر الذين يتحركون من موقع تقديم النصيحة للآخرين ربّما يدفعهم لذلك دافع الأهواء أو المنافع الشخصية ويهدفون لتحقيق مصالحهم، وبالتالي يترتب على ذلك خيانة للطرف المقابل، ولكنّ القرآن الكريم هو الناصح الذي لا يخون صاحبه ولا يغشه.

«وَالْهادِي الَّذي لا يُضِلُّ».

والأشخاص الذين يتولون زمام هداية الناس ويتعاطون شأن الإرشاد الديني والأخلاقي ربّما يقعون في شراك الوساوس الشيطانية والأهواء النفسانية من حيث لا يشعرون وبالتالي يقودون الآخرين عمداً أو سهواً في خط الانحراف، ولكن هناك من يتولى شأن الهداية بدون نقص أو قصور ولا يُضلّ الإنسان أو يدفعه في طريق المتاهة أبداً، وهو القرآن الكريم.

«وَالْمُحَدِّثُ الَّذي لا يَكْذِبُ».

إنّ الخطيب كلما كثر كلامه فإنّ احتمال وقوعه في الخطأ ومخالفة الواقع تزداد بنفس النسبة، أمّا القرآن الكريم فهو الخطيب الذي لا يكذب اطلاقاً، فالقرآن يكشف الوقائع ويعمل على إزالة الغبار عن الحقائق ويبديها للناس كما هي، بدون أي زيادة أو نقيصة، فلا يخلق تشويشاً بين الإنسان والحقيقة.

ألا ينبغي أن نتعرف أكثر على الكتاب الذي لا يغش في نصيحته، ولا يضلّ في هدايته، ولا يكذب في كلامه، ونجعل منه معياراً لأعمالنا، ومنهجاً لسلوكنا، وسراجاً لإضاءة طريقنا في حركة الحياة؟

ويضيف الإمام علي عليه السلام:

«وَما جالَسَ هٰذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلّا قامَ عَنْهُ بِزِيادَةٍ أَوْ نُقْصانٍ، زِيادَةٍ فِي

هُدًى، أوْ نُقْصانٍ مِنْ عَمىً».

سؤال: إنّ القاريء للقرآن، على حد تعبير الإمام علي عليه السلام يجد في نفسه زيادة في معارفه أو فضائله الأخلاقية، أو نقصاناً من جهله أو رذائله الأخلاقية؟ ولكن هل يتحقق هذا الأمر في كل جلسة قرآنية يشترك فيها الإنسان لتلاوة القرآن؟

الجواب: وفقاً لهذه الرواية المذكورة، فإنّ المؤمن في كل جلسة من جلسات القرآن يحصل له هذا الأثر الإيجابي.

ومهما يكن من أمر فإنّ معنى الكلام المذكور في هذه الرواية أنّ عملية هداية القرآن لا تنتهي عند حدّ كما أنّ بعض الآيات القرآنية تشير إلى هذا الأمر، مثلاً تقول الآية ١٢٤ من سورة التوبة:

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

أجل، فالجلوس مع القرآن والاقتباس من أنواره ومعارفه يزيد المؤمنين إيماناً، ولكن بالنسبة للكفّار يؤدي إلىٰ المزيد من إضلالهم وابتعادهم عن الحق والخير.

سؤال آخر: كيف يزيد القرآن من ضلال الكفّار ومرضهم؟

الجواب: إنّ القرآن لا يعمل على زيادة كفرهم وضلالهم، بل إنّ السبب في ذلك هو مخالفتهم للقرآن وتمردهم على التعاليم الإلهيّة ممّا يزيد في عذابهم وتوغلهم في خط الباطل والشر والضلالة.

ربّنا! اجعلنا من الذين يزدادون إيماناً بتلاوتهم لكل آية من آيات القرآن الكريم وطهر قلوبنا بتلاوته من الشوائب الدنيوية والرذائل الأخلاقية.

ربّنا! وفقنا للتدبر والتفكر في آيات القرآن الكريم والاستلهام من أنواره والاستهداء بتعاليمه.

سؤال ثالث: نحن نعلم أنّ القرآن الكريم لم ينزل لغرض التلاوة فقط، بل الهدف الأساس هو التدبر والتفكر في مضامينه العالية ومعارفه العميقة ثم العمل بتعاليمه والتحرك على صعيد الواقع والممارسة لتجسيد أحكامه وقيمه كما تقول الآية ٢٩ من سورة ص: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾.

وعلى هذا الأساس فالهدف الأصلي من القرآن هو التدبر في آياته، ولكن من جهة أخرى ورد في الروايات الشريفة النهي عن التفسير بالرأي، ونعلم أنّ المقصود هنا هو العقل والتفكير، أي النهي عن التدبر والتفكير في الآيات القرآنية، ألا يتقاطع هذان المعنيان؟

الجواب: ذهب العلماء والمفسّرون الكبار إلى أنّ المراد من التفسير بالرأي هنا، تفسير القرآن من خلال الاعتماد على المسبوقات الفكرية والرواسب الذهنية غير المنطقية، وبعبارة أخرى أنّ تفسير القرآن على نحوين:

الأول: أن نجلس أمام القرآن الكريم بكل احترام وخضوع ونعتبر أنفسنا من تلامذة القرآن وأنّ القرآن أستاذنا، وبذلك نتمسك بما نستوحيه من الآيات الكريمة من مفاهيم وتعاليم إلهيّة.

الثاني: أن نعتقد بجملة من القضايا والتصديقات مسبقاً ومن ثمّة نبحث في ثنايا القرآن لنجد مؤيدات لأفكارنا من الآيات الكريمة، وهذا هو التفسير بالرأي المنهي عنه.

إنّ أصحاب العقائد الفاسدة كثيراً ما يفسرون الآيات القرآنية بما يتفق مع عقائدهم المنحرفة وأفكارهم الفاسدة ويطرحونها في الصحف والكتب، ومثل هؤلاء الأشخاص ستكون عاقبتهم سيئة ومصيرهم إلى النار، وللأسف فإنّ جهاز الحكم الأموي في زمن معاوية قد تحرك في هذا الخط. فكان معاوية يستأجر بعض الأشخاص الانتهازيين ليفسروا القرآن وفقاً لرغبات معاوية، ويذكرون بعض الآيات

كشاهد على مدح عبدالرحمن بن ملجم قاتل الإمام علي﴿ع﴾، وآيات أخرى كشاهد على ذم الإمام علي﴿ع﴾.

الخلاصة، أنّ التدبر في الآيات القرآنية من موقع الخلوص والذهنية المنفتحة على الحق هو المطلوب، ولكنّ إسقاط الأحكام المسبقة على القرآن وتفسير الآيات الكريمة بالرأي هو المرفوض.

سؤال آخر: إنّ ظاهر الآية الشريفة ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أنّ هذا الكلام هو قول جبرائيل، في حين أنّ المسلمين بأجمعهم يعتقدون بأنّ القرآن كلام الله تعالى، ولم يتعرض للتحريف لا بزيادة حرف ولا بنقصان حرف، فكيف توفقون بين هذين الأمرين؟

الجواب: يمكن الاجابة عن هذه الشبهة بنحوين:

الأول: أنّ السورة تتضمن في سياقها قرينة أنّ هذا الكلام هو كلام الله لا كلام جبرائيل، لأنّ جبرائيل رسول الله، وكلام الرسول في الحقيقة هو كلام من أرسله، لأنّ الرسول لا يحدّث بشيء من عنده.

وبكلمة أخرى أنّ جبرائيل مجرّد واسطة، ومهمته إبلاغ كلام الله تعالى للنبي، وعليه فإنّ كلمة «رسول» في الآية الشريفة تنطوي على قرينة أنّ القرآن ليس كلام جبرائيل بل كلام الله الذي جاء به جبرائيل وأوحاه إلى النبي الأكرم﴿ص﴾.

الآخر: على فرض عدم القبول بالجواب الأول والقول إنّ الآية الشريفة مجملة ومبهمة في هذا المجال، فبالإمكان إزاحة هذا الإبهام من خلال الاستعانة بآيات أخرى من القرآن الكريم تتحدث عن هذا الموضوع، ومن ذلك الآيات الأولى من سورة الرحمن:

﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.

وهذه الآيات الشريفة تصرح بأنّ القرآن كلام الله وتنسب تعليمه إلى الله تعالى،

وعليه فإذا رأينا وجود إبهام في الآية مورد البحث أمكننا رفع هذا الغموض والإبهام بواسطة الآيات الأولى من سورة الرحمن أو آيات مشابهة أخرى.

السماء في القرآن:

في الماضي لم يكن العلم قد تطور بالحدّ الكافي، فالإنسان عندما كان ينظر إلى السماء، كان يتصور أنّها بمثابة القبة الزرقاء التي لا تبعد عنّا بمسافة بعيدة، وأمّا النجوم فهي كالمسامير الفضية المثبتة في هذه القبة وتنعكس منها أنوار القمر والشمس، وكان العلماء في ذلك الزمان يتصورون أنّ القمر والشمس وكذلك النجوم مثبتة في السماء وغير متحركة بل إنّ السماء هي التي تتحرك وتدور كالفلك الدوار، وكلما تطور العلم كشف للإنسان عن أبعاد جديدة ومجاهيل عجيبة في هذا العالم الفسيح وتتجلى عظمة السماء للإنسان أكثر فأكثر، ومن المعلوم أنّ العرب كانوا يملكون تصوراً بدائياً عن السماوات، ولكنّ القرآن الكريم أزاح الستار عن عظمة السماوات وذكر أموراً عظيمة لم تخطر ببال العرب الجاهلين، ونحن هنا نلقي نظرة سريعة على الآيات التي تتصل بهذا الموضوع.

إنّ كلمة السماء وردت في القرآن الكريم ١٢٠ مرّة، وكلمة السماوات ١٩٠ مرّة، وهذا يدل على أنّ هذا الكتاب السماوي بحث مسألة السماوات بحثاً مفصلاً، ويمكن تقسيم الآيات المذكورة إلى أربع طوائف من جهة ما تتحدث عنه من محاور:

١. الآيات التي تتحدّث عن خلق السماوات

ومن هذه الآيات الآية ٥٧ من سورة غافر:

﴿لَخَلْقُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

إنّ خلق السماوات في المفهوم القرآني إلى درجة من الأهميّة بحيث إنّ خلقها أهم وأعظم من خلق الإنسان مع كل ما يتضمنه الإنسان من أسرار وعجائب ودقائق.

٢. الآيات التي تتحدّث عن مجموعة النجوم

ومن هذه الآيات يمكن الإشارة إلى الآيتين ٧٥ و ٧٦ من سورة الواقعة:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

وقد ذكر المفسرون لكلمة «مواقع» تفسيرين:

أ) المراد من «المواقع» مدارات النجوم حيث إنّها تتحرك وتدور في مدارات خاصة.

ب) المراد من المواقع هو وقت طلوع النجوم وغروبها، فكل نجمة لها أُفق خاص ولحظة خاصّة تطلع فيها وتغرب.

وفي الحقيقة فإنّ الله تعالى أقسم بالنظام الدقيق الحاكم على عالم النجوم ومداراتها وطلوعها وغروبها، وهذا القسم مهمّ جدّاً.

٣. الآيات التي تتحدّث عن بعض النجوم بالخصوص

ومن جملة هذه الآيات هي آيات سورة التكوير وهي الآيات مورد البحث، فإنّ الله تعالى أقسم في هذه السورة بخمسة كواكب معروفة، عطارد، الزهرة، زحل، المريخ والمشتري.

٤. الآيات التي تتحدّث عن نجمة خاصّة

ومنها الآية الشريفة ٤٩ من سورة النجم، وهذا شاهد جيد للآيات السابقة:

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾.

وقد كان الناس في عصر نزول القرآن يتصورون أنّ نجمة «الشعرى» هي نجمة منيرة جدّاً، ويقلّ نظيرها في السماء. وهناك نجمتان بهذا الإسم:

أحدهما: «نجمة الشِعرى اليمانية» التي تقع في جنوب جزيرة العرب.

والأخرى: «الشعرى الشامية» التي تقع في شمالها، ولكن بمرور الزمان تبيّنت عظمة وعجائب هذه النجمة الغريبة وتمّت إزاحة الستار عن بعض أسرارها ورموزها، ونكتفي هنا بالإشارة إلى بعض معالمها:

أ) الحرارة المذهلة!

إنّ الشمس تعدّ بالنسبة لنا مصدر الحرارة، وتبلغ درجات الحرارة على سطح الشمس بما يقرب من ٦ آلاف درجة سانتي غراد، وطبعاً ففي مثل هذه الدرجات الحرارية العالية فكل شيء يتحول إلى بخار وغاز، هذا والحال أنّ درجة الحرارة على سطح نجمة الشعرى ١٢٠ ألف درجة سانتي غراد، أي أنّ درجة حرارة الشعرى أكبر بـ ٢٠ مرّة من درجة حرارة الشمس، وهذه في الواقع درجة عالية جدّاً ومذهلة.

ب) الحجم العظيم!

إذا وضعنا ١/٢٠٠/٠٠٠ كرة أرضية على بعضها فسوف تكون بمقدار حجم الشمس، أي أنّ الشمس أكبر من الأرض ١/٢٠٠/٠٠٠ مرّة، ولكنّ هذه الشمس وبهذه العظمة والضخامة صغيرة الحجم مقارنة بنجمة الشعري، لأنّه لو أدغمنا ٢٠ شمساً مع بعضها فسوف تكون بمقدار حجم الشعرى، وعلى هذا الأساس فإنّ حجم نجمة الشعرى يبلغ ٢٤ مليون مرّة أكبر من الأرض!

ج) الجاذبية العجيبة!

ومن المعلوم أنّ وزن الأجسام يرتبط مباشرة بقوة الجاذبية، فوزن الحجر الذي يبلغ كيلو غراماً واحداً على الأرض، يكون وزنه على الشعرى ٥٠ طناً، لأنّ جاذبية الشعرى ٥٠/٠٠٠ مرّة أشدّ من جاذبية الكرة الأرضية.

د) الفاصلة البعيدة جدًّا

إنّ المسافة بيننا وبين الشمس تبلغ (١٥٠) مليون كيلومتراً، والفاصلة بيننا وبين الشعرى تبلغ مليون مرّة فيما بيننا وبين الشمس. وحينئذٍ يكون حاصل ضرب العددين المذكورين، رقماً كبيراً يتضمن (١٥) رقماً (١٥٠/٠٠٠/٠٠٠/٠٠٠/٠٠٠)! أي ١٥٠ بليون.

الواقع أنّ الناس في عصر نزول القرآن، عندما كانوا يتحدّثون عن نجمة الشعرى لم يكونوا يتصورون أي شيء من أسرار هذه النجمة الكبيرة وعجائبها.

إنّ هذه الآية الشريفة تعتبر من معجزات القرآن الكريم العلمية . فالقرآن الذي تحدّث عن عظمة موجودات هذا العالم من أجل تحريك عقول الناس وإذكاء روح البحث والتحقيق والتأمل.

٥

أقسام سورة الليل

ومن السور الأخرى التي وردت فيها أقسام ثلاثة، سورة الليل:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾﴾

القسم الأول والثاني: قسم بالليل والنهار

سؤال: إنّ الله تعالى أقسم في هذه الآيات مرّة أخرى بالليل والنهار، ألا يخل هذا التكرار بفصاحة القرآن وبلاغته، ولماذا للمرّة الثالثة يقسم الله تعالى بالليل النهار، فهل تختلف هذه الأقسام فيما بينها ويعدّ كل واحد منها قسماً جديداً؟

الجواب: إذا دققنا النظر في الآيات محل البحث فسوف نرى أنّ هذه الأقسام غير مكررة، وليس فقط لا تتنافى مع فصاحة القرآن وبلاغته بل هي شاهد آخر على فصاحته وبلاغته، لأنّه بالرغم من أنّ هذه الموارد الثلاثة للقسم بالليل والنهار

متشابهة في الظاهر ولكنّ القسم بكل مورد منها في الحقيقة قسم بجزء من الليل والنهار، وذلك كما يلي:

في مورد يقول القرآن: ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ فهنا لم يقسم بكل الليل بل بالنصف الثاني منه.

وفي مورد آخر يقول: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ وهنا نرى أنّ القسم وقع بوقت خاص من الليل لا كلّ الليل، وذلك في الوقت الذي يقترب من آذان الصبح وقبل طلوع الفجر الصادق حيث تستعد أجواء السماء لاستقبال ضياء الفجر.

وفي الآيات مورد البحث من سورة الليل نقرأ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ أي قسم بالليل عندما يغطي الضياء، فهنا القسم بوقت خاص من الليل، أي أول الليل، ومن هنا فإنّ الله تعالى أقسم بثلاثة أوقات خاصّة من الليل ولم يقع التكرار في هذه الأقسام.

وأمّا الآيات المتعلقة بالنهار، ففي مورد يقول: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ وهو إشارة إلى بداية الصبح.

وفي مورد آخر يقول: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ وهنا نرى أنّ القسم بوقت طلوع الشمس.

وفي الآية الثالثة يقول: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ أي ما يقترب من الظهر وارتفاع الشمس، إذن فهذه الموارد الثلاثة من الأقسام تختلف فيما بينها. بل تحكي عن حالات مختلفة من النهار، ففي الأولى تتحدّث الآية عن بداية طلوع الفجر الصادق، وفي الثانية بداية طلوع الشمس، وفي الثالثة عند ارتفاع الشمس في قلب السماء، وهذا يعكس غاية الفصاحة والبلاغة في القرآن الكريم ويريد الله تعالى إفهامنا أنّ النهار بمجموعه لا يعتبر آية واحدة، والليل بمجموعه ليس آية وحدة بل إنّ الحالات المختلفة لليل والنهار كل واحدة منها تعتبر آية مستقلة من الآيات الإلهيّة، كما أنّ هذه الحقيقة في مورد الإنسان وردت في الآيتين ٢٠ و ٢١ من سورة الذاريات:

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

أي أنّ وجود كل إنسان لا يعتبر آية وعلامة على عظمة الله فحسب، بل إنّ وجود كل إنسان يتضمن آيات وعلائم متعددة، وإحدى الآيات العجيبة في وجود البشر هي أنّ الإنسان يتناول نوعاً واحداً من الغذاء، ولكنّ هذا الغذاء عندما يصل إلى عظام الإنسان يتحوّل إلى عظم، وعندما يصل إلى الدم يتحوّل إلى دم، وعندما يصل إلى عين الإنسان يتحوّل إلى دمع، والخلاصة فإنّ هذا الغذاء عندما يصل إلى كل عضو من أعضاء الإنسان يتبدل إلى ما يجانس ذلك العضو.

وهكذ الحال في الطبيعة من الماء والهواء والأرض، فالنباتات والأشجار التي تستقي من ماء واحد وتتنفس هواءً واحداً وتنمو على أرض واحدة، تنتج محاصيل متنوعة وثماراً مختلفة، وكل واحد منها آية مستقلة من آيات الله تعالى، فبداية الليل ووسطه ونهايته، وكذلك بداية اليوم، وطلوع الشمس، وعند الظهر،كل واحدة منها لها خصوصيات معينة وقد أقسم الله تعالى بكل لحظة من هذه اللحظات، إنّ الليل يوفّر للبشر بل والحيوانات وحتى الأشجار والكائنات الحيّة، أجواء ملائمة وهادئة للراحة، ولإزالة التعب[1]، فالليل نعمة كبيرة يستحق أن يقسم الله به.

النتيجة، إنّ القسم الأول من آيات سورة الليل، تبدأ بالقسم بمطلع الليل حيث يحلّ الظلام في أجواء العالم، والقسم الثاني قسم بمنتصف النهار حيث يسطع ضوء الشمس ويُضيء جميع الأجواء.

القسم الثالث: القسم بالذكر والانثى

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ هنا ينطلق القرآن الكريم لبيان أهميّة التقسيم الثنائي

---

١. يعتقد العلماء بأنّ النحل وحده الذي لا ينام ولا يستريح ويعمل بنشاط في الليل والنهار، كأنّ نشاطات النحل وأعماله إلى حدّ لا يجد مجالاً للراحة والهدوء!

في الأحياء، وفي مضمون الآية الثالثة يقسم الله تعالى بمن خلق جنس المذكر والمؤنث، والملفت للنظر أنّ المذكر والمؤنث وردا بصورة مطلقة ولم يقيد بالإنسان، وكأنّ الآية ناظرة إلى جميع أشكال الزوجية الموجودة في عالم الخلقة، كما ورد هذا الموضوع بصراحة في الآية الشريفة ٤٩ من سورة الذاريات:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ومن هنا فإنّ قانون الزوجيّة حاكم على جميع أرجاء العالم حيث يشمل البشر، الحيوانات، النباتات، وحتى الجمادات أيضاً، لأنّ الأصل الأولي الذي يتشكل منه جميع الجمادات هو الذرة، وفي قلب كل ذرة هناك عنصران: الألكترون والبروتون وأحدهما موجب والآخر سالب، وأحدهما مذكر والآخر مؤنث، ومهما يكن من أمر فإنّ عالم الزوجية عالم عجيب، رغم أنّ هذه الحقيقة لكثرة توفرها أصبحت من الأمور العادية التي لا تحضى باهتمام كبير، وعلى سبيل المثال إذا أخذنا وردة ونظرنا إليها بإمعان لرأينا أن وسطها خيوط دقيقة تحمل في رأسها حبوب اللقاح، وهذه تمثّل جنس المذكر في هذه الوردة. وحبوب اللقاح هذه تنتقل بواسطة الحشرات أو الرياح وأمثال ذلك لتسقط على الجزء الأسفل منها الذي يكون على شكل طبق أو قدح، وهكذا تنمو الثمرة من عملية التلقيح هذه، بعد أن تتكوّن النطفة في هذا الجزء السفلي والذي يسمى «المدقة».

وما أكثر ما رأينا النحل ينتقل من وردة إلى أخرى ويستقي من رحيقها، ولكن لم نفكر في هذا الموضوع يوماً، أي موضوع تلقيح الوردة بواسطة هذه الحشرة عندما نستنشق عطر الورد ونتنفس النسيم الهاب من خلال أوراق الأشجار والأزهار، ولكننا لا نفكر بما يترتب على ذلك من أسرار ودقائق في عملية النمو وإنتاج الثمار، هذه كلها آيات تشير إلى عظمة الباري تعالى وقدرته المطلقة.

ولا غرابة أن يقسم الله تعالى بنفسه حيث خلق قانون الزوجية في عالم الخلقة لتستمر حركة الوجود والحياة.

الخنثى وتغيير الجنس:

ومضافاً إلى جنس الذكر والانثى الذي تتشكل منه الغالبية العظمى من البشر، فأحياناً نرى وجود بعض أفراد يحملون في بدنهم علامات الجنسين، وهم الخنثى، وقد خلق الله تعالى الخنثى لكسب العبرة وكنموذج للقدرة.

هؤلاء الأشخاص ممن شذ عن قانون الطبيعة الزوجية، على قسمين:

١. الأشخاص الذين يملكون في الأصل جنساً واحداً والثاني يتفرع عليه ويمثّل حالة ثانوية، كأن يكون الأصل في هذا الخنثي هو الرجولية، والانثوية متفرعة عليه، أو بالعكس، فمثل هؤلاء الأشخاص بإمكانهم إجراء عملية جراحية وإزالة الجنس الفرعي والثانوي أو تقوية الجنس الأصلي بواسطة تزريق الهرمونات المذكرة إذا كان رجلاً وبالتالي يحصل على اكتمال الجنسية، ويطلق على مثل هذه العمليات الجراحية تغيير الجنسية.

٢. الأشخاص الذين يحملون عناصر أصلية من كلا الجنسين، وطبعاً فإنّ مثل هؤلاء الأشخاص نادرون جدّاً، وقد ورد في بعض الروايات أنّ أحد هذه النماذج كان موجوداً في عصر الإمام علي عليه السلام وكانت امرأة قد ولدت أطفالاً من زوجها[1]، ولكنّها بسبب مقاربتها لجاريتها فإنّ الجارية حملت منها، وفي مثل هذا الفرض يمكن إجراء عملية جراحية أيضاً واختيار أحد الجنسين، وطرح الجنس الآخر.

تغيير الجنسيّة الشكلي:

إنّ تغيير الجنسيّة في الحالتين المتقدمتين لا إشكال فيه شرعاً[2]، ولكن في غير هاتين الصورتين لا يجوز ذلك، لأنّ تغيير الجنسية لا يتمّ على نحو الحقيقة

١. وسائل الشيعة ج ١٧، الباب ٢ من أبواب ميراث الخنثى، ح ٣.

٢. طبعاً إذا لم يستلزم ذلك النظر واللمس الحرام، ويجب الاكتفاء بالمواقع والحالات الضرورية فقط، وضمناً ذكرنا مباحث تغيير الجنسيّة، في الجزء الثالث من الاستفتاءات الجديدة، فصل الأحكام الطبيّة.

والماهية، وللأسف فإنّ هذا النوع من تغيير الجنسية شائع في أوربا بشكل عام وفي أمريكا بشكل خاص، فهناك رجال تكتمل فيهم عناصر الرجولية ويقومون بتغيير جنسهم ظاهراً ويصيرون كالمرأة، وهنا نساء تكتمل فيهنّ العناصر الأُنثوية يتحركن على مستوى تغيير جنسهنّ ويظهرن بشكل الرجال في الملامح البدنية الظاهرية، وهذا العمل يعتبر من المرض النفسي ويمتد إلى عوامل مختلفة، ونشير هنا إلى اثنين منها بشكل مختصر:

١. تزريق هورمونات الجنس المخالف بدون مبرر، فالنساء بتزريقهنّ هذه الهورمونات يملكن بعض خصائص جنس الرجال، والرجال بدورهم وبتزريق هذه الهورمونات يُفعّلون في أنفسهم صفات جنس النساء.

٢. السلوك السلبي وغير المدروس للوالدين وطريقة تعاملهم مع الأولاد في شكل ملابس الطفل ونوع تربيته وحتى كيفية رعايته، فكل هذه الأساليب الخاطئة تؤثر بشكل لا شعوري في عملية الإيحاء النفسي لهؤلاء الأطفال بسلوك الطريق السلبي في الحياة.

على أيّة حال، فإنّ تغيير الجنسية الكاذب يعتبر من مفاسد العالم الحديث ومن افرازات المجتمعات المتقدمة، وطبعاً فقسم من هذه المظاهر السلبية تعود للرغبة في التنوع والإفراط في اللذة.

الإمام علي عليه السلام وحلّ المشكلات العويصة:

ونقرأ في التواريخ أنّ بعض هؤلاء الأشخاص من الخنثى كانوا يأتون إلى الأئمّة عليهم السلام ليسألوا منهم عن حكمهم أو يرشدوهم إلى طريق لحل مشكلتهم، وكان الأئمّة عليهم السلام بالرغم من عدم تطور علم الطب في ذلك العصر والزمان وعدم وجود المختبرات الطبية وأمثال ذلك، يطرحون حلولاً ومعالجات لهذه المشكلة، ومن ذلك

ورد أنّ أحدهم جاء إلى الإمام علي عليه السلام وكان ظاهره أمرأة، وكان طويل الشعر ويلبس لباس النساء وبعد أن تحدث معه الإمام قال: إنّ هذا الشخص رجل، ولذلك أمر فوراً بقص شعره واستبدال ملابسه بملابس الرجال[1].

أجل، لقد كان الإمام علي عليه السلام ملجأ الناس في حل معضلاتهم الفكرية ومآزقهم العملية ومسائلهم الدينية.

قيادة المسلمين:

سؤال: لنفترض أنّ نبي الإسلام صلى الله عليه وآله لم يتحدّث طيلة فترة نبوته بمن يخلفه في إدارة شؤون الأمّة، ولنفترض أنّ واقعة الغدير والروايات المتواتر الكثيرة في مسألة نصب علي عليه السلام لمقام الخلافة لم تكن موجودة، ولنفترض عدم وجود مسألة الدواة والقلم واتخاذ بعض الصحابة موقفاً سلبياً وخاطئاً منها، والخلاصة لنفترض أنّه لا توجد أي آية أو حديث نبوي يقرر الشخص الذي يتولى شؤون الخلافة بعد نبي الإسلام صلى الله عليه وآله، فماذا يجب على المسلمين أن يختاروا لهم بمقتضى آليات العقل والوحي؟

الجواب: إنّ القرآن الكريم يجيب عن هذا السؤال بشكل عام، ويطرح أمامنا مسألة الشروط الموضوعية التي ينبغي توفرها في ذلك الشخص، فعندما جاء بنو اسرائيل اصموئيل ليختار رجلاً قائداً وشجاعاً ليقودهم في ساحة المواجهة مع جالوت الظالم وجيشه، فما كان من ذلك النبي إلّا أن اختار لهم شاباً شجاعاً يدعى طالوت، ونصبه عليهم ملكاً وقائداً لجيشهم.

ولكن بني إسرائيل تعجبوا من هذا الاختيار ولم يذعنوا في بداية الأمر لقيادة شاب فقير لا يملك شيئاً من حطام الدنيا، وقد عسر عليهم قبول هذا الأمر واعترضوا على نبيّهم بأنّه كيف تؤمّر علينا من لا يملك شيئاً وتسلمه هذه المسؤولية

---

١. وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٥٧٦، ح ٣ و ٥.

الخطيرة؟ فكان يرون أنّ المال يعتبر من العناصر التي تتدخل في توفير اللياقة لهذا المقام وأنّ الشخص الثري هو الأولى في قيادة الأمّة، وكأنّ الفكر الاقطاعي لازال يعشعش في أذهانهم.

ولكنّ النبي اصموئيلﷺ وطبقاً لما ورد في الآية ٢٤٧ من سورة البقرة قال لهم:

﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقد نستوحي من هذه الآية الشريفة أنّ الشروط التي ينبغي توفرها في القائد والزعيم أمران: «العلم والقدرة» لا «المال والثروة». وهكذا أذعن بنو إسرائيل بهذا الأمر وقبلوا بقيادة طالوت رغم امتعاضهم النفسي منه، واستطاع جيش بني إسرائيل إحراز النصر على أعدائهم تحت تدبير وعلم طالوت وبأسه وقدرته.

وطبقاً لما ورد في الآيات المذكورة، أنّ أفضل شخص لتولي أمور المسلمين واستلام مقاليد السلطة، هو أعلمهم وأقدرهم، وهو الشخص الذي أثبت في حركة الواقع علمه وقدرته البدنية لجميع الناس، والآن إذا أردنا البحث عن ذلك الشخص الذي تتوفر فيه هاتان الصفتان من أصحاب النبي الأكرمﷺ، وعندما نتصفح صفحات التاريخ وخاصّة في غزوات نبي الإسلامﷺ، فإنّ أشجع الناس وأقدرهم في ميادين الجهاد هو علي بن أبي طالبﷺ، حتى أنّ النبي الأكرمﷺ قال له في واقعة الأحزاب وعندما برز الإمام عليﷺ لعمرو بن عبدود العامري قال: «خرج الإيمان كله للشرك كله» وبعد أن انتصر الإمام عليﷺ في هذه المعركة على عدوه قالﷺ: «إنّ ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين»[1]. ولأنّ المعركة التي خاضها عليﷺ مع رمز الكفر والشرك هو الذي أنقذ المسلمين. ونرى في حروب أخرى منها حرب خيبر، بدر، أحد وغيرها من الغزوات والحروب أنّ الإمام

---

١. بحار الأنوار، ج ٣٩، ص ٢.

عليﷺ كان أقدر المسلمين وأشدّهم مراساً من بين أصحاب النبي الأكرمﷺ رغم أنّه كان في ذلك الوقت شاباً يافعاً وكان فقيراً من الناحية المالية.

وأمّا من حيث العلم والمعرفة، فنكتفي هنا بذكر روايتين من مصادر أهل السنّة:

١. يروي الحاكم الحسكاني في كتابه «شواهد التنزيل» عن النبي الأكرمﷺ أنّه قال:

«قُسِّمَتِ الْحِكْمَةُ عَشَرَةَ أَجْزاءَ فَأُعْطِيَ عَلِيّاً تِسْعَةَ أَجْزاءَ»[1].

٢. وورد في صحيح الترمذي عن نبي الإسلامﷺ أنّه قال:

«أَنَا دارُ الْحِكْمَةِ وَعَلِيٌّ بابُها»[2].

وعلاوة على ذلك، فماذا نجد من الآثار العلمية لصحابة النبيﷺ في هذا العصر؟ هل بالإمكان العثور في جميع ثنايا التراث الإسلامي على قطعة علمية وبلاغية من خطبة الأشباح في نهج البلاغة للإمام عليﷺ؟

النتيجة، أنّ الإمام عليﷺ أقدر المسلمين وأعلمهم بعد النبي الأكرمﷺ، وطبقاً للتعاليم القرآنية فإنّه يجب أن يكون هو الخليفة بعد النبيﷺ.

شأن النزول:

كان في المدينة رجل ثري توجد في داره نخلة، وكانت بعض سعفاتها تتدلى إلى باحة دار جاره، وفي فصل نضج التمر، فإنّ صاحب النخلة كان يصعد على تلك النخلة لقطف التمر وأحياناً تتساقط بعض التمرات في بيت الجار، وكان أطفال ذلك الجار الفقير يتناولون هذه التمرات ويأكلونها، ولكنّ صاحب النخلة الذي كان شحيحاً جدّاً عندما يرى هذا المشهد يسرع بالنزول عن النخلة ويذهب دار جاره

١. شواهد التنزيل، ج ١، ص ٧٩، ح ١١٦.
٢. صحيح الترمذي، ج ٥، ص ٦٣٧.

ويأخذ التمرات من الأطفال، ومضافاً إلى ذلك كان يتصرف معهم تصرفاً عجيباً بحيث إنّ الأطفال إذا كانوا قد وضعوا تمرة في أفواههم فإنّه كان يضع اصبعه في أفواههم ويخرج التمر من فمهم[١]، فكان من والد الأطفال يمتعض ويتألم لهذه الحالة فجاء يوماً إلى النبي الأكرمﷺ وشكى من جاره البخيل، فقال له النبي الأكرمﷺ: سأبحث في شكواك. ثم إنّ النبي رأى صاحب النخلة وسأله عن المسألة بينه وبين جاره، ثم قال له: بعني هذه النخلة وسوف أُعطيك نخلة في الجنّة. فقال له الرجل البخيل: إنّ لي نخل كثير، ولكنّ هذه النخلة أفضل ما أملكه من نخيل، ولهذا فأنا غير مستعد لبيعها!

إنّ البخل ليس مجرّد صفة رذيلة، بل يقود الإنسان في خط الضلالة والكفر والخروج من الدين، وكان أحد أصحاب النبي الأكرمﷺ واسمه أبو الدحداح[٢] قد سمع حديث النبي مع ذلك البخيل فقال للنبيﷺ بعد عودته إلى المسجد: إذا اشتريت أنا هذه النخلة من صاحبها فهل تعدني بما وعدت به صاحبها؟ فقال له النبيﷺ: نعم، أعدك بذلك.

فذهب أبوالدحداح إلى صاحب النخلة وطلب منه أن يبيعها له، فقال له صاحب النخلة: إنّ هذه النخلة هي أفضل نخلة في بستاني، ولهذا فإنّ ثمنها مرتفع.

وهكذا سلك هذا الشخص البخيل طريق الضلالة والانحراف والظلم وقال: إني أبيعك هذه النخلة بأربعين نخلة، ولا أرضي بأقل من ذلك.

---

١. سؤال شرعي: إذا كانت أغصان شجرة الجار تظلل باحة بيته، فما حقّه؟

الجواب: يمكنه أحد أمرين: إمّا أن يطلب من الجار قطع أغصان شجرته الممتدة إلى بيته، أو يأخذ مبلغ من المال منه كأجرة لابقاء الأغصان. فإن لم يقبل صاحب الشجرة بأي منهما، جاز له قطع الأغصان المتدلية على بيته.

٢. «الدحداح» في اللغة تطلق على من يمشي كالقطاة أو البطة، أي أنّه لا يمشي بشكل مستقيم ومعتدل، بل بسبب قصر قامته وبدانته يتمايل في مشيه يميناً وشمالاً، وبما أنّ الشخص المذكور كان يمشي بهذه الهيئة سمي «أبو الدحداح».

فما كان من أبي الدحداح، الذي لا يرى زخارف الدنيا وحطامها شيئاً يذكر أمام نعيم الجنّة ودوامها، إلّا أن قَبل بهذه المعاملة، وأخيراً صار أبو الدحداح هو صاحب النخلة وأسرع ذلك الشخص البخيل بكتابة الوثيقة وسند المعاملة وأحضر الشهود وأمضى تلك المعاملة بسرعة، لأنّه كان يتصور أنّ أبا الدحداح رجلاً ساذجاً بحيث إنّه باع أربعين نخلة بنخلة واحدة.

ثم إنّ أباالدحداح جاء إلى النبي الأكرمﷺ وقدّم له سند المعاملة، وقام رسول اللهﷺ باعطاء تلك النخلة للجار الفقير، وهكذا أصبح ذلك الفقير يملك نخلة في الدنيا، وأبوالدحداح يملك نخلة في الجنّة.

وقد ورد في بعض كتب التفسير أنّ النبي الأكرمﷺ كلما كان يشاهد نخلة تلقي بأغصانها على بيت الجار يتذكر نخلة أبي الدحداح في الجنّة.

سؤال: هل أنّ القصّة المذكورة هي شأن نزول الآيات الأولى من سورة الليل، أو أنّها مصداق من مصاديقها؟ وبعبارة أخرى هل أنّ هذه القصة وقعت قبل نزول الآيات المذكورة ثم جاء الآيات لتقرر لهذه الحادثة، بحيث تكون هذه القصّة هي شأن نزول الآيات كما في المصطلح، أو أنّ الآيات نزلت قبل ذلك ثم وقعت هذه الحادثة وأضحت مصداقاً من المصاديق المتعددة لهذه الآيات؟

الجواب: الظاهر أنّ القصّة المذكور ليست شأن نزول الآيات بل مصداق الآيات المذكورة، لأنّ سورة الليل كما نستوحي من سياقها ومضمونها وكما صرح بذلك المفسّرون، من السور المكّية، ونعلم أنّ مكة لم يكن فيها نخيل، بل كانت أرضاً جرداء وصحراوية، ولهذا لا يمكننا قبول ما يقال إنّ القصّة المذكورة وقعت في مكّة وعلى أثرها نزلت الآيات الشريفة، بل يبدو أنّ هذه القصّة وقعت في المدينة وبالتالي فهي مصداق من مصاديق الآيات الشريفة.

المقسم له:

بعد بيان القصّة المذكورة في شأن نزول هذه الآيات، نشرع بشرح وتفسير المقسم له:

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾: أي: أُقسم بظلمة الليل، وأقسم بنور النهار، وأقسم بخالق المذكر والمؤنث، بأنّ سعيكم متفاوت ومختلف، فبعضهم كأبي الدحداح يتحرك في خطّ الكرم والبذل والعطاء ويفكر في آخرته ومصيره في ذلك العالم، وبعضهم كصاحب النخلة يعيش الشح والبخل ولا يفكر إلّا بهذه الدنيا وزخارفها. وبالنتيجة فإنّ كلا هذين الشخصين أو الطائفتين تتناسب وتتناغم أعمالهم مع عقائدهم وشاكلتهم.

ثم إنّ الله تعالى يبيّن عاقبة كل واحدة من هاتين الطائفتين ونتائج كل واحد من هذين النمطين في التفكير وفي النهج وفي الحركة:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾. بمعنى أنّ الطائفة التي تتحرك من موقع البذل والعطاء وتسير في خط التقوى والطاعة والعبودية، كأبي الدحداح، فسوف نقوم بتيسير أمورهم في الدنيا والآخرة ونعينهم في حلّ مشاكلهم، ونسهّل لهم طريق الخير والإيمان ونفتح لهم أبواب الجنّة يوم القيامة.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾. وأمّا الطائفة التي تتحرك في خط البخل وهم ملوثون برذيلة البخل والشح ويتصورون أنّهم أغنياء وأثرياء ببخلهم وعدم إنفاقهم المال للفقراء المحتاجين، ونتيجة هذا البخل أنكروا يوم القيامة والنعيم الأخروي، (كما هو حال أصحاب النخلة) فسوف نقود هؤلاء في طريق العسر والمشقة، فلا ينتفعون من أموالهم وثرواتهم في هذه الدنيا وسيكون مصيرهم إلى النار وسوف لا تنفعهم أموالهم في ذلك اليوم.

إنّ الآيات المذكورة، تعتبر بمثابة المقسم له، وتتحدث عن القيامة والحياة بعد الموت وتأثير البذل أو البخل على مستقبل الإنسان وعلى إيمانه بالآخرة والمعاد، وعليه فلو قلنا إنّ قضية المعاد والحياة الآخرة هي المقسم له وهي الغرض الذي أقسم الله تعالى من أجله، فلا نكاد نجانب الصواب.

السخاء في ما ورد من كلام المعصومين عليهم السلام:

وقد وردت روايات كثيرة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام في مورد السخاء والبذل، ونكتفي هنا بذكر روايتين منها:

أ) يقول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«إِنَّ السَّخاءَ شَجَرَةٌ مِنْ أَشْجارِ الْجَنَّةِ لَها أَغْصانٌ مُتَدَلِّيَةٌ فِي الدُّنْيا، فَمَنْ كانَ سَخِيّاً تَعَلَّقَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصانِها، فَساقَهُ ذٰلِكَ الْغُصْنُ إِلَى الْجَنَّةِ»[1].

والرواية الذكورة تبيّن في حقيقتها مضمون الآيات القرآنية مورد البحث ولكن بشكل آخر، وتتنبأ بعاقبة الأسخياء في الجنّة وما سيكونون عليه من نعيم ولذة.

ب) يقول الإمام الصادق عليه السلام في بيان خصال عديدة للسخاء:

«السَّخاءُ مِنْ أَخْلاقِ الْأَنْبِياءِ».

لقد كان النبي إبراهيم عليه السلام سخياً جداً، كما أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان كذلك.

«وَ هُوَ عِمادُ الْإِيمانِ».

«وَلا يَكُونُ مُؤْمِنٌ إِلّا سَخِيّاً».

بمعنى أنّ الإنسان البخيل لا يملك إيماناً صحيحاً.

«وَ لا يَكُونُ سَخِيّاً إِلّا ذُو يَقينٍ وَهِمَّةٍ عالِيَةٍ». وبعبارة أخرى: أنّ كل شخص لا يستطيع أن يتحلّى بصفة السخاء والجود إلّا إذا حقّق في نفسه قبل ذلك حالتين:

---

١. ميزان الحكمة، باب ١٧٧٤، ح ٨٣٥٠.

«اليقين» و«الهمّة العالية» ويتحرك على مستوى تقوية هذين العنصرين في وجوده.

«لِأَنَّ السَّخاءَ شُعاعُ نُورِ الْيَقِينِ» ومن الطبيعي أنّه لو انعدم النور فلا يوجد شعاع أيضاً.

«وَمَنْ عَرَفَ ما قَصَدَ هانَ عَلَيْهِ ما بَذَلَ»[١].

الحقيقة أنّ هذه الروايات تعكس صورة ناصعة وجذابة لصفة السخاء، بحيث إنّه لولم تكن لدينا سوى هاتين الروايتين في مورد السخاء، فإنّ ذلك يكفي لمعرفة وبيان حقيقة السخاء ومعطياته الإيجابية في حركة الحياة والواقع.

دور الإيمان بالآخرة في ترشيد الفضائل الأخلاقية:

لا شك في أنّ للإيمان بالآخرة دوراً مهمّاً في تعميق وترشيد الفضائل الأخلاقية، فالإيمان بالآخرة يقوي في نفس الإنسان حالة السخاء والعطاء، لأنّ الإنسان السخي يؤمن بأنّ عطاءه وبذله لا يذهب هدراً بل سيبقى عند الله وأنّ ما في يده سيفنى ويتلاشى وما عند الله باقٍ: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ﴾[٢].

وهذه العقيدة تتسبب في أن تتحرك روح العطاء والبذل في واقع الإنسان ويسعى لمد يد العون للمحتاجين وبذلك يزيد من ثروته وماله الأُخروي، وهكذا الحال في سائر الفضائل الأخلاقية الأخرى.

السخي الحقيقي:

إنّ السخي الحقيقي هو الإمام علي عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام لأنّ إيمان هؤلاء المعصومين بالآخرة أقوى وأشدّ، وقد استعرضت سورة الإنسان أو «الدهر» صورة

---

١. ميزان الحكمة، باب ١٧٧٤، ح ٨٣٥١.

٢. سورة النحل، الآية ٩٦.

ولمحة من سخاء وإيثار هؤلاء الأولياء، فقد كانوا «الإمام علي وأهل بيته» جميعاً صائمين وحان وقت الإفطار وجلسوا لتناول طعام الإفطار، وفي ذلك الوقت طرقت الباب وإذا بمسكين يطلب المعونة، فما كان من هؤلاء الأولياء إلّا أن جمعوا طعامهم كله وهو عبارة عن خمسة أقراص من الخبز وأعطوها للمسكين وبقوا في تلك الليلة بدون طعام ولم يفطروا إلّا بالماء القراح، وفي اليوم الثاني صاموا أيضاً وعند الغروب وحينما جلس الإمام علي والزهراء والحسنانﷺ على مائدة الافطار وإذا بيتيم يطرق الباب، وفي هذه المرّة أيضاً دفعوا له جميع أفطارهم ولم يفطروا إلّا بالماء، وهكذا الحال في اليوم الثالث عندما جاء أسير وطرق الباب فأعطوه طعامهم أيضاً![1].

والمثال الآخر على سخاء الإمام عليﷺ أنّه دفع خاتمه إلى الفقير وهو في حال الركوع، وقد ذكر هذه الواقعة الشيعة وأهل السنّة في كتبهم الروائية المعتبرة[2] وهناك أمثلة كثيرة أخرى.

أجل، فإنّ العلم والتقوى والسخاء والشجاعة والقدرة والزهد والنزاهة، والخلاصة، جميع الصفات الحسنة والفضائل الأخلاقية اجتمعت في الإمام عليﷺ فغدا تجسيداً لجميع الفضائل والمكرمات.

سؤال: إنّ الإمام عليّاًﷺ الذي يقف في صلاته بين يدي الله تعالى وهو لا يشعر بشيء ممّا حوله من شدّة خشوعه في مواجهته للذات المقدّسة، بحيث إنّهم كانوا يخرجون السهم من قدمه دون أن يشعر بذلك، فكيف سمع صوت الفقير في المسجد وناوله خاتمه وهو في صلاته؟ ألا يتنافى هذا المعنى مع حضور القلب في الصلاة؟

الجواب: صحيح أنّ الإمام عليّاًﷺ كان في صلاته ينسى كل شيء سوى الله تعالى، ولكنّ صوت السائل ومساعدة الفقير تعتبر أيضاً عبادة مقربة إلى الله تعالى

---

١. شرح هذه القصّة في أسناد ومصادر من أهل السنّة في كتابنا «آيات الولاية في القرآن».

٢. المصدر السابق.

ولا تتنافى مع الصلاة، وبعبارة أخرى، إنّ الإمام أدى في تلك الحال عبادتين، «إقامة الصلاة، واعطاء الزكاة» سوية، والعبادات لا تتقاطع فيما بينها.

أجل! إذا كان الإمامعليه السلام في صلاة يهتم بشؤونه الخاصّة فإنّ ذلك يتنافى مع حضور القلب في الصلاة، وأمّا الإلتفات للسائل وقضاء حاجته والذي يعتبر رسولاً من الله تعالى، فلا يتنافى مع حضور القلب في الصلاة.

البخل في الروايات الشريفة:

ونستعرض هنا روايتين من الروايات الكثيرة الواردة في ذم البخل:

١. يقول النبي الأكرمصلى الله عليه وآله:

«تَقُولُ لِلْغَنِيِّ: يا مَنْ وَهَبَهُ اللهُ دُنْيا كَثِيرَةً واسِعَةً فَيْضاً، وَسَأَلَهُ الْفَقِيرُ الْيَسِيرَ قَرْضاً فَأَبىٰ إِلّا بُخْلاً! فَتَزْدَرِدُهُ»[١]. أي أنّ نار جهنم تقول يوم القيامة للثري البخيل: إنّ الله قد وهب لك ثراءً فاحشاً ودنيا واسعة إلّا أنّك لم تساعد المحتاج ولم تعن الفقير الذي طلب منك المساعدة، ثم إنّ النار تبتلعه.

٢. وجاء في رواية أخرى عن الإمام الهاديعليه السلام يقول:

«الْبُخْلُ أَذَمُّ الْأَخْلاقِ»[٢].

فطبقاً لهذا الحديث الشريف فمن بين الصفات الذميمة والرذائل الأخلاقية فإنّ البخل يعتبر أنكاها وأسوأها، ولهذا فليس فقط أنّ المسلم لا ينبغي أن يكون بخيلاً، وأنّ المجتمع الإسلامي أيضاً لاينبغي أن يكون بخيلاً، بل يجب أن يكون متصفاً بصفة السخاء والجود والكرم، وطبعاً السخاء لا ينحصر ببذل المال للفقراء والمحتاجين بل إنّ هذا العمل المهم يعتبر مصداقاً وا حداً من مصاديقه، فالثري الذي

---

١. ميزان الحكمة، باب ٣٢٢، ح ١٦٠٥.

٢. المصدر السابق، باب ٢٣١، ح ١٥٨١.

يستثمر أمواله في إنشاء مصانع أو شركات أو مستشفيات وبذلك يساهم في خلق فرص العمل للشبّان العاطلين وفي شفاء المرضىٰ فهو أيضاً من أهل الجود والسخاء، وعمله هذا يعتبر نوعاً من أنواع السخاء، والعالم الذي يجيب عن أسئلة الناس وعن شبهاتهم ويحلّ لهم مشكلاتهم الدينية وما يواجهونه من علامات الاستفهام في حركة الحياة والواقع، فهو أيضاً متصف بصفة السخاء، والشخص الذي يملك جاهاً ومكانة اجتماعية ويستخدم هذا الجاه وهذه المنزلة الرفيعة في طريق رفع مشاكل الناس والتقليل من معاناتهم وآلامهم فهو أيضاً سخي وجواد.

والخلاصة أنّ كل شخص يساهم في مد يد العون للآخرين بالمقدار الممكن له، فإنّه إنسان سخي.





٦

أقسام سورة العاديات

السورة السادسة والأخيرة من السور التي وردت فيها أقسام ثلاثة ، هي سورة «العاديات»، وهي السورة ١٠٠ من سور القرآن الكريم، تقول الآيات في مطلع هذه السورة:

وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦

شأن النزول: غزوة ذات السلاسل، أو مراسم الحج؟

وقد ذكر المؤرخون والمفسّرون في شأن نزول هذه الآية موردين، وعلى هـذا الأساس هناك خلاف بينهم هل هذه السورة مكّية أم مدنية؟

شأن النزول الأوّل: لقد وقعت غزوة ذات السلاسل في السنة الثامنة للهجرة، وقد نزلت سورة العاديات بمناسبة هذه الواقعة.

وتوضيح ذلك: ورد خبر لنبي الإسلام ﷺ أنّ ١٢ ألفاً من المشركين اتحدوا بينهم ونزلوا أرض «يابس» التي تبعد عن المدينة يوماً أو ثلاثة أيّام، واحتشدوا هـناك

وهم يقصدون غزو المدينة المنورة، أمّا رسول الله ﷺ فقد كـان يـتجنب الحـرب وسفك الدماء مهما أمكنه ذلك، ويسعى بمقتضى تعاليم الإسلام السـامية أن يـحل المسائل بطرق سلمية والتصالح والتفاهم، وإذا لزم الأمر فإنّه يتحرك من موقع الدفاع بشجاعة فائقة، ولهذا أرسل النبي الأكرم ﷺ هيئة من كبار المسـلمين إلى هـؤلاء المشركين، وبعد أن تحدّث رسل النبي إلى قادة المشركين، لم يـصلوا إلى نـتيجة، وكان المشركون يصرون على الحرب والقتال، فعاد أفراد الوفد إلى المدينة المنورة، وأخبروا رسول الله ﷺ بما حصل، فبعد أن يأس رسول الله ﷺ من التفاهم مع هؤلاء المشركين طلب عليّاً عليه السلام ليحل هذه المشكلة[1].

فجمع الإمام علي عليه السلام جيشاً من المسلمين وتوجه إلى هؤلاء الأعداء، وبما أنّ جيش الإسلام كان قد تحرك من المدينة في ليلة مظلمة وبشكل سري، فإنّ العدو لم يلتفت إلى ذلك، فكان أن أطـبق عـليهم الجـيش الإسـلامي وحـاصرهم، إلّا أنّ المسلمين لم يهاجموا العدو في الليل بل صبروا حتى طلع الفجر وبدأوا هـجومهم الصاعق على المشركين، ولما كان العدو غافلاً عن هذه الخطة والحملة السريعة فقد سقط الكثير من أفراده قتلى، وأسر المسلمون الباقي وانتصر الجيش الإسلامي في هذه الواقعة، وقيّدوا الأسرى بالسلاسل لمنعهم من الفرار «ولذلك سمّيت هذه الغزوة بذات السلاسل» وعادوا إلى المدينة منتصرين ومرفوعي الرأس.

والملفت أنّ الجيش الإسلامي في صباح ذلك اليوم وبينما كان يبعد عن المدينة المنورة مسافة يومين أو ثلاثة أيّام، قرأ النبي الأكرم ﷺ في صلاة الصبح بعد سورة الحمد سورة العاديات وتعجب المسلمون من ذلك، وسألوا النبي بعد الانتهاء مـن

---

١. بما أنّ كل مشكلة كانت تقع في عصر رسول الله ﷺ، كان الإمام علي عليه السلام يحلّها، فمن هـنا أطـلق عـليه لقب «حلال المشاكل»، ولم يقتصر الأمر على زمان رسول الله ﷺ، بل استمر هذا الحال حتى في زمن الخلفاء أيضاً. وليس هذا ادّعاء، بل إنّ الخليفة الثاني اعترف مرات عديدة بهذه الحقيقة، وقال: «اَللّهُمّ لا تبقني لِمُعضلةٍ لَيسَ لَها أبُو الحَسَن».

الصلاة: هل نزلت سورة جديدة؟ فقال رسول الله ﷺ: أجل، إنّ هذه السورة نزلت توّاً وبمناسبة انتصار جيش الإسلام على المشركين، وسوف يعود المجاهدون المسلمون منتصرين ومعهم الغنائم والأسرى.

شأن النزول الثاني: وذهب بعض إلى أنّ سورة العاديات مكّية، والمقصود من هذه الأقسام، الخيل والإبل التي يستخدمها الحجاج للتوجه إلى عرفات، وبعد الانتهاء من مناسك عرفات يتجهون إلى المشعر الحرام، وفي صباح اليوم العاشر يتجهون إلى منى، وعلى هذا الأساس فإنّ الله تعالى أقسم بهذه الخيل والإبل التي يستخدمها الحجاج في حركتهم وانتقالهم في مناسك الحج.

الخلاصة، أنّه طبقاً لشأن النزول الأول، فإنّ سورة العاديات مدنية، وأمّا شأن النزول الثاني فيقتضي أن تكون سورة العاديات مكّية.

أدلّة كون سورة العاديات مكّية:

وقد ذكروا ثلاثة شواهد تشير إلى أنّ سورة العاديات مكّية:

أ) **الأقسام المتعددة**؛ ونعلم أنّ الأقسام القرآنية وردت غالباً في السور المكّية.

ب) **قصر الآيات**؛ وكما تقدّمت الإشارة إليه فإنّ أحد خصوصيات السور المكّية هي أنّ الآيات النازلة في مكّة تكون في الغالب قصيرة وحاسمة.

ج) **المضمون والمحتوى**؛ وسبق أن ألمحنا إلى أنّ السور المكّية تتحدّث عادة عن المبدأ والمعاد، وسورة العاديات أيضاً تتحدّث عن المعاد.

ومن هذا المنطلق ومع الأخذ بنظر الحسبان هذه الشواهد الثلاثة فلابدّ من القول: إنّ سورة العاديات مكّية، وطبعاً لو قلنا بمكّية هذه السورة فإنّ ذلك لا يتنافى مع شأن النزول الأول، فلا تبعد أن يكون غزوة ذات السلاسل مصداقاً من مصاديق هذه السورة.

أدلّة كون السورة مدنية:

ويقول أنصار الرأي الأول: إنّ هذه السورة لا يمكن أن تكون مكّية، لأنّ المسلمين في مكّة لم يواجهوا عدواً ولا حكماً بالجهاد حتى تكون آيات هذه السورة ناظرة إلى الحرب والقتال، ولم يكن هناك حجّ بشكل رسمي حتى يقال إنّ الآيات المذكورة ناظرة إلى الحجاج المسلمين، رغم أنّ المشركين في أيّام الحج في شهر ذي الحجّة يأتون بحجٍ مقترن بالخرافات الكثيرة. ولكنّ ذلك الحج لم يكن بذي قيمة حتى يقسم الله تعالى بخيل الحجاج، ولهذا فمن البعيد أن تكون هذه السورة مكّية.

شرح وتفسير الأقسام الثلاثة:

بعد أن تبيّن أنّ هذه السورة مورد البحث مدنية وعلمنا بشأن نزولها، نتطرق الآن لتفسير أقسام هذه السورة:

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾: قسم بالخيل العادية (للمجاهدين) والتي تغير على صفوف الأعداء في حالة من النفَس الشديد.

إنّ كلمة «عاديات» جمع «عادية» ويقصد بها الدواب التي تركض بسرعة، وكلمة «ضبحاً» النفَس السريع لهذه الدواب التي تهجم على الأعداء في ميدان القتال، فالآية تقسم بالخيل المسرعة للمجاهدين الذين يغيرون بقيادة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام على المشركين وقوى الضلالة والشر.

﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً﴾: أي الخيل التي تظهر شرارة من تحت أقدامها نتيجة اصطكاكها بالأحجار في الصحراء.

وكلمة «قدح»، أداة لإيقاد النار من قبيل الكبريت مثلاً، وفي الماضي لم يكونوا قد صنعوا علبة الثقاب، وكان هناك حجر من نوع خاص، ويتمّ سحب قطعة من الحديد على هذا الحجر ومع إقتراب هذا الشرر للمواد القابلة للإشتعال يتمّ إيقاد

النار، وقد كان في ذلك الزمان في الجزيرة العربية قطعتان من الخشب الخاص تعمل عمل هذا الحجر وقطعة الحديد، ويقال لهما «قدح». وأحياناً يصدر الشرر من احتكاك أقدام الخيل بأحجار الصحراء، وقد أقسم الله تعالى بذلك الشرر المتطاير من تحت أقدام هذه الخيل.

﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً﴾؛ قسم بالخيل التي أغارت في الصباح الباكر على الأعداء. وهذه الآية إشارة إلى الجنود الذين كانوا تحت إمرة الإمام علي بن أبي طالب‏ﷺ حيث هجموا بأمر من الإمام مع طلوع الفجر الصادق على الأعداء وانتصروا عليهم.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾.

وكأنّ الله تعالى في هاتين الآيتين أقسم أيضاً بالغبار الناشيء من أقدام هذه الخيل المسرعة في ميادين القتال، وهذا يشير إلى ذروة أهميّة الجهاد والمجاهدين، بحيث إنّ الله تعالى ومن أجل بيان قيمة الجهاد العظيمة، فإنّه أقسم حتى بالمسائل الصغيرة جدّاً التي تخصّ الجهاد، ولهذا ينبغي على المجاهدين أن يعرفوا قدرهم ومنزلتهم.

إنّ الأقسام الثلاثة المذكوة هي في واقعها أقسام بالجهاد وخيل المجاهدين، والشرر المتطاير من أقدام خيل المجاهدين الذين يتحركون بسرعة إلى ميدان القتال.. الأشخاص الذين هجموا على الأعداء والمشركين عند طلوع الفجر في سبيل الله وطلباً لرضاه، وكل هذه الأمور بما أنّها تتحرك في خط الجهاد الإسلامي فلها قيمة واعتبار ولياقة للقسم بها، ويريد الله تعالى بهذه الأقسام الثلاثة إلفات نظرنا إلى الجهاد ومكانته الرفيعة في مجمل التعاليم الإسلامية وقيمته السامية. حتى لا يبتعد المسلمون في المجالات العسكرية، الثقافية، السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية وسائر الجوانب الأخرى عن الجهاد ومقاومة أعداء الإسلام وقوى الشر والضلالة ولا يحرموا أنفسهم من هذا الخير العظيم. وليحصلوا على بركات ومعطيات الجهاد من خلال مواجهة قوى الانحراف والشر ولا يحرموا أنفسهم من ثمار هذه

الشجرة الطيبة ولا يشتروا لأنفسهم الذلة والمسكنة والمهانة بسكوتهم وامتناعهم عن مقاومة العدو، بل عليهم أن يتحركوا من مواقع العزّة والعظمة ويدفعوا عن أنـفسهم عار الذل والهوان، ويتحركوا في خط الجهاد والاستقامة وتحمل المسؤولية.

الجهاد في القرآن الكريم:

ومن أجل الاحاطة بمكانة الجهاد الواقعية يكفي التأمل قليلاً في مضمون الآية ١١١ من سورة التوبة:

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

تنطلق هذه الآية الشريفة في بيان قيمة الجهاد بشكل عجيب، لأنّ الله تعالى الذي خلقنا ووهب لنا الحياة، هو الذي يريد شراءها منّا، و يدفع أعـلى الأثـمان لهـذه البضاعة، أي الجنّة، ويذكر وثيقة هذه المعاملة في ثلاثة كتب سماوية مهمّة.

فهل تجدون مثل هذه المعاملة العظيمة والمربحة، حـيث إنّ المشـتري هـو الله تعالى والبائع الإنسان، والمتاع روح الإنسان التي حصل عليها مجاناً من المشتري نفسه، وثمن المعاملة الجنّة وسند المعاملة مذكور في ثلاثة كتب سماوية: القـرآن، التوراة والانجيل، وفي الختام فإنّ المشتري يبارك للبائع هذه المعاملة؟

هل يمكن لمن ينظر إلى الجهاد من هذه الزاوية وبهذا المنظار أن يعيش الذلّـة والمهانة في حياته؟

الجهاد قانون الطبيعة:

مضافاً إلى ذلك فإنّ الجهاد يعتبر أحد قوانين الطبيعة والخلقة، ولا تستطيع الحياة

من مواصلة مسيرتها بدونه.

وتوضيح ذلك: إنّ مرض «الايدز» يعدّ من بلايا العصر الحاضر، وأحد أهم أسبابه هو الانحرافات الجنسية التي تشهدها المجتمعات المتحضرة بالخصوص، ويحدث هذا المرض بسبب توقف الجهاد في مملكة جسم الإنسان، فالجنود من الخلايا البيض والخلايا الحمر في بدن الإنسان تتصدى بشجاعة وبدون إهمال للمكروبات والفيروسات التي ترد إلى البدن عن طريق الماء والغذاء والهواء والجراحة السطحية في بدن الإنسان، فلو توقف هؤلاء الجنود المخلصين عن عملية الجهاد والسعي للتصدي وخطر الأعداء فإنّ مرضاً خاصاً يستولي على بدن الإنسان ويسلب منه القدرة الدفاعية فلا يبقى للبدن حصانة أمام الأعداء، وبذلك تتمكن المكروبات والفيروسات من السيطرة الكاملة على البدن والتغلب عليه، ومن هنا فإنّ قانون الجهاد لا يختص بالبعد التشريعي وعلى شكل قانون اعتباري بل هو قانون تكويني، فالأشخاص الذين يريدون حذف آيات الجهاد والشهادة من الكتب الدراسية في مدارس المسلمين وفي بعض البلدان الإسلامية، ينبغي عليهم في البداية حذف هذا القانون من عالم الوجود والخلقة، وما أتعس حال العملاء الحكّام في بعض البلدان الإسلامية الذين رضوا بهذه الذلة والمهانة وجرّدوا أنفسهم من هذا السلاح وبقوا أمام أشكال العدوان الخارجي بدون دفاع!!

النتيجة، أوّلاً: إنّ الجهاد قانون في عالم الخلقة والطبيعة.

وثانياً: إنّ الجهاد في المعارف الدينية والمفاهيم القرآنية يتمتع بمكانة مرموقة.

الجهاد الدفاعي!

مضافاً إلى ذلك فإنّ ما ورد في المعارف الإسلامية والمفاهيم الدينية حول الجهاد ناظر إلى الجهاد الدفاعي، والشاهد على ذلك الآية ٦٠ من سورة الأنفال:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

وطبقاً لهذه الآية الشريفة ينبغي على المسلمين حشد جميع قدراتهم وإمكاناتهم للإستعداد التام لدفع الخطر عن البلد الإسلامي لا من أجل إثارة الحروب وسفك الدماء، بل من أجل إزاحة التفكير بالعدوان والحرب من أذهان الأعداء، فالقرآن الكريم يأمرنا بتوفير عدّة الحرب وتهيئة آليات الدفاع في المجالات العسكرية، السياسية، الاجتماعية وإلى غير ذلك، من أجل منع وقوع الحرب، لا من أجل إثارة الحرب والقتال.

إنّ بلدنا ايران في ظلّ العمل بهذه الآية الشريفة أزاح من ذهنية العدو الهجوم على ايران، وما نرى من هجومهم على أفغانستان وحرقهم للأخضر واليابس في العراق يعتبر شاهداً على أنّهم يفكرون بالهجوم على ايران أيضاً. ولكنّ الاستعداد لدى القوة الدفاعية من قوات التعبئة والحرس والجيش والقوات الأمنية والقوات الشعبية، لا تسمح للعدو بمثل هذا العدوان، كما أنّ عدم الاستعداد للدفاع في العراق وافغانستان فسح المجال لهجوم الأعداء.

وتقول الآية اللاحقة ٦١ من سورة الأنفال:

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

أي أنّ العدو الغاشم لو هجم على المسلمين برغم استعدادهم الكامل من الناحية العسكرية والدفاعية، و أشعلَ نار الحرب ورأى دفاع المسلمين الشديد (أي المجاهدين الذين يتسابقون إلى الشهادة في ميادين القتال ويضحون بأنفسهم في سبيل الله والإسلام) وأدرك العدو خطأه من عدوانه هذا ضد جنود الإسلام وأراد الصلح والسلام، فعليكم أن تقبلو بذلك الصلح ووقف القتال.

وتأسيساً على ذلك فإنّ الإسلام يرى في الجهاد عنصراً دفاعياً لصد هجوم الأعداء والحيلولة دون سفك الدماء، وفيما إذا أُجبر المسلمون على خوض الحرب بسبب طغيان قوى الشر والضلالة، فإنّ هذا العمل إنّما يجوز بمقدار الضرورة، وفي كل وقت أعلن العدو عن ندمه وانسحابه وأراد الصلح واقعاً فينبغي على المسلمين ترك الجهاد والتحرك في خط السلم والصلح والهدنة.

النتيجة، إن الجهاد في المفهوم الإسلامي لا يعني القتل وسفك الدماء، بل يمثّل نظاماً دفاعياً قوياً كما في النظم الدفاعية في الطبيعة وفي بدن الإنسان وسائر الموجودات، فالحياة بدون دفاع ليست لها القابلية للتواصل والاستمرار، فالاستعداد الدفاعي يؤدي إلى منع وقوع الحرب وإخافة العدو والحيلولة دون التفكير في شن الحرب على المسلمين، وقيمة مثل هذا الجهاد عالية جدّاً إلى درجة أنّ الله تعالى لم يقسم فقط بالمجاهدين المضحين وخيلهم، بل بالشرر الحاصل من اصطكاك حوافر الخير مع الصخر في ميدان القتال.

ربّنا! وفقنا للجهاد في سبيلك في جميع ميادين الحياة وجبهات الدفاع عن الإسلام والمسلمين.

لماذا هذه الأقسام؟

إنّ الله تعالى ومن أجل إلفات نظر الناس إلى أمرين مهمين يمثّلان نقطة ضعف في الإنسان، أقسم بهذه الأقسام الثلاثة:

الأمر الأوّل: حالة الكفران في الإنسان

﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾[1].

وقد ذكر المفسّرون لكلمة «كنود» عدّة معانٍ منها:

---

١. سورة العاديات، الآية ٦.

١. «الأرض التي لا تنبت». وعليه فإنّ الأشخاص الذين لا يصدر منهم نفع للآخرين ولا يسمحون للآخرين بالاستفادة من إمكاناتهم وقدراتهم، ويبخلون في مد يد العون لغيرهم في واقع الحياة، هؤلاء يتصفون بصفة «كنود».

٢. إنّ العرب يطلقون على الأشخاص الذين يعيشون كفران النعمة كلمة «كنود»، فهذه الآيات تقسم بخيل المجاهدين، وتقسم بالشرر المتطاير من حوافر هذه الخيل، والغبار المتصاعد في ميادين القتال والجهاد، وتقسم بالمجاهدين الذين يغيرون عند مطلع الفجر على قوى الشرك والظلام، ويبذلون أعزّ ما لديهم في حياتهم في هذا السبيل، هذه الآيات تقسم بهذه الأمور الثلاثة بأنّ الإنسان كنود وكافر بالنعمة.

الغفلة منشأ الكفران:

لا شك في أنّ منشأ الكثير من الكفران هو الغفلة، فالأشخاص الذين يعيشون التورط في المشاكل أو الابتلاء بالمرض، أو القرض، أو مواجهة حادثة أليمة وواقعة صعبة، ويتحركون من موقع الاعتراض وكفران النعمة، هؤلاء لم يلتفتوا إلى ما يملكونه في هذه الظروف الصعبة من نِعم عظيمة وما يتمتعون به من مواهب الجنّة، بحيث إنّهم لو التفتوا إليها لكانوا غير مستعدين لاستبدالها بجميع ما في الدنيا، وقد رأيتم حتماً أيّها الأعزاء بعض الأشخاص الذين اصيبوا بقطع النخاع في الحرب المفروضة على ايران والتي تمثّل زاوية من جنايات وجرائم صدام في حرب الثمان سنوات، هؤلاء يجب عليهم أن يرقدوا في أسرة المستشفى إلى آخر عمرهم، فهل أنتم مستعدون ومن أجل مشكلة صغيرة وتكفرون بالنعم الإلهيّة العظيمة، أن تصابوا بقطع النخاع في مقابل الحصول على جميع ما في الدنيا من ملذات ونعم؟!

هل فكرتم يوماً بالنعمة العظيمة للكبد في أبدانكم، هل تعلمون أنّ عملية زرع الكبد تبلغ ٢٠ إلى ٧٠ مليون تومان من النفقات؟ ومع ذلك فلا يعلم كم يستغرق هذا

الكبد الجديد في مواصلته وحياته في أبدانكم، وهل أنّه يتلائم وينسجم مع هذا البدن أم لا؟

قبل سنوات صنعوا قلباً صناعياً، ووضعوه في صدر إنسان يعاني من مشكلة في قلبه، ولكنّ هذا القلب الصناعي الذي تبلغ قيمته ٣٠ مليون تومان لم يستمر في عمله سوى ٦ أيّام، أي أنّه أضاف لعمر هذا الشخص ٦ أيّام فقط، وهذا يعني أنّ نفقات كل يوم للقلب الصناعي تبلغ ٥ ملايين تومان، والآن إذا ضربت أيّام عمرك في عدد خمس ملايين تومان كم سيكون الحاصل؟ وهكذا تعلم أنّ الله تعالى قد وهب لك نعمة عظيمة مجاناً، بحيث إنّك تستفيد منها طيلة عمرك، وأحياناً لا يفكر الإنسان طيلة عمره ولا لحظة واحدة بهذه النعمة العظيمة، على سبيل المثال، لو بلغ عمر شخص ٥٠ سنة وكان المفروض أن يدفع يومياً ٥ ملايين تومان كثمن لعمل القلب، فينبغي أن يدفع مبلغ ٩١/٢٥٠/٠٠٠/٠٠٠ توماناً كثمن لعمل القلب في مدّة ٥٠ عاماً من حياته!

أمّا نعمة الأمان فهي بدورها من النِعم العظيمة التي نعيش الغفلة عنها، وقد نسينا أيّام الحرب المفروضة على ايران وعندما كان جيش صدام يعجز عن مقاومة المجاهدين في جبهات القتال فإنّه يشن حملات جنونية على المدن الآهلة بالسكان بحيث لا يشعر أي إنسان بالأمن في هذه المناطق، وفي كل لحظة يحتمل هجوم طائرات العدو وقصفها للمناطق الأمنة، فهل يوجد إنسان عاقل مستعد لتبديل نعمة الأمان هذه بشيء آخر؟

وفي حديث عن موسى بن جعفر عليه السلام جاء أنّه قال:

إنَّ رجلاً جاء إلى سيّدنا الصّادق عليه السلام فشكى إليه الفقر، فقال: ليس الأمر كما ذكرت، وما أعرفك فقيراً قال: واللّه يا سيّدي ما استبنت، وذكر من الفقر قطعة، والصادق عليه السلام يكذّبه، إلى أن قال: خبّرني لو أُعطيت بالبراءة منّا، مائة دينار، كنت

تأخذ؟ قال: لا، إلى أن ذكر اُلوف دنانير، والرجل يحلف أنّه لايفعل، فقال له: من معه سلعة يعطى هذا المال لايبيعها، هو فقير؟![1]

وهكذا انتبه هذا الرجل أنّه بالرغم من وجود مشاكل عجيبة في حركة الواقع فإنّه يملك نعمة عظيمة، وعليه أن يشكر الله تعالى على هذه النعمة.

شكر النعمة في الروايات:

ومن أجل أن ندرك أهميّة شكر النعمة والآثار السلبية لكفران النعمة في واقع الحياة و الإنسان، نستعرض هنا ثلاث روايات:

١. يقول الإمام علي‏عليه السلام:

«لا زَوالَ لِلنَّعْماءِ إِذا شُكِرَتْ وَلا بَقاءَ لَها إِذا كُفِرَتْ»[2].

وهذا الحديث الشريف في الحقيقة إشارة إلى الآية القرآنية: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[3].

٢. يقول الإمام الصادق‏عليه السلام في حديث شيّق:

«ما أَنْعَمَ اللهُ عَلىٰ عَبْدٍ فَعَرَفَها بِقَلْبِهِ وَحَمِدَاللهَ ظاهِراً بِلِسانِهِ فَتَمَّ كَلامُهُ حَتّى يُؤْمَرَ لَهُ بِالْمَزِيدِ»[4].

٣. يقول الإمام الباقر عليه السلام أيضاً:

«لا يَنْقَطِعُ الْمَزِيدُ مِنَ اللهِ حَتّى يَنْقَطِعَ الشُّكْرُ مِنَ الْعِبادِ»[5].

وهذه الروايات المذكورة تبيّن أهميّة أن يتحرك الإنسان في واقع الحياة من

---

١. بحار الأنوار، ج ٦٤، ص ١٤٧، ح ١.
٢. أصول الكافي، ج ٢، ص ٩٤، ح ٣.
٣. سورة إبراهيم، الآية ٧.
٤. أصول الكافي، ج ٢، ص ٩٥، ح ٩.
٥. ميزان الحكمة، باب ٢٠٦٦، ح ٩٥٩٥.

مواطن شكر النعم الإلهيّة، وتبيّن العواقب الوخيمة لكفران النعمة وعدم الشكر، ومع كل هذه التوصيات الواردة في الآيات القرآنية وروايات المعصومين، نرى هنا وهناك بعض الأشخاص الذين يتحدّثون دائماً من موقع الاعتراض والشكوى والتبرّم، في حين حالة الناس المعيشية قد تطورت إلى درجة أنّها لا تقبل المقارنة مع حالهم قبل الثورة الإسلامية.

إذا كان بلدنا يخضع في ذلك الوقت لآليات الحصار الاقتصادي وكانت بوابات البلد موصدة مع العالم الخارجي، وكنّا نموت من الجوع بسبب أنّ القسم الأعظم من الحبوب والحنطة كانت تستورد من الخارج، ولكننا اليوم نعيش ببركة الثورة الإسلامية في حالة من الاستغناء عن الخارج وقد وصلنا إلى مرتبة الاكتفاء الذاتي في الحنطة، فلا نحتاج بعد الآن لاستيرادها من الخارج، هل هذه نعمة قليلة، وألا تستحق الشكر؟

قبل الثورة الإسلامية لم يكن هناك خبر عن بناء السدود والطرق والجامعات وسائر الخدمات الاجتماعية الأخرى.. قبل الثورة من النادر أن ترى سيارة في الأزقة والشوارع الفرعية في المدن الإيرانية، ولكن الآن وبسبب كثرة السيارات ووسائل النقل فإنّ عملية المرور تواجه أزمة ومشكلة، وقبل الثورة الإسلامية كان كثير من الناس يلبسون ملابس رثة ومرقعة، بل حتى كانوا يلبسون الجوراب المرقع، ولكن الآن كم من الناس يلبسون ثياباً رثة ومرقعة؟

الخلاصة أننا مع كل هذه النعم الإلهيّة لا ينبغي لنا التحرك في خط الغفلة وكفران هذه النعم.

الأمر الثاني: عبادة الثروة

الأمر الآخر الذي يطرحه الله تعالى في هذه السورة الشريفة ويقسم عليه ثلاثة

أقسام، حالة عبادة الثروة عند الإنسان، تقول الآية:

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.

كلمة «خير» في هذه الآية الشريفة جاءت بمعنى المال، فالمال إذا أنفقه الإنسان في محله المناسب فإنّه يكون خيراً واقعاً، وإذا أنفقه في غير محلّه فسوف يكون شراً ووبالاً.

أجل! إنّ بعض الناس يعيش العلاقة الشديدة والحب المفرط للأموال والثروات، ولهذا لا يفكر في سلامة الطريق للحصول على مال، بل يفكر فقط في جمعه وادخاره ومن أي مكان وبأية وسيلة، في حين أنّ أحد موارد السؤال يوم القيامه هو السؤال عن مصدر الأموال التي جمعها الإنسان في حياته، وما لم يقدم الإنسان جواباً عن هذا السؤال فإنّه لا يسمح له بعبور تلك العقبة، وهذا السؤال هو: «من أين حصلت على هذا المال، وأين أنفقته؟».

إذا اعتقد الإنسان باليوم الآخر والحساب في ذلك اليوم فإنّه لا يمد يده أبداً للمال الحرام، ولا يفكر اطلاقاً بزيادة ثرواته وتراكم أمواله، وبغض النظر عن التبعات والتداعيات الأخروية على المال الكثير، فإنّه يتسبب في خلق جو من القلق وإثارة حالة الاضطراب وإثارة المشاكل في حياة الإنسان، فعندما كنّا مبعدين في مدينة «انارك» (وهي مدينة صغيرة تقع في قلب الصحراء وكان بعض الشبّان الشجعان يأتوننا بماء شرب من اصفهان على الدراجة البخارية) وقد رأى أحد المؤمنين حالتنا الصعبة في ذلك المكان، وتألم كثيراً لحالنا وبعد أن عاد إلى مدينته أرسل إلينا سيارة محملة بالبطيخ الأحمر، ولكننا وجدنا صعوبة كبيرة في تناول كل هذا المقدار من البطيخ، وكان أحد الأشخاص يحمل في كل ليلة مقداراً من البطيخ ويوزعه على الفقراء والمستحقين في تلك المدينة النائية، والحقيقة أنّ الشخص الذي يجمع المليارات من طريق الحلال والحرام، ماذا يفكر أن يصنع بكل هذه

الثروة؟ إنّ المال يحتاج إليه الإنسان بمقدار معقول لرفع حاجاته وحاجات الآخرين وبذلها في مشاريع الخير، ولكن إذا كان أكثر من هذا المقدار فإنّه يتسبّب في زيادة مشاكل الإنسان وإثارة عناصر القلق النفسي والتشويش الذهني في حركة الحياة.

وخلاصة الكلام، إنّ الله تعالى أقسم بهذه الأقسام الثلاثة في سورة العاديات لغرض إلفات نظر الإنسان إلى النعم الإلهيّة، واجتناب الوقوع في منزلقات البخل وكفران النعمة وحب المال وما يترتب على هذه الرذائل من تبعات وخيمة في الدنيا والآخرة.

الإنسان مذموم أم ممدوح؟

سؤال: إنّ القرآن الكريم قد ذم الإنسان في بعض آياته، ومنها الآيات مورد البحث، حيث إنّ هذه الآيات توبخ الإنسان على بعض الصفات السلبية والرذائل الأخلاقية كالبخل وكفران النعمة والعشق للمال وأمثال ذلك، ومن جهة أخرى نرى أنّ بعض الآيات الشريفة تمجد بالإنسان وتمدحه كثيراً، بحيث إنّها تصفه بأنّه الخليفة الإلهي وهو الهدف من خلق جميع الموجودات في العالم، وأنّ الكائنات بأجمعها مسخرة لخدمته ولإيصاله إلى مرتبة السعادة والكمال، ومن جملة هذه الآيات ما ورد في الآية ٧٠ من سورة الإسراء:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾.

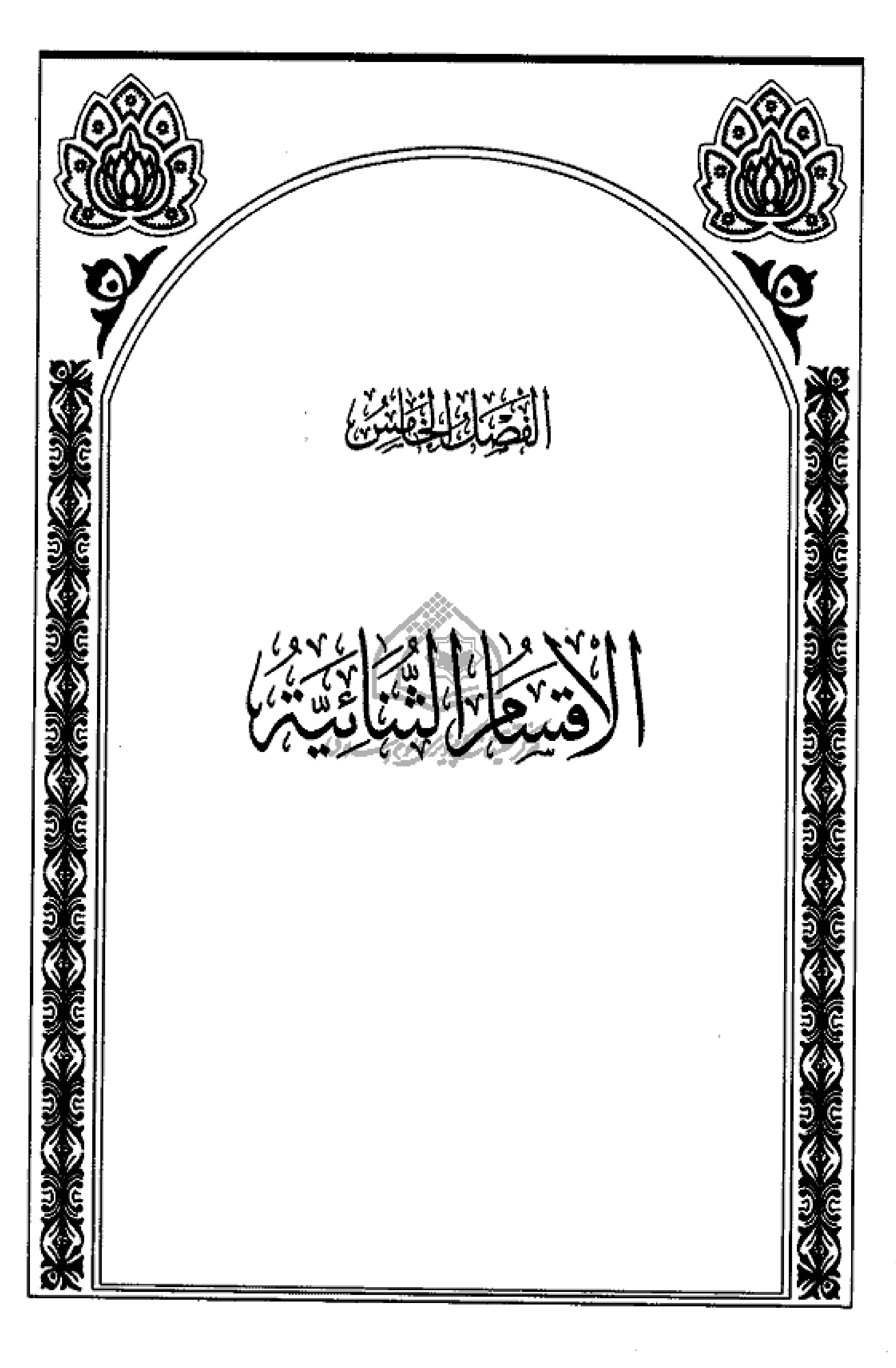
فكيف يمكن الجمع والتوفيق بين هاتين الطائفتين من الآيات القرآنية؟

الجواب: إذا تحرك الإنسان في حياته في خط الإنسانية والأخلاق والرسالة واهتمّ الوالدان بتربيته تربية حسنة، فإنّه سيغدو ثمرة عالم الوجود ودرة تاج المخلوقات، والآيات الشريفة التي تمجد الإنسان وتمدحه ناظرة إلى هكذا إنسان،

وإذا لم تكن تربيته تربية جيدة وكان يتحرك في خط الباطل والشر ووقع أسيراً في شراك الشيطان والأهواء النفسانية، فإنّ مثل هذا الإنسان يكون أضل وأشر من الحيوانات الوحشية، ويسقط إلى مرتبة أسفل السافلين، والآيات التي تذم الإنسان ناظرة إلى هذا النمط من الأشخاص، كما نرى بعض هذه الحيوانات الوحشية بلباس إنسان في فلسطين والعراق وأفغانستان يقتلون الأهالي العزل بأعصاب باردة من أجل حفظ مصالحهم وحماية منافعهم، ينبغي أن (نعوذ بالله) من شرّ هؤلاء وينبغي أن نتحرك في حياتنا على مستوى التدبر والاستفادة من الآيات القرآنية والألطاف الإلهيّة لنكون من الطائفة الأولى.

***





الفصل الخامس

الأقسام الثنائية


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

١

أقسام سورة القلم

بعد أن انتهينا من شرح الأقسام الثلاثية، نشرع ببيان وشرح الأقسام الثنائية، وقد وردت هذه الأقسام الثنائية في خمس سور من القرآن الكريم، وأحد هذه السور، سورة القلم:

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤﴾

القسم الأوّل: قسم بالقلم

كلمة «قلم» وردت في القرآن مرّتين: الأولى في سورة القلم، وهي الآيات مورد البحث، والأخرى في سورة العلق التي نزلت في بداية البعثة النبويّة الشريفة، حيث يقول تعالى في الآية ٤ من سورة العلق، في بيان نعمته على الإنسان ووصف مقام الربوبية:

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾.

وكلمة «أقلام» جمع قلم،وقد وردت هذه الكلمة أيضاً في آيتين من القرآن الكريم:

أ) الآية ٢٧ من سورة لقمان، عندما يتحدّث الله تعالى عن عجز الإنسان عن

إحصاء نعمه تعالى عليه:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

هذه الآية الشريفة نزلت في وقت كان علم البشر محدوداً جدّاً، ولعله لم يتمكن الإنسان في ذلك الزمان من تصور مضمون ما ورد في الآية الشريفة ثم التصديق به، ولكننا اليوم نستطيع بسهولة تحليل ما ورد في الآية، لأنّ منظومتنا الشمسية تعتبر واحدة من المنظومات الشمسية الموجودة في مجرتنا التي تحتوي على مائتي مليارد نجمة، ثم إنّ مجرتنا تعتبر إحدى المجرات الكثيرة جدّاً في عالم الوجود، ويقدّر عددها ١/٠٠٠/٠٠٠/٠٠٠ مجرة!

وعلى ضوء ذلك فإننا نلمس بجميع وجودنا هذه الحقيقة، وهي أنّ إمكانات الكتابة الموجودة في العالم لو اتحدت وقررت كتابة وبيان عدد نِعم الله وعدد مخلوقات الله لم تتمكن، فلا سبيل لذلك.

ب) الآية الشريفة ٤٤ من سورة آل عمران تقول:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

وهذه الآية تتحدّث عن بعض علماء بني إسرائيل الذين كانوا يقترعون لتولي حضانة مريم وكفالتها، من خلال إلقاء أقلامهم في الماء، وهذه الآية تخبر النبي بنزاعهم وأنّك لم تكن موجوداً في حال كونهم يختصمون حول كفالة مريم.

الخلاصة أنّ هذه المفردة «القلم» وردت مرّتين في القرآن بصيغة المفرد، ومرتين بصيغة الجمع.

سؤال: ما المراد بالقلم الذي أقسم الله به؟

الجواب: ذكروا ثلاثة احتمالات:

أ) هو قلم الوحي والعلم الإلهي.

ب) قلم الملائكة المأمورين بكتابة أعمال البشر.

ج) جميع أنواع الأقلام.

والظاهر أنّ الاحتمال الأخير أقوى من الاحتمالين السابقين.

والملفت أنّ القلم في عصر نزول القرآن كان يصنع من القصب، بمعنى أنّ بعض أشكال القصب الصغير الحجم ينبت في الصحارى ويبلغ مقداره شبراً واحداً تقريباً، فيأخذونه ويعملون على تهذيبه ليصلح للكتابة، وقد أقسم الله تعالى بشبر من القصب، والذي كان ينمو بكثرة في تلك الصحراء، وهذا يدّل على عظمة القلم بحدّ ذاته، وسوف نتعرض في البحوث اللاحقة إلى أهميّة هذا الموضوع.

القسم الثاني: القسم بـ«ما يسطرون»

وقد ذكروا في معنى وتفسير «ما يسطرون» أربعة احتمالات:

أ) «ما يسطرون» عبارة عن السطور والخطوط التي يكتبونها، بمعنى: قسم بالقلم وما يكتبونه بهذا القلم.

ب) «ما يسطرون» هو الشيء الذي ينظم ويحدد السطور والخطوط، وتوضيح ذلك: إنّ الدفاتر والأوراق في الأزمنة القديمة لم تكن ذات خطوط كما هو الحال في الدفاتر المدرسية في هذا العصر، ومن هنا نلاحظ أنّ كتابتهم لم تكن بشكل أفقي ومستقيم بل كانت في الغالب غير منظمة ومنحنية السطور، ومن أجل تنظيم السطور ومنع الانحناء في الكتابة، فإنّهم كانوا يضعون صفحة فلزية معينة بمقدار الورقة وفي هذه الصفحة الفلزية توجد مسامير على الجانبين مثبتة بانتظام وقد وضعوا خيوط توصل بين هذه المسامير بشكل أفقي بحيث تكون هذه الخطوط متوازية فيما بينها وأفقية، ثم يضعون الورقة عليها ويضغطونها على الخيوط فتؤثر هذه الخيوط

المستقيمة والأُفقية في الورقة وتحدث خطوط لا مرئية عليها، ثم يبدأون بالكتابة على هذه الورقة فتكون كتابتهم مستقيمة وبدون اعوجاج.

وكانوا يسمّون هذه الأداة «مسطر»، وطبقاً لهذا الاحتمال فإنّ الله تعالى أقسم بهذه الوسيلة أيضاً بعد القسم بالقلم، أي: أُقسم بالقلم وبما بواسطته ينظمون السطور والكتابة حتى لا ينحرف القلم عن مسيره المستقيم.

ج) المقصود من «ما يسطرون»،هو «ما يسطرون فيه»، أي الورق الذي يكتبون عليه، فيكون المعنى: أقسم بالقلم وبالورق الذي يكتبون عليه.

د) المقصود بهذه العبارة هو «ما يسطرون به»، أي الحبر الذي يكتبون به، بمعنى القسم بالقلم والحبر أو الدواة.

ولا يبعد أنّ جميع هذه الاحتمالات منطقية في معنى كلمة «ما يسطرون». أي القسم بقلم الوحي وعلم الله تعالى، والقسم بقلم الملائكة، والقسم بأقلام البشر، والقسم بالدواة والورق والسطور المكتوبة على الورق وما بواسطته ينظمون السطور على الورق، فجميع هذه الأقسام تشير إلى نقطة واحدة وهي أهميّة القلم في حياة الإنسان.

قيمة القلم:

ومن أجل الإحاطة بأهميّة القلم وقيمته الكبيرة نلفت النظر إلى مايلي:

العلماء قسموا مراحل حياة الإنسان إلى مرحلتين، مرحلة ما قبل التاريخ، ومرحلة التاريخ، والفرق بين هاتين المرحلتين اختراع الخط، فمنذ أن استطاع الإنسان اختراع الخط وكتابة ما يعلمه ويدور في ذهنه ونقل هذه المعلومات إلى الأجيال اللاحقة فيما يختزنه من فكر وتصورات وتجارب، فمنذ ذلك الوقت بدأ التاريخ، وقبل ذلك كان عصر ما قبل التاريخ.

ومن هذا المنطلق، فإنّ ظهور الخط على أُفق التاريخ البشري كان إلى درجة من الأهميّة بحيث غيّر حياة الإنسان ووضع الفاصلة بين مرحلتين متمايزتين في تاريخ البشر، مضافاً إلى ذلك فإنّ جميع الحضارات البشرية المختلفة إنّما برزت للوجود وتحركت المجتمعات البشرية في خط الحضارة والرقي بسبب وجود الكتابة والقلم، فجميع العلوم والمعارف من جيل إلى جيل آخر، كما أنّ الصناعات المختلفة والاكتشافات، رهينة بوجود القلم.

والملفت أنّ القرآن الكريم أقسم بهذا الشيء الثمين والمهم في ذلك الزمان الذي لم يكن الإنسان يدرك قيمته الواقعية، وقد نزلت الآيات التي تتحدّث عن القلم في أجواء غارقة في الجهل والأُمية، بحيث كان الذين يعرفون القراءة والكتابة يُعدّون بالأصابع، وهذه هي معجزة القرآن.

كما أنّ ظهور الإسلام والقرآن في مكان يعتبر أكثر الأمكنة والمواطن تخلفاً وظلامة في ذلك الوقت، يعتبر أيضاً معجزة أخرى.

الحقيقة أنّ مجيء النبي الأكرمﷺ وهو الذي لم يدرس في المدرسة وكان يعيش في محيط مظلم ومتخلف وهو محيط الحجاز، يعتبر من الأُمور الخارقة للعادة وفوق طاقة البشر.

دور القلم في عصرنا الحاضر:

وللأسف فإن الأقلام المسمومة في عصرنا الحاضر، إذا لم تكن أكثر من الأقلام السليمة فلا أقلّ منها.. وهي الأقلام التي تستخدم في تكريس الاستعمار وتقوية الظلم والجور. الأقلام التي تلقي بالشبهات وتعمل علىٰ تشويش الذهنية المسلمة وإبعادها عن خط الإسلام الأصيل. الأقلام المسمومة التي تلقي بسمومها في المجلات والصحف من أجل منافع أصحابها فقط، ولا تتورع عن الكتابة أي شيء

مخالف للقيم والمبادىء للتوصل إلى أهدافها وتحقيق غايتها.

ومع الأسف الشديد أنّ القائمين على أهم المجلات والصحف العالمية في بلدان مهمّة كأمريكا وألمانيا وإيطاليا وبريطانيا هم من الصهاينة!

والعجيب أنّ أربعة ملايين صهيوني يسيطرون على أهم المنابع الخبرية في العالم، ويصوغون الحوادث والأخبار التي تتلائم مع أهدافهم المشؤومة، وما أكثر الجرائم والظلامات التي تنشأ من تحريف الحقائق وتزوير الوقائع من خلال استخدام هؤلاء الصهاينة للإعلام وسيطرتهم على أجهزة التواصل المعرفي والخبري في العالم.

وقبل مدّة قتل أحد المسؤولين الحكوميين في لبنان بطريقة مشكوكة والمفروض أنّ المسؤولين في حكومة ذلك البلد يقومون بإجراء تحقيق لمعرفة المسببين لهذا الحادث، ولكن بما أنّ طرح هذه المسألة في المجاميع العالمية واتهام دولة كسورية بتدخلها في هذه الجريمة يصبّ في مصلحة الصهاينة، ولذلك طرحت هذه المسألة بشكل واسع في أجهزة الإعلام، حتى أنّهم سعوا لإيصال هذه القضية لمجلس الأمن، في حين أنّ آلاف الجرائم التي تقع هنا وهناك بواسطة هؤلاء الصهاينة وعمّالهم، لا نجد لها انعكاس يستحق الذكر في الإعلام العالمي ولا يقوم أحد بتقديمها ورفعها للمنظمات العالمية، حتى جرائم التعذيب في سجن (أبو غريب) في بغداد، والتي تمّ الكشف عنها بواسطه قواتهم العسكرية وأدى إلى فضيحتهم في العالم وبقيت هذه الجريمة مغطاة ومسكوت عنها.

إنّ القلم عندما يقع بيد أتباع الشيطان وقوى الظلام، فليس فقط أنّ الشيطان يسلم وينجو من المحاكمة بل يتحوّل الشيطان إلى ملك وديع يريد الخير للناس، عندما يقع القلم بيد عملاء أمريكا ويعمل على التلاعب بالوعي العام للشعب الأمريكي، فسوف يتصورون أنّ الاسرائيليين شعب مظلوم وأنّ الفلسطينين هم

الذين ظلموا الشعب الاسرائيلي.

والخلاصة أنّ القلم إذا كان بيد أهله وبيد من يستحق حمله فسيكون أفضل وسيلة وأداة لتكامل البشرية، ولكن إذا وقع بيد المنحرفين وبيد قوى الظلام، فإنّه يتحوّل إلى أداة ووسيلة للسقوط في وحل الرذيلة، ويكون أداة لإشاعة الظلم والفساد و الانحطاط.

مساحة حرية القلم؟

يكثر هذه الأيّام الكلام عن حرية الرأي والبيان والقلم، وكثيراً ما تتباعد الأحاديث وتقترب في تفاصيل هذا الموضوع، والسؤال هو: ما هي الحدود لحرية القلم، وإلى أي مدى يمكن السماح لهذه الحرية؟

عندما تقوم صحيفة أو مجلة معينة بارتكاب مخالفة أخلاقية أو قانونية، ويتعامل معها المسؤولون بإطار قانوني، فسوف ترى البعض يرفع عقيرته بالاعتراض ويتهم النظام الإسلامي بعدم توفير الحريات السياسية وحرية البيان والصحف، فهل أنّ حرية القلم بمعنى أنّ الصحف والمجلات لها الحرية الكاملة في أن تكتب الصحيح والخطأ، السالم والسقيم، المفيد والضار، ولا أحد يحق له الإعتراض عليها؟

إنّ القرآن الكريم يقرر حقيقة حاسمة في هذا المجال:

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾[1].

وطبقاً لهذه الآية فإنّ حرية المسير والسياحة في الأرض مؤطرة بإطار العبودية والمسؤولية.

وعلى هذا الأساس فإنّ حرية القلم والمطبوعات أيضاً يجب أن تتحرك في إطار العبودية لله وتسير في خط الرسالة والمسؤولية ورعاية الشؤون الإسلامية والأحكام

---

١. سورة العنكبوت، الآية ٥٦.

الإسلامية، لا أن تتحرك من موقع إهانة المقدّسات واتهام الشخصيات الإيمانية، وإيجاد الاختلاف وإثارة الشحناء والنزاع، وإلقاء الشبهات، وإثارة علامات الاستفهام في أجواء الوعي الديني وفي الذهنية المسلمة، بذريعة حرية القلم وحماية حرية المطبوعات، فمثل هذا الأمر مخجل ومؤسف واقعاً.

النتيجة ينبغي تأطير حرية القلم والمطبوعات في إطار خاص وتعيين حركة الكتّاب والناشرين في هذا الإطار بحيث لا يتجاوزون حدود المسؤولية الرسالية والمصلحة العامة، وبذلك يتسنى تقليم أقلام الزيغ والانحراف ومنعها من السير في خط الشبهة والخروج عن الطريق المستقيم، وحينئذٍ يكون للقلم قيمة يستحق القسم بها ويكون مقدّساً ومحترماً على الدوام.

قيمة القلم في منظار الإمام الصادق عليه السلام:

وطبقاً لما ورد في بعض الروايات عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ جميع ما في الدنيا ومن ذلك أعمال الإنسان ونيّاته وكلماته، ستتعرض للوزن يوم القيامة، فذلك الميزان قادر على وزن أعمال ونيّات الإنسان، ولكن كيفية وزن هذه الأمور غير معلوم لدينا، وطبعاً فإنّ وزن الأشخاص بمعنى تعيين ثقل أجسامهم، لا يكاد يخفى على أحد، ولكن المهم بيان وزن ومقدار الأعمال الصالحة والطالحة، ومن هذه الجهة تارة يكون الإنسان ثقيلاً في الميزان وتارة يكون خفيفاً (لا يزن جناح بعوضة) لأنّ مثل هذا الشخص فارغ من حيث العمل الصالح وفقير من حيث الباطن ومعدم من حيث الخيرات، وبالعكس نرى بعض الأشخاص الذين هم حسب الظاهر خفيفون في الميزان المادي، إلّا أنّهم في ميزان الأعمال ثقيلون ويتجاوز وزنهم المعنوي عدّة أضعاف وزنهم المادي، لأنّهم يختزنون خلوص النيّة، وطهارة العقيدة، وصفاء القلب، وصلاح العمل، وهنيئاً لهؤلاء الأشخاص الذين يقول عنهم القرآن الكريم:

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾[1].

وفي ذلك اليوم فإنّ جميع دماء الشهداء على امتداد المسار التاريخي للبشرية منذ بداية خلق آدم وإلى قيام القيامة والتي سفكت في سبيل الدفاع عن الحرية والدفاع عن المظلومين وطلب رضا الله تعالى، توضع في كفة من الميزان، وتوضع في الجانب الآخر أقلام العلماء على امتداد التاريخ الفكري للبشرية، والذين كتبوا بأقلامهم ما يرضي الله تعالى ويحقق للإنسانية طموحاتها وتطلعاتها في خط العدل والحق والرسالة، فتثقل كفة أقلام هؤلاء العلماء على كفة دماء الشهداء[2]، لماذا؟

في مقام الجواب عن هذا السؤال يمكن الاستدلال بالأدلة التالية:

١. لولا أنّ أقلام العلماء تمثّل رصيداً لدماء الشهداء وبمثابة القاعدة المتماسكة والأساس المحكم الذي ينطلق منه الشهداء لتسجيل أعمال الشجاعة والتضحية في ثنايا التاريخ، فسوف تتعرض هذه الدماء الزاكية إلى النسيان وستلقى في زاوية بعيدة من التاريخ البشري، ومن هنا فإنّ القلم هو الذي يؤدي إلى خلود دم الشهيد، ولذلك فهو أفضل.

٢. إنّ أسلحة الشهيد تواجه أبدان العدو وتعمل على إزاحة العدو فيما يمثّل من وجود بدني ومادي يقف في طريق الحق والعدالة، وأمّا قلم العالم فيواجه روح العدو وفكره ومخططاته، فكما أنّ الروح أفضل من الجسم، فما كان يواجه الروح فهو أفضل ممن يواجه البدن.

٣. إن القلم يعتمد على آليات المنطق والاستدلال، والسيف يعتمد على آليات العنف والقوة، فالبرغم من أنّ الاستمداد من عناصر القوّة في مقابل قوى الاستكبار والاستعمار، التي لا تفهم سوى منطق القوّة، لازم وضروري، ولكن على أية حال

---

١. سورة القارعة، الآيتان ٦ و ٧.

٢. بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٢٦، ح ١٤٤.

فإنّ رجحان منطق الاستدلال والعقل على منطق القوّة، يعتبر أمراً بديهياً.

٤. إنّ دم الشهيد محدود بمنطقة خاصّة ومكان معين، وأمّا شعاع القلم فغير محدود بإطار خاص ومكان معين. بل يمتد إلى آفاق واسعة من الزمان والمكان في المجتمعات البشرية.

ولو كنّا في مقام المقايسة والمقارنة بين جميع ما كتب حول بيان أهميّة العلم والمعرفة والقلم من قبل العلماء والمفكرين في مختلف المجتمعات والمذاهب الفكرية من جهة، وبين الرواية المذكورة من جهة أخرى، فلا شك في أنّ الرواية المذكورة ستترجح على كل ما قيل في هذا الشأن، لأنّها ترسم لوحة رائعة عن مكانة القلم ومنزلة العلم والعلماء بشكل خاص.

ويتبيّن ممّا تقدّم من أهميّة القلم ومكانته الخاصّة، أنّ هذا المعنى إنّما يكون صحيحاً فيما لو تحرك القلم في خط الرسالة والمسؤولية، فلو تحرك القلم في خط الانحراف والضلالة فسوف تترتب عليه آثار وخيمة ونتائج سلبية كثيرة، وعليه فنحن جميعاً مسؤولون أمام هذين الجانبين للقلم فيما ينتجه من معطيات إيجابية فيما إذا سار في خط الحق والرسالة، وفيما يثير من مشكلات وأخطار فيما إذا تحرك في خط الانحراف والباطل، ونعمل على تقوية وتفعيل وترشيد النوع الأول من الحركة الإيجابية، ونتحرك في خط الاعتراض والبراءة والإنكار لحركة القلم في الخط الثاني.

الغرض من هذه الأقسام؟

وقد تبيّنت في البحث السابق أهمّية القلم الخاصّة، وكذلك ما يرتبط بالقلم من خط وكتابة، إلى درجة أنّ الله تعالى أقسم مرّتين بالقلم وبما يكتبه ويسطره[1]، والآن

١. سؤال: هل الله تعالى أقسم بجميع الأقلام والكتابات، أو اقتصر قسمه على الكتابات المفيدة؟

←

نريد أن نتعرف على المقسم له، وأنّ هذه الأقسام المهمّة لأي غرض كانت، وما المقصود منها؟ هنا تثير الآيات ثلاثة أمور مهمّة لبيان الغرض من هذه الأقسام:

١. النبي ﷺ ليس بمجنون!

أوّل موضوع تتناوله هذه الأقسام المذكورة وتهدف لإزاحة الغموض عنه، هو أنّ نبي الإسلام ﷺ ليس بمجنون:

﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾؛ أقسم بأقلام العلماء، أقسم بأقلام الملائكة، أقسم بقلم الوحي وعلم الله تعالى، وأقسم بأداة الكتابة، أنّك أيّها النبي لست بمجنون في ظلّ نعمة الله تعالى عليك، وأنّ ما يتهمونك به أعداء الإسلام غير صحيح، بل أنت أعقل عقلاء العالم.

٢. النعيم الخالد للنبي ﷺ

في بيان الغرض من الأقسام المذكورة أنّ الله تعالى وعد نبيّه الكريم، وبسبب تحمله الصعوبات النفسية والآلام البدنية وأشكال التهم والتحديات الصعبة، بالنعيم الخالد وغير المنقطع في الآخرة كما تقرر ذلك الآية ٣ من سورة القلم: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾.

٣. أخلاق النبي ﷺ العظيمة

الأمر الثالث الذي يقرره القرآن في هذه الآيات الشريفة، الشهادة على حسن

← الجواب: إنّ القرآن الكريم أقسم بالكتابة البنّاءة والهادية فقط، ولا تشمل الآيات المذكور الكتابات الفاسدة والمفسدة التي مع الأسف تنتشر في أكثر المجالات، والدليل على هذا الادعاء جملة: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ حيث إنّها ذكرت بوصفها قسماً من المقسم له. وأنّ الله تعالى يؤكد على الخلق العظيم للنبي الأكرم ﷺ، وإلّا فإنّ الله تعالى لا يقسم بالكتابات الفاسدة والمفسدة التي لا قيمة لها وليست مفيدة، وأنّ التناسب بين القسم والمقسم له يقتضي أن يكون المراد من الكتابات، الكتابات المفيدة والبنّاءة.

سيرة النبي الأكرمﷺ وأخلاقه العظيمة حيث يقول:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. أي أقسم بالقلم وما يسطرون بأنّك ذو أخلاق عظيمة وفضائل عالية.

إن الله تعالى أقسم بقسمين لتأكيد هذه الأمور الثلاثة المهمّة.

المقسم له الأوّل: اتهامات خاوية

ونستوحي من هذه الآيات القرآنية أنّ أعداء الإسلام والمشركين في الجزيرة العربية، ومن أجل مواجهة تقدّم الإسلام الذي كان يمتد بسرعة في أجواء الجزيرة العربية، كانوا يتهمون النبي الأكرمﷺ كل يوم بتهمة جديدة لتحقيق أهدافهم ومقاصدهم في مواجهة الدعوة الإلهيّة، وللأسف فإنّ هذه الوسيلة الدنيئة كانت تمثّل طيلة التاريخ سلاحاً يستخدمه الظالمون وقوى الظلام في صدّهم الناس عن الالتحاق بقافلة الحق والنور، وفي عصرنا هذا تستخدم هذه الوسيلة بشكل واسع، فنرى أنّ طلّاب الحرية في شتى أنحاء العالم يُتهمون بأنّهم ارهابيون، والغرض من ذلك الحيلولة أمام انتشار الحرية، أمّا إسرائيل الغاصبة والتي تعتبر أشنع دولة تمارس الإرهاب المقنن في العالم، فإنّها في نظر القوى المهيمنة والاستكبارية دولة سلام ولا تتهم بالإرهاب، في حين أنّ الشعب الفلسطيني المظلوم وبسبب دفاعه عن بلاده وكرامته يتهم بالإرهاب.

مهما يكن من أمر، فإنّ أهم التهم الموجهة لنبي الإسلامﷺ من قِبل قوى الشرك والظلام، تتلخص في أربعة محاور:

أ) تهمة الجنون!

وهذه التهمة الظالمة، تعدّ من جملة الاتهامات الشائعة التي كان المشركون

يتهمون النبي الأكرمﷺ بها، للتأثير على الناس البسطاء ومنعهم من الالتحاق بالنبي والاستجابة لدعوته، وهذا الموضوع ورد في العديد من الآيات القرآنية وأنّ المشركين كانوا ينسبون إلى النبي تهمة الجنون. كما سيأتي في البحوث اللاحقة.

ب) تهمة السحر!

وإحدىٰ التهم الشائعة التي اتهم بها جميع الأنبياء الإلهيين فضلاً عن نبي الإسلامﷺ، تهمة السحر، أجل إنّ الإتهام بالجنون والسحر لا يختص بنبي الإسلامﷺ فقط، فنقرأ في الآية الشريفة ٤ من سورة ص:

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

ونقرأ في الآية ٥٢ من سورة الذاريات:

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾.

وفي ضوء ذلك، فإنّ الاتهام بالسحر والجنون كان ديدن جميع الكفّار وقوى الانحراف والضلالة في مقابل جميع الأنبياء الإلهيين على طول المسار التاريخي، في حين أنّ هاتين التهمتين متناقضتين، لأنّ السحرة عادة هم أشخاص أذكياء ومراوغون، في حين أنّ المجنون يطلق على الشخص الفاقد لهذه الصفات والخصوصيات، وعليه فإنّ المجنون لا يمكن أن يكون ساحراً، و لكنّ الأشخاص الذين يتحركون بوحي الأهواء ولا يسلكون طريق العقل والمنطق، لا يعرفون ماذا يقولون.

ج) تهمة الكهانة!

وكان في العصر الجاهلي بعض الأشخاص من الماكرين والمحتالين يقومون بخداع الناس البسطاء على أساس أنّهم يتنبأون بالمستقبل، ويدّعون أنّهم مرتبطين بالجن، ويستقون الأخبار المتعلقة بالمستقبل من الجن، في حين أنّ الكثير من

أخبارهم غير مطابقة للواقع، وبعض تلك الأخبار ذات طابع شمولي وكلي بحيث تقبل الانطباق على كل شخص، مثلاً يقولون: «إنّ عدوّك يتربص بك الدوائر» أو «إنّ أحد جيرانك يضمر لك العداوة» أو «إنّ الخطر يهدد حياتك» وأمثال ذلك من العبارات الكلية التي ربّما يواجهها كل إنسان في واقع الحياة والمجتمع، فمثل هؤلاء الأشخاص يتحركون في هذا السبيل لتحقيق مطامعهم المادية ومآربهم الدنيوية، ويقال عنهم «كهنة» وعملهم «الكهانة» ومن أجل مواجهة الإسلام كان المشركون وأعداء الإسلام يتهمون نبي الإسلامﷺ بالكهانة.

ونقرأ في الآية ٢٩ من سورة الطور بيان هذه الحقيقة في ردّ تلك التهمة الدنيئة:

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾.

وقد انطلق المشركون في تهمتهم هذه لنبي الإسلامﷺ لأنّهم سمعوا ما ورد في الآيات القرآنية من التنبّؤ بالمستقبل والإخبار بالمغيبات.

د) تهمة الشاعر!

وطبقاً لما ورد في الآية ٣٦ من سورة الصافّات، أنّ إحدى الاتهامات الموجهة لنبي الإسلامﷺ أنّه شاعر وتقول الآية:

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾.

هنا نرى أنّ كلام الكفّار واتهامهم هذا للنبي الأكرمﷺ يتضمن تناقضاً وتهافتاً، لأنّ الشاعر لا يتناسب مع المجنون، فالشاعر هو الشخص المطلع على فنون الشعر ولطافته وعالِم بآليات البلاغة والكناية والتشبيه والاستعارة ويملك قريحة شعرية وحس أدبي مرهف، في حين أنّ المجنون لا يستطيع تشخيص أي واحدة من هذه الأمور.

إنّ هذه الاتهامات الباطلة تعدّ من أهم ما قيل ونسب للنبي الأكرمﷺ من قِبل المشركين في مكّة، وقد أجاب الله تعالى عن هذه التهم ودفع هذه الأقاويل

والأكاذيب عن نبيّه الكريم بأفضل وجه.

ولكن ربّما يثار هنا هذا السؤال: ما هو مصدر هذه التهم؟ ولماذا يتهم الكفّار نبي الإسلامﷺ بالجنون والسحر والكهانة؟

في مقام الجواب نشير هنا إلى منشأ هذه الأمور وفلسفتها.

الغاية من الإتهام بالجنون:

إن العاقل في منظار أتباع أهل الدنيا هو الشخص الذي يأكل الخبز بسعر يومه (كما يقول المثل) ويسبح مع التيار ولا يسير بخلاف حركة الرياح، ومن أجل التخلص من المشاكل والمآزق والأخطار فإنّه يندمج مع الجماعة ويتحرك معهم ويتلون بلونهم، وبما أنّ النبي الأكرمﷺ كان يتحرك في مسير مخالف لسائر الناس في مكّة وعلى الضد من عقائدهم وأفكارهم وسلوكياتهم، وكان يعبد الله الواحد ولا يعبد الأصنام، وقد سلك مسلكاً مخالفاً لمسلك المجتمع العربي الجاهلي، فلذلك اتهموه بالجنون.

وقد مرض أبوطالب وجاء المشركون وزعماء مكّة لعيادته، وفي الحقيقة كانوا يريدون أن يتفاوضوا مع النبي محمدﷺ عند أبي طالب، وبعد عيادته طلبوا منه أن يبعث وراء ابن أخيه محمد ليتباحثوا معه في مسألة ادعائه النبوة وما سبّبته هذه الدعوة من مشاكل ومصاعب للمشركين ولقريش، فجاء النبي محمّدﷺ إليهم تلبية لدعوة عمّه الكريم وحضر تلك الجلسة. فقال له زعماء قريش: ماذا تقصد من دعوتك هذه وما هو هدفك من طرح هذا الدين الجديد؟ إذا كنت تريد مقاماً وجاهاً، فسوف نعطيك مقاماً عالياً وجاهاً عزيزاً، بشرط أن تتخلى وتترك ما أنت عليه ولا تتعرض لأصنامنا ولا تسفه عبادتنا لها، وإذا أردت المال فسوف نعطيك مالاً كثيراً، بشرط أن تترك دعوة الناس إلى دينك الجديد، وإذا كنت تريد زوجة جميلة فسوف

نختار لك أفضل وأجمل نساء العرب، وهكذا نرى أنّ المقام والثروة تعدّ أهم عناصر الحياة لدى أتباع الدنيا، بحيث إنّهم لا يمتنعون من ارتكاب أية جريمة في هذا السبيل، والشخص الذي يرفض هذه الأمور ولا يهتم لهذه الامتيازات، فهو في نظرهم إنسان مجنون لا عقل له.

فقال لهم رسول الله ﷺ:

«وَلـٰكِنْ يُعْطُوني كَلِمَةً يَمْلِكُونَ بِهَا الْعَرَبَ وَيُدينُ لَهُمْ بِهَا الْعَجَمُ».

فقال أحد المشركين، والظاهر أنّه أبوسفيان: «نعم، و عشر كلمات»، أي نحن مستعدون لنعطيك عشر كلمات بدلاً من كلمة واحدة.

فقال رسول الله ﷺ: «تَشْهَدُونَ أن لا إِلـٰهَ إلّا اللهُ وَأنّي رَسُولُ اللهِ».

فنظر المشركون بعضهم إلى بعض وقالوا: إنّ خصامنا ونزاعنا على هذه الكلمة، فنحن لسنا بتاركي آلهتنا، وأنت تريد منّا ترك ٣٦٠ صنماً ونعبد إلهاً واحداً غير مرئي!![1].

أجل! إنّ المشركين وعبّاد الأوثان يعتبرون الأشخاص الذين لا يعتقدون بأفكارهم ولا يسيرون في خط الباطل مثلهم، ولا يأكلون الخبز بسعر اليوم أنّهم مجانين، في حين أنّ التاريخ يقرر بوضوح هذه الحقيقة الحاسمة، وهي أنّ نبي الإسلام ﷺ لم يستسلم لإغراءاتهم الدنيوية ولم يرضخ للإمتيازات المادية، ولم يهتز للوعود البراقة، بل أعرض عن كل هذه الأمور في سبيل نيل رضا الله تعالى والتقرب إليه.

الغاية من الإتهام بالسحر:

بما أنّ كلام النبي الأكرم ﷺ وبخاصّة عندما يتلو آيات من القرآن الكريم، له أثر عجيب في نفوس المستمعين، وكل من كان ينصت إلى كلامه يشعر بجاذبية غريبة تشدّه إلى النبي والإسلام، بحيث يجد في نفسه استعداداً للجلوس والاذعان

---

١. بحار الأنوار، ج ١٨، ص ١٨٢.

والخضوع للآيات القرآنية، ولهذا قيل عنه إنّه ساحر، وأنّ القرآن سحر يؤثر، هؤلاء كانوا يهدفون من هذه التهمة إبعاد الناس عن النبي الأكرمﷺ في حين أنّهم بهذا الكلام يعترفون لا شعورياً بقوّة ونفوذ كلام النبي في أعماق قلوب الناس، وهيمنته على نفوسهم، وقصّة أسعد بن زرارة شاهد حي على هذا الموضوع.

قصّة أسعد بن زرارة!

بما أنّ قبيلة أسعد بن زرارة كانت تخوض حروباً ونزاعات مع القبائل الأخرى لمدّة مديدة ولهذا جاء أسعد إلى مكّة لشراء السلاح اللازم، وبعد دخوله إلى هذه المدينة قصد زيارة البيت الحرام، وعندما وقف أمام باب المسجد الحرام، تصدى له شخص وسأله: أين تذهب؟

فقال أسعد: إني ذاهب لزيارة بيت الله. فقال له الرجل: لا بأس، ولكن احذر من الاقتراب من حجر اسماعيل فقد جلس هناك ساحر يسحر الناس بكلامه. فخذ هذا القطن وضعه في أذنيك لئلا تسمع كلامه، وبذلك تكون في مأمن من سحره. فعمل أسعد بوصية ذلك الرجل، وبينما كان في حال الطواف وصل إلى مقربة من حجر اسماعيل فلفت نظره سيماء النبي وطلعته المباركة. ولكنّه لم يكن يسمع كلامه ففكر في نفسه وقال: العجب من حماقتي، فلماذا لا أسمع لكلامه؟ فلو كان حسناً قبلته، وإلّا فلا أقبله. وهكذا أخرج القطن من أذنيه وسمع بعض آيات القرآن الكريم فتحرك قلبه ابتهاجاً بهذه الآيات ووجد في أعماق روحه نوراً وضياءً عجيباً. وجاء إلى النبي الأكرمﷺ وجلس أمامه وطلب منه أن يتلو عليه آيات أخرى، فعندما سمع أسعد بهذه الآيات انجذب قلبه للنبي واعتنق الإسلام وطرح للنبي موضوع النزاع والحرب بين قبيلته والقبيلة الأخرى، ودعاه للمجيىء إليهم لرفع ذلك الخلاف و النزاع[1].

---

١. فروغ أبديت (بالفارسية)، ج ١، ص ٢٢.

اعتراف الوليد بن المغيرة:

ينقل المفسّر الكبير المرحوم الطبرسي في مجمع البيان:

اجتمع العرب المشركون في دار الندوة لبحث المعظلة الاجتماعية في ذلك الوقت (وهي ظاهرة انتشار الإسلام وامتداد الدين الجديد في الوسط الاجتماعي) والسبيل لوقف هذه الدعوة والحيلولة دون انتشارها في أوساط الشبّان وسائر الناس، وكانت دار الندوة حينذاك بمثابة مجلس البرلمان في العصر الحديث حيث يجتمع فيها زعماء قريش للتباحث في شؤونهم والتشاور في ما يهمهم وبديهي أنّ المشورة ضرورية في جميع الأمور المهمّة منها حيث تقلل من الوقوع في الخطأ بدرجة كبيرة.

كان الوليد بن المغيرة شيخاً كبيراً، وكان من حكّام العرب، يتحاكون إليه في الأمور، وينشدونه الأشعار، فما اختاره من الشعر كان مختاراً، وكان له بنون لا يبرحون مكّة، وكان له عبيد عشرة عند كل عبد ألف دينار يتّجر بها، وملك القنطار في ذلك الزمان (القنطار جلد ثور مملوء ذهباً) وكان من المستهزئين برسول اللهﷺ.

في يوم سأل أبوجهل الوليد بن المغيرة قائلاً له: ياأباعبد شمس، ما هذا الذي يقول محمّد؟ أسحر أم كهانة أم خطب؟

فقال: دعوني أسمع كلامه، فدنا من رسول اللهﷺ وهو جالس في الحجر، فقال: يامحمّد أنشدني من شعرك.

قال رسول اللهﷺ: ما هو بشعر، ولكنّه كلام الله الذي به بعث أنبياءه ورسله.

فقال: اتل عليَّ منه.

فقرأ عليه رسول الله ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فلمّا سمع (الوليد) كلمة الرحمن استهزأ فقال: تدعو إلى رجل باليمامة يسمّى الرحمن.

قال رسول اللهﷺ: لا، لكنّي أدعو إلى الله هو الرحمن الرحيم، ثم افتتح سورة

«حم السجدة» فلّما بلغ إلى قوله تعالى: ﴿فإنّ أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾[١]. فلمّا سمعه الوليد اقشعر جلده، وقامت كل شعرة في رأسه ولحيته، ثم قام ومضى إلى بيته ولم يرجع إلى قريش.

فقالت قريش: يا أباالحكم، صبأ أبوعبد شمس إلى دين محمّد، أما تراه لم يرجع إلينا؟ وقد قبله ومضى إلى منزله. فاغتمّت قريش من ذلك غمّاً شديداً.

وغدا عليه أبوجهل فقال: يا أبا عبد شمس، نكست برؤوسنا وفضحتنا.

قال الوليد: ما ذلك يا ابن أخي؟ قال: صبوت إلى دين محمّد.

قال الوليد: ما صبوت، وإنّي على دين قومي وآبائي، ولكنّي سمعت كلاماً صعباً تقشعر منه الجلود.

قال أبوجهل: أشعر هو؟ قال: ما هو بشعر. قال: فخطب هو؟

قال: إنّ الخطب كلام متصل، وهذا كلام منثور، ولا يشبه بعضه بعضاً له طلاوة.

قال أبوجهل: فكهانة هي؟ قال: لا. قال: فما هو؟ قال: دعني أفكّر فيه.

فلّما كان من الغد قالوا: يا أبا عبد شمس ما تقول؟

قال الوليد: قولوا هو سحر. فإنّه آخذ بقلوب الناس. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالاً ممدوداً * وبنين شهوداً﴾[٢]و[٣].

إنّ الله تعالى عندما يقسم بالقلم وما يسطرون به، وبعبارة أخرىٰ عندما يقسم بجميع ما كُتب على امتداد التاريخ البشري وما يُكتب به، فإنّه يهدف لنقض التهم والمزاعم التي أوردها المشركون في هذه السورة وفي غيرها من السور القرآنية.

---

١. سورة فصلت، الآية ١٣.

٢. سورة المدثر، الآية ١١ إلى ١٣.

٣. بحارالأنوار، ج١٧، ص ٢١١ فما فوق، ويمكن ملاحظة القصة في كتب أخرى منها، تفسير القرطبي، ج٨، ص ٥٧٨٢ بداية سورة فصلت.

الغاية من الإتهام بالكهانة:

بما أنّ الكهانة، تقتضي الإخبار عن الحوادث المستقبلية، كما تقدّم بيانه وسيأتي لاحقاً أيضاً، وبما أنّ النبي الأكرمﷺ كان يتلو بعض الآيات القرآنية التي تخبر عن المستقبل، فلهذا قيل عنه إنّه كاهن، على سبيل المثال ما ورد في الآيات الأولى من سورة الروم.

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

وقد تحقق هذا التنبؤ وتغلب الروم بعد سنوات على الفرس، ولكن هناك تفاوت كبير بين إخبار الله تعالى وهو عالم الغيب والخفيات والمطلع على أسرار الناس وظاهرهم، وبين إخبار إنسان عادي عن المستقبل على أساس الظنّ والتخمين والحدس، وبدافع من الحصول على المال، فالفرق بينهما فرق بين الثرى والثريا، والأرض والسماء.

مصدر الكهانة:

وتقدّم فيما سبق إشارة إجمالية لجذور الكهانة والتنبؤ بالمستقبل، وهنا نستجلي بعض تفاصيل هذا الموضوع، ونقول: إنّ الكهانة تمد بجذورها إلى ثلاثة أمور:

أ) **فطنة الكاهن وذكاؤه:** عادة يكون الكهنة من الأشخاص الأذكياء وأهل الفطنة والنظر الثاقب، بحيث يستطيعون من خلال القرائن والشواهد معرفة مستقبل الطرف المقابل بقوّة الحدس، كما أنّ السياسيين المحترفين، بإمكانهم ومن خلال ملاحظة بعض العلائم والحوادث، معرفة مستقبل البلاد على أساس الحدس والتخمين، وبعض هذه التنبؤات والتحليلات السياسية للمستقبل تقع صحيحة.

ب) الارتباط مع الشياطين والجنّ: وبعض الكهنة يرتبطون بالجن والشياطين ويستقون منهم الأخبار، كما تقول الآية الشريفة: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾[1]. وهذا النوع من الارتباط مع الشياطين ممكن من الناحية العقلية، كما أنّه ممكن مع الجن أيضاً، ولكن ما مقدار صحة ادّعائهم وصدقهم في هذا الزعم؟ فهو بحث آخر.

ج) الكذب والدجل: في كثير من الموارد ينطلق كلام الكهنة لا من خلال القرائن والشواهد ولا من خلال الإرتباط مع الجن والشياطين، بل على أساس الحدس والتخمين، وبمرور الزمان ينكشف للناس خداعهم وكذبهم، ولكنّ هؤلاء الأفراد الذين يعيشون على الكذب، ويحصلون على المال الوفير من أكاذيبهم لا يقفون مكتوفي الأيدي أمام انكشاف حقيقتهم وافتضاحهم، بل يضطرون لتبرير أكاذيبهم، كأن يقولوا: «إنّ معلوماتكم عن هذا الموضوع ناقصة» أو «إنّكم لم تعملوا طبقاً لما قلناه لكم» إلى غير ذلك من التبريرات الواهية.

الكهانة في منظار الشرع:

إنّ الإسلام العزيز ليس فقط يحرّم الكهانة والإخبار عن المستقبل، بل يحرّم أيضاً أي إخبار بالغيب، وعلى هذا الأساس فالأشخاص الذين يتوجهون إلى السحرة، أو يستقون أخبار المستقبل بطريقة الهيبنوتيزم أو التنويم المغناطيسي، وبذلك يكشفون عن المعلومات الخفية للأفراد، أو يحصلون على الأخبار بطريق الضرب بالرمل والاسطرلاب وحساب الأعداد أو من خلال الاتصال مع الأرواح أو الجن، فكل هذه الأمور حرام، وكذلك يحرم الرجوع إلى هؤلاء في هذه الموارد، وهذا هو رأي جميع مراجع التقليد المحترمين، ولا يوجد أي شك فيه.

---

١. سورة الأنعام، الآية ١٢١.

وهنا نذكر روايتين في هذا المجال:

١. يقول النبي الأكرم محمّد بن عبدالله ﷺ:

«مَنْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ فَقَدْ بَرِءَ مِنْ دِينِ مُحَمَّدٍ»[١].

٢. نقل الإمام الصادق عليه السلام عن النبي الأكرم ﷺ أنّه قال:

«مَنْ مَشىٰ إِلىٰ سَاحِرٍ أَوْ كَاهِنٍ أَوْ كَذَّابٍ يُصَدِّقُهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ»[٢].

وطبقاً للروايات المذكورة في هذا الباب، فالأشخاص الذين يتوجهون لمعرفة ضالتهم إلى مثل هؤلاء الأشخاص، فإنّهم يرتكبون ذنباً كبيراً، لأنّه لو فتح هذا الباب على مصراعيه فستترتب عليه مفاسد كثيرة.

مثلاً يقول لك الكاهن: «إنّ أحد معارفك أو أرحامك ارتكب سرقة» فتحصل لهذا الشخص حالة من سوء الظن بجميع أقربائه، وكل من يراه منهم يتصور أنّه هو السارق، وعندما تتزلزل العلاقات الاجتماعية وتهتز عناصر المودة بين الناس على أثر سوء الظن هذا، فإنّ الحياة الاجتماعية ستواجه الخلل والإرباك، وحتى بالنسبة للأشخاص الذين يتوجهون للكشف عن الأمور الخفية، نحو الهيبنوتيزم والتنويم المغناطيسي فإنّهم يرتكبون عملاً مخالفاً للشرع ويعدّ ذنباً كبيراً، وطبعاً فلا إشكال في التنويم المغناطيسي لعلاج الأمراض، مثلاً الأشخاص المبتلون بالكآبة المزمنة أو الذين يعيشون حالة الوسواس والحساسية المفرطة، أو يعيشون حالة الشعور بالإثم، فهؤلاء يمكن علاجهم بالتنويم المغناطيسي، بل إنّ بعض المرضى يتمّ تنويمهم مغناطيسياً للقيام بعملية جراحية لهم بدلاً من الاستفادة من التخدير الطبّي، وهذا العمل لا إشكال فيه أيضاً، ولكن إذا أراد شخص الاطلاع على بعض الأخبار

---

١. وسائل الشيعة، ج ١٢، الباب ٢٦ من أبواب ما يكتسب به، ح ٢.

٢. المصدر السابق، ح ٣.

الخفية وأسرار الناس من خلال عملية التنويم المغناطيسي، فهو عمل حرام.

النتيجة، أنّ اتهام المشركين للنبي الأكرمﷺ لا يقوم على أساس واقعي، وأنّ الله تعالى قد ردّ زعمهم هذا في القرآن الكريم، وأنّ أصل الكهانة يعدّ في منظار الشرع الإسلامي من الذنوب والمعاصي، فلم يسمح الله تعالى للمسلمين بممارسة الكهانة والتنبؤ بالمستقبل كما أنّه تعالى لم يسمح لهم بالذهاب إلى الكهنة.

الغاية من إتهام النبيﷺ بالشِعر:

إنّ القرآن الكريم يتضمن آيات ذات سياق موسيقي خاص، ولا سيما آيات السور المكّية، ولهذا زعم المشركون أنّ نبي الإسلامﷺ شاعر، لكي يعزوا جذابية القرآن إلى وزنه وقافيته وموسيقيته الشعرية.

في حين أنّ كل من له معرفة بسيطة بالشعر والشاعرية ويتأمل في آيات القرآن الكريم يدرك أنّ القرآن ليس له وزن شعري، وقد كان المشركون يتشبثون بأي شيء لانقاذ أنفسهم وأصنامهم وعقائدهم الخرافية ولعلهم يستطيعون التصدي لأمواج الدعوة الجديدة ووقف امتدادها في الوسط الجماهيري.

واللافت أنّ القرآن الكريم يقول في شأن الشعر والشعراء:

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.[1]

والخلاصة أنّ أياً من هذه الاتّهامات والادّعاءات الفارغة التي نسبوهاللنبيﷺ لم تمنع من امتداد الإسلام ولم تؤثر في عزم النبي الأكرمﷺ على مواصلة طريقه في خط الدعوة والرسالة وتبليغ التعاليم السماوية.

---

١. سورة الشعراء، الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

المقسم له الثاني: أجر النبي الأكرمﷺ

بعد أنّ برأ الباري تعالى نبيّه الأكرمﷺ من تهمة الجنون، ألحق آية أخرى لتطييب خاطر النبي وبيان مكانته ومنزلته عند الله وأنّ أتعابه لا تذهب سُدىً فقال:

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾.

هناك ثلاثة أمور مؤثرة في كسب الثواب الإلهي:

١. إنّ العمل كلما كان مقترناً بالتعب والمشقة استحق الثواب أكثر، وقد ورد هذا المعنى في الحديث المأثور:

«أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَحْمَزُهَا»[1].

إنّ ثواب الحج الذي كان يحصل عليه القدماء مع كل تلك المعاناة والمشقات وما يواجهونه من مشاكل بدنية ومالية، لا يمكن أن يساوي ثواب الحج الذي يحصل عليه المسلم في هذا العصر وبهذه الإمكانات والرفاهية والوسائل السريعة والمريحة.

٢. كلما كانت نيّة الإنسان خالصة أكثر، فإنّ ثوابه وأجره سيكون أكثر بنفس النسبة، فالإخلاص هو الإكسير الذي يبدل نحاس الأعمال إلى ذهب.

٣. كلما ازداد عقل الإنسان فإنّ أعماله ستكون مقبولة عند الله أكثر، فقد ورد هذا المعنى في بعض الروايات الشريفة التي تقرر أنّ ثواب الأعمال يكون بمقدار ما أُوتي الإنسان من عقل وشعور وفهم[2]، وعلى هذا الأساس فإنّ ثواب ركعتين من صلاة يؤديها العالِم العامل لا تقبل المقارنة في ثوابها مع ركعتين صلاة يؤديها الإنسان العادي.

ولا شك في أنّ عمل النبي الأكرمﷺ ومهمته في إبلاغ الوحي الإلهي والتعاليم

---

١. بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ١٩١ و ٢٣٧.

٢. ونقرأ في رواية عن الإمام الصادقعليه السلام: «إِنَّ الثَّوابَ عَلىٰ قَدْرِ العَقْلِ» ميزان الحكمة، باب ٢٧٨٦، ح ١٣٤٣.

السماوية يعتبر من أصعب الأعمال وأحمزها، وما يملكه النبي من إخلاص قلبي وصفاء النيّة يمثّل الحدّ الأعلىٰ من درجات الإخلاص والصفاء، وكذلك عقل النبي هو أعلى مراتب العقل والفهم والشعور، ومن هنا فإنّ الله تعالى قرر له الأجر الدائم والثواب غير المنقطع.

وأمّا ما يقال إنّ عمل النبي كان من أصعب الأعمال، فهو ليس سوى ادّعاء فارغ، فلو أننا صرفنا النظر عن جميع المشكلات والأتعاب التي تحملها نبي الإسلام من أعدائه ومنها التهم والضغوط الاقتصادية وأشكال الحرمان والتآمر والأذى البدني والنفسي، وأخذنا بنظر الحسبان السنوات الثلاث التي قضاها النبي والمسلمون في شعب أبي طالب في سنوات الحصار، فذلك يكفي في إثبات المطلوب، إنّ المكان المذكور لو ذهب إليه الإنسان الآن فإنّه لا يتحمل حرارة الشمس ولو لدقائق معدودة، فكيف حال الشخص الذي قضى هناك ثلاث سنوات، وكان يعيش الحصار الاقتصادي الذي فرضه المشركون عليه؟ ولذلك فلا غرابة أن تقول الآية الشريفة عن ثواب النبي الأكرمﷺ: «أجر غير ممنون».

المقسم له الثالث: أخلاق النبي الأكرمﷺ

لقد تحرك القرآن في الآيتين السابقتين في الدفاع عن موقع النبي الأكرمﷺ، وتبرئة ساحته المقدّسة من التهم الزائفة التي كان المشركون ينسبونها له، وتؤكّد أنّ النبي يحضى بمنزلة سامية عند الله وأنّ له أجراً غير منقطع، وبعد ذلك يتعرض القرآن لصفات النبي من موقع المدح والثناء، ويذكر جملة واحدة ولكنّها غزيرة المعنى ، حيث تصور الآية الشريفة أخلاق النبي الأكرمﷺ هذا التصوير الرائع:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وقد كتب العلماء والمؤرخون الكثير من البحوث والتفاصيل في أخلاق النبي

الأكرمﷺ وكلما بحثنا في هذا الموضوع لم نصل إلى نهايته، ويمكن تأليف كتب كثيرة في هذا الموضوع، إنّ الخلق الحسن الذي يمتاز به النبي الأكرمﷺ يدلّ على أهميّة الأخلاق في الإسلام، فقد كان رسول اللهﷺ متواضعاً في غاية التواضع وكان يسلّم على الجميع، ويجلس في المجلس بشكل لا يتميز عن الآخرين، وعندما كان يسافر مع أصحابه وأتباعه فإنّه يتولى بعض شؤون السفر وأعماله ولا يجعل أعماله الخاصّة بعهدة الآخرين.

عفو النبي الأكرمﷺ:

لقد كان من خلق النبي الأكرمﷺ العفو والصفح عن المخالفين، ونكتفي هنا بالإشارة إلى نموذجين من ذلك:

أ) العفو عن الجار اليهودي

كان للنبي الأكرمﷺ جار يهودي وكان يؤذيه كثيراً، ففي كل يوم يصعد هذا اليهودي إلى السطح ويلقي بالرماد والنار على النبي وهو في طريقه[1]، على أساس أنّه يلقي بالرماد والأوساخ في الزقاق، ولكنّه في الحقيقة يمتلئ قلبه بالحقد والضغينة للإسلام وللنبي، ولكن النبي الأكرمﷺ كان يمرّ عليه مرور الكرام ولا يهتز أو ينفعل لذلك. وبعد مدّة لم يجد النبي أي خبر عن جاره اليهودي، فسأل النبي عن حاله فقالوا: إنّه مريض لحسن الحظ وبسبب مرضه امتنع عن إلحاق الأذى بك.

فقال النبيﷺ: لنذهب لعيادته! فتوجه إلى بيت اليهودي وطرق الباب، فسألت زوجته: من الطارق؟ قال النبي: أنا النبي محمّد جئت لعيادة زوجكِ المريض.

فأخبرت المرأة زوجها بذلك، فتعجب هذا اليهودي كثيراً وأصبح في مقابل الأمر

١. وردت الإشارة إلى هذا القصّة بصورة مختصر، في التفسير الأمثل، ذيل الآية المذكورة.

الواقع وغير المتوقع، فقال: افتحي له الباب ليدخل.فدخل النبي وجلس إلى جانب المريض وسأله عن حاله وأخذ يلاطفه ويتحدّث معه وكأنّه لم يواجه أي أذىً من هذا الرجل اليهودي، فما كان من اليهودي إلّا أن غطى وجهه بيده خجلاً وبقي منبهراً من هذه الأخلاق الكريمة لنبي الإسلامﷺ، ثم سأله: هل هذه الأخلاق الحسنة من ذاتياتك وشخصيتك، أم أنّها من تعاليم دينك؟

فقال النبي الأكرمﷺ: إنّها من تعاليم ديني وأنا أوصي جميع المسلمين بهذه الأخلاق، فماكان من اليهودي بعد أن رأى هذا التعامل الكريم والأخلاق الحسنة من النبي إلّا أن اعتنق الإسلام، وفي الحقيقة أنّ أبلغ وصف لمثل هذه الأخلاق العظيمة أن يقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

ب) صفحهﷺ عن أهالي مكّة

إنّ مكّة كانت بمثابة مركز التآمر على الإسلام ومجمع أعداء الإسلام، وكل مؤامرة وحرب تشن على الإسلام تنطلق من مكّة، وكان للمشركين في مكّة الدور الأكبر في إثارة الحروب والمؤامرات ضد الإسلام والنبي الأكرمﷺ، وكانت السنوات العشر التي قضاها النبي في مكّة لتبليغ الدعوة الإلهيّة من أصعب سنوات البعثة وأشدّها. وأضِف إلى ذلك فإنّ المشركين في مكّة قاموا بقتل سبعين نفراً من المسلمين وقتلوا حمزة سيد الشهداءﷺ وكسروا ثنايا النبيﷺ وغير ذلك من أشكال الضرر والجريمة في حق النبي الأكرمﷺ والمسلمين، ومع ذلك فإنّ النبي الأكرمﷺ وضع خطة لفتح مكّة بدون أي سفك للدماء وبدون إضرار بأي شخص من أهالي مكّة، فقد جهّز النبي جيشاً عظيماً من المسلمين وأغلق الطرق التي تنتهي إلىٰ مكّة للحيلولة دون وصول أخبار الجيش الإسلامي إلى مكّة لئلا يتهيأوا لمواجهة الجيش الإسلامي، ثم إنّ النبي توجه مع المسلمين إلى مكّة، وعندما أدرك

المشركون أنّ النبي الأكرمﷺ قد جاء إليهم بجيشه لفتح مكّة، كان ذلك بعد فوات الأوان، وقد استطاع النبي محاصرة مكّة بشكل كامل، فقال أبو سفيان: إذا جرّدنا سيوفنا وحاربنا المسلمين فسوف لا تبقى لقريش باقية وسوف نُقتل بأجمعنا، ولذلك لم يجدوا بدّاً من الاستسلام، وهكذا فتح الجيش الإسلامي مكّة بدون سفك قطرة دم واحدة، وأمّا النبي الإكرمﷺ وبعد ما تحمل منهم ما تحمل من الأذى والتآمر والمصاعب، فإنّه الآن بيده كل شيء وبإمكانه الانتقام من هؤلاء القوم، فلو كان النبي إنساناً عادياً لأصدر أمراً بقتل جميع مشركي مكّة، كما فعل ذلك جيوش الحلفاء عند فتح برلين عاصمة ألمانيا، ولم يرحموا رجلاً أو مرأة، صغيراً أو كبيراً، سالماً أو مريضاً، ولكنّ هذا النبي نبي الرحمة، ولذلك فقد جاء إلى جوار الكعبة وقبض على مقبض الباب، ونظر إلى أطرافه وكان جميع مشركي مكّة وزعماء الكفر والضلالة مجتمعين في ذلك المكان، فنظر إليهم وخاطبهم: «مٰاذٰا تَظُنُّونَ أَنّي فاعلٌ بِكُم؟».

فقالوا: «أَنْتَ أَخٌ كَريم وَابْنُ أَخٍ كَريم»!

فقال النبيﷺ: «إذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقٰاءُ»[1]. فأنا قد عفوت عنكم ولا آخذكم أسرى ولا أطلب منكم فدية، بل أنتم أحرار في سبيل الله، وقد صفحت عمّا صدر منكم بحقي من الأذى.

والإنصاف، أنّ مثل هذا الصفح الكريم ينبغي أن يقال عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

سؤال: إنّ رسول اللهﷺ عندما فتح مكّة، أعطى أمان لثلاث طوائف،

أ) الأشخاص الذين اجتمعوا في المسجد الحرام.

ب) الأشخاص الذين بقوا في بيوتهم، وأقفلوا الأبواب عليهم.

---

١. بحار الأنوار، ج ٢١، ص ١٠٦.

ج) الأشخاص الذين تجمعوا في بيت أبي سفيان.

وعلى ضوء ذلك فإنّ النبي الأكرمﷺ قد منح أبا سفيان امتيازاً خاصّاً وأطفأ نار الحرب المتقدة بين المسلمين والمشركين وبذلك منع سفك الدماء في مكّة واستسلم له المشركون. والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: لماذا امتنع الإمام عليعليه السلام من اعطاء مثل هذه الامتيازات لمعاوية وطلحة والزبير في زمان خلافته وفضل الحرب على منحهم مثل هذه الامتيازات؟

الجواب: إنّ النبي الأكرمﷺ عندما منح أباسفيان هذا الامتياز المذكور، فإنّه قد حرمه من سائر المناصب الحكومية ومقاليد الحكم في الحكومة الإسلامية، في حين أنّ معاوية وطلحة والزبير لم يرضوا بمثل هذا الامتياز، فكانوا يريدون حصّة من الحكومة الإسلامية، ولو وافقهم الإمام عليعليه السلام على ذلك فسوف يفضي الأمر إلى تقسيم وتقطيع أوصال المجتمع الإسلامي واهتزاز الحكومة الإسلامية، فلو أنّ الإمام علياًعليه السلام أمضىٰ حكومة معاوية على الشام، فلا شك في أنّ معاوية سيفصل الشام عن الحكومة الإسلامية ويجعلها إمارة مستقلة.

وعلى هذا الأساس فكما أنّ النبي الأكرمﷺ أعطى لأبي سفيان امتيازاً لغرض حفظ الحكومة الإسلامية، فإنّ الإمام علياًعليه السلام من أجل هذا الغرض نفسه، أي حفظ الحكومة الإسلامية، لم يمنح هؤلاء امتيازاً.

العلاقة بين الأقسام والمقسم له:

رأينا فيما تقدّم أنّ الله تعالى أقسم بجميع التراث البشري المدوّن علىٰ امتداد التاريخ، ويشمل جميع ما كتبه العلماء والمؤرخون في جميع القرون والأعصار، وأقسم بجميع آلات الكتابة بأنّ نبي الإسلامﷺ يمتاز بخلق عظيم وسيرة حسنة.

والآن ربّما يثير البعض هذا السؤال، ما هي العلاقة بين القلم والخلق الحسن؟

الجواب: إذا كان القلم بأيدٍ أمينة ويسطر على الورق كلمات مفيدة وبنّاءة وينتج كتباً تعمل على ترشيد عقول الناس والأخذ بأيديهم إلىٰ الفضيلة والأخلاق والقيم في أجواء المجتمع البشري، فإنّ أخلاق الناس في ذلك المجتمع وبسبب مطالعتهم لهذه الكتب، سيتحركون في خط الخير والعمل الصالح والقيم الإنسانية، وإذا كان القلم بيدٍ فاسدة فإنّه يكتب كتباً ضالة ويسطر كلمات فاسدة، ولا شك في أنّه يؤدي بالتالي إلى إفساد أخلاق الناس وإثارة كوامن الحقد والأنانية ويكرس الجهل والخرافة في أذهان الناس وفي نفوسهم، وبعبارة أخرى فإنّ الخلق الحسن نتيجة للأقلام السليمة، والرذائل الأخلاقية تعتبر ثمرة للأقلام الفاسدة والمنحرفة.

تفسير الخلق العظيم:

ما هو «الخلق العظيم» الذي أقسم الله تعالى من أجله تلك الأقسام المهمّة؟

في مقام الجواب عن هذا السؤال ذكر المفسّرون تفاسير مختلفة وقد جمعها العلّامة الطبرسي[1] في «مجمع البيان» ومن ذلك:

أ) «خُلُق» بمعنى الدين والمذهب، أي قسماً بالقلم وما يكتب به أنّك صاحب دين عظيم.

ب) الخلق العظيم يعني الأخلاق الإسلامية. أي: أيّها النبي إنّ الأخلاق الإسلامية التي تبلّغها إلى الناس، هي أخلاق سامية وتتضمن قيم عالية ومصيرية.

ج) الخلق العظيم بمعنى مَن يملك في نفسه الصفات والخصوصيات التالية:

الاستقامة، الجود والكرم، تدبير الأمور على أساس من العقل والرفق والمداراة، تحمل الصعوبات ومواجهة التحديات في سبيل الدعوة إلى الله، العفو والصفح عن

---

١. مجمع البيان، ج ١٠، ص ٨٦.

الأخطاء التي يرتكبها الناس، السعي الوافر لمد يد العون للمؤمنين، ترك الحسد والحرص وأمثال ذلك.

د) الخلق العظيم إشارة إلى الصفات والامتيازات الواردة في الآيات الأُولى من سورة (المؤمنون):

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ *... وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وعلى ضوء ذلك فإنّ الأشخاص الذين يملكون في أنفسهم هذه الصفات السبع المذكورة يتمتعون بخلق عظيم.

هـ) المقصود من الخلق العظيم المحافظة على الصلوات الخمس. وعليه فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ يعني أنّك أيها النبي تهتم بإقامة الصلاة وتواظب عليها.

و) الاحتمال السادس الذي لم يرد في تفسير مجمع البيان، ولكننا نطرحه هنا: إنّ جميع ما ورد في الاحتمالات الخمسة المذكورة آنفاً من مصاديق الخلق العظيم، ولا تنحصر بأحدها، وعلى هذا الأساس فإنّ الله تعالى عندما يقسم بالقلم وما يكتب به، بأنّ النبي يملك جميع الأخلاق الحسنة والمثل العليا على مستوى الأخلاق الفردية، والأخلاق الاجتماعية، الأخلاق في ميدان الحرب، الأخلاق في زمان الصلح، الأخلاق في البيت والأسرة، الأخلاق في المجتمع، الأخلاق في السفر، الأخلاق في الوطن.

والخلاصة، أنّ النبي الأكرم ﷺ يتمتع بجميع الصفات والفضائل الأخلاقية، والمنزّه عن جميع الرذائل الأخلاقية.

الأخلاق الإسلامية:

والآن بعد أن فهمنا الخصوصيات الأخلاقيةالبارزة لنبي الإسلام وما يملكه من مرتبة رفيعة ودرجة سامية في مقام الكمال المعنوي والإلهي، فمن المناسب أن نطرح وبشكل مختصر كلاماً عن الأخلاق الإسلامية وأبعادها وبعض تفاصيلها ونلفت النظر هنا إلى عدّة روايات وردت في هذا المجال:

١. جاء في الرواية المذكورة في الكتب المعتبرة للشيعة وأهل السنّة، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»[١].

وطبقاً لهذا الحديث الشريف والعميق في معناه ومضمونه، أنّ الهدف من بعثة نبي الإسلام ﷺ إكمال الفضائل الأخلاقية في فضاء المجتمع الإسلامي، والحقيقة أنّ الأخلاق إسلامية إذا كانت تتمتع بهذه الدرجة من الأهميّة، فينبغي بذل جهود مضاعفة لتجسيدها على واقع الحياة والممارسة على المستوى الاجتماعي وعلى المستوى الفردي.

٢. ورد في حديث آخر أنّ نبي الإسلام ﷺ قال:

«أَوَّلُ مَا يُوضَعُ فِي مِيزَانِ الْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُسْنُ خُلُقِهِ»[٢].

وطبقاً لهذا الحديث الشريف فإن الخلق الحسن إلى درجة من الأهميّة بحيث يوضع في الميزان قبل الصلاة والصيام والجهاد والزكاة والخمس.

٣. وفي حديث آخر عن النبي الأكرم ﷺ أنّه قال:

«أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً»[٣].

---

١. ميزان الحكمة، باب ١١١١، ح ٥٠٥٩؛ وكنزالعمّال، ح ٥٢١٧.

٢. المصدر السابق، باب ١١٠١، ح ٥٠١٥.

٣. المصدر السابق، باب ١١٠٣، ح ٥٠٢٤.

فالإنسان يميل عادة لمعرفة مقدار إيمانه وشدّة اعتقاده والتزامه بالدين بوسيلة معينة ويريد معرفة أفضل المؤمنين وأحسنهم وأكملهم، والحديث المذكور يبيّن الملاك والمعيار المناسب لهذا الغرض.

٤. نحن جميعاً نشتاق للجنّة ونتحرك في حياتنا على مستوى توفير العوامل التي تقودنا إلى الجنّة، وفي الرواية التالية تقرأ سببين من أسباب الدخول إلى الجنّة، بحيث إنّ هذين السببين أو العاملين يعتبران من أكثر العوامل التي تتوفر في أهل النجاة والفلاح يوم القيامة، تقول الرواية:

«أَكْثَرُ مَا تَلِجُ بِهِ أُمَّتِي الْجَنَّةَ تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»[1].

وقد نستوحي من هذه الرواية أنّ حسن الخلق له معنيان:

الأول: طريقة التعامل الحسنة مع الآخرين من خلال اظهار المودة والمحبّة، التواضع، العشق للناس ومداراتهم وأمثال ذلك.

والآخر: أن يتخلق الإنسان بجميع صفات الخير والفضيلة: كالشجاعة، السخاء، الإيثار، الصدق، العفّة، التقوى، الآدب وأمثال ذلك، ويطهر نفسه من جميع الرذائل الأخلاقية، كالبخل، الحسد، الحقد، الكذب وأمثال ذلك.

الأخلاق الإسلامية في المجتمع الإسلامي:

تحدّثنا فيما سبق عمّا ينبغي وما لا ينبغي في الأخلاق، والآن من المناسب البحث عن واقع الصفات الأخلاقية من الفضائل والرذائل في الوسط الاجتماعي، ليتبيّن هل الأخلاق الإسلامية كما يريدها الإسلام، يجري تطبيقها وتجسيدها على أرض الواقع الاجتماعي في مجتمعاتنا الإسلامية، أم هناك فاصلة كبيرة بين مجتمعنا الإسلامي والصفات والفضائل الأخلاقية.

---

١. بحارالانوار، ج ٦٨، ص ٣٧٥، ح ٦.

لنذهب إلىٰ إحدى المؤسّسات الحكومية، ونرى هل طريقة تعامل الموظفين في هذه المؤسّسات مع المراجعين تنطبق على القيم والأخلاق الإسلامية؟ إنّ بعض الموظفين، وللأسف لا يلتزمون بمراعاة الأخلاق الإسلامية في طريقة تعاطيهم لأعمالهم وتعاملهم مع الناس، فالكثير من هؤلاء عندما يجلس على كرسي الرئاسة وبين يديه المعاونين والموظفين يتصور أنّه سيد الناس وزعيمهم، وعلى أساس هذا التصور يصدر منهم تعاملاً غير لائق ومخالف للآداب الإسلامية، وكأنّهم لا يعلمون أنّ هذا المقام هو الذي جعله الشعب تحت اختيارهم ولتدبير أمورهم وقضاء حاجاتهم، فهم في الحقيقة خدام للناس، وللأسف فإنّ بعض الإدارات الرسمية تشبه ساحة كرة القدم، وحال الناس فيها حال كرة القدم فكل موظف يوصي المراجع بالرجوع إلى غيره، والرئيس يحوّله على المعاون، والمعاون على الموظف، وهكذا، فهل هذه الأخلاق إسلامية، وهل هذا التعامل ينطلق من تعاليم الإسلام؟

الأخلاق الإسلامية تقتضي استقبال المراجع وصاحب المعاملة بوجه بشوش، وصدر رحب، ويتابع الموظف في الإدارة بكل اخلاص وجدية مشاكل الناس، ويقضي لهم حاجاتهم يحلّ مشاكلهم بأسرع وقت ممكن، الواقع لو أنّ الأخلاق الإسلامية هيمنت على الإدارات الرسمية ومجتمعنا الإسلامي بشكل كامل وشامل، فإنّ الحياة ستغدو رائعة ويضحى مجتمعنا كالجنّة، وقد ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرمﷺ يخاطب أبناء عبدالمطلب ويقول:

«يا بني عبدالمطلب! إنّكم لم تسعوا الناس بأموالكم فالقوهم بطلاقة الوجه وحسن البشر»[1].

ولا شك في أنّ طلاقة الوجه وحسن البشر رأسمال لا يعادله شيء في الواقع الأخلاقي للإنسان.

---

١. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٦٩، ح ٣٦.

وطبعاً فإنّه ينبغي للمسؤولين مراعاة الآداب الإسلامية في تعاملهم مع الموظفين، وأن لا يتعاملوا معهم من موقع الآمر والمأمور، فهذا الطبع والخلق مذموم وغير معقول من المسؤولين، فيجب على كل من المسؤول والمراجع مراعاة الأخلاقية الإسلامية ليسود النفع والخير للجميع وتعود بركات الالتزام بالأخلاق الإسلامية على جميع أفراد المجتمع، لأنّه لو تجسدت التعاليم الإسلامية على أرض الواقع الاجتماعي، فإنّ الكثير من المشاكل العملية ستجد طريقها للحل، ومرّة أخرى نتوجه للروايات الشريفة الواردة من أئمّة الدين الذين يمثّلون تجسيداً حيّاً وكاملاً للأخلاق الإسلامية، فقد ورد عن الإمام الصادق عندما سئل عن مكارم الأخلاق، التي هي الهدف من بعثة نبي الإسلام فقال:

«الْعَفْوُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ».

وقد وردت توصيات أكيدة في النصوص الإسلامية على مسألة العفو والصفح وتحذير المسلمين من الرغبة في الانتقام والثأر.

وطبعاً فالعفو إنّما يكون فضيلة فيما إذا لم يتخذه القائم بالعفو هدفاً شخصياً له وعلى المعفو عنه أن لا يستغلّه إستغلالاً سيّئاً.

«وَصِلَةُ مَنْ قَطَعَكَ».

فإذا قال لك أخوك وبسبب قضية معينة: «أنا سوف لا ءأتي إلى بيتك بعد الآن» فلا ينبغي لك أن تقابله بالمثل، بل عليك أن تجد له عذراً في تصرفه هذا وتذهب أنت إلى بيته.

«وَإِعْطَاءُ مَنْ حَرَمَكَ».

كأن تحتاج في مورد معين إلى قرض، وكان أحد أصدقائك قادراً على إقراضك وطلبت منه إقراضك، ولكنّه رفض ذلك، وبعد مدّة احتاج ذلك الصديق إلى قرض وطلب منك ذلك، وكنت قادراً على قضاء حاجته و إقراضه المبلغ المطلوب، فالإمام

الصادقعليه السلام يقول: عليك أن تقرضه ما أراد ولا تحرمه ولا ينبغي أن تتذكر صنيعه لك في حرمانك المال اللازم في ذلك الوقت، ولا تعامله من موقع الخصومة أو العتب والتوبيخ لتخجله، فأنت إنّما تتعامل مع الله في برّك وإحسانك له.

«وَقَوْلُ الْحَقِّ وَلَوْ عَلىٰ نَفْسِكَ»[1].

يقول أمير المؤمنين عليعليه السلام: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْثِرَ الصِّدْقَ حَيْثُ يَضُرُّكَ عَلَى الْكَذِبِ حَيْثُ يَنْفَعُكَ»[2].

ويقول الإمام الصادقعليه السلام في رواية أخرى، إنّ مكارم الأخلاق ثلاث: «الصَّفْحُ عَنِ النَّاسِ، وَمُوَاسَاةُ الرَّجُلِ أَخَاهُ فِي مَالِهِ، وَذِكْرُ اللهِ كَثِيراً»[3].



١. ميزان الحكمة، باب ١١١٠، ح ٥٠٥٥.
٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٤٥٨.
٣. ميزان الحكمة، باب ١١١٠، ح ٥٠٥٦.

٢

أقسام سورة الحاقّة

في هذه السورة قسمان متتاليان، وهي السورة ٦٩ من سور القرآن، وهذه السورة تحتوي على ٥٢ آية، وهي من السور المكّية وتمتاز بخصوصيات السور المكّـية، بمعنى أنّ آياتها قصيرة وحاسمة وشديدة وتتحدّث عن القيامة والنبوة، وبما أنّ كلمة الحاقة وردت في الآية الأُولى والثانية من هذه السورة، فلذلك سمّيت هذه السورة بسورة الحاقة، وتعني الأمر القطعي الحتمي، وهذه الكلمة في الحقيقة تشير إلى يوم القيامة والآخرة، فيما تمثّله من قضية حقيقية وحتمية، وجاء في أُواسط هذه السورة قسمان، وهما مورد هذا البحث، تقول الآيات الشريفة:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾

السعادة وأدواتها:

إنّ الله تعالى خلق الإنسان ليحقق له الحياة السعيدة، ووضع بين يديه الوسـائل والأدوات في عالم التكوين والتشريع ليتيسّر له سلوك طريق السعادة والفلاح في

حركة الحياة، فالوسائل والأدوات التي وهبنا الله تعالى في أبداننا والتي تساهم في ايصالنا إلى واقع السعادة، تسمى الأدوات والوسائل التكوينية، كالعقل مثلاً، والحواس المدركة «من قبيل العين، والأذن، والحواس الأخرى»، والقوّة والقدرة والصحة وأمثالها من النعم والمواهب التي وضعها الله تحت تصرفنا مجاناً وبدونها لا يمكننا تحقيق حالة السعادة في واقع الحياة، هذه هي الوسائل التكوينية للسعادة.

ومضافاً إلى ذلك فقد بعث الله تعالى لنا الأنبياء وأنزل معهم الكتب السماوية، وفيها التعاليم والأحكام والقوانين الإلهيّة، والتي لا يستطيع الإنسان بلوغ قمة الحياة السعيدة الحقيقية بدونها، و هذه تسمى بالوسائل التشريعية، والواقع أنّه لا يوجد حكيم يريد تحقيق هدف معين من دون استخدام أدوات وآليات خاصّة، وهذا هو ما يسمى بقاعدة اللطف الذي يذكرها علماء الكلام في بحوث العقائد واستدلوا بها، وعلى أساس هذه القاعدة نعتقد بأنّه ينبغي تعيين خليفة للنبي بعد رحلته، وإلّا فإنّ الناس يسلكون طريق المتاهة والضلالة ويبتعدون عن طريق السعادة والصلاح والرسالة، كما أنّ مقتضى القاعدة المذكورة أنّ الله تعالى يهب للإنسان العقل والقوّة والقدرة ويبعث له الكتب والأنبياء لإيصاله لكماله الإلهي والمعنوي في حياته.

النتيجة أنّ الله تعالى قد منحنا ما نتوصل به إلى السعادة الحقيقية من أدوات ووسائل تكوينية وتشريعية لنستعين بها في تحقيق هذا الهدف الإنساني والوصول إلى هذه الغاية النهائيّة.

العين من أهم وسائل المعرفة:

وأحد الوسائل التكوينية للمعرفة التي وضعها الله تعالى في خدمة الإنسان، العين. وهذه النعمة العظيمة تربط الإنسان بالعالم الخارجي، وبواسطة العين يستطيع الإنسان حل الكثير من المشكلات في حركة الحياة، ولا شك في أنّ الكثير من

أشكال التطور العلمي والاختراعات و الكشوفات تعود إلى ما تقوم به العين من أداء مهمتها، فالتطور العلمي في العالم المعاصر في مجالات الزراعة، الصناعة، الطب، السياسة، الأمور العسكرية، والعلوم المختلفة، كلها شاهد على ذلك، فبدون مساهمة العين فإنّ الإنسان لا يستطيع تحقيق كل هذا التطور والتقدم، وطبعاً فمن بين الأشخاص المحرومين من هذه النعمة ربّما يوجد النوابغ أيضاً، ولكنّ هذا الأمر يعدّ استثناء ونادراً، وأمّا بنية العين فتعدّ من أعجب وأدق ما في عالم الخلقة، بحيث يمكن القول: «إنّ الله تعالى لو لم يخلق شيئاً سوى العين، لكفى ذلك في إثبات عظمة الله سبحانه وإدراك قدرته المطلقة».

إنّ شرح وبيان الطبقات السبع لبنية العين، وما تتخللها من غرائب وعجائب في دقّة الصنع، وكيفية عمل أجهزة وخلايا العين، عضلات العين، نظام السقي في العين، وتبديل الدم إلى دمع شفاف، نظام تخلية الدموع الزائدة، جريان الدمع في حالة الحزن والهم، إلى غير ذلك من مسؤوليات وحالات العين، يحتاج واقعاً إلى كتب ضخمة لكتابتها وتدوين تفاصيلها، ولذلك نرى في عصرنا الحاضر، ليس فقط يوجد متخصصون للعين، بل هناك فروع وأقسام مختلفة للعيون، وكل واحد منها له متخصصون في مجالاتها الخاصة.

إذا أراد المصورون الماهرون في عصرنا تصوير فيلم عن حادثة معينة بشكل كامل، فلابدّ لهم من عدد من أجهزة التصوير ليصوروا الحادثة من أبعاد مختلفة في زمان واحد، ولابدّ لهم قبل الشروع في عملهم من إضاءة كافية للموقع وهذا النور ينبغي أن يكون متوفراً بشكل مناسب طيلة هذه الفترة من التصوير، وينبغي وضع الكاميرات وأجهزة التصوير بمسافات معينة، ولابدّ أن يملك المصورون مهارة كافية في عملية التصوير وتسجيل الفيلم ولابدّ لهم من أشرطة كافية لصناعة الفيلم، فإذا حدث أدنى خلل في هذه الأمور فإنّ عملية التصوير ستتوقف، ولكنّ الله القادر

والحكيم جمع كل هذه الأمور في خلق العين، أي أنّ أعيننا تعمل عمل عدّة أجهزة للتصوير في وقت واحد ولا تحتاج إلى أشرطة بل لديها ما يكفي من أشرطة التصوير إلى آخر العمر، ولا يؤثر على عملها قلّة أو زيادة النور، بل إنّ العين تنسجم مع المحيط في مدّة قليلة جدّاً وتستمر في أداء مهمتها، هنا يجب إجلال الصانع لهذه القدرة والدقّة والمهارة في صناعة هذا العضو الصغير وبذلك الأداء الدقيق لمهمته، وأن نقف موقف الخضوع والخشوع أمام خالق هذا الجهاز العجيب، إنّ عضلات العين بإمكانها أن تحرك العين في الجهات الستة بلمحة بصر، وهذه من النعم الإلهيّة الكبيرة، فلو فرضنا أنّ العين لا تملك مثل هذه العضلات المحركة، فكم سيقع الإنسان في صعوبة وشدّة في عملية الرؤية والنظر؟

مثلاً، إذا أراد الإنسان أن ينظر إلى يساره فلابدّ أن يدير رأسه باتجاه الشمال، وإذا أراد أن ينظر إلى يمينه فلابدّ من استدارة رأسه بأجمعه إلى جهة اليمين، وإذا أراد النظر إلى الأعلى فلابدّ من رفع الرأس إلى الأعلى، وإذا أراد النظر إلى الأسفل فيجب أن ينحني برأسه كله إلى الجهة السفلى.

والمحيّر أنّ هذه القطعة الصغيرة بكل هذه الخصوصيات والامتيازات تعمل باستمرار مدّة ثمانين عاماً أو أكثر أو أقلّ، أفلا ينبغي أن نقف أمام خالق هذا العضو من موقع الاعجاب والخشوع والخضوع؟

الأقسام الثنائية: المرئيات وغير المرئيات

إن الله تعالى أقسم في هذه السورة بالمرئيات وبغير المرئيات، وبالنسبة للمرئيات وأدواتها فقد تحدّث القرآن في هذه الآيات عنها، ولكن لم يتحدّث بشي عن غير المرئيات، فلو قلنا: إنّ غير المرئيات وما لا نستطيع رؤيته أكثر ممّا نستطيع رؤيته، فليس كلامنا مجانب للصواب، ونشير هنا إلى عدّة موارد:

١. إن النور الذي نراه بأعيننا ويمهد الطريق لإمكان رؤية الأشياء الأخرى، يتكون من أمواج ذات طول خاص، فلو كانت الأمواج أطول أو أقصر من هذا الحد المعين فلا يمكننا رؤيتها، في حين أنّها موجودة في الواقع الخارجي، وعندما تحدث ظاهرة قوس قزح في السماء فإنّها عبارة عن تجزئة ضوء الشمس إلى سبعة أجزاء وألوان، والقسم الأعلى من قوس قزح باللون البنفسجي، والقسم الأسفل منه باللون الأحمر، ولكن ألا يوجد لون أعلى من اللون البنفسجي وأدنى من اللون الأحمر؟

نعم، إنّ مثل هذه الألوان موجودة ولكننا لا نراها، فنحن لا نرى الأشعة ما فوق البنفسجية، والأشعة ما دون الحمراء، وربّما يرى الكثير من الحيوانات والطيور والحشرات هذه الأشعة ولكنّ الإنسان لا يستطيع رؤيتها.

٢. إنّ الإنسان لا يستطيع تشخيص وتحديد أمواج الزلزلة ويقف أمامها عاجزاً، ولكنّ بعض الحيوانات تعرف وقت حدوث الزلزلة قبل وقوعها بما لديها من أجهزة خاصّة لرصد وقوع الزلزلة، ولذلك تحاول الفرار من مكان الزلزلة قبل وقوعها.

٣. وهناك أمواج أخرى في الفضاء المحيط بنا ولكننا لا نراها، وبخاصّة الأمواج الكثيرة المتنوعة في عصرنا الحاضر، من قبيل أمواج الراديو، الفضائيات، التلفزيون، فلو كان لدينا جهاز استقبال قوي فيمكننا استقبال آلاف القنوات الفضائية المختلفة، و هذه الأمواج الكثيرة جدّاً سابحة في الفضاء ولكنّ أعيننا غير قادرة على رؤيتها.

٤. إنّ الجاذبية تعتبر من الأمواج المجهولة في عالم الوجود، ولكنّ آثارها ونتائجها ملموسة، ولكننا لا نراها بأعيننا.

٥. أشعة ايكس (X) يستفاد منها لتصوير باطن جسم الإنسان بأجهزة خاصّة، ولكننا لا نستطيع رؤية ما بداخلنا.

٦. هناك أرواح، ملائكة، شياطين، جن، كلها موجودة في الواقع الخارجي ولكننا لا نراها.

٧. والأعلى من ذلك وجود الذات المقدّسة وهو الله تعالى الذي لا يُرى بأي عين، ولكن لا شك في وجوده، لأنّ جميع أجزاء عالم الخلقة تشهد بوجوده، وهناك أشياء أخرى غير قابلة للرؤية، وعلى هذا الأساس فإنّ «ما تبصرون» محدود، و«مالا تبصرون» غير محدود.

النتيجة أنّ الله تعالى يقسم في سورة الحاقة بجميع الأشياء المرئية وغير المرئية، وفي الحقيقة يقسم بجميع عالم المخلوقات وبجميع الكائنات، وهذا القسم مهم جدّاً، ولابدّ أنّه يقصد منه غاية مهمّة جدّاً.

شكر نعمة الولاية:

ويعتقد بعض المسلمين من غير أتباع مدرسة أهل البيت، أنّ الله تعالى سوف يُرى يوم القيامة بهذه العين البدنية، فهؤلاء من حيث العدد ليسوا بقليلين، ولكنّهم وبسبب ابتعادهم عن مدرسة أهل البيت وقعوا في هذا المتاهة وارتكبوا هذا الخطأ الفاحش، والأنكى من ذلك أنّ بعض المسلمين وهم قلّة ويطلق عليهم بالمجسمة، يعتقدون بأنّ الله تعالى يُرى أيضاً فيهذه الدنيا، في حين أنّ بطلان هذه العقيدة بديهي وواضح، وأنّ الله الذي يُرى بهذه العين لابدّ أن يكون جسماً، وما يكون له جسم فله أجزاء ولابدّ أن يكون محدوداً ويملك طولاً وعرضاً، وهذه الأمور تتنافى بالبداهة مع الذات المقدّسة، لأنّ واجب الوجود مجرّد فلا جسم له ولا أجزاء، ولا عرض، ولا حدود، ولا زمان، ولا مكان، ومن هنا فإنّ الله تعالى يعتبر من جملة الأشياء غير القابلة للرؤية، كما تقرر هذه الحقيقة الآية الشريفة في خطاب الله تعالى للنبي موسى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾[1]، وكلمة «لن» في اللغة العربية يقصد منها النفي إلى الأبد، أي أنّها تستخدم في الموارد التي يكون ذلك العمل محالاً عقلاً

---

١. سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

ولا يقبل التحقق، وعليه فطبقاً لهذه الآية الشريفة فإنّ رؤية الله من المحالات.

الإمام علي عليه السلام في جواب عن هذا السؤال: هل رأيت ربّك الذي تعبده؟

فقال: وكيف أعبد ربّاً لم أره.

فقال السائل: وكيف رأيته؟

فقال: «لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ وَ لكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ»[1].

ولولا هذه التعاليم الإلهيّة الصادرة من أهل البيت عليهم السلام، فربّما كنّا نحن مثل فرقة المجسمة، أو يكون حالنا حال بعض المسلمين الذين سقطوا في هذا الخطأ الكبير، هنا ندرك عمق ما ورد في حديث الثقلين وخاصّة في الجملة الأخيرة منه: «مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا أَبَداً». ومادمنا متمسكين بالعروة الوثقى وبالقرآن والعترة فإننا نسير في خط الحق والإيمان، ولكن أي فئة من المسلمين تتمسك بأحدهما دون الآخر، فإنّها ستنحرف بلا شك عن الصراط المستقيم وتنزلق في وادي الضلالة ومتاهات الظلام.

يجب أن نتوجه بالشكر والتقدير لآبائنا وأجدادنا الذين علّمونا هذه الرؤية وأوصلوا لنا نعمة الولاية لأهل البيت عليهم السلام لنعيش في ظلّ اتّباعهم وهدايتهم ونقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾.

ما المقصود بهذه الأقسام المهمّة؟

إنّ الله تعالى ومن أجل إثبات حقانية القرآن الكريم وهو الكتاب السماوي للمسلمين، أقسم بجميع المرئيات وغير المرئيات. وبهذا فقد أقسم بجميع ما في عالم الوجود وبجميع الكائنات: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٧٩.

سؤال: أليس معنى الآية الشريفة: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أنّ هذا القرآن هو كلام جبرائيل في الحقيقة لا أنّه وحي إلهي وكلام الله تعالى؟

الجواب: تقدّم في البحوث السابقة أنّ الآية المذكورة لا تدلّ على هذا المعنى، والشاهد على هذا الأمر أنّ الآية الشريفة تقول: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وهذا كلام صريح في أنّ القرآن الكريم كلام الله، وأمّا جبرائيل فهو رسوله والواسطة لتلقي الوحي وإبلاغه لنبي الإسلامﷺ، وعليه فإنّ جبرائيل مجرّد واسطة لتبليغ الوحي للنبيﷺ والقرآن الكريم هو كلام الله تعالى.

العلاقة بين القسم والمقسم له:

سؤال: ما هي العلاقة بين المرئيات وغير المرئيات من جهة، وبين القرآن الكريم الذي أقسم الله لأجله هذا القسم من جهة أخرى، أي ما هي العلاقة بين القسم والمقسم له في هذه السورة؟

جواب: إنّ الله تعالى أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون على حقيقة هذا القرآن ومن جاء به إلى النبي وهو جبرائيل، ونعلم أنّ جبرائيل من جملة الموجودات، التي لاترى بالعين، وعلى هذا الأساس يتبيّن وجه العلاقة بين القسم والمقسم له.

إثبات حقانيّة القرآن بالقسم!

سؤال: تقدّم أن القسمين في سورة الحاقة (أي القسم بجميع موجودات العالم) من أجل اثبات حقانيّة القرآن، ولكن هل الله تعالى أقسم فقط لإثبات حقانيّة القرآن وأنّ هذا الكتاب السماوي ليس من نتاج الذهن البشري بل نزل من الله تعالى؟ وهل يكفي القسم لإثبات مثل هذه الحقيقة المهمّة؟

الجواب: إنّ الله تبارك وتعالى ولإثبات هذه الحقيقة لم يكتف بالقسم، بل انطلق

في الآيات اللاحقة من موقع البرهنة وإثبات هذه الحقيقة بآليات الاستدلال العقلي أيضاً، وتقول الآيات:

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[1].

أي إذا ادّعى شخص النبوّة وأقام المعجزة على ذلك، فإن كان كاذباً فإنّ مقتضى قاعدة اللطف هو أن يفضحه الله تعالى، وإذا لم يهلكه أو يفضحه فيتبيّن أن هذا الشخص هو رسول الله واقعاً ونبيّ إلهي، فالآيات الشريفة المذكورة تشير إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ القرآن لو كان من صنع النبيّ ومن نتاج فكره وذهنه، فنحن لا نمهله لحظة بل سنقوم بإهلاكه وقطع وريد قلبه. وبما أنّ الله تعالى لم يصنع مع نبيّه الكريمﷺ ذلك، بل تحرّك على مستوى تسديده وتأييده في موارد مختلفة، فيتبيّن من ذلك أن ادّعاءه صادق وأن كتابه سماوي.

النتيجة أنّ الله تعالى ولإثبات حقانيّة القرآن الكريم، لم يقنع بالقسم، بل تحرك من موقع بيان هذه الحقيقة بالبرهان العقلي المحكم والذي يقوم على أساس قاعدة اللطف.

من هو الكريم؟

ويصف الله تعالى جبرائيل الأمين في هذه الآية الشريفة بكلمة «كريم»، ومن هنا نرى من المناسب تقديم بحث مختصر عن هذه الفضيلة الأخلاقية العالية.

إنّ صفة «كريم» تارةً تطلق على الله تعالى، كما نقرأ ذلك في الآية ٤٠ من سورة النحل، وتارةً توصف بها الملائكة، كما ورد ذلك في الآيات التي تصف جبرائيل الأمين بهذه الصفة، وفي بعض الموارد وردت هذه الكلمة كصفة مميزة للأنبياء

---

١. سورة الحاقة، الآيات ٤٣ ـ ٤٦.

الإلهيين، كما في الآية ١٧ من سورة الدخان، وأحياناً قد تطلق هذه الصفة على كتاب ورسالة من شخص مهم ومحترم، كما يذكر القرآن في الآية التي تتحدّث عن بلقيس ملكة اليمن عندما استلمت رسالة سليمان عليه السلام فقالت: ﴿أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾[1].

الخلاصة أنّ هذه الصفة تستعمل في موارد متعددة، فيوصف بها الله تعالى، الملائكة،الأنبياء، كتب الأنبياء، ومن المناسب التعرف على معنى هذه الكلمة المهمّة.

ورد في كتب المؤرّخين أنّ الإمام الحسن المجتبى عليه السلام الذي كان يعرف بكريم أهل البيت عليهم السلام، عندما سئل عن معنى كلمة كريم، قال:

١. «الْإِبْتِدٰاءُ بِالْعَطِيَّةِ قَبْلَ الْمَسْأَلَةِ».

فالكريم عندما يرى آثار وعلائم الحاجة بادية على سيماء الشخص، فلا يمهله لكي يسأله حاجته أو يطلب منه المعونة، فقبل أن يطلب هذا الشخص شيئاً منه فإنّه يتحرّك على مستوى قضاء حاجته ورفع مشكلته، وهذا العمل ذو قيمة حتى وإن كان بعد طلب الفقير والمحتاج، ومن هنا كان الله تعالى، الملائكة، الأنبياء كرماء، ونحن أيضاً ينبغي علينا أن نكون كذلك لكي يشملنا الله تعالى بلطفه وعنايته وكرمه.

٢. «وَ إِطْعٰامُ الطَّعٰامِ فِي الْمَحَلِّ»[2].

وقد نستوحي من هذه الجملة معنيين:

١. أن يطعم الشخص الفقراء والمحتاجين في محلّه وداره الواقعي، لا أن يدعو الأثرياء والأغنياء إلى مائدته ويقوم بإطعام من لا يستحق ولا يحتاج إليه، وهذا الأمر هو الذي اعترض عليه إمام المسلمين علي بن أبي طالب عليه السلام عندما دعا واليه على البصرة عثمان بن حنيف أشراف البصرة لضيافته، وطبقاً لهذا المعنى فإنّ إطعام

---

١. سورة النمل، الآية ٢٩.

٢. ميزان الحكمة، باب ٣٤٧٠، ح ١٧٤٩٤.

المحتاجين والمحرومين يعدّ من خصال الشخص الكريم.

٢. أن يكون المقصود خلافاً لما هو المتداول بين الناس، من إطعام الضيوف خارج البيت دفعاً للمشاكل والاتعاب الناشئة من مجيء الضيوف إلى البيت وتناولهم الطعام فيه، وهذا ما نراه من الضيافة في المطاعم في هذا العصر، فالإمام عليه السلام يصرّح: بأنّ الكريم هو الذي يطعم الضيوف في بيته وداره وأن هذا العمل يبعث على زيادة البركة ودفع البلايا والمصائب والأمراض من دار صاحب الطعام.

وطبعاً فما ورد في هذه الرواية الشريفة عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، يعتبر مصداقين من المصاديق الكثيرة لكلمة الكريم، ومعلوم أنّ معنى هذه الكلمة لا ينحصر بهذين المصداقين، فهناك موارد كثيرة ومصاديق متعددة لهذه الصفة العالية وردت في النصوص الدينية[1].

١. ميزان الحكمة، باب ٣٤٧٠، ح ١٧٤٩٤.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٣

أقسام سورة القيامة

وتعتبر سورة القيامة آخر السور التي ورد فيها قسمان اثنان، وهذه السورة مكية حالها حال أغلب السور ذات الأقسام، وتتضمن أربعين آية، وأكثر آياتها تتعلق بيوم القيامة، وتتحدّث بعضها عن القرآن الكريم أيضاً، أمّا الآيات مورد البحث فهي:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾

القسم الأوّل: قسم بيوم القيامة

وربّما يثير البعض هذا السؤال، لماذا تبحث الآيات القرآنية، وخاصةً الواردة في السور المكّية، في مسألة يوم القيامة بهذا التفصيل وبهذه الكثرة وقد ورد القسم على هذه الحقيقة أكثر من مرّة في السور القرآنية ؟

والجواب عن هذاالسؤال واضح،لأنّ عالم الوجود سيكون أمراً عبثياً بدون القيامة وعالم الآخرة، ولا يكون للحياة معنىً معقولاً، فلو أنّ الإنسان عمّر في هذه الدنيا سبعين أو ثمانين سنة أو أكثر أو أقل، وفي هذه الحياة ابتلي بالكثير من الأمراض وواجه الكثير من الصعوبات، وتحمّل الكثير من البلايا والمصائب والآلام، وبعد ذلك

يموت وينتهي كلّ شيء، فهل هذا المعنى ينسجم ويتناسب مع حكمة الله تعالى؟

إنّ عالم الوجود بدون يوم القيامة حاله حال الجنين الذي يموت فور ولادته، فلو افترضنا عدم وجود الحياة في هذه الدنيا بالنسبة للجنين، فلو كان للجنين عقل وشعور لقال: إذا تقرر أن أموت بعد ولادتي وبعد انتهاء مراحل الحياة في الرحم، إذن فلماذا اتحمل كلّ هذه الصعوبات في هذا المحيط الضيق والمظلم حتّى أنني لا أستطيع فتح عيني، وينبغي عليّ أن أتغذى من الدم، فما الحكمة في ذلك؟ ولكن إذا تقرر أن يكتب لي الحياة في الدنيا بعد انتهاء المرحلة الجنينية وابقى في الدنيا إلى تسعين سنة تقريباً، أي قرابة تسعين مرّة أكثر من مدّة الحمل، فإنّ جميع المشاكل والصعوبات التي أعيشها في رحم الأمّ ستكون مفهومة وذات معنى وقابلة للتحمّل حينئذٍ، ونحن البشر إذا كنّا نعتقد بوجود هدف من هذه الحياة ووجود آخرة بعد الموت فإنّ هذه الحياة بما فيها من أزمات ومعاناة ومشاكل ستكون قابلة للتحمّل، لأننا سنرى نتيجة أعمالنا ومعاناتنا في ذلك العالم.

مضافاً إلى ذلك فلو لم تكن هناك حياة بعد الموت ولم يكن هناك يوم القيامة، فإنّ مسألة العدل الإلهي ستخضع للاهتزاز وتثار حولها علامات الاستفهام، فنحن نعرف في زماننا هذا الكثير من الطغاة والمستكبرين الذين ظلموا الناس إلى درجة أنّ هذه الدنيا لا تتسع لعقوبتهم ولا تختزن من إمكانات كافية لإقامة الجزاء العادل بحقّهم، وفي مقابل ذلك نرى الكثير من الأشخاص الذين قدّموا خدمات كبيرة وعبادات مهمّة بحيث لا تتقبّل هذه الدنيا بظرفيتها المحدودة لمنحهم جزاءهم وثوابهم في هذه الحياة، فالعدالة الإلهيّة تقتضي وجود عالم آخر يتسع لعقاب ومؤاخذة الظالمين والطغاة، ولمنح المحسنين والصالحين ثوابهم الذي يستحقونه.. هل من الممكن إعطاء شهداء كربلاء الذين قدّموا الغالي والنفيس في طريق الدفاع عن الإسلام وأهل البيت عليهم السلام ووهبوا أنفسهم في خطّ التضحية للقيّم السماوية

والتعاليم الإلهيّة من موقع الإخلاص والإيثار، ثوابهم في هذه الدنيا المحدودة وفي هذا العالم الضيّق؟ وكذلك هل يمكن إنزال العقاب الذي يستحقه الجناة والمجرمون الذين سفكوا دم أكمل الناس وأطهرهم في عصره، وهو الإمام الحسين عليه السلام، ومن معه من أصحابه وأبنائه بتلك الكيفية الوحشية، في هذه الحياة المحدودة؟

لابدّ من وجود عالم آخر تتسع مساحته وظرفيته لكلّ هذه العقوبات والمثوبات.

وعلى ضوء ذلك، فإنّ يوم القيامة هو ما يقتضيه العدل الإلهي، ومن هذه الجهة نرى الاهتمام الكبير بهذه الخصوصيات المهمّة ليوم القيامة في القرآن الكريم.

القسم الثاني: القسم بالضمير اليقظ

أمّا القسم الثاني في هذه الآيات فهو القسم بالنفس اللوامة، أي الضمير اليقظ والوجدان الحيّ في واقع الإنسان الذي يلومه في حال تلوث الإنسان بالخطيئة ووقوعه في خطّ الانحراف.. وهذا الوجدان في أعماق الإنسان له ثلاث حالات:

الحالة الأولى: النفس الأمّارة

أحياناً يكون وجدان الإنسان إلى درجة من الضعف والذبول بحيث إنّ الأهواء والشهوات تسيطر عليه وتقوده هنا وهناك وتأمر الإنسان بالتحرّك في خطّ الأهواء والرذائل والشهوات، ففي هذه الحالة يطلق على الوجدان بالنفس الأمّارة، وهي الحالة التي كانت تعيشها زليخا بعد أن استيقظت نفسها اللوامة واعترفت بتقصيرها وبخطيئتها وأخذت تلوم نفسها على ما بدر منها، وقالت: ﴿وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

إذن ينبغي أن يعوذ الإنسان بالله تعالى من شرّ هذه النفس الأمّارة بالسوء.

---

١. سورة يوسف، الآية ٥٣.

الحالة الثانية: النفس اللوّامة

وأحياناً يتحرّك وجدان الإنسان ويخرج من أجواء الضعف والاهتزاز إلى حيث النشاط والحياة والحركة ولا يستسلم للأهواء والشهوات ولا يسلّمها زمام قيادة الإنسان، بل يتخّذ في مقابلها موقفاً حاسماً ويعمل على تحويل باطن الإنسان إلى محكمة تحاكمه على ما يصدر منه من مخالفات وأخطاء وتلومه على ما بدر منه من ذنوب وآثام، وعندما يتحرّك الإنسان في خطّ الخير والصلاح فإنّ هذه القوة الخيّرة ستتحرّك في ترغيبه وتشويقه، وهذه المرحلة تسمّى بمرحلة النفس اللوّامة، وما أجمل بالإنسان أن يخرج من ظلمات النفس الأمّارة ويصل إلى موقف النفس اللوّامة.

وأحياناً تتحرّك النفس اللوّامة بشكل مؤقت وعابر وتمثّل حالة طارئة على الإنسان وتكتفي بلومه على تصرفه الخاطئ، وبعد مدّة قصيرة تنسحب إلى العمق وترقد في سبات عميق، وبذلك تخلي مكانها للنفس الأمّارة وتفسح لها المجال في العودة إلى أجواء الوعي والفكر والعاطفة في الإنسان، كما تشير إلى هذه الحقيقة الآيات التي تتحدّث عن قصة إبراهيم وعبادة الأوثان، بعدما حطّم إبراهيم أصنامهم، فقالوا له: ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

وهكذا نرى هؤلاء القوم لم يتمكّنوا من الإصغاء مدّة طويلة لنصائح النفس اللوّامة، لأنّهم إذا ساروا في هذا الخطّ واقتنعوا بأنّ هذه الأصنام لا تضرّ ولا تنفع ولا تنطق، فإنّ أصل وأساس عبادتهم لها ستتعرض للسؤال والاهتزاز، وإذا ادّعوا أن هذه الأصنام تستطيع الكلام والنطق، فإنّهم بأنفسهم يعلمون أن هذا الادّعاء كاذب وسيفضحون أنفسهم بسرعة، ومن هنا فإنّهم تناسوا نصيحة الوجدان وتلك النفس اللوّامة، وأسدلوا عليها ستار الغفلة واللامبالاة والتمرّد:

---

١. سورة الأنبياء، الآيات ٦٢ ـ ٦٤.

﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[1].

أجل فإنّ وجدان عبّاد الأوثان هؤلاء قد استغرق في النوم مرّة ثانية ولذلك تحركوا في منطقهم وحديثهم من مواقع القوّة وأخذوا يهددون إبراهيم واستخدموا معه آليات بعيدة عن المنطق والعقلانية، وأخيراً اصدروا أمرهم بإعدام إبراهيم حرقاً.

إنّ الأشخاص الذين يعيشون الاهتزاز في المنطق والقصور في العقلانية يعتمدون على لغة القوّة، والآن نرى أنّ القوىٰ الاستكبارية التي تبسط هيمنتها على سائر الدول الأُخرى وتتعامل معها من موقع التهديد بالحصار الاقتصادي والسياسي وحتّى التهديد بالحرب أيضاً. يعيشون هذه الحالة، ولو أنّ وجدانهم استيقظ للحظة واحدة فإنّهم سرعان ما يتغافلون عن توصيات عقولهم ونصائح وجدانهم ولا يجدون في أنفسهم استعداداً لمواجهة الحقيقة من موقع الإذعان والتسليم.

وطبعاً، فأحياناً تتحول النفس الأمّارة تماماً إلى نفس لوّامة وتقوم بلوم صاحبها على ما ارتكبه من أخطاء وذنوب، وينقل أنّ الطيّار الذي ألقى بأوّل قنبلة ذرية على مدينة هيروشيما اليابانية وحوّلها إلى رماد وقد استلم جوائز عديدة على هذه الجريمة، استيقظت نفسه اللوّامة في آخر عمره وأخذت تلومه وتوبخه على هذا العمل الشنيع حتّى ادّى ذلك إلى جنونه، بحيث يقال إنّه كان يصرخ ويقول: «أنا الذي قتلت بقنبلة واحدة ثلاثمائة ألف إنسان». ولكن هيهات فقد فات الأوان.

وهنيئاً لمن تستيقظ نفسه اللوّامة في واقعه وتبدأ بلومه وتوبيخه، لأنّ ذلك من شأنه أن يفتح أبواب النجاة على هذا الإنسان وتقوده هذه النفس اللوّامة في خطّ الصلاح والخير وجبران ما فات.

١. سورة الأنبياء، الآيات ٦٥ـ٦٨.

الحالة الثالثة: النفس المطمئنّة

والأشخاص الذين يملكون مثل هذه النفس المطمئنّة، فإنهم يعيشون حالة الثبات النفسي والاستقرار الروحي بعيداً عن أي اهتزاز أمام تحديات الواقع الصعبة، والأنبياء والأولياء والكثير من الشخصيات الكبيرة يملكون نفساً مطمئنّة، هؤلاء سيطروا على أهواءهم النفسانية وكسروا قيودهم المادية وتحرّروا من أجواء النوازع الدنيوية وساروا في خطّ الاستقامة والإيمان والانفتاح على الله.

إنّ القرآن الكريم يثير حقيقة مهمّة فيما يتعلق بجزاء وثواب أصحاب النفوس المطمئنّة، وذلك في الآيات من سورة الفجر:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾.

إنّ الله تعالى في هذه الآيات الأربع، يقرر أربع مثوبات ومواهب لأصحاب النفس المطمئنّة، وهي:

١. إنّ الله يهبهم من النعم العظيمة إلى درجة أنهم يرضون عن الله تعالى.

٢. وهو أعظم من الثواب الأوّل، وهو أنّ الله تعالى يرضى عنهم أيضاً.

إنّ جميع النعم الأُخروية في الجنّة لو وضعت في كفّة، ووضعت نعمة رضا الله تعالى عن الإنسان في كفّة أُخرى، فإنّ رضا الله تعالى هو الراجح قطعاً. والحقيقة أنّ الرضوان الإلهي يمثّل افتخاراً عظيماً ومقاماً سامياً للإنسان.

٣. إنّ هؤلاء ينالون مرتبة الخلوص ويندرجون في صفّ عباد الله المخلصين.

٤. إنّ جنّة أصحاب النفس المطمئنة تختلف عن جنّة سائر الصالحين من أهل الجنّة.

طريق الوصول للنفس المطمئنّة:

ومن أجل الوصول إلى مقام النفس المطمئنّة ونيل تلك المواهب الأربع

المذكورة، فالإنسان يواجه طريقاً مليئاً بالصعوبات ولابدّ له من تهذيب نفسه وتربيتها على الاستقامة في الفكر وفي العمل والسلوك، ومن أجل تحقّق هذه الغاية لابدّ لهذا الإنسان مراعاة المراحل الأربع: المشارطة، المراقبة، المحاسبة، المعاقبة. ففي كلّ يوم يجب أن يراقب أعماله وسلوكياته وحتّى نيّاته وأفكاره، وفي كلّ يوم أو في كلّ اسبوع أو على الأقل في كلّ شهر يحاسب نفسه على ما قام به من أعمال وما اجترحه من سيئات، فإذا كان قد ارتكب سيئة ومعصية فإنه يعاقب نفسه ويوبخها، وربّما يقوم بحرمانها من بعض المباحات والملذات التي ترغب فيها، وإذا كان قد بدر منه عملاً حسناً فإنّه يشكر الله تعالى على ذلك، وطبعاً لابدّ لهذا السالك في هذا المسير من الاعتماد على الله واللجوء إليه في جميع حالاته ومواقفه، فلا يمكن سلوك هذا الطريق بدون الاستعانة باللطف الإلهي وبدون تسديد ربّاني، كما تشير الآية الشريفة في قصة يوسف عليه السلام إلى هذه الحقيقة وتقول:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[1].

ولمّا وجد يوسف عليه السلام نفسه في مقابل الضغوط الشديدة وتهديد زليخا إيّاه، لجأ إلى ربّه وسأله الخلاص من الوقوع في أوهام الخطيئة والمعصية وقال:

﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[2].

وأخيراً فإنّ النبيّ يوسف عليه السلام نجح في التغلب على نفسه ووصل أخيراً إلى استلام مقاليد القوّة والسلطة بلطف الله تعالى وتسديده وأصبح عزيزاً في الدنيا والآخرة.

---

١. سورة يوسف، الآية ٢٤.

٢. سورة يوسف، الآية ٣٣.

العلاقة بين يوم القيامة والنفس اللوّامة:

سؤال: ما العلاقة بين القسم الأوّل (يوم القيامة) والقسم الثاني (النفس اللوّامة)، بحيث إنّ الله تعالى أقسم بهما وجعلهما في عرض واحد؟

الجواب: إنّ العلاقة بينهما واضحة جدّاً، فالنفس اللوّامة بمثابة محكمة صغيرة في باطن الإنسان، والوجدان اليقظ هو القاضي، والنفس تمثل المتهم، أمّا يوم القيامة فتتشكل فيها محكمة عظيمة في العالم الآخر، ويكون الله تعالى هو القاضي، وبعبارة أُخرى أنّ النفس اللوّامة بمنزلة الدليل على يوم القيامة، لأنّ الله تعالى الذي خلق في هذه الدنيا محكمة في وجود الإنسان الداخلي، ليحاكم نفسه بنفسه، فهل يعقل أن لا توجد في الآخرة محكمة أكبر منها وأدق في الحساب والجزاء؟ ففي هذه الصورة يقسم الله تعالى بهاتين المحكمتين (المحكمة الصغيرة في باطن الإنسان، والمحكمة العظيمة في يوم القيامة)، وذلك من أجل إثبات هذه الحقيقة وهي أنّ الله تعالى قادر على إعادة الحياة للإنسان مرّة ثانية ودعوته لحضور المحكمة الإلهية في الآخرة.

وعندما يفكر الإنسان في هذه الدقائق والنكات الظريفة في القرآن الكريم يلتفت إلى عمق ودقّة ألفاظ وكلمات القرآن الكريم فيما تختزنه من معانٍ سامية ونكات بديعة.

المقسم له: المعاد الجسماني

سؤال: ما هو الأمر المهم الذي أقسم الله تعالى من أجله بمحكمة الوجدان الصغيرة في واقع الإنسان، وبالمحكمة الكبيرة في العالم الآخر؟

الجواب: إنّ المعاد الجسماني هو الموضوع المهمّ الذي أقسم الله تعالى بهذين القسمين من أجل إثباته وتوكيده:

﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّنْ نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾.

وذهب بعض المفسّرين إلى وجود جملة مقدّرة في هذه الآية الشريفة، أي أنّ الآية المذكورة تعتبر قرينة على وجود جملة محذوفة، وهذه الجملة كالتالي:

(لتبعثنّ جميعاً يوم القيامة)

والآية مورد البحث تشبه الآيات الأخيرة من سورة يس، فطبقاً لما ورد في تلك الآيات وسبب نزولها، أنّ رجلاً من أعراب البادية جاء إلى النبي الأكرمﷺ وبيده عظم ويقول: «لَأَخْصِمَنَّ مُحَمَّداً» أي أنني وجدت دليلاً قاطعاً على نفي المعاد الذي يعتقد به نبيّ المسلمين، فجاء للنبيﷺ بذلك العظم الرميم وأخذ يفته أمام النبي ويلقي بفتاته على الأرض، ثمّ قال للنبي الأكرمﷺ: من يقدر على إحياء هذا العظم مرّة ثانية وإعادة هذا الإنسان إلى الحياة؟

فأنزل الله تعالى هذه القصة في الآيات ٧٨ إلى ٨١ من سورة يس وقال:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾.

وهكذا تنطلق الآيات القرآنية للردّ على استدلال ذلك الأعرابي بشكل دقيق ومن موقع الاقناع العقلي والوجداني، وتقول: إنّ الخلق الأوّل للإنسان يعتبر أصعب وأعقد من إعادته مرّة ثانية، ومع ذلك فإنّ الله تعالى خلق هذا الإنسان في أوّل مرّة ولا صعوبة في إعادته إلى الحياة مرّة أُخرى، فالشخص الذي يخترع جهازاً معيّناً، ألا يستطيع من إعادته مرّة أُخرى بعد خرابه وتحطمه؟

إنّ مثل هذه الآيات التي تدلُّ على المعاد الجسماني، رغم أنّها كانت تبحث في قضية واضحة في ذلك العصر، ولكن هذه القضية وبعد التطورات التي شهدها العلم البشري في عملية الاستنساخ أضحت أكثر وضوحاً وبداهةً، فبدن الإنسان يتكون

من مليارات الخلايا الحيّة، وكلّ خلية بمثابة لبنة في بناء جسد الإنسان، ومن خلال الاستفادة من آليات العلم في عملية الاستنساخ البدني اضحى بالإمكان تبديل هذه الخلايا إلى إنسان كامل.

وعلى هذا الأساس، فلو هلك جميع أفراد البشر على الكرة الأرضية ولم يبق سوىٰ إنسان واحد، فبالإمكان الاستفادة من خلايا بدنه لصناعة مليارات البشر الآخرين، وهذه التجربة أُجريت على الحيوانات ونجح الإنسان في تنشئة حيوانات من الخلايا في بدن الحيوان، ولكنّ إجراء هذه التجارب في دائرة الإنسان يعتبر ممنوعاً بسبب مخالفته للأصول والقيم الأخلاقية، ولذلك منع عقلاء البشرية من إجراء مثل هذه التجارب في حقّ الإنسان، ولكنّها على أيّة حال تعتبر شاهداً قوياً على صحّة وإمكانية المعاد الجسماني.

والمعاد في الحقيقة كفصل الربيع الذي يوفر الظروف المناسبة لنمو النباتات والأشجار مرّة ثانية، ومن هذه الجهة فإنّ القرآن الكريم يطرح مرّات عديدة مسألة إحياء الأرض وإنبات النبات بعد نزول الأمطار ويوحي للإنسان بأنّ هذه الظاهرة الطبيعية تشبه عملية إحياء الأموات يوم القيامة.

لماذا العظام؟

سؤال: لماذا طرحت الآية المذكورة العظام فقط دون أعضاء بدن الإنسان الأُخرى؟

الجواب: قد تشير هذه الآية الشريفة إلى شبهة ذلك الأعرابي وتتحرك في مقام الإجابة عنها، فكما أنّ ذلك الأعرابي جاء بعظمٍ وأخذ يفته أمام رسول الله ﷺ ويزعم أنّ هذا العظم لا يمكن إحياؤه من جديد، فهذه الآية في مقام الردّ عليه، وربّما يكون السبب في ذلك أنّ العظام تمثل الهيكل الأساس والركيزة المهمّة التي يقوم عليها بناء البدن وحركة الجسم، فعندما يكون الله تعالى قادراً على خلق الأركان الأصلية

والعناصر الأساسية في بدن الإنسان، فبطريق أولى يستطيع خلق الأعضاء الفرعية والعناصر الجانبية من البدن.

إظهار قدرة الله وعظمته:

إنّ الله تعالى، مضافاً إلى ردّه لشبهة المنكرين للمعاد الجسماني (كما في شبهة ذلك الرجل الأعرابي) فإنّه يبرز قدرته وعظمته المطلقة للمنكرين ويقول: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾.

والبنان في لغة العرب تأتي بمعنيين: ١. الاصبع. ٢. الطرف العلوي من الاصبع، بل إنّ جماعة من المفسّرين المعاصرين يعتقدون أنّ كلمة (بنان) في هذه الآية إشارة إلى خطوط الإبهام، وهي الخطوط التي تمثل هوية الأشخاص الخاصّة وتستخدم كإمضاء من قبل الأشخاص في أسنادهم ووثائقهم، لأنّه لا يوجد في العالم شخصان يتشابهان اصبع الإبهام والخطوط المرسومة عليه، ولهذا تعتبر هذه العملية أفضل وسيلة لمعرفة الأشخاص وتحديد شخصياتهم، ومن هنا يقوم شرطة مكافحة الجريمة بالبحث عن آثار بصمات الأصابع ويتمّ أخذ بصمات الأصابع من المراجعين للدوائر ومراكز الجنسية.

يقول القرآن الكريم: إنّ الله تعالى ليس فقط قادراً على خلق عظام الإنسان وأصابعه مرّة ثانية، بل يستطيع أن يعيد له خطوط إبهامه مرّة ثانية بنفس ذلك الشكل الأوّلي.

إذا فسّرنا البنان بالاصبع، فإنّ السبب في ذكر البنان في هذه الآية يعود لأهميّة الأصابع الكبيرة في حياة الإنسان، بحيث لولا وجود الأصابع، كأن تكون يد الإنسان كيد البعير مثلاً، فإنّ الإنسان سوف لا يكون قادراً على الكتابة ولا على إبداع هذه الصناعات المهمّة ولا يمكنه خلق فنون جميلة.

والخلاصة أنّ الله تعالى أقسم مرّتين بالمحكمة الصغيرة في باطن الإنسان،

وبالمحكمة العظيمة في يوم القيامة، على ردّ شبهة منكري المعاد الجسماني، مضافاً إلى أنّه أظهر في هذه الآيات عظمة قدرته في عالم الخلقة.

المعاد الجسماني والروحاني:

إنّ جميع المسلمين يعتقدون بالمعاد الروحاني، ولكن بالنسبة للمعاد الجسماني فقد وقع خلاف بين العلماء، فبعضهم قبل المعاد الجسماني وبعضهم أنكره.

وتوضيح ذلك أنّ بعض العلماء والمفسّرين ذهبوا إلى أنّ الإنسان يوم القيامة يعود بروحه وبدنه، فكما أنّ الروح تنال الثواب والعقاب على ما صدر منها من أعمال في الدنيا، فكذلك بدن الإنسان يعود إلى الحياة وينال جزاءه من الثواب والعقاب في الآخرة، لأنّ الجسم والروح شريكان في الأعمال الصالحة والطالحة، ولذلك ينبغي أن يشتركا أيضاً في الثواب والعقاب.

ولكنّ البعض الآخر أنكر المعاد الجسماني وذهب إلى حصر المعاد بالروح فقط وأنّ الروح هي التي تنال الثواب والعقاب دون الجسد.

ولكنّ القرآن الكريم يؤكد في الكثير من آياته على المعاد الجسماني ويردّ عقيدة المنكرين للمعاد الجسماني، والآية مورد البحث وكذلك الآيات المذكورة من سورة يس تشير إلى هذا الموضوع في صحّة المعاد الجسماني، والآيات التي تبحث هذا الموضوع وتقرر المعاد الجسماني كثيرة جدّاً، إلى حدّ أنّه يمكن القول: إنّ جميع الآيات التي تتحدّث عن المعاد فهي تدلّ بنوع وآخر على المعاد الجسماني، مثلاً الآية ٤ من سورة الانفطار: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ تدلّ دلالة صريحة على المعاد الجسماني، لأنّ القبور محل دفن الأجساد ولا معنى لأن تبعث الروح من القبر.

النتيجة أنّه لا شكّ ولا ريب في المعاد الجسماني، وأساساً ما كان يثير تعجب المشركين واستغرابهم هو المعاد الجسماني، وإلّا فإنّ المعاد الروحاني لا غرابة فيه.

نسأل الله تعالى في ذلك اليوم، وهو اليوم الذي يخرج فيه الناس من القبور وتعود الأرواح إلى الأبدان ويحضر الناس في محكمة المحشر العظيمة، أن نحضر في ذلك اليوم بأيدي مليئة بالأعمال الصالحة، ووجه مشرق، ونفس مطمئنّة.

النفس الأمّارة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام:

كان الإمام علي عليه السلام خبيراً بدقائق حيل النفس الأمّارة وتفاصيل إغوائها وأحابيلها، واستطاع أن ينتصر على هذه النفس في أطار مواجهتها والتصدي لها من موقع الإيمان والتقوى والاعتماد على الله، وقد رسم لوحة دقيقة للنفس الأمّارة، فقال:

«النَّفْسُ الأَمّارَةُ الْمُسَوِّلَةُ تَتَمَلَّقُ تَمَلُّقَ الْمُنافِقِ، وَتَتَصَنَّعُ بِشيمَةِ الصَّديقِ الْمُوافِقِ، حتّى إذا خَدَعَتْ وَتَمَكَّنَتْ تَسَلَّطَتْ تَسَلُّطَ الْعَدُوِّ»[1].

هنا نرى أنّ الإمام علياً عليه السلام ذكر خصوصيتين للنفس الأمّارة، والالتفات إليهما بإمكانه إنقاذ الإنسان من السقوط في أحابيلها وإبعاده عن شرّ وسوستها:

الأولى: إنّ النفس الأمّارة هي موجود «مسوّل» ومحتال وخدّاع، ففي البداية تظهر للإنسان مظاهر برّاقة وحديقة غنّاء فيما تصوره له من متاع دنيوي وملذات رخيصة، ثمّ تضرب ضربتها القاصمة.

والأخرى: إنّها ذات وجهين وتتعامل مع صاحبها من موقع النفاق والتظاهر، ففي البداية لا تبرز له وجهها الحقيقي ومكنوناتها الواقعية، بل تتحدّث معه بلغة المحبّة والصداقة والإخلاص، كيما تستطيع أن تصرف الإنسان عن خطّ العبودية والطاعة والإيمان وتخرجه من دائرة النور، مثلاً عندما لا يوفق الشخص للانفاق في سبيل الله ويجد ألم سياط النفس اللوّامة تنهال عليه، فإنّ هذه النفس تقول له: (لا بأس

---

١. ميزان الحكمة، باب ٣٩١٦، ح ٢٠٤٦٥.

عليك، لأنّ هدفك من ذلك أن تتحرّك للإتيان بعمل أهم، أي لتأمين نفقات الزوجة والأولاد).

أو أنّه إذا ترك عملاً صالحاً آخر وبات يعيش توبيخ النفس اللوّامة، تقول له هذه النفس: (لا إشكال في ذلك، لأنّه سبق أن قدّمت عملاً صالحاً)، أو عندما يتحرج الشاب من المشاركة في مجالس اللهو والعصيان، فإنّ النفس الأمّارة تقول له: (إنّ حضورك في مثل هذه المجالس ضروري، لأنّك شاب وتحتاج إلى الترفيه، وبعد ذلك يمكنك أن تتوب إلى الله).

وعندما يتلوث الإنسان بالخطيئة والمعصية ويترك العبادة وعمل الخير، تبرز لهذا الإنسان بشكلها الواقعي وتتسلط عليه كما يتسلط العدو الخطر على غريمه، إلى درجة أنّها لا تسمح لهذا المسكين أن يتحرك خطوة إلّا بإذنها وأن يخضع تماماً لأوامرها ولا يخالف لها أمراً ولا نهياً.

* * *

٤

أقسام سورة الطارق

السورة الرابعة التي تتضمن قسمين اثنين، سورة الطارق، وهنا نستعرض الآيات مورد البحث، وهي الآيات الأولى إلى التاسعة:

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩)﴾

لماذا يقسم الله بالسماء؟

في هذه الآيات الشريفة أقسم الله تعالى بأمرين، السماء والطارق، ومن أجل الإحاطة بعظمة السماء نلفت النظر لما يلي:

إنّ الكرة الأرضية أصغر من الشمس بـ ١/٢٠٠/٠٠٠ مرّة، بمعنى أنّه لو وضعنا ١/٢٠٠/٠٠٠ كرة أرضية على بعضها، فسوف يبلغ حجم المجموع بحجم الشمس، وفي مجرّتنا درب التبّانة التي تقع فيها منظومتنا الشمسية، هناك ٢٠٠ ميليارد نجمة

أو منظومة شمسية أو سيارة، وشمسنا تعتبر نجمة متوسطة منها، هذه كلُّها تتصل بمجرتنا، وفي الكون هناك مليارد أو أكثر من المجرات، ولكلٍّ واحدةٍ منها ذلك العدد الكبير من النجوم والشموس، كلّ هذه العلوم والمعارف توصل إليها الإنسان بامكاناته المتوفرة، ولعلّه يكتشف معلومات أكثر مع اختراع أجهزة متطورة أكثر.

عندما نرى أنّ الله تعالى يقسم بالسماء، فإنّه يريد إلفات نظرنا إلى عجائبها ولنتأمل في موجوداتها وعظمتها وبالتالي ندرك مكاننا من هذا العالم ونعلم وظيفتنا ومسؤوليتنا أمام خالق هذا العالم.

ما المقصود بالطارق؟

«الطارق» في اللغة بمعنى من يطرق الشيء، ومأخوذ من مادة «طرق» ولذلك يقال لأداة الطرق «مطرقة».

وتقول العرب للشخص الذي يطرق الباب ليلاً «طارق» ومن هنا نرى أنّ الإمام عليّاً عليه السلام يقول في الخطبة ٢٢٤ من نهج البلاغة:

«وَأَعْجَبُ مِنْ ذٰلِكَ طارِقٌ طَرَقَنا بِمَلْفُوفَةٍ في وِعائِها». ثمّ يشير إلى قصّة أشعث بن قيس المنافق، وسيأتي تفصيل الكلام في هاتين القصتين.

وأمّا المقصود من كلمة «طارق» في الآية الشريفة، فهو ما بيّنته الآية التالية «النجم الثاقب» وهي نجمة منيرة جدّاً بحيث إنّ نورها ينفذ في العين وكأنّه يثقبها ويصل إلى أعماقها.

ويذكر المرحوم الطبرسي في تفسيره، المقصود من النجم الثاقب وأيّ نجمة هي؟ نقل أربعة احتمالات ذكرها العلماء والمفسّرون:

١. المقصود من الطارق هو: (النجم الثاقب) أي كلّ نجمة لامعة ومنيرة في السماء، وطبقاً لهذا التفسير فإنّ الله تعالى لم يقسم بنجمة واحدة بل بجميع النجوم

المتلألئة والمنيرة في السماء والتي تزهر بشكل خاصّ، لأنّ عظمة هذه النجوم بالنسبة للبشر محسوسة أكثر.

٢. المقصود منها نجمة (زحل) لأنّ نجمة (زحل) أبعد نجوم وسيّارات المنظومة الشمسية والتي ترى بالعين المجرّدة، وبعد ذلك اكتشف العلماء اورانوس، نبتون، بلوتون، ولكنّ هذه السيّارات الثلاث لا ترىٰ بالعين المجرّدة، وفي الآونة الأخيرة تمّ إخراج بلوتون من المنظومة الشمسية، لأنّه لا يملك الحجم الكافي ليكون بمقدار نجمة سيّارة، بل هو عبارة عن حجر كبير يطوف في فضاء المنظومة الشمسية.

والسبب الآخر لتفسير الطارق بنجمة زحل، أنّ هذه النجمة لها خصوصية معيّنة لم يكشف العلماء الستار عنها لحدّ الآن، وذلك في الحلقات المستديرة حول زحل وتدور حول زحل بمسافة معيّنة عنه وهي مسطحة وعريضة، فهل هذه الحلقات هي قطع ثلجية، أم قطع متناثرة من سيّارة أخرى كانت تدور حول الشمس وبعد ذلك اندثرت وتلاشت، أم شيء آخر؟

مهما يكن من أمر فإنّ هاتين الخصوصيتين أدّت إلىٰ أن تزهر نجمة زحل بشكل خاصّ، ولهذا أقسم الله تعالى بها.

٣. أن يكون المقصود من الطارق، نجمة الثريا، وهذه النجمة تقع خارج المنظومة الشمسية، وتعدّ من النجوم الثوابت التي تقع في مجرة درب التبّانة، والمسافة التي تفصلنا عنها بعيدة جدّاً بحيث أصبحت يضرب بها المثل، ولذلك كان الناس يتصورون أنّها تقع في آخر العالم والكون، ومن هنا قالوا لبيان بعد المسافة: «من الثرىٰ إلى الثريا».

وبالإمكان رؤية هذه النجمة بالعين المجرّدة لمن كان حاد البصر.

٤. المقصود من (النجم الثاقب) القمر، وهو في الحقيقة أحد النجوم المنيرة التي تقع على مقربة منّا، وهذه النجمة صغيرة جدّاً، ولكن بما أنّ المسافة بيننا وبين القمر

مسافة قليلة، فنراه بهذا الحجم الكبير.

ومن بين هذه التفاسير الأربعة فإنّ التفسير الأوّل ينسجم أكثر مع سياق الآيات الشريفة، ويتضمن أيضاً الاحتمالات الثلاثة الأخرى، مضافاً إلى أنّه يشمل كلّ نجمة مضيئة.

الغاية من القسم بالسماء والنجوم اللامعة:

إنّ هذين القسمين في هذه السورة، يدفعان الإنسان باتجاه التفكير والتدبّر في عظمة السماء وما فيها من نجوم وكواكب ومنظومات شمسية، وخاصة بعد أن يملك الإنسان معرفة إجمالية بالكشوفات العلمية والفلكية عن مجاهيل السماء والنجوم الزاهرة فيها، ومثل هذا التفكير له قيمة في معارفنا الدينية والمفاهيم الإسلامية، إلى درجة أنّ التفكر يعتبر من أرقى أنواع العبادة، وأنّ ساعة من التفكر في أمر الخلق وعظمة الكائنات ودقّة الصنع أفضل من سنوات من العبادة بدون فكر وتدبّر، كما ورد في النصوص الشريفة.

وأحد العبادات المهمّة، صلاة الليل، والتي يأتي بها الإنسان المؤمن بعد منتصف الليل وخاصة عند السحر من ليالي شهر رمضان المبارك، وبالإمكان الاستفادة من هذه الفرصة للإتيان بهذه العبادة المهمّة وهذه الصلاة فيما تورثه من نورانية عجيبة وروحانية خاصّة، وفيما تدفع الإنسان في مسير الإيمان والخلوص والقرب إلى الله، وقد ورد في آداب صلاة الليل أنّ المؤمن عندما ينهض من فراشه ويريد أن يتوضأ فإنه يستحبّ أن يتوجه إلى فضاء مفتوح ويقف تحت السماء وينظر إليها ويقرأ هذه الآيات:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1].

وهذه الآيات توحي باهتمام الإسلام بعنصر التفكر والتأمل في أسرار وعجائب الخلقة والطبيعة، والأقسام المذكورة بدورها تهدف لتفعيل القوى الفكرية في الإنسان وإذكاء عقله في التدبّر في هذا العالم وما فيه من عجائب وأسرار بديعة.

عالم النجوم العجيب!

والنجوم بدورها لها عالم خاصّ، ولنا نحن البشر عالمنا الخاصّ أيضاً.

فمن جهتنا نحن البشر فإنّ النجوم تعتبر زينة السماوات، وأداة لهداية أهل الأرض في الظلمات والدروب وفي المفاوز والصحارئ والمتاهات في الأسفار الليلية، ففي الماضي لم يكن البشر قد اخترع البوصلة، ولم تكن في الطرق البرية والبحرية أية علامة يهتدي بها الإنسان للوصول إلى مقصوده، فلم تكن هناك وسيلة سوى النجوم لهداية هذا الإنسان الحائر، ويقرر القرآن الكريم هذه الحقيقة ويقول:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2].

وما ورد في بعض الروايات من تشبيه الأئمّة المعصومين عليهم السلام بنجوم السماء[3] فإنّه من هذه الجهة أيضاً، لأنّ هذه النجوم الأرضية تهدي أفراد البشر المتحيرين والضالين إلى خطّ الهداية والولاية والإيمان، وبإيجاز أنّ عالم النجوم في نظر الإنسان عالم عجيب وزاخر بالأسرار.

إنّ النجوم لها عالم عجيب لنفسها أيضاً، لأنّ الكثير منها آهلة بالسكان، وربّما

---

١. سورة آل عمران، الآيات ١٩٠ و ١٩١.

٢. سورة الأنعام، الآية ٩٧.

٣. نقرأ في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «مثل أهل بيتي مثل النجوم» وفي حديث آخر عن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله يخاطب به الإمام علياً عليه السلام: «أنت نجم بني هاشم» (بحار الأنوار، ج ٢٤، ص ٨٢).

يكون أهل هذه النجوم أذكى وأدهى من سكان الأرض، لأنّ الأمواج التي تستلمها المراصد الفلكية من سائر الكرات السماوية تشير إلى وجود رقي مذهل هناك، لأنّهم يستطيعون الاتصال بنا، ولكنّنا عاجزون عن الاتصال بهم، ورغم أنّنا نختلف معهم في اللغة ولا ندرك عنهم شيئاً، ولكنّنا نعلم بهذه الحقيقة، وهي أنّ هؤلاء موجودات وكائنات تملك قابليات وملكات أقوى وأكفأ منّا.

يعتقد بعض العلماء: «أنّ ملايين النجوم في الكون توجد فيها حياة وسكان» لأنّ الظروف التي تشجع الحياة والنمو لا تنحصر بكرتنا الأرضية، بل تتوفر مثل هذه الظروف في ملايين الكرات السماوية، ومن هنا فلا يبعد وجود ساكنين في النقاط الأخرى من الكون، وهذه النظرية التي طرحها علماء عصرنا قد توصلوا إليها بما لديهم من أجهزة حديثة ومتطورة، في حين أنّ الإمام علي عليه السلام وقبل ١٤٠٠ عام يقول في هذا الصدد:

«هَـٰذِهِ النُّجُومُ الَّتِي فِي السَّمَاءِ مَدَائِنَ مِثْلُ الْمَدَائِنِ الَّتِي فِي الْأَرْضِ مَرْبُوطَةٌ كُلُّ مَدِينَةٍ إِلَىٰ عَمُودٍ مِنْ نُورٍ»[1].

والسؤال هو: هل أنّ المقصود بـ «عمود النور» الأمواج الراديوئية وأمثالها، أم أنّها ترتبط فيما بينها بشكل آخر؟

هل أنّ لأهالي هذه النجوم أنبياء خاصين، أو أنّ نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله هو نبيّهم أيضاً، وقد أرسل إليهم من يعلّمهم ويهديهم إلى الإسلام؟

هذه الأسئلة وعلامات الاستفهام ربّما يثيرها البعض بالنسبة لأهالي تلك النجوم السماوية، ولكنّ ما هو المسلّم والبديهي أننا نحن البشر في هذه الأرض لا نملك خصوصية خاصّة نتميز بها عن أولئك الساكنين في تلك النجوم البعيدة.

---

١. بحار الأنوار، ج ٥٥، ص ٩١.

الهدف من الأقسام: إلفات النظر إلى المعاد والقيامة

بحثنا فيما تقدّم باختصار عن السماء والنجوم والتي أقسم الله تعالى بهما، لدعوة الإنسان للتفكير في هذه المخلوقات العجيبة في العالم والكون، وبالتالي تنفتح آفاق الإيمان والتوحيد والتوجّه إلى الله بهذا النمط من التفكير والتأمّل، وكلّما ازدادت مطالعاتنا ومعلوماتنا عن عالم الوجود أكثر فإنّ إيماننا بخالق هذا الكون سيقوى ويشتد.

وهنا يشير القرآن إلى مسألة مهمّة بوصفها المقسم له، (أي ما أقسم الله تعالى من أجله) وهذه المسألة المهمّة هي يوم القيامة والحياة بعد الموت، والتي تعتبر مكملة لبحث التوحيد ومعرفة الله، وبما أنّ محكمة العدل الإلهي في ذلك اليوم تعتبر من أهم الأمور، بل إنّ محور هذه المحكمة العظيمة يدور حول أعمال المتهمين وملفاتهم، ولهذا نرى أنّ الآيات اللاحقة تشير إلى كتاب أعمال العباد وتقول:

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾.

أي: أقسم بالسماء والنجوم اللامعة أنّ كلّ إنسان عليه رقيب وحفيظ من الملائكة، فالملائكة يحفظون ويكتبون أعمالنا بدقّة ولا تفلت منهم صغيرة ولا كبيرة، بل إنّهم مطّلعون على نيّاتنا وأفكارنا أيضاً.

سأل عبد الله بن موسىٰ بن جعفر عليه السلام عن الملكين.. هل يعلمان بالذنب إذا أراد العبد أنْ يفعله، أو الحسنة؟

فقال الإمام عليه السلام: «ريح الكنيف وريح الطيب سواء؟».

قال: لا.

قال: «إنّ العبد إذا همّ بالحسنة خرج نَفسه طيّب الريح، فيقول صاحب اليمين لصاحب الشمال: قم فإنّه قد همّ بالحسنة، فإذا فعلها كان لسانه قلمه وريقه مداده، فأثبتها له، وإذا همّ بالسيئة خرج نَفَسه منتن الريح، فيقول صاحب الشمال لصاحب

اليمين، قف فإنّه قد همّ بالسيئة، فإذا هو فعلها كان لسانه قلمه وريقه مداده، وأثبتها عليه»[١].

أجل، إنّ هؤلاء الملائكة يعلمون بأفكارنا ونيّاتنا الباطنية من خلال ما يترتب عليها من آثار على جسم الإنسان وروحه.

وكما يقول المثل: «إنّ المترشح من الكوز يحكي عمّا فيه».

كتاب الأعمال في الآيات القرآنية:

ومن أجل إكمال هذا الموضوع، نشير إلى طائفتين من الآيات فيما يخصّ كتاب الأعمال:

١. نقرأ في الآيات ١٦ ـ ١٨ من سورة ق:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

سؤال: بما أنّ الله تعالى عالم بكلّ شيء، وعلى حدّ تعبير الآية مورد البحث «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» فما وجه الحاجة لمراقبين من الملائكة يكتبون أعمال الإنسان؟ وبكلمة: «ما هي مهمّة الملائكة الحفظة، الذين يحفظون أعمال الإنسان؟»

الجواب: يجيب الإمام الصادق عليه السلام عن هذا السؤال، ويذكر في كلامه وظيفتين لهؤلاء الملائكة:[٢]

أ) إنّ إشراف ومراقبة هؤلاء الملائكة تأكيد لما في علم الله تعالى، حتّى يواظب

---

١. أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٢٩، باب «من يهمّ بالحسنة أو السيئة» ح ٣.

٢. تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٢٢.

الإنسان على أعماله وتصرفاته أكثر، فالإنسان إذا علم أنّ عليه ناظراً واحداً فلا يهتم كثيراً لذلك، ولكن عندما يعلم بوجود عدّة مراقبين لأعماله فإنّه سيتحرك في أعماله وسلوكياته من موقع الاهتمام والدقّة أكثر، فالإنسان الذي يعلم أنّ الله تعالى عالم بأعماله وسرائره، وبالاضافة إلى ذلك يوجد ملكان يراقبانه وينظران إليه ويسجلان جميع حركاته وأعماله وأقواله، فإنّ حاله يختلف عن حال ذلك الشخص الذي يعتقد بأنّ الله فقط هو الناظر إليه دون الملائكة.

ب) وهناك مهمّة أُخرى لهؤلاء الملائكة الحفظة، وهي المحافظة على جسم الإنسان ونفسه ممّا يواجهه من أخطار وحوادث كثيرة، فلولا هؤلاء الحفظة الإلهيين فإنّ الكثير من الأطفال لا يصلون إلى سن الرشد والكبر، لوجود الكثير من الأخطار والحوادث التي تحيط بالأطفال، ويقوم هؤلاء الملائكة الحفظة بالتدخل لدرء هذه الأخطار وحفظ هؤلاء الأطفال من شرّها، وعليه فإنّ هؤلاء الملائكة يحفظون أعمالنا ونيّاتنا وأفكارنا، وكذلك يحفظون أبداننا وأنفسنا من شرّ الحوادث والأخطار، إلى أن يحين أجل الإنسان فيتوقفون عن وظيفتهم ومراقبتهم هذه ويسلّمونه إلى ملك الموت.

٢. يقول تبارك وتعالى في الآيات ١٠ ـ ١٢ من سورة الانفطار:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

وهذه الآيات أيضاً تشير إلى وجود ملائكة يكتبون أعمالنا ويراقبوننا في تصرفاتنا وحركاتنا ويسجلون جميع ما يصدر من الإنسان من أعمال وأفكار ونيّات.

سؤال: لماذا عبّر القرآن عن هؤلاء الملائكة بكلمة «كراماً»؟ فما هي المكرمة التي قام بها هؤلاء الملائكة من أجل الإنسان؟

الجواب: ورد في بعض الروايات أنّ الإنسان إذا عمل عملاً صالحاً فإنّ هؤلاء يكتبونه بعشرة أضعاف، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1].

ولكن لو ارتكب معصية ومخالفة، فإنّ أحد هؤلاء الملائكة يقول لرفيقه الذي يكتب السيئات: أمهله إلى سبع ساعات ولا تكتب عليه شيئاً فلعلّه يندم ويتوب في هذه المدّة، فإذا تجاوزت المهلة المذكورة ولم يتب هذا الإنسان إلى الله فإنّ هذا الملك يكتب عمله بسيئة واحدة، ومن هنا ورد التعبير عن هؤلاء الملائكة بأنّهم «كراماً»[2].

والحقيقة أننا إذا تأملنا وانتبهنا إلى أنّ الله تعالى والملائكة ينظرون إلى أعمالنا ويراقبوننا في خلواتنا ومعاشرتنا، ولا يتركوننا لوحدنا في أيّ مكان أو زمان، فهل نتجرئ على ارتكاب ذنب أيضاً؟ إنّ الايمان بهذه القضايا الدينية يمنح الإنسان تقوىٰ وكوابح شديدة في مقابل وساوس الشيطان ونوازع النفس الأمّارة.

كيفية المعاد وبعث البشر بعد الموت:

وقد أشار الله تعالى بعد حديثه عن الملائكة الحفظة، الذين يتولّون مهمّة كتابة أعمال الإنسان لتقديمها إلى محكمة العدل الإلهي في العالم الآخر إلى إمكانية تحقّق المعاد والحياة بعد الموت، وذلك في آيات قصيرة وبليغة:

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[3].

وهذا الاستدلال في غاية القوّة والدقّة، فإنّ الله تعالى خلق الإنسان من قطرة ماء عفن ودافق، ولذلك يستطيع بسهولة إعادة خلقه من جديد.

---

١. سورة الأنعام، الآية ١٦٠.

٢. التفسير الأمثل، ذيل الآية المذكورة.

٣. سورة الطارق، الآيات ٥ ـ ٩.

معنى «الصلب» و«الترائب»:

تعتبر الآية الشريفة: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ من جملة الآيات الغامضة في القرآن الكريم، لأنّ الله تعالى: «يخرج هذا الإنسان في مرحلة كونه جنيناً من بين عظام الصدر وفقرات الظهر» في حين إننا نعلم أنّ النطفة تتشكل وتخرج من أعضاء البدن السفلي ومن مجاري البول، وعليه فلابدّ من معرفة المقصود من الصلب والترائب، فهل هذا المعنى ينسجم ويتناسب مع مكتسبات العلم في العصر الحاضر؟

الجواب: ذكرنا في التفسير الأمثل ستة تفاسير لهذه الآية مورد البحث، وهنا نطرح تفسيراً آخر لهذه الآية، وذلك:

إنّ بين عظام الصدر وفقرات الظهر يوجد أربعة أجهزة مهمّة:

١. الرئتان، وهما الجهاز التنفسي للإنسان، ويقعان خلف عظام القفص الصدري.

٢. قلب الإنسان، والذي يقع على بعد مسافة قليلة من الرئتين، ويتكفل ضخ الدم إلى جميع الأعضاء والجوارح.

٣. المعدة، وتقع أسفل قليلاً من عظام الصدر، ومهمتها تهيئة المواد الغذائية التي يحتاجها البدن في حياته.

٤. وأخيراً الكبد، وهو الجهاز الذي يقع بين عظام الصدر وفقرات الظهر، وعمله تصفية الدم والمواد الغذائية.

ويقول أحد العلماء المطلعين: إنّ كبد الإنسان بإمكانه إبطال مفعول ثلاثمائة نوع من أنواع السموم، ولهذا فإنّ مرض الكبد أخطر من مرض القلب، وزرع الكبد أيضاً أصعب وأعقد من زرع القلب، كما أنّ الكبد أهم من المعدة، لأنّه من الممكن أن يستمر الإنسان في حياته، ولو لمدة قصيرة، بدون معدة، ولكنه لا يستطيع ذلك بدون كبد.

إنّ الرئتين، والقلب، والمعدة، والكبد تمثل أربعة أجهزة مهمّة في بدن الإنسان تقع بين عظام الصدر وفقرات الظهر، وبدون هذه الأجهزة الأربعة لا يمكن انعقاد النطفة، حتّى لو كان خروج النطفة من موضع خاصّ.

وعلى ضوء ذلك يتبيّن أنّ منشأ ايجاد النطفة، هو هذه الأجهزة الأربعة المهمّة التي تقع بين (الصلب) و(الترائب)، ولذلك يصرّح تبارك وتعالى بأنّ النطفة تخرج من بين الصلب والترائب، وهذا المعنى صحيح ودقيق.

معرفة الجنين، أو معرفة الله؟

إذا درس الإنسان دورة كاملة في معرفة الجنين وحالاته فإنّه سيعرف الله حتماً، فهناك قطرة ماء بدون هيئة معيّنة تدخل جهاز الرحم، وبعد مدّة تتغير تدريجياً وتصبح بشكل بقعة دم وبدون هيئة خاصّة وشكل معيّن، وهذه البقعة من الدم تتحول تدريجياً وفي مدّة زمنية معيّنة إلى لحم «مضغة» ثمّ تتبدل إلى عظم، ثمّ يتفرع منه رجل ويد ورأس ورقبة وسائر التقاسيم وأعضاء وجوارح الإنسان من العين والأذن والفم والأنف و...الخ ويتبدلّ إلى إنسان كامل، فمن منح هذه القدرة لتلك القطرة من الماء العديمة اللون والشكل حتّى ظهرت بهذه الصورة البديعة والشكل الجميل؟

من أمر الجنين أن يتحرك بهذه الصورة في خطّ التكامل والنمو؟

ما هي القدرة العظيمة التي قادته في مسيرته التكاملية إلى أن صار إنساناً كاملاً؟

لا شكّ في أنّ القدرة الإلهية العظيمة تقف وراء كلّ هذه العجائب وتحرّك كلّ جزء من أجزائه وكلّ عضو من أعضائه بشكل مدروس ومنظّم ودقيق، وفي النهاية يتحوّل إلى أفضل الكائنات.

أيّها الإنسان، لو تأمّلت قليلاً في خلقتك وتكوينك، فسوف لاتشك أبداً في المعاد والحياة بعد الموت.

٥

أقسام سورة الضحى

هذه السورة هي السورة الثالثة والتسعون من سور القرآن، وهي آخر سورة من السور التي تتضمن قسمين متتاليين، وعليه، فإنّ البحث في أقسام هذه السورة يعتبر آخر بحث في موضوع الأقسام الثنائية، تقول الآيات:

﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾

فوارق السور المكّية والمدنية:

رأينا فيما سبق أنّ السور المدنية والمكّية تختلف فيما بينها من حيث الشكل الظاهري، وكذلك من حيث المضمون والمحتوى، فالسور المكّية عادةً تتحدّث عن المبدأ والمعاد والنبوّة والوحي والمعارف الدينية الأُخرى التي تتصل بأُصول العقائد، لأنّ نبي الإسلام ﷺ في مكّة كان يتحرك في دعوته الإلهيّة من موقع تكريس أُصول هذا الدين وتقوية دعائمه وتركيز أركانه، فما لم يتمّ بناء الأساس بشكل قوي ومحكم، فلا ينبغي الاهتمام بتشييد الفروع وانتاج التفاصيل، ولذلك فإنّ رسول الله ﷺ كان يسعى في مكّة لبيان العقائد الأساسية في الإسلام، وأمّا السور المدنية

فقد جاءت بعد تشكيل الحكومة الإسلامية وإيجاد المجتمع الإسلامي وتأسيس المراكز والمؤسسات الاجتماعية كالجيش وبيت المال وأمثال ذلك، ولذلك فإنّ هذه الآيات القرآنية تتحدّث في الغالب عن المسائل السياسية، الاقتصادية، النظامية، الاجتماعية وأمثال ذلك.

والخلاصة أنّ كلّ مرحلة من هاتين المرحلتين: مكّة والمدينة، كانت تفرز مقتضيات تنسجم وظروف المرحلة، والآيات القرآنية كانت تنزل وفقاً لما تقتضيه تلك المرحلة.

وسورة الضحىٰ من جملة السور المكّية، ولهذا فهي تتحدّث عن أصل الوحي والنبوّة وهو من الأُصول العقائدية للمسلمين.

شأن النزول: انقطاع الوحي بصورة مؤقتة

لم ينزل جبرئيل الأمين على النبيّ ﷺ مدّة من الزمان، ولم يستلم النبي الأكرم ﷺ في تلك المدّة الوحي الإلهي، ويقدّر المؤرّخون هذه المدّة بين ١٥ يوماً أو أقل أو أكثر إلى أربعين يوماً، فاتخذ المشركون في مكّة ذلك ذريعة للطعن بالنبي ﷺ وتلويث الأجواء بالاتهامات الواهية فقالوا: (إنّ انقطاع الوحي دليل على غضب الله على نبيّ المسلمين وعدم رضاه عنه).

وقد شاع هذا الكلام الواهي في جميع مناطق مكّة، وبذلك واجه النبيّ والمسلمون ضغوطاً شديدة من هذه الحرب النفسية والاعلامية المضادة، وهكذا نزلت آيات سورة الضحىٰ لدفع هذه التهمة ورفع هذا الالتباس حيث تصرّح هذه الآيات بأنّ الله تعالى لم يتركك ولم يغضب عليك.

الحكمة في الانقطاع المؤقت للوحي:

وقد ذكر العلماء والمفسّرون سببين لانقطاع الوحي بشكل مؤقت:

أ) من أجل أن يفهم الجميع أنّ النبي ﷺ لا يقول شيئاً من آيات القرآن من عنده، بل هذه الآيات كلام الله وقد أرسلها الله إلى نبيّه بواسطة الوحي، وأيضاً لإيصاد الباب على بعض المشركين الذين كانوا يعترضون على الوحي والقرآن بحجج واهية، من قبيل قولهم: لماذا لم ينزل القرآن مرّة واحدة للناس؟ والجواب عن هذا السؤال يتبيّن من خلال انقطاع الوحي، ليعلم الناس أنّه ما لم ينزل شيء على رسول الله ﷺ فإنّه لا يستطيع أن يتحدّث بالقرآن من عنده.

ب) جاءت جماعة من علماء اليهود إلى رسول الله ﷺ وطرحوا أسئلة متعددة، ومن تلك الأسئلة سؤالان تاريخيان، وسؤال علمي فلسفي، والأسئلة كالتالي:

١. ما هي حقيقة الروح؟

٢. من هو ذو القرنين؟ وما كانت قصته؟

٣. من هم أصحاب الكهف؟ وماذا كانت عاقبتهم؟

إنّ الإجابة عن هذه الأسئلة تختزن أهمية بالغة، لأنّ مثل هذه الحوادث وقعت بعد نزول التوراة والانجيل ولم يكن لها أثر في ذينك الكتابين.

وطبقاً للروايات فإنّ رسول الله ﷺ وعدهم يوم الغد للإجابة عن هذه الأسئلة الثلاثة دون أن يقول: إن شاء الله، ولهذا قطع الله الوحي عن رسوله ﷺ مدّة ١٥ إلى ٤٠ يوماً لتركه قول إن شاء الله، لإفهام المسلمين أنّ جميع الأُمور متعلقة بمشيئة الله وإرادته، فلو لم تتعلق الإرادة الإلهية بشيء فإنّ ذلك الشيء لا يتحقّق في الواقع الخارجي.

ونستوحي من هذه المسألة أنّه ينبغي لنا التوجّه إلى الله تعالى فقط والطلب منه ولا نرى لأنفسنا شيئاً وعملاً مستقلاً، ومن هنا يتبيّن الخطأ السائد في الخطوط الجويّة للجمهورية الإسلامية في ايران، فعندما تريد الطائرة النزول على مدرج المطار يقال للمسافرين في الطائرة بعد تقديم الشكر لهم إنّ الطائرة ستهبط في طهران أو في العواصم الأُخرى بعد عدّة دقائق بسلام، بدون قول إن شاء الله، ولكن سمعت أنّه في

الآونة الأخيرة وبحمد الله وببركة الحكومة الإسلامية تمت إضافة جملة إن شاء الله الجميلة في كلمات العاملين في الطائرة.

على أية حال فإنّ انقطاع نزول الوحي على النبي الأكرمﷺ كان درساً لجميع المسلمين لبيان هذه الحقيقة الحاسمة، وهي أنّ إرادة الله تقف وراء جميع الأعمال والمخططات والوعود.

شرح و تفسير الأقسام:

﴿والضّحى﴾ وهو أوّل قسم في هذه السورة، والضحى لا يعني النهار، بل قسم منه وهو عندما تطلع الشمس وترتفع قليلاً بحيث يغطي ضياؤها الأرض، أي بعد ساعتين أو ثلاث ساعات بعد طلوع الشمس.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ وهنا ليس القسم بجميع الليل، بل قسم منه وذلك عندما يغطي الظلام جميع الكرة الأرضية وبتبعه يحصل الهدوء لدى الناس.

«سجى» من مادة «سجو» ولها معنيان: ١. الهدوء. ٢. السعة والانتشار، وهذان المعنيان متلازمان، فعندما يتسع الظلام ويغطي جميع الأرض يتحقّق الهدوء ويسود السكون.

سؤال: لماذا أقسم الله تعالى ببعض النهار وبعض الليل؟

الجواب: لأنّ الليل والنهار نعمتان إلهيتان، ولو عدم كلّ واحد منهما فإنّ الحياة على الأرض ستكون مستحيلة، فلو استمرّ النهار لعدّة أيّام متوالية ولم يحدث ليل فإنّ جميع الكائنات الحيّة ستهلك من شدّة الحرارة، وإذا استمرّ الليل لعدّة أيّام بدون أن يتخلله النهار فإنّ جميع الكائنات الحيّة ستتجمد من البرد وتهلك.

وكما تقدّم سابقاً أنّ النهار على سطح القمر يعادل أربعة عشر يوماً من أيّام الأرض، وكذلك الليل هناك حيث يعادل أربعة عشر يوماً في الأرض، أي أنّ كلّ

يوم كامل بليله ونهاره في القمر يعادل شهراً واحداً على الأرض، ومن هنا كان النصف الليلي من القمر بارداً جدّاً حيث يتجمد كلّ شيء هناك، وفي النصف النهاري من القمر يكون كلّ شيء في حالة غليان من شدّة الحرارة.

ويشير الله تعالى إلى هاتين النعمتين الكبيرتين في قوله:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

والخلاصة أنّ الليل والنهار نعمتان إلهيتان عظيمتان، ولكنّ كمال النهار في وقت الضحىٰ كما ورد في سورة الضحىٰ، لأنّ الأجواء بعد ساعتين أو ثلاث من طلوع الشمس جيّدة من جميع النواحي، فأشعة الشمس منتشرة على الأرض كافة وحرارة الجوّ متعادلة وتصل إلى جميع الأحياء بشكل معتدل، وفي الشتاء فإنّ وقت الضحى يخفّف من برودة الجوّ في ذلك الوقت، وفي الصيف فالحرارة في ذلك الوقت مناسبة وقابلة للتحمّل، كما أنّ الليل يصل إلى ذروة كماله بعد ساعتين أو ثلاث من ابتداءه، حيث يغطي الظلام جميع المناطق، وتدريجياً تخفت الأصوات وتهدأ النشاطات اليومية للناس، وينقطع الذهاب والأياب ويحلّ السكون والهدوء بشكل كامل في تلك الأجواء تمهيداً لاستراحة الناس.

لماذا القسم بالليل والنهار؟

سؤال: لماذا أقسم الله تعالى في هذه السورة بهاتين النعمتين الكبيرتين: الليل

---

١. سورة القصص، الآيات ٧١ ـ ٧٣.

والنهار؟ وبعبارة أُخرى: ما هو المقسم له، ومن أجل أي شيء أقسم الله تعالى بهاتين النعمتين؟

الجواب: إنّ المقسم له يتبيّن في الآية الشريفة ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ فالقسمان المذكوران لتقرير وتوكيد هذه الحقيقة الواردة في هذه الآية الشريفة، وتوضيح ذلك: إنّ «الضحىٰ» بمنزلة «الوحي الإلهي» و«الليل» بمنزلة «القطع المؤقت للوحي، لأنّ الليل يقطع النهار بصورة مؤقتة حتى يطلع النهار بعده مرّة ثانية، وكما أنّ الليل والنهار أو بعبارة أُخرى: الضحىٰ وانقطاعه بصورة مؤقتة يعتبران من النعم الإلهيّة، فإنّ الوحي الإلهي والقطع المؤقت له أيضاً من النعم الإلهيّة الكبيرة.

وبذلك يكون معنى الآية، قسماً بالنهار عندما ترتفع الشمس ويسود ضوؤه جميع أرجاء المعمورة، وقسماً بالليل عندما يسود ظلامه جميع الأماكن، أننا وخلافاً لما يقوله المشركون والأعداء، لم نتركك ولم نغضب عليك، بل إنّ قطع الوحي الإلهي في مدّة قصيرة من أجل مصلحة وحكمة، وهذا الأمر فيه نفع لك وللمسلمين.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾.

وقد ذكر المفسّرون معنيين لهذه الآية الشريفة:

أ) إنّ الله تعالى قد أنعم على نبيّه الكريمﷺ بنعم كثيرة، فقد كان يتيماً فآواه، وضالاً فهداه، وفقيراً فأغناه (وسيأتي شرح هذه النعم في البحوث اللاحقة)، ولكنّ النعم الأُخروية المعدّة للنبي أعظم وأعلى من ذلك بكثير.

ب) «الآخرة» في هذه الآية ليست بمعنى اليوم الآخر، بل يقصد بها المقطع الأخير من عمر النبي الأكرمﷺ، كما أنّ كلمة «الأُولى» لا تعني الحياة في الدنيا، بل بمعنى المقطع الأوّل من عمر النبيﷺ، وطبقاً لهذا الاحتمال فإنّ النصف الثاني من عمر النبي الأكرمﷺ (عندما جاء إلى المدينة وأقام الحكومة الإسلامية وثبّت أركان الإسلام وانتصر على أعدائه المشركين ودخل الناس أفواجاً إلى الإسلام). كان

أفضل من النصف الأوّل من عمره، وطبقاً لهذا التفسير فإنّ هذه الآية الشريفة تمثّل خبراً من الأخبار الغيبية في القرآن، لأنّ الله تعالى أخبر عن النجاحات التي ستكون من نصيب النبي الأكرمﷺ في السنوات اللاحقة في المدينة.

وبعبارة أخرى، إنّ الله تعالى يخبر نبيّه الكريمﷺ أنّ عاقبة هذه الصعوبات والأزمات والمشقات التي تتحمّلها أنت والمسلمون في مكّة، ستكون إلى الخير وستنتهي إلى النصر والعزّة والقوّة، وهذا الأمر يعتبر ذا أهمية لجميع الناس.

العاقبة الحسنة:

إنّ كلّ إنسان يتمنّى أن تكون عاقبته حسنة وطيبة، ولكنّ هذا الحلم لا يتحقّق دائماً، فأحياناً يعيش الإنسان طيلة عمره بعزّة وكرامة وثروة، ولكن بسبب زلّة واحدة في آخر عمره يفقد كلّ شيء، وأحياناً بالعكس، فنرى إنساناً يرتكب مختلف أنواع الذنوب والخطايا ويتحرّك في حياته في خطّ الانحراف والشرّ والضلالة، ولكنّه يوفق في نهاية عمره للتوبة وجبران ما فات ويخرج من الدنيا طاهراً مطهراً، بحيث إنّ كلّ من يسمع باسمه يطلب الرحمة له والغفران، مثل الحرّ بن يزيد الرياحي الذي كان يسير في خط الانحراف والشرّ مع جيش ابن زياد، وانتهى به الأمر إلى أن التحق بالحسين عليه السلام واستشهد بين يديه، وفي الجهة المقابلة نجد عمر بن سعد الذي كانت عاقبته خزي الدنيا والآخرة.

أذى المشركين:

إنّ جميع الأنبياء الإلهيين واجهوا في طريق الدعوة الإلهيّة مشقات وصعوبات بالغة ممّا يفرضه عليهم المحيط المعادي لهم، ولكنّ نبي الإسلامﷺ امتاز بأنّه الأوفر نصيباً من أذى قومه والمصاعب والعراقيل التي واجهها في سبيل نشر الدعوة

الإلهيّة والدين السماوي حيث تحمّل الكثير جدّاً من أنواع الأذى والتعذيب الجسمي والروحي، حتّى أنّه قال:

«ما أُوذِيَ أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوذيتُ فِي اللهِ»[1].

وأشد أنواع الأذى الذي واجهه نبي الإسلام ﷺ هو الأذى الروحي والاتهامات وصنوف الشتائم والكلمات اللامسؤولة التي يسمعها دوماً من أعدائه المشركين، فيما تثيره من حالات نفسية قاسية وفيما تخلقه من أجواء متوترة بينه وبين الناس.

عطف الله ورعايته:

إنّ نبي الإسلام ﷺ تحمّل ما تحمّل من الأذى والمحن في سبيل نيل رضا الله تعالى وتبليغ الدعوة الإلهيّة ونشر التعاليم السماوية، وفي مقابل كلّ هذا الإيثار والتحمّل والتضحية فإنّ الله تعالى وهب لنبيّه الكريم ﷺ أشكال المحبّة والرعاية واللطف، وقد أشارت هذه السورة إلى موردين منها:

الأوّل: إنّ الله تعالى بشّره بأنّ آخرتك أفضل من دنياك الزاخرة بالمشاكل والمصاعب ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ وقد تقدّم تفصيل الكلام في هذه الآية.

والآخر: أنّنا سنعطيك مقام الشفاعة المطلقة في الآخرة ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾.

وهذه العناية الإلهيّة للنبي الأكرم ﷺ في غاية اللطف والأهميّة، لأنّ أولياء الله لا يفكرون فقط بعاقبتهم ونجاتهم والوصول إلى المقامات السامية عند الله، بل يفكرون أوّلاً بإنقاذ الناس ويهتمون بنجاة أتباعهم، ثمّ يفكرون بنجاة أنفسهم، ومن هنا فعندما وهب الله تعالى لنبيّه مقام الشفاعة المطلقة، فإنّ جميع الآلام والاتعاب والأذى قد زالت وانحسرت عن قلبه وروحه.

---

١. ميزان الحكمة، باب ٨٣، ح ٤٦٤.

أرجى آية في القرآن!

فقد ورد في رواية أنّ الإمام عليّاً عليه السلام قال: «يا أهل العراق تزعمون أنّ أرجى آية قوله عزّوجلّ:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1].

وإنّا أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾»[2].

سؤال: هل يوجد تناقض وتقاطع بين قول الإمام علي عليه السلام وقول أهل الكوفة عندما ذكروا له الآية الشريفة في حين أنّ هذا الرأي مقتبس أيضاً من بعض الروايات؟

الجواب: اعتقد أنّه لا يوجد تناقض وتقاطع بين هذين الرأيين، لأنّ كلّ واحد منهما ناظر إلى جهة معيّنة من الأمل والرجاء في آيات القرآن:

فالآية الأولى واردة في مقام التوبة، والآية الثانية واردة في مقام الشفاعة، ونعلم أنّ هذين المقامين مختلفان.

وتوضيح ذلك: عندما يرتكب الشخص معصية أو يسير في خطّ الانحراف والذنب، ثمّ يتحرك لطلب التوبة ويريد جبران ما فاته من الخلل والقصور، فعندما يقرأ آيات القرآن الكريم فإنّ أرجى آية بالنسبة له هي الواردة في مقام التوبة، لأنّ الإنسان في كلّ مرحلة يسقط فيها من مراتب الإنسانية والكمال المعنوي، فإن هذه الآية المذكورة تبعث له بنور الأمل وتضيء زوايا قلبه بنور الرجاء، ومع تكرار حالات التوبة الناقصة سيوفق أخيراً للتوبة الحقيقية ويشمله الله تعالى بلطفه ورعايته.

وأمّا المذنب الذي لا يوفق للتوبة ويأتي في الآخرة مع حمل ثقيل من الذنوب والمعاصي، فإن عينه ستكون مشدودة إلى شفاعة الشافعين، ولذلك فإنّ أرجى آية

---

١. سورة الزمر، الآية ٥٣.

٢. التفسير الأمثل، ذيل الآية المذكورة.

في القرآن بالنسبة له هي الآية الثانية التي تتحدّث عن الشفاعة المطلقة، لأنّه طبقاً لما ورد في الروايات الشريفة فإنّ الله تعالى يشفع ويشفع لنبيّه الكريمﷺ حتّى يقول رسول اللهﷺ: «رَضيتُ رَضيتُ»[1].

وعليه فلا يوجد أي تناقض وتباين بين هاتين الرؤيتين المذكورتين.

حدود دائرة الشفاعة:

إنّ المذنبين على قسمين:

١. الأشخاص الذين هدموا جميع الجسور من ورائهم واستمروا في سيرهم في خطّ العصيان والذنوب من موقع العناد والتمرد، فهؤلاء لا تشملهم نعمة الشفاعة، لأنّ الشفاعة ينبغي أن تكون بإذن الله، والله تعالى حكيم ولا يسمح بالشفاعة لهؤلاء المجرمين.

٢. الأشخاص الذين غرقوا في وحل الذنوب والخطايا ولم يوفقوا للتوبة، ولكنّهم لم يهدموا جميع الجسور من ورائهم، فهذه الطائفة من الناس يستحقون الشفاعة.

ولتوضيح الفكرة أكثر نضرب مثالاً لكلٍّ منهما:

يتحدّث المؤرّخون في واقعة كربلاء عن رجلين اشتركا في تلك الواقعة وكلٌّ منهما مصداق لإحدى هاتين الطائفتين، فقد كان عمر بن سعد مذنباً ولم يوفق للتوبة وجبران ذنوبه وأخطائه، ولكنّه هدم جميع الجسور خلفه بدافع من حبّ الدنيا وطلب الجاه والمقام وملك الري، حتّى أنّه قال:

يَقُولُونَ إنّ اللهَ خالِقُ جَنّةٍ ... وَنارٍ وَتَعذِيبٍ وَغِلٍّ يَدينِ
فَإنْ صَدَقُوا فِيما يَقُولُونَ إنّني ... أَتُوبُ إلى الرَّحمنِ مِنْ سَنَتَينِ
وإنْ كَذِبُوا فُزنا بِدُنيا عَظِيمَةٍ ... وَمُلكٍ عَظِيمٍ دائمِ الحَجَلَينِ[2]

---

١. التفسير الأمثل، ذيل الآية المذكورة.

٢. منهاج الدموع، ص ٢٩١.

فمثل هذا الشخص لا يستحقّ الشفاعة ولا يملك اللياقة ليشفع له أولياء الله في ذلك اليوم ولا يأذن الله تعالى لأحد بالشفاعة له.

امّا الحرّ بن يزيد الرياحي فرغم أنّه ارتكب ذنباً عظيماً في ايصاده الطريق أمام الإمام المعصوم ولكنه لم يهدم جميع الجسور خلفه، فعندما واجه جيش الإمام الحسين عليه السلام وأوصد الطريق أمامه، غضب الإمام عليه السلام وقال له: «ثكلتك أُمّك» ولكنّ الحرّ قال للإمام الحسين عليه السلام: «أما لَو غيرك من العرب يقولها لي وهو على مثل الحال التي أنت عليها ما تركت ذكر أمّه بالثّكل كائناً من كان، ولكن والله ما لي إلى ذكر أُمّك من سبيل إلّا بأحسن ما تقدرُ عليه»[1].

فلم ينطق بكلمة سيئة أمام الحسين عليه السلام، بل إنّه حينما حان وقت الظهر صلّى صلاة الظهر هو وجيشه خلف الإمام الحسين عليه السلام ولم يقم صلاة الظهر بشكل مستقل هو وأتباعه، بل إنّهم جميعاً ائتمّوا بالإمام الحسين عليه السلام في صلاتهم.

أجل، فالحرّ بن يزيد الرياحي مذنب، ولكنّه لم يهدم الجسور خلفه، ومن هنا كان يملك اللياقة للشفاعة، وأخيراً انجذب إلى الإمام الحسين عليه السلام والتحق به وكان ذلك سبباً في نجاته من النار، وهذه الحالة في الحقيقة أحد تجليات الولاية التكوينية التي تؤثر في قلوب الأشخاص المستعدين لكسب الفيض الإلهي.

ثلاث نعم كبيرة وثلاث مسؤوليات:

وبعد أن تبيّنت حقيقة القسمين في سورة الضحى، وما أحاطت به من تفاسير وشروح، وبعد بيان البشارتين المهمتين لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله في مقابل تحمّله الشدائد والصعاب في سبيل نشر الدعوة إلى الله، فإنّ الله تعالى تحدّث عن ثلاث نعم كبيرة وهبها للنبي صلى الله عليه وآله، وبعد ذلك أمره بثلاثة أوامر.

---

١. منهاج الدموع، ص ٢٨٤.

النعمة الأولى: الإيواء في حال اليتم!

كان رسول الله ﷺ قد مرّ بثلاث مراحل من اليتم، فعندما كانت أُمّه آمنة حاملة به، فقد أباه عبدالله، وبعد ولادته بقي في رعاية أُمّه آمنة مدّة ست سنوات ينهل منها الحبّ والحنان، ولكن في السنة السادسة من عمره الشريف فقد أُمّه أيضاً، وبعد ذلك بات تحت كفالة جدّه عبدالمطلب وحمايته، وهكذا وفّر الله تعالى ليتيم عبدالله وآمنة الملجأ والملاذ والحماية، ولكن هذا الملاذ أيضاً لم يستغرق سوى ثلاث سنوات، فقد توفي عبدالمطلب، والنبي ﷺ له من العمر ثمان سنوات ثم كفله عمّه أبوطالب الذي كان يتميز بشخصية قوية وله نفوذ واسع في قبائل قريش.

النتيجة، أنّ الله تعالى قد وفّر الملاذ والملجأ الآمن للنبي الأكرم ﷺ في مراحل يتمه المختلفة.

النعمة الثانية: هدايته عليه عندما كان ضالاً!

وتشير الآية التالية: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ إلى النعمة الثانية، وبعض المفسّرين ذهب إلى أنّ كلمة «ضالّ» تعني الضلالة، في حين أنّ النبي الأكرم ﷺ لم يكن ضالاً في أي وقت أو مرحلة من حياته. يقول الإمام علي ﷺ في الخطبة القاصعة[1]:

«وَ لَقَدْ قَرَنَ اَللَّهُ بِهِ ﷺ مِنْ لَدُنْ أَنْ كانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ اَلْمَكَارِمِ، وَ مَحَاسِنَ أَخْلاَقِ اَلْعَالَمِ لَيْلَهُ وَ نَهَارَهُ».

ومن هذا المنطلق نعتقد بأنّ نبي الإسلام ﷺ كان يعتقد بدين خاص ولم يكن يتبع الديانة المسيحية أو اليهودية، وما يقال من أنّ النبي الأكرم ﷺ كان «على دين إبراهيم الحنيف» بمعنى موحّد؛ لأنّ إبراهيم بطل التوحيد وتحطيم الأصنام. على أيّة حال، فالضال هنا ليس من الضلالة والانحراف عن الحق. بل لها معانٍ أخرى، نذكر

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

هنا معنيين يمكن انطباقهما على المقصود من الآية الشريفة:

١. الضالّ: بمعنى التائه كما ورد في الحديث الشريف: «الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ»[١]، وقد ذكر المؤرخون أنّ النبي الأكرم ﷺ ضاع عدّة مرات في مكّة، ففي مرّة كان تحت كفالة عبدالمطلب، وعندما كان يرضع من حليمة السعدية، وفي ذلك الوقت كان النبي ينعم برعاية والدته الحنون، لأنّ مكّة كانت مدينة جبلية وبذلك من السهل أن يضيع الطفل في المفاوز والوديان، والآن أيضاً إذا نظرتم من داخل مدينة مكّة فسوف لا ترون المسجد الحرام ولا المآذن العالية، لأنّ المسجد الحرام يقع في منطقة منخفضة، وفي جميع هذه الحوادث كان الله تعالى هو الذي يحفظ نبيّه ويعيده إلى أهله.

٢. الضالّ: هنا بمعنى الغفلة، أي أنّ النبي كان قبل النبوة غافلاً عنها، فالآية تخاطب النبي أنّك كنت غافلاً ولا تعلم بخبر النبوة وتعاليم السماء ونحن الذين علّمناك، كما ورد هذا المعنى في سورة يوسف حيث يخاطب الباري عزّوجلّ نبيّه الكريم ﷺ ويقول:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

ومن هنا فإنّ كلمة الضالّ تأتي بمعنى الغافل.

النتيجة أنّ الضالّ بمعنى التائه أو بمعنى الغافل، وكانت من حالات النبي قبل البعثة وأعاده الله تعالى إلى أهله، أوعلّمه ما لم يعلم كما هو المعنى الثاني.

النعمة الثالثة: الإمداد المالي

وتشير الآية الشريفة: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ﴾ إلى النعمة الثالثة، وكلمة «عائلاً»

---

١. ميزان الحكمة، باب ٩١٧، ح ١٦ و ١٢ و ١١ و ٤٢١٠.

يقصد منها الرجل الذي له عيال كثيرون، وبما أنّ أفراد العائلة فقراء، وبعبارة أخرى أنّ كثرة العائلة تقترن مع الفقر عادة، ومن هنا اطلقت هذه الكلمة وقصد بها الفقر وعدم وجود المال.

إنّ الله تعالى قد أغنى نبيّه الكريمﷺ الذي كان قبل البعثة فقيراً بمال خديجة وثروتها، وبعد البعثة رفع عنه الفقر وعزّة الإسلام والفتوحات وكثرة الغنائم.

الأنبياء العارفون بداء البشرية:

إنّ أحد امتيازات الأنبياء الإلهيين هو أنّهم مطلعون على آلام الناس ومعاناتهم، أي أنّهم عاشوا تلك المرارة والمعاناة قبل النبوة وكانوا يعيشون مع الناس تلك الصعوبات والآلام، ومن هنا فإنّ الأنبياء يستطيعون إدراك آلام الآخرين، فهؤلاء الأطباء الروحانيون الذين يريدون علاج آلام البشر والتقليل من معاناتهم، كانوا في السابق يعيشون هذه الآلام والمعاناة، ولذلك كانوا مطّلعين على أبعادها وعلاجاتها.

وقد كان النبي إبراهيم يعيش لوحده في واقع الحياة الاجتماعية، ولم يستجب له سوى أفراد قلائل ممن استجابوا لدعوته، فقد كان أعداؤه مسيطرين على تلك الأجواء بشكل عجيب بحيث إنّهم أمروا بإلقائه بالنار لدعوته للتوحيد ونبذ الأصنام وراموا إحراقه حيّاً، ولكن الله تعالى تدخل في اللحظات الأخيرة وأنقذه من النار سالماً، ولكنهم لم يتركوه بعد ذلك وطردوه من بيته ومدينته، واستقبل النبي إبراهيم التهجير والعذاب والغربة برحابة صدر، وفي النهاية ترك زوجته وابنه الرضيع بأمر الله تعالى في صحراء الحجاز بلا ماء ولا كلاء، وبتجاوز هذه المراحل الصعبة والتغلب على هذه التحديات القاسية حصل على اللياقة لمقام النبوة واستطاع بعدها معالجة آلام البشرية وحلّ مشاكلهم.

أمّا النبي موسى فقد واجه المشاكل والمتاعب منذ ولادته، وأخيراً اضطر إلىٰ

الهرب من فرعون وأفراد حكومته واللجوء إلى مدين بسبب الضغوط وأشكال الأذى والتهديد الذي واجهه من فرعون وملئه، وبقي في صحراء مدين عشر سنوات يعمل لشعيب في رعي أغنامه، وفي هذه المدّة واجه صعوبات جمّة أيضاً.

أمّا النبي يوسف عليه السلام فقد أصبح محسوداً من قِبل إخوته الذين ألقوا به في غيابة الجبّ، وبعد ذلك أخرجه أصحاب القافلة وباعوه في سوق مصر كعبد، ثم بدأت المشكلات في دار العزيز في مصر مع زوجة العزيز وأخيراً أُلقي به في السجن بارتكابه جريمة الطهر والعفة والامتناع عن الانزلاق في الخطيئة.

ونبي الإسلام صلى الله عليه وآله بدوره لم يكن استثناء من القاعدة وقد واجه طيلة حياته مشاكل واتعاباً كبيرة وعديدة، كل ذلك ليتسنى لهذا النبي بناء شخصيته وتقوية ملكاته وليتسنىٰ له إيجاد الحلول والعلاجات في المستقبل لآلام الناس.

ولعله لهذا السبب ورد في الروايات: «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيّاً إِلّا وَقَدْ رَعَى الْغَنَمَ»[1].

فرعي الأغنام يتضمن مشاكل كثيرة فينبغي على الإنسان تجاوزها بنجاح ليكون صالحاً لرعي البشر الجاهلين وهدايتهم إلىٰ خطّ الايمان والصلاح والرسالة.

وقد أشار القرآن الكريم في الآيات الأخيرة من سورة الضحى إلى ثلاث مشاكل كبيرة ممّا واجهه النبي في حياته، وكذلك التسديد الإلهي والرعاية الربانية التي صاحبت النبي في حركته وحياته وانقذته من تلك المشاكل والمآزق، ثم أشارت الآية إلى وظيفة النبي في مقابل النعم الإلهيّة.

وقد سبق أن ألمحنا في البحوث السابقة إلى المشاكل الثلاث، وأمّا الوظائف الثلاث للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله فهي:

---

١. ميزان الحكمة، باب ٣٧٧٧، ح ١٩٥٣٦.

الوظيفة الاولى: إكرام الأيتام

أول وظيفة أشار إليها الله تعالى في هذه الآيات الكريمة، إكرام الأيتام، وهذا يشير إلى الأهميّة الكبيرة لقضية العناية بالأيتام ومساعدتهم وإكرامهم، وقد انعكست هذه الحقيقة أيضاً في الروايات الشريفة، ونشير هنا إلى روايتين من هذه الروايات:

جاء شاب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: «**غُلامٌ يَتيمٌ وَاُخْتٌ لي يَتيمَةٌ، وَأُمٌّ لي أرْمَلَةٌ، أطْعِمْنا مِمّا أطْعَمَكَ اللهُ، أعْطاكَ اللهُ مِمّا عِنْدَهُ حَتّى تَرْضىٰ**».

ولما وقعت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله على هذا الشاب وما قاله من كلمات قصيرة في بيان حاله وحال أسرته، فقال له: «**ما أحْسَنَ ما قُلْتَ يا غُلامُ**».

ثم قال لبلال: إذهب يا بلال فأتنا بما كان عندنا، فجاء بواحدة وعشرين تمرة، فقال: «**سَبعٌ لَكَ وسَبعٌ لأُختِكَ وسَبعٌ لأُمِّكَ**».

فقام معاذ بن جبل ـ أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله حيث كان يراقب هذا المنظر اللطيف ـ ومسح على رأس الشاب وقال: «**جَعَلَكَ خَلَفاً لِأبيكَ**».

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**رأيتُكَ يامعاذ وما صنعتَ**»؟

قال: رحمته!

فقال صلى الله عليه وآله: «**لا يَلي أحَدٌ مِنْكُمْ، يَتيماً فَيُحْسِنُ وِلايَتَهُ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلىٰ رَأْسِهِ، إلّا كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ حَسَنَةً، وَمَحا عَنْهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَيِّئَةً، وَرَفَعَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ دَرَجَةً**»[1].

فلا غرابة أن يأمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله بإكرام الأيتام والإحسان إليهم لئلا تترتب تلك الآثار السيئة على نفوس هؤلاء الأيتام.

إنّ الذين يتّهمون الإسلام والمسلمين بممارسة الإرهاب والعنف، عليهم أن يقرأوا هذه الروايات الزاخرة باللطف والمحبّة والمودة ليشعروا بعد ذلك بالخجل من

١. مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٨٥، ذيل سورة الضحى.

هذا الاتهام الواهي.

ونقرأ في رواية أخرى عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْيَتِيمَ إِذَا بَكَىٰ اهْتَزَّ لَـهُ الْـعَرْشُ فَيَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ... فَوَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا يُسْكِتُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَوجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»[1].

إنّ الاهتمام بالأيتام في كل عصر وزمان وخاصّة في عصرنا الحاضر وبلدنا الذي عاش حرب ثمان سنوات وكانت نتيجتها الكثير من الأيتام للشهداء الذين استشهدوا في هذه الحرب، يعدّ أمراً لازماً وضرورياً وهو عمل الأنبياء.

اللهم وفقنا لأداء هذه العبادة.

الوظيفة الثانية: الاهتمام بالمحتاجين

تقرر الآية التالية: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ الوظيفة الثانية للنبي الأكرم ﷺ وهي الاحسان إلى الفقراء ومساعدة المحتاجين والتعامل معهم بلطف ورفـق، وكأنّ الله تعالى يقول في هذه الآية: أيّها النبي لا تطرد الفقراء المحتاجين عنك ولا ترفع صوتك عليهم ولا تعاملهم بقساوة وبكلام خشن ووجه عبوس.

ومثل هذا المعنى من لزوم التعامل السليم والصحيح مع المحتاجين ورد في الآية ٢٦٣ من سورة البقرة: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾.

وعلى ضوء ذلك فالإنسان إذا لم يكن قادراً على مدّ يد العون للمحتاجين، أو لم يرغب في الانفاق لأي سبب كان، فيجب عليه التعامل معهم بكلام لطيف وبتعامل حسن، مثلاً يقول: «عفواً في هذه المرّة أعتذر من الانـفاق» أو يـقول: «المعذرة فعلاً ليس بيدي شيء» أو «أرجو أن يوفقني الله في المرّة القادمة لإعطائك» وأمثال ذلك، فلو لم يكن قادراً على رفع ضائقتهم وحلّ مشكلتهم المادية، فليس لنا الحق

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٥، ح ١٢.

في جرح كرامتهم وانهانتهم.

وقد يتبيّن السلوك الأخلاقي بوضوح في سيرة الأئمّة المعصومين عليهم السلام كما يتبيّن ذلك من القصّة المعروفة في تعامل الإمام الحسن المجتبى عليه السلام مع الأعرابي الفقير:

وقد ذكر المؤرخون أنّ رجلاً طرق باب الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، وأنشد يقول:

لَمْ يَبْقَ لي شَيءٌ يُبـاعُ بِـدِرْهَمٍ ... يَكْفِيكَ مَنْظَرُ حالَتي عَنْ مُخْبِري
إِلّا بَقايـا مـاءُ وَجْـهي صُنْتُهُ ... أَلّا يُبـاعَ وَقَدْ وَجَدْتُكَ مُشْـتَري

فنادى الإمام الحسن عليه السلام خازنه وقال له: ما عندك من المال؟.

فقال: إثنا عشر درهماً.

فقال الإمام عليه السلام: إدفعها إلى هذا السائل، ثم قال للسائل وهو يعتذر إليه:

خُذِ القَليلَ وَكُنْ كَأَنَّكَ لَـمْ تَـبِعْ ... مـا صُنْتَهُ وَكَأَنَّنـا لَـمْ نَشْـتَرِ[1]

وهذا الاسلوب فيغاية الخلق والأدب في عملية الإنفاق وأفضل سلوك أخلاقي في مساعدة المحتاجين.

ومن هنا إذا لم يتحرك الشخص على مستوى الإنفاق وبذل المال للفقير أو المحتاج، فعليه أن يكلّمه بلسان لطيف وكلام لين ويعتذر له عن ذلك، أو إذا أراد بذل المال وتحصيل ثواب الإنفاق فعليه أن يسعى لحفظ هذه الحسنة من الحبط والبطلان، ولا يتلف هذا العمل الحسن بالمنّ والأذى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾[2].

تفسير آخر للآية: أسئلة علمية ودينية

ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ المراد من كلمة «سائل» في هذه الآية ليس السائل

---

١. منتهى الآمال، ج ١، ص ١٦٢.

٢. سورة البقرة، الآية ٢٦٤.

الفقير والمحتاج للمال، بل الشخص الذي يسأل أسئلة علمية ودينية، وهذا التفسير إنّما ينسجم مع سياق الآية السابقة فيما إذا فسّرنا «الضالّ» بمعنى فقدان العلم والغفلة عن تعاليم السماء، أي: أيّها النبي لقد وجدناك فاقداً للعلم والمعرفة وعلّمناك ما لم تكن تعلم، وعليه فلا تطرد من يأتيك ويسألك عن أسئلة دينية وعلمية بل ينبغي عليك أن تتقبل هذه الأسئلة برحابة صدر وتجيب عنها بكلام لطيف ورقيق.

إنّ سيرةالنبي الأكرمﷺ تشير إلى أنّه كان يبذل اهتماماً كبيراً بهذا الأمر بحيث إنّه كان يوماً راكباً جواده ومتجهاً إلى ميدان القتال والجهاد، فجاءه رجل وأخذ بلجام فرسه وقال:

«عَلِّمْني عَمَلاً أَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ».

فنظر إليه المسلمون الذين كانوا مع النبي الأكرمﷺ والمتجهين إلى القتال نظروا إليه شزراً ولعلهم اعترضوا عليه بأنّ هذا الوقت ليس وقت السؤال، فقال لهم النبيﷺ: اتركوه، ثم التفت إليه وقال:

«ما أَحْبَبْتَ، أَنْ يَأْتِيَهُ النّاسُ إِلَيْكَ فَأْتِهِ إِلَيْهِمْ، وَما كَرِهْتَ، أَنْ يَأْتِيَهُ إِلَيْكَ فَلا تَأْتِهِ إِلَيْهِمْ، خَلِّ سَبِيلَ الرّاحِلَةِ»[1].

وينقل مثل هذا السلوك الأخلاقي عن الإمام أميرالمؤمنين عليّ؈ أيضاً: «إنّ أعرابياً قام يوم الجمل إلى أميرالمؤمنين؈ فقال: يا أميرالمؤمنين أتقول: إنّ الله واحد؟ فحمل الناس عليه وقالوا: يا أعرابي أماترى ما فيه أميرالمؤمنين من تقسم القلب؟ فقال:

«دعوه فإنّ الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القول، ثم قال: يا أعرابي إنّ القول في أنّ الله واحد على أربعة أقسام...»[2].

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٣٤، ح ٤٥.
٢. المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٠٦، ح ١.

الوظيفة الثالثة: بيان النعم الإلهيّة وشكرها

أمّا الآية الثالثة: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فتقرر الوظيفة الثالثة للنبي الأكرمﷺ وتقول:

أيّها النبي لقد أنعمنا عليك نعماً كثيرة، فعليك بشكرها وإظهارها للآخرين، والتحدّث بها في المجالس.

ونرى أنّ بعض الناس يتحركون في سلوكهم وأخلاقهم خلافاً لمضمون هذه الآية الشريفة، ويعملون على إخفاء ما وهبهم الله من نِعم، وعندما يسألهم شخص عن حالهم وكسبهم وعملهم، فيجيبون بالحسرة والتأوه على وضعهم المتدهور، ويقولون: «الحمد لله على أننا نملك لقمة من الخبز لسدّ رمق الجوع»! في حين أنّهم يجمعون الآلاف المؤلفة في أرصدتهم المصرفية، ولا يمرّ يوم إلّا ويزداد رصيدهم وتزداد أرباحهم.

إنّ إظهار النعم الإلهيّة يتضمن ثلاث مراحل:

١. **المرحلة اللسانية**: يجب على الإنسان أن يشكر الله تعالى على نعمه الكثيرة في حياته، فلو حصلت على ربح من معاملة أو تجارة ودفعت ديونك من أرباح هذه المعاملة وصرفت الباقي في ما تحتاجه من أمورك المعيشية، فعليك أن تشكر الله تعالى على هذه النعمة.

٢. **الشكر العملي**: بمعنى إظهار هذه النعم والمواهب الإلهيّة على ساحة الحياة، فلو ازداد راتبك الشهري فعليك بتوفير ما يحتاجه الأهل والأولاد من وسائل الراحة والرفاهية، لا أن تتخذ حالة النفاق وتظهر نفسك بأنّك فقير لا مال لك وتلبس ثياباً رثة وتعيش عيش الفقراء وكل شخص يراك يتصور أنّك فقير، وبيتك من الداخل كالقصر ولكنّه من خارجه أشبه بخربة لئلا يعلم الناس أنّك متمول وإنسان غني، فهذا العمل يتنافى مع شكر النعمة الإلهيّة عليك، لأنّ هذا العمل يندرج تحت صفة

النفاق والرياء، والإسلام لا يأمرك بالاسراف والتبذير، بل يقول لك: عليك أن تستخدم هذا الرزق وتستفيد من النعم الإلهيّة بأحسن وجه.

٣. **إشراك الآخرين بالنعمة:** ومضافاً إلى الشكر اللساني والعملي ينبغي إشراك الآخرين في النعم الإلهيّة التي وهبنا الله إيّاها، ولا نحتكر هذه النعم لأنفسنا. يقول النبي الأكرمﷺ في رواية شيّقة:

«إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرىٰ أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلىٰ عَبْدِهِ»[١].

وهذا العمل إنّما يتحقق فيما إذا تحركنا على مستوى العمل بهذه المراحل الثلاث للشكر.

شكر النعمة في روايات المعصومين:

وقد ورد هذا المفهوم في روايات المعصومين كثيراً، ونكتفي هنا باستعراض أربعة نماذج من هذه الروايات:

١. يقول الإمام علي الهادي:

«الشّاكِرُ أَسْعَدُ بِالشُّكْرِ مِنْهُ بِالنِّعْمَةِ الَّتي أَوْجَبَتِ الشُّكْرَ؛ لِأَنَّ النِّعَمَ مَتاعٌ، وَالشُّكْرَ نِعَمٌ وَعُقْبىٰ»[٢].

٢. يقول الإمام جعفر الصادق:

«إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْعَمَ عَلىٰ كُلِّ قَوْمٍ بِالْمَواهِبِ فَلَمْ يَشْكُرُوا فَصارَتْ عَلَيْهِمْ وَبالاً، وَابْتَلىٰ قَوْماً بِالْمَصائِبِ فَصَبَرُوا فَصارَتْ عَلَيْهِمْ نِعْمَةً»[٣].

على سبيل المثال إذا أنعم الله تعالى على الوالدين بولد ولكنّهما لم يتحركا على مستوى تربيته تربية صالحة، فهذا يعني أنّهما لم يشكرا نعمة الله تعالى عملاً، وسوف

---

١. ميزان الحكمة، باب ٣٩١١، ح ٢٠٤٢٤.
٢. المصدر السابق، ج ٥، باب ٢٠٦٣، ح ٩٥٨٧.
٣. المصدر السابق، باب ٢٠٦٧، ح ٩٥٩٩.

تتبدل هذه النعمة إلى نقمة ووبال، بأن يكبر هذا الولد ويسير في خط الانحراف وربّما يكون مدمناً على المخدّرات وبذلك يهدم سعادته وسعادة والديه في الدنيا والآخرة، وعلى العكس من ذلك إذا ابتلي الإنسان بمرض وصبر على الآلام وشكر الله تعالى، وانتهت مرحلة المرض، فسوف يلتفت أنّه لو كان سالماً في تلك المدّة فإنّه سوف يشترك في مشروع معين يؤدي به إلى الضلالة والهلكة.

٣. يقول الإمام علي عليه السلام:

«شُكْرُ الْمُؤْمِنِ يَظْهَرُ فِي عَمَلِهِ، شُكْرُ الْمُنافِقِ لا يَتَجاوَزُ لِسانَهُ»[١].

فالإنسان المؤمن ومن خلال الاستخدام السليم والصحيح للنعم الإلهيّة واستثمارها في مواقعها المناسبة يؤدي شكر هذه النعم عملاً، وأمّا الإنسان المنافق فإنّه يدعي بلسانه الشكر ولكنّه على المستوى العملي ليس بشاكر.

٤. وجاء في رواية أخرى عن أميرالمؤمنين علي عليه السلام أنّ الشكر له أربع مراحل: شكر الله، شكر المنعمين من البشر، شكر النظراء، شكر من يقع في مرتبة أدنى منك، ثم يبيّن الإمام عليه السلام كيفية شكر كل واحد من هذه الموارد الأربعة:

«شُكْرُ إلهِكَ بِطُولِ الثَّناءِ، وَشُكْرُ مَنْ فَوْقَكَ بِصِدْقِ الْوَلاءِ، وَشُكْرُ نَظِيرِكَ بِحُسْنِ الإِخاءِ، وَشُكْرُ مَنْ دُونَكَ بِسَيْبِ الْعَطاءِ»[٢].

الإسلام دين الرحمة أم العنف؟

في هذه الأيّام نسمع اتهامات تصدر من البابا الزعيم الروحي للمسيحيين الكاثوليك في العالم، وتُسيء للإسلام والمسلمين بأنّهم أشخاص يسلكون طريق العنف في حياتهم، وأنّ دين الإسلام دين العنف والقمع، فلو نظرنا إلى ما تقدّم من

---

١. ميزان الحكمة، باب ٢٠٧٠، ح ٩٦٠٥.

٢. المصدر السابق، باب ٢٠٧١، ح ٩٦٠٩.

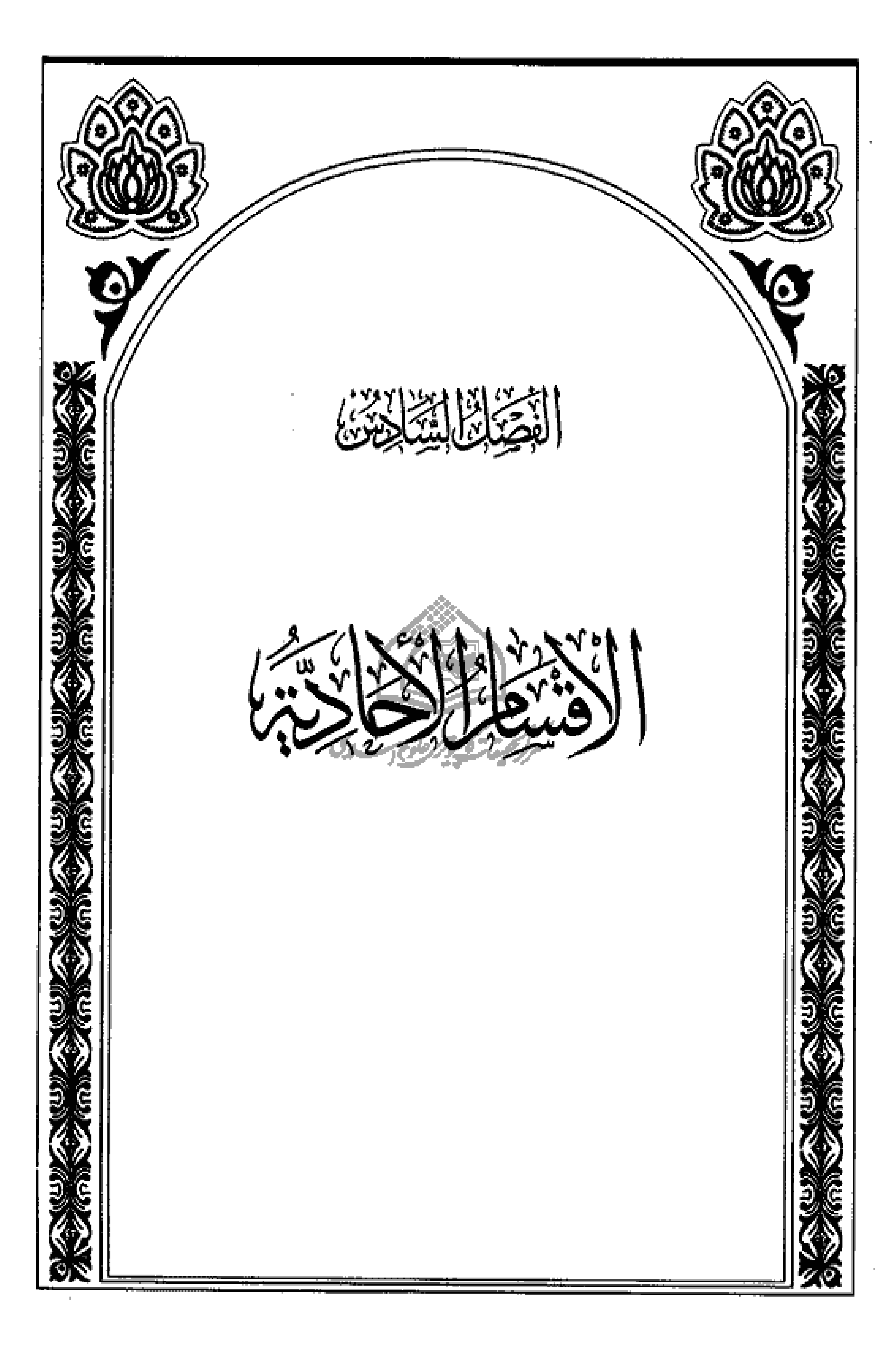
بحوث فسوف نرى أنّ الإسلام دين المحبّة والمودة وأنّه زاخر بالتعاليم الإنسانية، وعدم اطلاع البابا وأعداء الإسلام على تعاليم هذا الدين السماوي هو السبب وراء هذه الاتهامات، ويبيّن جهلهم بالإسلام وبتعاليمه، ويحق لنا أن نتساءل: هل المسلمون هم الذين ينشرون العنف والارهاب في العالم، أم المسيحيون الذين أشعلوا نار الحرب العالمية الأولى والثانية وكان ضحيتها ٤٠ مليون إنسان ومثل هذا العدد من الجرحى والمعوقين؟

هل المسلمون هم الارهابيون، أم الامريكيون الذين يبنون سجوناً كثيرة ورهيبة في شتى بقاع العالم ويعذبون أعداءهم ومخالفيهم بأبشع أنواع التعذيب ويقتلونهم في النهاية، وكمثال على ذلك، سجن (أبو غريب) و(كوانتانامو)؟ ولمعرفة المزيد من تفاصيل هذا الموضوع راجعوا كتابنا «دين الرحمة».



***


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



الفصل السادس

الأقسام الأحادية


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

١

قسم سورة النحل

بحثنا فيما سبق، الأقسام الأحد عشر، الأقسام الخماسية، الرباعية، الثلاثية، الثنائية بشكل كامل، وفي هذا الفصل نبحث عن الأقسام المفردة، فهذه الأقسام تمثّل العدد الأكبر من الأقسام في القرآن الكريم، ويقسم الله تعالى بتسعة أمور سنأتي على بحث تفاصيلها في هذا الفصل.

١. إنّ الله تعالى أقسم في موردين بنفسه «الله» وكلا هذين الموردين مذكورين في سورة النحل.

٢. وأقسم تبارك وتعالى في خمس موارد بكلمة «ربّ».

٣. وأقسم في مورد واحد بنفس «النبي».

٤. وأقسم في ثلاثة موارد بـ«القرآن الكريم».

٥. وأقسم في مورد واحد بـ«الكتاب المبين»، والمقصود هو القرآن الكريم.

٦. وأقسم في مورد واحد بـ«العصر».

٧. وأقسم في مورد واحد بـ«النجم».

٨. وأقسم في مورد واحدبـ«مواقع النجوم».

٩. وأقسم في مورد واحد بـ«السماء» لوحدها.

وفي المجموع توجد في القرآن الكريم خمسة عشر قسماً منفرداً، ونستعرض

في البداية القسم الوارد في سورة النحل:

يقول القرآن الكريم في الآية ٥٦ من سورة النحل:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

تفسير الآية:

كان العرب في الجاهلية يجعلون لأصنامهم، التي لا تنفعهم ولا تضرّهم ولا يصلهم منها خير ولا شرّ، حصّة ممّا لديهم من الطعام وما يملكونه، مثلاً إذا ذبحوا شاة فإنّهم يجعلون حصّة منها للصنم، أو إذا حصدوا المحصول الزراعي فإنّهم يضعون سهماً منه للصنم، وكانوا يعملون بذلك على أساس أنّه من أحكام السماء ومن التعاليم الإلهيّة، في حين أنّ هذا الأمر افتراء محض نسبوه إلى الله، وبهذا فإنّ الله تعالى أقسم بذاته المقدّسة أنّ هؤلاء يحاسبون يوم القيامة على هذا الافتراء وعلى هذه البدعة، وبما أنّهم لا جواب لديهم فإنّ العذاب الشديد ينتظرهم في ذلك اليوم، وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ جملة «ما لا يعلمون» يراد منها الأصنام التي لا عقل لها ولا شعور ولا تفهم شيئاً.

كلام حول اسم «الله»:

إنّ كلمة «الله» من جملة الكلمات التي نتلفظ بها نحن المسلمون كثيراً في الصلاة وفي غيرها، ومن جهة أخرى فإنّ الباري تعالى في هذه الآية الشريفة أقسم بنفسه وبهذه الكلمة المقدّسة، ولذلك فمن المناسب أن نبحث قليلاً في أبعاد وجوانب هذه المفردة.

وتوضيح ذلك: أنّ أسماء الله تعالى على نحوين:

١. الأسماء التي تعكس صفة من الصفات الإلهيّة من قبيل: الرحمن، وتشير إلى الرحمة العامة، والرحيم وتشير إلى الرحمة الخاصّة، والخالق، والتي تتضمن عملية الخلق والإيجاد، والجواد وهي صفة للجود والكرم والبذل و... .

٢. الأسماء التي تجمع في مضمونها جميع الصفات الإلهيّة من العلم والجود والرحمانية والرحيمية والقيومية والقدرة والخالقية، والخلاصة تجمع جميع صفات الله تعالى، وهذا الاسم هو «الله»، ولذلك عندما يبحث المفسّرون في معنى هذه المفردة يقولون: «هو الذات الجامعة لجميع صفات الكمال» ومن هنا فعندما نستعمل كلمة «الله» فينبغي الالتفات إلى معناها الواسع والجامع، بحيث إنّ البعض يعتقد: «إذا اختار الذاكر من بين جميع الأذكار والأسماء الإلهيّة كلمة «الله» فربّما سيواجه مشكلة، لأنّ الترنم بهذا الذكر وبذلك المعنى الجامع يستدعي وجود لياقة خاصّة وقابلية».

النتيجة: أنّ جميع أسماء الله تعالى تعكس كل واحد منها صفة خاصّة من صفاته تعالى، وأمّا كلمه «الله» فهو اسم جامع لجميع صفات الكمال والجمال الإلهيّة.

أصل كلمة «الله»:

ذكر العلماء والمفسّرون، ومنهم المرحوم الطبرسي في مجمع البيان لكلمة «الله» جذوراً وأصولاً متعددة، ونشير هنا إلى ثلاثة منها:

أ) يعتقد البعض بأنّ أصل كلمة «الله» مأخوذة من «ألوهيّة» بمعنى المحبوبية، وبما أنّ الله تعالى هو محبوب العباد، فأطلقت عليه كلمة «الله».

ب) ويذهب بعض آخر إلى أنّ هذه الكلمة مأخوذة من مادة «وَلَـهَ» بمعنى العلاقة الشديدة والمفرطة، والباري تعالى هو الموجود الذي يعشقه الناس ويرتبطون معه بعلاقة عاطفية شديدة.

ج) وذهب آخرون إلى أنّ أصل هذه الكلمة «ألَهَ» بمعنى لجأ واستجار بشيء، وعلى هذا الأساس فإنّ الله تعالى يعتبر ملجأ جميع الملهوفين وملاذ جميع اللائذين، ولا يوجد ملجأ وملاذ أعلى وأسمى منه، بل إنّ سائر الملاجيء التي يلجأ إليها الإنسان غير قادرة على توفير الحماية لهذا الإنسان إلّا بإذن الله ومشيئته.

لماذا القسم بـ «الله»؟

رأينا فيما تقدم تفسيراً إجمالياً للآية الشريفة، ومعنى كلمة «الله» وأصلها اللغوي، والآن ربّما يطرح البعض هذا السؤال: مع الأخذ بالاعتبار المعنى الواسع لكلمة «الله»، فما هو الغرض للقسم بهذه الكلمة المهمّة؟ وبكلمة، ما هو المقسم له؟

الجواب: إنّ المسألة المهمّة التي من أجلها أقسم الله تعالى بنفسه تتمثّل في الافتراء على الله والبدعة في الدين والتي ينبغي التصدي لها من موقع الحسم والحزم، فالشيء الذي ليس من الدين ولا من الإسلام، إذا طرحه البعض على أساس أنّه من تعاليم الدين والإسلام فهذه بدعة.

البدعة المشروعة وغير المشروعة!

ومن جملة الذرائع التي تمسك بها الوهابيون المتشددون والسلفيون، ويتهمون جميع المسلمين وخاصّة الشيعة بذلك هو كلمة البدعة، ولذلك ينبغي طرح تعريف جامع وواضح لهذه الكلمة:

إنّ البدعة على نحوين:

١. **البدعة المشروعة أو الحلال؛** وهي من قبيل الابتكارات والابداعات الفكرية والاكتشافات والاختراعات الجديدة التي يشهدها العالم كل يوم في مجال الصناعة والارتباطات، وسائل النقل، الأسلحة، الفضاء وأمثال ذلك، فهذه الأمور تعدّ من

البدع والأمور الجيدة، ولكنّها لا تعتبر بدعة في دين الله، والعجيب أنّ الوهابيين والسلفيين كانوا إلى فترة وجيزة يخالفون هذه الاختراعات والأجهزة الحديثة على أساس مواجهة البدعة والتصدي لها، فعندما دخلت أول دراجة إلى المملكة العربية السعودية أفتوا بتحريمها وادعوا أنّ هذه الوسيلة مركب الشيطان، وعندما قام الملك (سعود) ولأول مرّة بإنشاء خط الهاتف الذي يربط بين قصره ومعسكر الجيش التابع له، وعلم السلفيون المتشددون بهذا المشروع، حكموا بأنّه بدعة وقاموا بتقطيع أسلاك الهاتف، ولكن الآن لا يوجد أثر أو خبر عن ضيق الأفق هذا، فهؤلاء يعيشون اليوم من رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم في الوسائل الحديثة والأجهزة المتطورة والمستوردة من الغرب، ولكنّهم لحد الآن يعتبرون الكثير من الأمور من البدع في حين أنّها لا ترتبط بالشرع وليست من البدع المحرمة، مثلاً يعتبرون الاحتفال بميلاد النبي الأكرمﷺ بدعة وحرام، وكذلك إقامة مجالس الفاتحة والعزاء على الأموات في يوم الوفاة واليوم الثالث أو يوم الأربعين أو الذكرى السنوية للميت، في حين أننا لا نأتي بهذه الأعمال ولا نشترك بهذه المراسيم على أساس أنّها أوامر من الدين الحنيف، بل على أساس أنّها مصداق لتعظيم الشعائر الإلهيّة.

ومن أجل التمييز بين البدعة المحرمة والابداعات المتعارفة والمباحة، يجب تحديد مفهوم كل منهما، فهل أنّ جميع الأعمال والأشياء التي لم تكن في عصر النبي الأكرمﷺ وتوجد الآن في مجتمعنا المعاصر هي من البدعة المحرمة؟

إذا قلنا بهذا المعنى فحينئذٍ لابدّ من القول إنّ المآذن الموجودة في مسجد النبي، وكذلك السماعات والمكروفونات الموجودة فيه والاساطين والأعمدة، والقبة والقباب المتحركة، وما إلى ذلك ممّا لم يكن في عصر النبي الأكرمﷺ كلها تندرج في البدعة، في حين أنّ الأمر ليس كذلك، لأنّه لا أحد يقول إنّ هذه الأمور تمثّل حكماً شرعياً أو أمراً دينياً، فالمجالس التي تقام لإحياء ذكرى وفاة عزيز من

الأعزاء ويؤدي ذلك إلى تسلية وعزاء أقرباء الميت وتكريم واحترام لشخصية ذلك المرحوم، كل ذلك يعدّ من الأمور العرفية لا أنّها أمر ديني[١].

إنّ مجالس الاحتفال التي تقام لإحياء ذكر العلماء والشخصيات الدينية والسياسية، إنّما هي بمثابة الاعلان عن الشكر والتقدير لأتعاب هؤلاء العظماء لا أنّها صادرة من أحكام الشريعة وتعاليم الدين حتى يقال إنّها بدعة وتواجه بسلاح التحريم والقمع.

النتيجة إنّ الابداعات العرفية والاجتماعية التي تمارس في الوسط الاجتماعي بدوافع مختلفة، ليست حراماً شرعاً.

٢. **البدعة المحرمة**؛ وهي إدخال ما ليس من الدين في الدين، مثلاً النطق بالشهادة الثالثة (أشهد أنّ علياً ولي الله) في الصلاة يعتبر بدعة وحرام، لأننا لا يحق لنا إضافة أي شيء للصلاة أو حذف بعض أجزائها، لأنّ إضافة أي شيء للصلاة على أساس أنّها أمر شرعي أو حذف أي شيء منها محكوم بالحرمة الشرعية ولا دليل لدينا على وجود شهادة ثالثة في التشهد في الصلاة، ولذلك يكون بدعة غير مشروعة، ولم يرد في أية رواية عن المعصومين عليهم السلام ولم يقل أي فقيه من فقهاء الشيعة طيلة التاريخ الإسلامي أنّ هذا العمل جائز شرعاً، وعليه فلو ارتكب شخص هذا البدعة ونطق بالشهادة الثالثة في صلاته، فقد ارتكب عملاً حراماً وتكون صلاته

---

١. سؤال: يلاحظ أنّ البعض يتحركون في مجال الترحيم والفاتحة من موقع الاسراف والتبذير بحيث أحياناً تنفق عدّة ملايين تومان من أجل شراء باقة أو اطار من الورد أو مزهرية توضع على القبر أو تنفق على مجالس الترحيم والاطعام نفقات باهضة بحيث إنّ أصحاب العزاء ينسون حزنهم على فراق عزيزهم.

فهل هذه الأمور تعدّ نوعاً من البدعة؟

الجواب: إنّ كل عمل إذا كان في حدّ الاعتدال يكون حسناً ومناسباً، ولو تجاوز حدّ الاعتدال ومال إلى حدّ الاسراف، فسيؤدي إلى الفساد ويوقع الإنسان في متاهات الخطيئة وحتى الدواء الذي يشفي الإنسان من المرض والذي يكتبه الطبيب للمريض بأن يتناوله في وقت خاص وبمقدار معين، فلو أنّ نسبة الدواء ازدادت عن الحدّ المقرر فإنّه يؤدي إلى مسمومية المريض وأحياناً تؤدي بالمريض إلى الموت، الخلاصة أنّ كل شيء لابدّ وأن يكون بمقدار معتدل، فلو تجاوز حدّ الاعتدال واتجه إلى جهة الافراط فإنّه لا يكون محبّذاً ولا مطلوباً.

باطلة، ويحاسب يوم القيامة.

سؤال: إذا كان هذا العمل غير صحيح وغير مشروع، فلماذا يقول الشيعة بذلك في الأذان والإقامة؟

الجواب: أولاً: لم يقل أي فقيه من الشيعة أنّ الشهادة الثالثة تعتبر جزءً من الأذان والإقامة، بل إنّ جميع فقهاء الشيعة يعتبرون ذكر الشهادة الثالثة في الأذان والإقامة بعنوان التبرك والتيمّن[1].

وثانياً: إنّ الأذان والإقامة ليس حالهما حال الصلاة، ولذلك يجوز التكلّم بين فصول الأذان والإقامة ولا يوجب بطلانهما.

النتيجة إنّ الشهادة الثالثة في الصلاة تعتبر بدعة وحرام، وتؤدي إلى بطلان الصلاة، فضلاً عن الشهادة الرابعة التي يطرحها بعض العوام أي (أشهد أنّ فاطمة الزهراء ولية الله أو عصمة الله)، والولاء والعشق للإمام علي وفاطمة الزهراءعليهما السلام موضوع آخر ولا ينبغي أن تجعل مسألة الولاء لأهل البيت مسوغاً لأعمال غير مشروعة ولا تقوم على أساس منطقي وشرعي.

ولو فتح الباب لدخول مثل هذه الأمور إلى الدين والشرع، فغداً ستظهر شهادة خامسة وسادسة و... الخ، في حين أنّ الأئمة المعصومينعليهم السلام أنفسهم لا يرضون بذلك قطعاً، ولم يرد في عصر الأئمة أنّ أحداً من هؤلاء الأئمة المعصومينعليهم السلام ذكر شهادة غير الشهادة بالتوحيد والشهادة بالرسالة للنبي الأكرمصلى الله عليه وآله في تشهد الصلاة.

النتيجة، أن البدعة بمعنى الابداع والاختراع في الأمور العرفية وبدون نسبتها إلى الشرع والشريعة لا إشكال فيها، وأمّا البدعة بمعنى إدخال شيء ليس من الدين في الدين فغير جائز، وللأسف الشديد أنّ السلفين والوهابيين لم يدركوا الفرق بين هذين الأمرين ولم يميّزوا بين حدود هذين المفهومين.

---

١. الفتاوى الجديدة، ج ١، المسألة ٩١٩.

البدعة في القرآن الكريم:

البدعة في الأمور الدينية تمثّل خطراً يهدد سلامة المنظومة العقائدية والأحكام الشرعية، ونستعرض هنا آيتين من القرآن الكريم من أجل التعرف أكثر على هذا الذنب الكبير:

١. يقول تبارك وتعالى في الآية الشريفة ١٥٩ من سورة الأنعام:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

وقد ورد في الحديث النبوي الشريف أنّ رسول الله ﷺ قال في تفسير: ﴿الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾:

«هُمْ أَصْحَابُ الْبِدَعِ وَأَصْحَابُ الْأَهْوَاءِ، لَيْسَ لَهُمْ تَوْبَةٌ، أَنَا مِنْهُمْ بَرِيءٌ وَهُمْ مِنّي بُرَاءٌ»[1].

أجل! فالأشخاص الذين يتحركون على مستوى تمزيق الدين وهدم أركانه من خلال إثارة البدع فيه، هؤلاء يخلقون شقاً في الدين ويتسببون في إيجاد الاختلاف والتفرقة بين الناس، وكمثال على ذلك بدعة الشهادة الثالثة في تشهد الصلاة في باكستان، حيث ذهب البعض إلى جواز هذه البدعة، وخالف البعض الآخر هذا العمل، وتدريجياً اشتد الخلاف بين الناس إلى أن وصل إلى حدّ التكفير والاتهام بالخروج من الدين، وطبعاً فإنّ العلماء والفقهاء مستثنون من هذه القاعدة ولكنّ بعض العوام من الناس الذين هم مصداق الآية الشريفة والحديث النبوي يتحركون في خط الافراط والعناد لإدخال الشهادة الثالثة في الصلاة تبعاً لأهوائهم، وبوحي من جهالتهم.

واللافت، طبقاً للحديث النبوي المذكور فإنّ توبة مثل هؤلاء الأشخاص غير

---

١. ميزان الحكمة، باب ٣٢٨، ح ١٦٣٠.

مقبولة لأنّ التوبة لا تتحقق بقول أستغفر الله والندم القلبي فقط، بل يجب أن يتحرك التائب من موقع جبران أخطائه وذنوبه السابقة والعمل على إصلاحها.

والشخص الذي يخلق بدعة في الدين ويدعو آلاف الأفراد للعمل بها، فكيف يمكنه جبران ما فات وإخبار هؤلاء الأشخاص بذلك حتى يغسل الذنب الذي ارتكبه، فضلاً عن أنّ بعض العوام إلى درجة من العناد والتمرد بحيث إنّهم حتى لو سمعوا اعتراف صاحب البدعة بخطئه وندمه، فإنّهم لا يقبلون منه.

والسبب في الموقف المتشدد للإسلام من البدعة، أنّ البدعة تضرب أساس الدين وتستهدف قلبه وأصله، وعندما تزداد البدع فإنّ الدين نفسه يتعرض لخطر الاهتزاز والاضمحلال والتشويش.

٢. ونقرأ في الآية الشريفة ١٤٤ من سورة الأنعام:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

إنّ أصحاب البدع وبسبب هذا الذنب العظيم يظلمون أنفسهم من جهة، ويظلمون الآخرين بتحركهم في خط الضلالة والانحراف، وكذلك يظلمون الدين بما أدخلوا فيه ما ليس منه وبما عملوا على تشويش صورته وتحريف معالمه وتلويث أحكامه.

ومع الأخذ بالحسبان التعابير الشديدة في الآيات القرآنية تجاه البدعة، ينبغي **أولاً:** معرفة حدود البدعة وتمييزها من الإبداعات في المجالات العرفية.

وثانياً: أن نجتنب البدعة المحرمة بشدّة.

سؤال: أحياناً يثير البعض هذا الإشكال، وهو أنّ مواكب العزاء وطريقة الشيعة في إقامة المآتم على مصائب أهل البيت عليهم السلام من اللطم على الصدور وضرب السلاسل وأمثال ذلك، يعدّ بدعة وحراماً، ويجب اجتنابه، فلماذا يواصل الشيعة هذا العمل المحرم؟

الجواب: إنّ أصل إقامة مراسم العزاء وطبقاً للروايات الكثيرة جائز قطعاً[1]، ومن مصاديق الأمور العرفية التي لا نسندها إلى الشارع المقدّس، ولا نقيمها على أساس أنّها من أحكام الشرع، وعليه فنحن لم نرتكب البدعة بمعنى (إدخال ما ليس من الدين في الدين). وطبعاً نحن نوصي الأعزاء المشتركين في هذه الهيئات والمآتم أن يراعوا أصلين مهمين:

الأول: أن يكون هذا العزاء وإقامة مراسم المأتم بشكل لا يضرّ بأبدانهم.

والآخر: اجتناب كل ما من شأنه تعريض المذهب للوهن والاهتزاز في نظر الأجانب، ومع رعاية هذين الأمرين في إقامة مراسم العزاء والمأتم، فإنّ هذا السلوك ليس فقط لا يمثّل بدعة ولا إشكال فيه، بل هو من مصاديق تعظيم الشعائر الإلهيّة ويعدّ من أفضل القربات.

وظيفة العلماء في مقابل البدع:

ورد في الحديث النبوي الشريف أنّ رسول الله ﷺ بيّن وظيفة العلماء والفقهاء في مقابل البدع والمبدعين وقال:

«إِذَا ظَهَرَتِ الْبِدَعُ فِي أُمَّتِي فَلْيُظْهِرِ الْعَالِمُ عَلْمَهُ فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ»[2].

منشأ المشكلات في الجاهلية:

إنّ العرب في الجاهلية كانوا يعيشون مشاكل عديدة، وهذه المشاكل تمتد بجذورها إلى عوامل وأسباب مختلفة، ولكن هناك عاملين أساسيين في بروز تلك المشاكل والأزمات الاجتماعية والأخلاقية:

---

١. بحارالانوار، ج ٤٤، ص ٢٥٢و٢٥٣؛ ج ٤٣، ص ٢٣٩؛ ج ٤٥، ص ١٤٢؛ ج ٣٦، ص ٣٩٠و٣٩١.
٢. بحار الأنوار، ج ١٠٥، ص ١٥.

١. **الخرافات**؛ فقد كان العرب في الجاهلية يعيشون أنواع الخرافات التي أفرزتها أذهانهم الصغيرة وأفقهم الضيق، وكانت نتيجتها الوقوع في الكثير من الأزمات والمآزق.

٢. **البدع**؛ فقد كان أعراب الجاهليّة يعتقدون بدين خاص وبالرغم من أنّ هذا الدين قد تعرض للتحريف والتحوير ولكنه بالنسبة إلى الأديان الأخرى يتضمن بدعاً كثيرة ومختلفة. ومن جملة تلك البدع تحريم بعض الأطعمة من قبيل تحريم بعض اللحوم والخبز وأمثال ذلك وتقديمها بشكل خاص إلى الأصنام، وقد تقدّم بعض الكلام عن هذا الموضوع فيما سبق.

وأحد الأمور الذميمة الأخرى لهؤلاء الجاهليين، قتل أبنائهم وخاصة البنات، وهذه البدعة القبيحة والوحشية لها ثلاثة عوامل:

أ) إنّ العرب في ذلك الوقت كانوا يعتبرون البنات مصدراً للعار والخزي والفضيحة، ولهذا كانوا يدفنوهنّ أحياء ويفتخرون بهذه الجريمة البشعة حيث تشير الآية إلى هذه الحقيقة وتقول: ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾[1].

ب) العامل الآخر، الفقر والمسكنة، فمن أجل التخلص من الفقر المدقع والعوز الشديد في المال والطعام كانوا يقتلون أبناءهم، والآية الشريفة تشير إلى هذا المعنى وتقول:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾[2].

وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[3].

ج) العامل الثالث لظهور هذه البدعة الخطيرة في الوسط الاجتماعي، التقرب إلى الأوثان التي لا تضرّ ولا تنفع، فالعرب في الجاهلية كانوا لا يكتفون بتقديم القرابين

---

١. سورة التكوير، الآية ٩.
٢. سورة الاسراء، الآية ٣١.
٣. سورة الأنعام، الآية ١٥١.

من الأضاحي والأنعام والإبل، بل أحياناً كانوا يقدّمون أبناءهم ويـذبحونهم عـلى أقدام الأصنام، تقول الآية الشريفة: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ﴾[1].

وعلى ضوء ذلك فإنّ هذه البدع الكثيرة قد سلبت راحتهم وشـوشت أذهـانهم ودمرت اقتصادهم وكان لهـا دور مـخرب فـي حـياتهم الاجـتماعية والأخـلاقية والثقافية، ولهذا نرى أنّ القرآن الكريم يتحدّث في تسع آيات قرآنية عـن البـدعة بعبارة ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ﴾.

وعليه فمهما تحدّثنا عن قضية خطأ البدعة والافتراء على الله كان ذلك قليلاً ولا يفي بالمطلوب لأهميّة هذا الموضوع، فعلى الجميع أن يلتزموا جوانب الحذر مـن هذه الظاهرة الخطيرة حتى لا يتورطوا في إلحاق الظلم بأنفسهم وبالأشخاص الذين يعملون بهذه البدع، وكذلك يظلمون دينهم ورسالتهم السماوية.

البدعة الخاصّة والعامّة:

أشرنا فيما سبق إلى وجود معنيين للبدعة، البدعة الخـاصة، والبـدعة العـامة، والمقصود بالبدعة الخاصة هو ما ورد النهي عنها في الآيات القـرآنـية وروايـات المعصومين ﷺ وورد في النصوص ذمّ العامل بها والمبتدع لها، وهذه البدعة هي ما وصفها علماء الدين في تعريفها بأنّها: (إدخال ما ليس من الدين في الدين).

فممّا لا شك فيه أنّ هذا النوع من البدعة حرام، وقـد أقـام المـرحـوم الشـيخ الأنصاري ﷺ في كتابه القيم (الرسائل) في بحث حجيّة الظن أربعة أدلة من القرآن والروايات والعقل والإجماع على حرمة هذا اللون من البدعة.

والملفت للنظر أنّ أحد علماء أهل السنّة ألف كتاباً حول البدعة وقسم البدعة

---

١. سورة الأنعام، الآية ١٤٠.

إلى خمسة أقسام: البدعة المحرمة، البدعة الواجبة، البدعة المكروهة: البدعة المستحبة، البدعة المباحة، وضرب مثالاً لكل واحد منها مع شرحها وبيان تفاصيلها، في حين أنّ البدعة التي بمعنى (إدخال ما ليس من الدين في الدين) ليس لها أكثر من حكم واحد وهو الحرمة، ولا يمكن تقسيمها إلى أقسام أربعة أخرى، (واجب ومستحب ومكروه ومباح).

وعلى هذا الأساس فالبدعة الخاصّة حرام، والمقصود من البدعة الواردة في المعارف والأحكام الدينية هو هذا القسم منها.

وأمّا المقصود من البدعة العامّة، فهي كل نوع من الإبداع الفكري والعلمي والأدبي والصناعي، الاقتصادي، النظامي، الاجتماعي، الطبي وأمثال ذلك من العلوم والفنون المختلفة، ولا أحد يعتقد بحرمة هذا النوع من البدعة والإبداع، لأنّ ترقي العلوم وتطور المعارف البشرية يتوقف على هذه الإبداعات، فالبلدان المتطورة هي البلدان التي تعيش كمّاً هائلاً من هذه الإبداعات في المجالات العلمية المختلفة ويتحرك الخبراء والعلماء في تلك البلدان على مستوى اكتشاف واختراع الوسائل والأجهزة المختلفة كل يوم، ومن هنا عندما يبتكر علماؤنا الشبّان ابتكاراً علمياً جديداً فنشعر بالفرح الشديد يستولي على كل وجودنا.

وعملية الإبداع هذه ربّما تمتد إلى المسائل الدينية أيضاً، ولكن لا ينبغي أن ننسب ذلك إلى دين الله تعالى، وحينئذٍ لا إشكال فيه، إنّ مسجد النبي في المدينة المنورة عندما بناه رسول الله ﷺ لم يكن سوى أربعة جدران بارتفاع قامة الإنسان فلا سقف ولا عمود ولا اسطوانة ولا فراش ولا مكان للوضوء، ولا مكان للتطهير، ولا يوجد فيه أجهزة التبريد والتدفئة، وليس هناك أقفاص ورفوف للقرآن، ولا أحجاز مرمر، ولا أبواب مرصعة وجميلة، ولا مآذن عالية، ولا قبة خضراء، ولا ساعة، ولا سماعة ولا أي شي آخر ممّا هو متوفر الآن، وبعد عصر النبي الأكرم ﷺ وعصر الأئمّة عليهم السلام وبعد الأعصار الأخرى إلى زماننا هذا فإنّ هذا المسجد يشهد

إضافات كل يوم، حتى أصبح في هذا الزمان من أضخم مساجد الدنيا، ولم يطرح القائمون على هذا المسجد والذين أضافوا إليه تلك الإضافات الكثيرة أنّ ذلك من أحكام الدين وأنّ عملهم هذا من أمر الدين والشرع المقدّس، ولذلك لا إشكال في عملهم المذكور، لأنّ ما يحرم إحداث التغيير فيه هو الأحكام الإلهية والحلال والحرام في الشريعة[1]، وأمّا اجراء التغيير في الأمور العرفية وفي إطار الابداعات والاختراعات الجديدة فلا إشكال فيه.

النتيجة أنّ البدعة بالمعنى الخاص هي حرام شرعاً ولا حكم آخر لها، أمّا البدعة بالمعنى العام فهي حلال وإن كان من المحتمل وجود أحكام أخرى لها باختلاف العناوين.

نتائج البدعة وعواقبها!

للبدعة نتائج سلبية وعواقب وخيمة، ونحن نشير هنا إلى جملة منها:

أ) تقاطع البدعة مع التوحيد

إنّ أغلب الأعمال والسلوكيات الذميمة والصفات القبيحة في الإنسان ناشئة من

١ـ سؤال: إنّ المنارة غير مشروعة للمسجد، لأنّه ورد في الرواية التي ينقلها صاحب الوسائل، ج ٣، من أبواب أحكام المسجد، ج ٢، أنّ الإمام علياً عليه السلام كان ماراً من مكان فرأى مسجداً له منارة عالية، فأمر بهدمها، وعليه فلايجوز بناء منارة للمسجد.

الجواب: أوّلاً: إنّ الرواية المذكورة ضعيفة السند، وعليه لا يمكن الاستناد إليها.

ثانياً: هناك عدّة فوائد للمنارة أو المئذنة، وهي:

أ) إنّ المنارة تعتبر معلماً جيداً للعثور على المسجد،فالغريب الذي يرد مدينة قم أو مشهد، فعندما يرى المنارات والقبة للمرقد الشريف فسوف يجد الطريق لمكان المرقد بسهولة ولا يحتاج للسؤال.

ب) المنارة مفردة عربية، وتعني محل النور والضياء، وعليه فالنور الذي ينبعث منها في الليل يضيء أطراف المسجد ويؤدي أيضاً إلى العثور على المسجد في الليل بسهولة ويسر.

ج) المنارة مكان الأذان، ولهذا يقال لها مئذنة، فإذا تقرر الإتيان بالأذان في باحة المسجد، أو تمّ نصب السماعة في باحة المسجد فقط فسوف يصل صوت الأذان لعدد محدود من الناس، ولكن إذا أذيع الأذان من فوق المنارة والمأذنة فسوف يسمعه عدد كبير من الناس.. أضف إلى ذلك عدم وجود دليل على حرمتها.

نقصان أصل التوحيد ومعرفة الله، وللتوحيد فروع مختلفة:

توحيد الذات، توحيد الصفات، وتوحيد الأفعال. وتوحيد الأفعال بدوره يتفرع إلى فروع وأقسام متعددة من قبيل: توحيد الحاكمية، توحيد المالكيّة، توحيد الخالقيّة وأمثال ذلك. أمّا توحيد الحاكميّة التشريعيّة والتي هي أحد فروع التوحيد الأفعالي، فالمقصود بها أنّ وضع الأحكام التشريعية منحصر بالذات المقدّسة، ولا أحد غير الله تعالى يحق له تشريع الأحكام، حتى النبي الأكرمﷺ ليس له جعل الحكم إلّا باذن الله، والإمام المعصوم أيضاً لا يحق له ذلك إلّا باذن الله تعالى، وعليه فجميع الأحكام الشرعية صادرة عن الله تعالى فهو الحاكم المطلق على عباده.

وضمن هذا المنحى فإنّ صاحب البدعة يبيح لنفسه جعل القانون والتشريع، ثم ينسبه إلى الله تعالى، وعمله هذا يتقاطع مع التوحيد في حاكمية التشريع، ولا ينسجم مع هذا الأصل العقائدي.

ب) البدعة عامل الفرقة!

إذا قرأتم الكتب المؤلفة في موضوع المذاهب الإسلامية والمختلفة ومنها كتاب «الملل والنحل» للشهرستاني، فسوف ترون كثرة ما تفرع عن الإسلام من مذاهب وتيارات ومدارس، والسبب في كل هذه الفرقة والاختلاف في المذاهب، وبعضها لم تسمعوا بها لحدّ الآن هو ظهور البدع المختلفة في الدين، وقد تقدّم الكلام في هذا الموضوع في شرحنا للحديث النبوي الوارد في ذيل الآية ١٥٩ من سورة الأنعام.

ج) البدعة وفناء الدين

إذا تقرر أن تقوم كل جماعة وفرقة في أي منطقة وضع الأحكام الدينية طبقاً لأفكارها وأذواقها، وتنتقل هذه البدع من جيل إلى جيل فبعد عدّة أجيال ستتغير

معالم الدين كلياً وتضمحل أصوله وتمسخ تعاليمه الحقيقية من جراء هـذه البـدع، ولهذا يقول الإمام علي عليه السلام: «مَا هَدَمَ الدِّينَ مِثْلُ الْبِدَعِ»[1].

د) البدعة واتباع الأهواء

ويقول الإمام علي عليه السلام طبقاً للرواية الواردة في كنز العمال:

«وَأَمَّا أَهْلُ الْبِدْعَةِ فَالْمُخَالِفُونَ لِأَمْرِ اللهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ، الْعَامِلُونَ بِرَأْيِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ وَإِنْ كَثُرُوا»[2].

فأهل البدع هؤلاء يعتقدون بأنّ في الإسلام نقصاً وقصوراً عن تلبية حـاجات الناس وإيجاد الحلول لمشاكلهم وأنّ الأحكام الشرعية قاصرة عن رفـد الإنسـان والمجتمع بالأحكام الشرعية في جميع مناحي الحياة، ولذلك يتحركون من مـوقع جعل القوانين والأحكام والبدع المختلفة.

ومع الأسف أنّ أهل البـدع في عـصرنا الحـاضر وتـبعاً لتسـويلات أنـفسهم وأهوائهم، قد خلقوا بدعاً كثيرة ومتنوعة، وأخيراً أخذوا يتلون القرآن مع أصوات الموسيقى التي لا تتناسب مع جو القرآن، وقد تحقق ما تنبأ به رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال: «أَنْ تَتَّخِذُوا الْقُرْآنَ مَزَامِيرَ»[3].

ونموذج آخر لهذه البدع ما يقوم به بعض المدّاحين الجهلاء من العوام، فـنحن نكنّ احتراماً خـاصّاً للـمداحـين المـخلصين لأنّ الأئـمّة المـعصومين عليهم السلام كـانوا يعاملونهم باحترام وتقدير ويؤيدون عملهم ويشجعون عليه، ولكن للأسف فـهناك جماعة نفذت في أوساط هؤلاء المداحين كما هو الحال في كل طائفة وفئة مـن

---

١. ميزان الحكمة، باب ٣٢٧، ح ١٦٢٦.

٢. المصدر السابق، باب ٣٢٩، ح ١٦٣٢.

٣. وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٢٢٩.

الناس، وقامت هذه العناصر الدخيلة بقراءة الأشعار والمراثي بألحان الأغاني المتحللة وغير المناسبة، هؤلاء يسمعون هذه الألحان والأنغام الموسيقية من الاذاعات الأجنبية ويصبون المراثي في قوالبها، وهذه البدعة الشائنة أدت إلى تحويل مجالس العزاء والمصيبة إلى مجالس طرب وفرح.

إنّ جميع الناس يتحملون المسؤولية في مواجهة هذه البدع وأصحابها والتصدي لهم من موقع النهي عن المنكر، وطبعاً فإنّ وظيفة العلماء والفقهاء أشد.

هـ) أعمال أهل البدع غير مقبولة!

وجاء في الحديث الشريف المثير عن رسول الله ﷺ أنّه قال:

«إِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ لِصَاحِبِ بِدْعَةٍ صوماً وَلَا صَلَاةً وَلَا صَدَقَةً وَلَا حَجّاً وَلَا عُمْرَةً وَلَا جِهَاداً»[١].

لأنّ مثل هؤلاء الأشخاص يعملون على تلويث دين الله وتحريف أحكامه، ومن هنا فإنّ الله تعالى لا يقبل أعمال وعبادات هؤلاء الأشخاص المخربين والملوثين لدينهم.

مصدر البدعة:

نعتقد بأنّ مصدر البدع يمتد إلى مقولة التفسير بالرأي والقراءات الجديدة، فأهل البدع يفسّرون الآيات القرآنية طبقاً لميولهم وأهوائهم وبوحي من ذهنياتهم ورغباتهم وبعد ذلك يطرحون بدعة تتفق مع ذلك التفسير أو القراءة، وهناك كلام معروف بين المتصوفة، يقولون: إنّ الإنسان عندما يصل إلى مقام الإيمان الكامل ومرتبة القرب إلى الله فلا يجب عليه إقامة الصلاة والصوم وسائر العبادات الشرعية، ويستشهدون بذلك بالآية الشريفة ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[٢]، لأنّ الآية

---

١. ميزان الحكمة، باب ٣٣٢، ح ١٦٤٥.

٢. سورة الحجر، الآية ٩٩.

المذكورة تقرر وجوب العبادة حتى يصل الإنسان لمقام اليقين، وبعد ذلك لا يجب عليه شيء، في حين أن بطلان هذا الفهم والتفسير الخاطىء والذي يمتد في منشأه إلى البدعة، واضح، فلو كان هذا الكلام صحيحاً فلماذا كان رسول الله ﷺ يقيم الصلاة إلى آخر يوم من عمره الشريف،وحتى عندما كان على فراش المرض في أيّامه الأخيرة طلب من أصحابه أن يعينوه للذهاب إلى المسجد والصلاة هناك والحديث مع المسلمين، فهل النبي لم يصل إلى مقام اليقين ووصل إليه أقطاب الصوفية؟!

إذا كان هذا الكلام صحيحاً فلماذا كان الإمام علي عليه السلام يتحرك في خط العبادة والطاعة إلى آخر لحظات حياته وقد استشهد في محراب العبادة أثناء الصلاة؟ هل هذا الإمام لم يصل إلى مقام اليقين ومرتبة القرب إلى الله ووصل إليه بعض الصوفية؟!

إذا كان هذا التفسير صحيحاً فلماذا نرى الإمام الحسين عليه السلام وقف يوم عاشوراء في ذلك الجو الحار وفي ميدان القتال للصلاة هو وأصحابه، حتى أنّ بعض أصحابه استشهد بين يديه وهو يدفع السهام عنه؟

هل هؤلاء الشهداء وإمامهم العظيم أبو عبدالله الحسين عليه السلام لم يصلوا إلى مقام اليقين والقرب إلى الله، ووصل إليه أهل البدع هؤلاء؟!

الحقيقة أنّ هؤلاء الجهلاء فسّروا الآية تفسيراً خاطئاً وبالتالي ارتكبوا هذه البدعة الشائنة، لأنّ كلمة اليقين في الآية الشريفة لم ترد بمعناها المتداول بل جاءت بمعنى (الموت) لأنّه لا شيء يعلم به الإنسان يقيناً كالموت، فجميع أفراد البشر على اختلاف آرائهم ونظراتهم في المسائل العقائدية يرون أنّ الموت أشد الأمور يقيناً في ذهن الإنسان، وعلى ضوء ذلك فاليقين في الآية الشريفة يعني الموت، فقد أمر الله تعالى جميع المسلمين أن يتحركوا في خط العبادة والطاعة إلى آخر لحظة من حياتهم.

النتيجة، أن التفسير بالرأي والقراءات الجديدة هي المنشأ للبدع.

٢

والقسم الثاني في سورة النحل

القسم الثاني المنفرد، الذي أقسم الله تعالى بذاته المقدّسة، أي «الله»، هو ما ورد في الآية ٦٣ من سورة النحل حيث تقول الآية:

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

المقسم به في هذه الآية:

في هذه الآية الشريفة ورد القسم بالذات المقدّسة «الله» المستجمع لجميع الصفات الكماليّة والجمالية، وقد تقدّم في البحوث السابقة بعض الكلام حول هذا الموضوع فلا حاجة لتكراره، والغاية من هذا القسم أي المقسم له، هو أنّ الله تعالى لا يعاقب أي أمّة أو قوم إلّا بعد اتمام الحجّة عليهم وإرسال الرسل إليهم، فالأنبياء الإلهيين جاءوا للبشر وعلّموهم أحكام الشريعة وتعاليم الدين وأتمّوا الحجّة عليهم، فإذا تحرك البعض في خط المخالفة والعصيان والتمرد فإنّ يستحق العقوبة الإلهيّة.

وتأسيساً على ذلك فالأمر الذي ورد القسم لأجله مهم، وكذلك ما أُقسم به، وهو كلمة «الله». فمن جهة أنّ كلمة «الله» في غاية الأهميّة، ومن جهة أخرى «إتمام الحجّة» أيضاً.

اتمام الحجّة ببعث الأنبياء:

وهذا الموضوع مهم جدّاً، لأنّه يبحث في علم «أصول الفقه» وكذلك يبحث أيضاً في «علم الكلام» و«علم الفقه».

وتوضيح ذلك: إنّ الله تعالى أتم الحجّة علينا بطريقين، وبعبارة أخرى: إنّه تعالى أرسل إلينا نوعين من الرسل والأنبياء:

١. **الرسول الباطني**؛ وهو عقل الإنسان ووجدانه، فالعقل لدى الفقهاء يعتبر أحد الأدلة الأربعة، والعقل يعتبر الدليل الوحيد القابل للاعتماد في المسائل العقائدية والكلامية، أجل، إنّ الله تعالى أتمّ الحجّة على البشر بوسيلة العقل والرسول الباطني.

٢. **الرسول الظاهري**؛ والذي يعبر عنه أحياناً بالعقل الظاهر، وطبقاً لما ورد في المأثور إنّ الله تعالى أرسل ١٢٤ ألف نبياً لهداية البشرية على طول المسار التاريخي.

ولكنّ النقطة المهمّة هنا أنّ الكثير من تعاليم الأنبياء يمكن فهمها وإدراكها بالعقل ومن ذلك يمكن الإشارة إلى المستقلات العقلية، ومن هذه المستقلات العقلية حسن الإحسان وقبح الظلم، ولا يوجد عاقل في أي زمان ومكان يتردد ويشك في قبح الظلم والعدوان على الآخرين وحسن الإحسان وإسداء الخير للآخرين، فحتى لو لم يسمع الإنسان بأي نبي ولم تصله تعاليمهم السماوية، فإنّه يدرك هذا الأمر بعقله وفطرته، والكثير من الواجبات والمحرمات تعتبر من مصاديق هذين العنوانين.

الغصب، السرقة، قتل النفس البريئة، الغيبة، هتك حيثية الآخرين، الغش في المعاملات، التطفيف في الميزان، الرشوة، الكذب، الخيانة وأمثال ذلك حرام بحكم العقل حتى لو لم تصلنا تعاليم أي نبي من الأنبياء الإلهيين في تحريم هذه الأمور، فإننا ندرك حرمتها بوضوح لأنّها جميعاً من مصاديق الظلم وفروعه، سواء الظلم للنفس أم الظلم للآخرين، فكلاهما قبيح.

والكثير من الواجبات ندركها بحكم العقل أيضاً، فالعقل يأمرنا باجتناب مصاديق الظلم وفروعه، ويأمرنا بإتيان مصاديق الإحسان وإسداء يد المعونة للآخرين وأننا مسؤولون في مقابلهم، وربّما يؤاخذنا الله تعالى إذا لم تمتثل أوامر العقل، ولكنّ المستفاد من الآيات القرآنية أنّ الله تعالى ما لم يبعث نبياً إلى قوم أو مجتمع فإنّه لا يعاقبهم، حتى في صورة مخالفتهم للمستقلات العقلية أيضاً وهذا هو منتهى اللطف الإلهي، أي أنّ حكم العقل لوحده لا يكفي للعقوبة، بل يجب إتمام الحجّة بواسطة حكم الشرع، وحينئذٍ فمن يخالف هذا الحكم يستحق العقوبة.

وقد أشار القرآن الكريم في أكثر من آية إلى هذا المعنى، وقلّما بحث هذا الموضوع علماء الكلام، ومن جملة الآيات ما ورد في الآيتين الشريفتين ١٥ و١٦ من سورة الاسراء:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً * وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾.

وطبقاً لهاتين الآيتين، فما لم يبعث الله نبياً لقوم من الأقوام وما لم يتمّ ذلك النبي الحجّة عليهم فإنّ الله تعالى لا يعذبهم حتى إذا حكمت عقولهم بحسن أمر معين أو قبحه، وإذا أراد الله تعالى إنزال العقوبة بقوم أو جماعة من الناس فلا يحتاج لحشد قوى السماء والأرض، بل يكفي أن يرسل صاعقة عليهم، وعلى حدّ تعبير القرآن «صيحة سماوية» وبلحظة يتبدل كل شيء إلى رماد، أو يرسل عليهم اعصاراً مدمراً مدّة سبعة أيّام ليدمر كل شيء، أو يأمر الأرض، التي تعتبر بمثابة المهد للإنسان، أن تتحرك حركة خفيفة «زلزلة» فينهدم في تلك المدينة كل شيء وينقلب رأساً على عقب، وهذا نوع من إظهار القدرة من قِبل الله تعالى في مقابل البشر الضعيف المغرور.

النتيجة، أنّ الله تعالى بعث لكل إنسان رسولاً من داخله يسمّى (العقل) ورسولاً من خارجه يسمّى (النبي)، وما لم يتمّ النبي الظاهر الحجّة على هذا الإنسان فإنّ الله لا يعاقبه ولا يستجعل في إنزال العقاب على الناس.

تسويلات شيطانية:

وقد تحدّثت الآية مورد البحث، وهي الآية الثانية التي ورد فيها قسم منفرد، عن تسويلات الشيطان وطريقة تزيينه للمعاصي، أي أنّ الشيطان ومن أجل إغواء الناس يقوم بتزيين القبائح وإظهارها بشكل محاسن، والمحاسن يظهرها بشكل قبائح، كيما يرتكب الناس المحرمات على أساس ظاهرها الخداع والجميل ويتركون الواجبات التي ارتدت لباس القبيح.

وينطلق القرآن الكريم في ست من آياته للحديث عن تزيين الشيطان لأعمال البشر، وفي بعض الآيات وردت كلمة «سوّل» وهي من مادة «تسويل» ولها معنيان:

١. التشويق.

٢. التزيين، وإلباس الفعل ثياب جميلة وبرّاقة. ونقرأ في قصّة النبي يوسف عليه السلام عندما اجتمع إخوته وألقوه في غيابة الجب وذهبوا بقميصه الملطخ بدم الشاة إلى والدهم ليلاً وهم يذرفون الدموع كذباً وقصّوا عليه قصّة أكل الذئب ليوسف، فقال لهم يعقوب عليه السلام:

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

وقد نستوحي من هذه الآية الشريفة أنّه ليس فقط الشيطان يسول للإنسان بل إنّ النفس تسول للإنسان وتزين له القبائح والرذائل، وبما أنّ الإنسان يعيش الميل والانجذاب بطبعه وفطرته إلى الجمال وإلى الفضائل والمحاسن، ويكره القبائح والرذائل، فإنّ الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء يزيّنان لهذا الإنسان الذنوب لإغرائه بارتكابها والتلوث بها، ويعملان على اظهار الواجبات والفضائل بمظهر قبيح حتى يبتعد عنها الإنسان ويتركها.

تسويلات شياطين العصر:

وأحد الكلمات الجذابة والجميلة كلمة «الحرية» فلا أحد من البشر يؤيد الأسر

والسجن وتقييد الحريات، ولذلك تقوم الشياطين بتزيين الكثير من الأعمال القبيحة بذريعة الحرية وسوق الناس إلى مستنقع المحرمات بهذه الحجّة.

وربّما يصدر هذا العمل من التزيين بواسطة الشيطان أو هوى النفس أو بالتعاون فيما بينهما، فأتباع الهوى قرروا إمضاء معاهدة (إزالة اشكال التمييز بين الرجال والنساء) والتي تتضمن قوانين وأحكاماً خاصّة، وهذا الاسم أو هذه العبارة لفتت أنظار الجميع إليها، ولكن عندما تقرؤون فحوى هذه اللائحة سترون أنّ النساء وفي إطار مفهوم الحرية يذهبنَ إلى الفحشاء والفساد، وللأسف فإنّ بعض بلدان الجوار، ومن أجل أن ينضموا إلى بعض التشكيلات الغربية والمنظمات الاوربية اضطروا لإمضاء هذه اللائحة وعملوا على إشاعة الفحشاء والفساد في بلداهم وبأيديهم. أجل فإنّ الشيطان وهوى النفس يزينان للإنسان الفحشاء والتحلل الأخلاقي بلباس الحرية، ويدعوان الناس إلى سلوك خط الانحراف والباطل باسم الحرية، ولكن هذه ليست حرية بل هي عين الوقوع في أسر الأهواء وسجن الشهوات وإن كانت باسم جميل جذّاب.

إنّ تسويلات الشيطان أحياناً تكون من الشدّة بدرجة أنّ نواب المجالس التشريعية لبعض الدول يقرّرون قانون المثلية ويبيحونها للناس، حتى إذا واجه هؤلاء المثليون بعض المعترضين عليهم فإنّ القانون سيحاكم ويعاقب هؤلاء المعترضين.

إنّ الحرية إنّما تكون مطلوبة ومحبّذة فيما إذا قادت الإنسان في خط السعادة والفلاح، وإلّا فإن الحرية المنفلتة والتي لا تتضمن سعادة الناس ولا تنفعهم في سلوك طريق الفضيلة بل تؤدي بهم للسقوط في فخ الرذيلة ومستنقع الخطيئة، فلا ينبغي التمسك بها، ولا ينبغي ترك الناس يسقطون في هوة الذنوب والخطايا بذريعة الحرية، إنّ الحرية لابدّ لها من إطار وحدود، لأنّ حرية الإنسان تختلف عن حرية الحيوانات في الغابة.

ومن جملة الكلمات البراقة والألفاظ الجميلة الأخرى (التمدن والتحضر) وفي مقابلها (التوحش والبربرية) فلا أحد من الناس يخالف التمدن ويعترض عليه، ولكن للأسف الشديد نرى في عالمنا المعاصر أنّ المدّعين للتمدن والتحضر هم أكثر الناس وحشية وبربرية، وكأنّهم سبقوا الجميع للتوغل في وادي التوحش.

ومن الكلمات الجميلة «التفكير بالمستقبل» فالشيطان يضع البخل في لفافة من هذه الكلمة الجميلة ويخدع البخيل بها بذريعة أنّك لاينبغي أن تتحرك على مستوى الإنفاق وبذل المال للفقراء والمحتاجين لأنّ ذلك يتقاطع مع مستقبل أهلك وأطفالك.

الأشخاص الجبناء بدورهم يعملون على تغطية هذه الرذيلة بظاهر براق يدعى بـ «الاحتياط»، فيقول الشيطان لهؤلاء «لا ينبغي للإنسان أن يوقع نفسه في الهلكة»، أجل فالشيطان يزين «الجبن» بثياب «الاحتياط».

عندما كان العرب في الجاهلية يدفنون بناتهم أحياء في التراب، ومن أجل التغطية على صيحات الوجدان وخنق أنفاس الضمير وتكميم أفواه المعترضين فإنّهم يزينون عملهم هذا بكلمة «الغيرة» فكانوا يقولون إنّ بناتنا تعرضت للأسر في الحرب الفلانية، وبعد أن انتهت الحرب ووقعت الهدنة والصلح بين الطرفين طالبنا بناتنا الأسيرات، فرأينا أنهنّ قد تزوجن من أعدائنا وولدن لهم أولاداً، ولذلك لم يقبلن بالعودة إلينا وقد أصبحنا مورد استهزاء الناس وسخرية القبائل العربية، ولهذا السبب ومن أجل أن لا تقع بناتنا أسرى بيد الأعداء فإننا نقوم بدفنهن أحياء.

أجل! هؤلاء ارتكبوا، تحت مظلّة الغيرة والدفاع عن الشرف، أشنع الجرائم في حق الإنسان والكرامة والشرف.

المعصية في ثوب العبادة!

ويتحرك الشيطان والأهواء النفسية في عملية التسويل وتزيين الأعمال إلى

درجة أنّهما يلبسان الذنب لباس العبادة، حتى يسقط الإنسان في أسر الذنوب وفي مستنقع المعاصي بذريعة العبادة وبريق الطاعة، والقرآن الكريم يعبر عن هذه الحالة بعبارات جذابة وفي ذات الوقت منذرة ومحذرة ويقول:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً﴾[1].

على سبيل المثال تقام بعض العبادات في إطار حفلات ميلاد الإمام المهدي(عج) ولكنها سرعان ما تتلوث بالذنوب وتتحرف عن مسيرها الصحيح، وربّما تقام في مجالس نسوية حفلة ميلاد للأولاد، ولكن سرعان ما تتبدل إلى حفلة مجون ورقص وطرب، وهكذا تلبس المعصية لباس العبادة والطاعة.

كان أحد خطباء المنبر في مدينتنا وهو شخصية محترمة يقول للناس على المنبر: «أيّها الناس أنا لا أقول لكم توبوا من ذنوبكم بل أوصيكم بأن تتوبوا من عباداتكم» ومقصوده من العبادات، العبادات الفارغة والخالية من المضمون الروحي حيث تتحول مثل هذه العبادة الجوفاء إلى إطار لتعليب الذنوب، والأشخاص الذين يتحركون في خط السلوك المعنوي ينبغي عليهم الحذر من حالة الغرور فربّما يُبتلى بها البعض ويدّعي بعد مدّة قصيرة «طي الأرض» وأنّه يتحدّث مع الملائكة وأنّه مستجاب الدعوة وأمثال ذلك، لأنّ الإنسان كلما اقترب من الله تعالى وعرج إليه في سلّم الكمال المعنوي يجب أن يعيش التواضع في نفسه أكثر، لا أن يصاب بالغرور والكبر والعجب أكثر.

النتيجة، ينبغي توخّي جانب الحذر والحيطة من الوقوع في شراك الوساوس

---

١. سورة الكهف، الآيات ١٠٣ ـ ١٠٦.

الشيطانية وفخاخ التسويلات النفسانية، فلو أننا عزمنا بجدية وتصميم قاطع على السير في هذا الطريق فسوف ننال التوفيق والفلاح، ولا شك في أنّ الله تعالى سيرعانا بلطفه وعنايته ويسدد خطانا في خط العبودية والإيمان والفضيلة.

سلطة الشيطان؟

سؤال: طبقاً لما ورد في بعض الآيات والروايات الشريفة أنّ الشيطان يسيطر على الإنسان وحينئذٍ لا يملك الإنسان الاختيار في سيره وسلوكه وفي حركة الحياة والواقع، ومع الالتفات إلى هذا المعنى فلماذا وضع الله تعالى عقوبات شديدة لمثل هؤلاء الأشخاص الذين يتحركون في خط المعصية بدون اختيار منهم؟

الجواب: بالإمكان استيحاء جواب هذا السؤال من الآية الشريفة ١٠٠ من سورة النحل، تقول:

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾.

وعلى ضوء ذلك، فما لم يفتح الإنسان نوافذ قلبه وعقله للشيطان ولم يعطه الضوء الأخضر للدخول إلى بيت قلبه، فإنّ الشيطان لا يستطيع دخول مملكة النفس الإنسانية حينئذٍ، أجل فالشيطان لا يدخل إلى أذهاننا وأنفسنا بالقوة وبآليات العنف، بل إنّ الإنسان هو الذي يضع مقدمات هذا العمل وإن فقد الاختيار في الخطوات التالية وخرج الأمر من إرادته بعد ذلك، كما هو حال الشخص الذي يهرول في المنزلق الخطير الذي يقوده إلى الوادي، فالخطوات الأولى تقدّم بها هذا الشخص بإرادته وباختياره، ولكن ربّما يفقد سيطرته على نفسه بعد ذلك ويسقط في الوادي السحيق.

مبادىء تزيين الأعمال:

ويتحرك القرآن الكريم من موقع بيان مبادىء تزيين الأعمال ويذكر خمسة عوامل منها:

١. الشيطان

كما رأينا في البحوث السابقة أنّ الشيطان يزين القبيح من الأعمال ويظهرها للإنسان بشكل جميل وبراق لكي يوقع الإنسان في الخطيئة، مثلاً يقول للعربي في زمان الجاهلية، «أين غيرتك؟ إذا بقيت ابنتك على قيد الحياة فسوف تقع أسيرة بيد العدو فعليك بدفنها الآن لتتخلص من العار» أي أنّه يزين له أشنع عمل وأقبح فعل وهو قتل النفس المحترمة بهذه الذريعة، والأنكى من ذلك أنّ هذه النفس المحترمة هو هي نفس ابنته، والأشنع من ذلك أنّه يقتلها بدفنها في الأرض وهي حيّة، كل ذلك تحت غطاء الغيرة وحفظ العرض والشرف.

وقد تقدّم بعض الكلام في هذا العامل والآيات التي تتحدّث عنه.

٢. هوى النفس

والعامل الثاني لتزيين الأعمال «هوى النفس»، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا العامل في قصّة النبي يوسف عليه السلام وإخوته وأبيه يعقوب، حيث إنّ هوى النفس زيّن لإخوة يوسف عملهم القبيح وهو إلقاء أخيهم في الجب، وذلك أنّ إخوة يوسف قالوا فيما بينهم: إنّ أبانا يهتم كثيراً بأخينا يوسف ولا يراعي العدالة بين أبنائه وبذلك فقد ظلمنا، ونحن ومن أجل صدّه عن هذا الظلم لا حيلة لنا سوى إبعاد يوسف عن أبيه، ومن هذا المنطلق فنحن نقوم بإبعاد يوسف لتحقيق العدالة بين سائر الإخوة، وهذا هو ما أوحت لهم أنفسهم كما قال لهم أبوهم يعقوب عليه السلام: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾. وقد تقدّم الكلام في هذا الموضوع.

٣. الله تعالى!

وقد ورد في بعض الآيات القرآنية أنّ الله تعالى يزيّن للإنسان أعماله أيضاً، ومن

ذلك ما جاء في الآية الشريفة ٤ من سورة النمل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾.

طبقاً لهذه الآية الشريفة فإنّ الله تعالى يزيّن لمنكري البعث والمعاد أعمالهم السيئة ويظهرها لهم بصورة جميلة، فيظهر لهؤلاء أبو جهل بصورة إنسان طيب وشريف، والنبي بصورة سيئة، ويظهر اسرائيل العدوانية والشريرة بصورة دولة طالبة للحق والعدالة، وحزب الله في لبنان، وهو حامي المظلومين والمدافع عن الإسلام، بمظهر ارهابي ومتوحش.

سؤال: لماذا يقدم الله تعالى على تزيين الأعمال وخداع هذا الإنسان وبالتالي سقوطه في الضلالة والشر في حين أنّ الله تعالى يهتم بهداية الناس إلى الخير؟

الجواب: وقد أجابت هذه الآية الشريفة عن هذا السؤال بشكل مستبطن، وتوضيح ذلك، أنّ تزيين الأعمال بواسطة الله يختص بفئة خاصّة من الناس وهم الذين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، أي الأشخاص الذين أنكروا جميع المعجزات والدلائل الواضحة والباهرة وأعرضوا عن نصائح الأنبياء وتعاليم الكتب السماوية ولم يؤمنوا بها أبداً، وبالنتيجة أنكروا الآخرة والمعاد.

وبعبارة أخرى، إنّ هؤلاء الأشخاص هدموا جميع الجسور خلفهم والباري تعالى لا يهتم بعد ذلك بمثل هؤلاء الأشخاص ويتركهم لحالهم ويزيّن لهم أعمالهم.

وبكلمة ثالثة، إنّ الله تعالى يتحرك على مستوى هداية الإنسان ما دام يملك القابلية واللياقة على ذلك وبطرق مختلفة، ولكن إذا انتهت لياقته وعُدِمَ القابلية على الهداية وأغلق الإنسان على نفسه جميع نوافذ الأمل بالنجاة والفلاح، فإنّه سيسقط في دوامة أعماله ويبتلئ بجزاء ما ارتكبه من سيئات، ومن جملة هذه العقوبات تزيين الأعمال، وفي هذه المرحلة لا تنفع معه شفاعة الشافعين.

عندما جاء الملائكة المأمورون بإهلاك قوم لوط إلى النبي إبراهيم عليه السلام، وبعد أن

بشّروه بولد في شيخوخته، تحدثوا عن مهمتهم الثانية، أي إهلاك قوم لوط، فشرع إبراهيمﷺ في مجادلتهم عسى أن يرفع الله العذاب عن قوم لوط أو يؤخره، ولكن بما أنّ هؤلاء القوم فقدوا اللياقة والقابلية على الهداية والسير في خط الطاعة والعبودية وهدموا جميع الجسور خلفهم، فإنّ الله تعالى خاطب إبراهيمﷺ: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾[1].

أجل! ففي هذه المرحلة لا تنفع شفاعة نبي عظيم كإبراهيم في حق هؤلاء القوم المتمردين والمعرضين عن نداءات الحق.

النتيجة، أنّ تزيين الأعمال هو نتيجة للأعمال السيئة وما ارتكبه المنكرون للمعاد من ذنوب وآثام، ويعد بمثابة كفّارة لذنوبهم.

٤. رفاق السوء

إنّ أكثر ما يواجهه الإنسان من بلايا ومحن تعود في الغالب إلى رفاق السوء، فالكثير من أشكال التلوث بالإدمان على المخدرات ناشئة من معاشرة رفاق السوء، وبالتالي إهلاك الحرث والنسل من جراء هذه المخدرات، إنّ من ثمار الرفقة مع الأشخاص من أهل الشر والانحراف، التلوث بالذنوب والأعمال المخالفة للعفة، والاتصاف بالرذائل الأخلاقية، وفي النهاية زوال الدين والإيمان من واقع الإنسان، ولذلك ينبغي على الشبّان الأعزاء أن يتوخوا كامل الحذر والحيطة في اختيارهم للرفقاء والأصدقاء، فإنّ هذا الاختيار من شأنه تغيير مصيرهم.

ويتحدّث الله تعالى عن رفاق السوء وأنّهم أحد العوامل لتزيين الأعمال ويقول في الآية ٢٥ من سورة فصّلت:

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي

---

١. سورة هود، الآية ٧٦.

أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾.

وعلى هذا الأساس ينبغي التحرك في اختيار الصديق من موقع الدقّة.

٥. طبيعة بعض الأعمال!

ورد في الآيات القرآنية الفعل «زيّن» بصيغة المبني للمجهول ولم يصرّح بفاعله، ونعتقد في مثل هذه الموارد بأنّ طبيعة العمل أحياناً تؤثر في عملية تزيين الأعمال، مثلاً تقول الآية ١٤ من سورة آل عمران:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾.

فهنا نرى أنّ طبيعة العلاقة العاطفية والمفرطة مع النساء (حُبُّ الشَّهَوَاتِ) والعشق والتعلق الشديد بالأولاد (وَالْبَنِينَ) والغرق في حبّ الدرهم والدينار والانجذاب للثروات وزخارف الدنيا (وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ) هي الباعثة على تزيين الأعمال في نظر الإنسان!

النتيجة، أنّ عوامل تزيين الأعمال ما تقدّم من العوامل الخمسة، وأحد هذه الموارد يختص بطائفة من الناس، (وهم المنكرين للمعاد والآخرة) ويعتبر هذا التزيين بمثابة عقوبة لهم ونتيجة طبيعية لأعمالهم السيئة، والعوامل الأربعة الأخرى عامة ولا تختص بفئة دون أخرى.

سؤال: الأشخاص الذين يواجهون حالة تزيين الأعمال بواسطة هذه العوامل المتقدمة، أليسوا مجبورين على سلوكهم في خط الانحراف وبالتالي ترتفع المسؤولية عنهم، أم أنّهم مختارون ومسؤولون؟

الجواب: لحسن الحظ أنّ هذه التسويلات والتزيينات لا تصل إلى حدّ التغطية

الكاملة على عقل الإنسان واختياره، وبإمكان الإنسان معرفة حقيقة المسألة بقليل من التفكر والتأمل، فلو تأمل الإنسان قليلاً في مجريات الأمور لأدرك أنّ الفساد والفحشاء وأشكال الانحراف الأخرى لا تخضع لمقولة الحرية، ولو تفكر قليلاً لفهم حقيقة التمدن المزعوم الذي يختزن في واقعه التوحش والانحطاط الخلقي، فالإنسان بإمكانه أن يكشف الملابسات في حركة الحياة من خلال التفكر والتأمل ولا يتحرك على مستوى هدم الجسور خلفه.

كان الحسن البصري عالماً يسير في خط الانحراف، ومن العجيب أنّه استاذ ابن أبي العوجاء الزنديق المعروف والمنكر لله تعالى، وكان يعيش في عصر الإمام الصادق، وعندما قيل له: أنت تلميذ للحسن البصري فكيف سلكت في خط الكفر والإلحاد؟ فأجابهم قائلاً: إنّ استاذي لم يكن يملك عقيدة صحيحة أيضاً وكانت معالم الانحراف بادية من آرائه وسلوكياته، والحسن البصري التقى بالإمام علي بعد معركة الجمل فسأله الإمام، لماذا لم تشترك في الحرب ولم تمد يد المعونة لي في هذه الحرب؟ فقال: عندما أردت التوجه إلى ميدان القتال سمعت هاتفاً من الغيب يقول: «القاتل والمقتول في النار».

فقال له الإمام علي: صدق القائل، وذلك أنّ القائل هو الشيطان الذي زيّن لك أعمالك[1].

مثل هذا الإنسان الذي هدم جميع الجسور خلفه، لم يتمكن من تشخيص تزيينات الشيطان والتمييز بين هاتف الخير وهاتف الشر.

وأمّا الأشخاص الذين يعيشون الفطرة السليمة والقلب النقي، فحتى لو تلوثوا بالذنوب، فإنّهم يستطيعون التمييز بين الوساوس الشيطانية والإلهامات الرحمانية، فالحر بن يزيد الرياحي عندما خرج من بيته متوجهاً إلى كربلاء سمع منادياً ينادي:

---

١. بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٢٢٦.

«يا حرّ أبشر بالجنّة» لأنّه كان يملك روحاً شفافة وقلباً نقيّاً بالرغم من تلوث نفسه بأدران الذنوب[1].

وفي هذا السياق يتبيّن أنّ التزيينات والتسويلات إنّما تتحرك في خط الوسوسة فقط، ولا تصل إلى مرحلة الإجبار كما أنّ الشيطان يصرّح بهذه الحقيقة أنّه لا سلطان له على الذين آمنوا، ولا يستطيع الدخول إلى قلب الإنسان إلّا أن يعطيه الإنسان الضوء الأخضر للدخول وتلويث أجواء الفكر بتزييناته، فما لم يمد الإنسان يد البيعة للشيطان ويسير في ركابه فإنّ الشيطان لا سلطان له عليه.

***



---

١. أمالي الشيخ الصدوق، ص ١٥٤، المجلس ٣٠.

٣

قسم سورة النساء

تقدّم أنّ من بين الأقسام المنفردة، هناك سبعة موارد وردت بالقسم بكلمة «ربّ». أي أنّ الله تعالى أقسم في سبع آيات من القرآن الكريم باسمه وهو «ربّ»، وأول آية من هذه الآيات هي الآية الشريفة ٦٥ من سورة النساء:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾

شأن النزول: اختلاف الزبير وحاطب

كان للزبير ابن عمّة النبي الأكرمﷺ بستان إلى جوار بستان أحد الأنصاريدعى حاطب بن أبي بلتعة. وكان الماء يجري من عين في الجبل ويسقي بساتين المدينة، وفي أحد الأيّام اختلف الزبير وحاطب بن أبي بلتعة على تقسيم الماء، ومن أجل حلّ الخلاف والنزاع بينهما جاءا إلى النبيﷺ ليحلّ المشكلة. والحكم الإسلامي في مثل هذا المورد هو أنّ البساتين التي تقع على مقربة من العين لها الحق في السقي أولاً، ثم تصل النوبة إلى البساتين التي تقع أسفل منها، وبما أنّ بستان الزبير كان يقع

أعلى من بستان حاطب فقد أصدر النبيﷺ حكمه لصالح الزبير.

وعندما انتهت الجلسة ورجع الزبير وحاطب إلى مكانهما رأيا في الطريق رجلاً من اليهود. فسألهما اليهودي عن نتيجة التحاكم إلى النبي فقال حاطب:

ـ ماذا أقول فقد قضى لابن عمّته الزبير.

فتعجب اليهودي عندما سمع هذا الكلام وقال لحاطب: لو كان موسى حاضراً وأمرني أن أدني رأسي ويضرب رقبتي بالسيف لأجبته بدون أي اعتراض، فكيف تقول هذا الكلام وتعترض على نبيّك الذي تؤمن به؟ فخجل حاطب وانتبه إلى خطئه، فنزلت الآية الشريفة مورد البحث.

القسم بالربّ:

بما أنّ القسم في هذه الآية الشريفة ورد بكلمة «ربّ»، لذا نرى من الضروري بيان بعض التفاصيل عن هذه الكلمة.

وقد ذكر المفسّرون أربعة تفاسير لهذه الكلمة:

١. المالك؛ وطبقاً لهذا التفسير فالمقصود من «ربّ الدار» مالك الدار، وربّ الإبل يعني مالك الإبل[1].

النتيجة، أنّ أحد معاني الربّ هو المالك.

٢. والمعنى الثاني لكلمة الربّ هو «المُصلح»، ولذلك عندما يدعو صاحب الدار رجلاً لإصلاح بيته وترميمه، فيقال حينئذٍ للبنّاء ربّ البيت، أي من قام بإعماره وإصلاحه.

٣. «الصاحب» ولذلك يقال للراعي الذي يصاحب الأغنام في عملية الرعي ربّ الغنم.

---

١. وهذه الجملة مشهورة نطق بها عبدالمطلب في جوابه لأبرهة، وسيأتي الكلام عنها في البحوث القادمة.

٤. «المربّي» الشخص الذي يربي الأطفال أو الكبار يسمى «ربّ المتعلمين» ويقال لمرضعة الطفل التي تهتم بتربيته والعناية به «ربّة الطفل».

النتيجة، أنّ كلمة «ربّ» لها أربعة معانٍ، وهذه المعاني الأربعة كلها يمكن أن تطلق على الله تعالى، لأنّه هو مالك عالم الوجود، وأيضاً هو المصلح له، وهو الذي يصاحبه في وجوده، وكذلك يعمل على تربية الكائنات وتنشئة المخلوقات في هذا العالم.

وربّما تستخدم كلمة «ربّ» بشكل مطلق ويقصد منها الباري تعالى، كما أنّه من الممكن أن تكون هذه الكلمة مضافة لشيء آخر «ربّ العالمين» أو «ربّ الشهداء» وأمثال ذلك،وأمّا في غير الباري تعالى فلا تستعمل أبداً بشكل مطلق بل تستخدم بإضافة شيء معين، كما تقدّم بيانه في الأمثلة المذكورة للمعاني الأربعة لهذه المفردة.

مقام تسليم:

أيّها النبي! قسماً بربّك المالك لجميع ما في عالم الوجود، قسماً بربّك المصلح لأمور المخلوقات، قسماً بالربّ المصاحب لجميع الموجودات في العالم، قسماً بالربّ الذي يتولى تربية جميع الكائنات، قسماً بالربّ أنّ المسلمين لا يبلغون مرتبة الإيمان إلّا إذا جاءوا إليك ليحكّموك فيما يحدث بينهم من اختلافات ونزاعات ويقبلوا بحكمك من موقع الإذعان والخضوع الكامل وأن يرضوا بحكمك في قلوبهم، وبكلمة: أن يسلّموا ويذعنوا لحكمك تماماً.

إنّ الأشخاص الذين يتحركون على مستوى تغيير الأحكام الإلهيّة ولا يجدون في أنفسهم حالة التسليم والإذعان للأوامر والنواهي الإلهيّة، هؤلاء يجتهدون في مقابل النص، والأشخاص الذين يعتقدون بقراءات مختلفة للدين، هؤلاء يفسّرون

القرآن برأيهم، ويعملون على فرض آرائهم على القرآن، هؤلاء لم يصلوا إلى مقام التسليم والإيمان الكامل، ألم يقبل هؤلاء الأشخاص بنبوة نبي الإسلامﷺ؟ ألم يعتقدوا بعصمة رسول اللهﷺ؟.. إذا كانوا معتقدين بالنبوة والعصمة فيجب عليهم الإذعان أمام الأحكام الشرعية وقبول جميع ما صدر من النبي من أحكام وأوامر وتعاليم، وهذه الطاعة المحضة لا تتجلى في مقام الكلام واللسان بل يجب أن تنطلق من أعماق القلب وفي غير هذه الصورة، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين. فإنّ مقام التسليم هو مقام شريف ومرتبة سامية، وقد انعكس ذلك في الروايات الإسلامية بشكل واسع، ونكتفي هنا بالإشارة إلى اثنين منها:

١. يقول الإمام الحسن المجتبى عليه السلام:

«مَنِ اتَّكَلَ عَلىٰ حُسْنِ الْإِخْتِيارِ مِنَ اللهِ لَمْ يَتَمَنَّ أَنَّهُ فِي غَيْرِ الْحالِ الَّتي اخْتارَهَا اللهُ لَهُ»[1].

وطبقاً لهذه الرواية فإنّ مقام التسليم يعني: «الرضا بما قسم الله تعالى للإنسان».

وتوضيح ذلك: إنّ المشاكل والأزمات التي يواجهها البشر في واقع الحياة أحياناً تكون ناتجة عن الجهل والقصور والتقصير في حركته وفهمه للحياة، وفي هذه الصورة يكون المقصّر هو الإنسان، ولا علاقة لذلك بالتقدير الإلهي، ولكن أحياناً تكون هذه المشاكل والأزمات التي يمرّ بها الإنسان، في حياته خارجة عن اختياره وخاضعة للتقدير الإلهي، هنا ينبغي عليه أن يتحرك في خط التسليم والطاعة والإذعان، لأنّ الله تعالى هو الرحمن الرحيم والعالم والعادل والغني على الإطلاق ولا مسوغ له لإيقاع الإنسان في مشاكل خلافاً لمصلحة الإنسان نفسه، إنّ مقام التسليم فيما يعني من خضوع وإيمان يتجلى بشكل واضح في موقف الحسين عليه السلام يوم عاشوراء.

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٠٦.

إنّ الأشخاص الذين لا يعيشون التسليم والخضوع للمشيئة الإلهيّة فهذا يحكي عن نقصان في إيمانهم، وهذه الحالة تتقاطع مع عقيدتهم بالتوحيد والعبودية، كما نرى ذلك في قصّة ثعلبة:

فقد كان ثعلبة رجلاً فقيراً جدّاً، فجاء إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله! إنني فقير، فادع الله تعالى أن ينعم عليَّ بالمال، فقال له رسول الله ﷺ: إن من مصلحتك أن تعيش بهذا المقدار من المال القليل وعليك بالقناعة.

وجاء في اليوم التالي وكرر طلبه من رسول الله بالدعاء له بالغنى،فأجابه رسول الله بذلك الجواب، ولكنّه لم يترك طلبه بل بقي مصراً على أن يدعو له رسول الله ﷺ بالغنى والثروة حتى اضطر رسول الله ﷺ للدعاء له بذلك، فلم تنقض مدّة إلّا وتوفي أحد أقربائه وكان ثرياً، فحصل على ثروة كبيرة من ميراثه فاشترى بها قطيعاً من الأغنام واشتغل برعي الأغنام في الصحراء، وكان ثعلبة قبل ذلك يشترك في صلاة الجماعة في الأوقات الخمسة ولكن بعد أن اشترى قطيع الأغنام لم يوفق للمشاركة في صلاة الجماعة والحضور في مسجد النبي إلّا في وقت واحد أو وقتين، فسأله رسول الله ﷺ عن سبب غيبته، قال ثعلبة: يارسول الله! أنا ابتليت بتدبير المعيشة، فلو تركت الأغنام فستهلك.. ويوماً بعد آخر كانت الأغنام تزداد وتكثر إلى أن اضطر إلى الخروج إلى الصحراء لرعيها، فانقطع حضوره للصلاة بشكل كامل، ولم يكن يحضر إلّا لصلاة الجمعة، ومرّة أخرى سأله رسول الله ﷺ أين أنت يا ثعلبة؟ فقال: إنّ أغنامي وجمالي قد ازدادت ولا وقت لدي للحضور يومياً في المسجد، ولذلك لا أستطيع الصلاة في المسجد إلّا في يوم الجمعة.

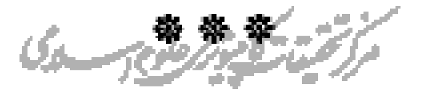
ثم نزلت آية الزكاة فبعث رسول الله ﷺ من يجمع الزكاة، فتوجه جامع الزكاة إلى ثعلبة وأخذ يحاسبه على أمواله وزكاته، فوجد أنّ زكاته تبلغ مبلغاً كبيراً، ولكن ثعلبة الذي تعلق قلبه بهذه الأغنام والابل، قال لجامع الزكاة: بلّغ رسول الله سلامي

وقل له: نحن أصبحنا مسلمين لئلا ندفع الجزية مثل أهل الكتاب، فلو تقرر أن أدفع الزكاة، فما الفرق بيني وبينهم، وما فائدة هذا الإسلام الذي جئتنا به؟

عندما سمع رسول الله ﷺ بكلام ثعلبة هذا قال: اتركوه وشأنه «يـا وَيْحَ لِثَعْلَبَة، يـا وَيْحَ لِثَعْلَبَة».

وانتشر كلام رسول الله ﷺ عن ثعلبة بين الناس ووصل الخبر إليه أيضاً ورأى أنّ سمعته ومكانته في خطر، فجاء إلى المدينة ليدفع الزكاة، فلم يقبل منه رسول الله ﷺ زكاته وبعد وفاة رسول الله ﷺ جاء إلى الخلفاء ليدفع إليهم الزكاة فلم يقبلوا مـنه، وهكذا مات ثعلبة بدون أن يعمل بهذا الحكم الإسلامي المهم[1].

ومن هنا ينبغي على الإنسان أن يعيش الرضا والقناعة بما قدّر الله له في حياته ويتحرك في خط الطاعة والتسليم والعبودية لتكون عاقبته على خير.



١. بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٤٠.

٤

قسم سورة الحجر

والقسم المنفرد الرابع في هذا البحث هو ما ورد في الآيتين الشريفتين ٩٢ و ٩٣ من سورة الحجر، وهو القسم الثاني بكلمة «ربّ»:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

السؤال عن أعمال الإنسان

تقدم الكلام في القسم بكلمة «ربّ» في البحوث السابقة ولا حاجة لتكراره، أمّا المقسم له والغرض الذي من أجله أقسم الله تعالى بهذا القسم فهو «السؤال عن أعمال الإنسان» وهو الموضوع المهم الذي يتمتع بانعكاس واسع في الآيات القرآنية، وهنا يوجد موضوعان للبحث:

أ) ممن يكون السؤال؟

إنّ سياق الآية الشريفة وإطلاقها يستدعي أن يكون جميع البشر مسؤولين يوم القيامة ولم يستثن منه شخص أو أشخاص معينين، فحتى الأنبياء والأولياء سيتعرضون للسؤال يوم القيامة ويجب عليهم جميعاً تقديم الجواب.

وهذا المعنى، الذي استوحيناه من إطلاق الآية مورد البحث، ورد بشكل صريح في الآية الشريفة ٦ من سورة الأعراف حيث تقول:

﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وطبقاً لصريح هذه الآية فإنّ الأنبياء أيضاً سيسألون يوم القيامة.

سؤال: عن أي شيء يسأل الأنبياء عليهم السلام؟

الجواب: يقول الإمام علي عليه السلام طبقاً للرواية الواردة في تفسير نورالثقلين:

«فَيُقَامُ الرُّسُلُ فَيُسْئَلُونَ عَنْ تَأْدِيَةِ الرِّسَالاتِ الَّتِي حَمَلُوهَا إِلَى الْأُمَمِ فَأَخْبَرُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَدَّوا ذٰلِكَ إِلَىٰ أُمَمِهِمْ».

النتيجة، أنّ الإطلاق في بعض الآيات القرآنية وصريح البعض الآخر، فإنّ جميع أفراد البشر حتى الأنبياء والمرسلين سيتعرضون للسؤال يوم القيامة، وهذا المعنى بمثابة إنذار عام للجميع، فعلينا تهيئة الجواب المقبول في ذلك اليوم، وهذا لا يتحقق إلّا بأن نسير في هذه الحياة في مسار الإيمان والعمل الصالح والحركة في خط العبودية والتسليم.

ب) عن أي شيء يسأل الإنسان؟

أمّا مورد السؤال فهو عام وشامل أيضاً ولا يستثنى من ذلك أحد ويتصل متعلق السؤال بالأعمال الصغيرة والكبيرة، وما عمله الإنسان جهراً وخفيةً والأعمال الفردية والجماعية، عن نفسه أو عن أهله أو المجتمع، أعمال الأستاذ والطالب، أعمال الرجل والمرأة، والخلاصة أنّ متعلق السؤال جميع الأعمال حتى بمقدار ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[1].

سؤال: هل يستطيع الإنسان إنكار أعماله وما صدر منه من سلوكيات وذنوب

---

١. سورة الزلزلة، الآيات ٧ و٨.

في ذلك اليوم؟

الجواب: ربّما يستطيع الإنسان إنكار ذلك في الدنيا مهما كانت هناك قرائن وشواهد وشهود على أنّ المتهم قد ارتكب العمل الفلاني، وربّما يضطر المتهم مع كل هذه الشواهد والشهود على الإقرار والاعتراف بجرمه وجريرته، مثلاً إذا جيء بالمتهم إلى المحكمة ووجدوا آثار بصمات أصابعه على محل الجريمة أو ووضعوا كامرات التصوير الخفي في محل الجريمة وتمّ تصوير فلم وثائقي عن عملية ارتكاب الجريمة، أو أنّ المتهم كان قد تحدث بعمله وجريمته إلى بعض أصدقائه وقام ذلك الصديق بتسجيل اعترافاته على شريط الكاسيت، فمثل هذا المتهم ومع وجود كل هذه الأدلة والقرائن لا يجد مفرّاً من الاعتراف بجريمته، وأمّا في الآخرة فهناك قرائن وشواهد أقوى وأكثر بكثير ممّا يوجد في الدنيا، فهناك لا يجد المتهم مفرّاً من الاعتراف ولا طريق له إلى الإنكار، فلو أراد شخص إنكار ما ارتكبه من ذنوب وما اجترحه من سيئات، فإنّ يديه ورجليه وسائر أعضائه وجوارحه سيشهدون عليه، فلو أراد إنكار عمله، فسوف يرتفع فجأة صوت من بقعة الأرض التي ارتكب فيها الجريمة، ويقول: إلهي إنّ هذا الإنسان في اليوم الفلاني وفي الساعة الفلانية ارتكب هذه المعصية عليّ، وإذا أراد الإنكار، فإنّ الملكين اللذين كانا معه طيلة عمره يشهدون عليه ويكشفون عن جميع تفاصيل أعماله، فهل يبقى مجال لإنكار المجرم لجريمته وذنبه أمام هذه المحكمة، التي تملك مثل هذه الشواهد والقرائن ضد المتهم؟

الواقع أنّ تلك المحكمة الإلهيّة عجيبة، لأن الشواهد والقرائن والشهود إلى درجة من الكثرة بحيث لا يستطيع المتهم نفسه إنكار ما صدر منه، بل إنّ المتهم سيشهد على نفسه ويصدر الحكم بنفسه على نفسه.

النتيجة، إنّ جميع أعمال الإنسان وحركاته وأقواله ستتعرض للسؤال يوم القيامة،

وظروف المحكمة هناك بشكل لا يتيح للمتهم فرصة للإنكار، فلو اعتقد الإنسان واقعاً بهذه القضية وأنّه سيتعرض للسؤال عن جميع أعماله وحركاته في ذلك اليوم، وهو اليوم الذي لا تقبل فيه رشوة أو شفاعة ولا يمكن للإنسان أن يحتال ويراوغ في أجوبته، فإنّه لا يتحرك اطلاقاً في خط المعصية وارتكاب الإثم.

السؤال عن النعم:

إنّ دائرة السؤال في ذلك اليوم تتسع لمساحة كبيرة ولا تختص بأعمال الإنسان وسلوكياته، بل يسأل عن النعم التي وضعها الله تعالى تحت اختياره في الدنيا، ونقرأ هذا المعنى في الآية ٣٦ من سورة الاسراء:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾.

أجل! يسأل الإنسان عن نعمة السمع والبصر والعقل والشعور وكيفية استفادة الإنسان منها واستخدامها في حركة الحياة.

ونقرأ في الآية ٨ من سورة التكاثر أنّ السؤال عن النعيم بشكل واسع ومطلق:

﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾.

إنّ كلمة «نعيم» المحلى بالألف واللام، جمع «نعمة» وهذه الكلمة بهذه الهيئة تدلّ على العموم وعليه فإنّ مورد السؤال غير ناظر لنعمة خاصّة أو نعيم خاص، بل إنّ الله تعالى يسأل الإنسان عن جميع النعم والمواهب التي وهبه إيّاها في إيّام الدنيا.

وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ النعيم بمعنى «الصحة» و«الأمن».

وذهب آخرون إلى تفسير هذه الكلمة بـ«الصحة» و«الفراغ»، ونعلم أنّ الفراغ غير الصحة والسلامة، لأنّه من الممكن أن يكون الشخص سالماً ولكنّه غارق في دوامة من المشاكل الأُسرية والاجتماعية والمهنية، بحيث لا يذوق طعم النوم

المريح، أمّا من كان بعيداً عن هذه المشاكل والابتلاءات فإنّه يشعر بنعمة الفراغ، أي الفراغ من المشاكل.

وفئة ثالثة ترى أنّ المقصود من النعيم: «نعمة السلامة والأمن».

وذهب بعض آخر في تفسير هذه الكلمة «بنعمة الولاية». وروي أنّ أبا حنيفة سأل الإمام جعفر بن محمّد الصادقعليه السلام عن تفسير هذه الآية قال الإمام: «ما النعيم عندك يا نعمان» قال: القوت من الطعام والماء البارد. فقالعليه السلام «لئن أوقفك الله يوم القيامة بين يديه حتى يسألك عن كلّ أكلة أكلتها وشربة شربتها ليطولن وقوفك بين يديه».

قال أبو حنيفة: فما النعيم جعلت فداك؟

قال الامامعليه السلام: «نحن أهل البيت النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين وبنا ألّف الله بين قلوبهم وجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداء وبنا هداهم الله للإسلام وهي النعمة التي لا تنقطع والله سائلهم عن حقّ النعيم الذي أنعم الله به عليهم وهو النّبي وعترته»[1].

وفي ذلك اليوم يسأل الإنسان عن ولاية أهل البيتعليهم السلام وطبعاً ليس المقصود بذلك الولاية اللسانية ولا الولاية بالدعاء والتوسل، فهذه الأمور وإن كانت جيدة ولكنها غير كافية، بل الولاية التي تعكس آثارها على أعمال وسلوكيات الإنسان، وتصبغ هذا الإنسان بلون أهل البيتعليهم السلام «فَيَكُونُ جَمِيعُ أَعْمالِهِ بِدَلالَتِهِ إِلَيْهِ»[2] أجل! فهناك يسأل الإنسان عن الولاية التي تفرز معطياتها في واقع الإنسان وأعماله وكلماته، مثلاً إذا تحركنا طيلة اليوم بشكل تكون أعمالنا وأفعالنا في ذلك اليوم مطابقة لتعاليم الإسلام ولأوامر الله تعالى ورسولهصلى الله عليه وآله والأئمة المعصومينعليهم السلام، فنحن

١. مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٣٥؛ التفسير الأمثل، ذيل الآية المذكورة نقلاً عن بحار الأنوار، ج٧، ص٢٥٨.

٢. بحار الأنوار، ج ٦٥، ص ٢٣٣.

من أتباع أهل البيت‏ عليهم السلام ونملك نعيم الولاية.

الخلاصة، هناك تفاسير مختلفة لكلمة النعيم ولكنّها جميعاً من قبيل التفسير بالمصداق، ولا تحدد مفهوم الآية بذلك المعنى فقط ولا تنقض عموميتها وشموليتها.

وحتّى التفسير الوارد في كلام الإمام الصادق‏ عليه السلام فهو من قبيل التفسير بالمصداق، غاية الأمر أنّه المصداق الأتم والأكمل فإنّ المخالفين نسوا هذه النعمة وأعرضوا عنها، ولذلك فالإمام الصادق‏ عليه السلام يشير إلى هذه الحقيقة الحاسمة والمصداق البارز للنعيم، وإلّا فالنعيم لا ينحصر بهذا المصداق.

السؤال عن النعيم في الروايات:

وقد انعكست هذه المسألة في الروايات الشريفة في المقصود من النعيم، وعلى سبيل المثال ورد في الحديث النبوي المعروف أنّه يسأل الإنسان يوم القيامة عن أربعة أمور:

١. **نعمة العمر**؛ في ذلك اليوم يسأل الإنسان عن عمره فيم أفناه وكيف استثمره، هل أنّه أتلف عمره في اللهو واللعب والبطالة وأشكال المسابقات الخطيرة، أو أنّه سلك في هذا العمر فيما يرضي الله تعالى وعمل بالوظائف الشرعية وتحرك في إسداء الخدمة للناس؟

٢. **نعمة الشباب**؛ والنعمة الثانية التي يسأل عنها الإنسان يوم القيامة نعمة الشباب كما ورد في هذه الرواية، ينبغي على الإنسان أن يعرف قدر نعمة الشباب فإنّ هذه المرحلة تعدّ من أفضل سنوات عمر الإنسان، فإذا أردنا أن نوفق في المستقبل لنكون علماء. وإذا أردنا سلوك طريق العبادة والمعنويات. وإذا أردنا التحرك في خط تهذيب النفس وتحليتها بالفضائل. وإذا أردنا أن نكون من عشّاق الإمام صاحب الزمان‏ عليه السلام الحقيقيين، والخلاصة إذا أردنا تحقيق أي أمر مهم في

حياتنا فلابدّ من وضع الأساس لذلك في أيّام الشباب لتثمر هذه الشجرة فيما بعد وتشتد أصولها وتمد جذورها في واقع الإنسان ونفسه، وعليه فإنّ نعمة الشباب نعمة عظيمة جدّاً ينبغي أن نعرف قدرها وأهميتها، لكي نستطيع الاجابة غداً يوم القيامة.

٣. **نعمة المال**؛ وهناك بحث يطرح بين المسؤولين في الحكومة وهو: بعد انتهاء فترة الرئاسة والمسؤولية لهؤلاء يسألون عن الأموال التي بحوزتهم فعلاً من أين حصلوا عليها؟ فإذا تمّ تنفيد هذا القانون فسوف تكون له نتائج ومعطيات إيجابية، وسوف يسأل الإنسان يوم القيامة عن مورد تحصيل المال وكيف اكتسبه وكيف أنفقه، وهذا بمثابة إنذار لأصحاب الأموال، بأنّ الإنسان كلما اتسعت مساحة ثرواته وأملاكه فإنّ الجواب عن السؤال المذكور يوم القيامة يكون أشد وأصعب.

٤. **نعمة الولاية**؛ النعمة الرابعة التي يسأل عنها الإنسان يوم القيامة نعمة ولاية أهل البيت عليهم السلام ومحبّتهم والعلاقة بهم والتي تعتبر المصدر والمنبع للحركة في خط الإسلام وفي طريق الإيمان والتقوى والانفتاح على الله[1].

❊ ❊ ❊

١. بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ١٨٠ وج ٢٧، ص ٣١١.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٥

قسم سورة مريم

الآية الشريفة ٦٨ من سورة مريم تتضمن القسم الثالث من الأقسام التي وردت في القرآن الكريم باسم «ربّ»، وهذه السورة هي السورة الخامسة التي ورد فيها قسم منفرد.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٦٨﴾

شرح و تفسير الآية: المعاد الجسماني

ومن أجل توضيح المراد من هذه الآية مورد البحث ينبغي الرجوع قليلاً إلى الوراء وتلاوة الآيات التي سبقتها ثم إلقاء نظرة إجمالية على مضمون هذه الآية، ولذلك نكتفي هنا بتفسير مختصر للآيات ٦٦ إلى ٧٢:

﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾.

جاء في الروايات أنّ بعض المشركين العرب جاؤوا إلى رسول الله ﷺ ومعهم عظام متهرئة، ثم فتتوها بأيديهم حتى تحولت إلى مسحوق، ثم ذروها في الهواء فأخذتها الرياح في كل جانب، ثم توجهوا إلى النبي ﷺ وقالوا: كيف يحيي الله هذه

الذرات المتناثرة في الفضاء ويعيدها إلى إنسان كامل، هنا نزلت الآية المذكورة، ومثل هذا المعنى ورد في قصّة سورة يس في شأن نزول الآية ٧٧ في آخر هذه السورة.

وهنا نرى أنّ الله تعالى في مقام الجواب عن هذا السؤال يثير أماماً استدلالاً منطقياً ثم يتحرك على مستوى التهديد بالعذاب الأليم لمن لا ينفع معه منطق الاستدلال ولا يفهم لغة العقل:

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾.

هل هؤلاء الأشخاص الذين ينكرون المعاد نسوا خلقهم الأول؟ ألم نخلقهم من تراب؟ إذن فما هي المشكلة في إعادتهم مرّة أخرى للحياة؟ إذا سار شخص في طريق خاص لعدّة مرات، فهل يواجه مشكلة في مسيره فيالمرات اللاحقة، أم يكون مسيره في المرات الأخرى أيسر وأسهل؟

وعلى هذا الأساس فإنّ الله تعالى كما أنّه خلق الإنسان من تراب، بل في زمان لم يكن تراب أيضاً وخلق الله التراب وخلق منه آدمعليه السلام، ففي يوم القيامة يعيده إلى الحياة مرّة أخرى ويحيي ذلك التراب مرّة ثانية، وهذا العمل يعتبر أيسر وأسهل من المرّة الأولى.

وبعد أن يبيّن القرآن الكريم هذا الاستدلال المنطقي، يتحرك على مستوى التهديد بقوله:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً﴾.

«جثياً» جمع «جاثٍ»[1] ويقال للشخص الذي وقف على ركبتيه ولا يستطيع

---

١. ضمناً أنّ أحد الصور الفلكية يقال لها «الجاثي على ركبتيه»؛ وهذا اسم لمجموعة من النجوم التي تجتمع في مدار واحد، ويمكن رؤيتها من سطح الأرض على شكل انسان واقف على ركبتيه.

←

النهوض والوقوف بشكل كامل، فأحياناً يشعر الإنسان بالتعب الشديد بحيث يجمع قواه ويجلس على ركبتيه ولا يستطيع النهوض والوقوف على قدميه، ويقال لمثل هذا الشخص جاثٍ على ركبتيه.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً﴾.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً﴾.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً﴾.

أجل! فإنّ جميع أفراد البشر وبدون استثناء يدخلون جهنّم حتى أهل الجنّة.

سؤال: هل بإمكان الدخول إلى جهنّم والخروج منها إلى الجنّة بدون ألم وحرق؟

الجواب: نعم! هذا الأمر ممكن. فلو تصورتم بحراً من النار، ومرّ من خلاله شيء قابل للاشتعال وبسرعة فائقة، فسوف لا يتعرض للاحتراق، ومن هنا فإن الصالحين والمتقين والأنبياء يمرون من جهنّم إلى الجنّة أيضاً، ولكن سرعة عبورهم شديدة إلى درجة أنّ نار جهنم لا تمسهم بأي ضرر.

وعلى ضوء ذلك فإنّ سرعة العبور كلما كانت أبطأ فإنّ نار جهنّم تؤثر في ذلك الشيء بنفس النسبة، والويل للأشخاص الذين يكون سيرهم فيها بطيئاً جداً ويسقطون في نار جهنّم، ونعوذ بالله من ذلك.

وليس فقط طريق الجنّة يمرّ من خلال جهنّم في الآخرة بل إنّ طريق الجنّة في هذه الدنيا أيضاً زاخر بالمعوقات والموانع والكثير من التحديات الصعبة، ولهذا ينقل الإمام علي عليه السلام حديثاً عن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ»[1].

← والعجيب أنّ هذه الصور الفلكية التي كشفها المسلمون واختاروا لها أسماء عربية، معروفة عند علماء الغرب بهذه الأسماء، وهذا دليل على أنّ علماء الغرب استفادوا من علوم علماء الإسلام.

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.

وعلى هذا الأساس فلا غرابة في عبورنا إلى الجنّة من خلال جهنّم في الآخرة. ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً﴾.

وبعد أن يدخل الجميع نار جهنّم، تشمل الرحمة الإلهيّة المتقين الذين تحركوا في الدنيا في خط الطاعة والعبودية وتنقذهم من جهنّم، وتذر الظالمين يعيشون الذلة والهوان والعذاب في النار.

نقاط مهمّة:

١. القسم بربّ النبي محمّد ﷺ

في هذه السورة نرى أنّ الله تعالى لم يقسم بـ «ربّ السماوات والأرض» أو «رب النجوم» أو «ربّ الليل والنهار» وأمثال ذلك بل أقسم بربّ محمد ﷺ، وهذا يختزن معنىً عميقاً، ويعني: قسماً بخالق إنسان مثل محمّد والذي ربّاه وعلّمه إلى أن بلغ ذروة الكمال، وأخيراً بعثه بالنبوة إلى العالمين.

٢. الغاية من جمع الظالمين عند حافة جهنّم

سؤال: طبقاً للآيات مورد البحث فإنّ الله تعالى يجمع المنكرين للمعاد وكذلك الشياطين حول جهنّم، ثم يلقيهم في النار، فما فائدة هذا العمل؟ ولماذا لم يدخلهم النار فوراً وبدون هذه المقدمات؟

الجواب: إنّ هذا العمل يبعث على زيادة عذابهم وألمهم، وتوضيح ذلك: إذا جيء بالشخص المحكوم بالإعدام مثلاً قبل ساعة إلى محل الإعدام وقُرأ عليه حكم القاضي وطرح عليه أن يكتب وصيته في محل الإعدام، وبعد ذلك يودع أقرباءه وأهله ثم يتمّ إعدامه. فمثل هذا الشخص يعيش العذاب الشديد أكثر من الشخص الذي يؤتى به إلى محل الإعدام ويعدم فوراً بدون إمهال، ومن هذه الجهة فإنّ الله

تعالى يجمع هؤلاء الظالمين والشياطين حول جهنّم وهم يعيشون حالة الهلع والذلة والخوف ثم يلقيهم في جهنّم.

٣. المنكرون للمعاد والشياطين

في هذه الآيات نرى أنّ الله تعالى جمع الأشخاص المنكرين للمعاد مع الشياطين حول جهنّم، ويكون مصيرهم جميعاً إلى النار، وهذا بنفسه يعتبر عذاباً مضاعفاً للمنكرين للمعاد، مثلاً إذا تمّ إلقاء القبض على مذنب وأُلقي في السجن، فهو يعيش في السجن في شدة وألم، ولكن إذا جيء بهذا السجين وحشر مع القتلة والمهربين للمخدرات والمفسدين في الأرض والمشيعين الفساد والفحشاء فإنّ ألمه وعذابه سيتضاعف وربّما يعترض على ذلك ويطلب الانتقال إلى سجن آخر يكون السجناء فيه أقل جرماً من هؤلاء ويماثلونه في نوع الجريمة والخلاف.

٤. أئمّة الظلم قادة أهل النار

كما أنّ أهل الظلم والجور في هذه الدنيا هم قادة الظالمين وقوى الشر والانحراف، ففي الآخرة أيضاً يتقدمون صفوف الظالمين والمعاندين وليذوقوا طعم العذاب الإلهي أسرع من الآخرين، ولهذا فإنّ الله تعالى يفصل بينهم يوم القيامة ويلقي بأئمّة الكفر والنفاق الذين تمردوا على الأوامر الإلهيّة والتعاليم السماوية في النار قبل الآخرين، ولذلك تقول الآية الشريفة فيما يتعلّق بفرعون:

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾[1].

***

١. سورة هود، الآية ٩٨.

٥. التقوى وسيلة النجاة

وآخر ملاحظة نثيرها في هذا الموضوع هي أنّ القرآن الكريم لم يقل إنّ العلماء، الأثرياء، الاقوياء، العبّاد، المخترعين، المكتشفين وأمثالهم هم أهل النجاة، بل قال إنّ أهل التقوى فقط هم أهل النجاة، بمعنى أنّك لو اكتسبت أي عنوان في هذه الدنيا وعملت بأي عمل وسلكت أي مسلك، فلو لم يكن لديك رأس مال من التقوى والورع فأنت لست من أهل النجاة في ذلك اليوم.

إنّ التقوى رأس مال عجيب وجوهرة ثمينة، ولذلك نرى التقوى لها انعكاسات واسعة في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية، بحيث يمكن تأليف كتاب مستقل حول موضوع التقوى في القرآن، كما أنّه لو أمكن جمع الروايات التي تتحدث حول هذا الموضوع لأمكن تأليف كتاب مستقل عنها.

ويتحدّث إمام المتقين في أكثر من خطبة في نهج البلاغة عن التقوى فيما تمثّله من حالة وجدانية منفتحة على الله تعالى لا أنّها تمثّل حالة طارئة يعيشها الإنسان في ظاهر الحال، والواقع أنّ هذا الزاد والمتاع النفيس لابدّ أن يكون مورد بحث وتدبر في جميع خطب صلاة الجمعة.

الإمام علي عليه السلام حتّى في آخر يوم من أيّام حياته لم يغفل عن الوصية بالتقوى، وقد أكد في وصيته على التقوى مخاطباً فيها ولديه الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام[1] وسائر أبنائه وكذلك الشيعة في جميع الأعصار والحقب الزمنية إلى يوم القيامة، وهذا يشير إلى مدى أهمية التقوى فيما تمثّله من معيار الفضائل والكمالات الأخلاقية للإنسان[2] والجواز الذي يمر به الإنسان إلى الجنّة[3].

---

١. نهج البلاغة، الرسالة ٤٧.

٢. سورة الحجرات، الآية ١٣.

٣. سورة مريم، الآية ٦٣.

حقيقة التقوى:

نظراً للمكانة الرفيعة للتقوى في القرآن والروايات وفيما تقتضيه من سعادة ونجاة للإنسان السالك في خط المعنويات، ينبغي إلقاء بعض الضوء على حقيقة التقوى، فالعلماء ضربوا أمثلة متعددة لبيان حقيقة التقوى، وكل واحد منها يساهم بدرجة معينة في استجلاء هذا الموضوع والكشف عن خفاياه، ولكننا نطرح مثالاً يختلف عن تلك الأمثلة وربّما يساهم في توضيح الصورة أكثر:

لنفترض أنّ رجلاً ركب جواداً جموحاً أو بعيراً متوحشاً ولا يملك لجاماً أو زماماً، فهذا الحيوان ربّما يلقي بصاحبه في الوادي، وربّما يستمر في عَدوِه ويلقي بصاحبه أرضاً، ومن أجل ضبط مثل هذه الخيل والإبل الجموحة لابدّ من لجام يلجم به هذا الحيوان ويوقفه عند حدّه، وهذا اللجام متكوّن من حزام من الجلد يربط رأس الدابة ويكون الحزام بيد الراكب، ولدى العرب نحوين من ذلك، **أحدهما:** لجام متشكل من قطعة حديدية توضع في فم الدابة ويربط طرفاها بحزام ويمسكه الراكب، وكلما أراد التوقف، أو فيما إذا جمحت الدابة، سحب الحزام أو الحبل بقوة، وبما أنّ قطعة الحديد موضوعة في فم الدابة فإنّ سحب الحبل يثير الألم للدابة فتتوقف عن المسير. ويطلق العرب على هذا النوع اسم «لجام».

النوع الآخر: ما يربط به الإبل حيث يثقب العرب أنف البعير ويضعون الحبل في هذا الثقب ويمسك الراكب بطرفه، فإذا أراد من البعير التوقف سحب ذلك الحبل وعندما يشعر البعير بالألم يتوقف عن المسير، وهذا النوع من اللجام يسمى عند العرب «زمام».

التقوى بدورها مثل «اللجام» و «الزمام»، وعقل الإنسان مثل «الراكب» والنفس الإنسانية مثل «الدابة والمركب»، فلو امتلك الإنسان حالة التقوى فإنّ عقله يلجمها بلجام التقوى ويروضها بزمام العبودية والخشية من الله.

وبهذا المثال تتبيّن من جهة حقيقة التقوى وكذلك تتبيّن أهميّتها من جهة أخرى، ومن خلال ما تقدّم بالإمكان تعريف التقوى بجملة واحدة: «التقوى هي الأداة لكبح جماح النفس».

التقوى في كلام الإمام الصادق عليه السلام:

وينقل المرحوم العلّامة المجلسي في بحار الأنوار حديثاً في وصف التقوى عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول:

«أَنْ لا يَفْقِدَكَ اللهُ حَيْثُ أَمَرَكَ، وَلا يَرَاكَ حَيْثُ نَهَاكَ»[1].

مثلاً من جملة مصاديق الشق الأول من هذا الحديث الشريف: الحضور في المسجد، المشاركة في مجالس الوعظ والخطابة، التوجه لمحل الكسب وتهيئة الرزق الحلال، المشاركة في التجمعات الجماهيرية للمسلمين وأمثال ذلك، ومن مصاديق الشق الثاني من الحديث ترك الجلوس في مجالس الإثم والمعصية، عدم الذهاب للأماكن التي تتعرض فيها شخصية الإنسان للإهانة والذلة، ترك مجالس الخمر والقمار وأمثال ذلك.

ومن جملة المفاهيم الكامنة في هذا الحديث الشريف أنّ الإنسان يجب أن يتحرك في حياته بروح الإيمان بأنّ الله تعالى ناظر إليه وحاضر معه، فلو أنّ الإنسان عاش الإحساس والشعور بهذه الحقيقة الإيمانية فإنّه لا يتحرك نحو الانحراف والخطيئة.

ذكر المؤرخون أنّ عبدالله بن عمر كان يمرّ في صحراء فشاهد راعياً، فسأله هل لديك شاة تبيعها لنا فنذبحها ونأكلها؟ فقال: ليس لي الحق في التصرف بهذه الأغنام فلست بمالكها ولم يأذن لي المالك في ذلك. فقال عبدالله: هل مالك هذه الشياه هنا

---

١. بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٢٨٥.

حتى يراك؟ فإذا رأيته فقل له إنّ ذئباً أكل أحد الشياه. فقال الراعي: وهو ممتعض من هذا الكلام، «فَأَيْنَ الله»[1].

أي لو لم يكن مالك الأغنام حاضراً، فإنّ الله حاضر وناظر إلينا ويرى أعمالنا وأفعالنا، فكيف تأمرني أن أعصي الله في حضوره؟

إنّ هذا الراعي الأُمي وبسبب اعتقاده الراسخ بالله تعالى فإنّه لم يرتكب المعصية والإثم، ولكن هناك أشخاص قد بلغوا درجة عالية من العلم والتحقيق العلمي وسافروا إلى مناطق مختلفة في العالم، ولكن بما أنّهم يفتقدون التقوى ولا يشكل الله في حياتهم ركيزة إيمانية، فإنّهم يرتكبون ما بدا لهم من الذنوب ويتحركون في طريق المعاصي والضلالة.

التقوى في كلام إمام المتّقين عليه السلام:

وطبقاً لما ورد في نهج البلاغة في الكلمات القصار للإمام علي عليه السلام بأنّه وصف التقوى بهذه العبارة:

«إِعْلَمُوا عِبادَ اللهِ إِنَّ التَّقْوىٰ دٰارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ، وَالْفُجُورُ دٰارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ، لٰا يَمْنَعُ أَهْلَهُ وَلٰا يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ»[2].

وحصيلة ما تقدّم أنّ التقوى ملكة مهمّة جدّاً ولها دور مؤثر في حياة الإنسان الدنيوية والأُخروية وينبغي السعي الجاد لتحصيل هذه الملكة أو تقويتها في أعماق النفس بآليات التوبة والاستغفار والأعمال الصالحة لاسيّما في شهر رمضان المبارك.

* * *

١. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج ٩، ص ٣٤٧؛ أسد الغابة، ج ٣، ص ٢٢٨؛ المعجم الكبير، الطبراني، ج ١٢، ص ٢٠٤.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٥٧.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٦

قسم سورة الذاريات

ومن جملة السور التي تتضمن قسماً واحداً، سورة الذاريات في الآية ٢٣، وهي السورة الرابعة التي ورد فيها القسم بكلمة «ربّ» والسورة السادسة التي ورد فيها قسم واحد:

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ۝٢٣﴾

شرح و تفسير: العلائم الثلاث للتوحيد

ومن أجل إلقاء الضوء على تفسير هذه الآية، لابدّ من الرجوع إلى الآيات الثلاث التي سبقتها، وهي:

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾. فموضوع البحث في هذه الآيات مسألة التوحيد ومعرفة الله، ومن هنا فإنّ الله تعالى تحدّث في هذا المجال عن علائم ثلاث تقرر هذه الحقيقة:

الأولى: آية الأرض، **الثانية:** آية النفس الإنسانية، **والثالثة:** آية السماء والرزق النازل منها.

وللأسف فإنّ الإنسان وبسبب اعتياده على رؤية هذه الآيات الإلهيّة لا يلتفت إليها من موقع الاهتمام والتدبر، فالأرض تحت أقدامنا هي الملجأ والملاذ وموطن الراحة لجميع أفراد البشر، وهي التي تؤمن غذاءنا ولباسنا ودواءنا. والكثير من الناس لا يفكرون في هذه النعمة العظيمة طيلة حياتهم، في حين أنّ الله تعالى يقرر في هذه الآية الشريفة أنّ الأرض تعتبر آية إلهيّة لمن يتحرك في خط اليقين والإيمان ومعرفة الله، والحقيقة أنّ الكرة الأرضية تعتبر من عجائب الخلقة وتختزن الكثير من الغرائب والعجائب والأسرار، ومن هنا فقد صنّف العلماء كتباً كثيرة في البحث ودراسة هذه الأسرار والعجائب للأرض، وجميع هذه الكتب في نظر الإنسان الموحّد، دروساً لتركيز التوحيد ومعرفة الله.

وأحد عجائب الأرض أنّها تنبت نباتات وأشجاراً وثماراً مختلفة، فبعضها حلو والآخر حامض وثالث مالح، وبعض الأطعمة زاخر بالدسومة، وبعضها يستخرج منه الأدوية، ونباتات أخرى تستخرج منها الألوان والعطور، أضف إلى ذلك اختلافها في الشكل واللون والهيئة وما إلى ذلك، أليس من العجيب أن تنبت مثل هذه الأنواع والألوان من الشجر والثمر في أرض واحدة؟

من هو الذي جعل كل هذه الورود الملونة وذات العطور المختلفة والثمار الحلوة والحامضة، والخضروات المتنوعة، تنبت في تراب واحد وتسقى بماء واحد؟

ما هو العنصر المشترك في جذور النباتات والأشجار التي تمتص الماء والغذاء من التربة وتنقله إلى جميع الأغصان والأوراق بالمقدار المناسب؟ إذا صنع البشر مصنعاً بحيث يؤتى إليه بالمواد الأولية من الماء والتراب من جهة، وينتج ثماراً ومحصولات متنوعة وتخرج من الجهة الأُخرى، فكيف سيكون إعجابنا بهذا العمل المدهش والمذهل؟ الأرض التي تحت أقدامنا تمارس هذه العملية باستمرار وفي كل مكان وزمان.

عندما يفكر الإنسان في عجائب الأرض وأسرارها، فسيتحرك فيه الشعور الايماني ويذعن لهذه الحقيقة الحاسمة، وهي «أنّ الأرض ليست فقط آية إلهيّة، بل تتضمن آيات إلهيّة كثيرة فيما تعكسه من معالم التوحيد للسالكين في طريق الايمان والمعنويات».

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾. الآية الإلهيّة الثانية التي يؤكد عليها القرآن الكريم، النفس الإنسانية، أجل ففي عالم الباطن وفي المحتوى الداخلي للإنسان آيات عديدة على التوحيد ومعرفة الله، ومما يؤسف له أننا اعتدنا على الحياة مع هذه الآيات الإلهيّة بحيث باتت هذه العادة حجاباً يمنعنا من رؤية هذه الآيات الإلهيّة على حقيقتها، وجميع أعضاء وجوارح الإنسان عجيبة ومذهلة، فلو لم يكن في الإنسان سوى العين أو الأذن بل حتى شعرة واحدة فذلك يكفي علامة وآية على معرفة الله، هل فكرتم يوماً بنسيج العين الدقيق ووظيفها الرائعة؟

ومن أجل توضيح الجواب عن هذا السؤال من المناسب إلفات النظر إلى ما يلي:

عندما يراد تصوير واقعة معينة، يتمّ نصب كاميرات من جهات متعددة لتأخذ فيلماً لهذه الواقعة من زوايا متعددة، ويقف عدد من أهل الخبرة وراء أجهزة التصوير هذه، وهناك عدد منهم مسؤولون عن تنظيم النور وبعض يتولى تنظيم الصوت، والخلاصة لابدّ من فريق كامل من أهل الخبرة يأخذون على عاتقهم تهيئة مقدمات العمل حتى يخرج الفيلم متناسباً ويتمّ تصويرالواقعة من جوانب متعددة، بيدا أنّ عين الإنسان تملك طبقات متعددة ونسيج عجيب، فهي تلتقط الصور والأفلام في كل لحظة من اليمين والشمال ومن الأعلى والأسفل بدون توقف وبدون تهيئة المقدمات المذكورة.

إنّ العين تنقل التصاوير الكثيرة إلى الدماغ بلحظات من مسافات بعيدة وقريبة، لأنّ تنظيم المسافة والنور يتمّ بطريق اوتوماتيكي، وعندما تلتقط الصور بمختلف

المقادير من النور والضوء تقوم بإرسالها إلى الدماغ، فيحتفظ الدماغ بهذه الصورة التي يحتاج إليها في مخزن الحافظة بحيث يستطيع الإنسان استعادتها بعد عشرات السنين وتذكرها.

هذا عضو واحد من الأعضاء الكثيرة في بدن الإنسان وله كل هذه العجائب، إنّ أجزاء بدننا متكوّنة من خلايا صغيرة جدّاً وتعتبر بمثابة الآجر لبناء البدن وتختزن أسراراً مدهشة، بحيث إنّ العلماء صنّفوا كتباً عديدة في عجائب وأسرار الخلية الحيّة، بل استطاع علماء عصرنا من وضع خلية واحدة في رحم الأنثى من حيوان وتهيئة ظروف مناسبة لنمو هذه الخلية حتى تصير بعد عدّة أشهر حيواناً كاملاً بدون تلقيح نطفة الذكر مع بويضة الأنثى.

أجل، إنّ إلقاء نظرة على نسيج هذا البدن العجيب والزاخر بالأسرار يعكس في ثناياه عظمة الباري تعالى: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»[1].

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

سؤال: ما المقصود بالرزق الموجود في السماء؟

الجواب: يعتقد المفسّرون بأن المقصود منه قطرات المطر، فعندما تنزل قطرات المطر تبعث على الحياة ونمو المحاصيل الزراعية في تلك المنطقة. إنّ أهميّة الماء في عالم الوجود وفي بدن الإنسان إلى درجة بحيث إنّ $\frac{٣}{٤}$ الكرة الأرضية تغطيها المياه، كما أنّ $\frac{٣}{٤}$ بدن الإنسان يتكون من الماء، نعم، القطرات النازلة من السماء، هي منشأ رزق الإنسان وحياته.

ولكن هل الرزق السماوي ينحصر بالمطر؟ أليست أشعة الشمس والتي تتسبب في حياة جميع الموجودات الحية على الأرض، ولولا أشعة الشمس لما استطاعت

---

١. ولهذا الحديث الشريف تفاسير مختلفة ذكرنا الكلام عنه بالتفصيل في كتابنا: الأخلاق في القرآن، ج ١، ص ٣٢٨ فصاعداً.

الأحياء من الاستمرار في حياتها، أليست هذه الأشعة تأتينا من السماء؟

أليس الهواء، الذي يحتاج إليه الإنسان وسائر الكائنات الحية في كل لحظة، يعتبر من رزق السماء؟ فلماذا نحصر رزق السماء في المطر فقط، وماالمانع من القول إنّ كل هذه الأمور والنعم الإلهيّة مصداق لرزق السماء.

التفسير الآخر لقول تعالى ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ أنّ المراد بذلك، المقدرات الإلهيّة[1] أي أنّ الله تعالى قدّر أرزاقكم في السماء، فلا ينبغي للإنسان أن يعيش الحرص والطمع ويتهافت على حطام الدنيا ويتناول الحلال والحرام لضمان رزقه وحياته،لأنّ مقدرات الرزق عند الله، ويجب على الإنسان أن يقنع بما قدرّ له الله تعالى من رزق.

﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ وقد اختلف المفسّرون في تفسير هذه الجملة على أقوال:

١. المراد منها الجنّة، لأنّ الجنّة تقع في السماء.

٢. المقصود به الملائكة الذين ينتظرون الأوامر الإلهيّة في السماء ليقوموا بتنفيذ هذه الأوامر الموكلة إليهم.

٣. الثواب والعقاب[2].

﴿مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾؛ أي قسماً بربّ السماء والأرض أنّ رزقكم مقدر في السماء ولا شك ولا شبهة في ذلك، كما لا شك ولا شبهة في أنّكم تتكلمون، بمعنى أنّ عملية الكلام والنطق بالنسبة لكم بديهية ولا غبار عليها، والتقدير الإلهي بالنسبة للرزق والنعم الإلهيّة أيضاً بهذا المقدار من الوضوح والبداهة.

سؤال: لماذا شبّهت الآية الشريفة تقدير الرزق بالكلام والنطق من بين جميع الأعمال والأفعال التي يقوم بها الإنسان في الحياة؟

---

١. مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٦٠.

٢. المصدر السابق.

الجواب: لأنّ الإنسان ربّما يخطيء في رؤيته ونظره، أو ربّما يرتكب خطأ في سماعه، ولكنّه لا يمكن أن يقع الخطأ في كلامه، ومع الأخذ بالاعتبار أنّ الكلام واضح لدى جميع الناس واحتمال الوقوع في الخطأ قليل جدّاً أو لا يحتمل الوقوع في الخطأ في عملية التكلّم فقد ورد التشبيه به.

أضف إلى ذلك أنّ النطق يعتبر من امتيازات الإنسان وليس كذلك النظر والسمع فلا تختص بالإنسان بل الحيوانات تملك السمع والنظر وربّما بقدرات أشد من الإنسان، ومن هنا فإنّ النطق يختص بالإنسان ومن امتيازاته، وعندما نسمع أنّ الببغاء تتكلّم فذلك لا يكون عن فهم وشعور بل على أساس التلقين فلا تفهم الببغاء ما تقوله.

التقدير في الرزق أو السعي للرزق؟

سؤال: ما معنى تقدير الرزق في الآية؟ هل يعني ذلك أنّ الإنسان بإمكانه أن يجلس جانباً ولا يبذل أي جهد وعمل انتظاراً للتقدير الإلهي؟

الجواب: أوّلاً: إنّ الله تعالى لم يضمن الرزق للإنسان فحسب، بل ضمن الرزق لجميع الموجودات الحيّة في العالم ولذلك نقرأ في الآية ٦ من سورة هود:

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

أجل! فالباري تعالى ضمن رزق جميع الموجودات ويعلم بمحل معيشتها الدائم والمؤقت، وعلى هذا الأساس لا ينبغي لأي أحد أن يقلق لرزقه ومعاشه.

أمّا كيفية إيصال الرزق إلى بعض الكائنات الحية فعجيبة جدّاً، مثلاً هناك بعض الأسماك في البحار رزقها في السماء وذلك في «السمك المجنّح» الذي يصطاد طعامه بأن ينبسط على سطح الماء، فتتصور الطيور أنّ هذا المكان مناسب لهبوطها

عليه، وعندما تنزل الطير وتقف على هذه السمكة تتجمع السمكة فجأة وتحيط بالطير وتصطاده وتنزل إلى الأعماق.

ومن جهة أخرى نرى أن بعض طيور السماء تصطاد غذاءها من البحر، فبعد أن يشاهد هذا الطير صيده في الماء ينزل بسرعة إلى سطح البحر ويدخل الماء إلى مسافة عشرة أمتار وأحياناً أكثر من ذلك ويصطاد السمكة ويخرج من الماء، والعجيب في هذا الأمر عملية تشخيص السمكة من تلك المسافة العالية والبعيدة، فكيف يستطيع هذا الطائر تشخيص هدفه بدقّة ثم اصطياده بتلك المهارة والسرعة؟ إنّ الاجابة عن جميع هذه الأسئلة وردت في هذه الآية الشريفة وأنّ الله تعالى ضمن رزق جميع الأحياء.

والأعجب من ذلك ما قرأته في إحدى الصحف الصادرة قبل الثورة الإسلامية، حيث ورد في تلك الصحيفه أنّه توجد أنواع من الحيتان العظيمة في البحار عندما تأكل طعامها من الأسماك الأخرى تبقى أجزاء من لحوم تلك الأسماك بين أسنانها، وهذه الحيتان لا تستطيع السواك أو إخراج هذه القطع الصغيرة من اللحوم بواسطة التخليل، ولكن الله تعالى ألهمها بأن تخرج من البحر وتضطجع على الساحل وتفتح فمها للتخلص من الأجزاء الصغيرة من اللحم بين أسنانها بواسطة الطيور الجائعة التي تنزل على هذه الحيتان لطلب الغذاء وتدخل إلى أفواهها وتبدأ بالتقاط تلك الأجزاء الصغيرة من اللحم المزاحمة لهذه الحيتان، والعجيب أنّ هذه الحيتان تبقى أفواهها مفتوحة إلى أن يلتقط آخر طير من هذه الطيور آخر قطعة من اللحم من بين أسنانها، ثم يخرج ذلك الطير ويغلق الحوت فمه.

إنّ الله تعالى ومن خلال إلهام هذه الحيتان العظيمة وإلهام تلك الطيور في البحث عن طعامها، أشبع هذه الطيور وأراح تلك الحيتان من تلك الأجزاء المزاحمة.

وخلاصة الكلام، أنّه لا شك في أنّ الله تعالى ضمن رزق جميع الأحياء من

الإنسان وغير الإنسان، ومضافاً إلى هذه الآية المذكورة فهناك آيات أخرى وردت في القرآن الكريم وكذلك في روايات المعصومين عليهم السلام تقرر هذه الحقيقة.

ولكنّ النقطة المهمّة هنا أنّ الله تعالى ضمن الرزق للمخلوقات بشروط خاصّة وأحدها السعي وبذل الجهد لطلب هذا الرزق واكتسابه، يقول الإمام علي عليه السلام:

«أُطْلُبِ الرِّزْقَ فَإِنَّهُ مَضْمُونٌ لِطَالِبِهِ»[1].

وعلى ضوء ذلك فإنّ الله تعالى لا يضمن رزق الأشخاص الذين يعيشون الكسل وطلب الراحة ولا يتحركون في سبيل الكسب وتهيئة أمور المعاش، بل الضمان الإلهي ينحصر بمن يسعون في طلب الرزق، كما هو المثل المعروف بين الناس: «منك الحركة ومن الله البركة».

سؤال: لماذا ضمن الله تعالى الرزق للناس؟

الجواب: إنّ الإنسان حريص بذاته: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾[2]، ولذلك فإنّه يتحرك في طلب الرزق وتحصيل أمور المعيشة من موقع الحرص والهلع خوفاً من بقائه جائعاً، وخوفاً على مستقبل أولاده، والشخص الذين يعيش الحرص والهلع يقوده هذا الحرص إلى ارتكاب الذنوب والتلوث بأنواع المعاصي.

فالحريص ربّما يميل إلى أخذ الرشوة، وربّما يأكل الربا، ويحتمل أن يغش في معاملاته أو يطفف في الميزان، والخلاصة أنّه لا يمتنع من أي ذنب ومخالفة من أجل كسب الرزق، كل ذلك بدافع الطمع والجشع والحرص، ولكن إذا علم أنّ رزقه مضمون عند الله وعليه أن يتحرك في طلبه، فإنّه لا يجد باعثاً على التلوّث في وحل الذنوب.

---

١. ميزان الحكمة، باب ١٤٧٩، ح ٧١٢٧.

٢. سورة المعارج، الآية ١٩.

البطالة ووظيفة المسؤولين:

عندما يلتقي رجل غريب رسول اللهﷺ ويلفت نظره إليه فإنّ رسول اللهﷺ يسأل عن شغله، فإذا قيل له إنّه عاطل عن العمل، يقول: لقد سقط من عيني![1]

ومن هنا فلا ينبغي للإنسان أن يجلس عاطلاًولا يتحرك في طلب الكسب والعمل، لأنّ البطالة منشأ لمفاسد كثيرة وتترتب عليها عواقب وخيمة، فكثير من الجرائم والمخالفات القانونية وأشكال الجنوح سببها البطالة. ولذلك يجب على الحكومة والمسؤولين أن يوفّروا فرص العمل للشبّان مهما أمكن ويحلّوا مشكلة البطالة، ويجب على الشبّان الأعزاء أيضاً أن يتحركوا بجدية بحثاً عن العمل، ويقنعوا بأي عمل يمنحهم المال الحلال، ولا يطلبوا الأعمال المريحة فقط.

بحوث تكميلية:

١. سعة مساحة الرزق الإلهي!

سبق أن ألمحنا إلى أنّ الله تعالى لم يضمن الرزق للإنسان فقط، بل ضمن رزق جميع الموجودات الحية حيث يصل إليها رزقها بأشكال مختلفة، وهذه الظاهرة في بعض الموارد عجيبة ومدهشة، وقد سبق أن ذكرنا بعض النماذج من ذلك، وهنا نستعرض نماذج أخرى منها:

أ) ذرات الورود والنباتات والأشجار

إنّ جميع أنواع الورود والأشجار مكوّنة من الذكر والأنثى، وهذا الأمر لا يختص بالورود فقط، بل يسري إلىٰ جميع الكائنات أيضاً، كما تصرّح بذلك الآية الشريفة

---

١. بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٩. ضمناً وردت روايات عديدة في ذم البطالة، كتاب ميزان الحكمة، الباب ٣١٩٨.

٤٩ من سورة الذاريات: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وهذه الآية في الواقع معجزة من معجزات القرآن العلمية حيث صرّح القرآن بهذه المعجزة العلمية قبل اكتشاف البشر لها بأكثر من ألف عام.

على أيّة حال فإنّ داخل الوردة هناك مياسم تحمل على رؤوسها ذرات اللقاح وتمثّل القسم الذكوري من الوردة، وأسفل منها يوجد العضو الأُنثوي ويسمى بـ «المدقّة»، حيث تتناثر حبوب اللقاح من المياسم وتقع في المدقّة وتبدأ بالنمو والرشد حيث تتشكل الثمرة منها، وهكذا نرى أنّ تلك الحبوب والذرات الصغيرة لا تقع بشكل طبيعي على الجزء الانثوي من الوردة، بل إنّ هذه العملية تتمّ بواسطة نسيم الهواء أحياناً أو بواسطة بعض الحشرات كالنحل والفراشات وبعض أنواع الذباب.

وتوضيح ذلك: يوجد في أعماق الوردة مادة سكرية تجذب النحلة إليها، فتأتي النحلة لتمتص هذه المادة السكرية لتصنع منها العسل، وعندما تقف على الوردة تتلوث أقدامها وأجنحتها بحبوب اللقاح بشكل لا إرادي، وعندما تمرّ بالجزء الأُنثوي فإنّ تلك الذرات الصغيرة تقع عليه وتتم عملية التلقيح بهذه الصورة، وأمّا النحلة فبعد أن تمتص المادة السكرية من الوردة تطير خارج الوردة وتتوجه لخلية النحل، وهكذا تنتقل النحلة من هنا وهناك وتهبط على الورود والأزهار وتمتص رحيقها وتصنع منه العسل، وهذا يعني أنّ كيلو غراماً من العسل ربّما يكون حصيلة الآلاف المؤلفة من الورود والأزهار، وعلى أيّة حال فإنّ عملية التلقيح هذه تتمّ بواسطة الحشرات، يقول أحد العلماء: إذا لم تهب الرياح مدّة سنة كاملة وتقرر الحشرات الاعتصام عن العمل، فإنّ جميع محلات بيع الفاكهة ستفرغ من الفاكهة. أليس من العجيب أنّ الله تعالى جعل رزق جميع البشر في العالم متقوم بنسائم الهواء وأقدام الحشرات؟

ب) الحيوانات التي لاترى أُمهاتها ولا أولادها!

ينقل المرحوم آية الله الخادمي الاصفهاني في كتابه «القائد إلى السعادة»، في فصل معرفة الله: إنّ بعض الطيور تسلك في عملية إطعام أولادها وتربيتهم نظاماً خاصاً، فهذه الطيور بعد أن تضع بيوضها تفارق الحياة قبل أن تخرج الفراخ من البيضة، أي أنّها لاترى فراخها أبداً، كما أنّها لم تر في السابق أمهاتها، وعلى هذا الأساس فلاترى هذه الطيور أُمهاتها ولا فراخها، ولكن في ذات الوقت تهيىء الطعام لفراخها قبل أن تموت حيث يقوم هذا الطير بحفر الخشب وأغصان الأشجار ويضع فيها بيوضه ويجمع المواد الغذائية التي تحتاجها الفراخ بعد ولادتها إلى أنّ تشتد أجنحتها وتقوى على الطيران وتضعها إلى جانب البيوض، ثم تصنع طبقة من الغشاء على البيوض وتلك الأغذية، ومرّة أخرى تضع بيضة أخرى في ثقب آخر وتضع معها مقداراً معيناً من الغذاء الذي يحتاج إليه الفراخ بعد خروجه من البيضة وتغطيه بغشاء تصنعه لهذا الغرض، وهكذا تضع بيوضها بهذه الصورة وقبل أن تخرج الفراخ من البيوض تفارق الحياة.

الواقع إنّ الإنسان يتحير من هذه القدرة لدى هذا الطير الذي يسمى بـ «آكسيكلوب»، حيث يتحرك الطائر لتهيئة الغذاء اللازم لفراخه التي لا يراها أبداً.

كيف تعلمت هذه الفراخ التي لم تر أُمهاتها على التغذية والطيران، ثم تقوم بنفس تلك الأعمال لفراخها في المستقبل؟!

ج) الموجودات الحية في أعماق البحار

وتوجد على عمق ٧٠٠ متر، و١٠٠٠ متر و٢٠٠٠ متر، و٥٠٠٠ متر في أعماق البحار والمحيطات كائنات حية في تلك الأعماق، فكيف تعيش وتتغذى هذه الكائنات في ذلك العمق؟ يعتقد بعض العلماء بأنّها تأكل بعضها بعضاً، ولكن لا

يخفى بطلان هذه النظرية، لأنّه سرعان ما ينقرض نسلها وتنتهي، في حين أنّها تزداد يوماً بعد آخر، ومن المحال نمو النباتات في ذلك العمق الكبير، لأنّ ضوء الشمس لا ينفذ لأكثر من ٧٠٠ متر وبعدها تسود الظلمات بشكل مطلق في تلك الأعماق، وبعبارة أخرى إنّ الليل سرمدي هناك، فمن المحال أن تنمو النباتات والأعشاب في ذلك العمق، ونعلم أنّ الغذاء الأصلي للحيوانات البحرية هي النباتات، رغم أنّ بعض الحيوانات البحرية تأكل بعضها الآخر، ولكن الكثير منها يتغذى على النباتات وقد جعل الله تعالى لتغذية هذه الحيوانات الحية في أعماق البحار طريقة شيقة للتغذية، حيث تنمو نباتات صغيرة جداً على سطح البحار بسبب إشراق أشعة الشمس على البحار وعندما تنمو هذه النباتات وتصل إلى مرحلة معينة تثقل، وبسبب ثقلها تنزل إلى أعماق البحار، وهناك تتغذى عليها تلك الموجودات الحيّة في ذلك العمق، وفي الحقيقة إنّ الباري تعالى قد جهز لها مطبخاً كبيراً على سطح البحار لتهيئة الغذاء لتلك الكائنات التي تعيش في أعماق البحار والمحيطات، فما أعجب هذا النمط من تهيئة الغذاء لتلك الموجودات العجيبة، وهذا بذاته دليل على التوحيد ومعرفة الله سبحانه.

د) كيفية تغذية الجنين

إنّ الله تعالى قدّر الأرزاق لجميع الكائنات حتى الجنين الموجود في الظلمات الثلاث، أجل فالرزاق الحكيم يرزق هذا الجنين المغطى في ستائر ثلاثة، «بطن الأُم، الرحم، والمشيمة» ويوصل له الغذاء والماء والاوكسجين الذي يحتاجه في حياته ونموه وذلك من خلال الغذاء الكامل الموجود في دم الأُم الذي ينتقل إلى الجنين بواسطة حبل المشيمة، وعندما يولد الطفل فإنّ بعض ذلك الدم الموجود في بدن الأُم يتبدل إلى لبنٍ خالص وعذب، فيتناوله الطفل بشراهة، فهذا اللبن كان مهيأً له حتى قبل ولادته.

ومع العلم بأنّ الله تعالى ضمن أرزاق جميع الكائنات وكل واحد منها يرزقه بطريقة عجيبة ومحيّرة، فلماذا نحن البشر نعيش القلق والهم والحزن على تدبير المعيشة والكسب، ولا نراعي مسائل الحلال والحرام في كسب المال وتوفير الرزق.

٢. الغرض من السعي للكسب

السؤال الذي يفرض نفسه هنا: لماذا يجب علينا السعي وبذل الجهد لتحصيل الرزق وكسب المال؟ لماذا لا يكون رزقنا في الدنيا كما هو حال أهل الجنّة الذين يرزقون منها بدون أي سعي وبذل جهد، فلو كان حال أهل الدنيا كذلك فربّما يعبدون الله بدون هاجس الرزق والكسب؟

ألا يستطيع الباري تعالى أن يخلق أشجار الفاكهة وينبت الحبوب من الحنطة والشعير والرز كما نراه من الأعشاب التي تنمو لوحدها،وحينئذٍ يستفيد منها الإنسان بدون تعب وعمل، فلماذا لم يجعل الله تعالى الأشجار والثمار والحبوب كذلك؟

الجواب: إنّ الآية الشريفة ٢٧ من سورة الشورى تجيب عن هذا السؤال:

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.

أجل! فإنّ الإنسان إذا عاش حالة الكسل والبطالة فسوف تتحرك عناصر الطغيان والفساد في نفسه لذلك نعتقد بأنّ أحد أسباب الوقوع في المعاصي والذنوب هو العطالة وعدم الكسب والعمل، كما أنّ العطالة تعدّ من الأسباب الرئيسية في الإدمان على المخدرات ومن هنا جعل الله تعالى الرزق وتحصيل المال المقدّر مرتبطاً بالعمل والكسب حتى لا يتحرك الإنسان في خط الطغيان والفساد.

٣. الرزق ومساحته

يقول تبارك وتعالى في الآية الشريفة ١٢ من سورة الشورى:

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

فبالرغم من أنّ الله تعالى ضمن الرزق لجميع الأشخاص الذين يتحركون في طلب المال والكسب، إلّا أنّ مقدار رزق كل واحد منهم يختلف عن الآخر، وذلك حسب قابلياتهم وملكاتهم، لأنّ قابلية بعض الناس قليلة إلى درجة إذا تحسنت حالته المادية قليلاً وازدادت أمواله بشكل مختصر، فإنّه سوف ينسى كل شيء حتى الله تعالى ولذلك ينزل الرزق كل بحسبه وبمقدار ظرفيته، لأنّ الله حكيم وهذا هو مقتضى حكمته، وأضف إلى ذلك فإنّ التفاوت في مقدار الرزق يعتبر نوعاً من الامتحان الإلهي ليتبيّن مَن من الأغنياء يمد يد المساعدة للفقراء والمحتاجين، ومَن لا يكون كذلك؟ ونعلم أنّ الامتحان يعمل على تحريك الإنسان في خط التكامل.

٤. الرزق غير المتوقع؟

سؤال: يقول القرآن الكريم:

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1].

فلماذا يرزق الله تعالى المتقين من مواقع غير متوقعة ويوصل لهم رزقهم من موارد ليست بالحسبان؟

الجواب: وقد ورد جواب هذا السؤال في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إِنَّ اللهَ جَعَلَ أَرْزَاقَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُونَ، وَذٰلِكَ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَمْ يَعْرِفْ وَجْهَ رِزْقِهِ كَثُرَ دُعَاؤُهُ»[2].

---

١. سورة الطلاق، الآيتان ٢ و ٣.

٢. البرهان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٤٠٩، ح ١٠٨٣٠.

وبما أنّ الدعاء يملك قيمة خاصّة ومكانة سامية في المعارف الإسلامية، فإنّ الله تعالى قرر حالات تقتضي أن يتوجه العباد إليه بالدعاء وينفتحوا على أبواب الرحمة الإلهيّة بالتوسل والابتهال، ليصلوا من خلال الدعاء والابتهال إلى مقامات عالية ومراتب سامية في سلّم المعنويات، وعلى هذا الأساس يجب علينا الاهتمام بعنصر الدعاء والتوجه إلى الله، ونسأله ونبتهل إليه لحلّ مشكلاتنا ومشكلات الآخرين وخاصّة في الليالي والأيّام التي يكون للدعاء فيها أهميّة خاصّة وورد التأكيد على الدعاء فيها في النصوص الدينية، مثل ليلة الجمعة ويومها وليالي شهر رمضان المبارك وأيّامه.

٥. أهميّة الرزق الحلال

لقد اهتم الإسلام اهتماماً خاصّاً بالرزق الحلال، وأكّد للمسلمين على ضرورة الكسب الحلال ونهى عن أكل لقمة الحرام، فنحن نعتقد بأنّ الكسب بآليات غير مشروعة وأساليب محرمة ليس فقط لا يزيد من رزق الإنسان بل من شأنه أن يوقع الإنسان في زاوية الفقر والمسكنة، ولا يستطيع هذا الشخص أن يكسب بآليات الحرام سوى ما قدّر الله له من الرزق الحلال.

«دخل عليّ عليه السلام المسجد وقال لرجل: أمسك عليّ بغلتي، فخلع لجامها وذهب به، فخرج عليّ عليه السلام بعد ما قضى صلاته وبيده درهمان ليدفعهما إليه مكافأة له، فوجد بغلته عطلاً، فدفع إلى غلامه الدرهمين ليشتري بهما لجاماً، فرأى الغلام اللجام المسروق في السوق، قد باعه الرجل بدرهمين، فأخذه بالدرهمين وعاد إلى مولاه، فقال عليّ عليه السلام:

«إنّ العَبدَ لَيحرُم نَفسَهُ الرِّزقَ الحلال بتَركِ الصَّبر، ولا يزداد على ما قدّر له»[١].

ينبغي اجتناب الطعام الحرام لأنّه يفضي بالإنسان إلى أن يعيش حياة تعيسة ومظلمة ويمنع استجابة الدعاء كما ورد ذلك في الروايات الشريفة[٢].

إنّ الغفلة عن الآثار السلبية للقمة الحرام توقع الإنسان في دوامة من المشاكل والعواقب الوخيمة، وأحياناً يكون نتاج هذه اللقمة الحرام ولداً فاسداً لأبوين صالحين، فبعد الفحص والبحث يتبيّن أنّ هذا الأب الطيب والصالح قد غفل لحظة في أحد الأيّام ودخل المال الحرام إلى أمواله واختلط بها، وقد اشترى بذلك المال طعاماً وتناوله فكانت نطفة هذا الولد من تلك اللقمة الحرام، وتكون عاقبة هذا الابن أن يصبح لصاً وسارقاً أو مدمناً على المخدرات، أو خارجاً عن الدين وأمثال ذلك.

إذا أردنا الحياة السعيدة وإذا أردنا الحياة في ظلّ السلامة والأمن في الدنيا والآخرة، وإذا أردنا أن تكون عاقبتنا حسنة، فيجب علينا السعي لطلب الحلال، وإلّا فإننا سوف لا نرى وجه السعادة ولا تنفتح أمامنا أبواب الخير ولا نعيش الطهر والنقاء في حياتنا، ولا تكون عاقبتنا إلى خير، ولا نوفق للعبادة الخالصة والدعاء المستجاب.

❋ ❋ ❋

---

١. ميزان الحكمة، باب ١٥٠١، ح ٧٢٢٨.

٢. المصدر السابق، ج ٣، باب ١١٩٧، ح ٥٥٩٨.



قسم سورة المعارج

المورد الآخر من موارد القسم المفرد الذي يقسم به الله تعالى بكلمة «ربّ»[1] هو ما ورد في الآية الشريفة ٤٠ من سورة المعارج.



شرح وتفسير:

لابدّ قبل الشروع بتفسير هذه الآية من إلقاء نظرة على عدّة آيات قبلها وبعدها وبيان المقصود منها بشكل إجمالي، ونبتديء هذا البحث من الآية ٣٩:

﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾؛ حيث تشير هذه الآية إلى دليل عقلي على إمكان المعاد وإحياء الأموات مرّة أخرى.

وتوضيح ذلك: إنّ الله تعالى يقول: إنّ هؤلاء يعلمون من أي شيءٍ خلقناهم؟ لقد خلقناهم من قطرة ماء آسن وعديمة الأهميّة، فما الفرق بين قطرة ماء أو ذرة تراب؟ فالله تعالى وهو القادر المطلق الذي يستطيع خلق الإنسان من قطرة ماء «نطفة» فلا شك في أنّه قادر على أن يخلق الإنسان من ذرة تراب أيضاً،

---

١. تعتبر هذه الآية، الآية الخامسة التي أقسم الله تعالى فيها بكلمة «ربّ».

وعلى ضوء ذلك فلماذا تشكون في هذه المسألة وتأتون إلى النبي ومعكم عظام بالية وتعملون على تفكيكها وتبديلها إلى تراب وتذرونها في الهواء ثم تسألون عن كيفيةإعادة هذا الإنسان إلى الحياة مرّة ثانية؟!

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾؛ طبقاً لهذه الآية فإنّ الله تعالى أقسم بـ «ربّ المشارق والمغارب» أنّ الله تعالى قادر على إعادة خلق الإنسان مرّة أخرى.

المشرق والمغرب في القرآن

وقد وردت في القرآن الكريم ثلاث عبارات للمشرق والمغرب:

١. بصيغة الجمع من قبيل ما ورد في الآية محل البحث.

٢. بصيغة التثنية من قبيل ما ورد في الآية ١٧ من سورة الرحمن: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾.

٣. بصيغة المفرد من قبيل ما ورد في الآية الشريفة ١١٥ من سورة البقرة: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾.

والسؤال الذي يفرض نفسه في هذا الموضوع: هل هذه التعابير متناقضة فيما بينها، أم هناك غاية خاصّة في هذا الاختلاف في التعابير؟

لا شك في عدم وجود أي تناقض وتضاد في هذه الآيات المذكورة، بل لا يوجد أي تناقض في جميع القرآن الكريم، وما يشاهد من اختلاف فيالآيات الكريمة فإنّه يختزن نقطة مهمّة بالإمكان تشخيصها بقليل من التأمل والتدبر.

أمّا عبارة «المشرق والمغرب» فناظرة إلى الجنس، بحيث يشمل جميع الأفراد والمصاديق، وعليه فالمقصود من ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ هو أنّ جميع المشارق والمغارب لله تعالى، كما أننا عندما نقول: الإنسان عجول، أي أنّ جميع أفراد

ومصاديق الإنسان يتصفون بهذه الصفة.

وأمّا عبارة «المشارق والمغارب» فمع أنّ المقصود منها لم يكن بتلك الدرجة من الوضوح والشفافية في عصر نزول الوحي، ولكن علماء الهيئة والفلك كشفوا الستار عن السر في هذه العبارة، حيث يعتقد هؤلاء العلماء بأنّ المشرق والمغرب بعدد أيّام السنة (٣٦٥ يوماً)، بمعنى أنّ النقطة التي تشرق منها الشمس في هذا اليوم تختلف عن جميع النقاط الأخرى التي تشرق منها الشمس في سائر أيّام السنة الأخرى. وكذلك الحال بالنسبة لنقطة غروب الشمس، بمعنى أنّ الشمس إمّا أن تغرب في المكان الأعلى من المدار الذي غربت فيه الشمس بالأمس أو أسفل منه.

وعليه فإنّ مدارات طلوع الشمس وغروبها متفاوتة بعدد أيّام السنة، فعلى طول السنة يكون لدينا ٣٦٥ مغرباً ومشرقاً. ولذلك فالتعبير بالمشارق والمغارب لا يخلو من دقّة وظرافة.

أضف إلى ذلك أنّ هذا التعبير يختزن إشارة للتوحيد، وإشارة أخرى لمسألة المعاد. أمّا مسألة التوحيد فإنّه لو لم يكن هناك مشارق ومغارب ولم تكن فصول السنة متغيرة، أي أنّ الجو الحار في الصيف سيتبدل في لحظة واحدة إلى جوٍ شتوي بارد وبالعكس فإنّ الكثير من الناس سيتعرضون للمرض أو الهلاك والموت. كما أنّ الإنسان إذا خرج من حمام حار ثمّ دخل في حوض بارد فجأة، فإنّ سلامته البدنية ستتعرض للخطر، ولكنّ الله تعالى لحفظ سلامة البشر وتأمين سلامتهم جعل هذا الانتقال من الجو الحار إلى الجو البارد وبالعكس بصورة تدريجية لئلا يتعرض الإنسان والموجودات الحية إلى الخطر المذكور، لأنّ الخالق حكيم ويعلم أنّ الإنتقال الفجائي سيترك آثاراً سلبية على الإنسان وسائر الموجودات الأخرى.

وأمّا الدرس الذي نستوحيه من هذه الآية للمعاد فهو أنّ الله تعالى الذي يستطيع أن يعيد فصول السنة مرّة ثانية، وبعد إتمام فصل الربيع والصيف وشروع فصل

الخريف والشتاء، وما يخلفه الشتاء من موت للطبيعة فإن الربيع يأتي مرّة ثانية ويعيد جميع الأشياء إلى الحياة والحركة، فهذا القادر يستطيع أيضاً إعادة الإنسان مرّة ثانية إلى الحياة.

النتيجة أنّ عبارة ﴿رَبُّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ تتضمن نكتة علمية مهمّة وتعدّ نوعاً من الإعجاز العلمي للقرآن، وتتضمن مع ذلك نقطتين في التوحيد والمعاد، وطبعاً هذا الفهم الدقيق للآية الشريفة إنّما يناله من يعيش التفكر والتدبر في آيات القرآن ولا يمرّ عليه مرور الكرام.

وأمّا عبارة ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ فالمراد منها أنّ الشمس وكما تقدم في البحوث السابقة، تتحرك إلى جهة الشمال من الكرة الأرضية «وطبعاً لا يخلو هذا التعبير من مسامحة ونحن نعلم أنّ الكرة الأرضية هي التي تدور من حول الشمس» بمعنى أنّ الشمس في أول الربيع تقع في مقابل خط الاستواء وتبدأ بالحركة اتجاه النصف الشمالي من الكرة الأرضية، وهذا الصعود في مدارات الشمس يستمر إلى أول الصيف حيث تصل الشمس إلى مدار ٢٣ درجة، فالأشخاص الذين يعيشون في مدار ٢٣ فإنّ الشمس تكون عمودية على رؤوسهم ويكون الفصل حينئذٍ فصل الصيف، ولذلك ينعدم الظلّ هنا، ويطلق العلماء على هذا المدار اسم «رأس السرطان» وتبدأ الشمس بعد وصولها إلى مدار ٢٣ درجة، بالتحرك إلى النقطة الأولى وتصل إلى تلك النقطة بعد ٩٠ يوماً، أي تصل إلى خط الإستواء، ثم تبدأ بالحركة إلى النصف الجنوبي من الكرة الأرضية وبعد أن تمضي ٩٠ يوماً تصل إلى مدار ٢٣ درجة إلى جنوبي خط الإستواء والذي يتفق في بلداننا مع أول الشتاء. وهذا المدار يسمى مدار «رأس الجدي». ثم تبدأ الشمس بالتحرك والعودة إلى نقطة البداية، أي خط الاستواء، وبعد أن تمضي ٩٠ يوماً من سفرها هذا تصل إلى خط الاستواء.

النتيجة أنّ الشمس تتحرك باتجاه النصف الأعلى من الكرة الأرضية إلى أن تصل إلى ٢٣ درجة فوق خط الاستواء، ولها حركة أخرى باتجاه النصف الجنوبي من الكرة الأرضية حتى تصل إلى ٢٣ درجة، ومن هنا يكون المشرق والمغرب في درجة من الوضوح في الرؤية في ابتداء وانتهاء هاتين الحركتين، فالله تعالى القادر على ايصال الشمس إلى رأس السرطان، والقادر على إعادتها إلى مكانها السابق، بل ايصالها إلى أسفل من ذلك وهو مدار رأس الجدي، قادر أيضاً على إعادة خلق الإنسان مرّة ثانية.

وعندما يتحدّث الله تعالى عن هذه الأمور الفلكية الدقيقة في أجواء كانت الأُميّة هي السائدة وكان ٩٩/٥ بالمائة من الناس لا يعرفون القراءة والكتابة، فإنّ الحديث عن حركات الشمس والأرض ومداراتها يدلّ على الاعجاز العلمي للقرآن الكريم.

النتيجة إنّ ما ورد في الآيات القرآنية من عبارات مختلفة للمشرق والمغرب، لا تضاد بينها أبداً، وقد أقسم الله تعالى بربّ المشارق والمغارب لتقرير وإثبات المعاد وعودة الإنسان من جديد إلى الحياة.

آثار الإيمان بالمعاد:

إنّ الايمان بالمعاد بإمكانه أن يحلّ مشاكل المجتمعات البشرية، وتترتب عليه نتائج كثيرة في حياة الإنسان على المستوى الفردي والاجتماعي، وما تعيشه البشرية من مشاكل ومصاعب وأزمات يعود إلى وجود خلل في إيمان الناس بالمعاد والحساب والكتاب في ذلك اليوم.

وقد كنت قبل الثورة الإسلامية اسافر إلى طهران في أيام الخميس والجمعة وارتقي المنبر للتبليغ، وفكرت في أن أقوم بعمل ثقافي أساسي، ولهذا كنت في يوم الجمعة أكتب حديثاً شريفاً مع ترجمته إلى الفارسية وذكر مصدره وشرح مختصر

لهذا الحديث، ثم استنسخه إلى عدّة نسخ وأقوم بتوزيعه على حضار المجلس الذين كانوا غالباً من الشبّان ثم ارتقي المنبر وأتحدث حول ذلك الموضوع الوارد في الحديث الشريف، ثم أقترح عليهم إجراء مسابقة لحفظ هذه الأحاديث وتوزيع الجوائز بعد ذلك على الفائزين، وعندما كان يحين يوم الامتحان ويشترك الكثير من الشبّان فيه، تقرر أن يكتب المشاركون أربعين حديثاً مع إعرابها وترجمتها وذكر المصدر لها، وقد فاز الكثير من المشاركين بالجائزة، واللافت أنّ عدد من المشاركين كانوا يكتبون الحديث بلون خاص، وإعرابه بلون آخر، وترجمته وذكر مصدره بألوان أخرى. وقد تبرع أحد التجار الأخيار بالجوائز وقمنا بتقسيمها على الفائزين، ثم كتابة تقرير عن كيفية إجراء هذه المسابقة والأشخاص الفائزين ومقدار الجوائز المهداة لهم، وقد اقترحنا على ذلك التاجر الخيّر أن نكتب إسمه على الجوائز، ففكر قليلاً وقال: «لا تكتبوا اسمي، فلو كتبتم اسمي فإنني أخشى أن يحذف اسمي في مكان آخر أنا في أشد الحاجة له في ذلك اليوم» إنّ هذه الكلمات إنّما تترشح من ذهن إنسان يعتقد بالمعاد، هذا الشخص يخاف أن يتلوث عمله بشائبة الرياء ولا يكون مقبولاً عند الله تعالى.

تأثير الإيمان بالمعاد في حياة الإمام علي عليه السلام:

إنّ قضية المعاد تتخذ لها مكانة محورية في حياة أولياء الله وتنعكس على سلوكياتهم وأعمالهم، لأنّ هؤلاء الأولياء يملكون من الايمان بالمعاد المرتبة العليا والشديدة.

ونشير في هذا البحث إلى الخطبة ٢٢٤ من نهج البلاغة، التي تتضمن قصّتين من القصص العجيبة التي تحكي عن شدّة إيمان هذا الإمام بأمر المعاد، ويتحدّث الإمام عليه السلام في بداية الخطبة وقبل أن يقصّ هاتين القصتين، عن حالته فيما يواجه من

تحديات صعبة في واقع الحياة وبعبارات شيّقة ومثيرة ويقول:

«وَاللهِ لَأَنْ أَبِيتَ عَلىٰ حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً، أَوْ أُجَرَّ فِي الْأَغْلالِ مُصَفَّداً، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ظالِماً لِبَعْضِ الْعِبادِ، وَغاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطامِ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبِلىٰ قُفُولُها، وَيَطُولُ فِي الثَّرىٰ حُلُولُها؟!».

الإمام علي عليه السلام والطلب غير المنطقي لعقيل:

ثم يشير الإمام في هذه الخطبة إلى قصّة أخيه عقيل[1] وقال:

«وَ اللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً وَ قَدْ أَمْلَقَ حَتَّى اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ صَاعاً، وَ رَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ الشُّعُورِ، غُبْرَ الْأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ، وَ عَاوَدَنِي مُؤَكِّداً، وَ كَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي، وَ أَتَّبِعُ قِيَادَهُ مُفَارِقاً طَرِيقَتِي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا، وَ كَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا، فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ، يَا عَقِيلُ! أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَ تَجُرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ! أَتَئِنُّ مِنَ الْأَذَى وَ لَا أَئِنُّ مِنْ لَظىً؟!»[2].

---

١. كان لأبي طالب أربعة أولاد، وكان كل واحد منهم يكبر عن الآخر بعشر سنوات. وهم على الترتيب السني عبارة عن: ١. طالب. ٢. عقيل. ٣. جعفر. ٤. الإمام علي عليه السلام.

وكان أبوطالب يحبّ عقيلاً حبّاً شديداً، ولذا قال له النبي صلى الله عليه وآله: «إنّي أحبّك حبّين: أحدهما لأنّك من أرحامي، والآخر لحبّ أبي طالب لك» وقد اشترك عقيل في معركة مؤتة مع أخيه جعفر، وكان عارفاً بأنساب العرب وتاريخ الجاهلية وكان سريع البديهية وحاضر الجواب، وهناك خلاف بين المؤرخين في زمن ذهابه إلى معاوية وهل كان قبل شهادة الإمام علي عليه السلام أم بعدها، ولكنّ المحققين يعتقدون بأنّها كانت بعدها (شرح نهج البلاغة، ج ٢، ص ٥٩٧).

٢. ونقل عقيل قصّة الحديدة المحماة لمعاوية كما يلي:

«أصابتني مخمصة شديدة، فسألته فلم تند صفاته، فجمعت صبياني وجئته بهم، والبؤس والضرّ ظاهران عليهم، ←

وهنا تثار هذه النقطة وهي: كيف يتعامل الإمام علي‌ عليه السلام مع الآخرين بهذه الشدّة؟ إنّ إيمان الإمام لا يسمح له أن يعطي طعاماً ولو قليلاً إلى أخيه الفقير والمحتاج وهو وعياله خلافاً للضوابط والأحكام، ولكن تعال وانظر إلى زعماء العالم من أهل الدنيا وصناع القرار في البلدان المختلفة وما يرتكبونه من مخالفات وفيما يأخذونه من رشوات وتلاعب بالمقدرات بحيث أخجلوا البشرية من أفعالهم وانحطاطهم، وانظر إلى البون الشاسع بين هذا الإمام‌ عليه السلام وبين هؤلاء.

الإمام علي‌ عليه السلام والرشوة!

ثم إنّ الإمام علياً عليه السلام يتحدّث عن قصّة المنافق الأشعث بن قيس، والذي كان سبباً وراء الكثير من المفاسد والارباك في أيّام خلافته القصيرة، والظاهر أنّ الأسعث كان يواجه نزاعاً مع بعض الأشخاص، وكان ملف القضية عند الإمام علي‌ عليه السلام وتقرر أن يقضي فيها باليوم التالي يقول الإمام علي‌ عليه السلام:

«وَ أَعْجَبُ مِنْ ذٰلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وِعَائِهَا، وَ مَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا، كَأَنَّما عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْقَيْئِهَا، فَقُلْتُ: أَصِلَةٌ، أَمْ زَكَاةٌ، أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ»

إنّ الإمام علياً عليه السلام ليس من أهل الرشوة كيما يقضي بسبب الرشوة خلاف الحق،

→ فقال: إئتني عشية لأدفع إليك شيئاً، فجئته يقودني أحد ولدي، فأمره بالتنحي، ثم قال: ألا فدونك، فأهويت حريصاً وقد غلبني الجشع أظنّها صرّة فوضعت يدي على حديدة تلتهب ناراً. فلما قبضتها نبذتها، وخُرت كما يخور الثور تحت يد جازره، فقال لي: ثكلتك أمّك! هذا من حديدة أوقدت لها نار الدنيا، فكيف بك وبي غداً إن سُلكنا في سلاسل جهنّم ثم قرأ: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ (سورة غافر، الآية ٧١).
ثم قال: ليس لك عندي فوق حقّك الذي فرضه الله لك إلاّ ماترى فانصرف إلى أهلك.
فجعل معاوية يتعجب ويقول: هيهات هيهات! عقمت النساء أن يلدن مثله. (شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١١، ص ٢٥٣).

ولا من أهل الصدقة والزكاة وهذه الأمور المالية محرّمة على بني هاشم.

وعندما رأى الأشعث موقف الإمام الصارم والقاطع، ملكته الحيرة، فَقَالَ: «لاَ ذَا وَ لاَ ذَاكَ، وَ لٰكِنَّهَا هَدِيَّةٌ».

[وكان هذا نوعاً من الحيل الشرعية المتداولة بينهم ومع الأسف نتداوله اليوم تحت عنوان: الهدية، الإنعام، وحق الحساب وأمثال ذلك].

وكان الإمام علي عليه السلام يعرف الأشعث ووجهه المتلون بآلاف الألوان ويعرف نيّته الخبيثة. يقول الإمام عليه السلام:

«فَقُلْتُ: هَبِلَتْكَ ٱلْهَبُولُ! أَعَنْ دِينِ ٱللهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي؟ أَمُخْتَبِطٌ أَنْتَ أَمْ ذُو جِنَّةٍ، أَمْ تَهْجُرُ؟».

يعني أنّك جئتني في منتصف الليل بإناء من الحلوى وتريد أن تخدع علياً ويحكم لصالحك بالظلم والجور غداً. يا أيّها الأشعث قستني بنفسك ! دعني أعرفك نفسك، فهذه الحلوى أمر سهل فإنّها معجون بماء فم الحية «يعني السم» [وإن كان له ظاهرها جذاب ولكن في باطنها سمٌ قاتل كالحية.].

والآن هل نرى حالياً مثل هذه الحكومة التي تتحرك من وقع الأمانة والنزاهة إلى هذه الدرجة العالية، أم نرى المسؤولين والذين يمسكون بقرار السلطة في العالم يبيعون كل شيء ويهدرون كل إمكانات البلد والشرف والحيثية في مقابل امرأة فاحشة؟ فأين هذا من ذلك؟

أجل! إنّ الإيمان بالمعاد له هذه الآثار والمعطيات العظيمة، فلو امتد الإيمان بالمعاد إلى تفاصيل المجتمع، وسادت ثقافة الاعتقاد بالآخرة في أجواء هذا المجتمع، فلا يبقى أثر للرشوة والتمييز والظلم والجور، وتنتهي جميع أشكال النزاعات والخصومات وسحق حقوق الآخرين وأمثال ذلك.

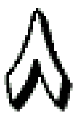
وبعد أن انتهى الإمام عليه السلام من بيان هاتين القصتين العجيبتين قال عبارة رائعة

وشيقة وزاخرة بمفهوم العدالة، الذي لا يستطيع القيام بها وإقامتها إلّا علي بن أبي طالب عليه السلام ومن الجدير أن تكتب هذه العبارة بماء الذهب وتعلق في جميع الإدارات الرسمية في مقابل أعين المسؤولين.

«وَ اللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلاَكِهَا، عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ، وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا. مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى، وَلَذَّةٍ لاَ تَبْقَى! نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ. وَبِه نَسْتَعِينُ».

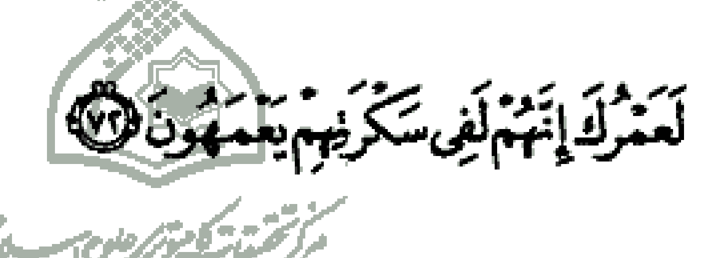
* * *





قسم سورة الحجر

القسم المنفرد الآخر في القرآن الكريم، هو ما ورد في الآية الشريفة ٧٢ من سورة الحجر. حيث يقسم الله تعالى بنفس النبي الأكرمﷺ، يقول:



لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

قصة عذاب قوم لوط:

والآية المذكورة من جملة الآيات ١٧ التي تتحدّث عن قصّة نزول العذاب الإلهي على قوم لوط، وقد ورد شرح هذه القصّة المأساوية والزاخرة بالعبر من الآية الشريفة ٦١ من سوة الحجر إلى الآية ٧٧ من هذه السورة، وهنا نستعرض هذه الآيات الشريفة:

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ * وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ

الْعَالَمِينَ * قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهنا عدّة أمور:

١. المقصود من الصيحة السماوية حسب الظاهر الصاعقة المميتة التي تخلق انفجاراً هائلاً ويتسبب صوت انفجارها في إفناء وإهلاك كل شيء لأنّ موج الانفجار يملك قوّة تخريبية هائلة، وبعد الصاعقة فإنّ الزلزلة تعتبر العذاب الإلهي الثاني على هؤلاء القوم، وهذه الزلزلة كانت إلى درجة من الشدّة بحيث إنّها هدمت جميع ما في القرية من دور وبنايات وقلبت المدينة رأساً على عقب، ولم يكتف الله تعالى بإهلاك هؤلاء القوم الظالمين بل إنّه ومن أجل أن لا يبقي لهم أثراً بعد عين من بيوتهم ومدينتهم، أنزل العذاب الثالث ويتمثّل بمطر من الأحجار السماوية حيث دفنت هذه الأحجار جميع الخرائب في هذه المدينة.

٢. إنّ الله تعالى يشير في الآية ٧٥ إلى الدرس الذي يمكن استيحاؤه من قصّة قوم لوط، وأنّ هذه القصّة بمثابة علامة وآية للمتوسمين (لأهل الفكر والعقل)، وفي الآية ٧٧ من هذه السورة يشير تعالى إلى هذه الحقيقة وهي أنّ خرائب مدينة قوم لوط تعتبر آية وعلامة للمؤمنين، ونستوحي من هذين التعبيرين أنّ المؤمن ينبغي أن يكون من أهل الفكر والتدبر دائماً، ولذلك ورد في الروايات الشريفة: «إِتَّقِ فَرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ»[1] الذي يتفطن من خلال بعض العلامات إلى أمور كثيرة أخرى.

---

١. بحار الأنوار، ج٦٧، ص ٧٣.

٣. بما أنّ قوم لوط كانوا ملوثين بأبشع أنواع الذنوب أي رذيلة اللواط، فإنّ الله تعالى أنزل عليهم جميع أنواع البلايا التي يستحقها هؤلاء العصاة والمتمردين.

العبرة من قصّة قوم لوط:

إنّ قصّة قوم لوط زاخرة بالدروس والعبر للمؤمنين الذين يتحركون في حياتهم من موقع التأمل والتفكر في التاريخ والواقع، وهنا نشير إلى ستة موارد منها:

أ) العاقبة الوخيمة بسبب اتباع الهوى!

فالأشخاص الذين يتحركون بوحي الأهواء والشهوات ويتركون زمام أمورهم بيد النفس الأمّارة ويتبعون ما تملي عليهم أنفسهم، وبدلاً من اتباع العقل وجعل هوى النفس يسير في خدمة العقل، فإنّهم جعلوا العقل أسيراً لهوى النفس، هؤلاء يعيشون في الدنيا المعاناة والعاقبة السيئة، وكذلك في الآخرة يواجهون المصير الأسود والعذاب الأليم.

ب) سكر الأهواء!

وكما رأينا في آية القسم المتقدمة، فإنّ قوم لوط كانوا أسرى الأهواء والشهوات ولهذا فإنّهم أعرضوا عن أفضل اقتراح اقترحه عليهم النبي لوط عليه السلام لإرضاء حاجتهم الجنسية ومن خلال الزواج من بناته، وأصروا على انحرافهم الجنسي، وهذا يعني أنّ عقل الإنسان في مثل هذه الحالات يعيش حالة من السكر وكأنّما أُغلق بقفل.

يقول الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «جُعِلَتِ الْخَبائِثُ كُلُّها فِي بَيْتٍ واحِدٍ وَجُعِلَ مِفْتاحُهَا الشَّرابُ».

وفي رواية أخرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله في وصيته لعلي بن أبي طالب عليه السلام قال:

«... يا علي! جعلت الذنوب في بيت وجعل مفتاحها شرب الخمر»[1].

وبتعبير آخر، أنّ قفل بيت الخبائث هو العقل، والعقل يزول بشرب الخمر، ولهذا فإنّ الدخول إلى بيت الخبائث والرذائل يتمّ بواسطة شرب الخمر. يقول الشاعر:

تَرَكتُ النّبِيذَ وشُرّابَهُ وَصرتُ خَديناً لِمنْ عابَهُ
شَرابٌ يُضلُّ سَبيلَ الهُدى وَيَفتحُ للشّرِّ أبوابَهُ

ويقول آخر:

رَأيتُ النَّبِيذَ يُذِلُّ العَزيز ويَزدادُ فِيه العَمى انتفاخا
وَيُورثُ شُرّابَهُ سوءةً ويَكسُو التّقي النّقي انسباخا
وَيتركُ القَلبَ بوراً خَلاءً كَما تَركَ الزّارعُونَ السّباخا

وقال ابن طباطبا العلوي:

سَألتُ عَنِ السّكرانِ ما وَزن عَقلِهِ وأحمق ما يَلقى إذا ما تَعقّلا
تَراهُ إذا استَرخَتْ قُواهُ لِسُكرِهِ يُزاولُ أمراً لَم يَزل عَنه زائلا
يُحاربه أعلاه سافِلَهُ فإنْ أرادَ استواءً فِي القِيامِ تمايلا
إذا أخَذتْ مِنهُ المُدامُ رأيتَهُ كَذي الجِدِّ فِي بَعضِ الأمُورِ تهازلا
ذَكيّاً بَليداً ساهياً متفكراً كَحيران مَبهُوتٍ تَذكَّرَ ما خلا

وممّا يجدر ذكره أنّ السكر على أنواع وأقسام، أحدها سكر الشراب، مثلاً إذا شرب الخمر ليلاً فإنّ آثاره ستزول في الصباح الباكر، والسكر الحاصل من المال والثروة والجاه والمقام، والأشد من ذلك سكر الشهوات فربّما يستغرق فيه الإنسان إلى آخر عمره، والأشخاص الذين يعيشون السكر يفقدون زمام أمورهم ويسلّمون قيادتهم وثرواتهم ومقامهم إلى رفاق السوء، الزوجة والأبناء، الشهوات والميول

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٤٦، ح ٣.

النفسانية. فلابدّ للمؤمنين من اللجوء إلى الله والاستجارة به من كل أنواع السكر فإنّ ثمرته المشؤومة هي التحير والضياع والوقوع في فخاخ الشيطان والهلكة.

ج) سرعة العذاب الإلهي

لم يستغرق نزول العذاب الإلهي على قوم لوط سوى لحظات حتى أفنىٰ كل شيء وحوّله إلى رماد، وربّما أتعب أهالي هذه المدينة أنفسهم مئات الأعوام لإعمار هذه المدينة وتنميتها، ولكن مع نزول العذاب الإلهي فإنّ كل شيء يتحوّل إلى تراب ورماد في ثوان معدودة وهي عاقبة الأعمال السيئة لأهالي تلك المدينة، فمن أجل بناء سدّ عظيم يستهلك هذا المشروع إمكانات كثيرة وجهد قوى كثيرة من أهل الخبرة ويستغرق زمناً طويلاً ولكن بفكرة غير مدروسة وبحركة خاطئة، كأن يتمّ إلقاء عدّة قنابل على هذا السد، أو باستخدام مقادير من الديناميت، يتمّ هدم وتخريب هذا السدّ بلحظة واحدة.

وهذه المسألة ناتجة عن سوء تصرفات البشر، وربّما يقع هذا الحدث في المسائل المعنوية والعبادية، مثلاً أن يستغرق الإنسان عشرات الأعوام في العبادة والطاعة والحركة في خط التعاليم الدينية والأحكام الشرعية، ولكنّه في آخر عمره يرتكب خطيئة من شأنها أن تدفعه إلى الهاوية والهلكة، وتكون عاقبته سيئة.

د) العذاب بوسائل الحياة!

عندما يريد الله تعالى أن يعذب قوماً وينزل عليه العذاب والهلكة، ففي كثير الموارد تتحرك عوامل الحياة لهؤلاء القوم وتتبدل إلى وسائل العذاب والنقمة، وذلك لإظهار قدرة الله تعالى من جهة، وإنزال العقوبة التي يستحقها هؤلاء القوم من جهة أخرى.

إنّ المطر يعدّ عاملاً لبعث الحياة والحركة والإزدهار في حياة الإنسان،إلّا أنّ الله تعالى ربّما يمنحه بعض السرعة ليتبدل إلى سيل مخرب ومدمر يسحق كل شيء أمامه، أو يفيض على المدن ليغرقها كما أغرق قوم نبي نوح عليه السلام.

والأرض بدورها تعتبر مهداً للإنسان ومكان استراحته واستقراره ولكن الله تعالى يأمر هذه الأرض بأن تتحرك حركة بسيطة فتخلق زلزلة رهيبة وبذلك تتبدل مظاهر العمران والحياة في مدينة عامرة إلى خرائب في لحظات.

والنسيم الهادىء لحركة الرياح يبعث على الحياة والرحمة والبركة، ولكنّه ربّما تزداد سرعته بأمر الله تعالى ويتبدل إلى إعصار ينسف مدناً وأقواماً ويقلعهم من جذورهم. أجل إذا أراد الله تعالى إهلاك قوم فإنّ عوامل الحياة والرحمة والبركة تتبدل إلى أسباب نقمة وعذاب.

هـ) عدم احتراق الأخضر واليابس

وخلافاً لما يتصور بعض العوام من الناس فإنّ العذاب الإلهي لا يحرق الأخضر واليابس، ولذلك ففي قصّة عذاب قوم لوط نرى أنّ الملائكة أمروا النبي لوط عليه السلام وأهله «وطبعاً باستثناء زوجته» أن يخرجوا من تلك المدينة قبل نزول العذاب عليها ليكونوا في مأمن من العذاب الإلهي، لأنّ أفعال الله تعالى تتحرك وفق الحكمة وعلى أساس العدالة. والحكمة والعدالة يقتضيان أنّه إذا كانت عائلة واحدة مؤمنة في المدن السبع لقوم لوط فإنّه ينبغي انقاذها من العذاب وجعلها في مأمن من العقاب.

و) حاكميّة الضوابط على الروابط

إنّ زوجة لوط كانت امرأة خائنة، ومع أنّها لم تتحرك في خط الانحراف الجنسي ولم تكن من المثليين، ولكنّها أعطت الضوء الأخضر لقومها الفاسقين وكانت تودّهم

وترتبط معهم، فبالرغم من أنّها كانت زوجة النبي وكانت في البداية امرأة صالحة، إلّا أنّ الشيطان استطاع إغواءها وإفسادها.

على أيّة حال فإنّ الضوابط الشرعية وإطاعة الأوامر الإلهيّة كانت هي الحاكمة على تصرفات النبي لوط‌عليه السلام لا العلاقات الأُسرية والروابط العاطفية وأمثال ذلك، ولذلك ترك زوجته مع قومه لتهلك مع الهالكين وتنال ما تستحقه من العذاب الإلهي، ورعاية هذا الأصل تعتبر من مقومات حركة الأنبياء والمرسلين في واقع الحياة والمجتمع، ولذلك عندما دعا النبي نوح‌عليه السلام ربّه لإنقاذ ولده، فإنّ الله تعالى لم يسمح بذلك وأخرج هذا الابن عن دائرة أهل نوح وقال:إنّه ليس من أهلك[1].

سكر الدنيا في العصر الحاضر:

وممّا يبعث على الأسف فإنّ البشرية في العالم المعاصر تعيش في سكر شديد وتخوض في لجاج التحير وأمواج الفتن والضياع، وقد وصل الأمر بالعالم الحديث إلى درجة أنّهم لا يعترضون على المثلية ولا يواجهونها من موقع التصدي والمنع والإصلاح، بل إنّ بعض البلدان مثل «بريطانيا» وضعت قانوناً في مجلس البرلمان يبيح مثل هذه الممارسات الشنيعة وليمارس المثليون أعمالهم المنحرفة بكل طمأنينة وراحة بال، وهذه هي نتائج الديمقراطية الغربية، هؤلاء يعتقدون بأنّ الأغلبية في المجتمع إذا أرادت تقنين حكم أو قانون فلابدّ من الاذعان لهم وقبول رأيهم حتى لو خالف رأيهم هذا جميع العلماء ورجال الدين وأهل الخبرة في المجتمع، فالناس في هذه الديمقراطية لا يتحركون تبعاً للعلماء وأهل الخبرة، بل إنّ العلماء وأهل الخبرة مضطرون لاتباع غالبية الناس، فلو أنّ الغالبية أرادت إنشاء مرافق الفحشاء والفساد فإنّ الديمقراطية الغربية توصي بإحداثها وإيجاد هذه

---

١. سورة هود، الآية ٤٦.

المراكز المتحللة، ولا ينفع معه نداءات العلماء بالنسبة للعواقب الوخيمة المترتبة على هذا العمل.

كما أنّ بعض البلدان الغربية قد منحت هذه المراكز اللاأخلاقية بعداً قانونياً، ففي مقابل الضرائب التي يدفعونها للحكومة فإنّ الحكومة بدورها تتحرك على مستوى حماية ودعم هذه المراكز والمؤسسات.

أمّا الاسلام فإنّه بالرغم من احترامه لرأي الشعب ولكنّه لا يؤيد الديمقراطية الغربية، ولا يمنحها الشرعية، بل يطلب من العلماء والفقهاء أن يتحركوا على مستوى توعية الناس وإثارة أجواء الفكر والعقلانية في الوعي العام للناس، وفي غير هذه الصورة فإنّ هؤلاء العلماء المقصرين في واجباتهم ومسؤولياتهم سيكونون مورد غضب الله ولعنته[1].

إنّ الإسلام يقبل بآراء الناس في إطار القيم والمثل الأخلاقية والإنسانية، وأمّا إذا تحركوا في خط الانحراف والضلالة وعلى الضد من القيم فلا قيمة لرأيهم.

إنّ مرض الايدز الذي يهدد البشرية في هذا العصر رغم أنّه ناشيء من عوامل مختلفة، ولكن طبقاً للاحصاءات والأرقام المتوفرة فإنّ ٧٥٪ من المصابين بهذا المرض هم من المتورطين بالانحرافات الجنسية، وأمّا العوامل الأخرى لهذا المرض فتشكل نسبة ٢٥٪ من هؤلاء المرضى.

وهذه النتيجة المؤسفة إنّما هي بسبب السلوك الخاطيء للمصابين بهذا المرض، وهكذا حال الأشخاص الذين يتبعون الديمقراطية الغربية ويهتمون فقط بكسب آراء الناس لإحراز الأغلبية، فإنّهم في الحقيقة يقطعون جذورهم بأيديهم ويخربون بيوتهم بضيق أفقهم وضحالة تفكيرهم.

---

١. بحار الأنوار، ج ١٠٥، ص ١٥.

إنّ القرآن الكريم يبيّن في الآية ٤١ من سورة الروم أنّ جميع المفاسد والمآسي التي تقع على الكرة الأرضية، إنّما هي ناتجة عن سوء أعمال البشر:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

* * *




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٩-١٢

قسم السور: يس، ص، ق، الدخان

نظراً إلى أنّ أقسام هذه السور، كلها تقسم بالقرآن، وأنّ المقسم له في جميع هذه الموارد الأربعة هو إثبات النبوة، ولذلك رأينا بحث هذه لأقسام في هذه السور الأربع في مكان واحد، وابتداءً نستعرض نص هذه الأقسام ثم نتحرك على مستوى بيان ثلاثة أمور فيما يتصل بهذه الأقسام:

١. يقول تبارك وتعالى في مطلع سورة يس:

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾

٢. ورد في الآيات ١ إلى ٥ من سورة ص:

﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤﴾

٣. وجاء القسم في سورة ق، في آيتين أوليتين من هذه السورة:

﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾

٤. أمّا قسم سورة الدخان فهو كما يلي:

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥﴾

وهنا ثلاثة أمور:

بداية لابدّ من توضيح ثلاثة أمور فيما يتعلق بهذه الأقسام مورد البحث:

أ) العلاقة بين الحروف المقطّعة والأقسام

نحن نلاحظ في جميع هذه السور الأربعة المذكورة والتي ورد القسم بها بالقرآن الكريم أنّها تبتديء بالحروف المقطّعة. والسؤال هو: ما العلاقة بين أقسام القرآن وهذه الحروف المقطّعة؟

وفي مقام الجواب عن هذا السؤال لابدّ في البداية من تقديم بعض التوضيح حول الحروف المقطّعة، وقد ذكر العلماء والمفسّرون، أقوالاً ونظريات مختلفة بالنسبة للمراد من الحروف المقطّعة، وأفضل ما ذكر من تفسير هذه الحروف كالتالي:

إنّ الله تبارك وتعالى قدّم القرآن الكريم للناس بوصفه معجزة لنبي الإسلامﷺ، ونعلم أنّ القرآن الكريم يتضمن جميع ما يحتاجه البشر إلى يوم القيامة، والباري تعالى بهذه الحروف المقطّعة الواردة في مطلع ٢٩سورة من سور القرآن[١]، يريد إفهام

---

١. السور المذكورة كالتالي:

١. البقرة، ٢. آل عمران، ٣. الاعراف، ٤. يونس، ٥. هود، ٦. يوسف، ٧. الرعد، ٨. إبراهيم، ٩. الحجر، ١٠. مريم، ←

المخاطبين أنّ معجزة الإسلام أي القرآن يتشكل من هذه الحروف العربية (حروف ألفباء). وبالرغم من أنّ القرآن الكريم يتشكل من هذه لحروف البسيطة فهو معجزة خالدة لنبي الإسلامﷺ، وهذا يشير إلى عظمة الخالق جلّ وعلا، كما رأينا مثل هذا الابداع والروعة في خلق الإنسان.

الإنسان أشرف مخلوقات عالم الوجود، وقد سخّر الله له جميع موجودات العالم بواسطة القدرة التي منحه الله إيّاها وجعلها في خدمته، ولم يكتف هذا الإنسان بتسخير الكرة الأرضية بل توصل إلى أعماق البحار وصعد إلى الكرات السماوية كالقمر، ولكن المواد الأولية التي يتشكل منها هذا المخلوق بسيطة جدّاً.

حيث يتشكل $\frac{3}{4}$ بدنه من الماء (كما أنّ $\frac{3}{4}$ الكرة الأرضية، و$\frac{3}{4}$ الفواكه والخضروات التي تعتبر الغذاء الأصلي للإنسان تتشكل من الماء) والباقي، أي ٢٥٪ من بدن الإنسان يتشكل من الأمور التالية:

١. مقدار من الكالسيوم الذي ربّما يبلغ مقداره ٢ إلى ٣ كيلو غرام.

٢. مقدار من الحديد، ويبلغ مقدار الحديد في جسم الإنسان بمقدار مسمار متوسط تقريباً.

٣. بعض الدهنيات بمقدار أقل من كيلو غرام.

وهكذا نرى أنّ الله تعالى خلق ذلك المقدار من الماء مع هذه المواد الثلاثة وأبدع منها هذا المخلوق العجيب، وهذه القدرة المذهلة والفن العجيب يختص بالله تعالى بحيث يخلق مثل هذا الكائن العجيب من تلك المواد البسيطة.

أجل، فكما أنّ الله تعالى خلق مخلوقاً عجيباً كالإنسان في عالم التكوين من

← ١١. طه، ١٢. الشعراء، ١٣. النمل، ١٤. القصص، ١٥. العنكبوت، ١٦. الروم، ١٧. لقمان، ١٨. السجدة، ١٩. يس، ٢٠. ص، ٢١. غافر، ٢٢. فصّلت، ٢٣. الشورى، ٢٤. الزخرف، ٢٥. الدخان، ٢٦. الجاثية، ٢٧. الاحقاف، ٢٨. ق، ٢٩. القلم.

مواد بسيطة، فكذلك في عالم التشريع أيضاً خلق كتاباً قيماً وعظيماً من مواد بسيطة أي من حروف ألف باء بحيث لا يتمكن أي إنسان من الإتيان بمثله بل الإتيان بسورة واحدة من سوره.

وهذا التفسير يعتبر من أفضل ما قيل في تفسير الحروف المقطّعة وقد أشار إليه الإمام زين العابدين‌عليه السلام والإمام الرضاعليه السلام فيما ورد عنهما من روايات[1].

ومع الالتفات إلى هذا التفسير للحروف المقطّعة، تتبيّن العلاقة بين القسم بالقرآن والحروف المقطّعة في مطلع هذه السور الأربع مورد البحث، فإنّ الله تعالى ومن خلال قسمه بالقرآن يريد إلفات نظر المخاطبين إلى هذه الحقيقة الحاسمة، وهي أنّ القرآن مع كل ما فيه من عظمة وروعة فإنّه يتشكل من هذه الحروف البسيطة.

ب) الصفات الأربع للقرآن الكريم

وفي هذه السور الأربع التي ورد القسم فيها بالقرآن الكريم، ورد أيضاً وصف القرآن بأربعة أوصاف، ونكتفي في بيان هذا الموضوع بتوضيح مختصر:

١. القرآن الحكيم؛ وقد وصف الله تعالى في سورة يس، القرآن بصفة «الحكيم» والحكيم هو الذي يتحرك في أعماله وأفعاله من موقع الدقّة والتدبر ويضع كل شي موضعه، واللافت أنّ الله تعالى في الآيات مورد البحث لم يقل إنّ القرآن فيه حكمة، بل قال: القرآن الحكيم، يعني أنّ القرآن بمثابة الكائن الحي كالإنسان الكامل الذي يملك شعوراً وإدراكاً وعقلاً وحكمة.

إنّ تاريخ القرآن، أحكام القرآن، معارف القرآن، دلائل التوحيد والمعاد والنبوّة والمعارف الأخرى الموجودة في القرآن الكريم كلها مواضيع في غاية الدقّة والعمق والحساب، ولذلك وصف الله تعالى هذا القرآن بالحكيم.

---

١. التفسير الأمثل، ذيل الآية ١ من سورة البقرة.

٢. القرآن المجيد؛ ووصف القرآن في سورة ق بصفة «المجيد»، و«مجيد» من مادة (مجد) ومجد تعني الشرف والعلو والرفعة، وعلى هذا الأساس فالقرآن الكريم يختزن في ذاته القيمة والشرف والرفعة، فأحياناً يمكن لآية واحدة من القرآن الكريم أن تنقذ العالم بأجمعه، فلو أنّ المؤسسات الدولية والمنظمات العالمية اتفقت فيما بينها واتحدت وتكاتفت لتحقيق الآية الشريفة ٩٠ من سورة النحل وتجسيدها على أرض الواقع العملي والاجتماعي، فإنّ العالم سيتحول إلى جنّة عامرة، وهذه الآية هي:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

٣. القرآن ذي الذكر؛ وهذا التعبير ورد في سورة «ص» كما تقدّم، وبما أنّ القرآن يتضمن عنصر التفسير في موارد كثيرة وآيات عديدة، ويعمل على ايقاظ الإنسان من نوم الغفلة، وتحريك روح الإيمان والتذكر في وعيه وقلبه، ولذلك وصف القرآن بهذه الصفة.

ولو تأملنا بدقّة في تاريخ الإسلام، لرأينا أنّ القرآن قد أصلح الكثير من المسارات الانحرافية في واقع المجتمعات الإسلامية، وأيقظ الكثير من الغافلين من سبات الغفلة ونبّه الكثيرين من سكر المال والثروة والمقام والشهوة.

وكنموذج حي لهذه الحقيقة، ما ورد في قصّة فضيل بن عياض، فقد كان في عصره لصاً خطيراً للغاية وكان معه عصابة من اللصوص وقطاع الطرق المحترفين، فعندما يصل إليهم خبر مرور قافلة كان فضيل وعصابته يكمنون لها في الطريق ولا يسمحون لأي أحد بالعبور منه، وفي إحدى الليالي صعد فضيل إلى سطح أحد الدور لسرقته، وكان الليل قد مضى نصفه وكان صاحب الدار يرتل القرآن في ذلك السكون المطلق، فسمع فضيل هذا الرجل يتلو هذه الآية الشريفة:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1].

فلما سمع فضيل هذه الآية غرق في التأمل وأخذ يحدث نفسه قائلاً:

يا فضيل! هذا كلام الله والمخاطب لهذا الكلام هو أنت وأمثالك، إلى متى تخوض في المعاصي والذنوب؟ وإلى متى تتسلق جدران البيوت وتوصد الطريق أمام القوافل وتنهب ما فيها من أموال الناس وممتلكاتهم؟ وفي ذلك المكان رفع فضيل يديه إلى السماء، وقال مقام الجواب عن الخطاب الإلهي: إلهي لقد آن لقد آن. وهكذا أحدثت هذه الآية الشريفة انقلاباً روحياً كبيراً في نفس فضيل وانصرف عن السرقة والعدوان ورجع إلى بيته وأخذ يفكر في ماضيه المليء بالذنوب وفي كيفية جبران ما فاته وما ارتكبه، فجاء إليه رفاقه في العصابة من الأشرار واللصوص وأخبروه عن مجيء قافلة محملة بالأموال وأنها ستمر بالطريق الفلاني، وطلبوا من فضيل أن يستعد للهجوم على هذه القافلة ونهبها فحدّثهم فضيل بقصته ويقظته، ومنذ ذلك الوقت لم يرتكب فضيل أية سرقة ولا أي ذنب آخر، وانشغل بإصلاح نفسه وتهذيب قلبه من الرذائل والشوائب الدنيوية حتى أصبح من زهاد عصره المعروفين[2].

أجل! فلا يكفي مجرّد الاستغفار في مقام التوبة، بل مضافاً إلى ذلك ينبغي للإنسان الإتيان بالأعمال الصالحة لجبران الماضي، أي أنّه يتحرك في خط الخير والصلاح إلى أن يستطيع تغطية الأخطاء السابقة وجبرانها.

وخلاصة الكلام أنّ الآيات القرآنية إلى درجة من الإثارة بحيث إنّ آية واحدة

---

١. سورة الحديد، الآية ١٦.

٢. التفسير الأمثل، ذيل الآية المذكورة.

منها بإمكانها تحويل سارق خطير وقاطع طريق وشرير من أجواء الانحراف والشر إلى أجواء النور والخير بحيث أصبح أزهد أهل زمانه، وهذا مثال واحد من التاريخ الإسلامي في بيان هذه الحقيقة، وهناك نماذج كثيرة من هذا القبيل في التاريخ.

٤. **القرآن المبين؛** وقد وصف القرآن نفسه في سورة الدخان بصفة «المبين»، وكلمة (مبين) يعني ما يكشف عن المستور، والقرآن بنفسه مبينٌ وفي ذات الوقت مبيّنٌ لغيره، وكل إنسان في أي سنة من سنوات العمر، وبأي مقدار يملك من المعرفة والعلم يمكنه أن يستفيد من هذا المنهل الإلهي العذب، فالفيلسوف، والعارف، والشاعر، والعالم، والمتعلم والأمي، كل هؤلاء بإمكانهم الاستفادة من القرآن بحسب ظرفيتهم واستيعابهم، فالقرآن العين الزلال والنبع الطاهر النقي من جهة أنّ كل شخص يستطيع التناول منه بقدر إنائه، فمن كانت قابليته ولياقته بمقدار قدح صغير فإنّه يتناول من القرآن وينهل من معارفه وأنواره بهذا المقدار، والأشخاص الذين تتسع قلوبهم بسعة البحر، فإنّهم ينهلون من ماء هذه العين المتدفقة بالأنوار الإلهيّة والمعارف السماوية بسعة آنيتهم.

ج) لماذا هذه الأقسام؟

إنّ جميع هذه الأقسام هي من أجل إثبات نبوة النبي الأكرمﷺ.

سؤال: كيف يمكن إثبات النبوة بالقسم الوارد في القرآن؟

الجواب: نظراً إلى أنّ الله تعالى أقسم في هذه الموارد بالقرآن نفسه، وفي الحقيقة أنّه استدل بالقرآن لإثبات النبوة، لأنّ القرآن هو معجزة النبي الأكرمﷺ، ولم يقدر أحد على الإتيان بمثله: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[1].

---

١. سورة الاسراء، الآية ٨٨.

بل لم يستطع أي إنسان أن يأتي بسورة من مثله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

النتيجة أنّ الله تعالى بعد أن ذكر أربعة أنحاء من الحروف المقطّعة، أقسم بالقرآن أربع مرات، وفي كل مرّة يصف القرآن بوصف معين، وهذه الأقسام الأربعة وبالخصوصيات المذكورة كلها من أجل إثبات نبوة نبي الإسلام ﷺ.

* * *



١. سورة يونس، الآية ٣٨.

١٣

قسم سورة العصر

والقسم الآخر من الأقسام المنفردة في القرآن الكريم، القسم بالعصر وذلك ما ورد في سورة العصر:

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾

القسم بالعصر:

في هذه السورة الشريفة يقسم الله تعالى بالعصر، على أنّ جميع أفراد البشر خاسرون، إلّا من كان يتصف بأربع صفات، وفي هذه السورة طرح القرآن هذه الصفات الأربع التي ينبغي أن يتحلى بها الإنسان ويجسدها في أرض الواقع ليسلم من الخسران وينجو من الوقوع في مهاوي الهلكة.

العصر في اللغة:

ذكر علماء اللغة والمفسّرون لكلمة (العصر) معانيَ متعددة منها:

١. **العصر بمعنى الضغط؛** يقول العرب لمن يغسل لباسه ويضغط عليه ليخرج

منه الماء، أنّه «عصر الثياب».

٢. **غروب الشمس**؛ وهذا المعنى يتناسب مع المعنى الأول، لأنّ النهارِ قُبيل الغروب يتجمع وكأنّه يتضغط ويلم نفسه، ثم يحين وقت الغروب، ومن هنا قيل عن هذا الوقت بأنّه «عصر».

٣. **المرحلة الزمنية**؛ فيقال لكل مرحلة زمنية في التاريخ أنّها «عصر» من قبيل عصر رسول الله ﷺ، عصر الثورة الإسلامية، عصر الإمام صاحب الزمان(عج). وعلى هذا الأساس فهذه الكلمة تطلق على حقبة من الزمن تتضمن حوادث كثيرة.

العصر في كلمات المفسّرين:

أمّا ما هو المقصود من كلمة «العصر» الواردة في هذه السورة مورد البحث، وأي واحد من هذه المعاني الثلاثة هو المقصود؟ فقد طرح المفسّرون آراء وأقوالاً مختلفة ونقل العلّامة الطبرسي في تفسيره مجمع البيان خمسة تفاسير لهذه الكلمة، وقد ذكرنا في التفسير الأمثل سبعة تفاسير لها، وبعض هذه التفاسير السبعة يشترك مع ما ورد في مجمع البيان وبعضها الآخر يختلف عنها:

١. غروب الشمس

وأحد الاحتمالات الواردة في معنى هذه الكلمة أنّ العصر يعني غروب الشمس،فالباري تعالى أقسم في هذه السورة بغروب الشمس، وقد يثير البعض هذا السؤال: ما هي الحادثة المهمّة التي تقع في هذه البرهة من الزمان بحيث يقسم الله تعالى بهذه الفترة الزمنية؟

وفي مقام الجواب نقول: إنّ العالم يشهد تحوّلاً كبيراً في وقت غروب الشمس، فغروب الشمس يعني اعلان انتهاء النهار واتمام النشاطات اليومية وبداية الليل وما

يستدعيه من هدوء واستراحة وركون إلى الدعة والاخلاد إلى النوم، وهذه اللحظة آية أخرى على قدرة الله تعالى الذي ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾[١].

ونظراً لأهميّة لحظة غروب الشمس، أي وقت العصر فإنّ الله تعالى أقسم به، كما أنّ لحظة طلوع الشمس في الصباح الباكر، إعلان لانتهاء الليل وتبشير ببداية النهار، ولذلك أقسم الله تعالى في آية أخرى بهذا القسم: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾[٢].

النتيجة، أنّ العالم يشهد وقت غروب الشمس وطلوعها تحوّلاً كبيراً، وهذان الوقتان هما آيتان على عظمة الله تعالى وقدرته المطلقة، ولهذا تعلق القسم الإلهي بهما.

٢. التاريخ البشري

طبقاً للمعنى الآخر لهذه الكلمة فإنّ المراد من كلمة «العصر» في هذه الآية مجموع التاريخ البشري منذ بداية الخلقة إلى نهاية عمر الدنيا، حيث يجمع فيه الحوادث والوقائع كلها بشكل مضغوط، وبما أنّ التاريخ مرآة يستوحي منه الإنسان العبر والدروس، فلذا أقسم الله تعالىٰ بمجموع تاريخ البشرية.

إن الإنسان بإمكانه أن يستوحي جميع دروسه اللازمة في حركة الحياة من التاريخ، فعناصر السعادة، وأسباب النصر، وثمار الوحدة والاتحاد، والافرازات السلبية للاختلاف والفرقة، وكيفية الاستفاده من الفرص، وعواقب الغفلة عن هذه الفرص، وأمثال ذلك، كلها يستطيع الإنسان استخراجها من ثنايا التاريخ ويجعلها نصب عينيه في حركة الحياة والواقع.

الإمام علي عليه السلام في كتابه القيم الذي يعكس في مضامينه دورة كاملة للأخلاق

---

١. سورة الحج، الآية ٦١.
٢. سورة الضحى، الآية ١.

الإسلامية، يقول لابنه الإمام الحسن المجتبى عليه السلام:

«أيْ بُنَيَّ، إنّي وَ إنْ لَمْ أكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أعْمَالِهِمْ، وَ فَكَّرْتُ فِي أخْبَارِهِمْ، وَ سِرْتُ فِي آثَارِهِمْ؛ حَتَّى عُدْتُ كأحدِهِمْ. بَلْ كَأنّي بِمَا انْتَهَى إلَيَّ مِنْ أمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أوَّلِهِمْ إلَى آخِرِهِمْ. فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذٰلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أمْرٍ نَخِيلَهُ وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ»[1].

ويكفي في أهميّة التاريخ البشري أنّ الله تعالى تحدّث في أكثر سور القرآن عن الأقوام السالفة والشعوب الماضية، فيما يستقي منها الإنسان الدروس الحية والعبر النافعة، وعلى سبيل المثال نشير هنا إلى قصّتين منها:

أ) قصة أبرهة الحبشي

ويحدّثنا القرآن الكريم في سورة الفيل عن قصّة أبرهة ويقول:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾.

كانت المسيحيّة في الماضي قد انتشرت في اليمن جنوب شبه الجزيرة العربية، وقد كان يحكمها والٍ من قِبل المسيحيين واسمه أبرهة بن الصباح الأشرم جدّ النجاشي المعاصر للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله. وقد بنى أبرهة كنيسة في غاية الروعة والعظمة في اليمن ولعله لم يكن لها نظير في ذلك العصر، وكان أبرهة شديد التعلق بهذه الكنيسة، وفجأة قام البعض بإحراقها ليلاً وتحويلها إلى رماد، فتألم أبرهة كثيراً لهذه الواقعة، وأخذ يبحث عن العناصر التي تقف وراء هذا الحادث.

---

١. نهج البلاغة، الرسالة ٣١.

وأخيراً توصل إلى هذه النتيجة، وهي أنّ المشركين العرب في مكة ربّما لهم يد في هذا الحادث، ولذلك جهز جيشاً كبيراً وتوجه إلى مكة بقصد هدم الكعبة للانتقام من المشركين في مكة، وعندما وصل جيش أبرهة على مقربة من مكـة وشـاهد أهالي مكة ذلك الجيش العظيم فزعوا بشدة وامتلكهم الخوف والرعب، لأنه أولاً: إنّ المشركين لم يروا جيشاً من الفيلة قبل ذلك، وثانياً: لم يشاهدوا جيشاً بتلك العظمة والشدة في ذلك الوقت.

وعندما اقترب أبرهة من جبال مكة توقف قليلاً وأرسل رسولاً ليأتي بزعيم مكة إليه، وكان عبدالمطلب جدّ النبي الأكرمﷺ في ذلك الوقت كبير مكـة، فـجاء إلى أبرهة، فلما رأى أبرهة معالم العظمة والعزّة على ملامح عبدالمطلب نزل من مركبه وأخذ بيد عبدالمطلب وجلسا سوياً على الأرض، ثم أخبره بسبب قدومه مع هذا الجيش الكبير إلى مكة، وقال: ماذا تطلب منّي؟

فقال له عبدالمطلب: «إنّي أنا ربّ الإبل، وإنّ للبيت ربّاً سيمنعه عليك»[1].

وهكذا عاد عبدالمطلب إلى مكة وأمر الناس بالتوجه إلى الجبال المحيطة بمكة واللجوء إليها، فتقدم جيش أبرهة باتجاه الكعبة قاصداً هدمها، وفجأة شاهد الجنود الذين يركبون الفيلة سحاباً من بعيد يتجه نحوهم من جانب البحر الأحمر، وعـند اقتراب السحاب شاهدوا طيوراً صغاراً كل واحد منها يحمل ثلاثة أحجار صـغيرة بمقدار الحمصة، أحدها في منقاره والحجران الآخران بقدميه، فلم يرسل الله تعالى في مقابل الجيش العظيم المجهّز بالفيلة، جيشاً أعظم منه بل بعث عليهم هذه الطيور الصغار لمهاجمتهم والتصدي لهم، فكل طير منها مأمور بقتل ثلاثة جنود من جيش أبرهة، فهلك جميع أفراد جيش أبرهة ولم يسلم منهم سوى نفر واحد عاد مسرعاً إلى اليمن ليخبرهم عمّا حلّ بجيش أبرهة من الهلاك والدمار والفضيحة.

---

١. التفسير المنير، ج ٣٠، ص ٤٠٤.

إنّ هذه القصة تتضمن الكثير من الدروس والعبر وتحذر الإنسان من الغرور الذي ربّما يشعر به في حال القدرة والقوة، وتقول له إنّك مهما بلغتَ من القوّة ومهما تمكنتَ من مقاومة التحديات وتحمّل الشدائد فإنّك لا تستطيع فعل أي شيء في مقابل مشيئة الله تعالى، فالله تعالى يستطيع أن يأمر الأرض بأن تتحرك وتهتز قليلاً وبذلك يحلّ الهلاك والدمار في مدن بأكملها خلال ثوانٍ معدودة، أو يسلط ظاهرة تسونامي على سواحل جنوب آسيا لتدميرها، أو يأمر اعصار كاترينا بإغراق مدينة كاملة تحت مياه المحيط وتقف حكومة أمريكا عاجزة تماماً عن المقاومة. أجل، ليس فقط أبرهة وجيشه قبل ١٤٠٠ سنة كانوا عاجزين عن المقاومة، بل إنّ الإنسان المعاصر على رغم التقدم العلمي المدهش والتطور الصناعي المذهل فإنّه يقف عاجزاً أمام القدرة الإلهيّة.

ب) السدّ الترابي العظيم لقوم سبأ

تقع في أرض اليمن منطقة جبلية تتميز بكثرة الأمطار، وفي كل وقت تهطل الأمطار فيها حيث تتسبب في حدوث سيول خطيرة تدمر كل شيء أمامها، فقرر أهالي اليمن أن يبنوا سدّاً ترابياً في مقابل هذه السيول، لمنع تدمير وتخريب هذه السيول للقرى والمزارع وكذلك لتجميع المياه خلف السدّ والاستفادة منها لإرواء الأراضي الزراعية، وهكذا تمّ بناء السدّ بهمة وعزيمة أهالي اليمن، فانقطع تأثير السيول المدمرة، وتدريجياً تجمعت المياه خلف السدّ فأخذت طريقها إلى المزارع والبساتين في أطرافها من خلال قنوات خاصّة، وهكذا عمرت تلك المنطقة بالزراعة والبناء والبساتين، ويوماً بعد آخر كانت اليمن تزداد عمراناً وازدهاراً، حتى أنّ الزارعين زرعوا الأشجار الكثيرة ببركة مياه السد إلى درجة أنّ المسافر يسير مسافات طويلة في ظلّ هذه الأشجار ولا يحتاج إلى الغذاء والطعام لأنّه يكفي أن

يحمل معه سلة صغيرة ويتحرك تحت الأشجار فيرى بعد مدّة قليلة أن السلة مليئة بأنواع الفواكه المتساقطة من الأشجار.

والخلاصة أنّ السد المذكور قد تسبب في بناء حضارة عظيمة ومدهشة لأهالي اليمن ولكن بعض الناس عندما يستلمون زمام القدرة ويمتلكون مقاليد السلطة ينسون كل شيء ويتحركون في خط الغفلة والكفران للنعمة والإعتراض على واهب النعم، وهكذا كان حال أهالي اليمن فقد كانوا يقولون:

﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[1].

وهكذا قرر الله تعالى تخريب ذلك السد الترابي الذي يعتبر مصدر تمدن وازدهار مدينة سبأ، ولكنّ هذه المهمّة لم يكن يتولاها الملائكة الشداد، بل تولى هذه المهمّة عدّة فئران صحراوية أخذت تحفر جحورها في هذا السد، وتدريجياً أحدثت ثقوباً فيه وأخذ الماء يجري من هذه الثقوب وازداد الخرق اتساعاً بقوة الماء المتدفق من هذه الثقوب والثغرات إلى أن سمعوا فجأة صوتاً مهيباً في جميع أنحاء السد ولم يكن ذلك الصوت الرهيب سوى صوت انهدام السدّ الترابي فتدفقت المياه المتجمعة خلفه إلى المساحات والمدن أمامها بسرعة وهي تكتسح كل ما في طريقها وتدمر ما يقع أمامها من البساتين والمزارع والأشجار والبيوت فلم يبق أي أثر لذلك التمدن الكبير سوى بقية من جذوع الأشجار الصحراوية، والأشخاص الذين بقوا على قيد الحياة هجروا تلك المنطقة وتحوّل ذلك العمران إلى خراب، وتلك المزارع الزاهرة إلى صحارى جافة وموحشة. أجل! فالتاريخ زاخر بالدروس والعبر، ولهذا أقسم الله تعالى به.

---

١. سورة سبأ، الآية ١٩.

فضائل الإمام علي﷣ على لسان سعد بن أبي وقاص:

وأحد الدروس التي نستوحيها من التاريخ، ما بذله بنوأمية من سعي الحثيث لمحو فضائل الإمام علي﷣، وقد ذكر المؤرخون أنّ بني أمية ولمدّة سبعين سنة كانوا لا يكتفون بمنع ذكر فضائل الإمام علي﷣ ونشرها، بل كانوا يتحركون على خطباء المنابر في صلاة الجمعة ويأمرونهم بسب الإمام علي﷣ على المنابر، وفي أحد الأيّام جاء معاوية إلى المدينة وسمع أنّ سعد بن أبي وقاص امتنع عن سبّ الإمام علي﷣ وبما أنّ سعد بن أبي وقاص يمتاز بمكانة ووجاهة عند المسلمين، فقد ثقل هذا الأمر على معاوية فقال لسعد: ما منعك أن تسب أبا تراب؟ قال ما ذكرت ثلاثاً قالهنّ رسول اللهﷺ فلن أسبّه لأن تكون لي واحدة أحبّ إليّ من حمر النعم:

١. سمعت رسول اللهﷺ يقول لعلي وخلفه في بعض مغازيه، فقال له يا رسول الله تخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول اللهﷺ:

«أَمَا تَرضىٰ أَنْ تَكُونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسىٰ إِلّا أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدي».

٢. وسمعته يقول يوم خيبر: «لأعطين الراية رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله» قال فتطاولنا لها فقال: «اوعوا لي عليّاً»، قال: فأتاه وبه رمد فبصق في عينه فدع الراية إليه ففتح الله عليه.

٣. وأنزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[1]. الآية دعا رسول اللهﷺ وعليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً﷨ فقال رسول اللهﷺ: «اللّهمّ هؤلاءِ أهلي»[2].

---

١. سورة آل عمران،الآية ٦١.

٢. سنن الترمذي، ج ٥، ص ٣٧٤٥.

وبالرغم من أنّ بني أمية كانوا جادين في محو فضائل الإمام علي عليه السلام واستمروا في هذا السلوك الشائن مدّة سبعين عاماً، ولكنّ الله تعالى أراد أن يفتضح بنو أمية وتزداد فضائل أميرالمؤمنين انتشاراً وذيوعاً.. ولذلك نرى اليوم أنّ نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام موجود في شتى بقاع العالم وأنّ فضائله قد ملأت الخافقين، وهذا درس عميق نستوحيه من التاريخ.

إننا نتعلم من التاريخ أنّ كل إنسان كان مؤيداً ومنصوراً من قِبل الله تعالى فلا أحد بإمكانه أن يتغلب عليه، وإذا أراد الله أن يذلّ شخصاً فلا توجد أي قدرة بإمكانها مواجهة قدرة الله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾[1].

الإمام علي عليه السلام عصارة الأنبياء الإلهيين عليهم السلام:

وقد ألّف أحد علماء أهل السنّة المنصفين كتاباً سماه «زين الفتى في شرح سورة هل أتى». ونقل في هذا الكتاب أحاديثاً كثيرة في فضائل الإمام علي وأهل البيت عليهم السلام ومنها:

أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلىٰ آدَمَ فِي عِلْمِهِ، وَ إِلىٰ نُوحٍ في فَهْمِهِ، وَ إِلىٰ إِبْرَاهِيمَ في حِلْمِهِ، وَإِلىٰ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا في زُهْدِهِ، وإِلىٰ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ فِي بَطْشِهِ، فَلْيَنْظُرْ إِلىٰ عَلِيِّ بْنِ أَبي طَالِبٍ»[2].

ربّنا، نحمدك ونشكرك على هذه النعمة العظيمة (بأننا من شيعة الإمام علي عليه السلام) وندعو ونسلم على أرواح آبائنا وأُمهاتنا الطاهرين الذين مزجوا تربيتنا بحبّ

---

١. سورة آل عمران، الآية ١٦٠.

٢. العسل المصفى من تهذيب زين الفتى، ج ١، ص ١٢٥.

علي‌عليه‌السلام ونأمل أن نحشر يوم القيامة مع هذا الإمام وذريّته الطاهرين كما نعيش في الدنيا تحت ظلّ الولاء لهم والسير على خطهم.

ونقل المرحوم العلّامة الأميني حديثاً آخر عن ثلاثة كتب من تأليف كبار علماء أهل السنّة (١. أبونعيم الاصفهاني، ٢. معجم الطبراني، ٣. كنز العمال للمتقي الهندي) جاء فيه:

«قَالَ رَسُولُ اللهِ‌صلى‌الله‌عليه‌وآله: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَحْيَا حَيَاتِي، وَيَمُوتَ مَمَاتِي، وَيَسْكُنَ جَنَّةَ عَدْنٍ غَرَسَهَا رَبِّي، فَلْيُوَالِ عَلِيّاً مِنْ بَعْدِي، وَلْيُوَالِ وَلِيَّهُ، وَلْيَقْتَدِ بِأَهْلِ بَيْتِي مِنْ بَعْدِي، فَإِنَّهُمْ عِتْرَتِي خُلِقُوا مِنْ طِينَتِي»[1].

٣. عصر بعثة النبي الأكرم‌صلى‌الله‌عليه‌وآله

وذهب بعض المفسرين إلى أنّ المقصود من كلمة «العصر» في سورة «العصر»، هو عصر بعثة النبي الأكرم‌صلى‌الله‌عليه‌وآله. لأنّ هذه المرحلة التاريخية حساسة جدّاً وشهدت انعطافاً كبيراً جدّاً في التاريخ البشري، ولهذا فقد أقسم الله تعالى بهذا العصر.

ومن أجل الإحاطة بأهميّة ما جاء به الإسلام للبشرية، لابدّ من إلقاء نظرة على تاريخ العرب في الجاهلية، ولذلك نوصي الشبّان الأعزاء بمطالعة تاريخ العرب في الجاهلية حتى يعرفوا قدر نعمة الإسلام وتعاليمه السماوية، وكان الإمام علي‌عليه‌السلام يأخذ بيد مخاطبيه، الذين كانوا من الجيل اللاحق ولم يدركوا صدر الإسلام، ومن أجل أن يعرفوا قدر الإسلام وقيمة ما جاء به النبي الأكرم‌صلى‌الله‌عليه‌وآله ويحكي لهم عن زمان الجاهلية ويكشف لهم عن حياة الناس وثقافتهم في ذلك الوقت ويقول:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ، وَالْعَلَمِ الْمَأْثُورِ وَالْكِتَابِ الْمَسْطُورِ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ، وَالضِّيَاءِ اللَّامِعِ، وَالْأَمْرِ الصَّادِعِ، إِزَاحَةً

---

١. تلخيص الغدير، ص ٢٤٣.

لِلشُّبهاتِ وَاحتِجاجاً بِالْبَيِّنَاتِ، وَتَحذِيراً بِالآياتِ، وَتَخوِيفاً بِالْمَثُلاتِ. وَ النَّاسُ في فِتَنٍ اِنْجَذَمَ فِيها حَبْلُ الدِّينِ وَتَزَعْزَعَتْ سَوارِي الْيَقِينِ وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ وَتَشَتَّتَ الأَمْرُ، وَضَاقَ الْمخرَجُ وَعَمِيَ الْمَصْدَرُ فالهُدَى خَامِلٌ، وَالْعَمَى شَامِلٌ. عُصِيَ الرَّحْمنُ، وَنُصِرَ الشَّيطَانُ، وَخُذِلَ الإِيمانُ فَانهارَتْ دَعَائِمُهُ، وَتَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ وَدَرَسَتْ سُبُلُهُ وَ عَفَتْ شُرُكُهُ. أَطَاعُوا الشَّيطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ، وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ بِهِمْ سَارَت أَعلامُهُ وَقامَ لِوَاؤُهُ، في فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِها، وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلافِها وَقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِها، فَهُمْ فِيها تَائِهُونَ حَائِرُونَ جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ، في خَيْرِ دارٍ، وَشَرِّ جِيرانٍ نَوْمُهُمْ سُهُودٌ وَكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ، بِأَرْضٍ عَالِمُها مُلْجَمٌ وَجَاهِلُها مُكْرَمٌ. همْ مَوْضِعُ سِرِّهِ، وَلَجَأُ أَمْرِهِ، وَعَيْبَةُ عِلْمِهِ، وَمَوْئِلُ حُكْمِهِ، وَ كُهُوفُ كُتُبِهِ، وَجِبَالُ دِينِهِ، بِهِمْ أَقامَ انْحِناءَ ظَهْرِهِ، وَأَذْهَبَ ارْتِعادَ فَرائِصِهِ. زَرَعُوا الْفُجُورَ، وَ سَقَوْهُ الْغُرُورَ، وَ حَصَدُوا الثُّبُورَ، لايُقاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ هٰذِهِ الأُمَّةِ أَحَدٌ، وَلا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَداً: هُمْ أَسَاسُ الدينِ، وَ عِمَادُ الْيَقِينِ. إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْغَالي، وَبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالي وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلايَةِ، وَفِيهِمْ الْوَصِيَّةُ وَ الْوِرَاثَةُ، الآنَ إِذْ رَجَعَ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ وَنُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِهِ!»[١].

يقول العالم المعروف «غوستافلوبون»: «إنّ من بين البلدان التي لم تخضع للاستعمار هي أرض الحجاز، لأنّه لا يوجد شيء فيها يدعو المستعمرين للهجوم عليها، فقد كان الناس فيها متخلفون وهمجيون ولا شيء لديهم من معالم الثقافة والتمدن والتحضر».

أجل! فقد أوجد الإسلام ثورة عظيمة في ذلك المحيط الاجتماعي المظلم، وكانت نتيجة هذه الثورة العظيمة، أن اندفع المجتمع البشري بخطوات هائلة نحو التقدم العلمي والسياسي والاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي، إلى درجة أن أضحى

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢.

المسلمون ينتجون العلم والمعرفة وبات سائر الناس في العالم ومنهم الاوربيين يستهلكون علوم المسلمين ومعارفهم.

إنّ النهضة العلمية للمسلمين في صدر الإسلام على غاية من الأهمية، وينبغي على جامعاتنا أن تضع لها حصة دراسية تختص بهذا الموضوع ليتعرف طلّاب الجامعات على تراثهم العلمي وأصالتهم الحضارية ولا يتصوروا أنّ المسلمين كانوا دائماً مستهلكين لعلوم الغرب، ينبغي أن يطالعوا ما قبل مئات السنين، حينما كانت اختراعات المسلمين وكشوفاتهم وتأليفاتهم هي السائدة في الأوساط العلمية، وبذلك لا يعيشون حالة الاستغراب والتبعية النفسية والثقافية للغرب ولا يعيشوا الاهتزاز وضعف الشخصية أمام الثقافة الغربية الفاسدة والمتحللة، وبذلك يمكنهم العمل بجدّية وبثقة لاستعادة ماضيهم الزاهر.

على أيّة حال فإنّ المجتمع البشري شهد تحوّلاً عظيماً مع ظهور الإسلام، وكان عصر ظهور النبي الأكرمﷺ، عصراً زاهراً في التاريخ، ومن هنا فقد أقسم الله تعالى بهذا العصر.

٤. عصر ظهور الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف)

والاحتمال الآخر في تفسير هذه الآية أنّ المقصود من كلمة «العصر» هو زمان ظهور الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، لأنّ هذه الفترة الزمنية مهمّة جدّاً، لأنّه:

أوّلاً: إنّ البشرية تكون قد خطت خطوات كبيرة في مجال العلوم والمعارف.

ثانياً: إنّ التقنية والصناعة تكون قد بلغت الذروة في هذا العصر.

ثالثاً: إنّ البشر سيعيشون معالم الحياة الأخلاقية والقيم الإنسانية في مستويات عالية.

رابعاً: إنّ البشرية ستعيش حالة الصلح والعدل والأمن في هذا العصر ويسود التفاهم والوئام بين جميع الشعوب والأقوام.

وتتحرك الآية الشريفة لتصف لنا ملامح هذا العصر بشكل رائع وتقول:

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

وهذا يعني، **أوّلاً**: إنّ مشكلة العالم المعاصر تتمثّل في حكّام الجور والذين يمسكون بمقاليد السلطة ولا يسيرون في خط إقامة العدل في أجواء المجتمع البشري، وهذه المشكلة سترتفع في عصر ظهور الإمام المهدي عليه السلام وتدار الأمور بيد الصالحين والمؤمنين الذين يتولون زمام الأمور وصنع القرار.

ثانياً: إنّ الدين الإسلامي عالمي وشمولي وسوف يفتح جميع أراضي المعمورة ويهيمن على جميع البلدان، وطبعاً فهذا لا يعني زوال الديانة اليهودية والمسيحية، بل ستبقى الديانات الأخرى على شكل أقليات متناثرة هنا وهناك، ولكن الدين الحاكم على العالم هو الدين الإسلامي.

ثالثاً: زوال الخوف والخشية من الحروب الداخلية والإقليمية والعالمية، وسيادة الشعور بالأمن والاستقرار.

رابعاً: إنّ الناس في ذلك الوقت وفي ظلّ حكومة الصالحين وبسط الأمن والعدل والرخاء والاستقرار، سيتحركون في خط العبادة والرسالة والانفتاح على الله بدون خوف أو خشية من أحد، وبكلمة إنّ الغاية من الخلقة ستتحقق بشكل كامل في عصر ظهور الإمام المهدي، ومن هنا استحق هذا العصر الزاهر أن يقسم الله تعالى به.

المدّعون الكذبة!

بعد انتصار الثورة الإسلامية في ايران ازداد اهتمام الناس بالمسائل والأمور الدينية، وأخذت القضايا الدينية والشرعية تطرح هنا وهناك في المجالس والمحافل، ومن جملة هذه المسائل ما يتصل بالإمام المهدي عليه السلام حيث يزداد اهتمام الناس يوماً بعد آخر بهذه المسألة. ومن الطبيعي أنّه كلما ازداد عشق الناس للإمام صاحب الزمان عليه السلام وتفاعلهم وتعاطفهم مع هذه القضية فإنّ سوق المدّعين الكذبة والمخادعين سيزداد نشاطاً، لأنّه كلما ازدادت علاقة الناس بشيء، برزت إلى السطح مظاهر خادعة تشبه ذلك الشيء الحقيقي، فعندما نرى الأوراق النقدية المزيفة، الدولارات المزيفة، السكك الذهبية المزيفة، وأمثال ذلك، فإنّ ذلك يعود إلى أنّ الناس يرغبون في السكك الذهبية والدولار والنقود الورقية، وعلى هذا الأساس فإنّ وجود أصحاب المطامع من المدّعين للنيابة والسفارة عن الإمام صاحب الزمان عليه السلام في هذا العصر، ازداد وكثرت هذه الظواهر الزائفة هنا وهناك، ولكنّ المهم أن يلتزم عشاق الإمام صاحب الزمان عليه السلام الحذر والحيطة من هؤلاء المخادعين الذين يسعون لاستغلال عشق الناس واخلاصهم وإيمانهم بالإمام صاحب الزمان عليه السلام، لصالحهم ولتنفيذ مآربهم، وينبغي على المسؤولين في الحكومة الإسلامية مجابهة هؤلاء المحتالين بجدية وتحرير الناس منهم وفضح أساليبهم وتعرية مقولاتهم للناس.

٥. وجود الإنسان

الاحتمال الخامس في كلمة «العصر» أنّ المقصود منها هو الإنسان، لأنّ الإنسان يمثّل عصارة عالم الوجود، ولذلك أقسم الله به في هذه السورة.

إنّ الإنسان يملك امتيازات وخصوصيات كثيرة، منها:

أ) إنّه خليفة الله على الأرض.

ب) إنّه مسجود الملائكة. لأنّ الملائكة سجدوا له بأمر الله تعالى.

ج) معلّم الملائكة. لأنّ آدم عليه السلام علّم الملائكة الأسماء بأمر الله تعالى، وبذلك حصل على مرتبة المعلّم للملائكة.

د) إنّ الله تعالى نفخ فيه من روحه.

هـ) إنّ جميع عالم الوجود مسخّر في خدمة الإنسان، ولو تتبعنا آيات التسخير في القرآن الكريم وهي ١٥ آية تقريباً، فسوف نرى أنّ الله تعالى سخّر جميع الأشياء والكائنات للإنسان.

ومع الالتفات إلى هذه المقامات والامتيازات للإنسان فإنّ الله تعالى أقسم به، وذلك ليدرك الإنسان قيمته الوجودية في عالم الخلقة لئلا يغفل عن أهميّته وقيمته ولا يبيع نفسه بثمن زهيد.

إذا عرف الإنسان قدر نفسه فسوف لا يبيعها بحطام الدنيا وزخارفها ولا يتلف عمره بالملذات الرخيصة والإدمان على المخدرات وطلب الجاه والمقام والسمعة وأمثال ذلك، والأشخاص الذين يبيعون أنفسهم بأثمان زهيدة حالهم حال الأطفال الذين يلعبون بأثمن جوهرة في العالم في الأزقة والطرقات ثم يبيعونها لتاجر المجوهرات مقابل قطعة من الحلويات والشكولات، ويقول الإمام علي عليه السلام في هذا الصدد:

«لَيْسَ لِأَنْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إِلَّا الْجَنَّةَ، فَلا تَبِيعُوها إِلَّا بِها»[1].

إنّ بعض الناس يتلفون عمرهم بالسعي والفعالية ويطلبون المال والثروة من طرق الحلال والحرام فتكون حصيلة عمرهم دار فخمة ومجللة بقيمة ٥٠٠ مليون تومان مثلاً، وبعد وفاتهم يقع الاختلاف والنزاع بين الورثة، فمثل هذا الإنسان قد أضرّ

---

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٤٥٦.

بنفسه وبأهله، لأنّه باع نفسه الغالية ببيت ثمنه ٥٠٠ مليون تومان، في حين أنّ أقل ثمن لنفسه هو الجنّة، ورضا الله تعالى.

٦. التحديات الصعبة

وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ المقصود من «العصر» هو الحوادث والضغوط التي يواجهها كل إنسان في حياته، لأنّ حياة الإنسان ليست على منوال واحد، بل مزيج من حوادث وحالات صراع فيما يواجهه من تحديات وظروف صعبة في حركة الحياة، فأحياناً يعيش الصحة والسلامة، وأخرى المرض والسقم، وتارة يكون شاباً وأخرى كهلاً وشيخاً، وأحياناً يعيش الثروة والغنى وأخرى الفقر والمسكنة، وأحياناً يعيش الأمن والاستقرار، وأخرى الخوف والقلق، وطبعاً فهذه الضغوط والحوادث المختلفة تعمل على بناء شخصية الإنسان، فالإنسان عندما يواجه هذه التحديات ويعيش هذه الصعوبات تتفتح في واقعه قواه الكامنة وقابلياته المختلفة.

وقد يثير البعض هذا السؤال: إنّ الإمام علي‌ﷺ الذي كان يعيش على خبز الشعير اليابس كيف استطاع قلع باب خبير؟ وكيف تمكن من مجالدة أبطال العرب مثل عمروبن عبدود والانتصار عليه؟

الإمام علي‌ﷺ نفسه يجيب عن هذا السؤال ويقول:

«أَلا وإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً، وَالرَّوَاتِعَ الْخَضِرَةَ أَرَقُّ جُلُوداً»[١].

فهنا نرى أنّ الإمام علي‌ﷺ يشبه الناس بالأشجار البرية والنباتات التي تنبت على ضفاف الأنهار، ومعلوم أنّ الأشجار البرية تعيش على أقل مقدار من الماء وفي ذات الوقت تقاوم العواصف والأعاصير والرياح الشديدة، وهكذا حال الأشخاص

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٤٥.

الذين يتحركون في مقابل التحديات الصعبة بقوّة وعزم ويقاومون الظروف القاسية بصبر واستقامة، وأمّا الأشخاص الذين يعيشون الترف والرفاهية فإنّهم كـالأشجار والنباتات الخضراء التي تنبت على ضفاف الأنهار، من جهة كونها ضعيفة ولا تتحمل الرياح العاتية، وتتكسر بأدنى عاصفة، فالإنسان الذي يعيش الترف والدعة ولا يجرب المشاكل ولا يقاوم التحديات فإنّه لا يصل إلى مراتب عالية في سلّم الكمالات.

يقول صاحب كتاب «قصّة الحضارة» «ويل ديورانت»:

«لقد تأملت في الحضارات الكبيرة على طول تاريخ البشري فلم أجد حضارة مهمّة إلّا وكان الناس فيها قد تعرضوا قبل ذلك بهجوم شرس من الأعداء، وقد واجهوا هذه التحديات والمشاكل بصبر وثبات وتحملوا الأزمات من موقع الاستقامة والمقاومة حتى استطاعوا بناء الركائز والدعائم لحضارتهم».

وهكذا نرى هذه الظاهرة بوضوح في بلدنا الذي تحمل المشاكل والأزمات وواجه الظروف الصعبة بعد الثورة فاستطاع أن ينال الاكتفاء الذاتي والاستقلال الاقتصادي والعسكري في موارد كثيرة، فلولا هذه الضغوط الخارجية لما كان لدينا هذا الجيش القوي والمقتدر ولا استطاع الحرس الثوري بلوغ مراتب عالية من القدرة العسكرية والمهارة الفنية.

أجل! إنّ الحوادث والصعوبات والمشاكل من شأنها أن تثير عناصر القوّة ومكامن القدرة في الإنسان، ومن هنا فإنّ الله تعالى أقسم بها.

٧. صلاة العصر

وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ المقصود من كلمة «العصر» في الآية مورد البحث، صلاة العصر، وعليه فإنّ الله تعالى أقسم هنا بصلاة العصر.

سؤال: لا شك في أنّ للصلاة مكانة خاصّة ومهمّة في مجمل التعاليم الدينية والمعارف الإسلامية، حتى ورد التعبير عنها في الروايات الشريفة بأنّها «عمود خيمة الدين» «اَلصَّلٰوةُ عَمُودُ الدِّينِ»[1]، ونعلم أنّه لولا وجود العمود في الخيمة فإنّ الخيمة ستنهار ولذلك فأول ما يسأل عنه الإنسان يوم القيامة هو الصلاة[2]، ويكفي في أهميّة الصلاة أنّه ورد أنّ الصلاة هي المعيار في قبول الأعمال وردّها:

«فَإِنْ قُبِلَتْ نُظِرَ في غَيْرِهَا، وَإِنْ لَمْ تُقْبَلْ لَمْ يُنْظَرْ في عَمَلِهِ شَيْءٌ»[3].

والخلاصة أنّ أهميّة الصلاة إلى درجة من الوضوح بحيث كلما قيل في فضلها وأهميّتها لم يصل إلى مداها وغايتها، ولكنّ السؤال هو: لماذا أقسم الله تعالى بخصوص صلاة العصر؟

الجواب: إنّ كل صلاة ربّما تتميز بالفضل من جهة معينة بالنسبة لسائر الصلوات الأخرى، وصلاة العصر طبقاً لهذا التفسير هي «الصلاة الوسطى» الواردة في الآية الشريفة ٢٣٨ من سورة البقرة: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾.

والسبب في التأكيد على الصلاة الوسطى وهي صلاة العصر بين سائر الصلوات الأخرى، أنّ صلاة الظهر مثلاً، تقع في وقت مناسب، لأنّ الناس ينتهون من أعمالهم وفعالياتهم في هذا الوقت ويتجهون لتناول طعام الغداء والاستراحة لمدّة قصيرة، ويكون لديهم الوقت الكافي لإقامة صلاة الظهر، وأمّا صلاة العصر فقد كان المسلمون في زمان رسول الله ﷺ يقيمونها بعد صلاة الظهر بثلاث ساعات ونصف، وتقع في وسط أعمال الناس وفي أثناء مشاغلهم، وبالتالي يضطرون لتعطيل أعمالهم لإقامة هذه الصلاة، ولهذا فإنّ بعض المسلمين الذين لم يكونوا يستطيعون ترك أعمالهم وتعطيلها كانوا يتركون صلاة العصر، ولهذا السبب ورد التأكيد في الآية

---

١. ميزان الحكمة، باب ٢٢٧٠، ح ١٠٥٤٧.
٢. المصدر السابق، باب ٢٢٧٣، ح ١٠٥٧٠.
٣. المصدر السابق، ح ١٠٥٦٨.

الشريفة على صلاة العصر، وقد ورد عن النبي الأكرمﷺ قوله:

«مَنْ فاتَتْهُ صَلاةُ الْعَصْرِ حَبِطَ عَمَلُهُ»[1].

وفي ضوء ذلك فإنّ الله تعالى أقسم بصلاة العصر لهذه الخصوصية فيها، ليدرك المسلمون فلا يغفلوا عنها.

وهنا لا بأس بالإشارة إلى أنّ الشيعة يعتقدون أيضاً بفضيلة إقامة الصلوات اليومية في أوقاتها الخمسة، ولكنّهم خلافاً لأهل السنّة يرون جواز الجمع بين صلاة الظهر والعصر، وكذلك الجمع بين صلاة المغرب والعشاء، ودليلهم على ذلك الروايات العديدة الواردة عن النبي الأكرمﷺ، وقد استعرضنا هذه الروايات في كتابنا «الشيعة تجيب». وذكرنا هناك الحكمة من جواز الجمع كما ورد ذلك في بعض الروايات الشريفة، للتغلب على المشاكل التي تواجه بعض الناس من إقامة الصلاة اليومية في أوقاتها الخمسة، وبالتالي لا ينتهي بهم الأمر إلى ترك الصلاة كما ورد هذا المعنى عن بعض شباب السنّة وأنّهم تركوا الصلاة بسبب اصرار علمائهم على الإتيان بالصلاة اليومية في أوقاتها الخمسة، وخلاصة الكلام نحن الشيعة نعتقد بفضيلة الإتيان بالصلوات في أوقاتها الخمسة، ولكن يجوز الجمع بين هذه الصلوات.

ما هو التفسير الصحيح؟

رأينا فيما تقدّم وجود سبعة تفاسير لكلمة «العصر»، فما هو الصحيح من هذه التفاسير؟

الجواب: قلنا في أكثر من مرّة إنّ التفاسير المختلفة لا تضاد بينها وبالإمكان قبولها جميعاً، وعلى هذا الأساس فإنّ هذه التفاسير السبعة صحيحة كلها، بمعنى أنّ الله تعالى أقسم بغروب الشمس الذي يأذن بنهاية هيمنة النهار وبداية حكومة الليل

---

١. المغني لابن قدامة، ج ١، ص ٣٨٩ و ٣٩٦ و ٤٤٥.

وبالتالي بداية حدوث تحوّل عظيم في العالم، وكذلك أقسم بتاريخ البشرية الزاخر بالحوادث الحلوة والمرة والدروس والعبر، وأقسم بعصر بعثة النبي الأكرمﷺ، وأقسم بعصر ظهور الإمام المهديؑ، وأقسم بالمشكلات والحوادث التي يواجهها الإنسان في حركة الحياة والواقع، وكذلك أقسم بصلاة العصر وأقسم بالإنسان الذي يمثّل عصارة عالم الوجود والخلقة. أجل! فالباري تعالى أقسم بهذه الأمور السبعة على أنّ الإنسان لفي خسر.

الغرض الذي أقسم الله لأجله:

تبيّنت في البحوث السابقة بعض الأمور عن «القسم» و«متعلق القسم» والتفاسير المختلفة لكلمة «العصر».

وهنا لابدّ من معرفة «المقسم له» أي ما أقسم الله تعالى من أجله بالعصر.

إنّ الله تعالى أقسم بالعصر لتأكيد وتقرير هذه الحقيقة الحاسمة والنقطة المهمّة ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أي أنّ جميع أفراد البشر وفي كل موقع ومقام ومن كل لون وقوم، سيواجهون الخسران في حياتهم إلّا الذين آمنوا منهم.

وتوضيح ذلك: إنّ طبيعة الإنسان تقتضي أن يتحرك في طريق الخسران والضرر، لأنّ رأس مال الإنسان هو عمره، وهذا الأمر يتكون من أعوام وشهور وأيّام وساعات ودقائق وثوانٍ، وهذه الأجزاء لرأس مال الإنسان تتصرم في كل لحظة وتتجه إلى الفناء تدريجياً، سواء شئنا أم أبينا، وكل شيء يتعرض للتلف يمكن جبرانه، ولكنّ رأس المال هذا، أي عمر الإنسان غير قابل للجبران وغير قابل للعودة مرّة ثانية، ولهذا نقول: «إن طبيعة الإنسان هو الخسران».

ومن هنا يقول الإمام عليؑ في كلامه القيم في هذا الموضوع:

«نَفَسُ الْمَرْءِ خُطَاهُ إِلَىٰ أَجَلِهِ»[1].

وذلك لأنّ قابليات الإنسان وقواه محدودة، وكلما تقدّم به العمر فإنّ قابلياته وقواه ستضعف وتتلاشى تدريجياً، مثلاً إذا كان قلب الإنسان بإمكانه أن يخفق ٥٠ مليارد مرّة، فبعد أن ينتهي هذا المقدار من الخفقان فسوف يتوقف لنفاد قواه وانتهاء قابليته على الاستمرار في عمله، حتى لو لم يكن يواجه أي مرض، وحاله حال السيارة مثلاً التي تتوقف بعد انتهاء الوقود في حين أنّها لا تواجه أي عطل أو خلل فني.

ويقول أحد الأشخاص: «إنّ والده قد استمر بالعمر وعاش سنوات من الشيخوخة إلى أن مرض يوماً فأحضروا له الطبيب وبعد أن أجرى بعض الفحوصات الأولية قال: إنّه لا يشكو من أي مرض، ومشكلته أنّ قواه قد تحللت وتلاشت».

أجل! فالإنسان بطبيعته يتحرك في خط الخسران والضرر.

يقول الفخر الرازي، الذي يعدّ من كبار مفسّري أهل السنّة، في ذيل هذه الآية الشريفة: قال أحد الكبار إنني لا أفهم تفسير هذه الآية ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ إلى أن رأى في أحد أيّام الصيف بائعاً للثلج وهو ينادي لبيع بضاعته للناس ويقول: «ارحموا من يذوب ماله»، وحينذاك فهمت معنى الآية الشريفة من نداء بائع الثلج هذا في ذلك الهواء الحار.

أجل! فإنّ عمرنا كالثلج الذي يذوب تدريجياً في هواء الصيف الحار، وليس فقط تتلاشى قوى الإنسان، بل إنّ حواسه ستضعف وسمعه سيثقل وعيناه ستضعفان، وتذبل عضلاته وتتحلل قواه، وتنخر عظامه، فيشعر بالوجع والألم في عظامه ومفاصله وأقدامه ويصيبه الارتعاش في يديه، وخلاصة الكلام أنّ جميع قواه ستتعرض للضعف والتحلل.

وأتذكر هيئة أحد الأبطال الذي كان الرائي له يلتذ من منظره وقامته، ولكنني

---

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٧٤.

رأيت هذا البطل في سنّ الكهولة وهو جالس على الكرسي المتحرك يدفعه صبي إلى هذا الاتجاه أو ذاك، والنتيجة أنّ القرآن الكريم يصرّح بهذه الحقيقة، وهي أنّ الإنسان بطبيعته يتحرك باتجاه الخسران والضرر.

الخسران العظيم!

أليس التاجر الذي تعرضت بضاعته ورأس ماله للتلف، يعدّ من الخاسرين، ويعيش الخسران العظيم؟ أليس إذا فقد الإنسان أهله وأُسرته يعيش الضرر المبين؟ وأليس من فقد ولده يعيش حالة الخسران العظيم والضرر الكبير؟

القرآن الكريم يطرح تعريفاً آخر في معنى الخسران العظيم، ووفقاً للآية ١٥ من سورة الزمر فإنّ الله تعالى يقرر هذه الحقيقة:

﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

أجل! إنّ فقدان رأس مال العمر يعتبر خسراناً مبيناً وضرراً عظيماً، لأنّ سائر أنواع الخسران يمكن جبرانها وتعويضها، إلّا أنّ فقدان رأس مال العمر لا يقبل الجبران والتعويض.

التوصية بأربعة أمور:

النتيجة أنّ جميع أفراد البشر يواجهون حالة الخسران، إلّا من التزم بأربعة أمور وعمل بها : ١. الايمان، ٢. العمل الصالح، ٣. التواصي بالحق، ٤. التواصي بالصبر. وفيما يلي شرحاً مختصراً لهذه الأمور الأربعة:

١. الإيمان

الايمان هواعتقاد باطني يمنح الإنسان اتجاهاً معيناً ومسؤولية وهدفاً في حركة

الحياة والمجتمع، الايمان هو العقيدة التي تؤثر على جميع أبعاد الإنسان الوجودية وتتجلى آثارها على جميع أعضاء الإنسان وجوارحه، وأمّا مراتب الايمان ومراحله. فالايمان أحياناً يكون بمثابة نور الشمعة الضعيف في غرفة كبيرة، حيث لا يضيء أجواء الغرفة إلّا بمقدار محدود جدّاً، ولا يتجاوز هذه الغرفة ويخرج من النافذة. فلو نظر الإنسان من خارج الغرفة إليها فإنّه لا يلتفت إلى وجود نور في الغرفة، وهذا هو حال الأشخاص من ضعيفي الإيمان، وأمّا الأشخاص الذين يملكون إيماناً قويّاً، فإيمانهم بمنزلة السراج القوي الذي لا يضيء أجواء البيت فقط بل ينفذ من جميع الأبواب والنوافذ إلى خارج الدار، وربّما يصل إلى مسافة عدّة كيلومترات بحيث يتبيّن من بعيد أنّ هذا البيت مضيء وزاهر بالنور، وهكذا ينبغي أن يكون الايمان بحيث ينعكس آثاره على جميع أعضاء الإنسان وجوارحه، فنور الايمان يجب أن يحفظ العين من نظرة الحرام، ولا يسمح للاذن بسماع الأمور غير المباحة، ويمنع القدم من المشي في دروب المعصية والذنب، وبكلمة: إنّ آثاره ومعطياته تنعكس على جميع جوارح الإنسان.

المؤمنون الراسخو الإيمان:

إنّ الايمان إذا ترسخ في قلب الإنسان يجعل منه كالجبل الراسخ أمام الحوادث والهزائز فلا يتزلزل مقابل الظروف الصعبة ولا يضعف أمام التحديات الشديدة، بل إنّه يتسبب في تغيير جهة الرياح والعواصف، وهذا ما نشاهده في أصحاب وأنصار الأئمّة المعصومين عليهم السلام في واقع الحياة.

الإمام علي عليه السلام أخذ يوماً بيد ميثم التمار رحمه الله وجاء به إلى ضواحي الكوفة وبساتين النخل هناك حتى وصل إلى نخلة فقال الإمام عليه السلام لميثم التمار: هل تعرف هذه النخلة؟ فقال ميثم: كلّا.

فقال له الإمام عليه السلام: «إنّك سوف تصلب على أعـواد هـذه النـخلة وذلك بسـبب محبّتك وولاءك لي»[1].

إذا كان الشخص يعيش ضعف الايمان واهتزاز اليقين ففي مـثل هـذه المـوارد يستولي عليه الخوف والهلع ويسعى إلى تناسي هذا الموضوع ولا يرى هذا المكان، ولكن ميثم التمار رضي الله عنه الذي تربى في مدرسة الإمام علي عليه السلام حتى اشتدّ إيمانه وقوي يقينه، ليس فقط لم يهتز عند سماعه هذا الخبر بل إنّه أخذ يمرّ على هذه النخلة كل يوم ويحدّثها ويناغيها ويسقيها بالماء ويقول لها: «مرحباً بكِ أيّتها النخلة لقد خلقتي من أجلي وخلقت من أجلكِ، فمتى يحين الموعد الذي وعدنيه مولاي حتى أصلب على أعوادكِ؟».

إنّ هذا السلوك العجيب من هذا الشخص ليس له تفسير سوى رسوخ الايمان في وجدانه وقوة اليقين في قلبه، إنّ المؤمنين الراسخين في الايمان وإن كانوا قلّة من حيث العدد، إلّا أنّهم موجودون في كل زمان ومكان، وعندما واجه حزب الله في لبنان سنة ٢٠٠٦ م الجيش الإسرائيلي الغاصب والمـجهّز بشـتى أنـواع الأجـهزة الحربية الحديثة وثبت في الميدان مدّة ٣٣ يوماً في أجواء المقاومة وحماسة الجهاد ضد المعتدين وأخيراً كسر اسطورة الجيش الذي لا يُقهر، فإنّ جميع العالم بما فيهم الغربيين والأمريكيين اعترفوا بأنّ سبب انتصار حزب الله هو إيمانه العميق بقضيته، وهذه الحقيقة الحاسمة لا تقبل الإنكار.

ونحن في ايران نرى آثار الايمان في مسيرة الثورة الإسلامية وخاصّة في حرب الثمان سنوات المفروضة، ولمسنا بجميع وجودنا معطيات هذا الايمان على جميع مناحي الحياة، العامل الذي أدّى إلى انتصارنا في مقابل القوى الاستكبارية العاتية ودول الطغيان العالمي هو إيمان شبّاننا الأعزاء، ولذلك نؤكد دائماً على تقوية إيمان

---

١. سيماء ميثم التمّار (بالفارسية)، ص ١٦٨.

الشبّان، ففي هذه الصورة نضمن للثورة ديمومتها وحيويتها.

ينبغي أن نسعى لتجهيز أنفسنا بالأسلحة الحديثة والمتطورة، ولكن لا ينبغي الاعتماد على هذه الأسلحة فقط، بل يجب الاعتماد على شبّاننا الغيورين والراسخين في الايمان.

التجارة الرابحة:

ويصف الله تعالى التجارة الرابحة في الآيات ١٠ إلى ١٢ من سورة الصف، ويقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

أجل! فالايمان بالله ورسوله والاعتقاد بيوم القيامة والتحرك في خط الجهاد في ظلّ الايمان، هي المعاملة الرابحة التي أخبر الله تعالى عنها في كتابه.

إنّ الله هو المشتري في هذه المعاملة، ومن أحسن من الله أن يكون طرف الشراء في التعامل مع الإنسان، والبضاعة هي نفس الإنسان والتي يشتريها الله تعالى بأغلى الأثمان وأحياناً بعشرة أضعاف قيمتها وربّما يصل السعر إلى سبعمائة ضعف أو أكثر، ومن أجل توضيح قيمة التعامل مع الله تعالى، نلفت النظر إلى الآية الشريفة:

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

---

١. سورة التوبة، الآية ١١١.

ولا شك في صدق كلام الله، بل هو أصدق كلام وأصدق وعد، إنّ الله تعالى أوفى من الجميع بوعوده، ولكنّه في ذات الوقت ومن أجل تقوية اعتبار هـذه المـعاملة وضمان فاعلية هذا السند، فإنّه ذكر هذه المعاملة في ثلاثة أسناد ووثائق رسمية وإلهيّة (القرآن والانجيل والتوراة)؛ وفي النهاية بارك الله للبائع بهذه الصفقة الرابحة.

٢. العمل الصالح

الأمر الثاني من الأمور الأربعة التي وردت التوصية بها في هذه السورة والتي من شأنها إنقاذ الإنسان من السقوط في وادي الخسران وفي متاهات الضلالة، العـمل الصالح الذي يعتبر ثمرة من ثمار شجرة الإيمان، فما هو العمل الصالح؟ وما هـي مساحته وامتداداته في واقع الحياة والإنسان؟

إنّ العمل الصالح الذي ورد في المفاهيم القرآنية يستوعب مسـاحات واسـعة ويشمل كل عمل حسن يأتي به الإنسان في سبيل الله، وعلى ضوء ذلك فإنّ العبادة والزيارة ومساعدة المحرومين، بناء مستوصف أو مستشفى، إحداث طريق، إنشاء مدارس ومؤسسات خيرية، المساهمة في تزويج بنات الفـقراء، مسـاعدة الشـبّان لتوفير وسائل الزواج ومستلزمات المعيشة، الإعانة المـالية للـمرضى المـعسرين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إرشاد الجاهل، تنبيه الغافل وما إلى ذلك مـن الأعمال الصالحة والخيرة كلها تعتبر من مصاديق العـمل الصـالح وحـتى لو أزاح الإنسان حجراً من طريق الناس ودفعه بقدمه إلى جـانب الطـريق لئـلا يـعثر بـه الإنسان، فسوف يكتب له عمل صالح[1].

* * *

١. ميزان الحكمة، باب ٢٢٢٧، ح ١٠٣٨٤.

الكميّة أم الكيفيّة؟

إنّ المهم بالإتيان بالعمل الصالح أن يكون بقصد القربة ونيل رضا الله تعالى، فإنّ العمل الصالح مهما كان صغيراً فإنّه ذو قيمة واعتبار إذا كان بـنيّة خـالصة وربّـما يترتب عليه آثار مهمّة ونتائج كبيرة، ونرى في التاريخ بـعض الأعـمال الصـالحة والصغيرة ولكنّها كانت منشأ بركات كـبيرة ونـتائج مـهمّة، وعـلى سـبيل المـثال نستعرض هنا قصّة موسى عليه السلام وبنات النبي شعيب عليه السلام:

كان موسى عليه السلام في عنفوان شبابه قد أقدم ودفاعاً عن أحد المظلومين على قتل أحد أزلام فرعون الظالم، فقامت الأجهزة الأمنية في حكومة فرعون بالبحث عن القاتل فوصل الخبر إلى موسى عليه السلام فاضطر للخروج من مصر مخافة على نفسه من القتل، واتجه صوب مدين ولم يكن معه ماء ولا غذاء ولا مركب في مسيرته الشاقّة والطويلة وبعد عدّة أيّام وصل إلى مدين فجلس تحت ظلّ شجرة على مقربة مـن بوابة المدينة ليستريح من تعبه، فرآى بعض الرعاة يأتون إلى بئر في ذلك المكان ليسقوا أغنامهم، وشاهد على مقربة من ذلك المكان مجموعة شياه تقودها امرأتان وهما ينتظران أن يفرغ الرعاة من سقي أغنامهم حتى تصل الـنوبة إليـهما ليسـقيا أغنامهما، وبما أنّ الرعاة كانوا من الرجال فلم يكونوا يسمحون لهاتين المرأتين في سقي أغنامهما، فتقدم موسى إليهما وسألهما عن حالهما، فقالتا: إنّنا في كل يوم نأتي إلى هنا وننتظر إلى أن يفرغ الرجال الرعاة من سقي أغـنامهم، ثـم نأتـي لنسـقي أغنامنا، فتألم موسى من هذه المعاملة السيئة لهؤلاء الرعاة فتقدم إليهم وصرخ بهم معترضاً فخافوا منه وفسحوا المجال لموسى ليسقي أغنام المرأتين ولكنهم لم يعينوا موسى في عمله فاضطر موسى الجائع والعطشان لإخراج الماء بـالدلو مـن البـئر لوحده وسقى أغنام المرأتين، ففرحتا بذلك وتوجهتا بعد ذلك إلى دارهما، فتعجب النبي شعيب عليه السلام والد هاتين المرأتين من عودتهما بسرعة، فسأل عـن سـبب ذلك

فشرحت المرأتان ما وقع لهما، فقال لابنتيه: ينبغي عليكما دعوت هذا الشاب إلى بيتنا لنعطيه أجر ما عمله لنا، فتوجهت المرأتان إلى موسى وطلبتا منه المجيء إلى البيت، فلما جاء موسى والتقى بشعيب وسأله شعيب عن حاله وقصّته، فشرح له موسى قصّة فراره من مصر ولجوئه إلى مدين، فبعد أن استمع شعيب إلى قصّة موسى قال له: اطمئن فقد نجوت من القوم الظالمين، ففي مدين ستجد الأمن والاستقرار، ثم اقترح عليه الزواج من إحدى ابنتيه[1].

أجل! إنّ هذا العمل الصالح لموسى عليه السلام في سقيه لأغنام شعيب أدى إلى نجاته وخلاصه من الغربة والخوف، وأصبح يملك حياة جديدة وله زوجة مؤمنة، والأهم من ذلك أنّه تتلمذ مدّة عشر سنوات عند أحد الأنبياء العظام تمهيداً لاستلام الرسالة الإلهيّة وبعثه بالنبوة، وخلاصة الكلام إنّ العمل الصالح الذي قام به موسى بكل اخلاص وصفاء نيّة تسبب في كل هذه النتائج والمعطيات الكبيرة التي غيّرت مجرى حياته.

ومن هنا تتبيّن طبيعة الأمر الثاني من التوصيات الرباعية التي تؤدي إلى نجاة الإنسان من الخسران، وهو العمل الصالح فيما يفرزه من آثار إيجابية ونتائج حميدة في حركة الحياة والإنسان.

٣. التواصي بالحقّ

التوصية الثالثة من هذه التوصيات الأربع هي «التواصي بالحق، فطبقاً لهذه الآية الشريفة أنّ أهل الايمان والعمل الصالح يجب عليهم أن يتواصلوا فيما بينهم بالحق ويتعاملوا فيما بينهم من موقع التواصي بالحق، ولغرض العمل بهذه الوصية لابدّ في البداية من بيان معنى الحق:

---

١. إلى بقيّة القصّة في سورة القصص، الآية ٢٧ وما بعدها.

إنّ كلمة «حق» بالمعنى الوارد في القرآن الكريم والروايات الشريفة، وبعبارة أخرى الحق في المفاهيم الدينية والمعارف الإسلامية «لا بمعناه المصطلح في علم الحقوق» هو نوع من الدَّين وتحمل المسؤولية في عملية التفاعل الاجتماعي، سواء كان دَيناً مادياً أم معنوياً، أمّا الدَّين المادي كأن يأخذ الإنسان قرضاً من شخص أو من أحد المصارف فيجب عليه أداء هذا الدَّين وإعادته إلى صاحبه بالوقت المقرر، وإلّا فإنّه يقوم بتضييع هذا الحق المادي، وأمّا الدَّين المعنوي فهو من قبيل حقوق الأبناء على الوالدين فيما يتصل بتربيتهما، أو حق الوالدين على الأبناء بالنسبة لرعاية حرمتهم واحترامهم وإسداء الخدمة لهم، أو يتمثّل في مسؤولية الحكومة الإسلامية في مقابل أفراد المجتمع، وكذلك وظيفة الناس في مقابل الحكومة وما إلى ذلك من الحقوق المعنوية والاعتبارية بين الناس.

وقد تحدّثت الآيات والروايات بالنسبة إلى هذا النوع من الحقوق (الحقوق المعنوية) بتفاصيل كثيرة وأبعاد واسعة حتى يمكن القول إنّ حقوق الإنسان، وحقوق الطفل، وحقوق المرأة وأمثالها من الاطروحات والمقولات التي تطرح في عالمنا المعاصر من قِبل الغربيين، في مقابل الحقوق المعنوية في الإسلام لا تعتبر شيئاً يذكر.

رسالة الحقوق للإمام زين العابدينعليه السلام:

وقد كتب الإمام زين العابدينعليه السلام كتاباً باسم «رسالة الحقوق»، والتي نقلها العلّامة المجلسي في بداية الجزء ٧١ من كتابه بحار الأنوار، في عشرين صفحة، وتتحدث كلها عن موضوع الحقوق.

وقد شرع الإمام زين العابدينعليه السلام في هذه الرسالة بحق الله تعالى على عباده وحق العباد على الله، ثم حق الانبياء والأئمّة على الناس وحق الناس على الإنبياء

والأئمّة، ثم شرع بذكر حق المسلمين فيما بينهم وحق الجار، حق الوالدين على الولد وبالعكس، حق المواطنين وأفراد المجتمع فيما بينهم، حق المعلم على الطالب وبالعكس، وحق الأصدقاء والأقرباء والأرحام فيما بينهم وهكذا، ثم تطرق إلى بيان حق الكفّار من أهل الذمّة على المسلمين والحكومة الإسلامية، أجل! هؤلاء الذين يمثّلون أقلية مسالمة ويعيشون في كنف المسلمين بصلح وسلام ويحترمون القوانين والمقررات للحكومة الإسلامية، فإنّ لهم حقّاً على الحكومة الإسلامية في حفظ أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وحرياتهم الدينية.

ويذهب الإمام علي بن الحسين عليه السلام إلى أكثر من ذلك ويتحدّث عن حق أعضاء بدن الإنسان على الإنسان، وحق العين على الإنسان، وحق الأُذن، اللسان، اليد، القدم وسائر الأعضاء والجوارح الأخرى، فيجب على الإنسان أن يتحرك في حياته من موقع الاستفادة السليمة والصحيحة والمشروعة من هذه الأعضاء والجوارح، وطبعاً فالإنسان بدوره له الحق عليها، وأعلى من ذلك حق العبادة على الإنسان، كحق الصلاة، الصيام، الخمس، الزكاة، الحج، الجهاد، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسائر العبادات الأخرى على الإنسان.

والحقيقة أنّ الإنسان عندما يقرأ رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام يطلع على سعة دائرةالحقوق في المعارف الإسلامية ويلمس رحمة الإسلام وعطفه فيما يفرضه من تعاليم إنسانية ومثل وقيم أخلاقية، وحقوقية، ويتأسف على قلّة اطلاع البعض على رحمة هذا الدين السماوي حيث يتهمه بالعنف واستخدام آليات القوة والارهاب[1].

---

١. تفصيل هذا الموضوع في كتابنا (دين الرحمة) رداً على الإتهامات الواهية للباب بنديكت السادس عشر زعيم المسيحيين في العالم.

الحق في منظار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

إنّ الإمام علي عليه السلام وطبقاً لما ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يمثّل محور الحق[1]، ويقول هذا الإمام في بيان مفردة الحق ومفهومها: «فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ، وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ، لا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرىٰ عَلَيْهِ، وَلا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرىٰ لَهُ»[2].

مثلاً، يجب القصاص من القاتل، ويحق لأولياء الدم القصاص منه، ولكنّ القاتل له الحق أيضاً على أولياء الدم. ومن حقّه أن لا يعذب حين قتله، وإذا أرادوا أن يعفو عنه فلهم ذلك، ولا ينبغي أن يتركوه بعد الاقتصاص منه وقتله، بل يجب عليهم تغسيله وتكفينه والصلاة عليه ثم دفنه، وطبقاً لما ورد في كلام مولى المتقين عليه السلام أنّ الحق ليس من جانب واحد حتى حق الله تعالى فهو من جانبين أيضاً، فهناك حق الله على العباد ويتمثّل في طاعته له، وحق العباد عليه والذي يتمثّل في اعطائهم الثواب تفضلاً، والدائن يحق له المطالبة بدينه، والمدين يحق له عند عدم القدرة على تسديد الدين أن يطالبه بامهاله، كما أن له الحق في أن لا يأخذ منه مستثنيات الدين كالدار المسكونة له.

النتيجة، أنّ مقولة الحق والحقوق تمثّل ركيزة مهمّة في المعارف الإسلامية.

أهم الحقوق:

سؤال: ما هو أهم الحقوق بعد حق الله تعالى ورسوله؟

الجواب: يقول الإمام علي عليه السلام في تلك الخطبة ٢١٦ في نهج البلاغة في مقام الجواب عن هذا السؤال:

«وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ ـ سُبْحَانَهُ ـ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ وَحَقُّ

---

١. بحارالانوار، ج ٣٨، ص ٢٨.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٢١٦.

الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي».

إنّ حقّ الحكومة الإسلامية على الناس يتمثّل في دعمهم وتأييدهم لها وبذل المعونة لها لحلّ المشاكل والأزمات التي تواجهها الحكومة في واقع الحياة وتدبير الأمور، وأن يحضروا في كل مورد تحتاج الحكومة إلى حضورهم في الميدان، وحق الناس على الحكومة أن تحفظ لهم نفوسهم وأموالهم وأعراضهم وحيثياتهم وأمنهم وتهيىء لهم وسائل الرفاه الاجتماعي والاقتصادي وتوفر لهم مقومات التحصيل العلمي وفرص العمل، والمسكن وما إلى ذلك، وأن تقوم بشق الطرق وبناء المستشفيات وعمران المدن وسائر الأمور الأخرى التي يحتاج إليها الناس في واقع الحياة الاجتماعية.

حقوق المؤمنين:

ومن الحقوق المهمّة جدّاً والتي لها انعكاس واسع في النصوص الشريفة، حقوق المؤمنين فيما بينهم، وقد ورد في بعض الروايات ثلاثين حقّاً من هذه الحقوق[1].

وهنا نلفت القارىء العزيز إلى حديث نبوي شريف يشير إلى سبعة أنحاء من هذه الحقوق:

«لِلْمُؤْمِنِ عَلَى الْمُؤْمِنِ سَبْعَةُ حُقُوقٍ واجِبَةٍ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَيْهِ: الْإِجْلالُ فِي عَيْنِهِ، وَالْوُدُّ لَهُ فِي صَدْرِهِ، وَالْمُواساتُ لَهُ في مالِهِ، وَأَنْ يُحَرِّمَ غَيْبَتَهُ، وَأَنْ يَعُودَهُ فِي مَرَضِهِ، وَأَنْ يُشَيِّعَ جِنازَتَهُ، وَأَنْ لا يَقُولَ فِيهِ بَعْدَ مَوْتِهِ إِلّا خَيْراً»[2].

الخلاصة، أنّ المؤمن يجب أن يهتم بأخيه المؤمن ويراعي حقوقه في الظاهر والباطن، وفي حضوره وغيابه، وفي حقوقه المالية وغير المالية وفي حياته ومماته.

---

١. سفينة البحار، ج ١، ص ٢٩٠.

٢. بحارالانوار، ج ٧١، ص ٢٢٢.

٤. التواصي بالصبر

الأمر الرابع من التواصي يقرر أنّ الأشخاص الذين يريدون التخلص من الخسران والتحرك في خط الإيمان والعمل الصالح ليحقّقوا لهم النجاة والفلاح، يجب عليهم «التواصي بالصبر». فالأشخاص الذين حققوا في أنفسهم الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق فالواحب عليهم مضافاً إلى ذلك، التعامل فيما بينهم من موقع التواصي بالصبر والاستقامة على هذا الطريق.

ولمفهوم الصبر والاستقامة مكانة خاصة في المعارف الإسلامية والدينية، وقد اهتمت الآيات القرآنية وروايات المعصومين (عليهم السلام) بهذا الأمر اهتماماً واسعاً، وكمثال على ذلك نشير إلى ثلاثة آيات قرآنية ورواية واحدة، ولكن قبل ذلك لابدّ من الالتفات إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ الصبر لا يعني الاذعان للظلم والجور والذلة، كمايتصوره بعض الأشخاص الجبناء الذين لا يشعرون بالمسؤولية، وكما يفسّره أعداء الإسلام، بل بمعنى الاستقامة في مقابل التحديات الصعبة التي يفرضها الواقع على الإنسان ومقاومة المشاكل والحوادث التي يواجهها الإنسان في حركة الحياة، ويتبيّن هذا المعنى بوضوح وجلاء من خلال الآيات الشريفة التي سنستعرضها في المقام:

الصبر في آيات القرآن:

١. يقول تبارك وتعالى في الآية ٦٥ من سورة الأنفال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

وطبقاً لهذه الآية الشريفة فإنّ الصبر يمنح الإنسان قوّة تعادل قوّة عشرة

أشخاص، ولهذا فكل مؤمن يتحلى بالصبر والاستقامة في خط الايمان والرسالة والمسؤولية فإنّه بإمكانه مواجهة عشرة أشخاص من أعداء الإسلام.

٢. عندما يدخل المؤمنون والصالحون الجنّة يوم القيامة تأتي الملائكة لاستقبالهم وتقول لهم:

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[1].

إنّ اختيار صفة الصبر في هذه الآية من بين الصفات الكثيرة التي يتحلى بها المؤمنون من أهل الجنّة، يشير إلى المكانة السامية للصبر والاستقامة في مواجهة الحوادث المرّة والظروف الصعبة.

٣. يشير الله تعالى في الآية ١٥٧ من سورة البقرة إلى ثلاثة أمور يمتحن بها الإنسان في واقع الحياة، وفي نهاية المطاف تبشر الآية الشريفة الأشخاص الذين تجاوزوا هذه الامتحانات بآلية الصبر والاستقامة وتقول:

﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

وطبقاً لهذه الآية الشريفة، فإنّ الصابرين يتميزون بثلاثة أوسمة:

١. الصلوات من ربّهم.

٢. تشملهم رحمة الله.

٣. ينالون الهداية الإلهية الخاصّة.

وهكذا أيّها القاريء العزيز يتبيّن أنّ الإنسان ومن أجل التوصل إلى كل أمر من أمور الدنيا والآخرة، يجب عليه التحلي بالصبر والاستقامة، وإلّا فسوف لا يحصل على شيء ممّا يطمح إليه من الأمور المادية والمعنوية.

---

١. سورة الرعد، الآية ٢٤.

الصبر في منظار الإمام علي عليه السلام:

يقول الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة:

«أُوصِيكُمْ بِخَمْسٍ لَوْ ضَرَبْتُمْ إِلَيْهَا آبَاطَ الْإِبِلِ لَكَانَتْ لِذٰلِكَ أَهْلاً: لاَ يَرْجُوَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلاَّ رَبَّهُ، وَلاَ يَخَافَنَّ إِلاَّ ذَنْبَهُ. وَلاَ يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِذَا سُئِلَ عَمَّا لاَ يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ لاَ أَعْلَمُ، وَلاَ يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ إِذَا لَمْ يَعْلَمِ الشَّيْءَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ. وَعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، وَلاَ خَيْرَ فِي جَسَدٍ لاَ رَأْسَ مَعَهُ، وَلاَ فِي إِيمَانٍ لاَ صَبْرَ مَعَهُ»[1].

ومعلوم أنّ الرأس يعتبر مركز القيادة للجسد، لأنّه يحتوي على المراكز الحساسة والأعضاء الأساسية في بدن الإنسان؛ العين والاذن والدماغ. وهكذا يكون الصبر بالنسبة للإيمان، فدور الصبر كدور الرأس بالنسبة للجسد، ومن أجل التوصل إلى مقام الصابرين والتحلي بهذه الصفة الأخلاقية والفضيلة الإنسانية لابدّ للإنسان من مطالعة حالات الصابرين فيما يعيشونه من مثابرة واستقامة في خط المسؤولية والعبودية، إنّ سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وخاصّة في أعوام تواجده في مكّة ومن ثمّ هجرته إلى المدينة، زاخرة بمعالم الصبر والاستقامة في طريق الدعوة الإلهيّة والرسالة السماوية.

أقسام الصبر:

ويذكر علماء الأخلاق للصبر ثلاثة أقسام:

١. **الصبر على الطاعة**؛ إنّ التحرك في خط الطاعة والعبادة لله تعالى يقترن بالصعوبات والمشكلات، ويحتاج الإنسان في مسيره هذا لملكة الصبر وقوّة الاستقامة، على سبيل المثال عندما يجلس الإنسان لحساب أمواله وممتلكاته وما

---

١. نهج البلاغه، الكلمات القصار، ٨٢.

ينبغي عليه من حقوق للفقراء والمساكين وأنّه يجب عليه دفع مبلغ كبير كخمس أو زكاة للفقراء فيجد في نفسه امتعاضاً وحرجاً من دفع هذا المبلغ، هنا ينبغي عليه أن يتحلى بصفة الصبر والاستقامة لينجح في هذا الامتحان ويتجاوز هذه العقبة الكؤود.

٢. الصبر على المعصية؛ إذا لم يتمكن الإنسان من الصمود أمام أهوائه النفسية ومجابهة الرغبات المادية والنوازع الدنيوية، فسوف تغلبه النفس الأمارة بالسوء والشيطان في هذه المواجهة، ولكنّه بالاستعانة بالله تعالى والتحلي بالصبر والاستقامة يستطيع أن يتغلب على هوى النفس ويرد عنه كيد الشيطان الرجيم.

٣. الصبر على المشاكل والمصائب؛ لا شك في أنّ الحياة في الدنيا لا تخلو من مشاكل ومصاعب ومصائب لأي إنسان، ومن هنا لا ينبغي أن نطلب الحياة المرفهة والخالية من المشاكل، بل لابدّ من معرفة كيفية التغلب على المشاكل وكيفية التحلي بعنصر الصبر في مقابل الحوادث الصعبة التي نواجهها في حياتنا وأن نتجاوز هذه المشكلات بالاستعانة بحبل الصبر والاستقامة.

* * *

١٥-١٤

قسم سورة النجم والواقعة

بما أنّ القسم في هاتين السورتين المذكورتين قسم بالنجوم، فلذلك نبحث هذين الموردين في موضوع واحد:

١. يقول تبارك وتعالى في مطلع سورة النجم:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾

٢. ويقول في الآيات ٧٥ إلى ٨٠ من سورة الواقعة:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٨٠﴾

أهميّة الأعمال الأساسية:

إنّ سورتي النجم والواقعة كلتاهما مكيتان، وكما تقدّم أكثر من مرّة أن السور

المكّية تهتم غالباً ببيان أصول الدين، والسور المدنية تهتم ببيان فروع الدين والأحكام الشرعية والسلوكيات الأخلاقية، لأنّ الدعوة في بداية أمرها يجب أن تهتم بالبنىٰ التحتية والدعائم والركائز الأساسية لتثبيت الدعوة، وما لم يجر التركيز على العقائد في واقع الناس ووعيهم فإنّ الناس لا يتحركون في خط الجهاد ولا يجدون في أنفسهم رغبة في أداء الواجبات، ولا باعثاً على ترك المحرمات، ومن هنا نعتقد بأنّ مواجهة الانحرافات الثقافية والمفاسد الاجتماعية والاقتصادية من قبيل الافراط والتفريط والاسراف والتبذير، والربا والرشوة، والسفور وقلّة رعاية الحجاب وأمثال ذلك يحتاج بالدرجة الأولى إلىٰ تقوية الركائز العقائدية للناس، ولا ينبغي تحميل ثقل ذلك على المحاكم والعقوبات وإجراء الحدود وأمثال ذلك، بل مضافاً إلى هذه الأمور لابدّ من تقوية عقائد الناس والاهتمام بالأمور الثقافية.

يجب على إدارة الإذاعة والتلفزيون أن تركز نشاطها وفعاليتها في هذا البعد العقائدي والثقافي، وكذلك المساجد، وخطب الجمعة، والمواكب والمنابر الحسينية ومجالس الوعظ والمؤتمرات وأمثال ذلك، كلها ينبغي أن تتأسى بالنبي الأكرمﷺ في الاهتمام بتدعيم ركائز الأصول العقائدية للناس.

وكما أنّ أغلب مواضيع السور المكّية يتناول أصول العقائد، فالقسم الوارد في هاتين السورتين مورد البحث يتناول أحد الأصول العقائدية، أي نبوة نبي الإسلامﷺ ومعجزته الخالدة.

المقصود من النجم؟

في القسم الأول من السورة الأولى يقسم الله تعالى بالنجم إذا غرب وأفل ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، ولكن أي نجم هو؟ وقع خلاف بين المفسّرين.

فذهب بعض المفسّرين إلى أنّ المراد به نجم الثريا الذي يتشكل من سبعة نجوم،

ستة منها يمكن رؤيتها بالعين المجرّدة، والنجمة السابعة صغيرة جداً لا ترى إلّا بصعوبة بالغة، ولهذا عندما يريدون اختبار حدّة البصر الحاد لدى البعض فيختبرونه بمشاهدة هذا النجم الصغير، وطبقاً لهذا التفسير يكون معنى الآية: «أقسم بالنجم الثريا البعيد عند غروبه وأفوله»[1].

وذهب بعض آخر إلى أنّ المقصود من النجم في هذه الآية «الشِعرى» وهي النجمة المتلألئة جدّاً في السماء، ويكون المعنى: «أقسم بهذه النجمة اللامعة وهي الشِعرى عند غروبها وأفولها»[2].

ولكننا نعتقد بأنّ كلا هذين التفسيرين يفتقدان إلى الدليل، وعلى هذا الأساس فالنجم في هذه الآية يشمل كل نجوم السماء، النجوم التي تختزن العظمة في ذاتها، بحيث إنّ الشمس في مقابلها تعتبر صغيرة وتافهة، واللافت أنّ القرآن عندما أقسم بهذه النجوم لم تكن لدى العرب ذات شأن وقيمة، بل إنّ العرب في ذات الوقت كانوا يتصورون النجوم كالأقراص الفضية المثبتة في السماء ولا تتحرك بنفسها.

لحظة غروب النجوم:

سؤال: لماذا أقسم الله تعالى بلحظة أفول النجوم وغروبها؟

الجواب: يتبيّن جواب هذا السؤال ممّا ذكره القرآن الكريم من قصّة إبراهيمعليه السلام وقومه ممن كانوا يعبدون النجوم، فعندما خيّم ظلام الليل على جميع الأرجاء وظهرت نجوم السماء اللامعة، قال إبراهيمعليه السلام من موقع المماشات لعبدة النجوم: إنّ هذه النجمة ربّي[3].

---

١. مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٨٦.

٢. التفسير الأمثل، ذيل الآية المذكورة.

٣. سورة الأنعام، الآية ٧٦.

وعندما أفلت بعد مدّة وغابت من السماء، قال: إنّني لا أقبل ولا أحبّ الربّ الذي يغرب من عيني ويتأثر بحوادث العالم، لأنني أعبد الربّ الذي يعيش معنا وشاهداً وناظراً إلينا أبداً بدون أن يعترضه الغروب والأفول.

وعلى هذا الأساس، أراد إبراهيم عليه السلام من خلال غروب النجم وأفوله أن يقول للناس إنّ هذا النجم مخلوق أيضاً من مخلوقات الله، والخالق القدير هو العالم المدبّر لهذا النجم وسائر الموجودات في العالم، ولذلك أقسم الله تعالى بلحظة غروب النجوم.

القسم بمدار النجوم:

بما أنّ مدار النجوم يحضى بأهميّة بالغة، فإنّ الله تعالى أقسم بمدار هذه النجوم «مواقع النجوم».

إنّ النجوم التي ترى بالعين المجرّدة تبلغ ٥٠٠٠ نجمة، ولكن ما يوجد منها في مجرتنا وهي مجرة درب التبانة، والتي ترى بالاستعانة بالتلكسوبات والمراصد تبلغ ٢٠٠ مليارد نجمة، بحيث إنّ شمسنا المنيرة مع كل عظمتها تعتبر نجمة متوسطة من هذه النجوم، وجميع هذه النجوم تتحرك منذ ملايين السنين في مدارات خاصّة، ولم تنحرف عن مسيرها ومدارها الخاص، الواقع أنّ خالق السماوات والنجوم يدبّر كل هذه الأمور وحركات المجرات والنجوم بقدرته وعلمه بحيث إنّ جميع هذه النجوم تتحرك وتسير وفق نظام دقيق ومدروس، والحقيقة أنّ هذا القسم إنّما يدرك عظمته الأشخاص الذين يتوفرون على إلمام واطلاع كافٍ بحركات هذه النجوم ومداراتها.

وأحد هذه النجوم والكواكب، كرتنا الأرضية، بحيث إننا لو نظرنا إليها من كوكب آخر لرأيناها كالنجمة في السماء، وهذا الكوكب يتحرك منذ مئات الملايين من السنين في مداره الخاص وعلى نسبة ومسافة معينة ومحددة من سائر الكواكب

ومنها الشمس دون زيادة ونقيصة، والأرض بسبب هذه الحركة الدائـرية حـفظت التعادل بين قوة الجاذبية والقوّة الطاردة في فاصلتها المحددة عن الشمس، فلا تخرج عن مدارها خارج المنظومة الشمسية ولا تنجذب للشمس بل تتحرك بشكل منظّم في مدارها الخاص. أجل، فهذه الأقسام إنّما يدرك عظمتها وقيمتها العالمون بـهذه الحقائق.

الغرض الذي ورد القسم لأجله:

في سورة النجم ورد القسم من أجل إثبات النبوة، وذلك يعني:

«أُقسم بالنجوم عند أفولها وغروبها أنّ محمّداًﷺ لم ينحرف عن الصرط السوي والطريق القويم، فهذا النبي ليس ضالاً ولا متعصباً، ولا يتحرك بـوحي الأهـواء والرغبات النفسانية، بل إنّه يستقي كلامه من مشكاة الوحي الإلهي».

وهذه الآيات تبيّن بوضوح: (أنّ سيرة وسلوك النبي الأكرمﷺ حجّة بنصّ الآيات القرآنية»، ومع الالتفات إلى هذا المعنى فكيف تجرأ بعض المسلمين بعد رحلة النبي الأكرمﷺ بالقول: : «مُتْعَتـانِ كـانَتـا مَشْرُوعَتَيْنِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ وَأَنـا أَنْـهى عَنْهُمـا، مُتْعَةُ الْحَجِّ وَمُتْعَةُ النِّسـاءِ»[1].

أليس النبي الأكرمﷺ لا يتحدّث بدافع الأهواء ولا ينطلق في سيرته وكلماته من موقع الذات؟ أليس جميع ما جاء به رسول اللهﷺ من أحكام وتعاليم مستقاة من الوحي الإلهي؟ فكيف سمح هؤلاء لأنفسهم أن يغيّروا الأحكام التي جاء بها رسول اللهﷺ ويحرّمون حلال الله؟ والأنكى من ذلك ما ورد في صحيح البخاري عن ابن عباس قال: عندما اشتد بالنبي المرض قال:

---

١. الشيعة تجيب، (للمؤلف) ص ١٢٨.

«أئتوني بِكِتابٍ أكتُبُ لكُمْ كِتاباً لا تَضِلُّوا بَعْدَهُ»[1].

فالنبي لا يتكلم بشيء بدافع هوى النفس والرغبات الذاتية، وفي آخر ساعات من حياته طلب من أتباعه أن يأتوه بقلم ودواة أن يكتب لهم كتاباً مهمّاً جدّاً.

ولكن مع كل دهشة الأصحاب وذهولهم فإنّ الخليفة قال بوقاحة: «إن النبي غلبه الوجع!». وطبقاً لبعض الروايات قال كلمة أقبح من ذلك: «إنّ الرجل ليهجر»، أي أنّ النبي الأكرمﷺ «ونعوذبالله» يهذي في كلامه، وبهذه الطريقة منع من كتابة النبي لوصيته، فهل ينسجم ويتناسب هذا الكلام مع آيات القرآن؟!

ينبغي علينا نحن الشيعة أن نشكر الله تعالى على تمسكنا بأهل البيتعليهم السلام فلا نقع في متاهات الضلالة ولا نرتكب مثل هذه الأخطاء الفاحشة وذلك بتمسكنا بتعاليمهم وما ورد عنهم، وكل من يلتزم بحديث النبي الأكرمﷺ ويتمسك بالقرآن والعترة، فإنّه لا يضل ولا يزيغ عن الصراط المستقيم[2].

وخلاصة الكلام أنّ المقصود من القسم في سورة النجم، إثبات النبوّة.

القرآن الكريم:

وأمّا القسم في سورة الواقعة فهو لغرض إثبات حقانية القرآن الكريم، حسب مضمون الآية: «قسماً بمواقع النجوم، أنّ الكتاب السماوي للمسلمين، وهو القرآن الكريم، لا يمسّه إلّا المطهّرون».

تفسير ﴿لايمسّه إلّا المطهرون﴾:

وذكر المفسّرون تفسيرين لهذه الآية الشريفة:

أ) يجب على من يريد مسّ كتابة القرآن الوضوء أو الغسل، فمن هنا فإنّ

---

١. صحيح البخاري، ج ١، ص ٦٥، باب كتابة العلم، ح ٥٥.

٢. بحار الأنوار، ج ٣٦، ص ٣٣١.

المسلمين يجب أن يلتزموا جانب الحيطة في تعاملهم مع الآيات القرآنية في الكتب والصحف والمجلات والأماكن الأخرى ولا يمسّوها بدون وضوء.

سؤال: مع الأخذ بنظر الاعتبار هذا التفسير المذكور، أليس من الأفضل عدم كتابة الآيات القرآنية والأسماء المقدّسة في الصحف والمجلات التي يتداولها الناس بشكل واسع وبدون وضوء ويأخذونها بأيديهم بدون وضوء، كيما تحفظ حرمة هذه الآيات الكريمة؟

الجواب: إنّ هذا النوع من التفكير بعيد عن الصواب ويفضي إلى نسيان آيات القرآن والأسامي المقدّسة، فلابدّ من كتابة الآيات القرآنية في الصحف والمجلات والكتب، ومن جهة أخرى ينبغي أن يعتاد الناس على عدم لمسها بدون وضوء، وإذا انتهوا من مطالعتها فبإمكانهم قص الأوراق التي تحتوي على الآيات القرآنية والأسامي المقدّسة ودفنها في مكان خاص أو إلقائها في النهر، أو جمعها وتسليمها لمراكز صناعة الورق وتبديلها إلى الورق المقوى وأمثال ذلك، وهذه المسألة كانت متداولة أيضاً في عصر المعصومين عليهم السلام، لأنّ النقود المتداولة في ذلك الزمان كانت تحتوي على جملة «لا إله إلّا الله» في الجانب منها، وفي الجانب الآخر كتب «محمّد رسول الله»، ولم يعترض على ذلك أي واحد من الأئمّة عليهم السلام.

ب) المقصود منها أنّ الحقائق السامية والمعاني الكامنة في مضمون الآيات القرآنية لا يصل إليها ولا يدركها إلّا الأشخاص الذين يعيشون الطهارة في أرواحهم والتقوى في قلوبهم والنقاء في نفوسهم، فالأشخاص الذين لم يطهروا أنفسهم من أدران الشهوات والذنوب ولم يتحركوا على مستوى تصفية باطنهم وتطهير قلوبهم ليس لهم نصيب من فهم حقائق القرآن ومضامين آياته الشريفة، وهذا التفسير ورد أيضاً في الآية ٢ من سورة البقرة حيث تقول:

﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾. فالقرآن الكريم يهدي جميع الناس

بالهداية العامة، ولكن بالنسبة للأشخاص الذين سلكوا في مدارج التقوى فإنّ القرآن يتضمن هداية خاصّة لهؤلاء المتقين، هؤلاء الذين أضاء نور التوحيد زوايا قلوبهم وخفايا باطنهم.

التدبر في آيات القرآن ومعطياته الكثيرة:

وورد في الحديث النبوي الذي يختزن معانيَ عميقة ومفاهيم دقيقة في (كنز العمال) أنّ رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل:

«إِنْ أَرَدْتَ عَيْشَ السُّعَداءِ، وَمِيتَةَ الشُّهَداءِ، وَالنَّجاةَ يَوْمَ الْحَسْرَةِ، وَالْأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ، وَالنُّورَ يَوْمَ الظُّلُماتِ، وَالظِّلَّ يَوْمَ الْحَرُورِ، وَالرِّيَّ يَوْمَ الْعَطَشِ، وَالْوَزْنَ يَوْمَ الْخِفَّةِ، وَالْهُدىٰ يَوْمَ الضَّلالَةِ، فَادْرُسِ الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ ذِكْرُ الرَّحْمٰنِ، وَحِرْزٌ مِنَ الشَّيْطانِ، وَرُجْحانٌ فِي الْمِيزانِ»[1].

وطبقاً لهذه الرواية فإنّ المباحثة والتفكر والتدبر في آيات القرآن لها ١٢ امتيازاً وثمرة.

❋ ❋ ❋

---

١. كنز العمال، ح ٢٤٣٩.

١٦

قسم سورة الذاريات

وآخر قسم من الأقسام المنفردة، القسم الوارد في الآية ٧ من سورة الذاريات:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾

حُبُك، المعجزة العلمية للقرآن!

إنّ الله تعالى يقسم في هذه الآيات الكريمة بـالسماء وكـونها ذات خـصوصية معينة، ومن هذه الجهة فهذا القسم يعتبر قسماً جديداً، لأنّه بالرغم من أنّ الآيـات السابقة أقسمت بالسماء، ولكن في هذه السورة أقسـمت الآيـة بـ«السـماء ذات الحبك».

«حُبُك» جمع «حِباك» بمعنى التعرج والانكسار، ويتبيّن المقصود من ذلك مـن خلال الأمثلة التالية:

١. عندما يهب نسيم ملائم على المناطق الرملية، فإنّ الرمل فيها يكون متعرجاً بخطوط منظمة وجميلة.

٢. لو وقفنا على ساحل بحر وهبّ نسيم لطيف على سطح البحر، فبسبب هذا

النسيم تتحرك مياه البحر وتغدو بشكل تموجات وتعرجات منظمة وجميلة.

٣. الأشخاص الذين يملكون شَعراً طويلاً وعلى شكل متعرج وذو انحناءات جميلة وتعرجات لطيفة، ونفهم من كل ذلك أنّ «حبك» بمعنى التعرجات والالتواءات في الشيء».

وبعد أن تبيّن معنى الحبك، نأتي إلى بيان المعجزة العلمية للقرآن في هذه الآية الشريفة، وبداية ينبغي لفهم المقصود من الآية من طرح رأي عوام الناس ثم علماء الهيئة والفلك في عصر نزول القرآن فيما يتصل بالسماء.

كان الناس في عصر رسول الله ﷺ يعتقدون بأن السماء كالقبة المستديرة التي لا تبعد عنّا سوى عدّة كيلومترات، وأنّ النجوم بمثابة الأقراص الفضية المثبتة في سقف السماء، وأنّ حجم القمر والشمس بمقدار صحن الطعام لا أكثر، وهما أيضاً ملتصقان بسقف السماء، أضف إلى ذلك أنّ كلاً من النجوم والقمر والشمس لا تتحرك حركة مستقلة وذاتية، بل إنّها تتحرك وفقاً لحركة السماء.

وأمّا علماء ذلك الزمان فكلهم كانوا يعتقدون بنظرية بطليموس. النظرية التي كانت سائدة في جميع الأوساط العلمية والفلكية في العالم إلى ما قبل أربعمائة عام وقد تمّ إثبات بطلانها بواسطة غاليلو، وطبقاً لهذه النظرية فإنّ المسافة بين الأرض والنجوم لا تتجاوز عدّة مئات كيلومترات «أي ثانية ضوئية واحدة»، وأنّ السماء تتشكل من كرات زجاجية على شكل طبقات كما في طبقات البصل، وهي: ناهيد، عطارد، بلوتون، الزهرة وسائر الكرات الأخرى، وكل واحدة منها تحيط بالأخرى كما في قشرة البصل، وأمّا النجوم فهي متناثرة بين اطباقها، وطبعاً مع هذا الفارق وهو أنّ هذه الكرات تتحرك حركة مستقلة وتدور في مداراتها.

ولكنّ مكتشفات العلوم الحديثة عن السماء والنجوم ففي غاية العجب، وقد اضطر علماء عصرنا لتعيين المسافة بين النجوم إلى إبداع مقياس يختلف عن

مقاييسنا الأرضية، وذلك أنّهم قرروا اتخاذ سرعة الضـوء لتـعين مسـافة الأجـرام السماوية، ويتحرك الضوء بسرعة ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية، بمعنى أنّه في هذه المدّة القصيرة يدور حول الأرض سبعة مرات، وفي الدقيقة الواحدة يقطع ١٨ مليون كيلومتر، وفي الساعة الواحدة مليار وثمانين مليون كيلومتراً، وفي اليـوم الواحـد ٢٥/٩٢٠/٠٠٠/٠٠٠ كيلومتراً، وفي السـنة الواحـدة ٩/٤٥٩/٨٠٠/٠٠٠/٠٠٠ كيلومتراً، ومع هذا المقياس الجديد فالمسافة التي تفصل بيننا وبين بعض النـجوم تبلغ مليون سنة ضوئية! أي أنّ الضوء المنبعث منها يستغرق مليون سنة حتى يصلنا، وربّما يصلنا ضوؤها وتكون قد انثرت وتلاشت قبل ذلك بآلاف السنين.

إنّ علماء الفلك والنجوم ذكروا في تحقيقاتهم أنّ بعض النجوم يصلنا ضـوؤها على بعد مليار سنة ضوئية، والحقيقة أنّ هذه الأعداد والأرقام مـذهلة، والمـلفت للنظر أنّ هذه الحقائق هي ما توصل إليها العلم المعاصر وربّما يتوصل إلى حقائق أعجب من ذلك من خلال تقدم العلوم وتطور الأجهزة والتقنية.

ومع الالتفات إلى ما ذكر نتوجه الآن إلى القرآن الكريم، فالقرآن نزل في محيط الجزيرة العربية، وفي أجواء ثقافية مختلفة حيث كان النـاس يـتصورون حـينذاك تصورات غارقة في الخيال عن السماوات والنجوم، وكذلك علماء ذلك العصر، بينما يقول القرآن الكريم عن خلق السماوات والأرض:

﴿لَخَلْقُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وبالنسبة للآية مورد البحث، والتي نعتقد بأنّها من المـعجزات العـلمية للـقرآن الكريم، فعلماء النجوم رصدوا بالمراصد القوية جدّاً، والتي يبلغ قطر عدستها عدّة أمتار، والموضوعة في أماكن مرتفعة من سطح الكـرة الأرضـية، رصـدوا نـجوماً

١. سورة غافر، الآية ٥٧.

ومجرات كثيرة جدّاً (المجرة هي مجموعة من النجوم التي تشكل حلقة كاملة في دورانها وكل واحد منها يحتوي على ملايين النجوم، ومجرتنا، أي مجرّة درب التبانة، تحتوي على مائتي مليار نجمة) فعندما نرى هذه التصاوير الرهيبة من المجرات في آفاق السماء نتذكر قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ لأنّ التعرجات والتموجات في هذه المجرات جلية وواضحة تماماً.

والعجيب أنّ نجوم هذه المجرات تأخذ أشكالاً متعرجة جميلة وخلّابة، وهذه من معجزات القرآن العلمية التي ذكرها القرآن قبل ١٤٠٠ سنة واتضح معناها في هذا العصر.

لماذا القسم بالسماء؟

وقد تبيّن من البحوث السابقة أهميّة القسم بالسماء ذات التموجات والتعرجات، والآن لابدّ من معرفة الغرض من هذا القسم المهم ومعرفة المقسم له.

وتتحرك الآية الشريفة التالية لتجيب عن هذا التساؤل وتقول: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾.

أي قسماً بالسماء ذات الحبك والتعاريج أنّ المخالفين للنبي والمنكرين للقرآن والمعاد واقعون في تناقضات كثيرة، وهذا التناقض في كلامهم دليل على بطلان مقولتهم، فعندما يحقق القاضي أو المحقق في المحكمة مع المتهم في جلسات متعددة وبأوقات مختلفة، فيقوم بتدوين ما قاله المتهم في هذه الجلسات ثم يقارن بينها ويلتفت إلى وجود بعض التناقضات في كلماته، ويفهم من ذلك أنّ المتهم يكذب، لأنّ الكاذب لا يملك حافظة قوية.

وهكذا حال المشركين وعبدة الأصنام أيضاً، ففي يوم يقولون عن النبي إنّه مجنون، وفي يوم آخر يزعمون أنّه شاعر، وفي يوم ثالث يدعون أنّه ساحر، وأخيراً

قالوا إنّ هذا القرآن حصيلة فكر بشري وقد أخذه النبي واقتبسه من فلان شخص، فهذا التناقض في كلامهم يدلّ على بطلانه، لأنّ المجنون لا يمكن أن يكون شاعراً أو ساحراً، لأنّ الشعر أو السحر يحتاج إلى قابلية وذكاء حاد وفطنة.

إنّ المشركين وقعوا في تناقضات كثيرة في موقفهم تجاه القرآن الكريم، فأحياناً قالوا إنّه سحر، وأخرى إنّه كهانة، وثالثة زعموا أنّه أساطير الأولين. وعندما قيل لهم: إذا كنتم تدعون أنّ هذا القرآن من صنع البشر ومن نتاج الذهن البشري، فأتوا بسورة من مثله، ولكنّهم لم يستطيعوا لذلك سبيلاً ولن يقدروا على ذلك، حتى ولو اتحدوا واتفقوا فيما بينهم، واستخدموا جميع الوسائل والإمكانات المتوفرة لديهم، والخلاصة أنّ تناقض الكفّار والمشركين دليل حاسم على بطلان كلامهم وادعاءاتهم.

العناد والتعصّب:

وتستعرض الآية اللاحقة ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ ظاهرتين سلبيتين ورذيلتين أخلاقيتين عند البشر في واقع الحياة والسلوك العملي، أي صفة العناد والتعصب، فالأشخاص الذين يتحركون في سيرتهم العملية من موقع العناد والتعصب فإنّهم يبتعدون عن طريق الحق وينحرفون عن الصراط المستقيم ولا يجدون في أنفسهم ميلاً لسماع كلمة الحق أو قبول الحق، فلو أنّ ١٢٤ ألف نبي بأجمعهم جاءوا إلى قوم مبتلون بالعناد والتعصب وكان مع كل نبي معجزة إلهيّة، لما قَبِل هؤلاء القوم دعوتهم بل اتهموهم بالسحر والجنون، ولكن إذا كانوا من أهل المنطق ولم يكونوا ملوثين بهاتين الرذيلتين، فإنّهم سيذعنون للحق في أول خطوة ويستسلمون للحقيقة في أول دعوة.

ويشير الله تعالى في الآيات ٩٠ إلى ٩٣ من سورة الاسراء إلى جماعة من المعاندين في عصر رسول الله ﷺ والذين اشترطوا على النبي الأكرم ﷺ أن يأتيهم

بمعاجز غير معقولة حتى يؤمنوا به، وطبقاً لهذه الآيات فإنّ هؤلاء طلبوا منه سبعة أنواع من المعجزة وهي:

١. أننا لا نؤمن لك إلّا أن تفجر لنا في هذه الصحراء القاحلة عيناً فوارة من الماء الزلال: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعاً﴾.

٢. وقال بعضهم: نحن لا نؤمن لك إلّا بأن يكون لك بستان زاخر بأشجار العنب والنخيل وتجري فيه أنهار الماء: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً﴾.

٣. وقالت طائفة ثالثة: نحن لا نؤمن لك إلّا بأن تنزل علينا من السماء أحجاراً على رؤوسنا: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً﴾.

الحقيقة أنّ الإنسان قد يصل به الجهل إلى درجة أنّه يطلب مثل هذه المعجزة، لأنّه في صورة تحقق هذه المعجزة فسوف لا يكونوا أحياء حتى يؤمنوا بها بعد ذلك، ولكن حجاب العناد وحالة التمرد أسدلت الستار على عقولهم ومنعتهم عن فهم هذه الأمور الساذجة والبسيطة.

٤. وقال آخرون: نحن لا نؤمن لك حتى نرى الله والملائكة أمام أعيننا!: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً﴾.

٥. المطلب الخامس لهؤلاء أنّهم قالوا إنّ النبي ﷺ يجب أن يملك بيتاً مجللاً ومزخرفاً بالذهب!: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾.

٦. المعجزة الأخرى التي طلبوها من النبي ﷺ أنّ النبي يجب أن يرقى في السماء ويحلق في آفاقها!: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾.

٧. وأخيراً وصلوا إلى ذروة العناد واللجاجة وقالوا حتى لو حلقت في أجواء السماء فنحن لا نؤمن لك إلّا بأن تأتينا بكتاب من الله: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ

تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ».

فمثل هؤلاء المعاندين لا يحتمل في حقّهم الايمان والاذعان للحق حتى لو تحققت جميع مطالبهم وجاءهم النبي بالمعجزات التي طلبوها منه، لأنّهم لم يطلبوا الحق ولم ينهجوا في طلب الحقيقة، ولو أنّهم كانوا واقعاً يريدون معرفة الحقيقة، فإنّ وجود القرآن الذي لم يستطع أي إنسان الإتيان بمثله ولا بسورة من سوره، كافٍ في المقام.

نسأل الله تعالى أن يبعد عنّا حالات العناد والتعصّب واللجاجة، ولا يجعل ذرة من التعصّب في قلوبنا وأذهاننا واعتقاداتنا، وبعد أن يخرج الإنسان من أجواء العناد والتعصب، فإنّه ينفتح على أجواء الحق والرسالة ويجد في قلبه وروحه ميلاً للسير والحركة في خط الفضيلة والايمان والمسؤولية.



***


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفهرس

الفصل الأوّل: الأقسام الأحد عشر / ٣٩

الفصل الثاني: الأقسام الخمسة / ٩٥

الفصل الثالث: الأقسام الرباعية / ١٧٥

الفصل الرابع: الأقسام الثلاثية / ٢٣٧

الفصل السادس: الأقسام الأحاديّة / ٤٤١